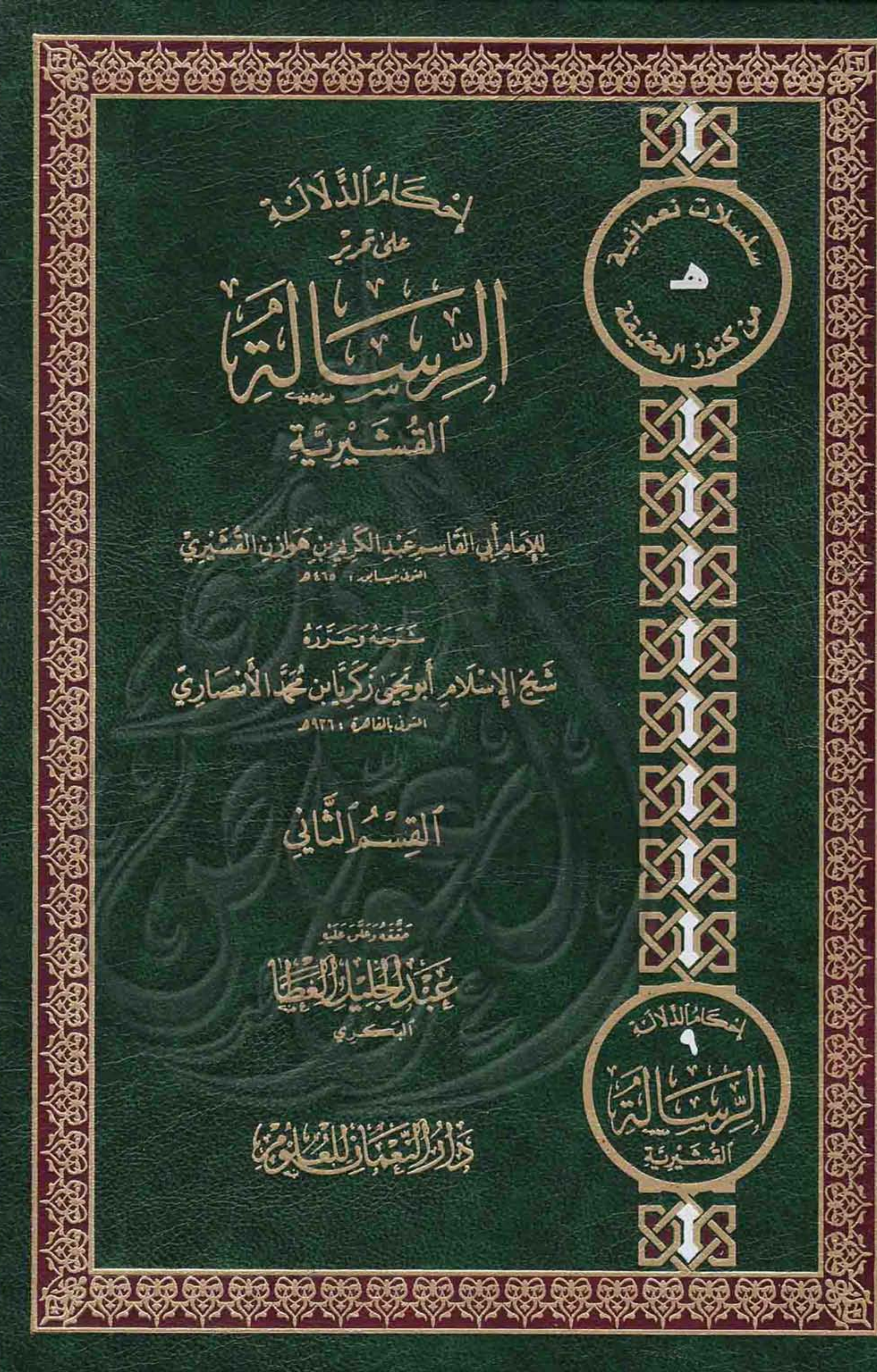


سلسلات نعمانية
هـ
من كنوز الحقيقة
إحكام الدلالة
على تحرير
الرسالة
القشيرية
للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري
المتوفى بنيسابور ٤٦٥ هـ
شرحه وحرره
شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا بن محمد الأنصاري
المتوفى بالقاهرة ٩٢٦ هـ
القسم الثاني
حققه وعلق عليه
عبد الجليل العطا
البكري
دار النعمان للعلوم
إحكام الدلالة
٩
الرسالة
القشيرية



إحكام الدلالة

على تحرير

الرسالة القشيرية

للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري

المتوفى بنيسابور : ٤٦٥ هـ

شرحه وحرره

شيخ الإسلام قاضي القضاة أبو يحيى زكريا بن محمد الأنصاري

المتوفى بالقاهرة : ٩٢٦ هـ

المجلد الثاني

حققه وعلق عليه

عبد الجليل العطا البكري

دار النعمان للعلوم

٢٠ ـ باب الصبر

تعريفه : هو حبس النفس على كريهٍ يتحمَّلُه ؛ أو لذيذ يفارقه .

رتبته : وهو ممدوح ومطلوب .

الصبر في القرآن : قال الله عزَّ وجل ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[١] ، وقال ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾[٢] ، وقال ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[٣] .

الصبر في السنَّة المطهَّرة : وأخبرنا عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أحمد ابن عبيد البصري ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن أحمد بن علي الخرَّاز ؛ قال : حدَّثنا أسيد بن زيد ؛ قال : حدَّثنا مسعود بن سعد ؛ عن الزيَّات ؛ عن أبي هريرة ؛ عن عائشة رضي الله عنها رفعته إلى النَّبيِّ ﷺ : قال ﷺ : « إِنَّ ٱلصَّبْرَ عِنْدَ ٱلصَّدْمَةِ ٱلأُوْلَىٰ »[٤] .

وأخبرنا عليُّ بن أحمدَ رحمه الله ؛ قال أخبرنا أحمد بن عُبيد ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن عمر ؛ قال : حدَّثنا محمد بن مرداس ؛ قال ؛ حدَّثنا يوسف بن عطية ؛ عن عطاء ابن أبي ميمونة ؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « ٱلصَّبْرُ عِنْدَ ٱلصَّدْمَةِ ٱلأُوْلَىٰ » .

أقسام الصبر : ثُمَّ الصبر أوَّلاً . . وبالذات على قسمين ، وثانياً . . وبالعَرَض على ثلاثة أقسام :

١ ـ الصبر على المكتسَب : صبرٌ على ما هو كسبٌ للعبد ، وصبر على ما ليس بكسب له .

فالصبرُ على الشيء المكتَسب له على قسمين : ١ ـ صبرٌ على ما أَمَر اللهُ

---

(١) الآية : ١٢٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .

(٢) الآية : ٢٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : السجدة .

(٣) الآية : ١٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : لقمان .

(٤) أخرجه البخاري ١٣٠٢ ، ٧١٥٤ ، مسلم : ١٤ ـ ٩٢٦ ، وأحمد : ٣/ ١٣٠ وغيرهم .

تعالىٰ به ؛ من واجب ومندوب . و٢ـ صبرٌ علىٰ ما نهىٰ عنه من حرام ومكروه .

٢ـ الصبر على غير المكتسب : وأمَّا الصبرُ علىٰ ما ليس بمكتَسَب للعبد !! فصبرُه علىٰ مقاساة ما يتَّصل به من حُكْمِ اللهِ تعالىٰ عليه ؛ فيما له فيه مشقَّة من الآلام والأسقام في نفسه وولده وخادمه ونحوها .

من حقائق الأشياء : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت الحسين بن يحيى ؛ يقول : سمعت جعفر بن محمد ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول :

المسيرُ من الدُّنيا إلىٰ الآخرة سهلٌ هيِّنٌ على المؤمن ؛ وإن كانت فيه صعوبةٌ ما ؛ من حيث فراقُ محبوبهِ من ولده ونحو ذلك ، لكمال الجزاء ، لأنَّه تعالى وَعَد به لمن تَرَكَ شهواتِ الدنيا ، كما قال تعالىٰ ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(١) فهو سهلٌ هيِّن بالنسبة لما يأتي .

وهجرانُ الخلق في جَنْب اللهِ تعالىٰ : طاعِته شديدٌ ، لمخالفته هوى النفس من حظوظها ؛ أو راحتها الدنيوية .

والمسيرُ من النفس ؛ بعدم الالتفات لهواها **إلى الله ـ تعالى ـ** بالعمل لمحض أمره **صعبٌ شديدٌ** ؛ للمخالفة المذكورة .

والصبرُ مع الله حتَّى لا يرجع الصابر إلىٰ الالتفات لما ذُكِر **أشدُّ مما ذكر** .

الجنيد والصبر : وسئل الجنيد عن الصبر ؛ فقال : **هو تجرُّع المرارة والمشاقِّ من غير ظهورِ تعبيس** ، بخلاف التصبُّر . فالمتصبِّرُ يتحمَّلُ المشاقَّ وتظهر عليه ، وإنَّما يمنعه من التسخُّط ؛ وتركِ ما هوَ فيه خوفُ الله والنار ، بخلاف الصَّابر ، فإنَّه قد زال عنه المشاقُّ وتعوَّد حملَها ؛ فلم يبقَ عليه في تَحمُّل ذلك مشقَّة .

رتبة الإيمان : وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه : **الصَّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد** . من حيث إنَّه إذا أزيل عنه هلك ، أو أنَّ أكثرَ منافِع العبد في رأسه ، فمتى حصل الصبر للعبدِ حصلت له جميعُ منافعه الدينية والدُّنيوية ، ومتى فُقِد . . هلك دينه ؛ فلم يقم بشيء منه .

العبادة والعبودية : وقال أبو القاسم الحكيم : **قوله تعالى ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أمرٌ منه**

---

(١) الآية : ٤١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النازعات .

بالعبادة ؛ يعني : بالصبر . وقوله ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[1] عبودية : تذلُّل وافتقار من العبد لمولاه في جميع ما هو فيه ، وإعلامٌ له بأنه لا يقدر على القيام بالصَّبر ، بل يستعين بربِّه فيه . فمن ترقَّىٰ من درجة « لك » ؛ في نحو (أصبرُ ، أو : أصلِّي لك) إلى درجة « بك » في نحو (أصبرُ ، و : أصلي بك) . . . فقد انتقل من درجة العبادة إلى درجة العبودية ، قال ﷺ : « بِكَ أَحْيَا وَبِكَ أَمُوتُ ، وَبِكَ أُجَادِلُ ، وَبِكَ أُقَاتِلُ »[2] .

الصبر والداراني : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقولِ : سمعتُ أبا جعفر الرازي ؛ يقول : سمعت عيَّاشاً ؛ يقول : سمعتُ أحمد ؛ يقول : سألت أبا سليمان عن الصبر ؟ فقال : واللهِ ؛ ما نصبرُ على ما نحبُّ ، لأنَّا لو كُلِّفنَا الدوامَ على أكل أفخرِ الأطعمة وألذِّها ؛ لنفرنا من ذلك وتألَّمنا ، فكيف نصبرُ على ما نكره مما يخالف هوى النفس ، فلا نقدر على الصبر عليه إلاّ بعونِ الذي أمَرَنا به .

الصبر عند ذي النون : وقال ذو النونالمصريُّ الصبرُ : التباعدُ عن المخالفات للأوامر ، والسّكون عند تَجَرُّع غُصَص البليَّة ـ وفي نسخة : البليات ـ بنزول الآلام والأسقام وذهاب الولد ونحوه ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة ، هذا حال مَن تمكَّن في صبره .

الصبر وابن عطاء : وقال ابن عطاء : الصبرُ الوقوفُ مع البلاء بحسن الأدب ؛ بأن لا يجزع الصابرُ ، ولا يتسخَّطَ ؛ وإن بلغ أعلىٰ مقامات الصبر نال مقام الرضا .

وقيل هو ـ : الصبر ـ : الفناء في البلوىٰ بلا ظهور شكوى . هذا قريب من كلام الجنيد السابق ، ويمتاز عنه بما دَلَّ عليه الفناء من شدَّة البلاء .

شأن الصبَّار : وقال أبو عثمان : الصبّار هو الذي عَوَّد نفسه الهجومَ على المكاره ، بخلاف المتصبِّر والصابر ، فالمتصبِّرُ يتكلَّف حمل ما أصابه ، ويقاسي مشقَّته ، والصابرُ يحمل ذلك بدون مشقَّة ؛ وإن وجد ألماً ، والصبَّار كذلك مع زيادة في الصبر ، لأنَّه للمبالغةِ في دَرَجات الصبر ، فهو يهجم على كلِّ مكروه مُشِقٍّ بلا كُلْفة ، ويجد اللذَّة فيه ؛ فضلاً عن المرارة والمشقَّة .

---

(١) الآية : ١٢٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٧٣ .

من معاني الصبر: وقيل : **الصبرُ هو المقام : القيام مع البلاء بحسن الصُّحبة ؛ كالمقام** : كالإقامة مع العافية ، بأن يساوي حالُه في البلاءِ حالَه في العافية .

أحسن الجزاء : وقال أبو عثمان : **أحسن الجزاء على عبادةٍ من العبادات الجزاءُ على الصبر ، ولا جزاءَ فوقه ،** قال الله سبحانه ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] ، لأنَّ مَن عمل حسنةً جُوزي بعشر ، بل بسبع مئة للحديث[2] المشهور فيه ، بل يجازىٰ بغير حساب ، قال تعالىٰ ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[3] .

وقال عمرو بن عثمان : **الصبرُ هو الثبات مع الله تعالى وتلقِّي بلائه بالرحب والدَّعة** : السكون . وقال الخوّاص : **الصبرُ هو الثبات على أحكام الكتاب والسنَّة** ، سواء كان في البلايا ؛ أم في غيرها .

صبر المحبِّين : وقال يحيى بن معاذ : **صبرُ المحبِّين أشدُّ من صبر الزَّاهدين ، واعجباً كيف يصبرون !!!** ـ أي : المحبون ـ وأنشد[4] في ذلك :

اَلصَّبْرُ يُحْمَدُ في ٱلمَوَاطِنِ كُلِّهَا
إلاَّ عَلَيْكَ ـ بمعنى : عنك ـ **فإِنَّهُ لاَ يُحْمَدُ** .

لأنَّ الصبر يكون لله ، وبالله ، وعلى الله ، وكلٌّ منهما محمودٌ .

ويكون عن الله ؛ وهو مذموم ، لدلالته على قلَّة الرغبة في القُرْب منه ،

---

(١) الآية : ٩٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .

(٢) يشير إلىٰ ما روىٰ أبو سعيد الخدري : « إذا أَسْلَمَ ٱلعَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلامُهُ . . . وفيه . . . الْحَسَنَةُ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا إِلىٰ سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ . . . » أخرجه البخاري معلقاً : ٤١ ، وأتمَّه النسائي : ٥٠١٣ ، وابن ماجه : ١٦٣٨ ، ٣٨٢٣ وهو حديث قدسي .
ورواه أبو هريرة أيضاً « إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلامَهُ . . . » البخاري : ٤٢ ، ومسلم : ٢٠٥ ـ ١٢٩ وغيرهما .
ويدل له الآية الكريمة ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾ [٢٦١/ البقرة] .

(٣) الآية : ١٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الزمر .

(٤) الصَّبْـرُ يُحْمَـدُ فِـي ٱلمَـوَاطِـنِ كُلِّهَـا ... إلاَّ عَلَيْـكَ فَـإِنَّـهُ لاَ يُحْمَـدُ
والبيت من الكامل . وسيأتي بمعناه بيت آخر ص٥٧٥ : (والصبر عنك فمذموم . . . .) .

وامتثال أوامره وتجنُّب نواهيه ، فهو بعيدٌ عن الله .

وصبر المحبِّين عن الله محالٌ ، لأنَّه ينافي المحبَّة ، فهو أشقُّ عليهم ؛ إن جرىٰ به القدر ، فإنَّه يُهْلِكُهم لما هم فيه من تحمُّل الضرر .

من علامات الصبر **وقال رُوَيم : الصَّبرُ ترك الشكوى لله ولغيره** ، هذا من علامات الصبر ، لا نفسه .

مقامات الصبر : وقيل : الصبر ثلاث مقامات أوَّلها : تركُ الشكوى ؛ وهي للتائبين ، والثانيةُ : الرِّضا بالمقدور ؛ وهي للزاهدين ، والثالثة : المحبَّة لما يصنع المولىٰ ، وهي للصدِّيقين .

بين صابرَيْن : **وقال ذو النون المصريُّ : الصبرُ على الاستعانة بالله تعالىٰ عليه** .

والصابر قسمان : ١ـ صابرٌ متحمِّلٌ لرجاء الثواب ، و٢ـ صابرٌ متبرِّىءٌ من حوله وقوَّته مستغنٍ بالله ، وبينهما بون .

حقيقته : **سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : الصبرُ كاسمه في المرارة والمشقَّة ، وشَّدةِ المعاناة في التداوي به .**

مبلغ الصبر : أنشدنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ قال : أنشدني أبو بكر الرَّازيّ ؛ قال : أنشدني ابنُ عطاءٍ لنفسه[1] :

سَأَصْبِرُ كَيْ تَرْضىٰ يارب وَأَتْلَفُ حَسْرَةً وَحَسْبِيَ أَنْ تَرْضَىٰ وَيُتْلِفَنِي صَبْرِي

توضيح : أي : مقصودي رضاك ؛ وإن كان فيه تلفي ممَّا أقاسيه ، ويكفيني رضاك ؛ وإن كان صبري عنك يُتْلِفني ، لأنَّ العبد قد يؤدّبه مولاه ، ويزيله عن مقامه الذي قرَّبه إليه ، ويبعده عنه ؛ لما اختاره له وارتضاه ، فإذا كان العبدُ متأدِّباً في صبره مع مولاه . . جرى على قلبه ما اختارَه له من تلَفه إذا كان فيه رضاه .

أقسام الصابرين : **وقال أبو عبد الله ابن خفيف : الصبرُ** ؛ يعني مَن قام به الصبر علىٰ ثلاثة أقسام : ١ـ مُتَصَبِّرٌ ، و٢ـ صابرٌ ، و٣ـ صبَّار . تقدَّم الكلام عليها ص ٥٧٠ .

خير المطايا : **وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه : الصبرُ مطيَّةٌ لا تكبو** ، لخبر :

---

(١) سَأَصْبِرُ كَيْ تَرْضَىٰ وَأَتْلَفُ حَسْرَةً وَحَسْبِيَ أَنْ تَرْضَىٰ ويُتْلِفَنِي صَبْرِي

« مَنْ تَأَنَّىٰ أَصَابَ . . أَوْ كَادَ »[1] . ولا يمكنُه التأنِّي وتركُ العَجلة إلاَّ بالصبر ، فمن جعل الصبر مطيَّته استقامَ في سَيْره ، ويَعُد خَطْوه في علمه وعمله .

أشدُّ الصبر : سمعت محمَّد بن الحسين ؛ يقول : سمعت عليَّ بن عبد الله البصريَّ ؛ يقول :

وقفَ رجل على الشِّبْليِّ ؛ فقال : أيُّ صبرٍ أشدُّ على الصابرين ؟ فقال :

١ـ الصبر في الله تعالىٰ ؛ وهو : الصبرُ على تغيير الأخلاق المذمومة ، والاتِّصافُ بالمحمودة ، والاشتغالُ بأنواعِ الطاعات . فقال : لا .

قال : ٢ـ الصبرُ لله ؛ وهو : الصبرُ على ذلك مع التبرِّي من الحول والقوَّة . قال : لا .

قال : ٣ـ الصبر مع الله ؟! وهو : الصبرُ علىٰ ما يرِدُ على القلب من الله ، وهو متأدِّبٌ معه في حمل ما يَرِدُ منه ؛ راضٍ بذلك . قال : لا .

قال : فأيشٍ الصبرُ الأشدُّ !!؟

قال : الصبرُ عن الله ؛ وهو : أن يبعدَ الله العبد عنه بعد تقريبه إليه . فيلازم الباب ويتمرَّغ في التراب . فصرخ الشبليُّ صرخة كادت روحه أن تتلف ؛ لأنَّ قلبه لم يحمل البعد ؛ ولا سماع ذكره . فهذا الصبرُ مذمومٌ كما سيأتي .

الصبر عند الجريري : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان ؛ يقول : سمعت أبا محمد الجُرَيري ؛ يقول : الصبرُ أن لا يفرِّق بين حال النعمة وحال المحنة ؛ مع سكون الخاطر فيهما ؛ بالِنظر لاختيار الله لك ، لأنَّك لا تدري أيّ الحالين أصلحُ لك في دينك ؛ وهو أعلم بما يصلحك .

التصبُّر والمحن : والتصبُّر هو السكونُ مع البلاء مع وجدان أثقالِ المِحنة وتكلُّفها ، بخلاف الصبر ، فإنَّه لا وجدان لذلك فيه ؛ وإن وجد فيه ألم كما مَرَّ .

كاتم حبِّه : وأنشد بعضهم ما يدلُّ على زيادة كتم الصبر ؛ وهو[2] :

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير : ١٧/٨٥٨ ، والقضاعي : ٣٦٢ ، والعسكري ، وصححه السيوطي ؛ عن عقبة بن عامر مرفوعاً .

(٢) صَبَرْتُ وَلَمْ أُطْلِعْ هَوَاكَ عَلىٰ صَبْرِي ... وَأَخْفَيْتُ مَا بِيْ مِنْكَ عَنْ مَوْضِعِ ٱلصَّبْرِ
مَخَافَةَ أَنْ يَشْكُو ضَمِيْرِي صُبَابَتِي ... إِلَىٰ دَمْعَتِي سِرّاً فَتَجْرِي وَلَا أَدْرِي

صَبَرْتُ ـ على حُبِّك يا الله ـ وَلَمْ أُطْلِعْ هَوَاكَ ؛ : حبَّك عَلَى صَبْرِي
وَأَخْفَيْتُ مَا بِي مِنْكَ من الهوى عَنْ مَوْضِعِ الصَّبْرِ
مَخَافَةَ أَنْ يَشْكُو ضَمِيرِي صُبَابَتِي : ما أجده من حبِّك ، وما أقاسيه من صبري في ذلك
إلىٰ دَمْعَتِي سِرّاً فَتَجْرِي وَلاَ أَدْرِي بها .

جزاء الصبر : سمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **فاز الصابرون بعزِّ الدارين** ؛ دارِ الدُّنيا ، ودارِ الآخرة ، **لأنَّهم نالوا من الله معيَّته ، قال الله تعالى** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1] ، لا بالزمان ؛ ولا بالمكان ، بل بالعلم والإحاطة مع الكلِّ ، وبالحفظ مع الأولياء ، وبالنَّصْر والمعونة مع الأنبياء .

الصبر والمصابرة : وقيل . . **في معنى قوله تعالى** ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾[2] : الصبرُ دونَ المصابرة ، والمصابرة دون المرابطة : اصبروا على الطاعات ، وصابروا مع نبيكم في جهادِ عدوِّكم ، ورابطوا الخيلَ واحبسوها للجهاد . .

معنىٰ آخر : وقيل في معناه : **اصبروا بنفوسكم على طاعة الله تعالىٰ ، وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله ، ورابطوا بأسراركم على الشوق إلىٰ الله** .

معنىٰ ثالث : وقيل في معناه : **اصبروا في الله** : في طاعته ، **وصابروا بالله** : بعونه ، **ورابطوا مع الله** : بالأدب معه ودوامِ تعظيمهِ .

خُلُق الله : وقيل : **أوحىٰ الله تعالى إلى داود عليه السلام** : ﴿ **تَخَلَّقْ بأخْلاقِي ، وَإِنَّ مِنْ أَخْلاَقِي أَنِّي أَنَا الصَّبُورُ** ﴾ . أمره أن يبالغ في الصبر ، لأن «صبوراً» للمبالغة .

حياة الصابر وموته : وقيل : **تجرَّع الصبر ، فإن قتَلك قتلك شهيداً** . لكونك مجاهداً في طاعة الله ، **وإن أحياك أحياك عزيزاً** ، لتحمُّلك الأذىٰ .

الصبر والحقُّ تعالىٰ : وقيل : **الصبر لله عَنَاءٌ** : مشقَّة وكُلْفة ، **والصبر بالله بقاءٌ** : عونٌ منه ، **والصبر في الله بلاء** : اختبار وامتحان بما ينزل من القضاء ، **والصبرُ مع الله وَفَاءٌ** لما امتحن به ، **والصبرُ عن الله جفاءٌ** : بُعدٌ وإعراضٌ عنه . نعوذ

---

(١) الآية : ١٥٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .
(٢) الآية : ٢٢٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

بالله من ذلك .

وأنشدوا في ذلك[1] :

وَٱلصَّبْـرُ عَنْـكَ فَمَـذْمُـومٌ عَـوَاقِبُـهُ   وَالصَّبْرُ في سَائِرِ ٱلأَشْيَاءِ مَحْمُودُ

وأنشدوا[2] أيضاً :

وَكَيْفَ ٱلصَّبْرُ عَمَّنْ حَلَّ مِنيِّ
بِمَنْزِلَةِ ٱليَمِيْنِ مِنَ ٱلشِّمَالِ ؟ بل أعظم

إِذَا لَعِـبَ ٱلـرِّجَـالُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ   رَأَيْـتُ ٱلحُـبَّ يَلْعَـبُ بِـالـرِّجَـالِ

ـ وفي نسخة : تقدم البيت الثاني على الأول ـ .

عنوان الظفر : وقيل : **الصبرُ على الطلب عنوانُ الظَّفر** : علامته ، **والصبرُ في** ـ بمعنى « على » ـ **المحن علامةُ الفرج** . وذلك لأنَّ لكلِّ بلاءٍ أَمَداً ، وإذا مَنَّ الله على العبد بالصبر خَفَّ عليه أمْره ، وخفَّتُه دليلُ الفرج .

متمثل الصبر : سمعت منصور بن خلف المغربيَّ ـ رحمه الله ـ؛ يقول : **جُرِّدَ واحدٌ للسَّياط للضرب بها ، فلما ضُرِب بها ثم رُدَّ إلى السجن ؛ دعا ببعض أصحابه فتَفَل على يده، وألقى من فمه دقاق الفضة على يده !؟ . فَسُئِل عن ذلك ؟ فقال : كان في فمي درهمان ، وكان على حاشية الحلقة التي نحن فيها لي عين تراني كيف أُضرب فيها ، فلم أُرِد أن أصيح لرؤيته** : لرؤية الرائي بها **إيَّايَ ، بل صبرت** وتحمَّلتُ المشقَّة لرؤيته إيايّ ، **فكنتُ أَعضُّ على الدرهمين فتكسَّرَا في فمي** .

توضيح : في ذلك دلالة على أنَّ من استشعر نظر الحقِّ إليه في صبره على ما تحمَّله يشتدُّ صبره ، وهذا الصبر ـ أعني : الصبر لرؤية المُبْلِي ـ فوق الصبر لكثرة الجزاء .

رباط الحال: وقيل : **حالك التي أنت فيها رباطُك** : حفظٌ لك ، وما دون الله تعالى أعداؤك ، فأحسنْ المرابطة في رباط حالك، والمرابطة تجري في كلِّ ملازمة تكون حراسة في سبيل الله ؛ سواء حرست من أنس ، أم جنٍّ أم غيره .

غاية الصبر : وقيل : **المصابرةُ : هي الصبرُ على الصبر ، حتى يُستَغرقَ الصَّبرُ في**

---

(١) من البحر السريع . وانظر ما تقدم ص٥٧١ بمعناه .

(٢) وَكَيْـفَ ٱلصَّبْـرُ عَمَّـنْ حَـلَّ مِنِّـي   بِمَنْـزِلَـةِ ٱليَمِيْـنِ مِـنَ ٱلشِّمَـالِ

الصبر ؛ فيعجزَ الصبر عن الصبر . فغاية الصبر : أن يستغرق العبد جهدَه في الصبر ، ثم يرىٰ صبرَه قليلاً في جنب ما يليق بمولاه في مقام الصبر .

قاهر الصبر : كما قيل[1] :

صابَرَ الصابرُ ٱلصَّبْرَ ، فَٱسْتغَاثَ بِهِ الصَّبْرُ ، وطلب الخلاص منه لعجزه عن مقاومته

فَصَاحَ المُحِبُّ فِي ٱلصَّبْرِ : صَبْرَاً : صاح بصبره : اصبرْ لمحبوبك على ما يريد ، وذلك لاستحلائه مرارة الصَّبْر ، لعلمه بما فيه من الخير ، ولما كان الصبر مُرَّاً مكروهاً ؛ كان حبسُ النفس عليه صبراً على الصبر ، وذلك يستلزم استمرار البلاء .

ورُوي الشطر الثاني : فَنَادَى الصَّبُورُ : يا صَبْرُ صَبْرَاً .

ورُويَ قبل ذلك بيتٌ آخرُ وهو :

إِنَّ صَوتَ ٱلمُحِبِّ مِنْ أَلَمِ الشَّو قِ وَخَوفَ ٱلفِراقِ يُورِثُ ضُرَّا

ابتلاء الشبلي : وقيل[2] : حُبس الشبلي وقتاً في المارستان ، فدخل عليه جماعةٌ ، فقال لهم : من أنتم ؟ فقالوا : أَحِبَّاؤُك ، جاؤوك زائرين . فأخذ يرميهم بالحَجَر ؛ اختباراً لمحبَّتِهم له ، وأخذوا يهربون منه ، فقال لهم: يَا كذَّابون[3] !! لو كنتم أحِبَّائي صادقين لَصَبَرتم عل بلائي ؛ اعتباراً بنفسه فيما هو فيه من بلاء السجن في المارستان ، ونسبتهِ إلى الجنون ؛ وليس بمجنون .

العناية بالصبر : وفي بعض الأخبار : قال الله : ﴿ بعيني أرى ما يتحمَّل المتحمِّلُون من أجلي فأجازيهم عليه ﴾ .

وقال الله تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

جار الله الصابر : وقال بعضُهم : كنت بمكَّة حرسها الله تعالى . . فرأيت فقيراً طاف بالبيتِ وأخرج من جيبه رقعة ؛ ونظر فيها ومرَّ ، فلما كان بالغد فعل مثل ذلك ، فترقَّبْتُه أياماً ؛ وهو يفعل مثل ذلك ، فيوماً من الأيام طاف ونظر في الرقعة ،

---

(١) صَابَرَ ٱلصَّبْرَ فَٱسْتَغَاثَ بِهِ ٱلصَّبْرُ فَصَاحَ ٱلمُحِبُّ فِي ٱلصَّبْرِ صَبْرا

(٢) تأتي ص ٩٠١ بأتمَّ مما هنا ، والمارستان بيت طبِّ الأمراض العقلية والنفسية . ويقال (بيمارستان) .

(٣) ناداهم نداء المفرد العلم ، والأفصح (كذابين) .

وتباعد قليلاً وسقط ميتاً ، لما غَشِيَه من العظمة والهَيْبة ، بتأمُّله ما فيها !

فأخرجتُ الرقعة من جيبه ؛ فإذا فيها ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

جزاء الجافي : وقيل : رئي حَدَثٌ : شابٌّ يلطم وجهَ شيخٍ بنعله !! فقيل له : ألا تستحي ؛ كيف تضربُ حُرَّ وجه شيخٍ بمثل هذا !! ؛ حُرُّ الوجه : ما بدى من الوَجْنَة فقال : جرمُه : ذنبه عظيم فقيل له : وما ذاكَ ؟ فقال : ذلك الشيخُ يدَّعِي أنَّه يهواني : ـ يحبني ـ ومنذُ ثلاثٍ من الأيَّام ما رآني !!

الغَرَضُ من ذلك : أنَّ من يتحَمَّل المحبَّة لا يليقُ به البُعدُ عن محبوبه ؛ وإن كانت الحكاية من أقبح ما يمثل به .

الصبور يعاقب عينه : وقال بعضهم : دخلتُ بلاد الهند ؛ فرأيت رجلاً بِفَرْدِ عين يسمَّىٰ « فلاناً الصبور »؟! فسألت عن حاله ؟ فقيل : هذا في عُنْفُوان شبابه : أوَّلِه سافر صديقٌ له ، فخرج في وَدَاعه فدمعت إحدى عينيه ؛ ولم تبكِ الأُخرى !! فقال لعينه التي لم تَدْمَعِ : لِمَ لمْ تدمعي على فراقِ صاحبي ؟! لأَحْرِمَنَّكِ النَّظَر إلى الدنيا وغَمَّض عينه ، فمنذُ سِتين سَنَةً لم يفتح عينه !!

فيه دلالة على أنَّ العبد إذا أحسَّ من نفسه الفتورَ عن الأسف ؛ والنَّدمَ على ما فاته من الخير . . أدَّبَها بالآداب الجائزة ، فيمنعها بعضَ مشتَهَيَاتِها الناجزةَ ما لم يُخِلَّ ذلك بشيء من أمر دينه ، وغاية هذا الرجل أنَّه أغلقَ عينه ، ومنَعها شهواتِها الناجزة .

الصبر الجميل : وقيل في قوله تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾[1] : الصبر الجميل أن يكون صاحبُ المصيبة في القوم لا يُدرىٰ من هو ! لكمال صبره وتحمُّله؛ بحيث لم يظهر على ظاهره من ألمه شيء ، كما قال بعضُهم : كُنَّا إذا حَضَرنا الجنازة لا ندري منَ نُعَزِّي .

الصبر والشكر : وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو كان الصبرُ والشُّكْر بعيرين لم أُبالِ أيَّهما ركبتُ ! ؛ لأنَّ كلَّ ما يَرِدُ عليَّ من الله أَعُدُّه نعمةً ، فإن كان فيه ألمٌ حَسُن صبري فيه ، أو راحةٌ حَسُن شكري فيه ، فكلٌّ منهما عليَّ سهلٌ .

---

(١) الآية : ٥ ؛ من السورة التي يذكر فيها : المعارج .

السحاب المنقشع : كان ابن شَبْرُمة رحمه الله : إذا نزل به بلاء ؛ قال : هذه سحابةٌ تمرُّ ثم تنقشعُ : تنكشف . فيه دَلالة على كمال معرفته بقلَّة دوامِ البلاء والنِّعَم ؛ وإنَّ كلًّا منهما لا يدوم في الدُّنيا ، فكلُّ مَن تعوَّد الصبر وعَلِم ثمرته . . سَهَل عليه تحملُّه عند أوَّل صدمةٍ ، ثم لا يزال أمْره يخفُّ حتّىٰ ينقضي .

مطلب
يطلق الإيمان على أعمال الجوارح

الإيمان سماحة أو صبر : وفي خبر أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئل عن الإيمان ؟ فقال : هو « ٱلصَّبْرُ عَن الشهوات ـ المكروهة ـ وَٱلسَّمَاحَةُ » بالقُرُبات ، ولذلك قيل : الإيمانُ نصفان ؛ نصفٌ صبر ، ونصفٌ شكر ، فالصبر على البلايا ، والشكر على النعم ، وفيه دليلٌ علىٰ أنَّ الإيمان يطلَقُ على أعمال الجوارح .

الإيمان بين الصبر والسماحة : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ قال : أخبرنا محمد بن أحمدَ بنِ طاهر الصوفيُّ ؛ قال : حدثنا محمَّد بن عليٍّ التيجاني ؛ قال : حدَّثنا محمد بن إسماعيلَ البخاريُّ ؛ قال : حدَّثنا موسى بن إسماعيل ؛ قال حدَّثنا سويد بن حاتم ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن عبيد بن عمير ؛ عن أبيه ؛ عن جدِّه ؛ قال :

سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال : هو « ٱلصَّبْرُ وَٱلسَّمَاحَةُ »[(١)] كما تقدَّم .

يستحيي من الله : وسُئل السَّرِيُّ السَّقَطيُّ عن الصَّبر ، فجعل يتكلَّم فيه ، فَدَّبت على رجله عقرب ؛ وهي تضرُبه بإبرتها ضَرَبات كثيرة ؛ وهو ساكن !! فقيل له : لِمَ لَمْ ـ وفي نسخة: لا ـ تُنَحِّهَا !؟ فقال : استحيَيْتُ من الله أن أتكلَّم في الصبر ؛ ولم أصبر !

تعقيب : فيه أنَّ العبدَ لا يتكلَّم في شيء من علوم المقامات والأحوال الصالحات ؛

---

(١) أخرجه أحمد في « مسنده » : ٤/ ٣٨٥ ؛ عن عَمْرو بن عَبَسة وهو رابع المسلمين رضي الله عنه .

حتى يكون متخلِّقاً به ، ليسلم من الدخول في ذمِّ الله لمن يقول ما لا يفعل ؛ فيسلمَ من مَقْتِه، كما قال ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[١] ، لكن هذا المقت إنما يكون للمرائي في كلامه الذي يُوهِم الناس أنَّه متخلِّق بما يقول ؛ ليعظُم قدره عندهم ، وللكذّاب المتشبِّع بما لم يَنَلْ ، وهوالمدَّعي بمقام لم يبلغْهُ .

جلساء الله : وفي بعض الأخبار : « ٱلْفُقَرَاءُ ٱلصُّبَّرُ هُمْ جُلَسَاءُ اللهُ ـ تَعَالَىٰ ـ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[٢] بقربه منهم بفضله ورحمته وجزائه ، قال تعالى ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾[٣] .

يرحمه بما يكره : وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : ﴿ أَنْزَلْتُ بِعَبْدِي بَلَاءً ، فَدَعَانِي فَمَاطَلْتُهُ بِٱلإِجَابَةِ ، فَشَكَانِي ، فَقُلْتُ : يَا عَبْدِي ! كَيْفَ أَرْحَمُكَ مِنْ شَيْءٍ بِهِ أَرْحَمُكَ ﴾ !!

في ذلك دَلالة على أنَّه سبق في علمه تعالى أنَّ رحمته لعبده تكون على هذا البلاء الذي هو شرط للصبر ، فكيف يسألُ رفعه !! فالعبد إنَّما ترتفعُ درجتهُ بحسن صبره على ما ابتلاه به ، فالبلاءُ شرطٌ للصبر المرتَّب عليه الجزاءُ العظيم ، فإذا ابتلاه ربُّه ببلاء فدعاه أن يعافِيَه منه . . فكأنَّه يقول : يا ربِّ أزلْ عني ما به ترحمني !!

الأئمة الهادين : وقال ابن عيينة ـ في معنى قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ ـ قال زايد[٤] ـ : لَمَّا أخذوا برأس الأمر ؛ وهو الصبر ـ لما مـرَّ : أنه من الديـن بمنزلة الرأس من الجسد ـ جعلناهم رؤساءَ ؛ أي أئمَّةً يقتدىٰ بهم .

حدُّ الصبر : سمعت الأستاذَ أبا عليٍّ الدَّقّاق رحمه الله ؛ يقول : إنَّ الصبر حدُّه أن

---

(١) الآية : ٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الصف .

(٢) سيأتي ص ٧٦٥ .

(٣) الآية : ١٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإنسان .

(٤) أي هذا لفظ زائد . لأنه مكرر مع قوله أولاً (وقال ابن عيينة . . .) .
وقد ورد لفظ الآية في الأصل ﴿ جعلناهم أئمة ﴾ والتلاوة ما أثبتناه ! . فتنبه .

لا تعترض أنت على التقدير عليك بما حلَّ بك . فأمّا إظهار البلاءِ على غير وجه الشكوى ؛ كأن يُخبِر به صاحبه ممَّن سأله عن حاله من قريب ؛ أو طبيب أو نحوه !! فلا ينافي الصبر ، قال الله تعالى في قصَّة أيوب : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[1] مع ما أخبر عنه تعالى أنَّه قال ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ .

شكوىٰ أيوب : وسمعته أيضاً ؛ يقول : استخرج الله منهُ ـ: من أيوب ـ مع كمال صبره هذه المقالة ؛ يعني قوله ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ !! لتكون المقالة متنفَّساً لضعفاء هذه الأُمَّة ممن مسَّه الضرُّ حيث يدعونه بها اقتداء فينفِّس كربهم ويرحمون .

وقال بعضهم : قال تعالى ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ ؛ ولم يقل صبوراً؛ أو صبَّاراً !! لأنَّه لم تكن جميعُ أحواله الصبرَ حتى يتوالى عليه فيها ، بل كان في بعض أحواله يستلذُّ البلاء ويستعذبه ، فلم يكن في حالِ الاستلذاذ صابراً ، لكونه يعدُّه نعمةً ، ومن يعدُّه نعمةً ، فأدبُه الشكر ، فلذلك لم يقل « صبوراً » ؛ أو « صباراً » .

وهذا ثناءٌ من الله تعالى على أيُّوب عليه السلام ، لكونه لم يكن في بعض أحوال بلائه صابراً ، بل كان متنعِّماً شاكراً ، وحالُ الشُّكر أتمُّ من حال الصبر .

حقيقة الصبر : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ رحمه الله ؛ يقول : حقيقةُ الصَّبر ـ: غلبة حاله على القلب ـ الخروجُ من البلاء على حسب الدخول فيه ؛ بقَدْره ، لأنَّ غالبَ جزع الناس منه إنَّما هو عند أوَّل صدمته ! ولذلك كان « ٱلصَّبْرُ عِنْدَ ٱلصَّدْمَةِ ٱلأوْلَى »[2] أعظمَ ، فإذا كان العبدُ ناظراً إلى الحقِّ المُبْلي كان حالُه في أوَّلِ دخوله كحاله في آخره ، مثل أيوب عليه السلام ، فإنَّه قال في آخر بلائه ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[3] ، فحَفِظ لما اشتدَّ عليه البلاءُ أَدَب الخِطاب ؛ حيث عَرَّض بعد قوله « مسني الضر » بقوله « وأنت أرحم الراحمين » فصبِّرني لأنَّك أرحمُ الراحمين ، ورحمتُك للناس عامَّة ؛ وأنا منهم ، ولم يصرِّح بقوله « ارحمني » . فلم يذكر « مسَّني الضر » شكوى عن البلوى ! بل ذكره توطئة لطلب الصبر ، ولم يقل « وأنت أرحم الراحمين » طلباً

---

(١) الآية : ٤٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : صٓ .

(٢) تقدم تخريجه ص ٥٦٨ .

(٣) الآية : ٨٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنبياء .

لزوال البلاء !! بل للصبر عليه .

ضَرْبا الصبر : واعلم أنَّ الصَّبَر بالنسبة للصابرين على ضربين ؛ صَبْرُ العَابِدين ، وصبر المحبِّين .

١ـ **صبر العابدين** : فصبر العابدين؛ أحسنُه أن يكون محفوظاً ، لشدَّة احتياجهم إليه في الأعمال .

٢ـ **صبر المحبين** : وصبرُ المحِبِّين أحسنُه أن يكون مرفوضاً : متروكاً ، ليشتدَّ قلقُهم في الوصول إلى مطلوبهم، ويزولَ عنهم صبُرهم لسرعة وصولهم إلى محبوبهم.

وفي معناه مما يدلُّ على نفي صبرهم أنشدوا[1] :

امتحان الصبر : تَبَيَّنَ يَوْمَ ٱلبَيْنِ : الفراق والبُعد أَنَّ ٱعْتِزَامَهُ : عزمَه عَلَىٰ ٱلصَّبْرِ مِنْ إِحْدىٰ ٱلظُّنُونِ ٱلكَوَاذِبِ .

المعنى : أنَّه في حال قُرْبِهِ من محبوبه وتنعُّمِه بأُنسه به إذا عزم علىٰ أنَّه إن أبعدَه صبَرَ؛ فلما وردَ وقتُ الامتحان والابتلاء . . تبيَّنَ أنَّ عزمه كان ظنّاً كاذباً.

تكميل : وفي هذا المعنى أيضاً سمعت الأستاذ أبا عليٍّ رحمه الله ؛ يقول : أصبح يعقوب عليه السلام وقد وعدَ الصبر من نفسه أوَّلَ النهار ؛ فقال لبنيه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[2] : فشأني صبرٌ جميل ، ثم لم يُمْسِ حَتَّى قال ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لَمَّا امتلأ قلبُه من حبِّه .

٢١ ـ باب المراقبة

معناها : هي ـ لغة ـ: دوامُ ملاحظة المقصود ، و ـ إصطلاحاً ـ: دوام النظر بالقلب إلى الله تعالى ، وترقُّب ما يبدو من أفعاله وأحكامه ، ويعبَّر عنه باستشعارك نظرَ الله إليك في حركاتك وسكناتك .

---

(١) تَبَيَّـنَ يَـوْمَ ٱلبَيْـنِ أَنَّ ٱعْتِـزَامَـهُ عَلَىٰ ٱلصَّبْرِ مِنْ إِحْدىٰ ٱلظُّنُونِ ٱلكَوَاذِبِ

(٢) الآية : ١٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : يوسف عليه الصلاة والسلام .

سببها : وسببُها معرفةُ الله بصفاته ، ومعرفة وعدِه ووعيده وأحكامه .

ثمرتها: وثمرتُها حسنُ الأدب والسلامة من شدائد الحساب ، والتحلِّي بحِلية الأولياء ذوي الألباب .

الندب إليها : وهي ممدوحة ومطلوبة . قال الله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾(١) وقال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(٢) : فراقبوه أنتم أيضاً .

الإحسان والمراقبة : وأخبرنا أبو نعيم عبدُ الملك بن الحسن بن محمد بن إسحاق ؛ قال: حدَّثنا أبو عوانة يعقوبُ بن إسحاق ؛ قال : حدَّثنا يوسف بنُ سعيدِ بن مسلم ؛ قال : حدَّثنا خالد بن يزيد ؛ قال : حدَّثنا إسماعيل ابن أبي خالد ؛ عن قيس ابن أبي حازم ؛ عن جرير ابن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه ؛ قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النَّبيِّ ﷺ في صورة رجل ؛ فقال : يا محمد ؛ ما الإيمان !؟. فقال : « ٱلإِيْمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِٱللهِ ، وَمَلاَئِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَٱلْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » . قال : صدقت : قال : فتعجَّبْنَا من تصديقه النَّبيَّ ﷺ ، وهو يسأله ويصدِّقُه !! قال : فأخبرني ما الإسلام !؟. قال : « ٱلإِسْلاَمُ أَنْ تُقِيْمَ ٱلصَّلاَةَ ، وتُؤْتِيَ ٱلزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وتَحُجَّ ٱلْبَيْتَ [إِنْ ٱسْتَطَعْتَ](م) » . قال : صدقت . قال : فأخبرني ؛ ما الإحسان !؟ فقال « ٱلإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » . قال : صدقت . . . قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « لَيْسَ ٱلْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ ٱلسَّائِلِ » ! . قال : فأخبرني عن أَماراتها ؟ قال : « أَنْ تَلِدَ ٱلأَمَةُ رَبَّتَها ، وَأَنْ تَرَىٰ ٱلْحُفَاةَ العُرَاةَ ٱلعَالَةَ رِعَاءَ ٱلشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي ٱلْبُنْيَانِ »(٣) . ثُمَّ ذَهَبَ .

توضيح : هذا الذي قاله ﷺ من قوله : « فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » إشارةٌ إلى حال المراقبة من العبد ؛ لأنَّ المراقبة : ابتداءُها علمُ العبدِ باطلاع الربِّ سبحانه عليه ، فاستدامَتُه لهذا العِلْم مراقبةٌ لربِّه .

---

(١) الآية : ٥٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

(٢) الآية : ١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

(٣) تقدم تخريجه ص ٣٦ ؛ عن البخاري ومسلم (حديث جبريل) .

وبعضهم جعل الإشارة إلى ذلك بقوله : « أَنْ تَعْبُدَ ٱللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » ؛ لا بقوله « فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » ، وإنَّ في الحديث مراقبتين ؛ مراقبةَ العبد للحقِّ في القول الأوَّل ، وعكسه في القول الثاني .

رتبة المراقبة : وهذا : ما ذُكِر من مراقبة العبد للحقِّ أصلُ كلِّ خير له ، ولا يكادُ يصلُ إلى هذه المرتبة ؛ وهي المراقبةُ إلاَّ بعد فراغه من المحاسبة لنفسه ، وهي التثبُّت قبل الفعل ليزِنَهُ بميزان الشرع .

طريق المراقبة : فإذا حاسب نفسه على ما سلف له ، وأصلح حالَه في الوقت ، ولازم طريق الحقِّ ، وأحسنَ بينه وبينَ اللهِ تعالى مراعاة القلب ، وحفظ مع الله تعالى الأنفاس . . راقب الله سبحانه في عموم أحواله ، فيعلم أنَّه سبحانه عليه رقيب ، ومن قلبه قريب ؛ يعلم أحواله ؛ ويرى أفعاله ؛ ويسمع أقواله .

محروم الصِّلة : ومَن تغافل عن هذه الجملة !! فهو بمعزل عن بداية الوصلة به تعالى ، فكيف لا يكون بمعزل عن حقائق القُربة منه : المراقبة له ؟! .

ثمرة المراقبة : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت الجُرَيري ؛ يقول : مَن لم يُحكِم ـ : يُتْقِن ـ بينه وبين الله التقوى والمراقبة في أفعاله . . لم يصل إلى الكشف والمشاهدة ، فمن أحكم ذلك فيما ذكر وتكرَّر عليه قَلَّت غَفَلاتُه ؛ وارتفعت حالاته ، وهو المرادُ بالكشف والمشاهدة .

من مراقبة المخلوقين : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : كان لبعض الأمراء وزيرٌ ، فكان بين يديه يوماً ؛ فالتفت الوزير إلى بعض الغلمان الذين كانوا وقوفاً ؛ لا لريبة ، ولكن لحركة أو صوت . . أَحسَّ به منهم ، فاتفق أنَّ ذلك الأمير نظر إلى هذا الوزير في تلك الحالة ، فخاف الوزيرُ أن يتوهَّم منه الأميرُ أنَّه نظر إليهم لريبة ، فجعل ينظرُ إليه : إلى الأمير كذلك : ملتفتاً إلى جهة أخرى كنظره الأول ، فبعد ذلك اليوم كان هذا الوزير يدخل على هذا الأمير أبداً ؛ وهو ينظر إلى جانبٍ ، حَتَّى توهم ذلك الأميرٌ أنَّ ذلك خِلْقَةٌ وحَوَلٌ فيه ، وزال عن قلب الوزير ما توهَّمه من الأمير !! فهذه مراقبةُ مخلوقٍ لمخلوق ؛ فكيف مراقبة العبد لسيِّده !! مقصودُ ذلك أن مَن علت رتبتُه مع مولاه ؛ ينبغي أن يكن أَدَبُه أشرفَ أدبٍ ، فيراعي فيها حرمة الملك ؛ ولو في

أدنى سبب خوفاً من البعد والعطب .

شغله مراعاة حالي : سمعت بعض الفقراء يقول : كان أميرٌ له غلامٌ يقبل عليه أكثر من إقباله على غيره من غلمانه ، ولم يكن أكثرَهم قيمةً ، ولا أحسنَهم صورة ، فقالوا له في ذلك : ما السبب فيه !! فأراد الأمير أن يبيِّن لهم فضل الغلام في الخدمة على غيره ، فيوماً من الأيَّام كان راكباً ؛ ومعه الحَشَم : الخدم ؛ وبالبعد منهم جَبَل عليه ثلج ، فنظر الأمير إلى ذلك الثلج وأطرق ، فركض الغلام فرسَهَ ؛ ولم يعلم القوم لماذا ركض !! فلم يلبث إلاَّ يسيراً حتَّى جاءه ؛ ومعه شيءٌ من الثلج ، فقال له الأمير : ما أدراك أنِّي أردت الثلج !؟ فقال الغلام : لأنك نظرت إليه ، ونظر السلطان إلى شيء لا يكون عن غير قصد صحيح !! فقال لهم الأمير : إنَّما أَخُصُّه بإكرامي له وإقبالي عليه !! لأنَّ لكلِّ أَحَد شغلاً ؛ وشغلُه : الغلام مراعاةُ لَحَظاتي ومراقبةُ أحوالي .

أقسام المراقبة : المقصود أن المراقبة أصلُ كلِّ خير ؛ وهي تنقسم إلى مراقبة الأفعال ، ومراقبة النوازل ، ومراقبة الله تعالى ، وأنَّ المراقِب هو المبادر لرضا مولاه ، وأنَّ من دامت مراقبته لمولاه قَرَّبه واصطفاه ومَيَّزه على غيره ووالاه .

ثمرة المراقبة : وقال بعضُهم : مَنْ راقب الله تعالى في خواطره الواردة على قلبه عَصَمه الله في جوارحه ، لأنَّ أوَّل عامل من الإنسان قلبُه ، والخواطر تدعو إلى أعمال القلوب والجوارح ، فتارةً تكون من الشيطان ، وتارة تكون من النفس ، وتارةً بواسطة المَلكِ ، وتارة من الله بلا واسطة ؛ بأن يخلقها في قلب العبد !

فمن تثبَّتَ عند خواطِرِه ؛ وعلم حُكْم ما دعت إليه ؛ ووَزَنه بالشرع ، وقبل ما ينبغي قبولُه ، ونفى عن قلبه ما ينبغي نفيُه . . سَلِم في عقود قلبه وفي أفعال جوارحه .

تمام الرعاية : وسئل أبو الحسين ابن هند : متى يَهُشُّ : يَخْبُطُ ويسوق الراعي غَنَمه بعصا الرعاية من مراتع الهَلَكة إلى مراتع السلامة ؛ بأن ينقلها من الحشيش المضرِّ إلى النافع لها ؟ فقال : إذا علم أنَّ عليه رقيباً ، قال ﷺ : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عنْ رَعِيتِهِ » !!

فالعبدُ مأمور بأن يراعيَ جيمعَ أفعاله ، فلا يفعل شيئاً منها إلاَّ إذا كان مأموراًبه ، أو مأذوناًله فيه ، ولا تتمُّ له هذه الرعايةُ إلاَّ باستشعاره نظَر الحقِّ إليه .

فأين الله !!: وقيل : كان ابن عمر رضي الله عنه في سفر فرأى غلاماً يرعى غنماً ، فأعجبه حسنُ رعايته لها في الظاهر ، فأراد أن يختبرَ باطنه : هل ذلك عن دِيْن ؛ أو عادة ؛ فقال له : تبيعُ من هذه الغنم واحدةً ؟! فقال له : إنها ليست لي !! فقال : قُلْ لصاحبها : إنَّ الذئب أخذ منها واحدة !! فقال له العبد : فأين الله !؟ فإنَّه يعلم ذلك ويؤاخذني به !!

فكان ابن عمر يقول بعد ذلك إلى مدَّة : قال ذلك العبد (فأين الله) لأنَّه لَمَّا علم بذلك دينَه ومراقبتَه لله ؛ أعجبه حاله ، وصار عبرة له ، يتذكر به زماناً

ورُوي أنَّه سأل عن ربِّ الغنم ؛ فاشتراه والغنمَ وأعتقه ووهبَهَا له !

تحقق المراقبة : وقال الجنيد : من تحقَّق : ثبت في المراقبة خاف على فوتِ حَظِّه من ربِّه لا غير ، لأنَّ المراقبةَ على درجات .

مراتب المراقبة : فـ ١ـ قد يراقب العبد أحكامَ ربِّه ليسلَم عن العقاب ، و٢ـ قد يراقِبُها لزيادة الثواب ؛ و٣ـ قد يراقبها ليرتفع الحجاب ، و٤ـ قد يراقبها ليكون من الأحباب ، فإذا وصل إلى هذا الحال الشريف ؛ راقب ربه وأدام نظره لما يتفضَّل به عليه ، ليسلم من الغفَلات التي يفوت بسببها حظُّه من مولاه ، فمراقبته له بهذا التقدير ، خوفاً مِن فوات حظِّه منه أفضلُ المراقبات !

لهذا أخصُّه ! : وكان بعض المشايخ له تلامذةٌ ، فكان يخصُّ واحداً منهم بإقباله عليه أكثرَ مما يقبِلُ على غيره ، فقالوا له في ذلك : ما السببُ فيه !!

فقال: أُبَيِّنُ لكم ذلك ، فدفع إلى كلِّ واحد من تلامذته طائراً ـ الأولى : طيراً ـ وقال له : اِذبحه بحيث لا يراه أحد ، ودفع إلى هذا الواحد طيراً ؛ وقال له مثل ذلك أيضاً ، فَمَضوا ، ورجع كلُّ واحد منهم ؛ وقد ذبح طائره ، لكونه لم ير بمكان الذبح أحداً من بني آدم ، وجاء هذا الواحدُ بالطائر معه حيًّا .

فقال له : هَلاَّ ذبحته !؟ فقال : أمرتني أن أذبحه بحيث لا يراه أحدٌ ، ولم أجد موضعاً لا يراه فيه أحدٌ ؛ إذ لم أجد موضعاً إلاَّ والله يراه فيه ! فقال : لهذا أخصُّه بإقبالي عليه ؛

أفضل المقامات : فيه دَلالة على أنَّ مقام المراقبة لله تعالى أفضلُ المقامات ؛ وإن ارتفعت مقاماتُ العابدين ، وقويَ اجتهادُهم ، فإنَّهم مشغولون بصلاح قلوبهم

وأحوالهم ، والمراقبُ لله قد غلب على قلبه نظرُه إليه في سائر تصرُّفاته ، وكان الشيخ يعرف فضيلة هذا التلميذ ورفعةَ مقامه عن بقيّة تلامذته ، فكان يقرِّبُه لذلك ويخصُّه بأسراره دونهم ، فلما بلغه تغيُّرهم لذلك . . عرَّفهم ـ بما ذُكِر ـ رفعةَ مقامه عليهم .

ثم علمُه بعدم إمكان ما أمره به شيخه ويحتمل ١ـ أنْ يكون خَطَر له وقتَ الأمر به !! لكنَّه اتبع أمر شيخه لإقامة الحجَّة على بقيّة التلامذة ، و٢ـ أن يكون خَطَر له ذلك بعدَ مضيِّه وتفتيشه[1] .

علامة المراقبة : وقال ذو النون المصريُّ رحمه الله : علامةُ المراقبة إيثار ما آثر الله تعالى ، وتعظيمُ ما عظَّم الله تعالى ، وتصغير ما صغَّر الله تعالى ، ولا يتمُّ للعبد ذلك إلاَّ باستشعاره نظر الله إليه في حركاته وسكناته ، وإليه أشار خبر : « أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » ، والعبادة في حالة « كَأَنَّكَ تَرَاهُ » أتمُّ منها في حالة « فَإِنَّهُ يَرَاكَ ؟» .

ثمرة الرجاء : وقال النصرآباذي : الرجاءُ يحرِّكُك إلى الطاعات : يحمل عليها ، لأنَّ العبد إذا رجا شيئاً ينفعه تحرَّكت نفسه إلى تحصيله ، **والخوف** من الله **يبعدك عن المعاصي** لأنَّ مَن خاف شيئاً هرب منه ، فمن خاف المعاصي التي هي أسبابُ استحقاقِ العقاب . . هرب منها .

نتيجة المراقبة : والمراقبةُ لله ـ تعالى ـ في حركاتك وسَكَنَاتِك تؤدِّيك : توصلك **إلى طرق** : درجات **الحقائق** التي هي عندهم غَلَبَةُ ما أنت فيه على قلبك ، حتى لا تشتغل بغير ربِّك ، وربَّما شغلك ذلك عن نفسك .

من معاني المراقبة : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا العبَّاسِ البغداديَّ ؛ يقول : سألت جعفر بن نصير عن المراقبة ؟ فقال : هي **مراعاةُ السرِّ** ؛ وهو ما يقع في قلب العبد من الأوامر والنواهي **لملاحظةِ نظر الحقِّ تعالى إليه** ؛ بأن يستشعر نَظره إليه مع كلِّ خطرة تخطرُ له .

مبنى التصوُّف : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعتُ أبا الحسين الفارسيَّ ؛ يقول : سمعت الجريريَّ ؛ يقول : أمرُنا هذا مبنيٌّ على فصلين ؛ وهوـ الأولى وهما ـ **أن تُلزم نفسَك**

---

(١) وثَمَّة احتمال ثالث ولعله الأولىٰ !! : ٣ ـ أنه لم يفكِّر ولم يعمل رأيهُ أمام رأي شيخه وأمره ، وإنما بادر دون تفكير وإعمال ذهن ، ومضىٰ مراقباً إلىٰ أن عاد كما ذهب .

المراقبةَ لله تعالى ؛ في حركاتك وسكناتك ـ كما مرَّ ـ، وَأن يكون العلمُ على ظاهرك قائماً بأن تكون حركاتُك وسكناتُك موزونة بالشرع .

مجلى المراقبة :وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا القاسم البغداديَّ ؛ يقول : سمعت المرتعش ؛ يقول: المراقبة : مراعاةُ السر بملاحظة الغيب ـ: بملاحظة الغائب عنك ـ من الحِكَم التي تظهر عند وجودها مع كلِّ لحظة ولفظة .

أفضل الطاعات : وسُئِل ابنُ عطاء : ما أفضلُ الطَّاعات ؟! فقال : مراقبةُ الحقِّ تعالى على دوام الأوقات ، كما أشار إليه الخبر السابق ، فأفضل العبادات رؤية المعبود في وقت العبادة ، فإنَّه أبعد من الزلل ؛ كما مرَّت الإشارة إليه .

ثمرة المراقبة : وقال إبراهيم الخوَّاص : المراعاةُ للأحكام تورِثُ المراقبة ، والمراقبةُ تورِث خُلُوص السرِّ والعلانية لله تعالى : في أفعال القلب والجوارح .

لوازم الصوفي : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا عثمان المغربيَّ ؛ يقول: أفضلُ ما يُلزِمُ به الإنسانُ نفسَه في هذه الطريقة ـ: طريقة الصوفية ـ المحاسبةُ والمراقبة ـ وتقدَّم بيانهُما ـ، وسياسةُ عمله بالعلم ؛ بأن يزن ما هو فيه بالعلم الشرعي ، وهو يَجري في الأعمال والأحوال والحقائق ؛ فوزن الأعمال أن تقعَ على مقتضىٰ الطَّلَب ، ووزن الأحوال أن يلازمها شرطُ الأدب ، ووزنُ الحقائق : أن يغلِبَ الحقُّ على القلب ؛ حتَّىٰ لا يلتفت إلى غيره .

شرط الواعظ : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت عبد الله الرازي ؛ يقول : سمعت أبا عثمان ؛ يقول :

قال لي أبو حفص : إذا جلستَ للنَّاس : لوعظهم . . فكُنْ واعظاً لقلبك ولنفسك ؛ لينتفعوا بوعظك ، فإنَّه إذا صَلُحَت نيَّتُك في وعظ نفسك خرج الكلامُ من قلبك ؛ وله وقعُ في قلب السامع ، ولا يغرَّنَّك اجتماعُهم عليك ، فإنَّهم يراقبون ظاهرك ؛ والله سبحانه يراقبُ باطنك . ـ وفي نسخة : رقيبُ باطنك ـ.

حافظ السرِّ : وسمعتهُ أيضاً ؛ يقول : سمعت محمَّد بن عبد الله ؛ يقول : سمعت أبا جعفر الصيدلانيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا سعيد الخرَّازَ ؛ يقول : قال لي بعض مشايخي : عليك بمراعاةِ سرِّك في الأفعال والمراقبة لله فامتثل أمره . ولهذا قال : فبينا أنا يوماً أسيرُ في البادية إذا أنا بخشخشةٍ خلفي ؛ لا أدري ما هي !! فهالني : أفزعني ذلك ، فأردت أن ألتفت . . فلم ألتفت حفظاً لسرِّي مع الله ؛ وهو أن لا أفزعَ من غيره ، فرأيت شيئاً واقفاً على كتفي فانصرفَ عني ؛ وأنا مراعٍ لِسرِّي ، ثم

التفتُّ إليه ؛ فإذا أنا بسبع عظيم !! أفاد بذلك أنه ينبغي للعبد مراعاةُ سرِّه ليقوىٰ بها يقينُه ؛ بأنَّه لا ضارَّ ولا نافع ؛ ولا معطيَ ولا مانع إلاَّ الله .

أفضل الطاعات : وقال الواسطيُّ : **أفضلُ الطاعات حفظُ الأوقات** : الأحوال التي فيها العبد ، وهو أن لا يطالع العبدُ غيرَ حدِّه ؛ بأن لا يطلب غير حاله الذي هو فيه قبل أن يحكمه ، ويقف حيث أوقفه اللهُ إلى أن ينقله ، ولا يراقب فيه غيرَ ربِّه ، ولا يقارِن غيرَ وقته : غير حال الذي هو فيه .

* * *

٢٢ ـ باب الرضا

اشتقاقه : هو مصدر (رضيتُ) ، يقال : (رضيتُ عنه) . . وبه) . . وعليه) ، وكلُّها بمعنىً ؛ فهو مرضيٌّ ، ويقال « مرضوٌّ » على الأصل .

تعريفه لغة واصطلاحاً : وهو ـ لغةً ـ المراقبةُ والقبول للأمر بسهولة . و ـ اصطلاحاً ـ : ترك الاختيار . ويقال : الوقوف الصادق حيث وقف العبد ، لا يلتمس مقدَّماً ولا متأخَّراً ، ولا يستزيد مزيداً ، ولا يستبدلُ حالاً . ويقال : غير ذلك كما سيأتي .

سببه : وسببه تفكُّر العبد في تفاصيل مِنن الله تعالى عليه ، وما خصَّه به من غير عمل منه .

ثمرة الرضا : وثمرته عدمُ الاعتراض على شيءٍ من المقدور ، والسلامةُ من كراهته ؛ فلا يتمنَّىٰ أنَّه لم يقع ، ولا زوالَه بعد وقوعه ، وهذا لا يمنع الدعاء بما لم يقع من الخيرات ، إذ الدعاء بالممكن لا يمنع الرضا بالحاصل ؛ وإن زال ضمناً . . فإنه غيرُ مقصود .

الحضُّ عليه : والرضا ممدوح مطلوب ؛ **قال الله سبحانه وتعالى** ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[1] . .

---

(١) الآية : ٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البينة .

نُزُل الرحمان : وأخبرنا عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ ـ رحمه الله ـ ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصريُّ ؛ قال : حدَّثنا الكريميُّ ؛ قال : حدَّثنا يعقوب بن إسماعيلَ السلاَّلُ ؛ قال : حدَّثنا أبو عاصم العبَّاداني ؛ عن الفضل بن عيسى الرقاشي ؛ عن محمد بن المنكدر ؛ عن جابر ؛ قال :

قال رسول الله ﷺ : « بَيْنَا أَهْلُ ٱلجَنَّةِ في مَجْلِسٍ لَهُمْ إِذْ سَطَعَ : ارتفع لَهُمْ نُورٌ عَلَىٰ بَابِ ٱلجَنَّةِ ، فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ إليه ؛ فَإِذَا ٱلرَّبُّ تَعَالى قَدْ أَشْرَفَ عليْهِمْ بنوره ، فَقَالَ ﴿ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ؛ سَلُونِي ﴾ . قَالُوا : نَسْأَلُكَ ٱلرِّضَا عَنَّا . قَالَ تَعَالَىٰ ﴿ رِضَايَ عنكم قَدْ أَحَلَّكُمْ دَارِي وَأَنَالَكُمْ كَرَامَتِي ، هٰذا أَوَانُهَا فَسَلُونِي ﴾ ! قَالُوا : نَسْأَلُكَ ٱلزِّيَادَةَ على ذٰلِكَ . قَالَ : فَيُؤْتَوْنَ بِنَجَائِبَ كنجائب[1] الإبل مِنْ يَاقُوتٍ أَحْمَرَ ، أَزِمَّتُهَا[2] زُمُرُّدٌ أَخْضَرُ وَيَاقُوتٌ أَحْمَرُ ؛ فَجَاؤُوا رَاكِبِيْنَ عَلَيْهَا ، تَضَعُ حَوَافِرَهَا عِنْدَ مُنْتَهَىٰ طَرْفِهَا : بصرها ، فَيَأْمُرُ ٱللهُ سُبْحَانَهُ بِأَشْجَارٍ عَلَيْهَا ٱلثِّمَارُ ، وَتَجِيْءُ جَوَارٍ مِنَ ٱلحُورِ ٱلعِيْنِ وَهُنَّ يَقُلْنَ : ((نَحْنُ ٱلنَّاعِمَاتُ فَلاَ نَبْؤُسُ : فلا نجد عندنا شدَّة ؛ من (بَأَسَ الرجل ؛ يَبْؤُس ؛ بأساً . . إذا كان شديد البأس : الشدَّة)، وَنَحْنُ الخَالِدَاتُ : الدائمات الباقيات ؛ فَلاَ نَمُوتُ ، أَزْوَاجُ قَوْمٍ مُؤْمِنِيْنَ كِرَامٍ)) ، وَيَأْمُرُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِكُثْبَانٍ : تلال مِنْ مِسْكٍ أَبْيَضَ إِذْفَرٍ : بيِّن الذَّفر : الرائحة الطيبة ، فَتُثِيرُ الكثبانَ عَلَيْهِمْ رِيحاً : رائحة يُقَالُ لَهَا « المُثِيْرَةُ » حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ بِهِمْ إِلَىٰ جَنَّةِ عَدْنٍ وهي قَصَبَةُ ٱلجَنَّةِ : وسطها . فَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ : يَا رَبَّنَا ؛ وَقَدْ جَاءَ القَوْمُ فَيَقُولُ الله تَعَالى ﴿ مَرْحَباً بِٱلصَّادِقِيْنَ . . مَرْحَباً بِٱلطَّائِعِينَ ﴾ . قَالَ : فَيُكْشَفُ لَهُمْ ٱلحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَىٰ ٱللهِ تَعَالَىٰ فَيَتَمَتَّعُونَ بِنُورِ ٱلرَّحْمَانِ ، حَتَّىٰ لاَ يُبْصِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، لاشتغال كلٍّ بتمتُّعه بذلك ! ثُمَّ يَقُولُ ٱللهُ تعالى للملائكة ﴿ أَرْجِعُوهُمْ إِلَى ٱلقُصُورِ بِٱلتُّحفِ ﴾ . قَالَ : فَيَرْجِعُونَ وَقَدْ أَبْصَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً .

فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾[3] » .

---

(١) جمع نجيب ؛ ونجيبة : الجيد المنتخب منها .

(٢) واحدها زمام ، وهو الرسن .

(٣) لم أجده بلفظه ، وأخرجه مختصراً بمعناه ابن النجار ـ كما عزاه إليه في « كنز العمال » : ٣٩٧٧٨ ـ وله شواهد عند أحمد : ١/١٥٦ ، والترمذي : ٢٥٦٧ ، وأبي يعلىٰ : ٢٦٨ ؛ عن علي رضي الله عنه وكرم وجهه . والبزار : ٣٥١٩ ، والطبراني في « الأحاديث =

تصنيفه : وقد اختلف العراقيُّون والخراسانيُّون في الرضا ، هل هو من الأحوال ؟ أو من المقامات ؟!

رضا الخراسانيين : **فأهل خراسان قالوا : الرِّضا من جملة المقامات ؛ وهو نهاية التوكُّل** ، ومعناه : أن يَؤُول إلى أنَّه ممَّا يتوصَّل إليه العبد باكتسابه .

رضا العراقيين : **وأمَّا العراقيون ! فإنهم قالوا : الرِّضا من جملة الأحوال ، وليس ذلك كسباً للعبد ، بل هو نازلةٌ تحلُّ بالقلب كسائر الأحوال** .

التوفيق بينهما : **ويمكن الجمع بين اللسانين** : قول الفريقين ؛ **فيقال** : **بداية الرضا مكتسبةٌ للعبد ؛ وهي من المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال ؛ وليست بمكتسبة له** ، كالنوازل الضروريّة ؛ كالرعشة والرِّعدة بالحُمَّىٰ ، وتقدَّم ذلك .

تفسير الرضا : **وَتكلَّم الناس في الرِّضا ، فكلٌّ عبَّر بما قاله عن حاله وشِرْبه** نصيبه . **فهم في العبارة عنه مختلفون ، كما أنَّهم في الشِّرْب والنصيب من ذلك متفاوتون** ـ عطف النصيب على الشرب ! للتفسير ـ .

فأمَّا شرط العلم بكون العبد راضياً ، والذي هو لا بدَّ منه ؛ فيُعلَم من قوله : **فالراضي بالله تعالى هو الذي لا يعترض على تقديره** عطفُه على الشرط تفسيرٌ له .

ثمرته : **سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق** ـ رحمه الله ـ ؛ **يقول** : **ليس ثمرة الرضا أن لا تحِسَّ أنت بالبلاء ولا بالألم ، إنَّما ثمرة الرضا أن لا تعترض علىٰ الحكم بالقضاء** ؛ وإن أحسست بالألم ، والبلاء موافقاً كان لهواك ؛ أو مخالفاً له ، لجهلك بعاقبة ذلك الحكم ؛ وحُسْن ظنِّك باختيار الله لك .

مثاله : وتقريبه أنَّ الطبيب إذا سقى العليل مُرَّاً من الأدوية ؛ فهو يجد مرارته ويتألَّم لشربه . . إلاَّ أنَّه راضٍ بشربه ؛ محبٌّ له ، لما يرجوه من العافية ؛ وثوقاً بعلم الطبيب .

= الطوال » ٣٥ ، وأبو نعيم في « صفة الجنة » : ٣٩٥ ، وأبو يعلىٰ : ٤٢٢٨ ؛ عن أنس رضي الله عنه .
والآية : ٣٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : فصِّلت .

وجوبه : واعلم أنَّ الواجب[1] على العبد أن يرضىٰ بالقضاء الذي أُمِر بالرِّضا به ، ويرضىٰ ببعض المقتَضيات ؛ لا بكلِّها ، إذ ليس كلُّ ما هو بقضائه يجوز للعبد ؛ أو يجب عليه الرضا به ، كالمعاصي وفنون مِحَن المسلمين !! قال تعالى ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ ، فلا يجوز للعبد الرِّضا بسائر المعاصي ؛ وإن كانت مرادة لله ، بناءً علىٰ المشهور من أنَّ الأمر غير الإرادة ، وأن الله يأمر بما لا يريد وقوعَه من العبد ، وينهىٰ عمَّا يريد وقوعه منه ، فإذا قدَّر الله عليه بمعصية ؛ فلا يجوز له الرِّضا ، بل يبكي ويتألَّم ويسألُ السَّلامةَ منها ، ومَن قال (إنَّ الرضا الإرادةُ) !! حَمَل العباد في الآية[2] على المؤمنين ، كما حُمِلوا على الخُلَّص في قوله ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[3] .

وقد تكلَّمتُ على هذه المسألة بما يتعَّين الوقوف عليه في أوائل الكتاب ، قبل (باب في ذكر مشايخ هذه الطريقة) ص ٧١ .

باب الله : وقال المشايخ : الرِّضا باب الله الأعظم ؛ يعنون أنَّ من أُكرم بالرضا . . فقد لقِي بالترحيب الأدنىٰ ، وأكرم بالتقريب الأعلى ؛ لأنَّ مَن أكرم بالرضا . . صارت جميعُ أفعال الله عندَه مرضيَّة نِعَماً يشكره عليها ، فقد فُتِح له باب عظيم في تيسير الطاعات .

---

(١) واعلم أنَّ الرضا ينقسم إلىٰ :
١ ـ واجب ؛ وهو ما حجز عن التسخُّط وكراهية القضاء منه تعالىٰ ،
و٢ ـ مندوب ؛ وهو ما حجز عما لم يمنع الشارع منه . . كالتوسع في المأكل والمشرب وغيرهما من الشهوات الجائزة . أو يقال في الرضا المندوب : هو سكون القلب تحت مجاري الأقدار المخالفة للهوىٰ الذي لم يمنع الشرع من ارتكابه .
والحاصل أنَّه يجب الرضا بقضاء الله تعالىٰ وقدره ؛ إذا دلَّ عليه شاهد علم الشرع . . لا مطلق قضاءٍ وقدرٍ الشامل للكفر والمعاصي . فالقضا والقدر باعتبار مصدرهما يجب الرضا بهما مطلقاً سواء كان متعلَّقُهما خيراً ؛ أو شرّاً ، والمقضيُّ به يجب الرضا به بشاهد علم الشريعة ؛ لا بالكفر والمعاصي (عروسي : ٣/ ١٠١) .

(٢) المتقدمة قبل قليل وهي : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الزمر .

(٣) الآية : ٤٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحجر .

جنَّة الدنيا : سمعت محمَّد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : أخبرنا أبو جعفر الرازيُّ ؛ قال : حدَّثنا العبَّاس بن حمزة ؛ قال : حدَّثنا ابن أبي الحواري ؛ قال : قال عبد الواحد بنُ زيد :

الرِّضا بابُ الله الأعظم ؛ لأنَّه سبب لتيسير الطاعات على العبد ، ولرؤيته أنَّ جميعَ ما ينزل عليه من الله نِعَمٌ ، فيشكره في جميع أحواله ، وجنَّةَ الدُّنيا ؛ لأنَّه سببٌ لراحة القلب من هموم التقديرات .

تحقُّق الرضا : واعلم أنَّ العبد لا يكاد يرضى عن الحقِّ تعالى : لا يتَّصف بالرِّضا عنه تعالى . . إلاَّ بعد أن يرضى عنه الحقُّ تعالى ، لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لو لم يرضَ عنه . . لم يخلقْ له الرضا بقضائه ، ولأنَّه تعالى قال ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ﴾(١) فقدَّم رضاه في الذِّكر على رضاهم ، وهو يدلُّ على الاهتمام برضاه ، وأنَّه المقدَّم ، لأنَّه تعالى هو المريدُ للأفعال .

علامة الرضا : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : قال تلميذ لأُستاذه : هل يعرف العبد أنَّ الله تعالى راضٍ عنه ؟! فقال : لا ؛ كيف يعلم ذلك ورضاه غيب عنه !! فقال له التلميذ : بل يعلمُ ذلك .

فقال : كيف يعلمه ؟! فقال : إذا وجدتُ قلبي راضياً عن الله تعالى علمتُ أنَّه راضٍ عني ، لأنَّه لو لم يكن راضياً عني . . لم يلحق الرضا بالأمر المرضيِّ به . فقالَ له الأستاذ : أحسنتَ يا غلام .

عمل الرضا : وقيل : قال موسى عليه السلام : إلهي ؛ دُلَّني على عمل إذا عملتُه رضيتَ به عني .

فقال : ﴿ إنَّك لا تطيق ذلك ﴾. فخرَّ موسى عليه السلام ساجداً له متضرِّعاً ، فأوحىٰ الله تعالى إليه ﴿ يا ابن عمران؛ إن رضايَ في رضاك بقضائي فإذا رضيتَ بقضائي . . فأعلم أني رضيتُ عنك ، لأني أنا الخالقَ لرضاك ﴾ .

حقيقة الرضا : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَميّ رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أبو جعفر الرازيُّ ؛ قال : حدَّثنا العبَّاس بن حمزةَ ؛ قال : حدَّثنا ابن أبي الحواريِّ ؛ قال : سمعت أبا سليمان الدارانيَّ ؛ يقول :

---

(١) الآية : ٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البيِّنة .

إذا سلا العبد : صُرِف عن الشهوات فهو راض ، لأنَّها إذا صرفت عنه وحَسُن ظنُّه بربه دائماً ، وإنّه إنَّما يجري عليه ما فيه صلاحه ؛ فقد رضيَ بجميع ما يجريه عليه فما يجوز الرضا به .

محل الرضا : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ النَّصرآباذي يقول : مَن أراد أن يبلغ محلَّ الرضا ؛ فليزم ما جعل الله تعالى رضاه فيه ؛ إذ لا يتوصَّل إلى رضا مولاه إلا بفعل ما أمره به .

أقسام الرضا : وقال محمد ابن خفيف : الرِّضا : بالنسبة إلىٰ متعلَّقه علىٰ قسمين : ١ـ رضا به ، و٢ـ رضا عنه .

فالرضا به أن يرضاه العبد مُدَبِّراً له ؛ بأن يفعل ما أمره الله به مولاه ، اختاره ودبَّره له ، فيكون راضياً به .

والرضا عنه : رضاه فيما يقضي به عليه من النوازل . . في نفسه ؛ أو ولده ؛ أو ماله ، أو نحوها .

طريق السالكين : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : طريق السالكين إلى الله أطولُ ، وهو طريق الرياضة ؛ لأنَّ عمل المريد مترتِّبٌ على ما وَضُحَت أدلَّته وعُلمت فضيلتُه شرعاً من الأخلاق الحميدة ، والبعد عن الأخلاق الذميمة ، فهو يتكلَّف ذلك ، فكانت طريقةُ . . طويلةً بدوام المجاهدة ، والرياضة ، والإعراض عن العوائد السابقة .

طريق الخواص : وطريق الخواصِّ أقربُ وأيسر لمن يسير عليه ، لكنه أشقُّ على النفوس لسرعة مفارقة الهوى دفعةً ، والرضا بالمرِّ من القضاء جملةً ؛ كما أشار إلى ذلك بقوله : وهو أن يكون عمُلك بالرضا ؛ ورضاك مقروناً بالقضا . وهذا كمن يبحث عن مطلب ! فإن صادفه . . استغنى به ، وإلاَّ ! فقد تعرَّض لهلاك نفسه ، إذْ الرضا بما يُجْريه الحقُّ مع مخالفته للهوى عظيمٌ عند الله لكنه مخوِف ، لأنَّه يعرِّض العبد لتسخطُّه بما يفعله مولاه ، فإن سَلِم من ذلك ورضي بما يجوز رضاه به . . فقد نال غاية الطاعات .

رضا رُوَيم : وقال رويم : الرضا هو : أن لو جعل الله جهنَّم على يمينه ، ما سأل أن يحوِّلها إلى يساره .

مراده أنَّ الرضا هو مَن إذا نزل به أشدُّ البلاء ـ وهو : حرُّ النار ـ لا يكرهه ، ولا يتمنَّىٰ زواله عنه لأن العاقبة مغيَّبَه عنه ، ولم يرد نار الآخرة ، إذ نارها وجميعُ أسباب دخولِها من كفره ومعصيته . . لا يرضاه العبد ، بل يبكي ويتألَّم ويتضرَّع أن لا يبتلى به .

رضا ابن طاهر : **وقال أبو بكر ابن طاهر** : **الرضا إخراج الكراهية من القلب** فيما نزل به مِن البلا **حَتَّى لا يكون فيه إلاَّ فرح وسرور** ، لعلمه بأنَّ ما نزل به اختيار مولاه ؛ وإن جَهِل حُسْن عاقبته .

استعمال الرضا : **وقال الواسطيُّ** رحمه الله تعالى : **استعمل الرضا جهدك** ؛ بأن تجعل همَّتك بعد الرضا بما نزل بك من البلا متعلِّقة بالرضا بذلك ، **ولا تدع الرضا يستعملك** بحسن لذَّته وشَرَف منزلته ، بحيث تسكن نفسُك لما نلته من شريف الحال والمقال ، وتشتغل به عن التطلُّع لما بعده من المقامات ، **فتكون محجوبة بلذَّته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع** بما يتفضَّل الله به عليك .

توضيح : **واعلم أن هذا الكلام الذي قاله الواسطيُّ** : **شيءٌ عظيم وتنبيهٌ على مقطعة للقوم خفية** ؛ تقطعهم عن بلوغ مرادِهم من الحقِّ تعالى ، **فإنَّ السكون عندهم إلى الأحوال حجابٌ عن محوّل الأحوال** ، **فإذا استلذَّ رضاه ووجد بقلبه راحةَ الرضا** . . **حُجِب بحاله** الذي سكن إليه ؛ **عن شهود حقِّه** : ربَّه تعالى ، أو حقِّه الذي فوقَ حاله ، فلا ينبغي للنفس أن تسكن إلى حال ؛ وتقفَ معه ، بل حقُّها أن تعرف النِّعم وتشكرَ عليها ، وترقب المزيد من الحقِّ ناظرةً إليه .

السموم القاتلة : **ولقد قال الواسطيُّ** : **إيَّاكم واستحلاءَ الطاعات** : التلذُّذ بنوعٍ منها ؛ والوقوف معه ، **فإنَّها سمومٌ قاتلة** ـ الأَوْلى : فإنه سُمٌّ قاتل ـ : استحلاء الطاعات .

رضا ابن خفيف : **وقال ابن خفيف** : **الرِّضا سكونُ القلب إلى أحكامه تعالى** : نوازله ، بأن لا يقلَق منها . **وموافقة القلب بما رضيَ الله به** ، **واختاره له** .

رضا رابعة : **وسئلت رابعةُ العدوية** (**متى يكون العبد راضياً ؟!**) **فقالت** : **إذا سَرَّتْه المصيبةُ كما سَرَّته النعمة** . هذا بالغ ! وإنما يتمُّ للعبد ذلك إذا حَسَّن ظنَّه بربِّه ولطفِه به ، وأنَّه لا يجري عليه إلاَّ ما فيه صلاحُه ، فيُسرُّ حينئذ بجميع ما يجريه

عليه ، ومتى سُرَّ بذلك . . كان راضياً به .

بين راضيَيْن : **وقيل : قال الشبليُّ بين يدي الجنيد : (لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله) . فقال له الجنيد** لفهمه عنه أنَّه قال ذلك لثِقَلِ ما ورد عليه . . حتَّى استعان بـ(لا حول ولا قوَّة إلا بالله) **قولك ذا** ـ أي : (لا حول ولا قوة إلاَّ بالله) ـ **ضيق صدر** : يدلُّ عليه . **وضيق الصدر إنَّما يكون لترك الرضا بالقضاء ! فسكت الشبليُّ** ! إمَّا لما فهمه الجنيد ، أو لأنَّه كان راضياً ؛ ولكنه تبرّأ من دعوى هذا المقام ؛ ورآه إنَّما هو بحول الله وقوته وعونه ، فإنَّ كلَّ مقام لا قوَّة للعبد على القيام به ، إلاَّ بعون ربِّه .

الرضا الكامل : **وقال أبو سليمان الدارانيُّ : الرضا الكامل أن لا تسأل الله تعالى الجنَّة ، ولا تستعيذ به من النار** ، بل تَكِلُ أمرك إلى ربِّك لعلمه بحالك ؛ ولُطْفِه بك في سائر أحوالك ، وتعتمد على الله تعالى في أن يأتيَك بما يُصْلِحُك ، فتسكن نفسك لذلك ، وتَفْتُرَ عن سؤال المصلحة ، لعلمك بأنَّها تحصلُ لك منه للطفه بك ، ووصفه للراضي بترك ما ذكر ؛ لا من حيث إنَّه عبادة ، بل من حيث إنَّه رضاً بحسن ما أجراه عليه مولاه ، فلا ينافي أن يسأل اللهَ ذلك عبادةً لأمر مولاه به .

علامات الرضا : **سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا العبَّاس البغداديَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن أحمد بن سهل ؛ يقول : سمعتُ سعيد بن عثمان ؛ يقول : سمعت ذا النون المصريَّ رحمه الله تعالى ؛ يقول :**

ثلاثة من أعلام الرضا : ترك الاختيار قبل نزول القضاء ، وفقدان المرارة والمشقَّة بعد نزول القضاء ، وهَيَجان الحبِّ والتنعُّم بما نزل من البلاء **في حشو البلاء** ، لأنَّ الراضيَ بحسن ما يجريه الله عليه لا اختيار له ، وإنَّما هو مذعن لما يختاره الله له ، لعلمه بفضل ربِّه عليه ، وحسُن اختياره له فيما يجريه عليه ، ومتى كان له اختيارٌ في نفسه . . فهو مع نفسه راضٍ بحكمها ؛ لا بحكم ربِّه .

الحسين وأبو ذر : **وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت محمد بن جعفر البغداديَّ ؛ يقول : سمعت إسماعيل بن محمد الصفار ؛ يقول : سمعت محمد بن يزيد المبرد ؛ يقول : قيل للحسين بن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنهما : إنَّ أبا ذرٍّ يقول : الفقر الذي** يفرُّ منه الناس **أحبُّ إليَّ من الغنى**؛ لقلَّة قدر الدنيا عنده ، **والسّقم الذي** يتألَّمون منه **أحبُّ إليَّ من الصحَّة** !؟ لما يرجوه من كثرة الثواب على الصبر على السقم .

فقال الحسين : رحم الله أبا ذر حيث قال ما قال ، أمّا أنا فأقول : مَن اتكَّل على حُسْن اختيار الله تعالى له . . لم يتمنَّ غيرَ ما اختاره الله له . فأبو ذر له اختيار ، والحسينُ لا اختيار له ، بل رضي بما اختاره الله له ، وهو أسلمُ وأبعد من تطرُّقِ الآفات المقرونةِ بالاختيارات ، فكلامه في الرضا ؛ وكلام أبي ذر في الزهد والصبر .

الرضا والزهد : وقال الفضيل بن عياض لبشرٍ الحافي : الرِّضا أفضلُ من الزهد في الدنيا ، لأنَّ الراضي بمنزلة هو فيها لا يتمنَّىٰ فوق منزلته ؛ بخلاف الزاهد !

تعقيب : واعترض على التعليل بأنَّه . . إن أريد بأنَّه لا يتمنَّىٰ خلاف ما وقع به القدر ؛ فصحيح ، وإلاَّ ! فلا ؛ إذ لا منافاة كما مرَّ بين الرضا بما وقع . . وسؤال ما لم يقع ؛ فكذا تمنِّيه له .

وقد يجاب بأنَّ المراد بأنَّه لا يتمنَّىٰ فوق منزلته لكراهته لها .

بين الرضا والقضاء : وسئل أبو عثمان[1] ؛ عن قول النبي ﷺ « أَسْأَلُكَ ٱلرِّضَا بَعْدَ ٱلْقَضَاءِ » : لِمَ قيَّد الرضا ببعد القضاء !؟ فقال : لأنَّ الرِّضا بما ينزل به القضاء قبل نزول القضاء عزمٌ على الرضا ؛ لا نفسه ، والرضا بعد نزول القضاء هو الرضا .

وهذا جارٍ في سائر المقامات ؛ من الزهد ، والتوكلُّ ، وغيرهما .

فالعزم على كلِّ مقام ليس هو نيلُه وبلوغُه ، فكم من شخص يزعم أنَّه زاهدٌ ؛ والذي عنده معرفة الزهد ، فإذا لاح له شيءٌ من الدنيا . . ظهر له من نفسه مِن الرغبة فيه خلاف ما كان يظنُّه !!

---

(١) الحيريُّ رحمه الله (انظر ترجمته في أعلام هذا الكتاب ص١٥٢) . وهذا الجواب وسؤاله أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان» : ١٩٣ ؛ عن أبي عبد الرحمان السلمي ؛ عن الرازيِّ .
أما الحديث ! فأخرجه النسائي : ١٣٠٤ ، والحاكم : ١/ ٥٢٤ ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » : ١٤٩ ؛ من حديث طويل في دعاءه بالصلاة وقد أوجز فيها .
وأخرجه أحمد في « مسنده » : ٥/ ١٩١ ؛ عن زيد بن ثابت من دعاء علَّمه النبيُّ ﷺ وأمره أن يتعاهد به أهله كلَّ يوم .

مطلب
الفرق بين علم التوحيد ووجوده

ولذلك قال الجنيد : علم التوحيد ووجوده متباينان ، لأنَّ علم التوحيد : أن يعرف بالدليل أنَّ الله واحد ،

ووجودُه : غلبته على القلب وتحقُّقه فيه بحيث يشاهد فيه كلَّ فعل

معرفة الرضا : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ ـ رحمه الله ـ؛ يقول : سمعتُ عبد الله الرازيَّ ؛ يقول : سمعت ابن أبي حسان الأنماطيَّ ؛ يقول : سمعت أحمد ابن أبي الحواريِّ ؛ يقول : سمعت أبا سليمان ؛ يقول : **أرجو أن أكونَ عرفت طرفاً من الرضا بحيث لو أنَّه أدخلني النار** ؛ يعني الشدَّة العظيمة ؛ لا النار الكبرى . . **لكنت بذلك** راضياً ، لعلمي بأنَّه تعالى يفعل بي ما هو أنفعُ لي وأصلح ، لما جرَّبتُه من أفعاله وتكرَّر عليَّ من إفضاله .

الدمشقي والرضا : وقال أبو عَمْرو الدمشقي : **الرِّضا ارتفاعُ الجزع** من العبد **في أيِّ حكمٍ** كان من الأحكام الموافقة والمخالفة له من البلايا ، التي تجري عليه ، ممَّا يجوز الرضا به ، وذلك بأن يتلقَّاه بالقبول لما يرجوه من الثواب .

الجنيد والرضا : وقال الجنيد رحمه الله : **الرِّضا رفع الاختيار** ؛ بأن لم يبقَ للعبد بعد نزول القضاء به اختيارٌ في زواله .

ابن عطاء والرضا : وقال ابن عطاء : **الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد** ، وهو : ترك التسخُّط ، فإذا غلب على قلبه أنَّ ما سبق به القضاء لا بدَّ من وقوعه . . لم يبق لاختياره فائدةٌ ، بل يخشى من اختياره أن يقع بسببه في التسخُّط لقضاء الله .

رويم والرضا : وقال رُوَيم : **الرضا استقبال الأحكام** يعني : البلايا ـ التي يجوز الرضا بها **بالفرح** والسرور ، فيه زيادة على الرضا ! إذ يكفي فيه عدم تغيُّر القلب ؛ وإن لم يكن فرح .

المحاسبي والرضا : وقال المحاسبيُّ : **الرضا سكونُ القلب تحت مجاري الأحكام** ؛ يعني : البلايا ، لعلمه أنَّ المقادير لا تبديل لها .

النُّوري والرضا : وقال النُّوري ـ وفي نسخة : ذو النون ـ : **الرضا سرورُ القلب بمرِّ القضاء** ، وهو المخالفُ لهوى النفس ، فحلوُهُ مفهومٌ بالأَوْلى ، وهذا قريبٌ مما قاله رويم ، لكن في ذلك زيادةٌ ؛ وهي الاستقبال ، فإنَّه يقتضي تقديمَ السرور على نزول القضاء .

جزاء الرضا : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا الحسين الفارسي ؛ يقول : سمعت الجُرَيري ؛ يقول : مَن رضي بدون قدره رفعه الله تعالى فوقَ غايته ؛ أخذاً من خبر : « مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ »(١) ، ومن هنا جاز للراضي بمنزلةٍ أن يدعوَ بأرفعَ منها ويسألَها ويتمناها .

نائل الرضا : وسمعته أيضاً(١٣) ؛ يقول : سمعت أحمد بن علي ؛ يقول : سمعت الحسن بن عُلَّوَيْهْ ؛ يقول : قال أبو تراب النخشبي : **ليس ينال الرضا مَنْ للدنيا في قلبه من مقدار** ؛ لأنَّ مَن أحبَّها حُبّاً شديداً تألم لفقدانها ، فهو يكره زوالها ، والراضي لا بدَّ أن يرضىٰ بكلِّ ما يجريه الله تعالى . . وافق غرضه ؛ أو خالفه ـ كما مر ـ .

الرضا بالربوبيَّة : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أبو عمرو بن حمدان ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن شترويه ؛ قال : حدَّثنا بشر بن الحكم ؛ قال : حدَّثنا عبد العزيز بن محمَّد ؛ عن يزيد بن الهادي ؛ عن محمد بن إبراهيم ؛ عن عامر بن سعد ؛ عن العبَّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه ؛ قال : **قال رسول الله ﷺ** : « ذَاقَ طَعْمَ ٱلْإِيْمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ ـ لا بغيره ـ رَبّا »(٢) ، فلا ينال المقاماتِ العاليةَ من الإيمان والمحبَّة والرضا وغيرِها إلاَّ مَن لم يبقَ في قلبه ربوبيَّةٌ لغير الله ، ولذلك قال ﷺ : « تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّينَارِ وَٱلدِّرْهَمِ وٱلْقَطِيْفَةِ وَٱلْخَمِيْصَةِ »(٣) .

---

(١) تقدم تخريجه ص ٤٧٧ .

(٢) أخرجه مسلم : ٥٦ ـ ٣٤ ، وأحمدُ : ١/٢٠٨ ، والترمذيُّ : ٢٦٢٣ ، والبيهقي في « الشعب » : ١٩٥ ؛ عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بزيادة : « وَبِٱلْإِسْلامِ دِيْناً ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً ـ نَبِيّاً » .

(٣) تقدم تخريجه ص ١٣١ ، ٤٠٤ وانظر ما سيأتي ص ٦٠٣ .

علامة العبودية : فكلُّ مَن أحبَّ شيئاً من الدَّنيا حبّاً شديداً حَتَّى تعلَّق قلبُه به ؛ واشتغل بحفظه . . جازَ أن يُسمَّى « ربّاً » له ، وهو له « عبد » ؛ لخدمته له .

ولهذا قيل للجنيد : ما تقول فيمن لم يبقَ عليه من الدُّنيا إلاَّ مصُّ نواةٍ يتلذَّذ بها ؟! فقال : (اَلْمُكَاتَبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دِرْهَمٌ)[1] ، فسمَّاه عبداً لشهوته .

تعقيب : وإن قلتَ : فمتى نظر العبد في أفعال الله به ؛ وجريان نِعَمه عليه ، ورضيَ باختياره له . . ذاقَ طعم الإيمان ؛ ووجد لَذَّته وحلاوته .

بخلاف مَن لم يصل إلى هذا المقام ، وتعاطىٰ الأعمال الشاقَّة وتحمَّلَها بالصبر ؛ وإن كان أجرُه عظيماً ! .

مكتوب عمر لأبي موسى : **وقيل كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنهما (أما بعد ؛ فإنَّ الخير كلَّه في الرضا ، فإن استطعت أن ترضىٰ ؛ فارض ، وإلاَّ ! فاصبر)** . وكلٌّ منهما خيرٌ .

عُتبةُ المحبُّ : وقيل : **إنَّ عتبةَ الغلامَ بات ليلة يقول إلى الصباح : إن تعذبني . . فأنا لك محبٌّ ، وإن ترحمني . . فأنا لك محبٌّ** . فهو محبٌّ لكلِّ ما يردُ عليه منه ؛ مؤلِماً كان ؛ أو غير مؤلم ! وهو معنى الرضا ، فإنَّ المُحِبَّ أبداً راضٍ بكلِّ ما يَرِدُ من محبوبه .

شأن الساخط : سمعت الأستاذ أبَا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **الإنسان خَزَفٌ : فخار ؛ خلق من طين وليس للخزف من الخَطر ـ: القَدْر والمنزلة ـ ما يعارض فيه حكمَ الحقِّ تعالى** ؛ فيه دلالة على أنَّ مَن يبلغ مقامَ الرِّضا كَرِه ما يجريه الله عليه من الأقدار ، وصار في صورة المعارِض لرضا الله تعالى وقَدَره .

رضا الحيري : وقال أبو عثمان الحيريُّ : **منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال عالٍ فكرهته ؛ وإن كان ثَمَّ أعلى منه ، وما نقلني إلى غيره ممَّا هو دونه فسخطته** . فهو راضٍ بكلِّ ما يجريه عليه مما يجوز الرضا به ! .

العفو والرضا : سمعت الأستاذ أبَا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **غضب رجلٌ على عبدٍ**

---

(١) تقدم تخريجه ص ٤٠٩ وانظر ص ٦٥٣ ، ص ٦٩٩ .

له ، فاستشفع العبد إلى سيِّده إنساناً ؛ فشفع له عنده ، فعفا عنه ، فأخذ العبد يبكي ! فقال له الشفيع : لم تبكي ؛ وقد عفا عنك سيِّدُك ؟! فقال له السيِّدُ إنَّما يطلب الرضا مني ؛ ولا سبيل له إليه ، فإنَّما يبكي لأجله .

ولا يلزم من عفوه عنه رضاه ؛ وهو إسباغُه عليه النعم ، وما تعوَّدَه منه من اللطف والإكرام . قال بعضهم : فتح عليَّ باب من البسط فزللت زَلَّة فحُجبت عن مقامي كذا كذا سنة ، فلم يؤاخذ ؛ ولم يعاقَب ، وإنَّما سلب ما كان من الإكرام والإنعام .

* * *

٢٣ ـ باب العبودية

معناها : هي تذلُّلٌ وتبرُّؤٌ من الحول والقوّة في عبادته ، ويقال غير ذلك ، كما سيأتي .

وأصلُها العبادة ؛ وهي القيام بالفعل المطلوب شرعاً .

الترغيب بها : وهي مطلوبة وممدوحة . **قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾**(١) .

المظلَّلون بظلِّ الله : وأخبرنا أبو الحسن الأهوازي رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ؛ قال : حدَّثنا عبيد بن شريك ؛ قال : حدَّثنا يحيىٰ ؛ قال : حدَّثنا مالك ؛ عن حبيب بن عبدالرحمان ؛ عن حفص بن عاصم ؛ عن عمر بن الخطاب ؛ عن أبي سعيد الخدري ؛ وأبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال : « **سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ ٱللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ** ؛ **١ـ إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَ٢ـ شَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ** ـ وفي رواية : « في عبادة » ـ **ٱللهِ تَعَالَىٰ ، وَ٣ـ رَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِٱلْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّىٰ يَعُودَ إِلَيْهِ ، وَ٤ـ رَجُلاَنِ تَحابَّا فِي ٱللهِ ؛ ٱجْتَمَعَا عَلَىٰ ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَ٥ـ رَجُلٌ ذَكَرَ ٱللهَ**

---

(١) الآية : ٩٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحجر .

خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَ٦ـ رَجُلٌ دَعَتْهُ ٱمْرَأَةٌ ذَاتُ حُسْنٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ : (إِنِّي أَخَافَ ٱللهَ رَبَّ ٱلعَالَمِيْنَ) ، وَ٧ـ رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمُ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُهُ »[1] ؛ لأنَّهم بذلك خالفوا أهويتهم ، ولازموا طاعة ربهم . .

مرتبتها : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **العبوديةُ أتَمُّ من العبادة** ، فأوّلاً الفعل المطلوب عبادةٌ ، ثم عبوديّة ؛ ثمَّ عُبُودة .

أصحابها : فالعبادة للعوامِّ من المؤمنين ، لأنَّ غايتَهم أن يعلموا من الشرع ما أُمروا به ؛ ونهوا عنه ، ويقوموا بمقتضاهما ، وهذه صفة العابدين .

والعبوديّةُ للخواصّ ؛ لما فيها من زيادة التذلُّل والتبرُّؤ من الحول والقوَّة ،

والعبودة لخاصِّ الخاصِّ ، لكمال معرفته بربِّه حيث أتى بما طُلِب منه ؛ ورأى نفسه محَلاًّ لَجَريان قضاءِ الله فيه ، ولتوفيقه له في فعل ما طُلِب منه ، فقلبُه أقربُ إلى مقام الجمع ؛ وهو : إفرادُ الحقِّ بالفعل من الثاني ، لأنَّ الثانيَ شاهدٌ لنفسه . . كسباً ؛ واختياراً ، وإن كان مفتقِراً لعون ربِّه فيما يختاره ، والأوّل أقربُ إلى مقام التفرقة ، لكونه يرى نفسه عابداً محسناً مطيعاً ، ويطلب الجزاء على عمله .

تحصيل : **والحاصل** أنَّ الأوَّل واقف مع الأعمال ، والثالث مستغرِقٌ في الجلال والجمال ، والثاني متبرِّىء ؛ لما هو فيه نظر العون الكبير المتعال .

مراتب العبادة : وسمعته أيضاً ؛ يقول : **العِبَادةُ لمن له علمُ اليقين ، والعبوديّة لمن له عين اليقين ، والعبودةُ لمن له حقُّ اليقين** ، وتقدَّم بيانها .

مراتب العبَّاد : وسمعته أيضاً؛ يقول: **العبادةُ لأصحاب المجاهدات** ؛ لأنَّهم أصحاب أعمال ، **والعبوديَّةُ لأرباب المكابدات** ؛ لأنهم أصحاب أحوال ، **والعبودة صفةُ أهل المشاهدات** ؛ لأنَّهم أصحابُ مراقبةٍ وإقبال . وإلى ذلك أشار بقوله :

نيل المراتب : **فمن لم يدَّخر عنه تعالى نفسه** ؛ بأن أتعبها في أعمال البَدَن . . من الصبر والصلاة وغيرهما من سائر القُرُبات ؛ **فهو صاحب عبادة** .

---

(1) متفق عليه البخاري : ٦٦٠ ، ومسلم : ٩١ ـ ١٠٣١ ، وأحمد : ٤/٤٣٩ ، وغيرهم ؛ عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما .

ومن لم يضنَّ : يبخل عليه تعالى بقلبه بأن أتعبه في الفكر في الملك والملكوت وسائر المخلوقات ؛ فهو صاحب عبوديَّة

ومن لم يبخل عليه تعالى بروحه ؛ بأن أتعبها له في طلب العون منه ، والاستغراق في جماله وكماله ؛ فهو صاحب عبودة .

شرائط العبودية : ويقال : العبوديَّة القيامُ بحقِّ الطاعات ١ـ بشرط التوفير : موفرة كاملة . و٢ـ بشرط النظر إلى ما حصل منك من الطاعات بعين التقصير ؛ بأن تراها مع كمالها لا تصلح لجلاله تعالى وعظمته ، و٣ـ بشرط شهود ما يحصل من مناقبك أي : أنَّه إنَّما يحصل من التقدير : تقديرِ الله تعالى وفعله ، وذلك لأنَّ مَن كَمُلت عبوديَّتُه لربِّه أوقعَ طاعاتِه على الوجه المذكور .

من معاني العبودية : ويقال : العبوديَّة تركُ الاختيار فيما يبدو من الأقدار .

هذه صفة أرباب الأحوال من حيث إنَّهم نالوا درجة الرضا ، فكأنه قال : العبودية الارتفاع عن الأعمال إلى درجات الأحوال .

ويقال : العبودية التبرُّؤُ من الحول والقوة ، والإقرار بما يعطيك الله ، ويوليك من الطَّوْل : الغنى ؛ والمنة : النعمة .

هذه أيضاً صفة أرباب الأحوال ، وهو أن يتبرَّأَ العبد مما ذكر ، ويرى نفسَه محلاًّ لما يجريه الله تعالى عليه ، وأنَّ الله هو الفاعل .

ويقال : العبوديةُ معانقة ما أُمرت به ، ومفارقة ما زُجرت : نهيتَ عنه .

هذه عبادةٌ؛ لا عبوديَّة ، لأنَّ صاحبهَا مع الأعمال؛ ولم يرتقِ إلى الأحوال.

صحة العبودية : وسئل محمد ابن خفيف : متى تصحُّ العبودية ؟

فقال : إذا طرح العبد كلَّه : ثقله على مولاه ، وصبر معه على بلواه .

هذا يشمل التوكُّل والصبر والرضا ! وذلك صفة أرباب الأحوال أيضاً .

شرط التعبُّد : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا العبَّاس البغداديَّ ؛ يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير ؛ يقول : سمعت ابنَ مسروق ؛ يقول : سمعت سهل بن عبد الله ؛ يقول : لا يصحُّ : لا يصلح التعبُّد لأحدٍ حتَّى لا يجزعُ من أربعة أشياء : ١ـ من الجوع ، و٢ـ العري ، و٣ـ الفقر ،

و٤ـ الذلّ . لأنَّ الأحوالَ والمقاماتِ إنَّما تُنال بكمال الحدِّ من التفرُّغ من المشغلات ، والعبد إنَّما يمنعه من التفرُّغ منها للطاعات هذه الأربع ، فكلٌّ منها يُؤلِمُ وتفرُّ منه النفس ، فإذا لم يخفْ العبدُ منها لكمال زهده في الدنيا ؛ وصبرِه على المشاقِّ نال العبودية .

وقيل : العبوديَّةُ أن تسلِّم إليه تعالى كلَّكَ ، وتحمل عليه كَلَّك : ثقلَك ، لما في ذلك من التوكُّل والتفويض ، وذلك من أشرف المقامات .

من علامات العبودية : وقيل : من علامات العبودية تركُ التدبير ؛ وشهود التقدير . هذه أيضاً صفة أرباب الأحوال ، لأنَّ ترك التدبير من علامات التوكُّل والتفويض، وشهود التقدير من علامات المراقبة ، وهما من علامات العبودية .

حال العبد : وقال ذو النُّون المصريُّ ؛ رحمه الله : العبوديَّةُ أن تكون أنتَ عبدَه ـ تعالى ـ في كلِّ حال ، كما أنَّه ربُّك في كلِّ حال ؛ بأن تكون معه راضياً متذلِّلاً لما يجريه عليك .

عبيد النعم وعبيد المنعم : وقال الجُرَيري : عبيدُ النعم كثيرٌ عديدُهم : عددهم ، لتغيُّرهم بتغيُّرها ، فإنَّ طيب أحوالهم مع العوافي وتوالي النعم عليهم ، وضدُّه مع ضدِّها . وعبيد المنعم عزيزٌ وجودُهم لقلَّة الراضي بكلِّ ما يُجريه اللهُ عليه .

تحقيق العبودية : وحاصل ما قاله : الإشارة إلى أنَّ العبودية حالٌ يثمرها النظر إلى الله تعالى ، وكمالُ المعرفة بجلاله وعظمته ، فيَذِلُّ العبد في نفسه ، ويكمل انقياده لأوامره ، ويرضى بكلِّ ما يجريه اللهُ عليه ، بخلاف عبيد النعم ؛ الذين إذا تغيَّرت النعم تغيَّرت حالُهم .

عبد ما يخدم : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : أنت عبدُ مَن أنت في رِقِّه وأسره، فإنْ كنتَ في أسر نفسك ؛ فأنت عبدُ نفسك ، وإن كنتَ في أسر دُنياك ؛ فأنت عبد دنياك ، لاشتغالك بحفظ مَن أنت في أسره ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّرْهَمِ ، تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّينَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ ٱلخَمِيْصة ؛ إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ » ؛ والخميصةُ : كساءٌ

أسودُ مربَّع له أعلام ؛ قاله الجوهريُّ ، وتقدَّم[1] في رواية مع الخميصة « القَطِيْفَةُ » ؛ وهي : دثار مخمل ؛ قاله الجوهري .

العبد الغافل : ورأى أبو يزيد رجلاً عليه علامةُ الغفلة عن شغله بآخرته ؛ فقال له : ما حرفتك ؟ فقال : خَرْبَنْدَه ؛ لفظة أعجمية : خادم حماري . فقال داعياً له بأن يزول عنه شغلُه بخدمة حماره ؛ ويرجعَ إلى خدمة مولاه : أمات الله حمارك الذي شغلك عن آخرتك ، لتكون عبدَ اللهِ ومشغولاً بأوامره ؛ لا عبدَ الحمار .

صفو العبودية : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمِيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت جدِّي أبا عَمْرو ابن نُجَيد ؛ يقول : **لا تصفو لأحد قَدَم في العبودية ، حتَّى يشاهد أعماله عنده رياءً وأحواله دعاوي** ؛ مع سلامتها في الواقع من ذلك . . بأن يتبرَّأَ من إضافتهما إليه ، فإنَّه إن أضاف إليه الأعمالَ . . كان مرائياً ، لكونه نظر فيها لغير الله ، أو الأحوال كان مدَّعيا لما لا يملكه ، فإذا شاهد أعمالَه عنده رياءًا وأحواله دعاويَ ؛ كان مخلصاً لإضافته ذلك إلى الله ؛ كما مرَّ .

العبد والخادم : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت عبد الله المعلِّم ؛ يقول : سمعت عبد الله بن منازل ؛ يقول : **العبدُ عبدٌ ما لم يطلب لنفسه من غير حاجةٍ خادماً . . فإذا طلب لنفسه حينئذ خادماً . . فقد سقط عن حدِّ العبودية ، وتَرَكَ آدابَها** ؛ لكونه عَظَّم نفسه ورآها أهلاً لأن تُخدَم ، وحقهُّا أن تكون خادمة !! أما مَن طَلَبه لحاجة ، كعجزه !! فلا يسقط عن حدّ العبودية ، ويرى الفضل لمولاه عليه في لطفه به . . في حال عجزه ، حتَّى سَخَّر له مَن يخدُمه ويعينه على طاعته .

حقيقة العبودية : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت جعفر ابن نصير ؛ يقول : سمعت ابن مسروق ؛ يقول : سمعت سهلَ بن عبد الله ؛ يقول **لا يصلح للعبد التعبُّد حتى يكون بحيث ؛ لا يُرى عليه أثرُ المسكنة في العدم ، ولا أثر الغنى في الوجود** ، لأنَّ حقيقة العبوديَّة عدمُ تعلُّق القلب بالمحبوبات ، ورؤية الفضل لخالق البريَّات ، فإن ابتلي بفقر . . فلا يرى عليه أثر الذلَّة والمسكنة ؛ لفوات ما عَدِمَه من نعم الدنيا ، وإن أُجريت عليه النعم . . فلا

---

(١) تقدم تخريجها ص ١٣١ ، ص ٤٠٤ ، وانظر ص ٥٩٨ .

يظهر عنده افتخارٌ ؛ لعدم قَدْر نعم الدنيا في قلبه للزهد فيها ، ورؤية جميع ما هو فيه من ربِّه .

دوام العبودية : وقيل : العبودية شهودُ الرُّبوبيَّة . وهو سبب عظيم في دوام العبوديّة ، لأنَّ العبد إذا توالت عليه مراقبتُه لجلال مولاه ذَلَّ في نفسه بالنظر لما هي عليه ؛ من جهة طبعها ، لا بالنظر لما خصَّها به ربُّها مِن كرامته .

قيمة العابد وشرف العارف : سمعت الأستاذ أبا علي الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : سمعت النصرآباذي ؛ يقول : **قيمة العابد بمعبوده ، كما أنَّ شرف العارف بمعروفه** .

فكلُّ مَن عبد شيئاً ـ بمعنى : أحبَّه ـ فرفعته وقيمته على حسب معبوده ، فمن عَبَدَ زوجته ؛ أو ولده ؛ أو قماشه ؛ أو الشيطان ؛ أو نحوه . . فهو عبدُه ، وقيمته على قدر مَنْ عَبَده ، ومن عَبَد الله خالصاً فرفعته في الدنيا والآخرة على حسب جلال الله ، كما أنَّ رفعةَ العبد من رفعةِ سيِّده ، وكذا العارف رفعتُه على حسب معروفه ، فليس مَن عرف الشرَّ كمن عرف الخير ! ، وليس من عرف غيرَ الله كمن عَرَف الله ! ! .

زينة العبد : وقال أبو حفص رحمه الله تعالى : **العبوديَّة زينةُ العبد** ؛ لما فيها من التذلُّل والافتقار ، والتبرُّؤ من الحول والاقتدار . فمن تركها تعطَّل من الزينة بهذه الأمور .

أصل العبادة : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا جعفر الرازي ؛ يقول : سمعت عبَّاس بن حمزة ؛ يقول : حدثنا أحمد ابن أبي الحواريِّ ؛ قال : سمعت النِّباجي ؛ يقول : **أصل العبادة** ؛ وهو الإخلاص فيها الذي لا يتمُّ إلاَّ بكمال المعرفة بانفراد الحقِّ بوجوب الطاعة ، وأنه لا فعلَ لغيره منحصرٌ في ثلاثة أشياء : ١ـ لا تردُّ أنتَ من أحكامه تعالى ؛ من بلايا وغيرها شيئاً ، و٢ـ لا تدَّخر عنه شيئاً من أعمالك ، و٣ـ لا يسمعك تسألُ غيره حاجةً ، إذ لا فعل لغيره .

خصال العبودية : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا الحسين الفارسيَّ ؛ يقول : سمعت ابنَ عطاء يقول : **العبودية منحصرة في أربع خصال تجمع أسباب الدنيا والآخرة** :

١ـ الوفاء بالعهود من كلِّ مأمور به ، قال تعالى ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا

عَهَدتُّمۡ﴾[1] ، و٢ـ الحفظُ للحدود من كلِّ منهيٍّ عنه ، و٣ـ الرِّضا بالموجود ممَّا فتح الله به من أمور الدنيا والآخرة ، و٤ـ الصبرُ على المفقود مما تلف وممَّا لم يفتح الله به من ذلك .

كمال المعرفة : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان ؛ يقول : سمعت الكَتَّاني ؛ يقول : سمعت عمرو بن عثمان المكِّيَّ ؛ يقول : ما رأيت أحداً من المتعبِّدين في كثرة مَن لقيتُ بمكَّةَ ولا غيرها ، ولا أحداً ممن قَّدِم علينا في المواسم أشدَّ اجتهاداً ، ولا أدومَ على العبادة من المُزَنيِّ رحمه الله تعالى ؛ لكمال معرفته بوعد ربه ووعيده ، وما أعده الله للمطيعين ، وحذَّر منه المخالفين !! ولا رأيتُ أحداً أشدَّ تعظيماً لأوامر الله تعالى منه ؛ لكمال معرفته بربِّه وتعظيمه لأوامره ونواهيه ! وما رأيتُ أحداً أشدَّ تضييقاً على نفسه منه ؛ من حيث سلوكُ الورع والزهد ، والتوكل والرضا والمحبَّة وغيرها من المقامات ، ولا أشدَّ توسعةً على الناس منه ؛ من حيث أنه يأمرهم بما أمروا به وينهاهم عما نهوا عنه ! .

الأشرفُ الأتمُّ : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : ليس شيءٌ أشرفَ من العبوديَّة ، ولا اسم : وصف أتمُّ للمؤمن من الاسم : الوصف له بالعبودية ، ولذلك قال سبحانه في وصف النَّبيِّ ﷺ ليلة المعراج ، وكان أشرفَ أوقاتِه في الدنيا ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾[2] ، وقال فيه ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠﴾[3] مع أنه دعا غيره من الأنبياء بأسمائهم بـ ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾[4] و﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾[5] و﴿يَٰصَٰلِحُ﴾[6] ، ودعاه

---

(١) الآية : ٩١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .

(٢) الآية : ١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

(٣) الآية : ١٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النجم .

(٤) الآية : ١٤٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف . ومواضع أخرىٰ .

(٥) الآية : ٥٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران . ومواضع أخرىٰ .

(٦) الآية : ٧٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف . وهو حكاية قومه وليس نداء الله تعالىٰ !! ﴿ وقالوا يا صالح أئتنا بما تعدنا ﴾ وعليه فلا يكون فيه شاهد لما نحن فيه .

بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾[1] ، ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾[2] ، ونحوِهما ؛ تشريفاً له . فلو كان اسمٌ أجلَّ من العبوديّة لَسَمَّاهُ به ، في هذه الحالة ، وفي معناه أنشدوا :

يَاعَمْرُو ثَأْرِي عِنْدَ زَهْرَائِي   يَعْرِفُهُ السَّامِعُ وَٱلرَّائِي
لاَ تَدْعُنِي إِلاَّ بِـ (يَآ عَبْدَهَا)   فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

فإنَّ ذلك يدلُّ على أنَّ عادة العرب في إكرام بعضهم بعضاً أن يدعوَ كلٌّ منهم غيرَه بأشرف الأسماء عنده وأحبِّها إليه .

مسقط العبودية : وقال بعضهم : إنَّما هو - يعني المسقط للعبودية - شيئآن :
١ـ **سكونُك إلى اللذَّة** : استحسانُك لها ؛ ووقوفُك معها ، و٢ـ **اعتمادُك على الحركة المقتضيةِ للغفلة عن المحرِّك ولفقدان التوكُّل** .

لذَّة العطاء : **فإذا أسقطت عنك هذين الشيئين ؛ فقد أدَّيت العبودية حقَّها لتبرِّيك من الحول والقوَّة** ، كماقال الواسطي : **إِحذروا لذَّة العطاء** : لَذَّة وصول النعم إليكم ، **فإنَّها غطاء** ؛ أي ستر لأهل الصفاء عن وصولهم إلى مقاصدهم .

حصن العبودية : وقال أبو عليٍّ الجَوْزَجَاني : الرِّضا دار العبودية ، والصبرُ بابُه ، والتفويضُ بيته ؛ لأنَّ أول العبودية العبادةُ ؛ وهي القيامُ بالمأمورات ، واجتنابُ المنهيَّات ، ولا يقوم العبد بذلك إلاَّ بالصبر ، فهو باب الخيرات والوصول إلى أعلى الدرجات ، فإذا وصل العبد إلى هذه الدرجات الرفيعات . . رضي بكلِّ ما يردُ عليه منَ الله ؛ ولو بغاية المشقَّات ، وإذا تمكَّن في هذا . . فوّض أمره إلى الله واستراح من هَمِّ التقديرات .

أركان العبودية : فالصوتُ على الباب ، والفراغة في الدار ، والرَّاحة في البيت .

بنىٰ هذا القائل العبوديَّة على ثلاثةِ أركان : الصبر ، والرِّضا ، والتفويض ، والصبر أوّلها وهو البابُ ، وعليه يكون الصوتُ والدُّعاء ، فإن أُذن له . . دخل الدار ؛ وهي مقام الرضا الواسع ، ولهذا شبَّهه بالدار ، فإذا تمكَّن في الرضا دخل البيت ، وهو التفويض ، وهو محلُّ الراحة ! والدار

---

(١) الآية : ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٧٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنفال ، ومواضع أخرىٰ .
(٢) الآية : ٤١ ـ ٦٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المائدة ، ومواضع أخرىٰ .

موضع الفراغ من الأعمال الشاقَّة التي كانت على الباب .

نعته صفتنا : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **كما أنَّ الربوبيَّة نعت للحقِّ لا تزولُ عنه ؛ فالعبودية صفةٌ للعبد لا تفارقه ما دام في الدنيا والآخرة .**

وأنشد بعضهم[1] في هذا :

فَإِنْ تَسْأَلُونِي عني بالنسبة إلى الله ؛ قُلْتَ : هَاأَنَا عَبْدُهُ

وَإِنْ سَأَلُوهُ؛ أي الله عني ، قَالَ: هَذَا مَوْلاَئِي: عبدي ومملوكي :

وإن سألوا العبد عن الله ؛ قال هذاك مولاي ، ويكون فيه التفاتٌ .

ومقصود أبي عليٍّ بما قاله : أنَّ العبد إذا عَلِم أنَّ العبودية وصفُه اللازمُ له ؛ فينبغي له أن يعطيَ هذا الوصفَ حقَّه مِن القيام بوصف العبودية ، وهو أن يقوم بحقوق الرُّبوبيَّة .

العبودية والجزاء : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله؛ يقول : سمعت النَّصْرَاباذي؛ يقول في صاحب العبادات : **العباداتُ إلى طلب الصفح والعفو عن تقصيرها أقربُ منها إلى طلب الأعواض والجزاء عليها** ، لأنها لكون صاحبها معتنياً بإتقانها وإيقاعها على وجهها تحتاج إلى الإخلاص ، وأنّىٰ للعبد به !! فهو أحوجُ إلى الصفح والعفوِ منه إلى أن يطلبَ العِوَض والجزاء والثواب على عمله .

ثمرة العبودية : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت النصراباذيَّ ؛ يقول : **العبودية إسقاطُ رؤيةِ التعبُّد في مشاهدة المعبود** ، فصاحبُها بعيد عن الآفات لأنَّه مخلص ، إذ أعمالُه وسائر أحوالها يُجريها الحقُّ عليه خالصةً مبرَّأةً من العلل ، وهو يراها فضلاً من ربِّه عليه ، فيستحيي من دعواها لنفسه ؛ فضلاً عن طلبه الجزاء عليها منه .

تحقُّق العبودية : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر محمد بنَ عبد الله بن شاذان ؛ يقول : سمعت الجُرَيري ؛ يقول : سمعت الجنيدَ ؛ يقول : **العبوديَّة ترك الأشغال التي لا تعين على الآخرة ، والاشتغالُ بالشغل الذي هو أصلُ الفراغة من كلِّ ما يضرُّ** ؛ بأن يشتغل العبد بالطاعات ، ويرى الفضل لمجريها عليه في عموم

---

(١) فَإِنْ تَسْأَلُونِي قلتُ (هَا أَنا عَبْدُهُ) وَإِنْ سَأَلُوهُ قال (هَذَاك مَوْلائِي)

الأوقات ، فإذا وصل إلى هذه الحالة استراح قلبه من همِّ التقديرات ، ورضيَ وفوَّض أمرَه إلى خالق البريَّات ، وهذه هي الفراغة من كلٍّ ما يضرُّ ؛ والاستراحة فيما ينفع ويَسُرُّ . والله [تعالى] أعلم .

* * *

٢٤ ـ باب الإرادة

تعريفها والحضُّ عليها : هي عندهم التجرُّد لله في السلوك إلى كمال التوحيد .

وهي ممدوحة ومطلوبة ، قال الله عزَّ وجل ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[١] ، وقال ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾[٢] ، وقال ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[٣] .

العبد الموفّق : وأخبرنا عليُّ بن أحمدَ بن عبدان ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن عبيد ؛ قال : حدَّثنا هشام بن علي ؛ قال : أخبرنا الحَكَم بن أسلم ؛ قال : أخبرنا إسماعيل بن جعفر ؛ عن حميد ؛ عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً ٱسْتَعْمَلَهُ » . فقيل له : كيف يستعمله يا رسولِ الله !؟ فقال : « يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ ٱلْمَوْتِ »[٤] ، ومَن وفقه الله للتجرُّد تجرَّدَ .

درجتها : والإرادة بدءُ طريق السَّالكين بمعنى التجرُّد السابق .

---

(١) الآية : ٥٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

(٢) الآية : ٢٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الشورىٰ .

(٣) الآية : ٥٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الذاريات .

(٤) أخرجه أحمد : ٣/١٠٦ ـ ١٢٠ ، والترمذي : ٢١٤٣ بلفظه وصحَّحه ، وابن حبان : (الإحسان : ٣٤١) ، والحاكم : ١/٣٤٠ ؛ عن أنس رضي الله عنه بزيادة : « ... ٱلْمَوْتِ ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ » .

وهي : اسمٌ لأوَّل منزلة القاصدين إلى الله تعالى .

وإنَّما سُمِّيت هذه الصفةُ المسماة بذلك « إرادة » . . مع أنَّه لا إرادة فيها للعبد !! لأنَّ الإرادة مقدِّمةُ كلِّ أمرٍ ، فما لم يُرِد العبدُ شيئاً لم يفعله ، فلما كان هذا البدءُ أوَّل الأمر لمن سَلَك طريق التوصُّل إلى الله تعالى سُمِّي « إرادة » تشبيهاً بالقصد : الإرادة في الأمور الذي هو مقدِّمَتُها .

والمريد ؛ على موجَب الاشتقاق : مَنْ له إرادة ، كما أنَّ العالم مَن له علم ، لأنَّه من الأسماء المشتقَّة ، ولكن المريد في عرف هذه الطائفة من لا إرادة له : لا اختيار له في نفسه ، ولا تمييز لمراده وإنَّما تجرَّد لمراد الحقِّ تعالى به ومنه .

فمن لم يتجرَّد عن إرادته لا يكون مريداً على طريقة هؤلاء . كما أنَّ مَن لا إرادة له على موجَب الاشتقاق لا يكون مريداً .

معناها : وتكلَّم الناس في معنى الإرادة ، فكلٌّ عبَّر على حسبِ ما لاح لقلبه ، فأكثر المشايخ قالوا : الإرادةُ تركُ ما عليه العادة ؛ لأنَّ مَن اجتهد في طلب الحق . . أعرض عن عاداته . وعادةُ الناس في الغالب التعريجُ في ـ أي : الإقامة على ـ أوطان الغفلة ، والركونُ إلى اتباع الشهوة والإخلاد : إدامة البقاء إلى ما دعت إليه المُنْية : البغية ، والمريد منسلخٌ عن هذه الجملة : التعريج والركون والإخلاد إلى ما ذُكر ؛ فصار خروجه عن عاداته أمارةً ودَلالة على صحَّة الإرادة ، فسُمِّيَت تلك الحالة التي هو فيها « إرادة » ، وهي خروجٌ عن العادة .

فإذن تركُ العادة أمارةُ الإرادة لا حقيقتُها .

حقيقتها : فأمَّا حقيقتها !! فهي نهوضُ القلب في طلب الحق سبحانه ، ولهذا يقال : إنها ـ أي الإرادة ـ لوعةٌ : حرقةٌ في الفؤاد ، تهوِّن كلَّ روعة : فزعة .

إرادة وعصيدة : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول ـ حاكياً عن ممشاد الدينوري ؛ أنَّه قال ـ: مذ علمتُ أنَّ أحوال الفقراء جدٌّ كلُّها[1] لا هزل فيها . .

---

(١) يؤيده ما مرَّ عن الروذباري رحمه الله : هذا الطريق جدّ لا هزل فيه . ص ٢٠٧ .

لم أمازح فقيراً ، وذلك أنَّ فقيراً قَدِم عليَّ ؛ فقال ـ وكان به جوع ـ: أيها الشيخ ؛ أريدُ أن تتخذ لي عصيدة ، فجرى على لساني : (إرادةٌ : تشتهي إرادة وعصيدة !!) فتأخَّر الفقير ـ أي : فلما سمع منه الفقير ذلك أخذته غَيرة ، وقوي حاله وتأخَّر وانصرف ـ ولم أشعر به ، فأَمرتُ باتخاذ عصيدة ! وطلبتُ الفقير ؛ فلم أجده ، فتعرَّفتُ خبره !! فقيل لي : إنَّه انصرف من فوره ؛ وكان عند انصرافه يقولُ في نفسه : مخاطباً لها (إرادة وعصيدة ؟!! إرادة وعصيدة ؟!)، وهام على وجهه حتى دخل البادية ، ولم يزل يقول هذه الكلمة حتى مات !

معاملة الفقير : مقصوده بذلك أن الفقراء قلوبهم صافية مترقبة لما يرد عليها من الله ، ولهذا قيل : إذا لقيت الفقير فألْقَهُ بالرفق ؛ لا بالعلم[1] ، لغلبة الأحوال عليه ، فإذا رفق العبدُ به حتَّى ينجليَ عنه ما هو فيه نَفَعه ، وانتفع به ، وإذا طَالَبَه بالعلم ؛ وهو في غلبة الحال !؟ أهلكه .

توضيح : وهذا الفقير كان جائعاً ؛ واحتاج إلى طعام وعرف من نفسه أنَّه لا يمكنه ابتلاع الخشن ! فقصد هذا الشيخ ؛ معتمداً على معرفته بعادات الفقراء ، وطلب منه ما يوافق جوعه ، وهو العصيدة ، فأجرى الله على لسان الشيخ (إرادة وعصيدة) !! فسمعه الفقير فهام على وجهه ، فكان ذلك مع جوعه السابق سببَ موته .

وعن بعض المشايخ؛ قال : كنتُ بالبادية وحدي فضاق صدري ؛ فقلت : يا إنس كلِّموني ! يا جنُّ كلِّموني ! فهتف بي هاتف !! إيش تريد من كلامهم؟ فقلت أريدُ الله تعالى . فقال الهاتف : متى تريدُ الله تعالى ؟!! يعني أنَّ مَن قال للإنس والجن (كلِّموني) ؛ متى يكون مريداً الله تعالى !! . لأنَّ مَن كان قلبه مجموعاً مع الحقِّ لم يلتفت لإنس ولا جنٍّ ولا غيرهما من سائر المخلوقات ، فعُلم أنَّ الإرادة إفرادُ الحقِّ بالقصد والطلب والإعراض عن كلِّ مشغل .

والمريد لا يفترُ عن الاجتهاد في الطاعات ؛ آناء الليل والنهار فهو في

---

(١) المجرَّد عن الرفق وسيأتي ما يشابهها (انظر ص ٦٣٨ أثر الحب) .

الظاهر متَّصفٌ بنعت المجاهدات ، وفي الباطن متَّصفٌ بوصف المكابدات قد فارق الفراش ، ولازم الانكماش : الإسراع إلى الطاعات ؛ أو التذلُّل والاستكانة، وتحمّل المصاعب، وركب المتاعب ، وعالج الأخلاق ، ومارس المشاقَّ ، وعانق الأهوال ، وفارقَ الأشكال ، كما قيل[1] في معنى ذلك :

ثمَّ قَطَعْتُ ٱللَّيْلَ في مَهْمَةٍ : مفازة بعيدة

لاَ أَسَداً أَخْشَىٰ وَلاَ ذِيْبَاً

يَغْلِبُنِي شَوْقِي فَأَطْوِي ٱلسُّرَىٰ : السير ليلا ،

وَلَمْ يَزَلْ ذُو ٱلشَّوْقِ مَغْلُوبَاً .

أثر الإرادة : سمعت الأستاذ أبا علي الدقَّاق رحمه الله تعالى ؛ يقول : **الإرادة لوعةٌ** : حرقة في الفؤاد ، لدغةٌ : حرقة في القلب ، غرامٌ في الضمير ، انزعاج في الباطن ، نيران تتأجَّج : تتلهَّب في القلوب . كلٌّ من هذه المذكورات يصلح أن يعبَّر به عن الإرادة ، لأنَّه يدلُّ على كمال الاحتراق في الطلب ، وكمالِ الشوق في تحصيل الأرب ، والإعراض عن كلِّ قاطع ، من حظٍّ أو سبب .

في التنور المسجور : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمد بن عبد الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر السبَّاكَ ؛ يقول: سمعت يوسف بن الحسين ؛ يقول :

كانَ بين أبي سليمان الداراني وأحمدَ بن أبي الحواريِّ عقدٌ ؛ لا يخالفه أحمد في شيء يأمره به ، فجاءه يوماً وهو يتكلَّم في مجلسه بالمواعظ ، فقال له : إنَّ التنُّور ـ وهو ما يُخبَز فيه ـ قد سُجِر : حُمِي ، فما تأمربما يفعل فيه ؟ فلم يجبه . فقال له ذلك أحمدُ مرَّتين أو ثلاثة ! . فقال له أبو سليمان : اِذهب فٱقعد فيه . كأنه : أبا سليمان ضاقَ به ـ أي : بما قاله أحمد ـ قلبُه : قلب أبي سليمان ، حتَّى قال : اِذهب فٱقعد فيه !! أو كان أحمد ضاق قلبه بقول أبي سليمان ذلك ، وتغافل عنه أبو سليمان ساعة ، ثُمَّ ذَكَر : تذكَّره ؛ فقال : أدركوا ـ في نسخة : اطلبوا ـ أحمد فإنه في التنُّور !! لأنَّه آلىٰ : حلف على نفسه

---

(١) ثُـمَّ قَطَعْـتُ ٱللَّيْـلَ فِـيْ مَهْمَـةٍ ... لاَ أَسَـداً أَخْشَـىٰ وَلاَ ذِيْبَـا
يَغْلِبُنِي شَوْقِي فَأَطْوِي ٱلسُّرَىٰ ... وَلَـمْ يَـزَلْ ذُو ٱلشَّـوْقِ مَغْلُـوبَـا

أن لا يخالفني في شيء ، فنظروا ، فإذا هو في التنور لم تحترق منه شعرة ! كأنَّه كان يعلم من حال أحمد أنَّ العادة انخرقت له ؛ في أن النار لا تؤثر فيه ، فأمره بذلك وامتثل أحمد .

فائدتها : وفائدة حكاية ذلك : تعريفُ الناس منزلةَ أحمد ورفعة مقامه ، ليقتديَ به مَن بعده ، وطلب كمال الجدّ والامتثال لأوامر المشايخ في السلوك .

طالب الإرادة : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ رحمه الله ؛ يقول : كنتُ في ابتداء صباي محترقاً شديد الطلب في الإرادة ، وكنت أقول في نفسي : ليت شعري ! ما معنى الإرادة ؛ حتى نالني منها طرف ! فاشتدَّ طلبي لها .

صفات المريدين : وقيل لي : من صفات المريدين عشرةُ أشياء :

١ـ التَّحبُّب إليه تعالى بالنوافل ، لأنَّها الموعود عليها بالمحبَّة منه ؛ في خبر : «﴿ وَلاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ ﴾»[1] . و٢ـ الخلوص في نصيحة الأمَّة المترتِّب عليه ثوابُ نفعهم ، و٣ـ الأنس بالخلوة ، لخلوص الطاعة من التفات القلب إلى ما يطرق الأذن من الأخبار ، و٤ـ الصبرُ على مقاساة الأحكام ، ليتحقَّق به مخالفة عادات العبد ، و٥ـ الإيثار منه لأمره تعالى على ما يميل إليه هواه ، و٦ـ الحياء من نظره تعالى إليه ، وذلك حيث يستشعر نظره إليه في سائر أحواله ؛ فيسلمَ من أن يراه مولاه في حالةٍ لا يرضاها ، و٧ـ بذل المجهود في طلب محبوبه تعالى من فعل مأموراته ؛ بأن يجتهد في أن لا يَخطر بقلبه في سائر تصرُّفاته غيرُ ربِّه تعالى ، و٨ـ التعرُّض لكلِّ سبب يوصل إليه : إلى محبوبه ، و٩ـ القناعة بالخمول ؛ ليسلمَ من آفات الشهرة ، وما يدخل عليه من تشويش الخلق وتعلُّقهم به ؛ إذا عرفوا مقامه ورفعةَ منزلته عند ربِّه ، و١٠ـ عدم القرار بالقلب ؛ بأن يكون خائفاً من رَبّه إلى أن يصل إلى الربِّ سبحانه .

آفة المريد : وقال أبو بكر الورَّاق : آفةُ المريد القاطعةُ له عن الإرادة ثلاثةُ أشياء :

١ـ التزويج ؛ بمعنى التزوُّج ، لأنه إذا تعلَّق قلبه بالزوجة ؛ فربَّما أسرع إليه الفساد ؛ لا سيما إذا حدث بينهما أولاد .

---

(١) تقدَّم تخريجه ص ٣٦ .

و٢ـ كَتْبة الحديث ـ يعني : التفرُّغ لكتابته ـ وقراءته ودرسه ؛ وإن كان فيها فضل ، لأنَّها تشغله عن القيام بما يخصُّه ؛ من إصلاح قلبه وجوارحه ، واستقامته مع ربِّه في إخلاصه .

و٣ـ الأسفار ، لأنها تشغل القلب ، سواء لاقىٰ فيها الأشرار ؛ لأنَّ ملاقاتَهم تورث التغيير وفساد القلب ؛ أم الأخيار ؛ لأنَّ ملاقاتهم تورث التزُّين لهم والمراآت بإظهار أعمالهم .

وقيل له : لِمَ تركت كتابة الحديث !؟ فقال : منعتني عنها الإرادة ، لما بينهما من المنافاة ـ كما علم ممَّا مرَّ ـ .

نذالة المريد : وقال حاتمٌ الأصمُّ : إذا رأيت المريد يريد غيرَ مراده ؛ بأن نسب نفسه إلى شيء وزعم أنَّه من أهله ؛ ثمَّ تبيَّن من باطنه خلافُ ما أظهر ، وسلك طريقاً غيرَ موصلة إلى مقصوده الذي أظهره . . فاعلم أنَّه قد أظهر نذالته : خبث باطنه وسوء سريرته التي أخفاها وأظهر غيرها . فإذا ادَّعى الإرادة وسلك ضِدَّ طريقه ؛ من التواني والكسل والمحبَّة للدنيا ، وطول الأمل . . فقد أظهر من أخلاقه ما لا يحسن ظهورُه ، وأطلع الناس على سوء سريرته .

حكم المريد : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت الكَتَّانيَّ ؛ يقول : مِن حكم المريد أن يكون فيه ثلاثةُ أشياء : ١ـ نومُه غَلَبَة ، و٢ـ أكلُه فاقة ، و٣ـ كلامه ضرورة ، لأنَّ المريد المجتهد ، يصرف عنه كلَّ ما لا حاجة له به ، لخبر : « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ ٱلْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيْهِ »[1] والذي لا يعنيه هو الذي لا حاجة له به في تحصيل مراده الذي يبغيه .

المراد الخير : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعتُ الحسين بن أحمد بن جعفر ؛ يقول : سمعت جعفر بن نُصَير ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : إذا أراد الله تعالى بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية الذين صفوا وخلصوا من الأخلاق الذميمة ، واتصَّفوا بالحميدة ، ومنعه صحبة القُرَّاء المُقْتَصرين على التعبُّد ؛ من غير اعتناء بتغيير أخلاقهم الذميمة بالحميدة .

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٠٧ ـ ٣٧٤ .

نهاية الإرادة : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت عبد الله بن عليٍّ ؛ يقول : سمعت الرقيَّ ؛ يقول : سمعت الدقَّاق ؛ يقول : **نهايةُ الإرادة ؛ أن تشير إلى الله تعالى فتجدَه مع الإِشارة** ؛ بأن يجري عليك ما أراده ، وما أشرتَ إليه فيه .

فقلت له ـ **فَأَيْش** ـ : فأيُّ شيء ـ **يستوعِبُ الإِرَادة** ؟ بحيث لا يكون للعبد في حصول مطالبه اختيار ولا إشارة ؟! **فقال : أن تجد الله تعالى بلا إشارة** ؛ بأن يجريَ عليك جميع ما تحتاجه من غير طلب ، أو بأن يكون دائمَ النظر إليك والمراقبة لك في سائر أحوالك بلا سبب .

شرط المريد : سمعت محمد بن عبد الله الصوفيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبَّاس ابن أبي الصحو ؛ يقول : سمعت أبا بكر الدقَّاق ؛ يقول : **لا يكون المريد مريداً حتَّىٰ لا يكتب عليه صاحبُ الشمال** ذنباً **عشرين سنةً** ؛ مثلاً بأن يحفظ من الزلل ، أو يعقِبَها بالتوبة قبل أن تكتب عليه ، فقد جاء في خبر : أَنَّ كاتبَ اليمين له نظرٌ على كاتب الشمال ، فإن زلَّ العبد زلَّةَ . . أمره أن يمهل عليه ، فإن تاب !! لم يكتب ، وإلاَّ كَتَبَها .

بداية الإرادة : **وقال أبو عثمان الحِيريُّ** : **مَن لم تصحَّ إرادته بِدَاراً** : ابتداء لا يزيده **مرورُ الأيامُ عليه إلاَّ إدباراً** ؛ لأنَّ البناء إنَّما يكون على أساس صحيح ، فمن لم يكن أساسُ طاعاتِه على الخوف والرجاء ، والصدق والإخلاص ، وكمال المعرفة بالله . . ونحوها ؛ لم يزده طولُ الأيام إلاَّ خروجاً عن الطريق .

نفع المريد : **وقال أبو عثمان** أيضاً : **المريدُ إذا سمع شيئاً من علوم القوم فعمل به . . صار مسموعُه حكمةً في قلبه إلى آخر عمره ؛ ينتفع به** ، لأنَّ عمل العبد بالعلم ، يُطلِعُه على ما فيه من الآفات ؛ فيحترز منها فينتفع بعلمه ، **ولو تكلَّم به** : بمسموعه . . **انتفع به مَن سمعه ، ومن سمع شيئاً من علومهم ؛ ولم يعمل به كان ما سمعه حكايةً يحفظها أيَّاماً ثم ينساها** ؛ فلا يفيده ذلك شيئاً .

حقيقة المريد : **وقال الواسطيُّ** : **أَوَّل مقام المريد إرادةٌ** : اختيار إرادة **الحقِّ سبحانه بإسقاط إرادته** : اختياره ، بأن يرضى باختيار ربِّه له ، لما مرَّ من أنَّ المريد : مَن لا إرادة له .

أشدُّ شيء : **وقال يحيى بن معاذ** : **أشدُّ شيء على المريدين معاشرةُ الأضداد** ، لأنَّ ضدَّكَ مَن لا يجامعك على مقصود ، لأنه يريد خلافَ ما تريده .

تتبع الرخص : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا القاسم الرازيَّ ؛ يقول : قال يوسف بن الحسين : إذا رأيت المريد يشتغل بالرُّخَص التي فيها تركُ مندوب ؛ أو فعل مكروه ، والكسبِ؛ فليس يجيء منه شيء يعتدُّ به ؛ وإن كان ذلك جائزاً لا إثم فيه .

جنديّة الحكايات : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت جعفر الخَلديَّ ؛ يقول : سُئل الجنيد : ما للمريدين في مجاراة الحكايات الخارقة للعادة مما وقع للصالحين ؟ .

فقال : الحكايات جندٌ من جنود الله تعالى يقوّي بها قلوبَ المريدين ، فإنَّها تتأثَّر وتقوى بها على اليقين .

فقيل له : فهل لك في ذلك شاهدٌ ؟ .

فقال : نعم؛ قوله تعالى ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[1] وقد قصَّ الله تعالى في كتابه على نبيه ﷺ ما جرى لآدم وإبراهيم ونوح وعاد وثمود وغيرهم ، وأن العاقبة لهم .

كفاية الصدق : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت محمد بن خالد ؛ يقول : سمعت جعفراً ؛ يقول : سمعت الجنيد يقول : المريد الصادق في الإرادة غنيٌّ عن علم العلماء الذي لم تدعُه إليه حاجة في إصلاح دينه ، أما ما دعت إليه حاجته في ذلك فهو واجب عليه ، وأما علوم الشريعة ، التي هي فرض كفاية ، فإن قام بها غيرُه سقط عنه القيام بها ، وإلاَّ ! فلا . هذا في بيان المريد .

المريد والمراد : فأما الفرق بين المريد والمراد . . بالنظر إلى إصطلاحهم !! فهو ما يأتي عقب بيانِ ما بينهما بالنظر إلى الوجود ، وهو ما ذكره بقوله :

فكلُّ مريد على الحقيقة مرادٌ ، إذ لو لم يكن مرادُ الله تعالى بأن يريده : بإرادته له . . لم يكن مريداً ، إذ لا يكون : يوجد إلا ما أراده الله عزَّ وجلَّ ، وكلُّ مرادٍ مريدٌ ، لأنَّه ـ أي : المراد ـ إذا أراده الحقُّ سبحانه بالخصوصية وفَّقه للإرادة ، ـ وفي نسخة : بالإرادة ـ

---

(١) الآية : ١٢٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : هود عليه الصلاة والسلام .

فبينهما تلازم في الوجود ، ولكن القوم فرَّقوا بين المريد والمراد . فالمريد عندهم هو المبتدىء ، والمراد هو المنتهي .

ويقال أيضاً : المريدُ هو الذي نصب بعين التعب ، وألقي في مقاساة المشاقّ .

والمراد هو الذي كُفي بالأمر من غير مشقَّة ، فالمريد على هذا متعنٍّ ، والمراد مرفوق به مرفَّهٌ ؛ ويعَّبر عن هذا بأن المريد هو المتعنِّي في السلوك ، والمراد هو الملطوف به المعان .

وسنة الله تعالى مع القاصدين رضي الله عنهم مختلفة ، فأكثرهم يوفَّقون أولاً للمجاهدات في سلوكهم ، ثُمَّ يصلون بعد مقاسات اللُّتَيَّا ، والتي ـ هما اسمان للداهية ؛ قاله الجوهري ـ إلى سَنيِّ المعالي : رفيعها ، وكثير منهم يكاشَفون في الابتداء بجليل المعاني : عظيمها بما يخلقه الله في قلوبهم من المعرفة والشوق ، ويصلُون إلى ما لم يصل إليه كثير من أصحاب الرياضات ، إلاَّ أَنَّ أكثرَهم يُردُّون إلى المجاهدات بعد هذه الأرفاق ـ جمع رفق ـ، ليستوفيَ منهم ما فاتهم من أحكام أهل الرياضة ؛ ليس مراده أنَّهم يردُّون إلى ما خرجوا منه من الأخلاق الذميمة ؛ والأعمال الشاقَّة ، بل مرادهُ أنَّهم يلقون في مقاماتهم العالية من المجاهدات وملازمة الآداب والامتحان في ذلك ما لَقِيه أربابُ البدايات في بدايتهم ، فإنَّ كلَّ مقامٍ عالٍ لا بدَّ له من موانع تصدُّ عنه .

موسى ونبينا ﷺ : سمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول في الفرق بين المريد والمراد : المريد متحمِّلٌ للمَشاقِّ ، لأنَّه في طريق المجاهدات ، والمراد محمول عنه تلك المشاقُّ .

وسمعته أيضاً ؛ يقول . . في الفرق بينهما : كان موسى عليه السَّلام مريداً فقال : فإنه قال ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي . . . ﴾ الآية[1] ؛ سأله ذلك لِمَا لقيه عند اجتماعه بفرعون ، وما يعرفه من غلظته ؛ كما قال في محلٍّ آخرَ ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾[2] .

وكان نبينا ﷺ مراداً ؛ فقال الله ـ: فإنَّ اللهَ ـ تعالى قال له ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ

---

(1) الآية : ٢٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : طه .

(2) الآية : ٤٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : طه .

صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾[١] : شرحناه لك بالنبوة وغيرها ، فشَرَحه له . . ولم يسأله فيه .

وكذلك **قال موسى ـ عليه السلام** ـ لما تقدَّم له مِن سماع الكلام الأزليِّ ، ونيلِ تلك الحالة العظيمة ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾[٢] سأله الرؤية لكمال النعمة فأعلمه أنه لا قدرة له عليها !

وقال لنبيِّنا ﷺ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾[٣] فرآه . . ولم يسأله .

توضيح واستدراك : وكان **أبو عليّ يقول** : **إنَّ المقصود** بالاستدلال **قولُه** ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ، **وقولُه** ﴿ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ **سترٌ للقصَّة وتحصينٌ للحالة** : لحالة الرؤية ، وظاهرٌ أنَّ الآية ليست صريحة في أنَّه رآه ، لاحتمال أنَّ المرادَ (ألم تر إلى فعل ربك) .

وقد **اختلفوا** في رؤيته ليلة المعراج !!

والصحيح أنَّه رآه ، وبالجملة فهو ﷺ أفضلُ الخلق ؛ وإن لم تدلَّ الآية على رؤيته ، وأما قوله : « لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ ٱلأَنْبِيَاءِ »[٤] ، وقولُه « لَا تُفَضِّلُونِي عَلَىٰ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ »[٥] ؛ ونحوهما !!.

فأُجيب عنها بأنَّه نهىٰ عن تفضيلٍ يؤدِّي إلى تنقيص بعضهم ، أو عن تفضيلٍ في نفس النُّبوَّة التي لا يتفاوت فيها؛ لا في ذوات الأنبياء المتفاوتين بالخصائص ، وقد قال تعالى ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[٦] ، أو نهى عن ذلك تأدُّباً وتواضعاً ، أو نهىٰ عنه قبل علمه بأنه أفضل ، ولهذا لَمَّا عَلِم قال : « أنا

---

(١) الآيات : ١ ـ ٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الانشراح .

(٢) الآية : ١٤٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

(٣) الآية : ٤٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الفرقان .

(٤) متفق عليه عند البخاري : ٣٤١٤ ، ومسلم : ١٥٩ ـ ٢٣٧٣ ؛ عن أبي هريرة ، وعندهما عن أبي سعيد : « لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ ٱلأَنْبِيَاءِ » .

(٥) متفق عليه . البخاري : ٣٣٩٥ ، ومسلم : ١٦٧ ـ ٢٣٧٧ ؛ بلفظ « لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ (أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بين مَتَّىٰ ! » ؛ عن ابن عبَّاس رضي الله عنه .

(٦) الآية : ٢٥٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ »[1] ، والمراد آدم وولده وسائر الخلق .

ولاية المريد والمراد : **وسئل الجنيد رحمه الله عن الفرقِ بين المريد والمراد ؟!**

فقال : المريد ؛ تتولاَّهُ سياسةُ العلم ؛ بأن يجاهد نفسه ويَرُوضها في أعمال قلبه وجوارحه بعلم الشريعة ، وبذلك يكون محفوظاً عن الزيغ .

والمراد تتولاَّه رعايةُ الحقِّ تعالى ؛ بأن يلطُف به ويحفظه من الكسل والفتور ، ومعلومٌ أنّ مَن حُفظ بالشريعة ؛ فقد حفظ برعاية الحقِّ ، لكن المراد أنَّ رعاية الحقِّ للمراد أبلغ ، وإعانته له أعمُّ وأسبغ ، **لأنَّ المريد يسير** في مجاهداته .

والمراد يطير في حُسن إعانة الله له، **فمتى يَلحقُ السائرُ الطائرَ !!** لا يلحقه .

النائم السائر : **وقيل : أرسل ذو النون** المصريُّ رحمه الله **إلى أبي يزيد رجلاً ؛ وقال له : قُل له : (إلى متى النوم والراحة ؛ وقد جازت القافلة ؟)** .

فقال له **أبو يزيد : قل لأخي ذي النون : الرجل من ينام الليلَ كلَّه ، ثمَّ يصبح في المنزل قبل** وصول**القافلةِ** إليه .

فقال ذو النون : هنيئاً له ؛ هذا كلام لا تبلغُه أحوالنا ، ولا تُقِلُّه علومنا ؛ إذ علوُّ الدرجة إنَّما يحصل بحفظ الله ورعايته .

فذو النون حرَّض على كمال المجاهدة في الأعمال ليُدرك السابقين ، وأبو يزيد أشار إلى التوحيد وجمعِ الهمَّة إلى الله تعالى في السلوك ؛ والتبرِّي من الحول والقوة .

وبذلك عُلم ما بين المقامين ! وأنَّ الأوَّل واقف مع نفسه ومجاهدته ، والثاني متبرِّىءٌ مما ذكر ، وكلام الأول إشارة إلى المريد ، وكلام الثاني إشارةٌ إلى المراد . والله أعلم !

* * *

---

(١) تقدم تخريجه ص ٣١٠ . وانظر ص ٨٧٣ .

٢٥ ـ باب الاستقامة

تعريفها لغة واصطلاحاً : هي ـ لغة ـ: ضد الاعوجاج .

وـ اصطلاحاً ـ: الاعتدالُ في السلوك عن الميل إلى جهة من الجهات .

ويقال : هي ألا يختار العبد على الله شيئاً . ويقال غير ذلك .

ولكلِّ سالك اعتدالٌ يخصُّه في مرتبته . وسيأتي بيانُه .

سببها : وسبَبُها كمال العلم بالأحكام ، ومجاهدة النفس في كسر الهوى .

ثمرتها : وثمرَتُها السلامة من الحساب ، والتخلُّق بشريف الآداب .

رتبتها : وهي ممدوحة ومطلوبة ، قال اللهُ تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾[1] . . . الآية ، وقال ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[2] .

تكليف الاستقامة: أخبرنا الإمام أبو بكر محمد بن الحسين بن فُورك رحمه الله ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن جعفر بن أحمد الأصبهاني ؛ قال : حدَّثنا أبو بشر يونس بن حبيب ؛ قال : حدثنا أبو داودَ الطيالسيُّ ؛ قال : حدَّثنا شعبة ؛ عن الأعمش ؛ عن سالم بن أبي الجعد ؛ عن ثوبان (مولى النَّبيِّ ﷺ) ؛ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « اِسْتَقِيْمُوا وَلَنْ تُحْصُوا ـ تستطيعوا الاستقامة المخالفة للمعتاد ـ وَٱعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ دِيْنِكُمْ بعد الإيمان ٱلصَّلاَةُ ، وَلَنْ يُحَافِظَ عَلَىٰ الوُضُوءِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ »[3] .

والاستقامة درجةٌ بها كَمَال الأمور وتمامُها ، وبوجودها حصولُ الخيرات ونظامُها .

---

(١) الآية : ٣٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : فصِّلت ، و١٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحقاف .

(٢) الآية : ١١٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : هود ، و١٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الشورىٰ .

(٣) أخرجه أحمد : ٥/ ٢٨٠ ؛ ٢٨٢ ، والدارمي : ١/ ١٦٨ ، وابن ماجه : ٢٧٧ ، وابن حبان (الإحسان : ١٠٣٧) والحاكم : ١/ ١٣٠ وصححه علىٰ شرطهما وأقرَّه الذهبيُّ ؛ عن ثوبان . واللفظ (خير دينكم) لإحدىٰ روايتي الحاكم ! وغيره (خير أعمالكم) !

اعوجاج الحال : ومن لم يكن مستقيماً في حالته . . ضاع سعيُه ؛ وخاب جهده ، قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ ـ : أفسدت ـ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾[1] : إحكام له وبرم .

اعوجاج الصفة : ومن لم يكن مستقيماً في صفته لم يرتقِ من مَقامه إلى غيره ، ولم يَبْنِ سلوكَه على صحَّة ، فمن شرط المستأنِف : المستقبل للعمل الاستقامةُ في إحكام البداية ، كما أنَّ من حقِّ العارف الاستقامةَ في آداب النهاية .

درجات الاستقامة : وقد أشار إلى بيان درجات أهل الاستقامة في البداية والوسائط والنهاية بقوله (**فمِن أماراتِ استقامة أهل البداية أن لا تشوبَ معامَلَتَهم** مع الله **فترةٌ** ؛ أي فتور عنها ، وإلاَّ منعهم ذلك من الزيادة في مراتبهم والترقِّي منها إلى ما هو أعلى منها .

أمارات أهل الوسائط : **ومِن أَمارات استقامة أهل الوسائط أن لا يصحب منازلَهم** ؛ ـ أي : أن لا يمازج أحوالهم ـ **وِقْفَةٌ معها** : استحسان لها .

أمارات الاستقامة : **ومِن أَمارات استقامة أهل النهاية أن لا يتداخل** ـ وفي نسخة : يداخل **مواصلتهم** : مشاهدتهم لمولاهم **حَجْبة**) تمنعهم المواصلة ، بل يدومون عليها .

وبما ذُكر عُلم أنَّ الاستقامة لا يستغني عنها أحدٌ من السالكين ؛ وإن كان لها أعلى . . وأوسط . . وأدنى !! .

مدارج الاستقامة : **سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق** رحمه الله ؛ **يقول** :

الاستقامة لها ثلاثَةُ مدارج[2] : **١ـ التقويم ، ثم ٢ـ الإقامة ، ثم**

---

(١) الآية : ٩٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل . والتي نقضت قيل هي ريطة بنت سعد بن تميم كانت خرقاء معتوهة . . اتخذت مغزلاً قدر ذراع . وصنَّارة مثل إصبع وفلكة عظيمة علىٰ قدرها ، وكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلىٰ الظهر ثم تأمرهُنَّ فينقضن .
والمراد تقبيح نقض التوبة والاستقامة بتشبيه الناقض بمثل هذه الحمقاء
(عروسي : ٣/ ١٢٧ ؛ بتصرف) .

(٢) وحاصلها إجمالاً إصلاح الظاهرة وتعديلُها ، وحملُها علىٰ القيام بأعمال التكليف ، ثمَّ =

٣ـ الاستقامة[١] .

فـ ١ـ **التقويمُ** يكون من حيثُ **تأديبُ النفوس** ، لأنَّه عبارةٌ عن إصلاح الجوارح وتعديلُها بنيران الخوف والرجاء ؛ لتسلم من المنهيَّات ، وتستقيمَ على فعل الطاعات .

و٢ـ **الإقامة** تكون من حيث **تهذيبُ القلوب** ؛ أي تطهيرها من الأخلاق الذميمة .

و٣ـ **الاستقامة** : تكون من حيثُ **تقريب الأسرار** من القلوب ، بأن تكون أفعالُ العبد كلُّها موزونةً بميزان الشرع . . من غير تكلُّفِ تقويم ؛ ولا إقامة .

فالمعنى الأوَّل تمحيصٌ ، والثاني تحقيق ، والثالث توفيق[٢] .

محالُّ الاستقامة : والاستقامة بالنظر إلى محالِّها خمسةُ أنواع :

١ـ استقامة اللسان ، و٢ـ استقامة القلب ، و٣ـ استقامة النفس ، و٤ـ استقامة الروح ، و٥ـ استقامة السرِّ .

وظائف المحالِّ : فالأُولى بالنطق بالحكمة ، والثانية بصدق الهمة ، والثالثة بحسن الخدمة ، والرابعة بتعظيم الحرمة ، والخامسة بالاشتغال بالمنعِم دونَ النعمة .

وقال أبو بكر الصدِّيقُ رضي الله عنه في معنى قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ : **لم يشركوا** بالله شيئاً .

وقال عمر رضي الله عنه في معناه: **لم يروغوا رَوَغان الثعالب** في استقامتهم .

فقول الصديق رضي الله عنه محمولٌ على مراعاة الأصول في التوحيد بأن

= إصلاح باطنه بحملها على إخلاص المقاصد لله تعالى وحده ، ثمَّ وزن واردات القلوب بميزان السنة المحمديَّة . . فما وافقها عمل عليه وإلا أحجم عنه . **واعلم** أنَّ الاستقامة صفة الخواصِّ من المحبين المحبوبين . . الذين لولاهم لعجَّل الله لهم العقوبة لمن عصاه .

(١) **فالتعديل** على موافقة الأحكام الشرعية ، **والإقامة** المنزلة التي ينازلها العبد ، **والاستقامة** الدوام على ما نازله بالجدِّ والصدق والإخلاص مع التبرِّي من الحول والقوَّة .

(٢) **فالتمحيص** من أسباب غفران ذنوب التقصير ، **والتحقيق** من أسباب تحقيق ما وعد ربُّنا من الأجور ، **والتوفيق** ناشئٌ عنه ومترتب عليه لموافقة ما يردُ على القلوب مما قرَّره حكم الشرع . (عروسي : ٢/١٢٨) .

لا يشركوا مع الله غيره ، **وقول عمر رضي الله عنه محمولٌ على ترك طلب التأويل في الآية ، والقيام بشروط العهود** : باستقامتها ؛ يعني أنَّ كلامه جارٍ على ظاهر الآية المبدوءة بقوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾[1] من أنَّهم أقرُّوا بالوحدانية ، ثم استقاموا .

مطالبة الربِّ تعالىٰ : **وقال ابن عطاءٍ** في معناه : **استقاموا على انفراد** شغل **القلب بالله تعالى** وحده . **وقال أبو عليٍّ الجَوْزَجاني : كن صاحب الاستقامة ؛ لا طالب الكرامة ، فإنَّ نفسك متحرِّكةٌ في طلب الكرامة ، وربُّك يطالبك بالاستقامة** ، فاستقم تكن آتياً بما طلبه منك ربُّك ، بخلاف مَن عمل لحصول الكرامة ، فإنَّه عَمِل لغير الله تعالى ، فلا يكون مخلصاً !! وهو مأمورٌ بالإخلاص ، قال تعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[2] .

المعرفة والاستقامة : **سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا عليٍّ الشَّبُّوِّي**[3] ؛ **يقول : رأيت النَّبيَّ ﷺ في المنام ؛ فقلت له : رُوي عنك يا رسول الله أنَّك قلت : « شَيَّبَتْنِي هُوْدٌ »**[4] **فما الذي شيّبك منها ؟** أشيَّبك منها **قصص الأنبياء وهلاك الأمم !؟ فقال : « لاَ ، وَلكِنْ إِنَّما** شيَّبني منها **قَوْلُه تَعَالَى ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾** ؛ إذ قوله ﴿ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ يدلُّ على أنَّ الاستقامة تكون بحسب المعرفة ، فمن كَمُلت معرفته بربِّه عَظُم عنده أمرهُ ونهيه ، فإذا سمع ﴿ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ عَلِم أنَّه طُولب باستقامة تليق بمعرفته بكمال الأمر له ، وحقيقٌ لِم فَهِم ذلك أن يشيب ، إذ لا يُطيق أحدٌ أن يأتيَ بعبادة على حسب ما يعرف من

---

(١) الآية : ٣٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : فصِّلت .

(٢) الآية : ٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البينة .

(٣) هكذا ضبطه شيخ الإسلام الشارح رحمه الله : بفتح المعجمة وضمِّ الموَّحدة وكسر الواو المشدَّدات !! قال السمعاني في « الأنساب » : هذه نسبة إلىٰ « شَبّوية » اسم لبعض أجداد المنتسب إليه .

قلت : وقد وقع في « شعب الإيمان » السري : بالمهملة وراء بدون باء !!! ووقع في (م) : الشبور !! .

(٤) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » : ٢٢١٥ بهذا الإسناد .

عظمة ربِّه ، بل لا بدَّ أن يستصغر جميع ما يأتي به؛ وإن كاملاً بالإضافة إلى عظمة ربِّه ، ولذلك لما نزل ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾[1] قلقت الصحابة خوفاً من كونهم لا يقدرون على القيام بمعنى ذلك ، فأنزل الله رحمة لهم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[2] .

معنى الاستقامة : وقيل : إنَّ الاستقامة لا يطيقها إلاَّ الأكابرُ ، لأنَّها الخروجُ عن المعهودات ، ومفارقة الرسوم والعادات من حظوظ النفس ، والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق ، ولذلك قال ﷺ : « اِسْتَقِيْمُوا وَلَنْ تُحْصُوا » . وتقدَّم بيانه ص ٦٢٠ .

الخصلة الكاملة : وقال الواسطيُّ : الخصلة التي بها كَمُلت المحاسن ، وبفقدها قَبُحتَ المحاسن هي الاستقامة . حتى لو فقدت من أحد ثمَّ ادَّعى كرامة . . قبُحَ ذلك منه ، وعُدَّ نقصاً في حاله ، ولو جرى ذلك له !! كان استدراجاً ومكراً ! ـ نعوذ بالله من بلائه وفتنته ـ، وقد قال تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾[3] .

ترجمان الاستقامة : وحكي عن الشِّبلي رحمه الله أنَّه قال : الاستقامة أن تشهد الوقت الذي أنت فيه قيامةً قامت ؛ بأن تستشعر قيامك بين يدي مولاك ، فتحسن استقامتك له في دنياك .

فنون الاستقامة : ويقال : الاستقامةُ في الأقوال بترك الغيبة ونحوها ؛ كالنميمة والكذب وفي الأفعال بنفي البدعة . وفي الأعمال : الطاعات بنفي الفترة : الفتور عنها . وفي الأحوال بنفي الحجبة التي تمنع من بقائها .

لغز الاستقامة : سمعت الأستاذ الإمام أبا بكر محمد بن الحسين بن فُورك رحمه الله ؛ يقول : السين في الاستقامة سينُ الطلب؛ فقولُهُ ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ : طلبوا من الحقِّ تعالى أن يقيمهم أوَّلاً على توحيدهم ، ثم على استدامة عهودهم وحفظ حدودهم .

---

(١) الآية : ١٠٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

(٢) الآية : ١٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التغابن .

(٣) الآية : ٤٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

موجَبُها : قال الأستاذ : واعلم أنَّ الاستقامة ؛ وهي أعظم الكرامات توجب دوام الكرامات ، قال الله تعالى ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ - طريقة الإسلام - لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[1] : كثيراً من السماء ، ولم يقل (سقيناهم) ، بل قال ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ يقال : أسقيتُه إذا جعلتَ : هيَّأتَ له سُقْيا ، وسقيته . . إذا ناولتَه ليشرب ، فهو يشير بما قاله وعداً للمستقيمين إلى الدوام : دوام الخير من المطر ؛ وما يترتَّب عليه .

وما قاله جارٍ على قول مَن فرَّق بين (سَقَاه) و(أسقاه) . والمشهور أنَّهما بمعنىً ، ويقال : سقيتُه لنفسه ، وأسقيتُه لماشيته وأرضه .

مجلس فقير : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت الحسن بن أحمد ؛ يقول : سمعت أبا العباس الفرغاني ؛ يقول : قال الجنيد : لقيتُ . . وأنا سائر إلى الحجِّ شاباً من المريدين في البادية تحت شجرة من شجر أم غيلان ! ! فقلت له : ماأجلسك ههنا ؟! فقال : حالٌ افتقدته : فقدته ، فمضيتُ وتركتُه ، فلما انصرفت من الحجِّ . . إذا أنا بالشابِّ قد انتقل إلى موضع قريب من الشجرة ؛ فقلت له : ما جلوسُك : ما أجلسك هَهنا ؟! فقال : وجدتُ ما كنتُ أطلبه في هذا الموضع فلزمتُه . قال الجنيد : فلا أدري أيُّهما : حالَيْه كان أشرفَ . . هل هو لزومُه لافتقاد حالِه ، أو لزومه للموضع الذي نال فيه مراده ! !

فائدة هذه الحكاية أنَّ المستقيم إذا تعذَّرت عليه استقامتُه ؛ فحقُّه التثبت ودوام الطلب ، وإذا فُتح عليه بما كان فقده . . فحقُّه الشكر والثناء وحفظُ الأدب ، وكلاهما من الاستقامة .

ولهذا قيل : (الصوفي ابن وقته ، لا التفاتَ له إلى ماضٍ ؛ ولا إلى مستقبل) . . فهذا كان في حالٍ مع الله ، وهو سائر إلى الحجاز ؛ طيب العيش مع مولاه ، فلما أدركه التغيُّر في حاله جلس إلى الأرض ، متفكِّراً باحثاً عن السبب ، فلما مرَّ به الجنيد سأله عن جلوسه ؛ فقال : فقدته .

---

(١) الآية : ١٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الجنّ .

فلما رجع الجنيد وَجَدَه قد انتقل إلى موضع قريب من ذلك الموضع فسأله عن ذلك !! فأجابه بأنه وجد ما كان فقده . فقال الجنيد : لا أدري ؛ أيُّ حاليه أشرف ؟ هل هو تثبُّته وطلبه لما فقده ، أو أدبه وشكره على ما وجده !! وهكذا يكون حال المستقيمين مع مولاهم ، في حالتَيْ المنع والعطاء ولا يحجبُهم منعه لهم عن دوام التضرُّع والطب ، ولا يَشغَلُهم إحسانه إليهم عن دوام الشكر لنعمه والأدب .

* * *

٢٦ ـ باب الإِخلاص

هو ما يأتي في كلامه .

سببه : وسببُه علم العبد باحتياجه إليه[١] ؛ في العلم النافع له . . في دنياه وأخراه .

ثمرته : وثمرته السلامة من العقاب والعتاب ، ونيل علوِّ الدرجات في الجنات .

رتبته : وهو ممدوحٌ ومطلوب، **قال الله عزَّ وجلَّ** ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[٢]، وقال ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[٣] .

قلب المسلم : أخبرنا عليُّ بن أحمدَ الأهوازي ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصري ؛ قال : حدَّثنا جعفر بن محمد الفِريابي ؛ قال : حدَّثنا أبو طالوت ؛ قال : حدَّثني هانىء بن عبد الرحمان ابن أبي عقبة ؛ عن إبراهيم ابن أبي عبلةَ العَقيلي ؛ قال : حدَّثني عطيَّة بن وشاح ؛ عن أنس بن مالك رضي الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلاَثٌ لاَ يَغُلُّ ـ: لا يخون . ومع كسرها : لا يحقد ـ**عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ ؛ ١ـ إِخْلاَصُ ٱلعَمَلِ لِلَّهِ ،**

---

(١) مراده السبب الظاهر ، أما في الباطن فهو عناية الحقِّ بالعبد أزلاً (عروسي : ٣/ ١٣١) .

(٢) الآية : ٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الزمر .

(٣) الآية : ٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البينة .

وَ٢ـ مُنَاصَحَةُ وُلاَةِ ٱلأَمْرِ ، وَ٣ـ لُزُومُ جَمَاعَةِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ »[1] فمن تعمر قلبُه بالثلاثة . . سَلِم من الخيانة والحقد .

الإخلاص الكامل : وقال الأستاذ : الإخلاص الكامل إفرادُ الحقِّ تعالى في الطاعة بالقصد : الإرادة ، وهو : **أن يريد بطاعته التقرُّب إلى الله تعالى دون شيء آخر ، من تصنُّعٍ لمخلوق ، أو اكتساب مَحْمَداً عند الناس ، أو محبَّة مدح من الخلق ، أو معنىً من سائر المعاني سوى التقرُّب به إلى الله تعالى** ؛ كأَنْ يريدَ بعبادته ثواب الآخرة ، أو إكرامه في الدنيا ، وسلامته من آفاتها ، أو استعانته على أمور دينه ؛ كمن يرائي والديه ليدعوَا له بالخير ، وشيخَه ليعينه على مقاصده الدينية ، فليس ذلك من الإخلاص الكامل ، بل ولا من مطلقِ الإخلاص ، إلاَّ فيما يريد به ثواب الآخرة ، أو الإكرام في الدنيا والسلامة من آفاتها ، فلا يخرج عن حدِّ الإخلاص ؛ خلافاً لما أفهمه كلامه .

درجات الإخلاص : فدرجات الإخلاص ثلاث : ١ـ عليا ، و٢ـ وسطى ، و٣ـ دنيا .

فالعليا : أن يعمل العبد لله وحده ؛ امتثالاً لأمره ، وقياماً بحقِّ عبودِيَّته .

والوسطى : أن يعمل لثواب الآخرة .

والدنيا : أن يعلم للإكرام في الدنيا ، والسلامة من آفاتها .

وما عدا الثلاث من الرياء ؛ وإن تفاوتت أفراده .

تعريف الإخلاص : ويصحُّ أن يقال :

الإخلاص تصفيةُ الفعل عن ملاحظة المخلوقين ؛ بأن لا يلتفت العبد إلى مدحِهم ، ولا إلى ذمِّهم ، ولا إلى ما في أيديهم . **ويصحُّ أن يقال** :

---

(١) أخرجه أحمد : ٥/ ١٨٣ ، والدارمي : ١/ ٧٤ ، وابن ماجه : ٢٣ ، والحاكم : ١/ ٨٦ ؛ وصحَّحه علىٰ شرط الشيخين ومسلم وأقرَّه الذهبيُّ ، والطبراني في « الكبير » : ٢٠/ ١٥٥ ؛ و« مسند الشاميين » : ٢٢١٠ ، وأبو يعلىٰ ٧٤١٣ ، والقضاعي في « مسند الشهاب » : ١٤٢٢ ؛ عن زيد بن ثابت ، وجبير بن مطعم ، وغيرهما من خطبته ﷺ في المناسك .

تعريف آخر : الإخلاص التوقِّي عن ملاحظة الأشخاص . هو قريب مما قبله .

موضع الإخلاص : وقد ورد خبرٌ مسند أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر عن جبريل عن الله سبحانه أنه قال : ﴿ الإخلاصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي ، ٱسْتَوْدَعتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ مِنْ عِبَادِي ﴾ .

وذلك لا يحصل إلاَّ لمن بَعُد عنه الأغيار في معاملة الحقِّ تعالى حتَّى حصل بينه وبين الحقِّ تعالى في السرِّ مناجاة ومحادثات ، فهذا الذي بينه وبين الله سرٌّ : معاملة خفيَّة . وقد قيل : من لم يكن بينه وبين الله سرٌّ ؛ فهو مصرٌّ : على شغل قلبه بغير ربِّه فلم يتب عنه .

توثيق آخر : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله يقول ؛ وقد سألتُه عن الإخلاص . . ما هو ؟ فقال : سمعتُ عليَّ بن سعيد ، وأحمدَ بن محمَّد بن زكريا ؛ وقد سألتهما عن الإخلاص ؛ فقالا : سمعنا عليَّ بن إبراهيم الشقيقي ؛ وقد سألناه عن الإخلاص ؛ فقال : سمعت محمد بن جعفر الخصَّاف ؛ وسألته عن الإخلاص ؛ فقال : سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص . . ما هو ؟ قال : سألت أبا يعقوب الشريطي عن الإخلاص . . ما هو ؟ قال : سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص . . ما هو ؟ قال : سألت عبد الواحد بن زيد عن الأخلاص . . ما هو ؟ قال : سألت الحسن عن الإخلاص . . ما هو ؟ قال : سألت حذيفة عن الإخلاص . . ما هو ؟ قال : سألتُ النَّبيَّ ﷺ عن الإخلاص . . ما هو ؟ قال : « سَأَلْتُ جِبْرِيْلَ عَنِ ٱلإِخْلاَصِ . . مَا هُوَ ؟ » قالَ : سَأَلْتُ رَبَّ ٱلعِزَّةِ عَنِ ٱلإِخْلاَصِ . . مَا هُوَ !؟ قَالَ : ﴿ هُوَ سِرٌّ مِنْ سِرِّي ٱسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ مِنْ عِبَادِي ﴾»[1] .

هذا الخبر تأكيد لما قبله بزيادة ذِكر السند .

الإخلاص والصدق : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول :

الإخلاصُ التوقِّي عن ملاحظة الخلق ؛ بأن لا يفرح برؤيتهم لما هو فيه من العمل ليمدحوه ؛ أو يَصِلوه ، أو لئلا يستنقصوه .

والصدق : التنقِّي من مطالعة النفس ؛ بأن يتخلَّص من الإعجاب بأن لا يستحسن عمله ؛ ولا يضيفَه إلى نفسه .

---

(١) لم أجده الآن ! .

تحصيل : فالمخلص لا رياءَ له ، والصادق لا إعجابَ له .

أعلاهما : ما ذكره هو أدنى مراتب الإخلاص والصدق ، فإن أعلاها : أن لا يسكن العبد إلى عمله وحُسنِه؛ وإن كان صحيحاً ، ويراه فضلاً من ربِّه .

تلازمهما : وقال ذو النون المصريُّ : الإخلاصُ لا يتمُّ إلاَّ بالصدق فيه والصبرِ عليه ، والصدق لا يتمُّ إلاَّ بالإخلاصِ فيه والمداومة عليه . فبين الإخلاص والصدق تلازمٌ . . فمن أخلص في مقام ؛ وصدق في سلوكه ، وصبر عليه حتَّى أحكمه . . نقله الله إلى ما فوقه .

الفرق بينهما : وسئل الجنيد عنهما . . أهما واحد أو بينهما فرق ؟! فقال : بينهما فرقٌ . . الصدقُ أصل والإخلاص فرع ، والصدقُ أصلُ كلِّ شيء والإخلاص لا يكون إلاَّ بعد الدخول في الأعمال ، والأعمالُ لا تكون مقبولةً إلاَّ بهما .

رياء العارفين : وقال أبو يعقوب السوسي : متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص . . احتاج إخلاصهم إلى إخلاص ؛ فحقُّ المخلص أن لا يرى إخلاصه ولا يسكن إليه ، فمتى خالف ذلك لم يكمُل إخلاصه ، بل سمَّاه بعضهم رياءً ؛ فقال : رياء العارفين أفضلُ من إخلاصِ المريدين . و سيأتي مع بيانه ص٦٣٠ .

علامات الإخلاص : وقال ذو النون : ثلاث من علامات الإخلاص :

١ـ استواء المدح والذمِّ من **العامَّة** : جميع الناس ؛ لا من بعضهم فقط لمعنىً يخصُّه ، وهذا أوَّل درجات الإخلاص ؛ وهو السلامة من الرياء .

و٢ـ نسيانُ رؤية الأعمال في الأعمال . . ، بأن لا ينظر إلى نفعها ؛ ولا إلى ضررها ، حتَّى تنسى مدح الخلق لك ؛ أو منهم على عملك لكمال شغلك بإخلاصك .

و٣ـ نسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة . . بأن لا يخطر لك على عملك جزاء دنيويٌّ ؛ ولا أخرويٌّ .

إخلاص العوام : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا عثمان المغربيَّ ؛ يقول : الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظٌّ بحال ؛ بأن لا يكون فيه رياء ؛ ولا عجب . . . وهذا إخلاص العوام .

إخلاص الخواص : **وأما إخلاص الخواصِّ ! فهو ما يجري عليهم من ربِّهم ؛ لا بهم** ؛ من الأعمال خالصة كاملة ، **فتبدو منهم الطاعات ، وهم عنها بمعزل ، ولا يقعُ لهم عليها رؤية ؛ ولا بها اعتدادٌ** . . وإنَّما اعتدادهم برحمة ربِّهم وفضله عليهم . **فذلك إخلاص الخواص** في أعمالهم الجارية عليهم من ربهم .

توضيح : وما ذكره . . حدٌّ للعمل الخالص ؛ لا للإخلاص .

المخلَص والمخلص : **وقال أبو بكر الدقَّاق : نقصان كُلِّ مخلص في إخلاصه رؤيةُ إخلاصه** في عمله رؤيةَ استحسانٍ له ؛ لا رؤيةَ كمال وصحَّة .

فإذا أراد الله تعالى لعبد **أن يَخلُص إخلاصه** من الرياء والعجب . . **أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه** رؤيةَ استحسان ؛ **فيكون مخلَصاً** ـ وهو : مَن أخلصه الله من كلِّ شوب ـ **لا مخلِصاً** . وهو : مَن أخلص في عمله .

عارف الرياء : **وقال سهل : لا يعرف الرياء** ويتجنَّبه **إلاَّ مخلِص** ، لأنَّ الإخلاص ضدُّ الرياء ، فمن لم يشتغل به ؛ ولم يقصد تخليص عمله من الشوائب . . لم يسلم من الرياء ، لدخوله عليه وهو لا يشعر ، ومن اشتغل به اتقاه وسلم منه لمعرفته به .

رياء العارفين : **سمعت أبا حاتم السجستاني ؛ يقول : سمعت عبد الله بن عليٍّ ؛ يقول : سمعت الوجيهي ؛ يقول : سمعت أبا عليٍّ الرُّوذَباري ؛ يقول : قال لي رُوَيم : قال أبو سعيد الخراز** : **رياءُ العارفين أفضلُ من إخلاص المريدين** ؛ لأنَّ غاية المريد المبتدىء أن يُخلِص عملَه من الرياء المبطِل له ، ويكون مخلِصاً ثمَّ يدخل فيه العجب ، لكونه أضافه لنفسه ، وقد يسلَم عملُه من الرياء والعُجْب ؛ وتسكن نفسه إليه ، وإلىٰ حسنِه ويعتمد عليه فيكون نقصاً ، والعارف يرى نفسه محلاًّ لجريان طاعاته بشروط كمالها ، ويكون مشغولاً بإفراد ربِّه بعمله الشريف عن سكون نفسه إلى عمله . . فإذا سكنت نفسه إلى عمله عدَّه رياءً ، لكونه خطر بباله في عمله غيرُ الله ، وإذا كان هذا رياءَ العارفين ، فأين هو مِن إخلاص المريدين الذين تخلَّصت أعمالُهم من الرياء المحرَّم ؟! خاصَّة . . وبينه وبين ما عَدَّه العارفونَ رياءً درجاتٌ !!

العمل الخالص : **وقال ذو النون : الإخلاصُ ما حُفِظ من العدوِّ** : من أن يفسده .

هذا حدٌّ للعمل الخالص ؛ لا للإخلاص !!

إخلاص العارفين : وقال أبو عثمان : **الإخلاص نسيانُ رؤية الخلق في العمل بدوام النظر إلى فضل الخالق** عليك به . هذا إخلاص العارفين ، فإنَّهم يخلصون عملهم حتى من رؤيتهم له استحساناً .

معنى الإخلاص : وقال حذيفة المرعشي : **الإخلاص أن تستويَ أفعالُ العبد في الظاهر والباطن** ؛ بأن يكون عملُه لله في الظاهر كعمله له في الباطن ، فلا يتغيَّر بوجود الخلق ؛ ولا بعدمهم .

العمل الخالص : وقيل : **الإخلاص ما أُريد به الحقُّ تعالى وقصد به الصدق** ؛ هذا حدٌّ للعمل الخالص ؛ لا للإخلاص !!

معنى آخر : وقيل **الإخلاص الإغماض عن رؤية الأعمال** : لا يراها استحساناً بأن يكمل شغله بالله ، حتَّى لا يبقى فيه متَّسعٌ لغيره . . من عمل ولا غيره .

زيافة الرجال : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا الحسين الفارسي ؛ يقول : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت علي بن عبد الحميد ؛ يقول : سمعت السريَّ يقول :

منْ تزيَّن للناس بما ليس فيه من الطاعات . . سقط من عين الله تعالى ، لكونه مرائياً . . إن كان تزيُّنه طلباً لحمدهم وخوفاً من ذمِّهم ، وكذَّاباً متشبِّعاً . . إن كان تزيُّنه طلباً لإظهار كِمالٍ ليس فيه ، كما قال ﷺ : « ٱلْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يَنَلْ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُوْرٍ » .

حقيقة الإخلاص : وسمعته أيضاً ؛يقول : سمعت علي بن بندار الصوفي - وفي نسخة : الصيرفي -؛ يقول : سمعت عبد الله بن محمود ؛ يقول : سمعت محمد بن عبدِ ربِّه ؛ يقول : سمعت الفضيلَ بن عياض ؛ يقول : **ترك العمل من أجل الناس رياءٌ** ، من حيث يتوهَّم منهم أنَّهم ينسبونه بالعمل إلى الرياء ؛ فيكرهُ هذه النسبة ، ويحب دوام نظرِهم له بالإخلاص ، فيكون مرائياً بتركه . . محبَّةً لدوام نسبته إلى الإخلاص؛ لا للرياء . **والعمل من أجل الناس شركٌ** ؛ لكونه أشركَ في عمله غيره ، **والإخلاص أن يعافِيَك الله منهما** ؛ أي من الرياء والشرك .

حصانة الإخلاص : وقال الجنيد : **الإخلاص سرٌّ بين الله تعالى وبين العبد ؛ لا يعلمُهُ**

ملك فيكتبَه ، ولا شيطان فيفسدَه ، ولا هوىً فيميلَه ، فلا يؤثِّر فيه أحدٌ من هؤلاء ، لما في القلب المتَّصف به من إفراد ربِّه بالعمل بسِرِّه ، وهذه الحالةُ إنَّما يخصُّ الله بها خواصَّه من أوليائه ، الذين انصرفت الدنيا عن قلوبهم ، ولذلك قالوا (من لم يكن بينه وبين الله سرٌّ فهو مصرٌّ) كما مرَّ ص٦٢٨ .

العمل الخالص : وقال رويم : الإخلاص من العمل؛ أي فيه هو الذي لا يريد عليه صاحبُه عوضاً من الدارين : دارَيْ الآخرة والدنيا ، ولاحظًّاً من المَلَكين : ملك اليمين وملك الشمال . . بأن يكون عمله لله ؛ لا يريد به سواه . . لا من دنياه ؛ ولا من أخراه ، وما قاله حدٌّ للعمل الخالص ؛ لا للإخلاص !!

أشدُّ الأشياء : وقيل لسهل بن عبد الله : أيُّ شيءٍ أشدُّ على النفس ؟! فقال : الإخلاص . لأنَّه ليس لها فيه نصيب غالباً ؛ لأن الغالب على عملها أن يكون لغرض دنيوي ؛ أو أخروي ، وهذا في حقِّ المريد السالك ، أما مَن كَمُلت معرفته بمولاه ؛ ولم تبقَ له لذَّةٌ في دنياه ؛ ولا أخراه سوى مناجاته ، والتلذُّذ بقربه بكشف الحجب عنه حتَّى يراه !! فهو في أكبر نعيم ، وأكثر حظٍّ ، لكونه ليس له لذَّة في سواه .

كمال الزهد : وسئل بعضهم عن الإخلاص . . فقال : أن لا تُشْهِد : لا تُطلع على عملك أحداً غيرَ الله تعالى ؛ اكتفاء بنظره وعلمه ، وهذا إنَّما يتمُّ بكمال الزهد في الدنيا .

أمان الإيمان : وقال بعضُهم : دخلت على سهل بن عبد الله يوم الجمعة قبل الصلاة بيتاً ، فرأيت في البيت حيَّة !! فجعلتُ أقدِّم رجلاً وأؤخر أخرى خوفاً منها ، فأدرك سهل مني ذلك ؛ فقال لي : أُدخل ؛ لا يبلغ : لا يصل أحدٌ حقيقة الإيمان ؛ وعلى وجه الأرض شيءٌ يخافه ؛ هو لأن لا نافع ولا ضارَّ إلاَّ اللهُ ، فلا خوف في الحقيقة إلا من الله ، وإن كان في الوجود مخوفات عادية ؛ كالنار والحيَّة والأسد ، لأنَّها لا تفعل شيئاً بنفسها ، بل بإرادة الله وفعِله ، فالخوف الحقيقيُّ : أن يخاف العبد أن يسلط اللهُ عليه شيئاً من ذلك .

ثمَّ كمَّل له سهلٌ ذلك ؛ بأن أراه شيئاً من خوارق العادات حيث قال له : هل لك غرض في صلاة الجمعة في مسجد النَّبيِّ ﷺ !! فقلت له : بيننا وبين

المسجد مسيرة يوم وليلة !! فأخذ بيدي وطُويت لنا الأرض ، فما كان إلاَّ قليلٌ حتى رأيت المسجد المذكور ، فدخلناه وصلَّيْنا فيه الجمعة ثمَّ خرجنا ، فوقف هو على باب المسجد ينظر إلى الناس وهم يخرجون عنه ، فقال أهل (لا إله إلاَّ الله) كثيرٌ ، لأنَّ منهم المخلِص وغيره ، والمخلصُون منهم قليل !! فَعَل ذلك تقويةً لهذا الذي دخل عليه ؛ وتعليماً له ، فإنَّه قصده لينتفع به فانتفع بجميع ذلك .

ثمرة الإخلاص : أخبرنا حمزة بن يوسف الجرجاني ؛ قال : حدَّثنا محمد بن محمد بن عبد الرحيم ؛ قال : حدَّثنا أبو طالب محمد بن زكريا المقدسي ؛ قال : حدثنا أبو قرصافة محمد بن عبد الوهاب العسقلانيُّ ؛ قال : حدَّثنا زكريا بن نافع ؛ قال : حدَّثنا محمد بن يزيد القراطيسي ؛ عن إسماعيل ابن أبي خالد ؛ عن مكحول ؛ قال : **ما أخلص عبد في جميع أفعاله قطُّ أربعين يوماً إلاَّ ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**[1] .

فلا ينطق لسانه إلا بما حقَّقه قلبه وأحكمه ، وهذا معنى الحكمة ، وهو : وضع الشيء موضعه ، فإذا وزن جوارحه بالعلم ، وأوقعها لله وحدَه . . كان مخلصاً في جميع أعماله ، فإذا دام على ذلك أربعين يوماً . . صار حاله على أتمِّ الوجوه وأحسنها .

إنصاف عظيم : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان ؛ يقول : سمعت عبد الرزاق ؛ يقول : سمعت يوسف بن الحسين ؛ يقول :

أعزُّ شيء في الدنيا الإخلاص ؛ لأنَّه على خلاف ما تهواه النفس . قال : وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنَّه . . بعد كونه فيه على لون ينبت فيه على لون آخر !! هذا إنصاف عظيم منه ، فهو دائمٌ في الاجتهاد في دفع ما يشينه .

دواء الوسوسة : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت النَّصراباذي ؛ يقول : سمعت أبا الجهم ؛ يقول : سمعت ابن أبي الحوارِيِّ ؛ يقول : سمعت أبا سليمان ؛ يقول : **إذا أخلص العبد في عمله انقطعت ـ وفي نسخة : انقطع ـ عنه كثرةُ الوساوس والرياء** ، لبعد القلب بالإخلاص عن ذلك .

* * *

(١) أخرجه أحمد في « مسنده » ؛ عن مكحول **مرسلاً** ـ كما هنا ـ وانظر ص ١٨٣ .

٢٧ ـ باب الصدق

تعريفه : هو الحكمُ المطابق للواقع ، ويقال غير ذلك ، كما سيأتي .

محاله : ومحالُّه اللسان ؛ والقلب ؛ والأفعال . وكلٌّ منها يحتاج إلى لفظ يخصُّه ؛ فهو في **اللسان** الإخبارُ عن الشيء على ما هو عليه . وفي **القلب** العزمُ الأكيد ، وفي **الأفعال** إيقاعُها على وجه النشاط والجدِّ .

سببه : وسببه الوثوق بخبر المتصف به .

ثمرته : وثمرته مدح الله والخلقِ للمتَّصف به .

الأمر به : قال الله عزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[1] . أمر بالكينونة معهم لشرفهم معه .

التروُّض عليه : أخبرنا الإمام أبو بكر محمد ابن فُوْرك رحمه الله ؛ قال : أخبرنا عبدالله بن جعفر بن أحمد الأصبهاني ؛ قال : حدَّثنا أبو بشر يونس بن حبيب ؛ قال : حدَّثنا أبو داود الطيالسي ؛ قال : حدَّثنا شعبةُ ؛ عن منصور ؛ عن أبي وائل ؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ عن النبي ﷺ أنه قال : « **لاَ يَزَالُ ٱلعَبْدُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّىٰ ٱلصِّدْقَ** يقصده ويجتهد فيه . **حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ ٱللهِ صِدِّيْقاً ، وَلاَ يَزَالُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ ٱلكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ ٱللهِ كَذَاباً** »[2] .

أهميته : قال الأستاذ : **والصدقُ عمادُ الأمر ، وبه تمامُه ، وفيه نِظامه** . فلا يغتني عنه العبد في مقامٍ من المقامات ؛ وإن تفاوتت ! إذ بالإخلاص يتحقَّق المقام ، وبالصدق الذي هو الجدُّ يسلك العبد فيه ، فمن وَزَن حاله بميزان الشرع وكان

---

(١) الآية : ١١٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

(٢) أخرجه البخاري : ٦٠٩٤ ، ومسلم : ١٠٥ ـ ٢٦٠٧ ، وغيرهما « مَا يَزَالُ ٱلرَّجُلُ . . . » وزيادة بأوله ووسطه . .

فاتراً في سلوكه . . لم ينتقل عن مقامه ، ومن منّ عليه بالصدق . . قطع في المدَّة القريبة مالا يقطعه غيره في المدَّة الطويلة ، وكلُّ شيء رفيع متى أعطيتَه بعضَك قلَّ نَيْلُك منه، وإذا أعطيته كلَّك أعطاك بعضَه، ولذلك كان أكلُ العارفين فاقة ، ونومُهم غلبةً ، وكلامُهم ضرورةً ، لصرف كلِّيتهم إلى ما هم فيه .

رتبته : وهو : الصدق تالِي درجةِ النبُوة ، قال الله تعالى ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ﴾ . . الآية[1] ، عملاً بالتقديم في الذكر الدالِّ على الأهمية ، أو بناه على أنَّ الواو للترتيب ، ولكن الأصحَّ خلافه[2] !!

اشتقاقه : **والصادق** : لفظه **الاسم اللازم** المشتقُّ من الصدق ، فهو اسمٌ لمن قام به الصدق ، **والصدِّيق المبالغةُ** : اسم دالٌّ على المبالغة . . مشتق منه ـ أي مِن الصدق ـ وهو أي : الصدِّيق الكثير الصدق ؛ **الذي الصدقُ غالبُه** ؛ أي غالبٌ عليه **كالسكِّير** : الكثير السُّكر من شرب المسكر ، **والخِمِّير** : الكثير شرب الخمر ؛ **وبابِهِ** وهو : كلُّ ما كان بزنة « فعْيِّل» كالشرير .

أقلُّه : وأقل الصدِّق الذي يشتقُّ منه « صادق » . . استواء **السرِّ والعلانية** ؛ عند مَن قام به الصدق .

الصادق والصدِّيق : **والصادقُ مَن صَدَق في أقواله خاصَّة ، والصدِّيق مَن صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله** . هذا اصطلاح .

والقياسُ ما دلَّ عليه كلامُه السابق : أنَّ الصادق مَن قام به الصدق بلا كثرة ، **والصدِّيق** مَن قام به الصدق بكثرة .

معية الله : **وقال أحمد بن خضرويه** : **مَن أراد أن يكون الله تعالى معه فليلزم الصدق فإن الله تعالى قال ﴿ إن الله مع الصادقين ﴾** : بالعون والحفظ ، لأنهم صدقوا فيه ، وفي القيام بحقه . وقوله« مع الصادقين » سبق قلم !! والآية إنَّما هي ﴿ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ وليست مما نحن فيه !

الصادق والمرائي : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ منصور

---

(١) الآية : ٦٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

(٢) من أنها لمطلق العطف ، فلا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً .

ابن عبد الله ؛ يقول : سمعت الفرغاني ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول :

الصادق يتقلَّب في اليوم أربعينَ مرَّة مثلاً ؛ في أحواله ومعاملاته . . على ما يقتضيه الدليل، مما هوالأفضلُ في حقه، ويدور مع الدليل حيث دار ، والمرائي يثبتُ على حالة واحدة أربعين سنة مثلاً يستحسنُ حاله ويظنُّها موصلة لمقصوده؛ من رفعته عند الخلق ، فهو يعمل في الحقيقة في غضب ربِّه وإبعاده عنه .

تعبير الصادق : وقال أبو سليمان الداراني : **لو أراد الصادق أن يصف ما في قلبه من المواهب . . ما نطق به لسانه** ، لعجزه عن نطقه به ، لأن العبد لا يمكنه أن يعبِّر بلسانه عن كلِّ ما يدركه من المحسوسات ؛ لعسر العبارات ، فكيف بمواهب القلوب الحاصلة من علاَّم الغيوب !؟ ولذلك كان ﷺ أكثرُ ما يجري على لسانه : « لاَ ؛ وَمُقَلِّبِ ٱلْقُلُوبِ »[1] .

وقيل : القلب أشدُّ تقلُّباً من ريشة في الصحراء في الريح العاصف ، فمن تجسَّس لقلبه في وقت فراغه . . وجد بعض ما ذكر فقط .

وقيل : **الصدق** : في اللسان **القولُ بالحقِّ في مواطن الهَلَكة** ، ففي مواطن السلامة أولى ! فعلى العبد أن يقول الحقِّ ؛ وإن كان مؤلِماً ، ومحلُّه إذا غلب ظنِّه نفعُه ، والسلامة في الدِّين والبدن .

وقيل : **الصدقُ موافقة السرِّ النطقَ** ؛ بأن يعبِّر اللسانُ عما في القلب حقيقة .

وقال **القنَّادُ** : **الصِّدق في الأفعال منعُ الحرام من الشِّدْق** : جانب الفم ، لأن مَن صدق في طلب الحلال منعه الله من تناول الحرام . . وما فيه شبهة ؛ بأن لا يمدَّ يده إليه ، أوْ لا يمكِنُه ابتلاعه . . أونحو ذلك .

وفائية الصدق : وقال عبد الواحد بن زيد : **الصدق : فيها الوفاءُ لله سبحانه بالعمل المطلوب منه** ، ومنه قوله تعالى ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ﴾[2] ، وقوله ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْـدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾[3] .

---

(١) أخرجه البخاري : ٧٣٩١ ؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) الآية : ٢٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

(٣) الآية : ٩١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .

مداهنة الصدق : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا العبَّاس البغداديَّ ؛ يقول : سمعت جعفر بن نصير ؛ يقول : سمعت الجُرَيري ؛ يقول : سمعت سهل بن عبد الله ؛ يقول : لا يشمُّ رائحة الصدق الكامل عبدٌ داهَنَ نفسه ؛ أو غيرَه ، بأن يسمح باختلال بعض دينه ، بخلاف المداراة بأن يسمح ببعض دنياه جبراً لحاله .

الصادق والموت : وقال أبو سعيد القرشي : الصادق هو الذي يتهيَّأُ له أن يموت ؛ بأن يهجم عليه الموت . . ولا يستحي من سرِّه لو كشف للناس ؛ بأن يستوي ظاهره وباطنه ، وربما يكون باطنه خيراً من ظاهره ، بخلاف مَن كان عنده نقص يخفيه عن الناس ، فهو يكره اطلاعهم عليه في حياته وبعد وفاته ؛ خوفاً من نزول درجته عندهم ، فهو يستحي من أن ينكشف سره . قال الله تعالى ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1] في زعمكم أن الجنة لكم خاصَّة .

المستعدُّ للموت : وسمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : كان أبو علي الثقفيُّ يتكلَّم يوماً ؛ على الناس : يعظُهم ؛ فقال له أبو محمد عبد الله بن منازل : يا أبا عليٍّ ؛ استعدَّ للموت ، فلا بدَّ منه . فقال له أبو علي : وأنت يا عبد الله ؛ استعد للموت فلا بدَّ منه ، فتوسَّد عبد الله ذراعه ووضع رأسه عليه وتمدَّد ؛ وقال : قد متُّ . فمات !! فانقطع أبو علي عن الكلام معه ، لأنَّه لا يمكنه أن يقابله بما فعل من التهيؤ للموت ، لأنَّه كان لأبي عليٍّ عَلاقاتٌ : أسباب دنيوية ، وكان عبد الله مجرَّداً لا شغل له يمنعه عن شغله بالله ، وكان صادقاً في سلوك الطريق ، وقطع الأسباب المشغلة عنه تعالى .

صادقة الحال : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : كان أبو العبَّاس الدينَوَري يتكلَّم على الناس في المحبة وغيرها ، فصاحت عجوز في المجلس صيحة ، ووَجِدت وجداً عظيماً حتى غلب عليها حالها ؛ وظهر على ظاهرها ! فقال لها أبو العباس الدينوري : موتي : إن كنت صادقة في أنك مغلوبة . فقامت فخطت خُطوات ، ثم التفتت إليه ، وقد دعت الله أن لا يفضحها فأحسَّت باستجابة الدعاء بالموت ، وقالت : قد مِتُّ . ووقعت ميتة .

---

(١) الآية : ٩٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

العقيدة والقصد : وقال الواسطيُّ : الصدق صحَّة التوحيد مع القصد ؛ بأن يفرد العبد ربَّه بالقصد ، ويجهد في تحصيل القُرْب منه تعالى .

أثر الحب : وقيل : نظر عبد الواحد بن زيد إلى غلام من أصحابه قد نَحِل : هَزُل بدنه ؛ فقال له : يا غلام ؛ أتديمُ الصوم ؟ فقال : لا ، ولا أديم الإفطار : أصوم وأفطر . فقال : أتديمُ القيام بالليل ؟ فقال : لا ، ولا أديم النوم : أقوم وأنام . فقال له : لما لم ير ذلك كافياً في نحوله : فما الذي أنحلَك ؟ فقال : هوىً : حبٌّ لله دائمٌ ، وكتمانٌ له دائم عليه : لا يظهره أبداً .

فقال له عبد الواحد : اسكت عن هذه الدعوى ، فما أجرأك على الله ، لقد ادَّعيت مقاماً عظيماً ، لا ينبغي لك أن تدَّعيَه ؟! فقامَ الغلام ـ وكان صادقاً في دعواه ـ وخطا خُطوتين ؛ وقال : إلهي إن كنتُ صادقاً فخذني إليك . فخرَّ ميتاً .

ومن هنا قال بعضهم : إذا لقيت فقيراً فٱلقَهُ بالرفق ، ولا تَلْقَه بالعلم ، فإنَّك إذا لقيتَـه بالعلم ذابَ كما يذوب الثلج[1] .

أثر الصدق : وحُكي عن أبي عَمْرو الزجاجي أنَّه قال : ماتت أمي فورثت منها داراً ، فبعتها بخمسين ديناراً ، فخرجت إلى الحج فلما بلغت بابل : موضعٌ بالعراق استقبلني واحدٌ من القناقنة : جمع قنقن ؛ وهو الدليلُ الهادي والبصير بالماء في حفر القني ؛ وقال لي : إيش معك ؟؟ فقلت في نفسي : الصدقُ خيرٌ من الكذب . ثمَّ قلت له : خمسونَ ديناراً . فقال له : ناولنيها ، فناولته الصُرَّةَ فعدَّها ؛ فإذا هي خمسون دينار . فقال : خذها ؛ فلقد أخذني صدقُك : رهبته فأثَّرتْ فيَّ ؛ فردَّني . ثمَّ نزل عن الدابَّة التي هو راكبُها ؛ وقال لي : اركبها . فقلتُ : لا أريد الركوب . فقال لي : لا بدَّ منه . وألحَّ علي فيه . فركبتها ، فقال : اذهب وأنا لاحقٌ بك على أثرك إلى مكَّة .

فلما كان العام المستقبل لَحِقَ بي ، ولازمني في الخير حتَّى مات .

فهذه آثار الصدق وبركاتُه في الدنيا قبل الأخرى .

شغل الصادق : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله ؛

---

(١) انظر ما تقدم ص٦١١ . (معاملة الفقير) ، وانظر ما سيأتي ص ٧٧٩ .

يقول : سمعت جعفر الخَوَّاص ؛ يقول : سمعت إبراهيم الخوَّاص ؛ يقول : **الصادق لا تراه إلاَّ في فرض يؤدِّيه ، أو فضل : ندب يعمل لربِّه فيه ، لأن الطاعة التي هي شغلُه لا يخرج عنها .**

حقيقة الصدق : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا الحسين ابن مقسم ؛ يقول : سمعت جعفر الخوَّاص ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : **حقيقة الصدق أن تصدق في موطن لا ينجِّيك منه إلاَّ الكذب** في ظنِّك ، لكونك تخشى من الصدق فيه على نفسك الضرَر ، فينطق به فيه كما في تغيير المنكر .

لوازم الصدق : وقيل : **ثلاثٌ لا تخطىء الصادق** : لا تتجاوزه إلى غيره كما جرت عادة الله تعالى به ؛ وهي ١ـ **الحلاوة** في منطقه ، لإتيانه بالحق في رفق وسهولة . و٢ـ **الهيبة** : الحرمة له ، لدوام توقُّفه عما يكرهه مولاه ، وإنكاره المنكر ؛ ولو كان فاعلُه إيَّاه . و٣ـ **الملاحة** له لضياء الطاعة على وجهه ، وقد قيل : مَن كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار .

صادق السريرة : وقيل : **أوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام : ﴿ يا داود ؛ مَن صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته ﴾** ، لخبر : « مَنْ أَسَرَّ سَرِيْرَةً أَلْبَسَهُ ٱللهُ رِدَاءَهَا »[1] .

والغالب على من يعمر باطنه بالصدق والإخلاص ، أن تجريَ حركاتُه وسكناته على حسب ما في قلبه ، فيظهر الصدق في أحواله وأفعاله .

العامل بالصدق : وقيل : **دخل إبراهيمُ بن دَوحة مع إبراهيمَ بن ستنبة الباديةَ ؛ فقال إبراهيم بن ستنبة لابن دوحة : اطرح ما معك من العلائق . قال : فطرحت كلَّ شيء** ذكرت أنه معي . . **إلاَّ ديناراً . فقال لي : يا إبراهيم ؛ لا تشغل سرِّي ؛ اطرح ما معك من العلائق . قال : فطرحتُ الدينار** ، لعله طرح ذلك لمن يأخذه ، وإلاَّ ! فطرحه إضاعةُ مال ، وهي حرام . أو يقال : إنَّما يحرم . . إذا كانت لغير التداوي ؛ . . لا للتداوي ، لا سيما الأمراض الدينية ، وإذا جاز أن يُتلف العبد مالاً كثيراً للأمراض البدنية وقد لا تزول . . فكيف إذا كانت دينية ؛ وحصل بها أدب النفس وزجرها حتى لا تعود !! .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « الإخلاص » ؛ عن عثمان (انظر كشف الخفا برقم : ٢٣٧٥) .

ثم قال لي : يا إبراهيم ؛ اطرح ما معك من العلائق . فذكرت أنَّ معي شسوعاً : سيوراً أحتاجها للنعل : لربطه بها إذا انقطع شسعه ؛ فطرحتها ، فما احتجت في الطريق إلى شسع إلاَّ وجدته بين يديَّ . فقال إبراهيم بن ستنبة : هكذا من عامل الله بالصدق . . يلطفُ به ؛ ولا يُحوجه إلى سكونٍ لسبب .

سيف الله : وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى : **الصدق سيفُ الله ما وضع على شيء إلاَّ قطعه**؛ لأنَّ المتَّصِف به إن دَعَىٰ الله استجاب له ، وإن أُوذي ٱنتصر له .

خيانة الصديقين : وقال سهل بن عبد الله : **أوَّل خيانة الصدِّيقين حديثُهم مع أنفسهم** ، لأنَّ الصدِّيق مَن كثر صدقه في جميع أحواله وأعماله ، فإذا حدَّث نفسه بالتقصير في صدقه ، وتمادى على ذلك . . فقد خان ربَّه فيما عزم عليه له .

مظهر الصدق : وسئل فتح الموصلي عن الصدق ؛ **فأدخل يده في كير الحداد ، وأخرج الحديدة المحمَّاة ووضعها على كفِّه ؛ وقال : هذا هو الصدق** . وهو من باب صدق الالتجاء إلى الله ، فإذا أراد الوليُّ أن يُطلِع أحداً علىٰ خوارق العادات للحاجة إليه . . صدق في الالتجاء إلىٰ الله ؛ وفعل فعلاً خارقاً للعادة بإقدار الله له عليه . ومِن ذلك ما . .

عظة باطش : حُكي أنَّ رجلاً كان شديداً في بطشه . . لا يطيقه من الناس إلاَّ قليل ؛ أمسك امرأة وهي تصيح وتستغيث . . وبيده سكين لا يجسُر أحد يقربُ إليه إلاَّ عَقَره ، قال : فبينا الناس كذلك إذا جاءه بشر بن الحارث فحكَّه بكتفه وكلَّمه بقوله : (الله يراك؛ وما تصنع)! فسقط إلى الأرض مغشيّاً عليه . وذهبت المرأة ، فلما أفاق سأل عن الذي كلَّمه؛ فقيل له : بشر بن الحارث؛ فقال : وافضيحتاه ! كيف يراني بعد اليوم ، فُحمَّ الرجل من يومه ومات بعد أيام قلائل .

معاملة الله : وقال يوسف بن أسباط : **لأن أبيتَ ليلة أعامل الله تعالى بالصدق أحبُّ إليَّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله تعالى** ، لأنَّ الصدق يحتاج إليه في كلِّ حال ، بخلاف الجهاد في سبيل الله ، فإذا بات العبد يعامل الله بالصدق في سائر أحواله ؛ من قيامه ومنامه وشرابه وطعامه . . فهو في الجهاد الأكبر ، لأنه جهاد النفس ؛ وهو أكبر من الجهاد في سبيل الله ، لأنَّه جهادٌ دائم متوالٍ .

مجلى الصدق : سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : الصدق أن تكون

مع الناس كما ترى من نفسك ، أو أن ترى من نفسك كما تكون معهم . . بأن يستوي عندك السرّ والعلانية ، فلا تخفي عن الناس ما يعلمه الله منك ؛ حذراً من ذمِّهم ، ولا تظهر لهم ما يعلم الله من باطنك ؛ طلباً لمدحهم .

علامة الصادق : وسئل الحارث المحاسبي رحمه الله عن علامة الصدق ؟ فأجاب بعلامة الصادق التي يعرف بها علامةُ الصدق ، ـ وفي نسخة : عن علامة الصادق ـ؛

فقال : الصادقُ هو الذي لا يبالي (لو خرج كلُّ قَدْر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه) . هذا تعليل لـ (لا يبالي) ، ولا يحبُّ اطلاع الناس على مثاقيل الذرِّ من حسن عمله ، ولا يكره أن يطَّلع النَّاس على السيِّءِ من عمله ، فإنَّ كراهتَه لذلك دليل على أنَّه يحبُّ الزيادة عندهم .

وليس هذا من أخلاق الصديقين ! لمنافاته الصدق .

الفرض الدائم : وقال بعضهم : مَن لم يؤدِّ الفرض الدائم لا يقبل منه الفرضُ المؤقت بوقت كالصلوات الخمس . قيل له : ما الفرض الدائم !؟ قال : الصدق كالإيمان ، لأنَّ العبد مأمورٌ في كلِّ معاملته ، كما قال تعالى ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[1] .

مرآة الصادق : وقيل : إذا طلبت الله تعالى بالصدق . . أعطاك مرآةً تُبصرُ فيها كلَّ شيء من عجائب الدنيا والآخرة. قال تعالى ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[2] : نوراً تفرِّقون به بين الحقِّ والباطل ، وقال ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[3] .

ثمرة الصدق : وقيل : عليك بالصدق حيث تخاف أنَّه يضرَّك ؛ فإنَّه ينفعُك ، ودَعْ الكذب حيث ترى أنَّه ينفعُك؛ فإنه يضرُّك. لأنَّ « ٱلصِّدْقَ يَهْدِي إِلىٰ ٱلبرِّ ، وَٱلبرُّ يَهْدِي إِلَى ٱلجَنَّةِ ، وَٱلكَذِبُ يَهْدِي إِلَى ٱلفُجُورِ ، وَٱلفجُورُ يَهْدِي إِلىٰ ٱلنَّارِ »[4] .

مصادقة الكذاب : وقيل : كلُّ شيءٍ شيء يعتدُّ به ، ومصادقةُ الكذَّاب لا شيء يعتدُّ

---

(١) الآية : ٢١ ؛ من السورة التي ذكر فيها سيدنا محمد ﷺ .

(٢) الآية : ٢٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنفال .

(٣) الآيتان : ٢ و٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الطلاق .

(٤) تقدم تخريجه ص ٦٣٤ ؛ متفق عليه .

به ، إذ لا خيرَ فيها . . دنيا وأخرى ، لأنَّك لا تثق بخبره ، وإذا كذب لك كَذَب عليك .

علامة الكذاب : **وقيل** : **علامةُ الكذَّاب جودُه باليمين لغير مستحلِف** ؛ لأنَّه لما لم يثق بخبر نفسه ؛ وخاف من ظهور كذبه . . بادر إلى تأكيده وستره بيمينه ، ليتوَّهم صدقه .

ظرافة التورية : **وقال ابن سيرين** : **الكلام أوسعُ من أن يكذب ظريف !**: في سَعة الكلام من المعاريض ما يستغني به الظريف الحسن التصرُّف عن الكذب ، ولقد ذكر من المعاريض لمن أراد أن يستخفيَ من الناس . . أنَّه كان يدوِّرُ دائرة في الحائط ؛ ويقول لخادمه : ضع يدك في هذه الدائرة ، وقل (ليس هو ههنا) .

ومنها أن يخرج من باب داره بكرةً ، ويرجع إليها ؛ ويقول لخادمه : قل لطالبي (يا سيِّدي خرج بكرة) .

التاجر الصدوق : **وقيل** : **ما أملق** : افتقر **تاجر صدوق** ؛ لأنَّ صدقه يحمله على إظهار العيوب ، والنصح في المعاملة وكلُّ مَن عُرف بهذا رَغبَ الناس في معاملته ، ومالوا إليه ؛ طمعاً في نصحه وحسن معاملته ، وبهذا يكثُرُ رزقه ، قال تعالى ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

* * *

٢٨ ـ باب الحياء

تعريفه : هو : ما يمنعك عمَّا يضرُّك . ويقال : تعظيمٌ يمنع من الانبساط .

ويقال غير ذلك كما سيأتي .

سببه : وسببه ملازمة مَن يستحيى منه كأهل العلم والأدب .

ثمرته : وثمرته أمن المقت والعذاب وخفَّة الحساب ، وعدمُ الدعوى وكثرة

الثواب ، ويكفي في ذلك خبر : « اَلْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ »[1] .

رتبته : وهو ممدوح ومطلوب ، قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾[2] ما صدر عنه : يعلمه فيجازيه عليه .

كمال الإيمان : وأخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدوس الحيري المزكي رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أبو سهل أحمد بن محمد بن زياد النحوي ببغداد ؛ قال : حدَّثنا إبراهيم بن محمد بن الهيثم ؛ قال : حدَّثنا موسى بن حيّان ؛ قال : حدَّثنا المقدَّمي ؛ عن عبيد الله بن عمر ؛ عن نافع ؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

قال رسول الله ﷺ : « اَلْحَيَاءُ مِنَ ٱلإِيْمَانِ »[3] : الكامل .

حق الحياء : وأخبرنا أبو سعيد محمد بن إبراهيم الإسماعيلي ؛ قال : حدَّثنا أبو عثمان عمرو ابن عبد الله البصري ؛ قال : حدَّثنا أبو أحمد محمد بن عبد الوهَّاب ؛ قال : حدَّثنا يعلى بن عبيد ؛ قال لي أبان بن إسحاق ؛ عن الصباح بن محمد ؛ عن مُرَّة الهمداني ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال ذات يوم لأصحابه : « اِسْتَحْيُوا مِنَ ٱللهِ حَقَّ ٱلحَيَاءِ » قالوا : إنا نستحيي : حق الحياء يا رسول الله ؛ والحمد لله !! قال : « لَيْسَ ذَلِكَ ٱلَّذي تتوهَّمُونَه هوَ حقّ الحياء ، وَلَكِنْ مَنْ ٱسْتَحْيَا مِنَ ٱللهِ حَقَّ ٱلحَيَاءِ .. فَلْيَحْفَظِ ٱلرَّأْسَ وَمَا وَعَىٰ ، وَلْيَحْفَظِ ٱلبَطْنَ وَمَا حَوَىٰ ، وَلْيَذْكُرِ ٱلمَوْتَ وَٱلبِلَىٰ ، وَمَنْ أَرَادَ ٱلآخِرَةَ تَرَكَ زِيْنَةَ ٱلدُّنيا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ ٱسْتَحْيَا مِنَ ٱللهِ حَقَّ ٱلحَيَاءِ »[4] .

إحياء الحياء : وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : أخبرنا أبو نصر الوزيريُّ ؛ قال : حدَّثنا محمد بن عبد الله بن محمد ؛ قال : حدَّثنا الغلاَّبيُّ ؛ قال : حدَّثنا محمد بن مخلد .. عن أبيه ؛ قال : قال بعض الحكماء : أحيوا الحياء بمجالسة

---

(١) متفق عليه عند البخاري : ٦١١٧ ، ومسلم : ٦٠ ـ ٣٧ ؛ عن عمران بن حصين رضي الله عنه .

(٢) الآية : ١٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : العلق .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخاري : ٢٤ ، ومسلم : ٥٩ ـ ٣٦ ؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما بزيادة : « إنَّ . . . » .

(٤) أخرجه أحمد : ١/ ٣٨٧ ، والترمذي : ٢٤٦٠ ، والحاكم : ٤/ ٣٢٣ ، وصحَّحه ووافقه الذهبي . وأبو يعلىٰ : ٥٠٤٧ ، وأبو نعيم في « الحلية » : ٤/ ٢٠٩ ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه .

مَن يُسْتَحيى منه . واحذروا أن لا يمازجه رياء ، كأنْ يمرَّ بأخيه . . وهو محتاج إلى مَن يساعده في شُغل له ؛ فيقف يساعده حياءً لحسن خلقه ، ثمَّ يعزم على المضيِّ ، فيقول له الشيطان : الآن يذمُّك في كونك لم تثبت معه حتَّىٰ يفرغ من شُغله فيساعده رياء ؛ بعد أن كان حياءً .

العلم الأكبر : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرازي ؛ يقول : سمعت ابن عطاء ؛ يقول : **العلم الأكبر** ؛ وهو معرفة الله تعالى ثمرتُه **الهيبة والحياء** ، لأن مَن عرف الله أجلَّه واستحيى منه ؛ أي : فعل به أفعال المستحين من المحبة والإكرام والتعظيم ، **فإذا ذهبت الهيبة وذهب الحياء** من قلب العبد . . **لم يبق فيه خيرٌ** .

ثمرة الحياء : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا الفرج الورثاني ؛ يقول : سمعت محمد بن أحمد بن يعقوب ؛ يقول : حدَّثني محمد بن عبد الملك ؛ قال : سمعت ذا النون المصري ؛ يقول :

الحياءُ وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك تعالى .

يعني : أنَّ معرفتك بما سبق لك من المخالفة لربِّك توجب وحشةً بينك وبينه ، ونظره إليك في تلك الحالة مع استشعارك لنظره إليك ، يوجب لك انقباضاً وحشمة يعبَّر عنهما بالحياء .

سكوت المستحي : وقال ذو النون المصريُّ : **الحبُّ يُنْطِق المحبَّ** ، لأنَّ مَن أحبَّ شيئاً أكثر من ذِكره ، **والحياءُ يُسْكِت المستحي** ، لأن مَن استحيا من شيء انقبض منه وسكت ، **والخوفُ يُقلِقُ الخائف** ، لأن مَن خاف من شيء قلق وهرب منه .

متصنِّع الحياء : وقال أبو عثمان : مَن تكلَّم في الحياء ؛ وهو لا يستحي من الله تعالى فيما يتكلَّم به . . **فهو مستدرَجٌ** : مأخوذ قليلاً . . قليلاً . قال تعالىٰ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾[1] : نأخذهم قليلاً . . قليلاً .

المتكلم بالحياء : سمعت أبا بكر ابن شكيب رحمه الله ؛ يقول : دخل الحسن الحدَّاد على عبد الله بن منازل ؛ فقال : مِن أين تجيءُ : جئت ؟ . قال : مِن مجلس أبي القاسم المذكِّر . فقال : فبماذا كان يتكلَّم؟ فقال : في الحياء . فقال عبد الله :

---

(١) الآية : ١٨٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف ، و : ٤٤/ القلم .

واعجباً . . مَن لم يستحي مِن الله تعالى . . كيف يتكلَّم في الحياء !! ؛ إذ يقبح بالعبد أن يتكلَّم فيه وهو مقيم على ما يُسخط الله . . لم يقصد بذلك غيبَته ؛ بل تنبيهه ، وتحذيرَه من أن يكون كذلك .

مسكن الحياء : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا العبَّاس البغداديَّ ؛ يقول : سمعت أحمد بن صالح ؛ يقول : سمعت محمد بن عبدون ؛ يقول : سمعت أبا العبَّاس المؤدِّب ؛ يقول : قال سريٌّ السقطي : **إن الحياء والأُنس يطرقان القلب فإذا وجدا فيه الزهد** ؛ وهو : الإعْراض عن الحلال الصافي ، **والورع** ؛ وهو : الإعراض عما فيه شبهة **حطًا** : سكنا فيه ، **وإلاَّ** . . **رحلا عنه** ، لأنَّ الحياء ثمرة دوام المراقبة ، والأنس ثمرة دوام العبادة بالإخلاص ، فلا يَحُلَّان إلاَّ في محلٍّ خال من المشغلات عن الله .

طبقات الناس : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعتُ محمد بن عبد الله بن شاذان رحمه الله ؛ يقول : سمعت الجُرَيريَّ ؛ يقول : **تعامَلَ القرنُ الأول من الناس فيما بينهم بالدين** : بأوامر الله ونواهيه وأوقعوا كلَّ فعل موقعَه ، فوقعت الأعمال صحيحةً . . **حتَّى رَقَّ الدين** : ضعف ، **ثمَّ تعامل القرنُ الثاني منهم بالوفاء** ؛ وهو ما بقي معهم من آثار الدين الحميدة التي تعوَّدوها في الزمن الماضي . . **حتى ذهب الوفاء** ، **ثمَّ تعامل القرن الثالث منهم بالمروءة** وحُسْن الأخلاق . . **حتى ذهبت المروءة** ، **ثم تعامَل القرنُ الرابع منهم بالحياء** ، فمن كان عنده حياء انكفَّ عن الرذائل ، ومن لا ! فلا ، وقد ورد : « إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَٱصْنَعْ مَا شِئْتَ »[1] . يعني : إذا قلَّ حياؤكَ صنعت ما تشاء ، أو إذا لم يكن في عملك ما يُستحيىٰ منه فٱصنع ما شئت ؛ فإنَّه كلَّه جيد . **حتى ذهب الحياء** ، **ثمَّ صار الناس يتعاملون بالرغبة** : الرجاء **والرَّهبة** : الخوف . فمن رجا في نيل شيء منه أنصف في المعاملة لما يرجى منه ، ومن خِيف ضررُه . . أنصف أيضاً خوفاً مِن شره . وأما اليوم فأكثر معاملتهم ، وإنصافهم هو بالرهبة خاصَّة ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

---

(١) جزء حديث أخرجه البخاري : ٣٤٨٣ ؛ وأبو داود : ٤٧٩٧ ، وابن ماجه : ٤١٧٣ ؛ عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري : « إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ ٱلنَّاسُ مِنْ كَلامِ ٱلنُّبُوَّةِ ٱلأُولىٰ (إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَٱصْنَعْ مَا شِئْتَ) » .

ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾[1] فمن خِيف شرُّه أنصف في معاملته ، وقضيت حاجته ، ومَن كان بخلاف ذلك استهين وبقيت حاجته في نفسه تتلجلج !! فإنا لله وإنا إليه راجعون .

برهان يوسف : وقيل[2] ـ في معنى البرهان في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ ـ : البرهانُ أنَّها ألقت ثوباً على وجه صنم يعبُده الكفَّار في زاوية البيت . فقال يوسف عليه السلام : ما تفعلين !؟ فقالت : أستحي منه إذا لم يحجب عني ؛ فقال يوسف عليه السلام : « أنا أولى منكِ أن أستحي من الله تعالى » .

وقيل : البرهانُ أنَّه رأى يعقوب ـ عليه السلام ـ عاضّاً على أصبعه يحذِّره ، والهَمُّ مشترك بين حديث النفس والعزم ، والأوّل معفوٌّ عنهُ ؛ والثاني مؤاخَذٌ به ، فَهمُّه حديثُ نفسٍ ، وهمُّها عزم .

استحياء بنت شعيب : وقيل في حكمة الاستحياء ؛ في قوله تعالى ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾[3] قيل : إنَّما استحيت منه !! لأنَّها كانت تدعوه إلى الضيافة ، فاستحيت ألاَّ يجيبـها إليها موسى عليه السلام ، فيفوتَها مقصودُها ! فصفةُ المضيف الاستحياء ، وذلك استحياء الكرم وسيأتي بيانُه ، وقيل : إنها دعته ليأخذ أجر ما سقى ، والدعاء لأخذ الأجرة ممّنْ شيمتُه الكرم مُؤلِمٌ له ، فاستحيت مما في نفسها مما ذكرته له بقولها ﴿ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ .

جزاء المستحي : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا محمد البلاذري ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله العمري ؛ يقول : سمعتُ أحمد ابن أبي الحواريِّ ؛ يقول : سمعت أبا سليمان الداراني ؛ يقول : قال الله تعالى : ﴿ يا عَبْدِيْ ؛ إِنَّكَ مَا ـ مصدرية ظرفية ـ ٱسْتَحْيَيْتَ مِنِّي . . أَنْسَيْتُ ٱلنَّاسَ عُيُوبَك لئلا يفضحوك ، وَأَنْسَيْتُ بِقَاعَ ٱلأَرْضِ ذُنُوبَكَ لئلا تشهد عليك يوم القيامة ،

---

(١) الآية : ٢٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : صٓ .

(٢) عزاه العروسي : ٣/ ١٤٧ إلىٰ الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما .

(٣) الآية : ٢٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : القصص .

وَمَحَوْتُ مِنْ أُمِّ ٱلْكِتَابِ : أصله . . وهو اللوح المحفوظ زَلاَّتكَ ، ولم أُطلع عليها أحداً من خلقي ، وَلاَ أُنَاقِشُكَ فِي ٱلْحِسَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ .

مستكمل الحياء : وقيل : رُؤي رجلٌ يصلِّي خارجَ المسجد ، فقيل له : لم لا تدخل المسجِد فتصلِّي فيه !؟ فقال : أستحيي منه تعالى أن أدخل بيته وقد عصيتُه ، لأنَّ العادة أن مَن كَمُل حياؤه من غيره لم يَقْرَب له موضعاً .

علامة المستحيي : وقيل : مِن علامات المستحيي ألا يُرى بموضعٍ يستحيا منه ؛ إذ المستحيي من مولاه لا يرى إلا في فرض يأتيه ، أو نفل يرغب فيه[1] .

كامل الحياء : وقال بعضهم : خرجنا ليلة فمررنا بأَجَمة[2] من قصب ؛ فإذا رجلٌ نائم وفرس عند رأسه ترعى ، فحرَّكناه وقلنا له : ألا تخاف أن تنام في مثل هذا الموضع المخوف وهو مُسبع : كثير السباع !! فرفع رأسه ؛ وقال : أنا أستحيي منه تعالى أن أخاف غيره . ووضع رأسه ونام .

فيه دلالة على كمال حيائه من ربِّه ؛ حيث لم يخامر قلبَه خوفٌ من غيره حتَّىٰ من الأماكن التي يُخشى منها الأذيّة .

حياء الواعظ : وأوحى اللهُ سبحانه إلى عيسى عليه السلام : ﴿ عِظْ نَفْسَكَ ، فَإِنْ ٱتَّعَظَتْ فَعِظْ ٱلنَّاسَ ، وَإِلاَّ ! فَٱسْتَحْيِي مِنِّيْ أَنْ تَعِظَ النَّاس ؛ وأنت لم تتعظ !! ﴾ ، فوعظك لهم بعد اتعاظك أبلغُ في انتفاعهم ، وأسلمُ لقلوبهم من الاعتراض عليك .

وجوه الحياء : وقيل : الحياء على سبعة وجوه :

أ ـ **جناية** : ١ـ حَياءُ الجناية بالإخلال بالأمر والنهي ؛ كآدم عليه السلام . . لما قيل له في قصَّته ﴿ أفراراً منا !؟ ﴾ فقال : لا بل حياءً منك لجنايتي .

ب ـ **تقصير** : و٢ـ حياءُ التقصير في عدم إيفاء كمالِ الحق ؛ كالملائكة ، لأنهم لحيائهم بتقصيرهم عندهم يقولون : سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك .

---

(١) تقدم ص٦٣٨ (شغل الصادق) .

(٢) هي غيضة الشجر الملتف المتداخل .

جـ ـ إجلال : و٣ـ حياء الإجلال والتعظيم ؛ كإسرافيل عليه السلام ، فإنَّه تسربَل بجناحه ؛ حياءً من الله سبحانه .

د ـ كرم : و٤ـ حياء الكرم : كرم الأخلاق والصفات ؛ كالنَّبيِّ ﷺ ، فإنه كان يستحيي من أُمَّته أن يقول لهم إذا طمعوا عنده (اخرجوا) حياءً من تألُّمهم ؛ فقال الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ ﴾[1] .

هـ ـ حشمة : و٥ـ حياء حشمة ، وهو قد يرجع إلى حياء الإجلال !! كعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه حين سأل المقدادَ بن الأسود حتَّى سأل رسول الله ﷺ . . عن حكم خروج المذي ، ولم يسأل رسول الله ﷺ استحياءً منه ؛ لمكان ابنته فاطمة رضي الله عنها . . منه .

و ـ استحقار و٦ـ حياء الاستحقار من العبد لنفسه ؛ بأن لم يرَها أهلاً لخدمةِ من استحيى هو منه ؛ كموسى عليه السلام ه قال : « إنِّي لَتَعرِضُ لي الحاجةُ من الدنيا فأستحيي أن أسألكـــها يا ربُّ ! فقال اللهُ عزَّ وجلَّ له ﴿ سلني . . حتَّى عن ملحِ عجينك وعَلَف شاتك ﴾ .

ز ـ إنعام : و٧ـ حياء الإنعام ؛ هو مع أنَّه قد يرجع إلى حياء الكرم . . حياءُ الربِّ سبحانه ، فإنه يدفع إلى العبد كتاباً مختوماً بعدما عَبَر الصراط ؛ وإذا فيه : ﴿فعلتَ ما فعلتَ ولقد استحييتُ أن أُظهره عليك فٱذهب فإنِّي قد غفرتُ لك﴾ .

استحياؤه تعالى : سمعت الأستاذ أبا علي الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول في هذا الخبر المقول عن الربِّ : إن يحيى بن معاذ قال ـ في تنزيه الله تعالى وبُعدِه عن مشابهة خلقه ـ: سبحان مَن يذنب العبد ؛ أي عبده فيستحيي هُوَ منه ؛ فلا يفضحه ويعفو عنه .

علامات الشقاء : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله بن أحمد بن جعفر ؛ يقول : سمعت زنجويه اللَّباد ؛ يقول : سمعت علي بن الحسين الهلالي ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن الأشعث ؛ يقول : سمعت الفضيل بن عياض ؛ يقول :

خمس من علامات الشقاء : ١ـ القسوة في القلب ، و٢ـ جمود العين ،

---

(١) الآية : ٥٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

و٣ـ وقلَّة الحياء ، و٤ـ الرغبةُ في الدنيا ، و٥ـ وطول الأمل ، ويجمعها كلها في الحقيقة طولُ الأمل ، لأنَّ مَن طال أملَه اشتدَّ حرصُه على الدنيا ؛ فيغفل عن الآخرة ؛ فيقسوَ قلبه . . فلا تعمل فيه المواعظ ، ويقلُّ حياؤه وبكاؤُه ، ومَن قصر أملُهَ قلَّ احتياجه للدنيا ، واجتهد في عمل الآخرة ؛ فيرقُّ قلبه . . وتعمل فيه المواعظ ، ويستحيي مِن الله ومن الخلق ، ويكثرُ بكاؤه على تقصيره في حقِّ ربِّه . فقد ارتبط الخيرُ بقصر الأمل ؛ والشرُّ بطوله .

ظلم العبد : وفي بعض الكتب : قال الله تعالى ﴿ مَاأَنْصَفَنِي عَبْدِي . . يَدْعُونِي فَأَسْتَحْيِي أَنْ أَرُدَّهُ ، وَيَعصِيْنِي فَلاَ يَسْتَحْيِي مِنِّي !!﴾ .

استحياء الطاعة : وقال يحيى بن معاذ : مَن استحيا من الله مُطيعاً . . آستحيا الله منه وهو مذنب ، فبالأولى أن يستحيي منه وهو مطيع

موجَب الحياء : واعلم أنَّ الحياء يوجِب التذويب ، فيقال : الحياء ذَوَبان الحشا لاطلاع المولى . ويقال : الحياءُ انقباض القلب لتعظيم الربِّ . .

كلٌّ منهما حياء أرباب الأحوال والسالكين ؛ لكمال الدرجات في المعارف ، فإذا استشعر قلبُ عبد رؤيةَ الله مع كمال إجلاله وتعظيمه . . ذاب قلبُه في نفسه ، أو انقبض لسطوة عزَّة ربِّه واستشعارِ قربه .

تذكرة الواعظ : وقيل : إذا جلس الرَّجل ليعظ الناس ـ وفي نسخة : الخلق ـ ناداه ملكاهُ : عظْ نفسَك بما تعظُ به أخاكَ ، وإلا ! فاستحيي من سيِّدك فإنَّه يراك ويجازيك على عملك[1] .

معتصر الحياء : وسئل الجنيد عن الحياء؟ فقال : رؤية الآلاء : النِّعم ، ورؤية التقصير في العمل ، فيتولَّد مِن بينهما حالةٌ تسمَّىٰ الحياء . فمن رأىٰ نفسه مقصِّراً ، ورأى النِّعم متواليةً عليه . . حصل له الحياء ، وكذا من أَجَلَّ مولاه وأحبَّه ، فالنِّعم موجبة للمحبَّة ، ورؤية التعظيم موجبةٌ لاستحقار النفس ورؤيةِ تقصيرها .

لذعات الحياء : وقال الواسطي : لم يذق لَذَعات : طوارق وأوائل ، ـ وفي نسخة :

---

(١) انظر ما تقدم ص ٦٤٧ عن عيسى عليه الصلاة والسلام (حياة الواعظ) .

طعم ـ الحياءِ مَن لابَسَ خَرْق حدٍّ : ارتكب منهيَّاً عنه حدَّهُ الله بحدٍّ ومَنَع من ارتكابه ، أو لابَس نَقْض عهدٍ فيما عاهد الله على القيام به ، لأنَّ مَن لم يستح عند ارتكابه شيئاً من ذلك . . فلا حياء عنده ؛ فيفعل المحرَّمات ، ويخلُّ بالواجبات .

علامة المستحي : وقال الواسطيُّ أيضاً : المستحي يسيل منه العَرَق . وهو الفضل الذي فيه ، لأنَّ المستحيَ يذوب قلبه من شِدَّة ما فيه من الحياء فيذهب من قلبه وجسده كلّ فضول ، وما دام في النفس شيء يستحىٰ منه ؛ ولم يخرج منها فهو : صاحبها . . مصروف عن الحياء الكامل .

ثمرة الحياء : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : الحياء ترك الدعوى بين يدي الله تعالى ، لأن مَن كَمُل حياؤه لم يَدَّعِ ما لم ينله من المقامات ، ولم يصل إليه من الدرجات ، وهذا من ثمرات الحياء ؛ لا نفسه كما علم مما مرَّ .

استحياء العبادة : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله الصوفيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا العبَّاس بن الوليد الزوزني ؛ يقول : سمعتُ محمد بن أحمد الجوزجاني ؛ يقول : سمعت أبا بكر الوَّراق ؛ يقول : ربَّما أُصلِّي لله تعالى ركعتين فأنصرف عنهما بالسلامة في محلِّه ؛ وأنا بمنزلة مَن ينصرف عن السرقة من الحياء . . لما أراه من تقصيري في القيام بحقوق الله تعالى ، فهو مع كمال اجتهاده وأدبه في صلاته لا يرى نفسه موقعاً لها على حسب ما يليقُ بجلال مولاه وعظمته . والله تعالى أعلم .

* * *

٢٩ ـ باب الحرية

معناها : هي ـ كما سيأتي ـ ألاَّ يكون العبد تحت رِقّ المخلوقات .

ويقال : الإعراض عن الكلِّ والإقبالُ على مَن له الكلُّ .

ويقال : أن لا يدخل قلبَك سوى الله . وكلُّها متقاربة .

رتبتها : وهي ممدوحة ومطلوبة ، قال الله سبحانه ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1] .

حقيقتها : قال المملي ؛ وهو المؤلف : إنَّما آثروا على أنفسهم لتحرزُّهم عما خرجوا منه من الدنيا ، وآثروا به غيرَهم على أنفسهم .

كفاية القانع : أخبرنا عليُّ بن أحمد الأهوازي ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصري ؛ قال : حدَّثنا ابن أبي قماش ؛ قال : حدَّثنا محمد بن صالح بن النطَّاح ؛ قال : حدَّثنا نعيم بن مورع بن توبة ؛ عن إسماعيل المكي ؛ عن عَمرو بن دينار ؛ عن طاوس ؛ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما **قال** :

قال رسول الله ﷺ : « إنَّما يَكْفِي أَحَدَكُمْ مَا قَنَعَتْ بِهِ نَفْسُهُ ، وَإِنَّما يَصِيْرُ أمره إِلَى أَرْبَعَةِ أذْرُعٍ وَشِبْرٍ: قبر عمقه ذلك . . وَإِنَّمَا يَرْجِعُ ٱلأَمْرُ إِلَىٰ آخِرِهِ »[2] .

تعريفها : قال الإمام المملي : الحريَّة أن لا يكون العبد تحت رِقِّ المخلوقات ، ولا يجري عليه سلطانُ المكوَّنات .

علامة الحر : وعلامة صحَّته سقوطُ التمييز عن قلبه بين الأشياء فيتساوىٰ عنده أخطار الأعراض- وفي نسخة : الأعواض - .

حريَّة حارثة : قال حارثة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ : عَزَفت : زهدت نفسي عن الدنيا ؛ فاستوى عندي حَجَرها وذهبُها .

ويكفي في الزهد عنها خبرُ : « تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّيْنَارِ وَٱلدِّرْهَمِ »[3] ، فمن تحرَّر من رِقِّها شغلاً بربِّه ؛ وإعراضاً عنها . . فهو الحرُّ عن غير الله ، والعبدُ في الحقيقة لله .

حُر الدارين : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : منَ دخل الدنيا وهو عنها حرٌّ ؛ بأن دخلها من غير رغبة فيها ؛ بل امتثالاً لأمر ربِّه . . ارتحل عنها إلى الآخرة ؛ وهو عنها حرٌّ . . لم يتعلَّق شيء منها بقلبه .

---

(١) الآية : ٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحشر .

(٢) أخرجه ابن لال في «مكارم الأخلاق»؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه (كنز العمال : ٧١٢٣).

(٣) تقدم تخريجه ص ٤٠٤ .

سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا محمد المراغي . . يحكي عن الرّقي ؛ عن الدَّقَّاق ؛ يقول : من كان في الدنيا حُرَّاً منها ، بأن تعاطاها لأمر الله ؛ لا لهواه . . كان في الآخرة حُرَّاً منها ، لكونه لم يرد بعلمه إلاَّ الله .

وهذا قريبٌ مما قبله .

حقيقتها : واعلم أنَّ حقيقة الحريَّة كائنةٌ في كمال العبودية ، لأنَّ كمالها إفراغُ الجهد في الطلب بالبدن والقلب ؛ في كلِّ ما يردُ عليه من الله ، فإذا صدقتْ لله عبوديَّتُه . . خَلَصتْ عن رِقِّ الأغيار حريَّتُه ، فأمَّا مَن توهَّم أنَّ العبد يسلم له أن يخلع وقتاً : في وقت . . عِذَار العبوديَّة ويحيد بلحظِهِ : ملاحظته . . عن حدِّ الأمر والنهي وهو مميزٌ في دار التكليف ؛ زعماً منه أنَّه مشتغل بالربوبيَّة . . فذلك انسلاخ من الدين .

قال الجنيدُ ـ لمَّا قيل له : إن من أهل المعرفة قوماً يقولون : (ترك الأعمال من البرِّ)؛ زعماً منهم أنَّهم وصلوا !!ـ: الذي يسرق ويزني أحسن ممن يقولُ هذا ، ولو بقيتُ ألف عام لم أنقص من أورادي شيئاً[1] !! .

وكما قال غيره[2] ـ لما سُئل عمن يقول ذلك ـ: نعم وصل ؛ ولكن إلى سقر .

قال الله سبحانه لنبيه ﷺ ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[3] ؛ يعني الأجل : الموت . وعليه أجمع المفسرون ، وأجمعوا أيضاً على أنَّ الذي أشار إليه القوم من الحرية هو أن لا يكون العبد بقلبه تحت رِقِّ شيءٍ من المخلوقات ؛ لا مِن أعراض الدنيا . . ولا من أعواض ـ وفي نسخة : أعراض ـ الآخرة ، فيكون فرداً لفردٍ ؛ أي لله . . لم يسترقَّهُ عاجلُ دنيا ، ولا حاصلُ هوىً ، ولا آجل مُنىً ـ جمع منية ـ؛ ولا سؤال . . وهو ما سأله العبد ، ولا قصد ، ولا أرب : حاجة ، ولا حظٌّ : نصيب ، فالحرُّ مَن لم يعلق قلبُه في الدنيا بعَرَض ، ولا في عمل الآخرة بِعَوض . ولهذا قال :

---

(١) انظر ما تقدم ص ١٤٩ .

(٢) هو أبو علي الرُّوذَباري كما مرَّ ص ٢٠٦ .

(٣) الآية : ٩٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحجر .

مقام الحرية : وقيل للشبلي : ألا تعلم أنه تعالى رحمان !! فقال : بلى : نعم ، ولكن منذ عرفت رحمتَه . . ما سألتُه أن يرحمني لئلا يكون لي سؤال وقصد وأرب ، ومقام الحرية عزيز .

محال الزمان : سمعت الشيخ أبا عليٍّ رحمه الله ؛ يقول : كان أبو العبَّاس السيَّاري ؛ يقول لو صحَّت صلاةٌ بغير قُرآن . . لصحَّت بهذا البيت وهو :

أَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ ٱلزَّمَانِ مُحَالاً[1] أَنْ تَـرَىٰ مُقْلَتَـايَ طَلْعَـةَ حُـرِّ

خالصٍ . . بأن لا يذل لطمعٍ في دنيا ؛ ولا يعمل لعَوضٍ في أخرى .

الحلاَّج والحرية : وأما أقاويل المشايخ في الحرية !! فقال الحسين بن منصور : مَن أراد الحرية فليصل العبودية : يواصلها بأن يواليها ؛ ولا يتخلَّلها فتور ، فإذا كَمُلت فيه لَذَّت له حالة الحرية ، وظهرت عليه .

الجنيد والحرية : وسئل الجنيد عمَّن لم يبقَ عليه من الدنيا إلاَّ مقدار مصِّ نواة ؟! فقال : « اَلْمُكَاتَبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دِرْهَمٌ »[2] : فأقلُّ كمال الحرية عن الشهوات : أن لا يبقى للعبد سكونٌ إلى شيء من المخلوقات ، ومتى بقيت فيه بقيَّة منعته من كمال الحرية .

صريح الحرية : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرَّازي ؛ يقول : سمعت أبا عمر الأَنْماطيَّ ؛ يقول : سمعتُ الجنيد ؛ يقول : إنك لا تصلُ إلى صريح الحرية وعليكَ من حقيقة عبوديته بقيَّة ، لأنَّ الحرية لا تكمل . . إلاَّ إذا كَمُلتَ العبودية ؛ بأن لا يذلَّ لطمعٍ في دنيا ؛ ولا يعمل لعوض في أخرى كما مرَّ .

شرطها : وقال بشرٌ الحافي : مَن أراد أن يذوق طعم الحرية ويستريحَ من العبوديَّة ؛ يعني لغير الله . . بأن تكون عبوديَّته لله . . فليطهِّر السريرة بينه وبين الله تعالى .

---

(١) المراد البعيد ـ لا المستحيل الذي لا يتصور عدمه عقلاً ـ وإلا فهو موجود في أمته ﷺ (عروسي : ٣/ ١٥٢ بزيادة) .

(٢) تقدم تخريجه مع القصة عن الجنيد ص ٤٠٩ ، ص ٥٩٩ .

مقام الأنبياء : وقال الحسين بن منصور : إذا استوفى العبد مقامات العبودية لله كلها يصير حراً من تعب العبودية لغير الله ، فيترسَّم ـ وفي نسخة : فيتوسَّم ـ : يتصف ويتحلَّىٰ بالعبودية لله بلا عناء : تعب . . ولا كُلفة ، وذلك مقام الأنبياء والصديقين ؛ يعني يصير لذلك محمولاً ؛ لا يلحقُه بقلبه مشقَّة ؛ وإن كان متحلِّياً بها شرعاً .

فالعبد ما دام متكلِّفاً بالتخلُّق بالمقامات العليّة . . عليه في الارتقاء من مقامٍ إلى مقام كلفةٌ ومشقة ، وإذا تمكَّن في تلك المقامات لم يبقَ عليه في القيام بالمقامات كلِّها كلفةٌ ، وجرت عليه بلا مشقَّة في تحملُّها ، وصار محمولاً فيها ؛ ناظراً لمن تفضَّل عليه بها ، وهذا هو المعبَّر عنه بالمراد ، وكان فيما تقدم منعوتاً بالمريد ، فإذا تحرَّر عن رقِّ تحمُّلِ أعباء كلف المقامات ؛ وعن السكون إليها ؛ وصار مشغولاً بالمتفضل عليه بها . . صار حرَّاً عنها .

درجات الحريّة : وأوَّل الحرية الخلاصُ من أسباب الدنيا وأعراضها .

وأوسطها : خفَّةُ أعمال الآخرة ؛ والحريّةُ عن الالتفات لأعواضها .

ونهايتها الحريّة عن الالتفات إلى هذه المقامات العليّة ، وعن السكونِ إليها ؛ شغلاً بالمتفضل بها ، وهذه حريّة الحرية .

عزيز الفريقين : أنشدنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَمي ! رحمه الله ؛ قال : أنشدنا أبو بكر الرازيُّ ؛ قال : أنشدني منصور الفقيه لنفسه[1] :

مَا بَقِيْ فِي ٱلإِنْسِ ـ وفي نسخة : الناس ـ حُرٌّ

لاَ وَلاَ فِي ٱلجِنِّ حُرُّ

قَدْ مَضَى : ذهب حُرُّ ٱلفَرِيْقَيْنِ : الإنس والجن

فَحُلْوُ ٱلعَيْشِ مُرُّ .

فليس عنده في زمانه من الفريقين حرٌّ ، وإنَّما خيارُهم من عَمِل ابتغاءً للثواب ؛ لا غير .

---

(١) مَـا بَقِـيْ فِـي ٱلإِنْـسِ حُـرُّ　　لا ؛ وَلاَ فِـــيْ ٱلجِـــنِّ حُـــرُّ
قَــدْ مَضَــىٰ حُــرُّ ٱلفَـرِيْـ　　ـقَيْــنِ فَحُلْـــوُ ٱلعَيْـــشِ مـــرُّ

معظم الحريَّة : واعلم أنَّ معظم الحريَّة : أكثر خصالِها كائنُ في خدمة الفقراء ، من التذلُّل والانكسار ، والأدب معهم ؛ والانكسار ، لأنَّ العبد لا يمكنه أن يخدمَهم كما ينبغي ، ويرىٰ الفضل لهم في استخدامهم . . إلاَّ إذا زالت عنه نفسه ؛ ولم يَرَ لها قدراً .

سمعتُ الشيخ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : أوحىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى داودَ عليه السلام ﴿ إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً ﴾ . وقال ﷺ : « سَيِّدُ ٱلقَوْمِ خَادِمُهُمْ »[1] .

خادم الفقراء : وسمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمد بن إبراهيم ابن الفضل ؛ يقول : سمعت محمد بن الرومي ؛ يقول : سمعتُ يحيى بن معاذ ؛ يقول :

أبناء الدُّنيا تخدمُهم الإماء والعبيد ، وأبناء الآخرة تخدمُهم الأحرار والأبرار .

في ذلك دَلالة على مدح خادم الفقراء .

الحرُّ الكريم : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت عبد الله بن عثمان بن يحيى ؛ يقول : سمعت علي بن محمد المصري ؛ يقول : سمعت يوسف بن موسى ؛ يقول : سمعت ابن خبيق ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن أدهم يقول :

إنَّ الحرَّ الكريم يخرج من الدنيا قبل أن يُخرَج منها . لأنها عبارة عن المال والجاه وما يتبعها ، فإن زهد فيها . . خلص من ضررها وخرج عنها ، وإن أقام معها وأحبَّها . . أُخرج منها قَهراً ، إمِا بالزوال ؛ أو بالموت . والأول أشرفُ من الأخير .

وقال إبراهيم بن أدهم أيضاً : **لا تصحب إلاَّ حرَّاً كريماً . . يسمعُ ولا يتكلَّم : يحمل الأذى ولا يكافىء عليه ، ولا يحقد ليجازي وقتاً آخر . .**

هٰذا كلُّه مدح لمن حسنت أخلاقه وتحرَّر عن رِقّ الشهوات .

* * *

---

(1) عزاه السيوطي في « الجامع » : ٤٧٥١ إلىٰ الخطيب ؛ عن ابن عباس ورمز لضعفه . انظر تخريجه بتوسع في « كشف الخفا » : ١٥١٥ .

٣٠ ـ باب الذكر

فضله : وهو ممدوح ومطلوب . قال الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾(١) ، وقال تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾(٢) ، وقال ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾(٣) .

خير الأعمال : أخبرنا أبو الحسين عليُّ بن محمد بن عبد الله بن بشران ببغداد رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أبو علي الحسين بن صفوان البرذعي ؛ قال : حدَّثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا ؛ قال : حدَّثنا هارون بن معروف ؛ قال : حدَّثنا أنس بن عياض ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن سعيد ابن أبي هند ؛ عن زياد بن أبي زياد ؛ عن أبي بحرية ؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيْكِكُمْ : ملككم تعالى ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرٍ مِنْ إِعْطَاءِ ٱلذَّهَبِ وَٱلوَرِقِ لكم ؛ وَمِن أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ !! » . قالوا : ما ذاك ؛ يا رسول الله ؟ . قال : « ذِكْرُ ٱللهِ تَعَالَىٰ »(٤) .

أهل الساعة : وأخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن ؛ قال : حدثنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ؛ قال : حدَّثنا الديري ؛ عن عبد الرزاق ؛ عن معمر ؛ عن الزُّهري ؛ عن ثابت ؛ عن أنس ؛ قال :

قال رسول الله ﷺ : « لاَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ عَلَىٰ أَحَدٍ يَقُولُ : ٱللهُ . . ٱللهُ »(٥) .

---

(١) الآية : ٤١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

(٢) الآية : ٤٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : العنكبوت .

(٣) الآية : ٢٠ ، من السورة التي ذكر فيها : الأنبياء .

(٤) أخرجه أحمد : ٦/٤٤٧ ، والترمذي : ٣٣٧٧ ، وابن ماجه : ٣٧٩٠ ، والحاكم : ١/٤٩٦ وصححه ووافقه الذهبي ؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٥) أخرجه مسلم : ٢٣٤ ـ ١٤٨ . وعبد الرزاق بإسناد المؤلف : ٢٠٨٤٧ . وأحمد : ٣/١٦٢ ، وأبو عوانة : ١/١٠١ ، وأبو يعلىٰ : ٣٥٢٦ ، وابن حبان .

شرار الخلق : وأخبرنا عليُّ بن أحمد بن عبدان رحمه الله ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن عبيد ؛ قال : حدَّثنا معاذ ؛ قال : حدَّثنا أبي ؛ عن حميد ؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ حَتَّىٰ لَا يُقَال فِي ٱلْأَرْضِ : ٱللهُ . ٱللهُ »[1] . لأنها لا تقوم إلاَّ على شِرار الناس ! وأما خبر : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِيْنَ عَلَىٰ الحَقِّ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ ٱللهِ »[2] : الساعة !! فالمرادُ بالساعة فيه ما قَرُب منها .

ويؤيِّده روايةُ : « حَتَّى يَخْرُجَ ٱلدَّجَّالُ »[3] . وقد رُوي[4] : أَنَّ الدجَّال يقتلُه عيسى ابن مريم عليه السلام ويخرجُ بعده يأجوجُ ومأجوج ؛ فيقتلون من ٱتَّبع الدجَّال الذي قبلَ عيسى ، ويتحصَّن عيسى ومن معه في رؤوس الجبال ؛ فيسلط الله على يأجوج ومأجوج داءً في أعناقهم . . فيموتون كموتِ رجل واحد ، ثمَّ يتناقص الأمر حتى لا يبقى في الأرض إلاَّ شرارُ الناس ، وعليهم تقوم السَّاعة .

أهميته : قال الأستاذ : والذّكر ركنٌ قويٌّ في طريق الله سبحانه ، بل هو العمدة في هذا الطريق ، ولايصل أحد إلى الله : إلى رحمته وفضله إلاَّ بدوام الذكر .

أنواعه : والذِّكر على ضربين : ذكر اللسان ؛ وذكرُ القلب . فإن اقتصر على أحدهما !! فالثاني أفضل . ثمَّ لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب ؛ خوفاً من أن يُظنَّ به الرياءُ ، بل يذكرُ بهما جميعاً ، ويقصد وجه الله .

وقد تقدَّم أنَّ ترك العمل من أجل الناس رياء .

---

(١) أخرجه مسلم : ٢٣٤ ـ ١٤٨ وأحمد : ٣/ ١٦٢ ، والترمذي : ٢٢٠٧ ، وعبد بن حميد : ١٢٤٧ ، ١٤١٢ وغيرهم .

(٢) أخرجه مسلم : ٤٢٧ ـ ١٥٦ و : ١٧٣ ـ ١٩٢٣ بلفظ « إِلَىٰ يَوْمِ ٱلقِيَامَةِ » عن جابر ، وأخرجه الحاكم : ٤/ ٤٤٩ بلفظ « حَتَّىٰ تَقُومَ ٱلسَّاعَةُ » ؛ عن عمر رضي الله عنه وصححه ، وأقرَّه الذهبيُّ .

(٣) أصرح منها ما تقدم قبله ! .

(٤) أخرجه مسلم : ١١٠ ؛ ١١١ ـ ٢٩٣٧ ، وغيره عن النواس بن سمعان رضي الله عنه .

ترابطهما : فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب ، والتأثير يكون لذكر القلب ، لأنَّه الأُسُّ ، لأنَّ ماسواه من الجوارح تابعٌ له في الصلاح والفساد .

فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه وقلبه معاً !! فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه .

منشور الولاية : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : الذكرُ منشور الولاية، لأنه سبب التقرُّب والوصول إلى الله، فهو يشهد بالولاية، كما أن منشور الولاية بين الناس مكتوب يشهد للعبد بأنَّه وليٌّ ولايةٍ، فمن وُفِّق للذكر . . فقد أعطي المنشور ، كما قال تعالى ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[1] : بحفظي وإكرامي .

ومَن فتح له باب الذكر ورزق اللَّذَّة فيه ثمَّ سُلِبَ الذكر ؛ بأن ابتلي بشيءٍ من الدنيا حتَّىٰ أغفله عنه . . فقد عزل عن الولاية .

مربيّ نفسه : وقيل : إن الشبليَّ كان في ابتداء أمره ينزل كلَّ يوم سَرَباً : طريقاً ، ويحمل مع نفسه حزمة من القضبان من الخشب ، فكان إذا دخل قلبَه غفلة وفتور عن العبادة . . ضَرَبَ نفسه بتلك القضبان من الخشب حتى يكسرَها على نفسه ويجدَ الألم ، فربَّما كانت الحزمة تفنىٰ قبل أن يمسيَ من يومه ، فكان حينئذ يضرب بيديه ورجليه على الحائط حتى يجدَ الألم ! فيزول عنه بذلك ما هو فيه من الغفلة والفتور . . حتَّىٰ يصير الخير له عادة فيستغني عن هذه المجاهدة .

سيف المريدين : وقيل : ذكر الله بالقلب ؛ لكونه مما لا يستغني العبد عنه في أوَّل كل عملٍ وحال . . سيفُ المريدين به يقاتلون أعداءه ، وبه يدفعون الآفاتِ التي تقصدهم ، وإن البلاء إذا أظل العبد : دنا منه ـ وفي نسخة : قد ينزل بالعبد ـ فإذا فزع بقلبه إلى الله والتجأ إليه سبحانه يحيد : يعدل عنه في الحال كلُّ ما يكرهه .

سرُّ الذكر : وسئل الواسطي عن الذِّكر ؛ فقال : هو الخروج عن ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة . يعني طول الغفلة إلى طول المشاهدة للمذكور بالقلب على نعت غلبة الخوف من الفتور والانقطاع عن الذكر . وعلى نعت شِدَّة الحبِّ له .

سلطان الذكر : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله بن

---

(١) الآية : ١٥٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

الحسين ؛ يقول : سمعت أبا محمد البلاذري ؛ يقول : سمعت عبد الرحمان بن بكر ؛ يقول : سمعت ذا النون المصريَّ ؛ يقول : مَن ذكر الله تعالىٰ ذكراً على الحقيقة : الذكر الكامل ؛ وهو : الاستغراق في المذكور . . نسي في جنب ذكره كلَّ شيء حتى كونَه ذاكراً ، وحفظ الله تعالى عليه كلَّ شيء ، وكان له عِوضاً عن كلِّ شيءٍ .

إرشاد بالغ : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت عبد الله المعلم ؛ يقول : سمعت أحمد المسجديَّ ؛ يقول : سئل أبو عثمان ؛ فقيل له : نحن نذكر الله تعالى ؛ ولا نجدُ في قلوبنا حلاوة ؟! فقال : احمدوا الله واشكروه على أن زيَّن جارحةً من جوارحكم بطاعته ؛ أي بالذكر فإذا شكرتموه على ذلك . . نقلكم إلى ما هو أعلى في درجات الذكر ؛ وهو وجود اللذَّة به ، ثم إلى ما هو أرفع من وجودها ، وهذا إرشاد بالغ ؛ وفاءً بقوله تعالى ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[(١)] .

رياض الجنة : وفي الخبر المشهور عن رسول الله ﷺ أنَّه قال : « إِذَا رَأَيْتُمْ رِيَاضَ ٱلْجَنَّةِ فَٱرْتَعُوا فِيْهَا » . فقيل له : وما رياضُ الجنة ؟! فقال : « مَجَالِسُ ٱلذِّكْرِ »[(٢)] فإن لله تعالى سيارات من الملائكة يطلبون حِلَق الذكر ؛ فإذا أتوا عليهم حفُّوا بهم .

مجالس الذكر : أخبرنا أبو الحسن عليُّ بن بشران ببغداد رحمه الله ؛ قال : حدَّثنا أبو علي الحسين بن صفوان البرذعي ؛ قال : حدَّثنا ابن أبي الدنيا ؛ قال : حدَّثنا الهيثمُ بن خارجة ؛ قال : حدَّثنا إسماعيل بن عيَّاش ؛ عن عمر بن عبد الله . . إنَّ خالد بن عبد الله بن صفوان أخبره ؛ عن جابر بن عبد الله ؛ قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ؛ فقال :

---

(١) الآية : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

(٢) أخرجه عبد بن حميد : ١١٠٧ ، والبزار : ٣٠٦٤ ، وأبو يعلىٰ : ١٨٦٥ ، والطبراني في « الأوسط » ـ كما في « المجمع » : ١٦٧٦٨ ـ، والحاكم : ١/ ٤٩٤ « . . . الناس ؛ إنّ لله سرايا من الملائكة . . . . فٱرْتَعَوا » .
بلفظ « إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ ٱلْجَنَّةِ فَٱرْتَعُوا . . . حِلَقُ . . » أخرجه أحمد : ٣/ ١٥٠ ، والترمذي : ٣٥١ ، وفي بعض رواياته : « . . . المساجد » بدل « حلق الذكر » ؛ عن أنس رضي الله عنه .

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ اِرْتَعُوا فِي رِيَاضِ ٱلجَنَّةِ » . قلنا : يارسول الله ؛ وما رياض الجنة ؟! قال : « مَجَالِسُ ٱلذكرِ . . » الحديث .

منزلة العبد : قال المملي تفسيراً لذلك : أُغدوا وروحوا ، واذكروا ، مَن كان يحبُّ أن يعلم منزلتَه عند الله فلينظر كيف منزلةُ اللهِ عندَه ، فإنَّ اللهَ سبحانه يُنزِّل العبدَ منه حيثُ أنزلَهُ من نفسه . قال تعالى ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ ، وقال﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ . والكلُّ مِن فضله .

مجلس الذاكرين : وفي « صحيح مسلم » أنَّه ﷺ قال : « لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرونَ ٱللهَ تَعَالَىٰ إلاَّ حَفَّتْهُمُ ٱلمَلاَئِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ ٱلرَّحْمَةُ ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّكِيْنَةُ ، وَذَكَرَهُمُ ٱللهُ فِيْمَنْ عِنْدَهُ »[1] .

عمومية الذكر : قال النَّوويُّ : ولا تنحصُر فضيلةُ الذِّكر في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير . . ونحوها ، بل كلُّ عاملٍ لله بطاعةٍ . . فهو ذاكر لله تعالى ؛ قاله سعيدُ بن جبير رضي الله عنه ، وغيرهُ من العلماء .

وقال عطاء رحمه الله : مجالسُ الذكر مجالسُ الحلال والحرام . . كيف تشتري وتبيع ، وتصلي وتصوم ، وتنكح وتطلِّق ، وتحجُّ . . وأشباه هذا !! فإنَّ جميع ذلك ينقل العبد من الغفلة إلى ذكر الله وطاعته .

تنبيه للذاكرين : وسمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت محمد الفرَّاء ؛ يقول : سمعت الشِّبْليَّ ؛ يقول لتلامذته : أليس الله تعالى يقول ﴿ أنا جليس مَن ذكرني ﴾[2] ما الذي استفدتم من مجالسة الحقِّ تعالى ؟!

نبَّهم بذلك على التحسُّس لفوائد الذكر ، وما يهبه اللهُ للذاكرين من الخيرات ؛ كوجود اللذَّات في الذكر ، وكمال الاستغراق في المذكور وسماع الخطاب .

حال ذاكر : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت عبد الله بن موسى السُّلاميَّ ؛ يقول : سمعتُ

---

(١) هو عند مسلم : ٣٩ ـ ٢٧٠٠ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الديلمي ؛ عن عائشة ، والبيهقي في « الشعب » ؛ عن أُبَيٍّ (كشف الخفاء) .

الشَّبلي ينشدُ[1] في مجلسه :

ذَكَرْتُكَ لاَ أَنِّي نَسِيْتُكَ لَمْحَةً وَأَيْسَرُ مَا فِي ٱلذِّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِي

ودوامي عليه ؛ وإن كان القلب ذاكراً .

وَكِدْتُ وأنا بِلاَ وَجْدٍ أَمُوتُ مِنَ ٱلْهَوَىٰ : الحب .

وَلما فتح علي الوجد والأحوال . . هَامَ عَليَّ ٱلقَلْبُ بِٱلخَفَقَانِ

ذهب بالاضطراب وشدة الطلب للمذكور .

فلما أراني الوجد حين انتقلت منه إلى الوجود المذكور بقوله : أنَّك حاضري . .

شهدتك بالقلب موجوداً بكلِّ مكان : لم أغفل عنك في حالة من الأحوال

فخاطبت موجوداً بغير تكلُّم مني له

ولاحظت بقلبي معلوماً بغير عيان أي بَصر بعيني .

والمعنى لم أكلِّمه مع الغفلة ، بل مع المشاهدة ؛ واستشعارِ سماعه لكلامي ورؤيتي له بقلبي ، وهذا هو المشارُ إليه في بيان الإحسان بخبر : « أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ . . فَإِنَّهُ يَرَاكَ » .

خصائص الذكر : ومن خصائص الذكر أنَّه غير مؤقَّت بوقت معيَّن ، بل ما من وقت من الأوقات إلاَّ والعبدُ مأمورٌ بذكر الله . . إما فرضاً ، وإما ندباً ! إلاَّ في الأوقات التي ورد الشرع باستثنائها . . كوقت الجلوس لقضاء الحاجة ، ووقت الجماع ، ووقت الخطبة لمن سمعها .

إيراد وجواب : والصلاة ؛ وإن كانت أشرفَ العبادات بعد الإيمان ، لخبر : « إِنَّ ٱلعَبْدَ إِنَّما يُحَاسَبُ يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ عَنْ صَلاَتِهِ ، فَإِنْ قَامَ بِهَا نُظِرَ فِي بَقِيَّةِ

---

(1)
ذَكَرْتُكَ لاَ أَنِّي نَسِيْتُكَ لَمْحَةً وَأَيْسَرُ مَا فِي ٱلذِّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِي
وَكِدْتُ بِلا وَجْدٍ أَمُوتُ مِنَ ٱلْهَوَىٰ وَهَامَ عَلَيَّ ٱلقَلْبُ بِٱلخَفَقَانِ
فَلَمَّا أَرَانِي ٱلوَجْدُ أَنَّكَ حَاضِرِيْ شَهِدْتُكَ مَوْجُوداً بِكُلِّ مَكَانِ
فَخَاطَبْتُ مَوْجُوداً بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ وَلاَحَظْتُ مَعْلُوماً بِغَيْرِ عِيَانِ

أَعْمَالِهِ !!»[1] فقد لا تجوز في بعض الأوقات . والذكر بالقلب مستدامٌ في عمومِ الحالات ، قال الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ .

سمعت الإمام أبا بكر ابن فُورَك رضي الله عنه ؛ يقول : قياماً بحقِّ الذكر وقعوداً عن الدعوى فيه . . ما قاله ليس تفسيراً للآية . . !! لأنَّها إنَّما جاءت في بيان الصلاة وقتَ الأعذار ، وإنَّما هو من باب الاعتبار ، فإنَّه جارٍ في سائر الأعمال ، فإنَّ المطلوب من العبد أن يقوم بها للهِ على وجهها ، ويتبرَّأَ من دعوى قيامه بها إلاَّ بعون ربِّه عليه .

الذكر والفكر : وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي ؛ يسأل الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق ؛ فقال : الذكُر للشيء أتمُّ أم الفكر فيه ؟! فقال الأستاذ أبو عليٍّ الدَّقَّاقُ : ما الذي يقول الشيخ فيه ؟! فقال الشيخ أبو عبد الرحمان : عندي الذكر أتمُّ من الفكر ، لأن الحقَّ سبحانه يوصف بالذكر ، لأنَّه ذاكراً لكلِّ شيءٍ ؛ إذ لا يخفى عليه شيء ، ولا يوصف بالفكر لأنَّه وسيلةٌ لتحصيل ما لم يحصل ؛ وهو محال على الحق تعالى ، وما وصف به الحقَّ تعالى أتمُّ ممَّا أختص به الخلق . فاستحسنه الشيخ أبو عليٍّ رحمه الله . فإذا منَّ الله على العبد بالذكر لشيء . . استغنى به عن الفكر الذي يحصله به ، فكان الذكر أتمَّ .

توبة الذكر : وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله ؛ يقول : سمعت الكَتَّانيَّ ؛ يقول : لولا أنَّ ذكره فرض عليَّ بأمره . . لما ذكرته ؛ إجلالاً له : لما رأيتُ نفسي أهلاً لأن أذكره ؛ لإجلالي له ، مِثْلي في الحقارة يذكُره؛ ولم يغسل فمه بعد ذكره . . بألف توبة متقبَّلة عن ذكره ! ؛ أي : لأنَّ مَن أتى بما لا يليق به . . فاللائق به التوبةُ منه .

وسمعت الأستاذ أبا علي رحمه الله ؛ ينشد لبعضهم[2] في معنى ذلك :

---

(١) أخرجه أحمد : ٢/ ٢٩٠ ، وأبو داود : ٨٦٤ ، والنسائي : ٤٦٥ ، وابن ماجه : ١٤٢٦ ، والحاكم : ١/ ٢٦٢ ؛ وصحَّحه وأقرَّه الذهبي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) مَا إِنْ ذَكَرْتُكَ إِلاَّ هَمَّ يَزْجُرُنِي ... قَلْبِي وَسِرِّي وَرُوحِي عِنْدَ ذِكْرَاكَا
حَتَّىٰ كَأَنَّ رَقِيْباً مِنْكَ يَهْتِفُ بِي ... إِيَّاكَ وَيْحَكَ وَٱلتَّذْكَارَ إِيَّاكَا

مَا إِنْ ـ زائدة ـ ذَكَرْتُكَ يا الله إلاّ هَمَّ : أراد أن يَزْجُرَنِي

قَلْبِي وَسِرِّي وَرُوحِي عِنْدَ ذِكْرَاكَا .

حَتّىٰ كَأَنَّ رَقِيْباً مِنْكَ يَهْتِفُ : يصوِّتُ بِيْ

إِيَّاكَ وَيْحَكَ وَٱلتِّذْكَارَ إِيَّاكَا

أي : إذا خطر لي أنَّ ذكرك قام بقلبي وسري وروحي زجرٌ يبعدني عن ذكرك ، وكأنَّ محذِّراً يحذِّرني بقوله(إيَّاك أن تقربَ التذكار إياك) لكوني لستُ أهلاً له .

خصائص الذكر : ومن خصائص الذكر أنَّه جُعل في مقابلته الذكر من الله للذاكر حيث قال الله تعالى ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ : أثني عليكم .

وفي خبر أنَّ جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ : إنَّ اللهَ يقول : ﴿ أَعْطَيْتُ أُمَّتَكَ مَا لَمْ أُعْطِ أُمَّةً مِنَ ٱلأُمَم ﴾ . فقال« وَمَا ذاك ؛ يَا جِبْرِيلُ ؟» قال : قوله تعالى ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ فإنَّه لَمْ يَقُلْ تعالى هذا لأحدٍ غير هذه الأمَّة ، وهذا في حقِّ مَن أحبَّ ربَّه وتوالى ذكرهُ على قلبه . . حتَّى أحبَّه ربُّه .

استئمار الذاكر : وقيل : إنَّ الملَكَ الذي يقبض الأرواح يستأمر الذاكرَ في قبض روحه ؛ إكراماً وتشريفاً له ، ويجري الله على لسانه ما تكمُل به منزلتُه عنده ، ولا يختار إلا ما سبق له .

سكون الذكر : وفي بعض الكتب أنَّ موسَى عليه السلام قال : « يَا رَبِّ ، أَيْنَ تَسْكُنُ ؟ » . فأوحى الله تعالى إليه ﴿ أَسكنُ في قلب عبدي المؤمن ﴾ .

ومعناه سكونُ الذكر في القلب . فقوله (تسكن) : يسكن ذكرك . . بحذف مضاف . فإنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى منزَّه عن كلِّ سكون وحركة وحلول ، وإنَّما هو ـ أي السكون ـ إثبات ذكرٍ وتحصيل له في قلب العبد ؛ بأن يسكن الذكر ويحصل فيه .

فيوض الذكر : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله بن علي ؛ يقول : سمعت فارساً ؛ يقول : سمعت الثوريَّ ؛ يقول : سمعتُ ذا النون ؛ وقد سألته عن الذكر ؛ فقال : هو غيبة الذاكر عن الذكر ؛ بأن يكون العبد مستغرِقاً في المذكور .

ثم أنشأ يقول[1] :

لاَ لأَنِّي أَنْسَاكَ أُكْثِرُ ذِكْرَا بلساني كَ وَلَكِــنْ بِـــذَاكَ يَجْــرِي لِسَــانِــي

أي : لم يحملني على كثرة الذكر بلساني زوالُ غفلتي ؛ ونسياني لك عن قلبي ، بل أنا ذاكرك بقلبي بكل حال ، ولكن لامتلاء قلبي بك . . جرى ذكرك على لساني ، فإنَّ من أحبَّ شيئاً أكثرَ ذكره .

معاتبة الربِّ : وقال سهل بن عبد الله : ما مِن يوم إلاَّ والجليلُ سبحانه ينادي ﴿ يا عبدي ؛ ما أنصفتني ! أذكرك وتنساني ، وأدعوك إليَّ وتذهب إلىٰ غيري ، وأُذهِبُ عنك البلايا وأنت معتكفٌ على الخطايا ، يا ابن آدم ؛ ما تقول غداً في الجواب إذا جئتني ﴾ كلّ ذلك مأخوذ من أدلّة وردت به .

عمّال الذاكر : وقال أبو سليمان الداراني : إنَّ في الجنة قيعاناً : أمكنة مستوية من الأرض ، فإذا أخذ الذاكر في الذكر أخذت الملائكة في غرس الأشجار فيها جزاءً لعمله ، فربما يقف بعضُ الملائكة عن الغراس ؛ فيقال له : لم وقفت !؟ فيقول فتَر صاحبي عن العمل فجوزي بذلك ؛ لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] ، ولخبر : « إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ »[3] . وهؤلاء الملائكة يحتمل أنّهم يُطلَعون على أعمال العباد ، ويحتمل أن تكون الملائكة الموكلّون بالعباد ينقلون إليهم أحوالهم .

مواطن الحلاوة : وقال الحسن البصري : تفقدّوا : اطلبوا الحلاوة في ثلاثة أشياء : ١ـ في الصلاة ، و٢ـ الذكر ، و٣ـ قراءة القرآن ، فإن وجدتم الحلاوة . . فذاك . وإلاَّ فاعلموا أنَّ الباب : باب النشاط في الأعمال مغلقٌ بسبب قسوة القلوب ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾[4] .

حرز وطمأنينة : وقال حامدٌ الأسود : كنت مع الشيخ إبراهيم الخوَّاص في سفر . .

---

(١) لا لأَنِّـي أَنْسَـاكَ أُكْثِـرُ ذِكْـرَا كَ وَلَكِـــنْ بِـــذاكَ يَجْـرِي لِسَـانِـي

(٢) الآية : ١٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الطور .

(٣) تقدم تخريجه ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ .

(٤) الآية : ٢١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : سيدنا محمد ﷺ .

فجئنا إلى موضع فيه حيَّات كثيرةٌ ، فوضع رِكوته وجلس ؛ وجلست معه ، فلما كان بردُ الليل وبَرَدَ الهواء . . خرجت الحيات !! فصحْت بالشيخ خوفاً منها ، فقال لي : أُذكر الله . فذكرت الله فرجَعَتْ ، ثم عادت فصحتُ به ، فقال لي مثل ذلك : اذكر الله . فلم أزل إلى الصباح في مثل تلك الحالة ، فلما أصبحنا قام ومشىٰ ومشيتُ معه . . فسقطت من وطأته حيَّة عظيمة ؛ وقد تطَّوقت به !! فقلتُ له : ما أحسستَ !؟ فقال : لا ، منذ زمان ما بتُّ ليلةً أطيبَ من البارحة : الليلة . فيه دلالة على أن ذكر الله من الصادق يدفع عنه كل بلاء لتوكُّله عليه ، ولأنه لا ضارَّ ولا نافع سواه .

حرز الهوامّ : وقد حكي أنَّ عامل إفريقيَّة كتب إلى عمرَ بن عبد العزيز يشكو إليه كثرة الهوامِّ عنده ؛ يعني كثرة الحيَّات والعقارب !! فكتب إليه عمر ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[1] . وقيل : وهي تنفع من البراغيث . وقد جرِّبت فصحَّت .

الوحشة والأنس : وقال أبو عثمان : مَن لم يذق وحشة الغفلة عن الذكر لم يجد طعمَ أُنس الذكر ، لأن مَن لم يستأنس . . لم يستوحش ، إذ كيف يستوحش من الشيء مَن لم يستأنس به ؟! فمَن مَنَّ اللهُ عليه بأُنسه ولذَّة مناجاته ؛ ثم أغفله عن ذلك . . وجد في قلبه وحشة البعد ، فلا يجدُ هذه الوحشة إلاَّ من تقدَّم له الأنس ، فمن ذاق تلك الوحشة . . وجد طعم ذلك الأُنس .

غلبة الذكر : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ عبد الرحمان بن عبد الله الذُّبياني ؛ يقول : سمعت الجُرَيري ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : سمعت السريَّ ؛ يقول :

مكتوبٌ في بعض الكتب التي أنزلها الله تعالى ﴿ إِذَا كَانَ الغَالِبُ عَلَىٰ قلب عَبْدِي ذِكْرِي عَشِقَني وَعَشِقْتُهُ ﴾ ؛ يعني أحبَّني وأحببته ، قال تعالى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ ، لكن اللفظ المذكور يحتاج إلى توقيف .

مجلىٰ الفرح : وبإسناده المذكور أيضاً ؛ أنَّه أوحىٰ الله تعالىٰ إلى داود عليه السلام

---

(١) الآية : ١٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : سيدنا إبراهيم ﷺ .

﴿ بِي فَٱفرَحُوا ـ قال تعالى ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْـرَحُواْ﴾ : بما فتح الله عليهم مِن فضله ـ، وَبِذِكْرِي ومناجاتي والأُنس بي . . فَتَنَعَّمُوا ﴾ ، لأنَّ ذلك أفضل نعيم .

عقوبة العارف : وقال النوري رحمه الله تعالى : لكلِّ شيء عقوبةٌ ، وعقوبةُ العارف باللهِ انقطاعُه عن الذِّكر لأنَّ العارف محبٌّ ، والمحبَّة . . إما لتوالي النِّعم ، فالعبد يحبُّ مَن أنعم عليه ، وإمَّا لكمال المعرفة بالجلال والجمال وغيرهما من صفات الكمال ، فالعبد بها مقرَّبٌ ، وهذه محبَّة العارفين ، ومَن أحبَّ شيئاً أكثرَ مِن ذكره ، فمتى شَغَل اللهُ العبدَ بغيره حتَّى أنساه إيَّاه ، أو فتر عن ذكره . . دَلَّ ذلك على عقوبة لجرم وقع منه ، وربَّما كان ذلك سبباً لعلوٍّ درجته ؛ لشدَّة وجده ودوام قلقه . . كما جاء في خبر « إنَّ العَبْدَ يُذْنِبُ ٱلذَّنْبَ فَيَكُونُ سَبَبَ سَعَادَتِهِ »[1] .

بين العبد وربِّه : وفي « الإنجيل » : ﴿ أُذْكُرْنِي حِيْنَ تَغْضَبُ ؛ ولا تتعدَّ الحدود . . أذكركَ حين أغضب ؛ ولا أؤاخذك بجرمك ، وارض بنصرتي لك . . فإنَّ نصرتي لك خيرٌ لك من نُصْرَتك لنفسك ﴾ ، وفي ذلك تنبيهٌ على السعي في إزالة الغضب ، لئلا يعمل بمقتضاه ، وهو من الأخلاق التي تزيل العقل .

صائم الذكر : وقيل لراهب : أأنت صائم !! فقال : صائمٌ بذكره عن ذكر غيره : ممسك عنه ؛ كالممسك عن المفطِّرات . . فإذا ذكرتُ غيرَه أفطرتُ .

في ذلك تنبيهٌ للسائل على درجة أرفعَ مما سأل عنه . . فإنَّه سأله عنه الإمساك عن الطعام الذي فيه فضيلةُ الصوم ؛ فأجابه بالإمساك عن ذكر غير الله لدوام شغله بالله .

مسُّ الإنس : وقيل : إذا تمكَّن الذكر من القلب ؛ فإن دنا منه الشيطان . . بأن سلَّطه الله عليه بواسطة عدوٍّ من الإنس . . صُرِع الشيطانُ بذلك القلب الذي تمكَّن فيه الذكر ؛ فيفسد عليه حالُه . كما يصرَعُ الإنسان ؛ إذا دنا منه الشيطان ـ الأنسب بما قبله : من الشيطان ـ فتجتمعُ عليه : الشيطان المصروع الشياطينُ ؛ فيقولون ما لهذا الشيطان صُرِع ؟! فيقال : قد مسَّه الأنسُ بقلبه ،

---

(١) تقدم تخريجه ص ٣٤٣ .

بخلاف مسِّ الجن للأنس ، فإنَّهم يسلكون فيه ويتكلَّمون على لسانه فيتحرَّكون بأعضائه ، ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ : « مَا سَلَكَ عُمَرُ فَجّاً إِلاَّ سَلَكَ ٱلشَّيْطَانُ فَجّاً غَيْرَهُ ، وَصَارَعَهُ فَصَرَعَهُ »[1] . وذلك لكمال قوتِّه وصحَّة عزمه ؛ واعتمادِه على ربِّه ، قال تعالى ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[2] .

أقبح المعاصي : وقال سهلُ بن عبد الله : ما أعرفُ معصيةً أقبحُ من نسيان : ترك هذا الربِّ تعالى ؛ لتركه ما ينفعه . . واشتغاله بما لا ينفعه .

الذكر الخفيُّ : وقيل الذكر الخَفيُّ ـ وهو : عمل القلب ، أو العزيزُ وجودهُ من العارف ؛ كأن يستغرق في ذكره حتَّىٰ يغفُلَ عن نفسه وذكِره ؛ لكمال شُغْله بمذكوره ـ لا يرفَعُهُ المَلَكُ إلى الله لأنَّه لا ٱطِّلاع له عليه . . فهو سرٌّ بين العبد وبين الله تعالى .

ذاكر الأَجَمة : وقال بعضُهم : وُصِف لي ذاكرٌ في أَجَمة فيها سَبُع ؛ فأتيتُه ، فبينا هو جالس . . إذا سَبُع عظيم ضربه ضربة وٱستلب منه قطعة ! فغشي عليه وعليَّ ، فلما أفاق وأفقتُ . . قلتُ : ما هذا الأمر ؟! فقال قيَّض الله تعالى هٰذا السَّبعُ عليَّ ، فكلما داخلني فترةٌ في عبادتي . . عَضَّني عضَّة كما رأيتَ .

هذا من اللُّطف والاعتناء بمن يريد الله دوامَ ذكره له وشُغْله به ؛ حيث يقيِّضُ له مَن يؤذيه ويؤلمه . . إذا غفلَ ؛ ليشتدَّ حذره من الغفلة ، ويعظُم أجره على صبره على ما يقاسيه ، وإلاَّ ! فالله قادرٌ على أن يخلق له ذِكره ؛ ويزيل منه غفلته . . من غير عضِّ السَّبُع ، كما ابتلىٰ الأنبياء والأولياء بالآلام والأسقام ؛ زيادةً في درجتهم . . وإن كان قادراً أن يُنيلهم ما أنالهم بغير مشقَّة ، ولكن هذه سنَّته ، لأن أشدَّ الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل[3] .

---

(1) تقدم تخريجه ص ٤٧٤ ، ٤٧٩ .

(2) الآية : ٦٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

(3) كما روي عن سعد بن أبي وقَّاص . . . سئل رسول الله ﷺ (أيُّ الناس أشدُّ بلاءً ؟) قال : « الأَنبِياءُ ثُمَّ ٱلأَمْثَلُ فَٱلأَمْثَلُ . . . » أخرجه أحمد : ١/ ١٧٢ ، والترمذي : ٢٤٠٠ ، وابن ماجه : ٤٠٢٣ ، وابن حبان (الإحسان : ٢٩٢٠) والدارمي : ٢/ ٣٢٠ .

الذاكر الدائم : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ الحسن بن يحيى ؛ يقول : سمعت جعفر بن نصير ، يقول : سمعت الجُرَيري ؛ يقول : كان بين أصحابنا رجل يكثر أن يقول : الله . . الله ، فوقع يوماً على رأسه جِذْع فأنشج به رأسه ، فسقط الدم ؛ فاكتتب على الأرض : (الله . . الله) .

فيه تنبيهٌ على أنَّ الذكر إذا توالى على العبد . . خالط لحمه ودمَه ، وهو دليل على شرفه ورفعة مقامه .

* * *

٣١ ـ باب الفتوة

تعريفها : هي ـ كما سيأتي ـ أن تكون ساعياً في أمرِ غيرك ، ويقال : هي أن لا تشهد لك فضلاً ، ولا ترى لك حقاً على غيرك . ويقال غير ذلك . وسيأتي .

رتبتها : وهي ممدوحة ومطلوبة . **قال الله تعالى** ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾[١] ؛ إذ الفتية جمع فتىً ؛ وهو : الشابُّ الكامل . . مأخوذٌ من الفتوة .

أصلها : قال المملي : **أصل الفتوة أن يكون العبد ساعياً أبداً في أمر غيره** ؛ بأن يقضيَ حاجته ، ويترك خصومته ، ويتغافل عن زلته ، ويقرِّب مَن يؤذيه ويكرمه ، ويعتذر إلى مَن جنى عليه . **قال رسول الله ﷺ** : « **لاَ يَزَالُ ٱللهُ فِي حَاجَةِ ٱلعَبْدِ مَا دَامَ ٱلعَبْدُ فِي حَاجَةِ أَخِيْهِ ٱلمُسْلِمِ** »[٢] .

---

(١) الآية : ١٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الكهف .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » ٤٨٠١ بهذا الإسناد من ابن أبي حازم . . . بدون التقييد بـ « المسلم » . وشواهد كثيرة شهيرة منها ما في المتفق عليه عند البخاري : ٢٤٤٢ ، ومسلم : ٥٨ ـ ٢٥٨٠ ؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما : « ٱلْمُسْلِمُ أَخُو ٱلمُسْلِمِ . . . . وَمَنْ كَانَ فِيْ حاجَةِ أَخِيْهِ كَانَ ٱللهُ فِي حَاجَتِهِ . . . . » .

الساعي بالحاجة : أخبرنا به علي بن أحمد بن عبدان ؛ قال : أخبرنا به أحمد بن عبيد ؛ قال : حدَّثنا به إسماعيل بن الفضل ؛ قال : حدَّثنا به يعقوب بن حميد بن كاسب ؛ قال : حدَّثنا به ابن أبي حازم ؛ عن عبد الله بن عامر الأسلمي ، عن عبد الرحمان بن هرمز الأعرج ؛ عن أبي هريرة ؛ عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما ؛ عن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَزَالُ ٱللَّهُ فِي حَاجَةِ ٱلْعَبْدِ مَا دَامَ ٱلْعَبْدُ فِي حَاجَةِ أَخِيْهِ ٱلْمُسْلِمِ »[1]، التقييد بهذا جريٌ على الغالب .

فتوته ﷺ : سمعتُ أبا علي الدقَّاقَ رحمه الله ؛ يقول : هذا الخُلُقُ : الفتوة لا يكون كماله إلاَّ لرسول الله ﷺ ، فإنَّ كلَّ أحد في القيامة يقول : (نفسي . . نفسي) وهو عليه السلام يقول : (أُمَّتِي . . أُمَّتِي) ؛ كما وردت به الأخبارُ الصحيحة[2]، وذلك لأنَّ الشغل بالغير عن النفس في هذاالمقام غايةُ الفتوَّة .

معدن الفتوة : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُلمي رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا جعفر الفرغاني ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول :

الفتوة محلُّها بالشام ؛ واللسان : حسن النطق به . . محلُّه بالعراق ، والصدق محلُّه بخراسان . هذا جريٌ على الغالب من أهلِ كلِّ إقليم من هذه الأقاليم .

مجلى الفتوة : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت عبد الله بن محمد الرازي ؛ يقول : سمعت محمد بن نصر بن منصور الصائغ ؛ يقول : سمعت محمد بن مردويه الصائغ ؛ يقول : سمعتُ الفضيل ؛ يقول : الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان : زلَّاتهم . ونظيره مما يأتي بعض الفتوة .

حظ الفتى : وقيل : الفتوة أن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك ، وإن عرفت فضلك ظاهراً لخفاء باطنه ، وخفاء العاقبة عليك لجواز التبديل و التغيير .

خصومة الفتى : وقال أبو بكر الورَّاق : الفتى من لا خصم له ، لكمال أخلاقه الحميدة وبعده عن الذميمة ، وذلك أن يزهد في الدنيا مالاً وجاهاً ؛ فلا يخاصم غيره ، وإن خاصمه غيرُه ؟ أعرض عنه .

الخصومة الواجبة : وقال محمد بن علي الترمذي : الفتوَّة أن تكون خصماً لربِّك :

---

(١) أخرجه أحمد : ٥/١٩١، والطبراني في « الكبير »: ١/٤٨٠٢ ؛ « ومسند الشاميين » : ١٤٨١ .
(٢) كحديث الشفاعة . . البخاري : ١٥٧٩ ، ومسلم : ٣٧٢ـ١٩٤ ؛ عن أبي هريرة .

لأجله على نفسك ؛ بأن تمنعها من الميل إلى الشهوات والكسل والبطالات ، وتحثّها على الاستقامة على الطاعات ؛ لا للخوف والرجاء . . بل لكمال المحبَّة والتلذُّذ بالمناجاة .

ويقال : الفتى مَن لا يكون خصماً لأحد ؛ هو بمعنى ما مرّ عن الورّاق .

مسّمى الفتيان : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ النصرآباذي يقول : **سُمِّي أصحاب الكهف فتية !! لأنَّهم آمنوا بربِّهم بلا واسطة .**

وقيل : لكونهم فتياناً فارقوا أهلهم ، وخرجوا إلى ربّهم فارِّين إليه ؛ معرضين عن حظوظهم الدنيوية ، فمُدحوا بكونهم تركوها للهِ ، ولذلك خُرقت لهم العادة ؛ فلبثوا في كهفهم ثلاث مئةٍ سنين وازداوا تسعاً ؛ ولم يتغير لهم حال ! .

فتى الحقيقة : وقيل الفتى : مَن كسر الصنم ، قال الله تعالى ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾(١) ، وقال تعالى ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ . وصنمُ كلِّ إنسان نفسه ، **فمن خالف هواه فهو فتى على الحقيقة** . ليس هذا تفسيراً للآية ، بل هو اعتبار لأنَّ إبراهيم عليه السلام . . إنَّما كسر الأصنام التي كانوا يعبدونها ، ولكن لَمَّا كان العبد كثير الاشتغال بشهواته ولذاته . . سُمِّيت نفسه « صنماً »! لكونه مسخَّراً لها كالعبد ، كما قال ﷺ : « تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّيْنَارِ وَٱلدِّرْهَمِ وَٱلْخَمِيْصَةِ »(٢) . فسماه عبداً لهذه الأشياء لذلك .

خُلطة الفتى : وقال الحارث المحاسبيّ : **الفتوَّة أن تُنصف غيرك ، ولا تَنتصِف منه** ؛ بأن تعطي الحقَّ الذي عليك . . ولا تطالِب بحقِّك غيرَك ؛ لزهدك في الدنيا وكمال عدلك وإنصافك . وهذا بعض الفتوة اقتصر عليه ! اعتباراً بحال السائل .

خلق الفتىٰ : وقال عمر بن عثمان المكيُّ : **الفتوَّة حسن الخلق** ؛ لاشتماله على جميع الصفات الحميدة .

عشرة الفتىٰ : وسئل الجنيد عن الفتوَّة ؛ فقال : **أن لا تنافر فقيراً . . ولا تعارض غنياً** ؛ هذا يجمعُه الزُّهد في الدنيا .

---

(١) الآية : ٦٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(٢) تقدم تخريجه ص ٤٠٤ .

مروءة الفتى : وقال النصرآباذيُّ : **المروءةُ شعبة من الفتوَّة** ، وهو : ما ذكر من الفتوة الإعراض عن الكونين : الدنيا والآخرة ، والأَنَفة : الاستنكاف منهما ؛ بأن يعمل العبد فلا يكون له حظٌ سوى موافقة مولاه ، والعملِ بما يرضاه .

تكلفُ الفتى : وقال محمد بن عليٍّ الترمذيُّ : **الفتوَّة أن يستويَ عندك المقيمُ** عندك والطارىء عليك ؛ في عدم التكلُّف وسرعة الإكرام ، وهذا يخفُّ في حال الطارىء عند أكثر الناس ، فإذا طالت إقامته عندهم وتكلَّفوا له . . استثقل ، ولذلك كانت الضيافة ثلاثة أيام ، فمن كَمُلت فتوَّته . . استوى إكرامه للطارىء عليه ؛ ومَن طالت إقامته عنده . وذلك لكمال خلقه وهوان الدنيا عليه .

فتوة حنبلية : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت علي بن عمر الحافظ ؛ يقول : سمعت أبا سهل ابن زياد ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن أحمد ابن حنبل ؛ يقول :

سئل أبي : ما الفتوة ؟ فقال : **ترك ما تهوى : تشتهي لما تخشى عواقبه** .

وقيل لبعضهم : ما الفتوة ؟! فقال : أن لا يميِّزَ العبد بين أن يأكل عنده وليّ ؛ أو كافر !! .

عتاب للخليل : سمعت بعض العلماء يقول : استضاف مجوسيٌّ إبراهيمَ الخليل عليه السلام : طلب من إبراهيم أن يضيفه ؛ فقال : أضيفُك بشرط أن تُسلِم .

فمرَّ المجوسيُّ : جاوزه ؛ ولم يطعه ؛ فأوحى الله تعالىٰ إليه ﴿ نحن منذ خمسين سنة نطعمه وهو مستمر على كفره ، فلو ناولتَه لقمة من غير أن تطالبه بتغيير دينه ﴾ ؛ لكان خيراً لك !! فمضى إبراهيم عليه السلام على أثره حتَّى أدركه واعتذر إليه ، فسأله عن السبب !! فذكر له ذلك فانشرح صدره به ؛ فأسلم المجوسيُّ .

في ذلك تنبيهٌ على حقارة الدنيا عند الله ، وقد حصل لإبراهيم عليه السلام ما طلبه من المجوسيِّ وإجراء الحقّ علي يديه[١] .

وقال الجنيد : **الفتوَّة كفُّ الأذى عن الناس ، وبذل الندى لهم** . يعني الجود بالموجود .

---

(١) تقدمت هذه الحكاية ص ٤٥٣ .

معنى آخر : وقال سهل بن عبد الله : **الفتوة اتباع السنة** ، وهي ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ ، وقد سئلت عائشة عن خلقه ﷺ ؛ فقالت : قولُه تعالى ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1] .

معنى آخر : وقيل : **الفتوة الوفاء** بما عليك لله تعالى ولخلقه ، **والحفاظ** : وحفظك الحدود بأن لا تتعدَّاها .

معنى آخر : وقيل : **الفتوَّة فضيلةٌ تأتيها أنت** . . تتصف بها ؛ بأن تكون أعمالُك صالحةً ، **ولا ترى نفسك فيها** ؛ بأن تتبرَّأ فيها من حولك وقوَّتك ، وترى أنَّها من فضل ربِّك عليك .

معنى آخر : وقيل : **الفتوة أن لا تهرب إذا أقبل عليك السائل** .

وقيل : **أن لا تحتجب من القاصدين إليك** . . لمال ، أو جاه ؛ أو علم ؛ أو مساعدة ، بل تفرحُ بقدومهم عليك ، وتجيبُهم إلى قصدهم .

معنى آخر : وقيل : **أن لا تدَّخر شيئاً ، ولا تعتذر** للسائل مع تمكُّنك من مساعدته ، أما اعتذارُك له مع عدم تمكُّنك !! فزيادة فضل له ؛ وتطييبٌ لخاطره ، كما قيل[2] :

وَلاَبُدَّ مِنْ شَكْوَىٰ إِلَىٰ ذِي مُرُوءَةٍ ... يُوَاسِيْكَ أَوْ يُسْلِيْكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ

معنى آخر : وقيل : الفتوة **إظهار النعمة وإسرار المحنة** ، لأنَّه تعالى إذا أنعم على عبد نعمة أحبَّ أن يُظهرها ، فإنَّ إظهارَها سببٌ لشكرها ، وإسرار المحن دليلٌ على الصبر واحتمال الأذى ، ولأنه بإسرارها يسلمُ من اطِّلاع الخلق على نقصه ؛ وما نزل به . ففي ذلك كمال المروءة وإظهار النعم وكلاهما من الفتوة .

معنى آخر : وقيل : الفتوة **أن تدعَو عشرة أنفس مثلاً ؛ فلا تتغيَّر إن جاء تسعة . . أو أحد عشر** . فالفتىٰ هو الذي إذا صنع طعاماً للأكل ودعا جماعة . . لا يتألَّم إذا تأخرَّ بعضهم ، لأنَّ تألُّمه دليلٌ علىَ أنَّه اعتنى بطعام له وَقْع ؛ ولم يأتِ مَن

---

(١) الآية : ١٩٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها: الأعراف . وانظر ما سيأتي ص٧٠٤ (تعريف الخُلُق). ذكره في « فتح الباري » : ٨/٣٠٦، وانظر تخريج حديث « أَدَّبَني رَبِّي » ص٨٠٢ .

(٢) البيت من الطويل .

دعاه ، ولا إذا زادوا على مَن دعاهم ، وإن تكلَّف زيادة لمن زاد ، لأنَّ ذلك يدلُّ على محبَّته للدنيا ! وأصلُ الفتوة الإعراض عنها .

معنىٰ آخر : وقيل : **الفتوَّة ترك التمييز في طعامك بين آكليه** . . من حبيب وبغيض ومستحقٍّ وغيره ؛ لزهدك في الدنيا . وتقدَّم نظيرُ هذا .

دعوة فتىً : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : **قال أحمد بن خضرويه لامرأته أمّ علي : أريدُ أن أتخذ دعوة أدعو فيها عَيَّاراً** ـ هو اسم للأسد ؛ أي شجاعاً ـ **شاطراً كان في بلدهم رأسَ الفتيان . فقالت له امرأته : إنَّك لا تهتدي إلى دعوة الفتيان** فكيف برأسهم !! **فقال : لا بدُّ** لي منها . **فقالت : إن فعلت فاذبح الأغنام والبقر والحُمُر وألقها** من باب دار الرجل إلى باب دارك . **فقال : أما الأغنام والبقر فأعلمُ** حِكمة ذبحها وإلقائها فيما ذكرتِ ، **فما بال الحمر** ؛ تذبح وتلقى ثَمَّ !! **فقالت : تدعو فتىً إلى باب دارك . . فلا أقلَّ من أن يكون لكلاب المحلَّة** في ذلك خير !

هذا أيضاً يرجع إلى الزهد في الدنيا والإعراض عنها .

سارق الباذنجان : وقيل : **اتَّخذ بعضُهم دعوة لقوم ؛ وفيهم شيخٌ شيرازيّ ، فلما أكلوا منها** وأخذوا في السماع . . **وقع عليهم النوم في حال السماع ، فقال الشيخ الشيرازيُّ لصاحب الدَّعوة : إيش السبب في نومنا ؟! فقال : لا أدري ؛ اجتهدت في جميع ما أطعمتِكم إلاَّ الباذنجان ، فلم أسأل عنه !! فلما أصبحوا سألوا بائع الباذنجان** عنه ؛ **فقال لم يكن لي شيءٌ** من المال **فسرقتُ الباذنجان** وكان ألف واحدة . . من **الموضع الفلاني ، وبعته . فحملوه** : بائعَه **إلى صاحب الأرض** التي سرق منها **ليجعله في حِلٍّ** منه ، **فقال** لهم **الرجل** تعجُّباً بعد أن سألوه في ذلك : **تسألون مني ألف باذنجانة !؟ قد وهبته** : السارقَ **تلك الأرضَ** بما فيها من النبات ، **ووهبته ثورين وحماراً وآلةَ الحرث ؛ لئلا يعود إلى مثل ما فعل** من السرقة .

توضيح : في ذلك ١ـ دلالةٌ على كمال فتوَّة صاحب الأرض ، فإنَّهم سألوه استحلال السارق من الباذنجان فوهَبَه هذه المذكورات ، و٢ـ على أنَّ الطعام الذي يؤكل من غير حِلٍّ يؤثِّر في الأبدان والقلوب ما يشوش في

الدين والفهم ، و٣ـ على ما يترتَّب من الخيرات على طلب التوبة والاستحلال .

سابقُ الفتيان : وقيل : تزوَّج رجلٌ بامرأة . . فقبل الدخول ظهر بالمرأة الجُدَري ، فقال الرجل لطفاً بها في نفي الحزن عنها بظهوره على ما بها من الجُدَري : اشتكت عيني . ثم قال : عميتُ أنا ؛ أو عميتْ عيني ، والمراد عيناه . فزُفَّت إليه المرأة ، ثم ماتت بعد عشرين سنة وهو فيها يوهم المرأةَ أنَّه أعمى ؛ لئلا تحزنَ . ففتح الرجل عينيه بعد موتها ؛ فقيل له في ذلك !! فقال : لم أعمَ ، ولكن تعاميتُ حذراً ـ وفي نسخة : حذاراً ـ من أن تحزنَ . فقيل له لكمال مروءته وشفقته على الخلق : سبقتَ الفتيان .

تعقيب : هذا يشبهُ ما وقع لحاتمٍ الأصمِّ لمَّا جاءته المرأةُ تستفتيه ، فخرج منها ريحٌ في حال كلامها معه ؛ فاستحيت وتدارَكَها وجبر حالها ؛ فقال لها : ارفعي صوتَك حتَّى أسمعَ ما تقولين !! ففرحت لكونه لم يسمعها . فتصامَم كما تعامَىٰ الآخر ، ولذلك سُمَي « الأصم »[1] .

أساتذة الفتوة : وقال ذو النون المصريُّ : مَن أراد الظرف : كمال الظرف والفتوة . . فعليه بسُقاة الماء ببغداد ؛ ليتعلَّم منهم ذلك . فقيل له : كيف هو : حالُهم ؟ .

فقال : لَمَّا حُملت إلى الخليفة فيما نسب إليَّ من الزندقة . . رأيت سقَّاءً عليه عمامة ، وهو متردٍّ بمنديل مصري وبيده كيزان خَزَف رقاقٌ ، فقلت . . لما رأيت من ظُرفه في لباسه وكيزانه بحيث توهَّمت أنَّه ساقي السلطان : هذا ؛ أي أهذا ساقي السلطان ! فقالوا : لا ، هذا ساقي العامَّة ، فأخذتُ منه الكوز وشربتُ منه ، وقلت لمن معي : أعطه ديناراً ، فأعطاه ديناراً ؛ فلم يأخذه ، وقال له : أنت أسيرٌ ، قد استُدعيتَ للخليفة ومعك من يحفظك من قِبَله ليوصلك إليه ، وليس من الفتوَّة والمروءة أن آخذ منك شيئاً وأضيِّق عليك ، فرأى منه ذو النون بذلك كمال أخلاقه ومروءته في باطنه ؛ مع ظرف ظاهره .

تجارة الفتيان : وقيل : ليس من الفتوة أن تربح على صديقك . قال بعض أصدقائنا رحمه الله تعالى : وكان هذا البعض فتى يسمَّى أحمد بن سهل التاجر ، وقد

---

(١) انظر ترجمته وتسميته ص ١٢٤ .

اشتريت منه خرقة بياض فأخذ مني الثمن الذي كان رأسَ ماله ، فقلت : أما تأخذ ربحاً ؟! فقال : أمّا الثمن فآخذه ؛ ولا أحمِّلُك به منَّة ؛ بأن أتركه لك ، لأنه ليس من الخطر : القَدْر عندي . . ما أتخلَّق به معك ، ولكن لا آخذ الربح !! إذ ليس من الفتوة أن تربح على صديقك . ففي ذلك وجهان من الفتوة : ١ـ استقلال رأس المال ؛ فلم يرَ أن يهبه لأخيه لاستقذاره له ، و٢ـ كونه لم يربح عليه .

فتوة أكمل: وقيل: خرج إنسان يدَّعي الفتوَّة من نيسابور إلى نسا: اسمٌ لبلدة فاستضافه رجل منها . . ومعه جماعة من الفتيان ، فلما فرغوا من أكل الطعام ؛ خرجت جارية تصبُّ الماء على أيديهم ، فانقبض النيسابوريُّ عن غسل اليد ؛ وَقال : ليس من الفتوة أن تصبَّ النُّسوان الماء على أيدي الرجال ، فقال واحد منهم : أنا منذ سنين أدخل هذه الدار ؛ لم أعلم أنَّ امرأة تصبُّ الماء على أيدينا أم رجلاً !!

تعقيب : كلٌّ منهما كلامُه يقتضي أنَّه متَّصف بالفتوة ، وإن كان الثاني أكملَ فيها ؛ لتركه فضول النظر الذي لا حاجة إليه ، إذ من الفضول تمييزُ العبد ما في دار غيره من متاع وخادم و غيرهما . . مما لا حاجة به إليه .

امتحان فتىً : سمعت منصوراً المغربي ؛ يقول : أراد واحد أن يمتحن نوحاً النيسابوريَّ العيَّار : الشجاع ، فباع منه جارية في زِيِّ غلام ، وشرط أنَّه غلام . . وكانت وضيئةَ الوجه : حسنة ، فاشتراها نوحٌ على أنَّها غلام ولبثت عنده شهوراً كثيرة . فقيل للجارية : هل علم نوحٌ أنَّك جارية ؟ ، فقالت : لا ؛ إنَّه ما مسَّني ، وتوهَّم أنِّي غلام !!

فيه إشارة إلى أنَّه فتىً ؛ حيث منع نفسه من الميل إلى الشهوات الدنيوية .

ميزان فتىً : وقيل : إن بعض الشُّطَّار طُلب منه تسليمُ غلامٍ كان يخدمُه إلى السلطان ، فأبىٰ لحسن خدمته له ، فضربه ألفَ سوط فلم يسلِّم إليه الغلام . . فاتفق أنه احتلم تلك الليلة . . وكان بردُها برداً شديداً ، فلما أصبح اغتسل بالماء البارد . فقيل له : خاطرت بروحك باغتسالك في هذا البرد بالماء البارد ؟ فقال : استحييتُ من الله تعالى أن أصبرَ على ضرب ألف سوطٍ لأجل فوات منفعة تحصل لي من مخلوق ؛ وهي خدمة هذا الخادم . . ولا أصبرُ على

مقاساة برد الاغتسال لأجله تعالى ، ولأجل القيام بطاعته ؛ رجاءَ فضله ورحمته !! في ذلك من الفتوَّة أنه آثر ما ينبغي إيثاره ، وترك حفظ نفسه من المخاطرة بروحه بما فعله .

الفتوة بالنمل : وقيل : قدِم جماعة من الفتيان لزيارة واحد يدَّعي الفتوَّة ! فقال الرجل المزورُ لغلامه : يا غلام قدِّم السُّفْرة للجماعة . فلم يقدِّم ! فقال له الرجل ذلك ثانياً . . وثالثاً !! فنظر بعضهم إلى بعض ؛ فقالوا : ليس من الفتوة والمروءة أن يستخدم الرجل من يتعاصىٰ عليه في تقديم السُّفرة كلَّ هذا التعاصي !! إذ من أخلاق الخادم أن يبادِر لما لم يؤمر به من الخير . . فكيف لما أمر به !! فقال الرجل لغلامه : لِمَ أبطأت بالسُّفرة : بتقديمها ؟! فقال الغلامُ : كان عليها نملٌ فلم يكن من الأدب تقديمُ السفرة إلى الفتيان مع وجود النمل فيها ، ولم يكن من الفتوة إلقاء النمل من السفرة ! فلبثت حتّىٰ دبَّ النمل منها . فقالوا له . . لمَّا اطلعوا على باطن أمره : دقَّقت يا غلام في الفتوَّة والأدب !! مثلك مَن يخدُم الفتيان .

في ذلك من الفتوة ١ـ أن الخادم لا ينبغي له أن يتعاصى ؛ أو يتخلَّف عما أُمر به في حقِّ المكرمين ؛ لكونه يشوش عليهم ، و٢ـ أن لا يحضر السُّفرة والنمل عليها ، و٣ـ أن لا يزعج النمل بالقتل والرمي .

أخرجته فلا أردُّه : وقيل : إن رجلاً نام بالمدينة المشرَّفة من الحاج ، فتوهَّم أن هِمْيَانه : كيسه سُرِق ، فخرج فرأىٰ جعفر الصادق . . وهو لا يعرفه !! فتعلَّق به ؛ وقال له : أنت أخذت هِمْياني !؟ فقال له : إيش كان فيه ؟ فقال : ألف دينار ، فأدخله داره ووزن له ألفَ دينار ، فرجع الرجل إلى منزله ؛ ودخل بيته فرأىٰ هِمْيَانه في بيته ، وكان قد توهَّم أنَّه حمله معه على عادته من حرصه عليه ، وأنَّه سُرق منه ، فخرجَ إلى جعفر معتذْراً مستغفراً مما جرى منه ، وردَّ عليه الدنانير فأبىٰ أن يقبلَها ؛ وقال : شيءٌ أخرجتُه من يدي للهِ تعالىٰ . . لا أستردُّه . فقال الرجل : مَن هذا ؟! فقيل : جعفر بن محمد الصادق .

توضيح : في ذلك دَلالة على كرم جعفر الصادق وحفظِه لمروءَتهِ ، وصِيانته لعرضه ، وإعانته للملهوف وشفقته على عباد الله .

فتوة المدينة : وقيل سأل شقيق البلخي جعفرَ بن محمد عن الفتوَّة ؛ فقال له جعفر :

ما تقول أنت ؟! فقال شقيق : هي إن أُعطينا شكرنا ، وإن مُنِعنا صبرنا !! فقال جعفر : الكلابُ عندنا بالمدينة كذلك تفعل ! فقال شقيق : يا ابنَ بنت رسول الله ﷺ ؛ ما الفتوة عندكم ؟! فقال : هي إن أُعطينا آثرنا ، وإن مُنعنا شكرنا على المنع ، لأنَّا نَعُدُّ البلايا نعمة فنشكر عليها .

وفي ذلك تنبيهٌ على تفاوت منازلِ السالكين . ـ وفي نسخة : بعدما ذُكر ـ : فقال شقيق : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ . .

دعوة فتوَّة : سمعتُ الشيخَ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازي ؛ يقول : سمعت الجُرَيري ؛ يقول : دعانا الشيخُ أبو العبَّاس ابن مسروق ليلةً إلى بيته لضيافة . . فٱستقبَلَنا صديقٌ لنا ؛ فقلنا له : اِرجع معنا فنحن في ضيافة الشيخ !! فقال : إنه لم يدعُني ! فقلنا : نحن نستثني لك : نستأذنُ لك عند الدخول ، كما استثنىٰ رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها ؛ حيث صَنَع له ﷺ رجلٌ من الصحابة طعاماً ، وأتىٰ إليه ليدعُوَه بالإشارة ، فأشار ﷺ إليه : « وَهٰذِهِ !! » يعني عائشة ؟ فسكت ، ثم أشار إلى النَّبيِّ مرَّة أُخرى ، فأشار النَّبيُّ ﷺ إليه هٰذِهِ !! يعني عائشة . فقال : نعم .

وتشبيه الحكاية بقصَّة عائشة في مطلق الاستئذان ، وإلا ! فالاستئذان في الحكاية كان بعد الدعاء . . والإجابةُ ، وفي قصة عائشة كان بينهما ؛ فأخذناه : صديقَنا معنا فلما بلغ بابَ الشيخ . . أَخبرناه بما قال صديقُنا لنا ؛ وقلنا له . فقال : قد جعلتَ أنت موضعي ـ وفي نسخة : جُعلتُ . . أنا بموضع ـ من قلبك : أن تجيء أي : لأجل أنَّك جئتَ إلى منزلي من غير دعوة أوَّلا لحسن ظنِّك بي ! عليَّ . . كذا وكذا أن ـ أي : ما ـ مشيت أنت من باب منزلي إلى الموضع الذي تقعد فيه منه إلاَّ على خدي ! وأَلحَّ عليه في إجابته لذلك ؛ فأجاب ووضع هو خدَّه على حصير على الأرض ، وحُمل الرجل فوَضع ؛ وهو محمول قدمَه على خَدِّه من غير أن يوجِعَه : حُمل حتَّىٰ صارت قدمُه على خدِّه بحيث لا يضرُّه نقلُه ، ويمكنه سحبُ وجهه ، وسَحَب الشيخ وجهه على الحصير التي على الأرض ؛ وقَدَمُ المحمول على خدِّه إلى أن بلغ موضع جلوسه .

وجه فتوَّته كمالُ سروره وتواضعِه بفرحه بقدوم هذا الزائِر عليه من غير

دعوة ، ولذلك لما سمع بعضهم يتكلَّم في الأُخوَّة ؛ فقال : هل فيكم من تطيبُ نفسه أن يدخل يده في كُمِّ أخيه فيأخذَ من دراهمه ما شاء من غير استئذان ؟ قالوا : لا . قال : فَلَم تكمُل أُخوَّتكم ولا فتوَّتكم .

ستر العيوب : واعلم أن من الفتوَّة السترَ على عيوب الأصدقاء . . لا سيَّما إذا كان لهم فيه ؛ أي في عدم الستر . . شماتةُ الأعداء .

ستر القوَّال : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : كان يقال للنصراباذي كثيراً . . نصحاً لا غيبة : إنَّ عليًّا القوَّال يشربُ بالليل ، وينشد عند الشربة ، ويحضر مجلسَك بالنهار ؟! وكان ينشدُ عنده الأبيات المتضمِّنة للمحبَّة والشوق ونحوِهما مما يطيبُ به قلوبُ المريدين ، وكان لا يسمع فيه ما يقال له فيه . . فاتفقَ أنَّه كان يمشي يوماً ومعه واحد ممن يذكر عليًّا بذلك عنده ، فوجد عليّاً مطروحاً في موضع . . وقد ظهر عليه أثر السُّكر ، وصار بحيث يُغسَلُ فَمه مما خرج عليه من باطنه ، فقال الرجل في نفسه : إلى كم نقول فيه للشيخ ؛ ولا يسمع فيه كلاماً !! هذا عليٌّ على الوصف الذي نقول له ؟! فنظر إليه النصراباذي وكره اطلاعه على ذلك ؛ طلباً للستر ؛ وقال تأديباً للعذول اللائم له : احمله على رقبتك وانقله إلى منزله . . ولا تكشفه ، فسترك له أفضلُ من إظهارك لي نقصَه ، وإذ قد كشفته لي فلا تتركه مكشوفاً لكلِّ الناس فلم يجد بدّاً من طاعته فيه .

وجهُ الفتوَّة في ذلك ما أشار إليه النصراباذي من كونه لم يصدِّق ذلك أوَّلاً ، ولا يجب أن يطلع عليه آخراً .

تحمُّل الفتيان : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ أبا علي الفارسي ؛ يقول : سمعتُ المرتعش ؛ يقول : دخلنا مع أبي حفص على مريض نعوده ونحن جماعةٌ ؛ فقال أبو حفص للمريض : أتحب أنْ تبرأ من مرضك ؟ . فقال : نعم . فقال لأصحابه : تحمَّلوا عنه بأن نقتسم ما هو فيه من الألم، فتحمَّلوا عنه؛ بأن دَعَوا الله فيه فأجابهم كعادة الأولياء . فقام العليلُ من علَّته وخرج معنا ، وأصبحنا كلنا مرضى أصحابَ فراش نعاد .

فتوة نبوية : وقد أتى النَّبيَّ ﷺ رجلاً أعمىٰ ؛ فقال : يا رسول الله ؛ أدع الله أن يردَّ

بصري!! فقال : إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ! فاختار الدُّعاء ، فأمره أن يصلِّي ويدعوَ ويتشفَّع به ﷺ ، ففعل . فردَّ الله تعالى بصره[1]

* * *

٣٢ ـ باب الفِراسة

اشتقاقها : مأخوذةٌ من التفرُّس ؛ وهو التثبُّت والنظر ؛ يقال (تفرَّستُ فيه الخير) . . إذا تثبَّتَ فيه ونظرتَ إليه ، والتفرُّس يطلق أيضاً على التوسُّم ؛ من السِّمَة ؛ وهي العلامةُ .

أنواعها : والفراسة قد تكن عاديّة تُعرَف بقرائنِ الأحوال ؛ وقد تكون مَوْهِبة إلهامِيّة يخلقُها الله في القلب ، وهي المرادُ غالباً عند القوم .

تعريفها : عُرِّفت بأنَّها الاطلاع علىٰ ما في ضمائر الناس . وبغير ذلك كما سيأتي في كلامه . !

رتبتها : وهي ممدوحةٌ ، قال الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[2] : للمتفرِّسين .

نور الله : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله تعالى ؛ قال : أخبرنا أحمد بن علي ابن الحسين الرازيُّ ؛ قال : حدَّثنامحمد بن أحمد بن السكن ؛ قال : حدَّثنا موسى بن داود ؛ قال : حدَّثنا محمد بن كثير الكوفيُّ ؛ قال : حدَّثنا عمرو بن قيس ؛ عن عطيَّة ؛ عن أبي سعيد الخدري ؛ قال : **قال رسول الله ﷺ : « اِتَّقُوا فِرَاسَةَ ٱلْمُؤمِنِ ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ »**[3]

---

(١) أخرجه الترمذي : ٣١٢٥ ، والبخاري في «التاريخ» : ١١٤/ ٣٥٤، والطبراني في «الكبير» : ٦٤٩٧ ؛ وفي «مسند الشاميين» : ٢٠٤٢ ، وأبو نعيم : ١١٨١٦ ، والقضاعي : ٦٦٣ ، والبيهقي في «الزهد» ص ٨٧ ، والخطيب في «تاريخ بغداد» : ٣/ ١٩١ ، والسلمي (شيخ المؤلف) في «أربعينيته» ص١٤ ؛ عن أبي أمامة . وانظر ما تقدم ص١٤٠ .

(٢) الآية : ٧٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحجر .

(٣) أخرجه الترمذيُّ : ٣٥٧٣ ، وابن ماجه : ١٣٨٥ ، والحاكم : ١/ ٥١٩ ؛ وصحَّحه وأقرَّه الذهبي .

تعريفها : والفِراسة خاطرٌ يهجمُ علىٰ القلب بصدق يفيد العلم . . فينتفي ما يضادّه ؛ من ظنٍّ وشكٍّ ووَهَم . وله على القلب حكمٌ وقهر اشتقاقاً ؛ أخذاً من فريسة السَّبُع . يقال : فرَس الأسد فريسته ، وافترسها : دقَّ عنقَها .

وليس في مقابلة الفراسة ـ لكونها تفيد العلم بخلق الله كما عُلم ـ مجوِّزاتٌ للنَّفس : احتمالاتٌ من ظنٍّ وغيره كما علم .

ميزانها : وهي ؛ أي الفراسة قوَّتُها على حسب قوَّة الإيمان . . بتواليه على قلب العبد ؛ وكثرةِ ذكره له وغلبته على قلبه ، حتَّى صار حالاً له ، وذلك يحصل بصغر الدُّنيا في عينه ، وغلبة ذكِر الجنَّة والنار والحساب والعرش ، وأمر الله ونهيه ؛ ووعده ووعيده . . ونحوها . فكلُّ مَن كان أقوى إيماناً كان أحدَّ فِراسة ؛ فإذا وصل العبد إلى تلك الحالة كان إيمانه قويَّاً ، وقلبُه هو الذي نسخ فيه الخواطر الصحيحة ؛ المعبَّر عنها بالفراسة وبالإلهام وبالمكاشفة .

نور الفراسة : وقال أبو سعيد الخَّراز : مَن نظر بنور الفراسة . . نظر بنور الحقِّ تعالى . ولهذا كان نورُها أفضلَ أنوار المقامات ، وتكون موادُّ علمه الحاصل بها بواسطة الفراسة من الحقِّ تعالى بلا سهو ولا غفلة ، بل هو حكمُ حقٍّ جرى على لسان عبدٍ أكرمه الله .

وقوله أي : أبي سعيد (نظر بنور الحقِّ) !! يعني بنورٍ خصَّه به الحقُّ تعالى : أي : بغير واسطة ، بل أنشأهُ في قلبه بغير كسب منه ، وإلاَّ فنورُ العقلِ ونورُ الشرع هو نورُ الحقِّ أيضاً .

حقيقتها : وقال الواسطيُّ : إن الفِراسة سواطعُ أنوار . أي : أنوارٌ مرتفعة يدرَك بها علومٍ ومعارف لمعت : أضاءت في القلوب ، وتمكينُ معرفةٍ : أي : ومعرفة متمكِّنة حملت السرائر الكائنةَ في الغيوب ، أي : نقلتْها من غيب إلى غيب حتى يشهدَ من اتَّصف بذلك الأشياءَ ؛ من حيث أشهده الحقُّ سبحانه إيَّاها ، فيتكلَّم على ضمير الخلق بما وهبَه الحقُّ له . . من علم ما لم يعلمه غيرُه من المغيبات .

فراسة متَّجر : ويحكىٰ عن أبي الحسن الدَّيلميِّ ؛ وكان له مقصودٌ في الاطلاع على أرباب الفِراسة ؛ أنَّه قال : دخلت أنطاكيَّة لأجل رجل أسودَ ، قيل لي : إنَّه يتكلَّم على الأسرار بالفِراسة . فأقمتُ فيها إلى أن خرج من جبل لِكام ـ : جبل بالشام ـ ومعه شيء من المباح يبيعه ، وكنت جائعاً منذ يومين . . لم آكل

شيئاً ، فأتيتُه لأمتحنه في صورة مشترٍ ؛ فقلتُ له : بكم تبيعُ هذا ؟! وأوهمتُه أنِّي أشتري منه ما بين يديه . فقال : اقعد ثَمَّ . وأشار إلى مكان . حتى إذا بعناه نعطيك من ثمنه ما تشتري به شيئاً . فدلَّني ذلك على فِراستُه ، فتركتُه وسِرتُ إلى غيره أُوهمه أنِّي أساومه ؛ كأني ما فهمتُ ما قاله ، ثمَّ رجعتُ إليه ؛ وقلت له : إن كنت تبيعُ هذا ؛ فقل لي بكم تبيعه ؟! فقال : إنما جعتَ يومين !! أُقعد ثَمَّ . . حتى إذا بعناه نعطيك من ثمنه ما تشتري به شيئاً . فزادني ذلك بياناً لصحَّة فِراسته ، فقعدتُ حيث أشار ، فلما باعه أعطاني شيئاً ومشى فتبعتُه ، فالتفت إليَّ وقال لي : إذا عرضتْ لك حاجةٌ فأنزلها بالله تعالى وحده . . فلا تُحجبْ عنها ، بل تقضىٰ ، فكانت أبلغَ موعظةً وأحسنَ إرشاداً . . إلاَّ أن يكون لنفسك فيها حظٌّ ؛ بأن تلتفت إلىٰ نفسك وتسكن إلى عملها . . فتحجب عن حاجتك التي طلبتها من الله تعالى فلا تقضىٰ .

من معانيها : وسمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله ؛ يقول : سمعت الكتاني ؛ يقول : الفراسة مكاشفة اليقين ومعاينة الغيب : ليست بظنٍّ . . ولا شكٍّ . . ولا وَهَم !! وإنما هي علمٌ موهبيٌّ ، لخبر : « اِتَّقُوا فِرَاسَةَ ٱلْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ » .

مقامها : وهو :مقام الفراسة من مقامات الإيمان ؛ كما أشار إليه في الخبر بتخصيصها بالمؤمن .

فراسة القرائن : وقيل : كان الشافعيُّ ومحمد بن الحسن رحمهما الله في المسجد الحرام . . فدخل رجل عليهما ، فقال محمد بن الحسن : أتفرَّسُ فيه أنَّه نجار . وقال الشافعيُّ : أتفرس فيه أنَّه حدادٌ . فسألاه عن صنعته ؟ فقال : كنتُ قبل هذا حداداً ؛ وأمّا الساعةَ أنجِّرُ . هذه الفراسة من قسم الفراسة العادية التي تعرف بقرائن الأحوال ، لكنَّها لا تتمحَّض له ، إذ لا بدَّ فيها من إشراق ونور .

المتفرس بالاستنباط : وقال أبو سعيد الخراز : المستنبط المشار إليه في الآية الآتية مَن يلاحظ الغيب أبداً ، ولا يغيبُ عنه ، ولا يخفى عليه شيءٌ مما ألهمه الله له ، وهو الذي دلَّ عليه قوله تعالى ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[1] والمتوسِّمُ

---

(١) الآية : ٨٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

المذكور في الآية الآتية هو الذي يعرف الوَسْم أي العلامة ؛ وهو العارف بما في سويداء القلوب : حبتها ، وبالاستدلال والعلامات ، قال الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ : للعارفين للعلامات التي يبديها : يظهرها الله على الفريقين من أوليائه وأعدائه . والمتفرس ينظر بنور الله تعالى ، وذلك سواطع أنوار لمعت في قلبه فأدرك بها المعاني ، وهو : نور الله من خواصّ الإيمان ؛ كما عُرف ، والذين هم أكبرُ منه أي : من المتوسِّم حظاً الربَّانيُّون المنسوبون إلى الربِّ تعالى بمعاملتهم له ، وهم الذي قال الله تعالى فيهم ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾[1] يعني علماءَ حكماء متخلِّقين بأخلاق الحقِّ ؛ نظراً في مصالح العباد ، وخُلُقاً بالاتصاف بالصفات الجميلة ، كالكرم والحلم والعفو ، وهم فارغون عن الأخبار عن الخلق والنظر إليهم والاشتغال بهم لاشتغالهم بربِّهم .

فراسة نيسابوري : وقيل : كان أبو القاسم المنادي ـ سُمِّي « منادياً » لما يأتي ـ مريضاً ؛ وكان كبيرَ الشأن ، من مشايخ نَيْسابور . . فعاده أبو الحسن البوشنجي ، والحسنُ الحداد واشتريا بنصف درهم تفَّاحاً في الطريق نسيئةً ، وحملاه إليه لكون المريض يجدُ بذلك راحة ، فلما قعدا ؛ قال أبو القاسم وقدر رأى عليهما ظلمة : ما هذه الظلمة التي عليكما ؟! فخرجا ، وقالا : (إيش فعلنا ؟) وتفكَّرا ! فقالا : لعلنا أصبنا بذلك لكوننا لم نؤدِّ ثمن التفَّاح بائعه ، فأعطياه الثمن ، وعادا إليه ـ أي : إلى أبي القاسم ـ ، فلما وقع بصرُه عليهما . . قال : هذا عجبٌ ؛ يمكن الإنسان أن يخرج من الظُّلمة بهذه السُّرعة !! أخبراني عن شأنكما ؟! فذكرا له القصة : قصَّة شراء التفَّاح نسيئةً وكيفيَّة القضاء . فقال : نعم : صدقتُما ، كان يعتمد : يتَّكل كلُّ واحد منكما على صاحبه في إعطاء الثمن فيتأخر قضاءُ حقِّ الرجل فيتضرَّر ، والرجل يستحيي منكما في التقاضي ، فكان : الشأنُ تبقىٰ التبعة عليهما ؛ وأنا السَّبَب في شرائكما منه نسيئةً ، فأنا إنَّما رأيتُ ذلك فيكما . في ذلك فضيلةٌ للثلاثة ، فإنَّه كاشفهما وهما تفطنَّا لوجه الظُّلمة ثم تخلَّصا منها .

---

(١) الآية : ٧٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

وكان أبو القاسم المنادي هذا يدخل السوق كلَّ يوم ينادي : يدلِّل على الأمتعة ، فإذا وقع بيده ما فيه كفايتُه من دانق ذهباً . . إلى نصف درهم فضة . . خرج منه وعاد إلى رأس وقته ومراعاته ، ومراعاةِ قلبه .

فيه دلالة على أنَّ مراعاةَ وقته وقلبه أهمُّ أموره ، وأنّه إنَّما يرجع إلى كسبه لدفع ضرورته ، وأن ما يأكله من أحَلِّ ما يقدر عليه ، فإنَّ أحلَّ ما أكل المرء مِن كسبه .

استيلاء القلب : وقال الحسين بن منصور : **الحقُّ تعالى إذا استولى على سِرٍّ** : قلب ؛ بأن اشتغل به تعالى العبدُ حتَّى صار غالباً على قلبه . . **ملَّكه الأسرار كلَّها فيعاينها العبدُ ويخبر عنها** ، فيصير مملوكا مالكاً ؛ وهو المتفرس والمكاشف .

من معانيها : **وسئل بعضهم عن الفِراسة** ؛ **فقال** : هي أرواح - : نفوس بمعنى خواطر نفوس - **تتقلَّب في الملكوت** : لا شغل لأربابها إلاّ النظر في كمال الله وجلاله ، وفي أمره ونهيه ؛ ووعده ووعيده ومراقبته . . **فتشرفُ على معالي الغيوب** فتنطق بنطق أربابها عن أسرار الخلق نطقَ مشاهدة لا نطقَ ظنٍّ وحُسْبان . خصَّها الله بذلك !! لكمال شُغْلها به وانقطاع همِّها عن غيره .

فراسة مربٍّ : **وقيل** : كان بين زكريا الشختني - نسبة إلى شختن قرية بنيسابور - وبين امرأة سبب مكروه **قبل توبته** ، **فكان يوماً واقفاً على رأس أبي عثمان الحيري** بعدما صار من خواصِّ تلامذته . . **فتفكَّر في شأنها** : المرأة ، **فرفع أبو عثمان** رأسه إليه ، لكونه اطلع على تفكُّره فيما تاب عنه ؛ **وقال له** : **أما تستحي من ربِّك** !؟ إذ لا يليق بمن تاب واستقامت أحواله أن يذكر ما كان متلذِّذاً به ، بل كمالُ توبته أنَّه إذا خطر له ذلك استحىٰ من ربِّه ، وتألَّم لما كان من ذلك .

يكاشف تلميذه : قال الأستاذ الإمام المملي رحمه الله : **كنتُ في ابتداء وُصلتي بالأستاذ أبي عليٍّ الدقَّاق رحمه الله تعالى عقد لي المجلس في مسجد المطرز** بنيسابور ، **فاستأذنته وقتاً في الخروج إلى (نَسَا) فأذن لي فيه** ، **فكنت أمشي معه يوماً في طريق مجلسه فخطر ببالي : ليته ينوب عني في مجالسي أيام غيبتي !! فالتفت إليَّ ؛ وقال لي : أنوب عنك أيام غيبتك في عقد المجالس !** . **فمشيت معه قليلاً . . فخطر ببالي لأجل أنَّه عليل يشقُّ عليه أن ينوب عني في**

الأُسبوع يومين ؛ فقلت في نفسي : فليته يقتصر على يوم واحد في الأسبوع ، فالتفت إلي وقال : إن لم يمكني في الأسبوع يومان أنوب عنك في الأسبوع مرَّة واحدة ، فمشيت معه قليلاً . . فخطر ببالي شيءٌ ثالث فالتفت إليَّ وصرَّح بالإخبار عنه على القطع به من غير احتمال .

هذا كالصريح في أنَّه مكاشفة، وأما ما قبله ! فيحتمل أنَّه كذلك . . ويحتمل أنه موافقة ومصادفة فيظنُّها التلميذ مكاشفة ، وهي بكلَّ حال ألطافٌ من الله وتنبيهاتٌ يجريها الله على لسان الشيخ ، لينتفع بها مَن أراد سعادته ويقوِّيَ بها نيتَّه في اقتدائه بشيخه ، وانتفاعه بما يَرِدُ عليه منه .

أسباب الفراسة : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت جَدِّي أبا عَمْرو ابنَ نُجَيد ؛ يقول : كان شاهٌ الكرمانيُّ حادَّ الفِراسة ـ: حديدَها ـ لا تخطىءُ فِراسته ، ويقول : مَن غضَّ بصره عن المحارم ؛ وأمسك نفسه عن الشهوات ؛ من الحلال وغيره ، وعمَّر باطنه بدوام المراقبة لله ، واستشعار نظره إليه في سائر أحواله ، وعمَّر ظاهره باتباع السنَّة . . بأن لا يلابس في عبادته بدعة ، وتعوَّد أكل الحلال للتقوِّي على عبادته ؛ لا لشهوته . . لم تخطىء فراسته لكماله في درجات الإيمان .

منشأها: وسئل أبو الحسين النوريُّ : مِن أين تولَّدتْ ـ أي : نشأَتْ ـ فِراسة المتفرِّسين في القلوب ؟! فقال : من قوله تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ ـ : خلقت في آدم ـ مِن رُّوحِى ﴾[1] : خَلْقي ، وبه سُمِّي عيسى عليه السلام « روح الله » : خَلَقه بلا ذكر ، ولما كانت الفِراسة ينشِئُها الله في قلوب أوليائه سُمِّيت « روحاً » و« نوراً » كما في خبر : « اِتَّقُوا فِرَاسَةَ ٱلْمُؤْمِنِ » .

روح الله : فمن كان حظُّهُ من ذلك النور أتمَّ . . كانت مشاهدتهُ أحكمَ : أتقن، وحكمُه بالفراسة أصدقَ ؛ لأنها تفيد العلم، ألا ترى كيف أوجب نفخُ الروح فيه : في آدم السجودَ له بقوله تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ ! ! .

تحرير ظن : وهذا الكلام من أبي الحسين النُّوري فيه أدنى غموض وإيهام بذكر نفخ

---

(١) الآية : ٢٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحجر .

الروح ، في استدلاله به على تولُّد الفراسة منه لأمرين :

أحدهما: إيهام لجعله الموجِب لسجود الملائكة لآدم نفخ الروح، والموجب له إنَّما هو أمرُه تعالى به!! لكنه لم يأمرهم به حتَّى خلق فيه الروحَ!!.

ثانيهما : إيهامٌ [لا] لتصويب قول منَ يقول بقدم الأرواح ، ولا : وليس الأمر كما يلوح لقلوب المستضعفين ؛ من أنَّها قديمةٌ ؛ بل هي حادثة ؟! فإنَّ الذي يصحُّ عليه النفخ والاتصال بالأجسام والانفصال عنها . . فهو قابل للتأثير والتغيير ، وذلك من سِمات الحدوث : علاماته ، وإنَّ الله سبحانه خصَّ المؤمنين ببصائرَ وأنوارٍ بها يتفرَّسون ، وهي في الحقيقة معارفُ مخلوقةٌ ، وعليه يحمل قوله ﷺ : « فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ ٱللهِ » : بعلم وبصيرة منه تعالى يخصُّه الله تعالى به ، ويفرده به مِن دون : غير أشكاله . وتسميةُ العلوم والبصائر « أنواراً » غيرُ مستبدعٍ ، ولا يبعد وصفُ ذلك بالنفخ !! والمراد منه الخلق كما تقرَّر .

صواب المتفرس : وقال الحسين بن منصور : المتفرِّسُ هو المصيب بأوَّل مرماة إلى مقصده ، ولا يعرِّج على تأويلٍ وظنٍ وحُسْبانٍ ، لأن الفراسة مما يخلقه الله في قلب العبد من غير كسب منه ، وهو من ثمرات الإيمان الكامل ، فلا بدَّ أن يكون متعلَّقُه معلوماً ، لأنَّه موهبة يدركه العبد قطعاً ، فأين هو من الظنِّ والحُسْبان الذي هو من آثار المنجِّمين ؟!!

موجب الفراسة : وقيل : فِراسة المريدين تكون ظناً لأنَّها لا تثبت ، لكنها إذا تكرَّرت وصارت حالاً لصاحبها يوجب له تحقيقاً يقيناً .

وفراسة العارفين لتمكنُّهم بالمراقبة واشتغالهم بالله تحقيقٌ : يقين يوجِب لهم حقيقةً وهي ـ كما مرَّ ـ حالٌ غالب على القلب .

نتيجتها : ومن تمكَّن في الفراسة وتوالت عليه أنواعُها . . حَصَلت له المكاشفة والمعاينة .

جواسيس القلوب : وقال أحمد بن عاصم الأنطاكيُّ : إذا جالستم أهل الصدق . . فجالسوهم بالصدق ؛ فإنَّهم جواسيسُ القلوب : متفحِّصون عن أحوالها ؛ يدخلون في قلوبكم ويخرجون منها من حيث لا تُحِسُّون بهم ، فإنَّه تعالى

يُطلعهم على ما لا يُطْلِع عليه غيرهم لتسلمَ قلوبُهم من المشوِّشات ، ومَن جالسهم بالصدق رُجي له الانتفاع .

وما قاله بالغٌ في النصح ، فإنَّ الصادق : مَن عامل الله بالصدق في سائر أعماله ، فمَن جالس مَن هذه حالُه بغير الصدق . . خُشي عليه من الآفات ، ومِن مَقْت قلوبِ الصَّالحين له .

أول الخواطر : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعتُ الخَلَدي ؛ يقول : سمعتُ أبا جعفر الحدَّاد ؛ يقول : **الفِراسة أوَّل خاطر بلا معارضٍ ، فإنْ عارض الخاطرَ معارِضٌ من جنسه !! فهو خاطرٌ وحديثُ نفس .**

توضيح : تقدَّم أنَّ الخواطر تارة ينشئها الحقُّ تعالى بغير واسطة ، ويسمَّى « الربَّانيّ » ، وهو المسمَّى بالفراسة ، فلا يكون إلاَّ حقَّاً وصدقا ، فلا يعارضُه شيءٌ ، لأنه كرامة ، وتارةً ينشئها بواسطة المَلَك ؛ أو الشيطان ؛ أو النفس ، لأنَّ القلب عليه ملك ونفس ، وما نشأ بواسطة الملك يعارِضُه فيه الشيطان والنفس ، فكلَّما أمر الملك بخير . . عارَضَه الشيطانُ والنفس بشرٍّ ، وكلَّما أمر الشيطان والنفس بشرٍّ . . عارضه الملك بخير إلى أن يقوِّيَ اللهُ العبد ويزيِّن له ما يدعو إليه المَلَك ، كما قال تعالى ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[1] ممتنّاً على عباده بذلك .

مداواة الأرواح : ويحكىٰ عن أبي عبد الله الرَّازي نزيل نيسابور ؛ قال : **كساني ابنُ الأنباريِّ صوفاً ، ورأيت على رأس شيخي الشبلي قَلنسوةً ظريفة تليق بذلك الصوف . . فتمنَّيْت في نفسي أن يكونا جميعاً لي ، فلما قام الشبليُّ من مجلسه ٱلتفت إليّ - أي : اتبعني - فتبعتُه ، وكان عادتُه أنَّه إذا أراد أن أتبعه يلتفتُ - وفي نسخة : التفت - إليَّ ، فلما دخل داره دخلتُ معه ؛ فقال لي (انزع الصوف) فنزعتُه . . فلفَّه وطرح القلنسوة عليه ، ودعا بنارٍ فأحرقهما بها ؛** اقتداءً بموسى عليه السلام في تحريقه ما كان فتنةً لبني إسرائيل في دينهم[2] ، وبسليمان عليه

---

(١) الآية : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحجرات .

(٢) وفي ذلك نزل قوله تعالىٰ ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ . . . ﴾ =

السلام فيما فعله بالخيل ، فإنَّها لما شغلته عن عبادته حتى توارت الشمسُ بالحجاب ؛ فقال : ﴿ ردُّوها عليَّ ، فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ [(١)] .

وروي أنَّ أحمد ابن أبي الحواري غَرَّق كتبَه في البحر ؛ وقال : إنما أردتُكِ لمعرفةِ اللهِ تعالى ، وإذا عرفتهُ فلا حاجة لي بك .

وروي أنَّ أحمد ابن حنبل دفن كتبَهُ .

إيضاح : واحتملت هذه الأفعال . . وإن كان فيها إضاعة مال وهي منهيٌّ عنها في شريعتنا !! لأنَّ محلَّ النَّهي عنها إذا كانت لغير التداوي . . لا للتداوي ، ولاسيما الأمراض الدينية كما هنا ، إذ فيه قطع النفس عن شهوات مضرَّة في الدين !! .

دعوى الفراسة : وقال أبو حفص النيسابوري : ليس لأحد أن يدَّعي الفِراسة ، ولكن يتَّقي الفراسة من الغير ، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « اِتَّقُوا فِرَاسَةَ ٱلْمُؤْمِنِ » ، ولم يقل(تفرَّسوا) ! فكيف يصحُ دعوى الفراسة لمن ـ: ممن ـ هو في محلِّ اتقاء الفراسة !! يعني : ليس لأحد أن يدَّعيَها كاذباً ، وإلَّا فلو مَنَّ الله عليه بها . . كان له دعواها ؛ وذِكرُها لمن ينتفعُ بها ، وقد نُقِل أنَّ الجنيد وغيره بلغهم عمن اشتهر بالفراسة فقصدوه وامتحنوه ووجدوه كما قيل ، وقد تقدَّمت ص ٦٨٠ قضيَّةُ الأنطاكي الذي أتى من الجبل ومعه شيء يبيعه مع من جاءه واختبره .

وأما أنَّه ﷺ قال : « اِتَّقُوا فِرَاسَةَ ٱلْمُؤْمِنِ » ولم يقل (تفرَّسوا) !! فلأنَّ الفِراسة غير مكتسَبة ـ كما مرَّ ـ فلا تطلَب .

الألطاف الخفية : وقال أبو العبَّاس ابن مسروق : دخلت على شيخ مريض من أصحابنا أعوده فوجدته على حالة رثَّةٍ . فقلت في نفسي (من أين يرتقي هذا الشيخ ؟) فقال لي : يا أبا العباس ؛ دعْ عنك هذه الخواطر الدنيئة ، فإنَّ لله تعالى

= ـ إلىٰ قوله تعالىٰ ـ ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طٰه ﷺ] .

(١) ومعنىٰ المسح بالسوق والأعناق قطع سوقها وأعناقها بالسيف تقرُّباً إلىٰ الله تعالىٰ ؛ لأنها ألهته عن صلاة العصر وذكر ربِّه حتىٰ توارت الشمس وغربت . وقد يكون معنىٰ آخرُ ؛ وهو أنه يمسحها حبّاً لها لكونها من أهم أدوات الجهاد .

ألطافاً خفيَّة ؛ فلا تنظر لظاهر الحال ، فقد تكون نِعَم الله تعالى على بعض عبيده في قلوبهم ؛ وإن كانت خفية عن الخلق . . أعظمَ من نعمه الظاهرة .

الحاجة معلومة : ويحكىٰ عن الزَّبيدي ؛ قال : كنتُ في مسجدٍ ببغداد مع جماعة من الفقراء فلم يفتح علينا بشيء أياماً ، فأتيتُ الخوَّاص لأسأله شيئاً !؟ فلما وقع بصرهُ عليَّ . . قال : الحاجةُ التي جئتَ لأجلها . . يعلمُها اللهُ ؛ أم لا !؟ فقلت : بلى يعلمُها . فقال : اسكت ولا تبديها : تظهرها لمخلوق . فرجعت . . ولم ألبث إلاَّ قليلاً حتى فُتح علينا بما فوقَ الكفاية .

فيه طلب السعي فيما يقوِّي الله به اليقين !! .

موت الكرماني : وقيل : كان سهل بن عبد الله يوماً في الجامع ؛ فوقع حَمَام في المسجد من شدَّة ما لَحِقَه من الحرِّ والمشقَّة ؛ فقال سهل : إن شاهاً الكِرماني مات الساعة إن شاء الله ، فكتبوا ذلك . فكان الأمر كما قال .

وذلك لأنَّ وقوعَ الطائر في المسجد من شدَّة الحرِّ خلافُ عادته في كلِّ زمن ، فلما رآه سهل . . وقع في نفسه أن شاهاً الكرماني ـ الذي هو حَمَام مسجد بلده ؛ لكثرة ملازمته المسجد ـ مات .

يشتري للأسرى : وقيل : خرج الشيخُ أبو عبد الله التروغندي ـ نسبة إلى تروغند ـ وكان كبيرَ الوقت إلى طوس ، فلما بلغ مرو قال لصاحبه . . وهو تلميذه : اِشترِ لنا الخبز . فاشترى ما يكفيهما ، فقال : اِشتر أكثر من ذلك ، فاشترى صاحبه ما يكفي عشرة أنفس تعمُّداً : قصداً ، فكأنه لم يجعل لقول ذلك الشيخ تحقيقاً : وقعاً . قال : فلما صعدنا إلى الجبل إذا بجماعة قيَّدتهم اللصوص لم يأكلوا منذ مدَّة ، فسألونا الطعام ؛ فقال لي : قدِّم إليهم السُّفْرة . فقدَّمْتُها إليهم .

فيه تنبيهٌ على اطلاع الشيخ على أحوال هؤلاء المقيَّدين ، وكونهم جياعاً ، فأمر بتكثير شراء الخبز . فهذه فراسة !

شيخان يتكاشفان : قال الأستاذ الإمام المملي رحمَه الله : كنتُ بين يدي الأستاذ الإمام أبي عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله يوماً ؛ فجرى حديث الشيخ أبي عبد الرحمان السُّلَمي ، وأنه يقوم في السماع موافقةً للفقراء ، فقال الأستاذ أبو علي مثله في حاله ومقامه يفعل هذا !! لعلَّ السكون أولىٰ وأليقُ به .

ثم قال في ذلك المجلس : امض إليه فستجده ؛ وهو قاعدٌ في بيت كتبه ؛ وعلى وجه الكتب مجلَّدة حمراءَ مربَّعة صغيرة فيها أشعار الحسين بن منصور ؛ فاحمل تلك المجلَّدة ، ولا تقل له شيئاً وجئني بها . وكان الوقت وقتَ هاجرة ، فدخلتُ عليه فإذا هو في بيت كتبه والمجلَّدة موضوعة بحيث ذكر الأستاذ أبو علي !! فلما قعدتُ . . أخذ الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله في الحديث ؛ وقال : كان بعض الناس : إنسان ينكر على أحد : واحد من العلماء حرَكته في السماع ، فرؤي ذلك الإنسانُ يوماً خالياً في بيتٍ ؛ وهو يدورُ كالمتواجد ، فسئل عن حاله !! فقال : كانت مسألة مشكلةً عليَّ فتبيَّن لي معناها ، فلم أتمالك من السرور حتى قمتُ أدور . فقيل له : مثل هذا يكون حالهم : الفقراء ومن وافقهم ؛ فلا ينكر على أحد . فلما رأيت ماأمرني به الأستاذ أبو عليّ رحمه الله ، وما وصف لي على الوجه الذي قال ، وجرى على لسان الشيخ أبي عبد الرحمان ما كان قد ذكره به . . تحيَّرت وقلتُ ؛ كيف أفعل بينهما !! ثم فكرت في نفسي ؛ وقلت : لا وجه إلاَّ الصدق . فقلت للشيخ أبي عبد الرحمان : إن الأستاذ أبا عليٍّ وصف لي هذه المجلَّدة ، وقال لي : اِحملها إليَّ من غير أن تستأذن الشيخ !؟ وأنا هو ذا أخافُك ؛ وليس يمكنني مخالفتُه فأيَّ شيء تأمرني به ؟ فأخرج مجلَّداً آخر مسدَّسا من كلام الحسين بن منصور ، وفيه تصنيفٌ له : للشيخ أبي عبد الرحمان سمَّاه كتاب « الصيهور في نقض الدهور »[1] ألَّفَه في الردِّ على الدَّهْرية القائلين بقدم العالم ، و«الصَّيْهُور» مشتق من الصَّهْر بمعنى ما في قوله تعالى ﴿يُصْهَرُ ـ: يذاب ـ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾[2] وقال لي : احمل هذا المجلَّد إليه وقل له : إني أطالعُ تلك المجلَّدة فأنقل منها أبياتاً إلى مصنفاتي . فخرجتُ من عنده إليه . وبذلك عُلم أنْ كُلاًّ من شيخَيْ المؤلف كاشَفَ الآخر بما جرى في مجلسه ، وأن المؤلّف فهم أن السُّلَمي كاشف الدقَّاق بما قاله ؛ ولهذا تحيَّر !؟

---

(١) ذكره البغدادي في « هدية العارفين » : ١/ ٣٠٥ ؛ وسمَّاه « الصيهون » بالنون غلطاً أو سهواً .

(٢) الآية : ٢٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحج .

الرزق المشبوه : ويحكىٰ عن الحسن الحدَّاد رحمه الله أنَّه قال : كنتُ عند أبي القاسم المنادي وعنده جماعة من الفقراء؛ فقال لي: أُخرج وأْتهم بشيء يأكلونه .
فسررت حيث أذن لي في التكلُّف للفقراء ، وأن آتيَهم بشيء بعدما عَلِم فقري .
قال : فحملتُ مِكتلاً هو شبه الزِّنْبيل يسع خمسة عشر صاعاً ، وخرجتُ .

فلما أتيت سكَّة سيَّار[1] رأيت شيخاً بها فسلَّمتُ عليه ؛ وقلت له : جماعة من الفقراء في موضع محتاجون إلى طعام ، فهل لك أن تتخلَّق معهم بشيءٍ !؟ فأمر خادمه بإخراج ما عنده ، حتَّى إذا أخرج إليَّ شيئاً من الخبز واللَّحم والعِنَب ، فلما بلغتُ الباب : باب أبي القاسم . . ناداني أبو القاسم المنادي مِن وراء الباب بأن قال : رُدّه إلى الموضع الذي أخذته منه ، فرجعتُ واعتذرت إلى الشيخ الذي أمر بإخراج ذلك ، وقلت : لم أجدهم ، وعرَّضْتُ بأنَّهم تفرَّقوا ورددتُ السبب يعني : الطعام عليه .

ثمَّ جئتُ السوق ففُتِح عليَّ بشيء فحملته ، فقال لي حين بلغتُ الباب : أُدخل . فدخلت . فقصصت عليه القِصَّة ، فقال : نعم : صدقتَ . . ذاك ابن سيَّار . . رجل سلطاني : منسوب إلى السلطان وطعامه ليس بصافٍ ، إذا جئتَ للفقراء بشيء فأْتهم بمثل هذا . . لا بمثل ذاك !

محلُّ الاستدلال على الفراسة أمرُه له بردِّ الطعام لذلك الشيخ لما ذكر، وإذنه له بالدخول بما أتىٰ به ثانياً ، ولم يكن رآه في الحالين !! ولا عَلِم معه إلَّا بالفِراسة! .

التفاحتان الباقيتان : وقال أبو الحسين القَرَافيُّ : زرتُ أبا الخير التيناتي وهو في المسجد ، فلما ودَّعتُه . . خرج معي إلى باب المسجد ؛ وقال لي : يا أبا الحسين ؛ أنا أعلمُ أنَّك لا تحمل معك لنفسك معلوماً تعتمدُ عليه ، ولكن احمل معك هاتين التفَّاحتين ، فأخذتُهما ووضعتهما في جيبي وسِرتُ ، فلم يفتح لي بشيء ثلاثة أيام ، فأخرجتُ واحدة منهما عند حاجتي إلى أكلها ؛ فأكلتُها . ثم أردتُ عند حاجتي ثانياً إلى الأكل أن أُخرج الثانية لآكلها . . فإذا

---

(١) اسم رجل منسوب إلىٰ السلطنة كما سيأتي بعد أسطر (عروسي : ٣/١٨١) .

هما جميعاً في جيبي ! فكنتُ آكل منهما ويعودان : وهما باقيتان بحالهما !!
وبقيتُ على ذلك إلى أن انتهيت في سفري إلى باب الموصل ؛ فقلت في نفسي : إنَّهما يفسدان عليَّ حالَ توكلي إذ صارتا : مجموعهما معلوما لي ، فأخرجتهما من جيبي بمرّة : بالكلية لأستريح منهما ، ولئلا يسكن قلبي بغير الله ؛ فنظرت ثمَّ فإذا فقير مريضٌ ملفوف في عباءة . . يقول : أشتهي تفَّاحة . فناولتهما إيَّاه ، فلما عَبَرتُ : جاوزته وقع : خطر لي أنَّ الشيخ إنَّما بعثهما إليه ، وكنت في رُفقة في الطريق وجاوزناه جميعاً ؛ فانصرفتُ عنهم ورجعت إلى الفقير لأسأله الدعاء وأنتفع به ؛ فلم أجده .

عبرة ذلك : في ذلك دلالة على أنَّ أبا الخير كوشف بحال الفقير ، وأنَّه كان يتمنَّىٰ التفَّاح ، وليس هو ببلده ، فلما وجد أبا الحسين مسافراً لتلك الجهة . . حمَّله التفَّاحتين أمانة ، لكنَّه لم يبيِّن له المقصودَ منهما حتى يتبيَّنه هو بنفسه ؛ ويعرفَ صدق هِمَّة أبي الخير في الإرسال ، وأنَّه كان إذا أدخل يده في جيبه ليأكل منهما أكل غيرهما ؛ وبقيتا معه أمانة .

امتحان فراسة : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن علي ؛ يقول : سمعتُ أبا عمر بن علوان ؛ يقول : كان شابٌّ يصحب الجنيد وكان يتكلَّم على خواطر الناس ، فذكر ذلك للجنيد ! فقال له الجنيد : إيش هذا الذي ذُكر عنك ؟ فقال للجنيد : اعتَقِدْ : أَضمر في قلبك شيئاً لتعرف به ذلك . فقال له : اعتقدتُ . فقال له الشابُّ : اعتقدتَ كذا وكذا ! فقال له الجنيد : لا . فقال له الشابُّ : اعتقد شيئاً ثانياً : ففعل ، فقال : اعتقدت كذا وكذا ! فقال : لا ، فقال له الشابُّ ثالثاً ، فقال مثله : كلٌّ منهما قال مثل ما قال أولاً وثانياً ، فقال له الشابُّ : هذا عجبٌ ! أنت صدوق . . وأنا أعرف قلبي وما فيه ؟! . فقال له الجنيد : صدقتَ في الأوَّل والثاني والثالث ، ولكنِّي أردتُ أن أمتحنك ؛ هل يتغير قلبك أولاً ؟! فوجدته لم يتغيَّر .

تعقيب : وقوله (لا) في كلِّ مرَّة !! ليس بكذب ، وإنما هو تعريضٌ ، ومعناه : لا يكفيني ذلك في الامتحان ، ومحلُّ الاستدلال على الفِراسة اطلاع الشابِّ على ما أضمره الجنيدُ ثلاث مرآت وتصديق الجنيد له على ما قال .

فتنة القرمطي : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله الرازيّ ؛ يقول : اعتل ابن الرَّقِّي : مرض ، فحمل إليه دواءٌ في قدح ، فأخذه ثم قال : وقع اليوم في المملكة حَدَث : أمر عظيم ، والله لا آكل ولا أشرب الدواء حتَّى أعلم ما هو ! : الحدث ، فورد الخبرُ بعدَه بأيَّام أنَّ القرمطيَّ دخل مكَّة في ذلك اليوم وقتل بها تلك المقتلة العظيمة .

مكاشفتان : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا عثمان المغربيَّ ؛ يقول : ذكر لابن الكاتب هذه الحكاية ؛ فقال : هذا عجُب !! فقلت : هذا ليس بعجب . فقال لي أبو علي ابن الكاتب : أيش خبر مكَّة حرسها الله تعالىٰ اليومَ ؟ فقلت : هو ذا تَحَاربَ الطَّلْحِيُّون : بنو طلحة وبنو الحسن ، ومقدم الطلحيِّين رجلٌ أسود عليه عمامة حمراء ، وعلى مكَّة اليوم غيمٌ على مقدار الحَرَم . فكتب أبو علي ابن الكاتب إلى مكة . . فكان الأمر كما ذكرت له .

توضيح : في ذلك مكاشفتان : **إحداهما** لابن الرقي ، **والأخرى** لأبي عثمان المغربي .

فراسة عثمان : ويروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ قال : دخلت على عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ؛ وكنت رأيت في الطَريق امرأة تأمَّلتُ محاسنها ، فقال عثمان رضي الله عنه : يدخلُ عليَّ أحدُكم وآثار الزنا ظاهرةٌ على عينيه !؟ فقلت له : أوحيٌ بعد رسول ﷺ ؟! قال : لا ؛ ولكن تبصرةٌ وبرهان ، وفِراسة صادقةٌ .

سمَّىٰ النظرة بشهوة « زنا » !! لخبر « زِنَا ٱلعَيْنَيْنِ ٱلنَّظَرُ . . وَٱلفَرْجُ يُصَدِّقُ ذٰلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ »[1] .

سائل بالحرم : وقال أبو سعيد الخراز : دخلتُ المسجد الحرام فرأيت فقيراً عليه خِرقتان يسأل الناس شيئاً ، فقلت في نفسي : مثلُ هذا في كونه عاجزاً سائلاً للناس كَلٌّ : ثقل على الناس !! فنظر إليَّ ؛ وقال ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[2] ! قال : فاستغفرتُ الله في سِرِّي وتبتُ إليه . . فناداني ؛

---

(١) متفق عليه . . أخرجه البخاري : ٦٣٤٣ ، ومسلم : ٢٠ ـ ٢٦٥٧ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الآية : ٢٣٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

وقال ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾[1] .

فيه مع دلالته على الفراسة جوازُ الطلب عند الحاجة لأرباب الأحوال .

فراسة الخوَّاص : وحُكي عن إبراهيم الخوَّاص أنَّه قال : كنتُ ببغداد في جامع المدينة ، وهناك جماعة من الفقراء ، فأقبل علينا شابٌّ ظريف طيِّبُ الرائحة حَسَن الحُرْمة - وفي نسخة : الخدمة ، وفي أخرى : الجُمَّةِ ، وهي مجتمعُ شعر الرأس - حَسَن الوجه ، فقلت لأصحابنا : يقع لي في نفسي أنَّه يهوديٌّ ! فكلُّهم كرهوا ذلك واستبعدوه ، فخرجتُ وخرج الشاب ، ثمَّ رجَع إليهم ؛ وقال : إيش قال الشيخُ فيَّ ؟! فاحتشموه أن يذكروا له ما قاله فيه !! فألحَّ عليهم فيه !! فقالوا له : قال فيك (إنَّك يهوديٌّ) . قال : فجاءني وأكبَّ على يديَّ وأسلم . فقيل له : ما السبب في ذلك ؟! فقال : إنَّا نجدُ في كُتُبنا أنَّ الصدِّيق لا تخطىءُ فِراسته . فقلت : أنا أمتحن المسلمين . فتأمَّلتُهم ؛ وقلت : إن كان فيهم صدِّيق ففي هذه الطائفة الصوفية ، لأنَّهم يقولون - وفي نسخة : يتلون - حديثَه : كلامَه سبحانه ، فلبَّستُ عليكم الأمر ، فلما اطلع هذا الشيخ عليَّ وتفَّرس فيّ ما قاله . . علمتُ أنَّه صدِّيق ، وصار الشابُّ من كبار الصوفيَّة . في ذلك مع دَلالته على الفِراسة أنَّ مَن اشتغل بكلام الله وعمل به بلَّغه اللهُ درجة الصدِّيقيَّة .

القلوب الميتة : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله بن إبراهيم بن العلاء ؛ يقول : سمعت محمد بن داود ؛ يقول : كنَّا عند الجُرَيري ؛ فقال : هل فيكم مَن إذا أراد الحقّ سبحانه أن يُحدث في المملكة حَدَثاً أعلمُه به قبل أن يبديَه ؟ : يظهره في الوجود !! قلنا : لا .

فقال : اِبكوا على قلوبٍ لم تجد من الله تعالى شيئاً ؛ لفقدها الفِراسة بفقد الاستقامة التي هي الإعراض عن الخلق ، وكمالُ الشغل بالحقِّ تعالى ، فلو اتَّصفت القلوبُ بذلك عاشت من موت الغفلة ، ووُجد فيها الإلهام الصحيح والخواطر الصائبة .

زيارة أو امتحان : وقال أبو موسى الدَّيْلمي : سألت عبد الرحمان بن يحيى عن التوكل

---

(١) الآية : ٢٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الشورىٰ .

فأجاب بالحال دون المقال ؛ فقال : لو أدخلتَ يدك في فم التنِّين وهو نوع من الحَيَّات حتَّى تبلغَ الرُّسغَ الذي هو محلُّ القطع[1] لا تخاف مع الله تعالى شيئاً غيره .

قال : فخرجت لأبي يزيد لأسأله عن التوكل وأسمعَ منه ما يقول فيه فدقَقْتُ عليه البابِ ؛ فقال لي مكاشفةً : أليس لك في قول عبد الرحمان كفاية ؟! فقلت له : افتح الباب . فقال لي مكاشفة ثانية : ما زرتني : ما جئتني زائراً ، بل سائلاً . . قد أتاك الجواب من وراء الباب . ولم يفتح لي الباب !

قال : فمضيت عنه ولبثت سنة ، ثم قصدتُه ؛ فقال مكاشفةً ثالثة : مرحباً ؛ جئتني زائراً !! . فكنت ـ : فمكثت ـ عنده شهراً أنتفع به ، فكان لا يخطر بقلبي شيء إلاَّ حدَّثني عنه ! فعند وداعه لي ؛ قلتُ له : أفدني فائدة !! فقال : حدَّثتْني أمِّي : أنَّها كانت حاملاً بي ، فكانت إذا قُدِّم لها طعام من حلال امتدت يدُها إليه ، وإذا كانت فيه شبهة انقبضت يدُها عنه .

فراسة وحفظ : تضمَّن ذلك الفراسة في مواضع كما عُلم ، والحثَّ على طلب الحلال ؛ فإنَّه من جملة أسباب تطهير القلب ، ليطلعه على المغيَّبات ، وقد حفظ الله أبا يزيد عن أكل ما فيه شبهة . . من حين كان في بطن أمِّه ، فإنَّ الولد يتغذَّىٰ من غذاء أمِّه ، فحفظه الله وهو في بطنها .

سرُّ الخوَّاص : وقال إبراهيم الخوَّاص : دخلت البادية وأنا سائر إلى مكَّة فأصابتني شِدَّة في الله تعالى ، فلما بلغتُ مكَّة داخلني شيء من الإعجاب والسرور بحالي ، وكوني قدرت على ما قاسيته من الشدَّة في البادية في اللهِ . . فنادتني عجوزٌ : يا إبراهيمُ ؛ كنتُ معك في البادية وقاسيتُ كما قاسيتَ . . ولم يداخلني شيء من الإعجاب ؛ فلم أكلِّمْكَ لأني لم أُرد أن أشغلَ سِرَّك بسماع كلامي ، لأنِّي كنتُ محجوبةً عنك فلو كلمَّتك لسمعتَ صوتي . . ولم ترني ؛ فتتشوَّش من ذلك !! أَخرج عنك هذا الوسواس : حديثك نفسك بما كنتَ فيه مما قاسيتَه في البادية .

عاقُّ أمِّه : وحُكي أنَّ الفرغاني كان يخرج كلَّ سنة إلى الحج ويمرُّ بنيسابور . .

---

(١) في إقامة حدِّ السرقة .

ولا يدخل على أبي عثمان الحيري !! قال : فدخلتُ عليه مرَّة وسلَّمتُ عليه فلم يردَّ عليَّ السَّلام ؛ فقلتُ في نفسي : مسلمٌ يدخلُ عليه ويسلِّم عليه . . فلا يردُّ سلامه !! وكان الفرغاني عاقاً لأمِّه بِحجِّه كلّ سنة نفلاً بغير رضاها ، فلهذا لم يردّ عليه أبو عثمان سلامه ؛ زجراً له حتَّى ينكفَّ عن ذلك كما أشار إليه ، فقال أبو عثمان مكاشفةً : مثل هذا يحجُّ ويدع أمَّه : يتركها لا يبرُّها !؟ قال : فرجعتُ إلى فرغانة بلدي ولزمتُها : فرغانة ؛ أو أمي بالبرِّ والخدمة حتَّى ماتت ، ثم قصدتُ أبا عثمان ، فلَّما دخلتُ عليه استقبلني ؛ وأجلسني عنده .

ثمَّ إنَّ الفرغاني لازمه وسأله سياسةَ دابَّته وخدمَتها ، فولاَّه ذلك فتولاَّه حتَّى مات أبو عثمان رحمه الله .

مكاشف الجنيد : وقال خيرٌ النسَّاجُ : كنت جالساً في بيتي فوقع لي : مكاشفة أنَّ الجنيدَ واقف بالباب فنفيتُ ذلك عن قلبي ، فوقع لي ذلك ثانياً فنفيتُه عن قلبي ، فوقع لي ثالثاً !! فخرجتُ فإذا أنا بالجنيد ! فقال لي مكاشفةً : لِمَ لَمْ تخرج مع الخاطر الأول !! .

توضيح : في ذلك دلالة على أن العارفين باللهِ . . إذا علَّقوا هِمَمهم بشيء فَعَله اللهُ لهم بقلوبهم ، لأنْ الحقّ تعالى يغارُ على قلوبهم أن تنشغل بغيره .

كراهية السؤال : وقال محمد بن الحسين البسطامي : دخلتُ على أبي عثمان المغربيِّ بشيء فقبله ، وكان ممن يقبل ما يأتيه بلا سؤال . فقلت في نفسي : لعلَّه يشتهي عليَّ شيئاً ؛ فيسألني فيه فأفوز بقضائه !؟ فقال أبو عثمان مكاشفةً : لا يكفي الناس أن آخذ منهم حتَّى يريدوا مسألتي إيَّاهم !! .

فيه تنبيهٌ على أنَّ السؤال شديدُ الكراهة ، وأنَّ تركه أفضلُ لمن تيسَّر له .

فراسة المرتعش : وقال بعضُ الفقراء : كنتُ ببغداد فوقع لي في قلبي أني تمنَّيتُ أن المرتعش يأتيني بخمسة عشر درهماً لأشتريَ بها آلة السَّفر إلى الحج : الركوة ، والحبل ، والنعل ، وأدخل البادية . قال : فدُقَّ عليَّ البابُ ؛ ففتحتـه فإذا أنا بالمرتعش معه خُرَيقة[1] فيها دراهم ! فقال لي : خذها . فقلتُ له : يا سيِّدي ؛

---

(١) تصغير (خرقة) وهو تصغير تحقير ، لأن الخرقة ليس لها حدُّ كبر وصغر . ويصحَّ أن تقرأ (خريطة » لو ساعدها الرسم .

لا أريدها . فقال لي مكاشفةً : فلم تؤذينا بتمنِّيك ماأطلعني الله عليك وأتيتك به !! كم أردتَ من الدراهم ؟ فقلتُ : خمسة عشر درهما . فقال لي خذها : هي خمسة عشر درهماً .

فيه دلالة على صحَّة فراسة المرتعش ومكاشفته لما وقع في قلب الفقير ، وعلى صدق الفقير فيما أتاه به المرتعش حتَّىٰ حَّرك الله قلبَه وأتىٰ به إلى بابه .

حياة الذهن : وقال بعضُهم في تفسير قوله تعالى ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ . . الآية[1] : ميت الذِّهن ـ وفي نسخة : الذكر ـ فأحياه الله بنورِ الفراسة ، وجعل ـ وفي نسخة : ويجعل ـ له نورَ التجلِّي والمشاهدة وهو بذلك لا يكون كمن يمشي بين أهل الغفلة غافلاً ! وذلك لأنَّ الغفلةَ موتٌ . . واليقظة حياة ، والجهل موت وظلمة . . والفراسة حياة ونور ، ونور المكاشفة أفضلُ الأنوار ، لأنَّ اللهَ إنَّما يخصُّ به أولياءه .

صحَّة الفراسة : وقيل : إذا صحَّت الفِراسة اُرتقى صاحبها إلى المشاهدة والمعاينة .

اليهودي المتفحِّص : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمد بن الحسين البغدادي ؛ يقول : سمعتُ جعفر بن محمد بن نصير ؛ يقول : سمعت أبا العبَّاس ابن مسروق ؛ يقول : قدم علينا شيخٌ فكان يتكلَّم علينا في هذا الشأن : طريق الصوفية بكلام حَسَن ، وكان عذب اللسان جيِّد الخاطر ، فقال لنا في بعض كلامه : كلُّ ما وقع لكم في خاطركم فقولوه لي ؛ لأعرف ما عندكم وأجيبكم عنه !! فوقع في قلبي أنَّه يهوديٌّ ، وكان الخاطر يقوىٰ عليَّ بذلك ؛ ولا يزول عني ، فذكرت ذلك للجُرَيري فكَبُر : عظم عليه ذلك ! فقلت : لا بدَّ أن أُخبر الرجل : الشيخَ بذلك !! فقلت : إنَّك تقول لنا (ما وقع لكم في خاطركم ، فقولوه لي) . . إنَّه يقعُ لي في خاطري (أنَّك يهودي) .

فأطرق ساعةً ثمَّ رفع رأسه ؛ وقال : صدقتَ . . أشهد أن لا إله إلاَّ الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وقال بعد إسلامه : قد مارستُ : عالجت جميعَ المذاهب : الطرق : أهلَها وكنت أقولُ (إن كان مع أحدٍ ـ وفي نسخة : مع قوم

---

(١) الآية : ١٢٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

منهم - شيءٌ ؛ فمع هؤلاء) . فداخلتكم لأختبركم ! فأنتم على الحق . فبذلك أسلم وحَسُن إسلامه .

هذه قريبة من الفراسة التي وقعت في الشاب الظريف أنَّه يهودي ص٦٩٣ .

الجنيد الواعظ : ويحكى عن الجنيد أنَّه كان يقول له شيخه السريُّ : تكلَّم على الناس وذكِّرهم !! فقال له الجنيد : لا أستحقُّ ذلك عندي ، وكان في قلبي حِشمة : مهابة من الكلام على الناس ، فإنِّي كنتُ أتَّهم نفسي في استحقاق ذلك ، فرأيت ليلةً النبيَّ ﷺ في المنام ؛ وكانت الليلة ليلةَ الجمعة ، فقال لي : « تكلَّم على الناس » . فانتبهتُ وأتيت بابَ السريِّ قبل أن أُصبح فدققتُ عليه الباب ؛ فقال لي مكاشفةً : لَمْ تصدِّقنا حتَّىٰ قيل لك !!: قال لك النَّبيُّ ﷺ ما قلناه لك !! فقعد للناس في الجامع في الغد ، فانتشر في الناس أنَّ الجنيد قعد يتكلَّم على الناس ، فوقف عليه غلامٌ نصرانيٌّ متنكِّراً ؛ وقال له : أيُّها الشيخ ؛ ما معنى قول رسول الله ﷺ «اِتَّقُوا فِراسَةَ ٱلْمُؤْمِنِ ، فَإِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ يَنْظُرُ بِنُورِ ٱللهِ تعالى»؟! فأطرق الجنيد ثمَّ رفع رأسه إليه ؛ وقال له مكاشفةً بأنَّه نصراني ، وأنَّه حانَ وقت إسلامه : أَسلِم فقد حان : قرب وقت إسلامك . فأسلمَ الغلام وحسن إسلامه .

* * *

٣٣ ـ باب الخلُقُ

معناه : بسطُ الوجه ، وكفُّ الأذىٰ ، وبذل النَّدى . . ويقال غير ذلك ؛ كما سيأتي .

رتبته : وهو ممدوح ومطلوب ، قال الله تعالى في حقِّ النبيِّ ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] .

---

(١) الآية : ٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : نٓ .

الأحسن خُلُقاً : أخبرنا عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أبو الحسن الصفَّار البصري ؛ قال : أخبرنا هشام ـ وفي نسخة : تمتام ـ بن محمد بن غالب ؛ قال : حدَّثنا معلى بن مهدي ؛ قال : حدَّثنا بشَّار بن إبراهيم النميري ؛ قال : حدَّثنا غيلان بن جرير ؛ عن أنس ؛ قال : قيل : يا رسول الله ؛ أيُّ المؤمنين أفضل إيماناً ؟ قال : « أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً »[1] ؛ بأن يتخلَّىٰ عن الأخلاق الذَّميمة ؛ كالشَّرَه والرِّياء والعُجْب والكِبر والحسد ، ويتحلَّىٰ بالأخلاق الحميدة ؛ كالقنع والورع والزهد والتوكل والرضا . . فيصل إلى أفضل المناقب .

أفضل المناقب : إذ الخُلُق الحَسَن أفضل مناقب العبد ، وبه يظهر جواهر الرجال ، والإنسان مستورٌ بخَلقه : بصرف أفعال أعضائه لما خلقت له ، مشهورٌ بخُلُقه .

الثناء بالخُلُق : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : إنَّ الله سبحانه خصَّ نبيَّه ﷺ بما خصَّه به مما هو معلومٌ ، ثمَّ لم يُثْنِ عليه بشيء من خصاله الحميدة التي اتصف بها . . بمثل ما أثنى عليه بخُلُقه ؛ فقال عزَّ من قائل ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

توضيح : وقال الواسطيُّ : وصفه اللهُ بالخُلُق العظيم !! لأنَّه جاد بالكونين : بحظِّ الدنيا وحظِّ الآخرة ، فلم يقفْ عند شيء منهما لاشتغاله بربِّه ، واكتفى بالله تعالى ، ولهذا كان أفضلَ الخلق ، وقال : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ ، وَآدَمُ . . وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي وَلاَ فَخْر »[2] .

الخلق العظيم : وقال الواسطيُّ أيضاً : الخُلُق العظيم أن لا يخاصم العبدُ غيرَه ، ولا يخاصم بأن يعفوَ عمن يخاصمه ، وذلك من شِدَّة معرفته بالله عزَّ وجلَّ .

معناه : وقال الحسين بن منصور : معناه : الخلق العظيم أنَّه لم يؤثِّر فيك جفاءُ

---

(١) أخرجه أبو داود : ٤٦٨٢ ، وأحمد : ٢/ ٢٥٠ ومواضع ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه : « أَكْمَلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِيْماناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً » .
ولابن ماجه : ٤٢٥٩ ؛ وغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنه في أنصاريّ سأله : يا رسول الله ؛ أيُّ المؤمنين أفضل ؟ قال : « أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً » . . .

(٢) تقدم تخريجه ص ٣١٠ .

الخلق بعد مطالعتك الحقَّ ؛ بأن تُعرِض عن الأسباب وتنظرَ إلى مسبِّبها .

وقال أبو سعيد الخراز : معناه أنَّه لم يكن لك هِمَّة غيرُ الله تعالى ؛ بأن يفرده تعالى بأعماله في كلِّ حال .

ميزان التصوُّف : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت الحسين ابن أحمد بن جعفر ؛ يقول : سمعت الكَتَّاني ؛ يقول : **التصوُّف خُلُق حسن . . مَن زاد عليك بالخُلُق الحسن ؛ فقد زاد عليك في التصوُّف** . لأنَّ التصوُّف مأخوذٌ من الصفاء من الكُدُورات ، والاتصاف بأفضل المأمورات والخُلُق الحَسَن في معنى ذلك .

العتق للشتم : **ويروى** ـ وفي نسخة : ورُوي ـ **عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه قال : إذا سمعتموني أقول لمملوك لي (أخزاه الله تعالى) فاشهدوا عليَّ أنَّه حرٌّ** .

كره رضي الله عنه أن يجريَ على لسانه الخزيُ ، لكونه عبارةً عن دخول النار ، والبعد من لطف الله ورحمته ، فإذا أراد العبد أن يداويَ نفسَه لكثرة سهوه فليعزم على أنَّه متى وقع له سهو . . عاقب نفسه بما يؤلمُها من فراق محبوباته .

كمال الإحسان : **وقال الفضيل : لو أنَّ العبد أحسن الإحسان كلَّه وكانت له دجاجة فأساء إليها . . لم يكن من المحسنين الكاملين** ، لأنَّ كمال الإحسان أن لا يكون منه إساءة على أحد ؛ فيبدَأُ بنفسه فيما بينه وبين ربِّه . . ثمَّ بينه وبين خلقه .

أسير الدنيا : وقد قيل للجنيد : ما تقول فيمن لم يبقَ عليه من شهوات الدنيا إلَّا مصّ نواة !؟ فقال : « اَلْمُكَاتَبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دِرْهَمٌ »[1] .

المخدوع بالله : **وقيل : كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا رأىٰ واحداً من عبيده يُحسن الصلاة يعتقُه ، فعرفوا ذلك من خُلُقه . . فكانوا يحسنون الصلاة مراآة له ، وكان يُعتقُهم . فقيل له في ذلك! فقال : مَن خَدَعنا في الله انخدعنا له** .

---

(١) تقدم ذلك ص ٤٠٩ ، وص ٥٩٩ ، وص ٦٥٣ ، وسيأتي .

ولم يلتفت لقول القائل ، ولما نقله إليه من أنَّ فعلَهم رياءٌ ، وبقيَ على حُسن ظنِّه ؛ نظراً لظاهر عملهم . . من أنَّهم أرادوا به الله . وفيه مع ذلك دَلالة على حُسن خلقه وقلَّة قَدْر الدنيا في عينه ، وسهولة إخراجها عليه .

الثلاثة المفقودة: سمعت محمد بن الحسين؛ يقول: سمعت محمد بن عبد الله الرازي ؛ يقول: سمعت أبا محمد الجُرَيري ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : سمعت الحارث المحاسبيَّ يقول : فقدنا ثلاثةَ أشياء : ١ـ حسنَ الوجه مع الصيانة : العفاف والسلامة من العجب والكبر ، و٢ـ حسن القول مع الأمانة ، و٣ـ حسن الإخاء : المؤاخاة : في الله بأن تخلُف أخاك في غيبته ، وتقوم بحقِّه في حضرته ، وتنصحَه إن رأيت منه زللاً ، وتُعينَه . . إن رأيتَ منه خيراً ، ولا تبخل عليه بشيء ، وتتحمَّل ما يبدو منه ، المأخوذ ذلك من آية ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾[1] ونحوها . . مع الوفاء بالعهد المأمور في قوله ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ﴾[2] ونحوه .

الخلق الحَسن : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن محمد الرازيَّ ؛ يقول : الخُلُق الحسن : استصغار ما يحصل منك من الطاعات ، واستعظام ما يصلُ منه تعالى إليك ، لأنَّك إذا رأيتَ ما منك حقيراً بالنسبة إلى الله . . أخلصت ، وتبرَّأتَ من حولك وقوَّتك في إيقاعه ، وإذا رأيت ما منه إليك عظيماً . . بالغت في شكره ، ورأيت نفسك عاجزاً عن القيام به .

أستاذ الحلماء : وقيل للأحنف بن قيس : ممَّن تعلَّمت الخُلُقَ الحسن ؟! فقال من قيس بن عاصم المِنْقَري . فقيل له : وما بلغ من حُسْن خلقه ؟ قال : بينا هو جالس في داره . . إذ جاءت خادم : جارية له بسُفُّود ـ : حديد يشوى به اللحم ـ عليه شِواء فسقط من يدها وهو حارٌّ . . فوقع على ابن له فمات بذلك ، فدَهِشَت الجارية . فقال مُطَمْئِناً لها : لا روعةَ : فزعة عليك ، أنتِ حُرَّة لوجه الله تعالى .

توضيح : عَلِم سيِّدُها أنَّها كانت مغلوبة فعفا عنها ، ثم كَمَّل لها التَّطمين بتحريرها !

---

(١) الآية : ١٩٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

(٢) الآية : ٣٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

وهذا يدلُّ على كمال علمه بالله ، ونظره لقَدَره ، وأنَّ الآجال لا تتقدَّم ولا تتأخَّر ، وأنَّ ولده لا بدَّ من موته بما ذكر ، وهذا كلُّه من الأخلاق الحميدة .

علامة الخُلُق : وقال شاهٌ الكِرمانيُّ : علامةُ حسن الخلق : ١ـ كفُّ الأذى ، و٢ـ احتمالُ المُؤَن ؛ لأن الأوَّل يدلُّ على الكرم والجود ، والثاني على الصبر والشجاعة ، وكلٌّ منهما من أشرف الأخلاق .

التوسع بالناس : وقال النَّبيُّ ﷺ : « إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا ٱلنَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ ؛ لعُسر ذلك عليكم في كثير من الأوقات . . فَسَعُوهُمْ بِبَسْطِ ٱلوَجْهِ وَحُسْنِ ٱلخُلُقِ »[1] . فينصرفون عنكم وهم راضون ، بخلاف مَن يكون معبِّس الوجه سيِّء الخُلُق .

الأكثر همّاً : وقيل لذي النُّون المصريِّ : مَن أكثر الناس همّاً ؟! قال : أسوأُهم خُلُقاً ؛ لأنَّ مَن ساء خُلُقه عَدِم الصبرَ على ما ابتُلِي به ، وساءت معاملته لمن يعامله من الخلق ، ولا يزال في هَمٍّ وكرب فيما يخالف غَرَضَه ، فسوء الخُلُق يرجع ضرره على صاحبه ؛ في دينه ودنياه ، وحُسْن الخُلُق يكون صاحبه في تنعُّم وراحة في دنياه وأخراه .

التطبُّع بالأخلاق : وقال وهب : ما تخلَّق عبد بخلق حَسَن أربعين صباحاً إلاَّ جعله اللهُ طبيعة : يعني عادة فيه . . لا يتغيَّر لما وجد فيه من اللذَّة ، فمن جاهد نفسه لينقلَها من خُلُق ذميم إلى خُلُق حميد . . وصبر على ذلك أربعين يوماً ؛ صار له عادة حسنة ، وحببها الله إليه ، ووجد بركة ذلك الخُلُق في الدنيا والأخرى .

الثوب الطاهر : وقال الحسن البِصريُّ في قول الله تعالى ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ : وخُلُقَك فحسِّنْ . ولهذا لم يزل ﷺ مستعمِلاً للخلق الشريف .

غامُّ الشيطان : وقيل : كان لبعض النُّسَّاك : العُبَّاد شاة ؛ فرآها على ثلاث قوائم والرابعة قُطعت ، فقال : من فعل هذا بها ؟ فقال غلامٌ له : أنا فعلتُه . فقال :

---

(١) أخرجه الحاكم : ١/١٢٤ ؛ وصحَّحه ، وأبو يعلىٰ : ٦٥٥٠ ، والبزار : ١٩٧٧ ، وابن أبي شيبة ؛ كما في « المطالب » : ٢٥٣٩ ، وأبو نعيم : ١٠/٢٥ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

لَم فعلتَه !! فقال : لأُغِمَّكَ بها . فقال : لا أُغمُّ بها ، بل أنا لأَغُمَّنَّ مَن أَمرك بذاك . . وهو الشيطان ؛ فإنَّه يأمر بالفحشاء ، اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله تعالى . فأغاظ بها مَن أمره بذلك ، وهذا غايةٌ في احتمال الأذى والعفو .

يفرح بالدنيا : وقيل لإبراهيم بن أدهم : هل فرحتَ في الدنيا قطُّ ؟ فقال : نعم فرحتُ مرَّتين : إحداهما كنت قاعد ذات يوم فجاء إنسان وبال عليَّ ، والثانية : كنت قاعداً فجاء إنسان وصفعني . فَرَحُه بذلك كان لصنع الله ، وللرضا بما أجراه عليه مولاه ، لا لمعصية البائل والصافع ، وتقدَّمت المرَّة الأُولى مع ما يتعلَّق بها في أواخر (باب الخشوع والتواضع) ص ٤٩١ .

أويس والصبيان : وقيل : كان أويسٌ القَرَني إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة لاعتقادهم أنَّه مجنون ، فيقول لهم : إن كان لا بدَّ من رميي فارموني بالصِّغار منها كي لا تدقُّوا ساقي فتمنعوني عن الصلاة قائماً ! .

هان عليه احتمال الأذىٰ في الله ؛ لكنَّه خشي من أن يرموه بحجر كبير فيكسر ساقه فيتعذَّر عليه الصلاة قائماً .

شاتم الأحنف : وشتم رجلٌ الأحنف بن قيس وهو يسمعه ؛ وكان يتبعه ويسبُّه ولا يكافئه عليه ، فلما قَرُب من الحيِّ ـ : قومِه ـ وقف ؛ وقال له : يا فتى ؛ إن كان قد بقي في قلبك شيء تقوله فيَّ فقله ؛ كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيجيبوك . ـ وفي نسخة : فيؤذوك ـ .

فيه دلالة على حسن خلقه واحتمال الأذى وشفقته على الخلق .

احتمال الخطأ : وقيل لحاتم الأصمِّ : أيحتمل الرجل الخطأ مِن كُلِّ أحد ؟! فقال : نعم يحتمله ـ أي : ينبغي له أن يحتمله ـ من كلِّ أحد ليؤجَر عليه إلاَّ الخطأ من نفسه ، فلا ينبغي له أن يحتملَه منها ، بل ينبغي له أن يؤدِّبها ويزجرها عن ذلك ، وإلاَّ قاده ذلك إلى العذاب الأليم .

أمنت عقوبتك : ورُوي أن أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه دعا غلاماً له فلم يجبه ، فدعاه ثانياً . . وثالثاً فلم يجبه ! فقام إليه فرآه مضطَجعاً !! فقال له : أما تسمع يا غلام دعائي لك ؟! فقال : نعم ـ وفي نسخة : بلى ـ قال له :

فما حملك على ترك جوابي ؟ قال : أمنتُ عقوبتك فتكاسلت . فقال له : أمض فأنت حرٌّ لوجه الله تعالىٰ . أَحسنَ إليه بتحريره . . إما مكافأة على إساءته لتكثير الأجر ، ولئلا يفوتَ عليه بتكرُّر ذلك منه انتفاعُه به في دنياه ؛ فانتفع به في أخراه .

سارقة الكرخي : ويقال : نزل معروفٌ الكرخيُّ الدِّجلةَ ليتوضَّأَ ووضع مصحفه ومِلْحَفته على شاطىء الدِّجلة ، فجاءت امرأة واستغفلته وحملتهما ومضت بهما ، فتبعها معروفٌ برِفق ؛ وقال لها : يا أختي ؛ أنا معروفٌ ولا بأس عليك من جهتي ، ألكِ ابنٌ يقرأ القرآن ؟! قالت له : لا . قال : فزوجٌ كذلك ؟! قالت : لا . قال : فهاتِ المصحف وخذي الثوب . ـ وفي نسخة : المِلْحفة ـ لغَلَبة ظنِّه أنَّها ما أخذتهما إلاَّ لحاجة ! ففي ذلك حُسنُ الظنِّ بالمسلمين أنَّهم إنَّما يأخذون من أموال الناس ما دعت حاجتُهم إليه .

يُعرِض عن سارقه : ودخل اللصوص مرَّة دار الشيخ أبي عبد الرحمان السُلَّمي رحمه الله بالمكابرة والتغلُّب ، وحملوا ما وجدوا فيها من الأموال ، فسمعتُ بعض أصحابنا ؛ يقول : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان ؛ يقول : اجتزتُ مررت مرَّةً . . بالسوق فرأيتُ جُبَّتي على « من يزيد »[1] فيها ليشتريها ، فأعرضتُ عنه ولم ألتفت إليه . ـ وفي نسخة : إليها ـ .

توضيح : فعل ذلك !! إمَّا سَتْراً على سارِقِها ، أو لكونه كان احتسَبَها عند الله لمَّا سرقت ؛ فكَرِه أن يرجع فيما تركه للهِ ، وكلٌّ منهما يدلُّ على كمال زهده في الدنيا ، وشفقته وسَتْره على الخلق ، وهو غايةٌ في الأخلاق الحميدة .

فضلك وحقُّك : سمعت الشيخ أبا حاتِم السجستانيَّ ؛ يقول : سمعت أبا نصر السِّراجَ الطوسِيَّ ؛ يقول : سمعت الوجيهيَّ ؛ يقول : قال الجُريري : قدمتُ من مكَّةَ حرسها الله تعالى . . فبدأت بالجنيد : بالسلام عليه لكي لا يتعنَّىٰ ـ: يتعب بمجيئه ـ إليَّ فسلَّمتُ عليه ، ثمَّ مضيتُ إلى المنزل ، فلما صلَّيتُ الصبح في

---

(١) هو ما يسمَّىٰ « المزاد العلني » وقد فعله النَّبيُّ ﷺ في الذي جاء يسأل فأمره ببيع ما عنده ثم الاحتطاب .

المسجد . . إذا أنا به خلفي في الصف ، فقلتُ له : إنَّما جئتُك أمسِ لئلاَّ تتعنَّىٰ بمجيئك إليَّ !! فقال : ذاك فضلُك وهذا حقُّك عليَّ ، إذ حقُّ المسافر إذا قَدِم أن يزوره المقيمُ ويسلِّم عليه ، لأنَّه معذور بوعثاء السفر ، فلم يترك الجنيدُ حقَّه بتفضيله بابتداء السلام عليه .

تعريف الخُلُق : وسئل أبو حفص عن الخُلُق ؟ فقال : هو ما اختار الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه ﷺ في قوله تعالى ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ ﴾[1] . وقد سأل ﷺ جبريل عن تفسيرها ؛ فقال : حتَّىٰ أسألَ العالِم ـ يعني : الله ـ فسأله ، فقال له ﴿ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ ، وَٱعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ﴾ .

حال العارف : وقيل : الخُلقُ أن تكون أنت من الناس قريباً ؛ بأن تأكل ممَّا يأكلونُه ، وتخالطهم ببدنك فيما يحبُّونهم . . وتكون فيما بينهم غريباً ؛ بأن لا توافقهم بقلبك ، إذ الغريبُ مَن لا شبيه له ولا قريب ، وذلك بأن تكون مشغولاً بكلِّيَّتك باللهِ ، كما هو حال العارف .

قبول الوارد : وقيل : الخُلُق قبولُ ما يردُ عليك مِن جفاء الخَلْق وقضاءِ الحقِّ تعالى ؛ بأن تكون راضياً بكل ما يَرِدَ عليك منهما . . بلا ضجر ؛ ولا قلق ؛ ولا كراهة .

علاج الغضب : وقيل : كان أبو ذَرٍّ رضي الله عنه على حوض يسقي إبلاً له ، فأسرع بعض الناس إليه إبلَه : أدخلها عليه عند الحوض للشرب فانكسر الحوض فغضب ، وكان قائماً فجلس ؛ ثم اضطجع !! فقيل له في ذلك ! فقال : إنَّ رسول الله ﷺ أمرنا إذا غضب الرجل أن يجلس ، فإن ذهب عنه !! وإلاَّ فليضطجع[2] . وذلك لينكسر غضبه كما ينكسر بالماء إذا توضَّأ به ، لأنَّ الغضب من الشيطان ؛ والشيطانُ خُلِق من النار ، ومنشأ الغضب الحِدَّة والكِبْر

---

(١) الآية : ١٩٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف . انظر ما تقدم ص٦٧٢ .
أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ؛ مرسلاً وله شواهد ، وقد أخرجه ابن مردويه مرفوعاً ؛ عن جابر وقيس بن سعد رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه أحمد : ٤/ ١٥٢ ، وأبو داود : ٤٧٨٣ ، وابن حبان (الإحسان : ٥٦٨٨) ؛ عن أبي ذر : « إن رسول الله ﷺ قال لنا : « إذا غَضِبَ أَحَدُكُم وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ ٱلغَضَبُ . . وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ » .

والأَنَفة ، فيقابل ذلك بالتواضع ؛ فيكسر الغضب تارة بالماء ، وتارة بالجلوس من قيام ، وتارة بالاضطجاع من جلوس . . كلُّ ذلك نزول إلى الأرض ، وتنبيهٌ على أنَّه منها خُلق وإليها مآله .

﴿ اذكرني أذكرك ﴾ : وقيل : مكتوبٌ في « الإنجيل » : **﴿ يَا عَبْدِي ؛ أُذْكُرني حِيْنَ تَغْضَبُ أَذْكُرْكَ حِيْنَ أَغْضَبُ ﴾** وهو يوم القيامة ، وذلك لأنَّ العبد إذا غضب تخلخل عقله ، وتعدَّىٰ حدود الله غالباً ، فإذا تثبَّتَ وذكر حقَّ الله . . انكسر غضبُه ولم يعمل بمقتضاه ، فيرحمُه اللهُ عند غضبه يوم القيامة على مَن خالفه ، كما جاء في خبر المحشر : أنَّ كلَّ نبيٍّ إذا أتاه النَّاسُ يسألونه الشفاعة حتَّىٰ يريحَهُم اللهُ من المحشر ، فيقولُ كلُّ نبيٍّ : « إنَّ ربِّي غضبَ اليومَ غضباً لم يغضبْ قبلَه مثلَه ، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه » !! حتى يأتوا محمَّداً رسول الله ﷺ ، فيخرُّ ساجداً لله تعالى فيؤذَنُ له بالشفاعة . فهذا هو يومُ الغضب .

تزكية امرأةٌ : وقالت امرأةٌ لمالك بن دينار : يا مرائي . وكأنَّه كان يعرف من التفاته إلى الخلق ، وسكونه إلى أعماله ونحوهما مما يعدُّه العارفون رياءً ما لا يعرفه غيرُه من الناس ؛ فقال لها : يا هذه ؛ وجدت ـ : عرفت ـ اسمي الذي أضلَّه أهلُ البصرة : ضاع منهم فلم يعرفوه .

تحقُّق الدعاوىٰ : وقال لقمان لابنه : لا تُعرَف ثلاثةٌ : إلاَّ عند ثلاثة : ١ـ الحليم عند الغضب ، و٢ـ الشجاع عند الحرب ، و٣ـ الأخ عند الحاجة إليه . . في ماله ؛ أو جاهه ، لأنَّ الغالب على النفوس الدَّعاوىٰ ، فإذا جاء وقتُ التحقيق . . ظَهَر صدقُها وكذبُها ، فالعبرةُ بالتحقيق ؛ لا بالدعاوي .

رغبة موسوية : وقال موسى عليه السلام : يا إلهي ؛ أسألك أن لا يقال لي ما ليس فيَّ . فأوحىٰ الله سبحانه إليه ﴿ ما فعلتُ ذلك لنفسي فكيف أفعله لك !! ﴾ .

توضيح : ليس ذلك لقصور قدرته !! تعالى عن ذلك عُلُوّاً كبيراً ، بل لأنَّ ما سبق في علم الله لا بدَّ من وقوعه ، فذلك إنَّما هو إخبارٌ منه عمَّا سبَق في علمه لا غير ، وعليه يحملُ قوله ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[1] ، وقوله ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا

---

(١) الآية : ٣٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإنسان ، و : ٢٩/ التكوير .

﴿فَعَلُوهُ﴾[١] ، فلو أراد الله تعالى أن لا يكفُرَ به أحدٌ لصحَّ ؛ ولم يقع كفر ! لكن لما سبق علمُه أنَّه لا بدَّ من الكلام فيه وفي رسوله ، ومِن الكفر بهما . . استحال أن يقع خلافُه .

تكميل : ومحلُّ الاستدلال أنَّ موسى عليه السلام سأل ربَّه تعالى أن يكون كاملَ الأخلاق حتَّى لا يُتكلَّم فيه ، فأعلمه اللهُ أنَّه قد سبق في علمه أنَّه لا بدَّ أن يُتكلَّم فيك ؛ وإن كَمُلت أخلاقك . فأعرض عن الخلق واشتغل بي ؛ فهو أكرم أخلاقك ، والله قادرٌ على كلِّ ممكن .

يتعلم بغلامه : وقيل ليحيى بن زياد الحارثي . . وكان له غلامُ سوءٍ سيِّءُ الخلق : **لِمَ تمسكُ هذا الغلام ؟! فقال : لأتعلَّم عليه الحلم** . بأن أتعوَّد الصبر بصبري على أخلاقه ، والعفوَ عن زلله ، وهذا عند الحاجة إلى خدمته ، وإلاَّ ! فالبعدُ عن مخالطته أولىٰ ، فإنَّها ربَّما تجرُّ إلى الوقوع في العَطَب عند تحرُّك الغضب مع عدم الحاجة .

النعم السابغة : وقيل في معنى قوله تعالى ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[٢] : **النِّعمُ الظاهرة تسويةُ الخَلْق ، والباطنة تصفيةُ الخُلُق** . هذا مدحٌ لمن كَمَّل الله له النِّعمتين ، والثانيةُ هي الأصل ، لخبر : « أَلاَ . . وَإِنَّ فِي ٱلجَسَدِ مُضْغَةً ؛ إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ ٱلجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ ٱلجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِيَ ٱلقَلْبُ »[٣] .

وإنَّما كانت تلك ظاهرةً . . وهذه باطنةً !! لأنَّ تلك مكشوفةٌ ينظرُها كلُّ راءٍ ببصره ، وهذه لا يعرفُها ولا يتَّصفُ بها إلاَّ العلماءُ الراسخون .

أَمْيَزُ الصاحبين : وقال الفضيلُ بن عياض : **لأَن يصحَبني فاجرٌ حَسَن الخلق أحبُّ إليَّ مِن أن يصحبني عابدٌ سيِّءُ الخُلُق** ، لأنَّ الأوَّل عاصٍ ، فإذا أمرتُه بالطاعة وزجرتُه عن المعصية . . كان في حُسْن خُلُقه ما يحمل ما يَرِدُ عليه مني ، ويرجع إلى الحقِّ إذا عَرَفه ، والثاني حظُّه من عبادته الذّكر وكثرة الصوم

---

(١) الآية : ١١٢ و١٣٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

(٢) الآية : ٢٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : لقمان .

(٣) تقدم تخريجه ص ١٣٤ ، ٢٢٦ ، ٦٤٠ .

والصلاة ونحوها ، وحرصُه على الدنيا وغضبُه على ما يخالف هواه شديدان ، فإذا نهيتَه عمَّا هو عليه من سُوء الخُلُق في ذلك . . اغتر بظاهر عبادته ، ولا يقبل ما دُعي إليه مما ينفعه . وربَّما قَبِل في وقت ، وإذا خولف في آخر في بعض أغراضه . . ثار لقضاء شهوته وشِدَّة غضبه ثَوَرانَ الأسد ، وأقلُّ أحواله العِنادُ ، وعدمُ رجوعه إلى الحق ، وعسرُ السَّلامة معه . . عكسَ الأول .

المداراة والمداهنة : **وقيل : الخُلُق الحَسَن احتمالُ المكروه** الذي ينزل به **بحسن المداراة** ؛ بترك حظِّه من الدُّنيا لغيره ، وتحمُّله أذاه مِن غير إفراط ولا تفريط ، لأنَّه متى أفرط في المداراة حتى وقع في المداهنة . . وقع في الضرر الأُخروي ، ومتى فرَّط فيها وقع في الضَّرر الدُّنيويِّ ، فالمداهنة تشبهُ المداراة من حيث كونُها سياسةً ، إلاَّ أنَّها تكون مع التفريط في الدين ؛ والمداراةُ مع الإهمال لبعض الدنيا .

أصبتني وأصبتك : **وحُكي أنَّ إبراهيم بن أدهم خرج إلى بعض البراري . . فاستقبله جنديٌّ ، فقال** له : **أين العُمرْان ؟ فأشار إلى المقبرة** . لأنَّها أوَّل منازل الآخرة ، وهي التي تعمَّر بالأعمال الصالحة ، فظنَّ الجنديُّ أنَّ ذلك استهزاءٌ به ، **فضرب رأسه وأوضحه**[1] ، **فلما جاوزه . . قيل له : إنَّه** ـ: الذي ضربتَه ـ **إبراهيم بن أدهم ؛ زاهدُ خراسان !! فجاء يعتذرُ إليه** من جنايته عليه لكونه لم يعرفه . **فقال** له : **إنك لمَّا ضربتَني سألتُ الله تعالى لك الجنَّةَ . فقال** له : **لِمَ !؟ فقال : علمتُ أنِّي أُوجَر عليه ، فلم أُردْ أن يكونَ نصيبي منكَ الخيرَ ، ونصيبُك مني الشرَّ** .

توضيح : هذا من حُسْن الأخلاق . . حيث أحسن لمن أساءَ إليه ؛ فضلاً عن العفو عنه ، وهذا كما نُقل عن بعضهم[2] أنَّه قيل له : (فلان اغتابك !) فأخذ طَبَقاً وجعل فيه فاكهة ، وأهداه إليه ؛ ثم قال له : انقلبتُ منك بخيرٍ . . فكرهتُ أن تنقلبَ منِّي بشرٍّ !! وهذا هو الذي قصده إبراهيم .

---

(١) بلغ بهذه الشجة العظم فأظهره ؛ وهي المسماة (المُوْضِحة) ، وفي الخطأ منها نصف عشر الدية على العاقلة .

(٢) هو الحسن البصري كما ذكره المؤلف في باب الغيبة ص ٥١٠ .

ممتحن الحيري : وحُكي أنَّ أبا عثمان الحيريَّ دعاه إنسان إلى ضيافة ، فلما وافى بابَ داره . . دخلها الداعي في صورة مَن يهيِّءُ لأبي عثمان الدخول ، ثمَّ خرج ، فلما وصل إليه ؛ قال له : يا أستاذ ليس الآنَ وقتُ دخولِك وقد ندمتُ على دعائي لك في هذا الوقت ؛ فانصرفْ . فرجع أبو عثمان ، فلما وافى منزله عادَ إليه الرجل مرَّة أخرى ؛ وقال له : يا أستاذ ؛ ندمتُ على قولي لك (ليس الآن وقت دخولك) . . إلى آخره ، وأخذ يعتذرُ إليه ؛ وقال : أُحْضُر الساعة . فقام أبو عثمان ومضى معه ، فلما وافى بابَ داره . . قال له مثل ما قال في الأُولى !! ثم كذلك فعل في الثالثة والرابعة ، أي قال مثل ذلك . . وأبو عثمان ينصرف ويحضر ، فلما كان بعد مرَّاتٍ كما ذُكر . . قال : يا أستاذ ؛ أردتُ اختبارك !! وأخذ يعتذرُ ويمدحُه ، بأنَّه حَسَن الخُلُق . فقال له أبو عثمان : لا تمدحْنِي على خُلُق تجدُ مثلَه مع - وفي نسخة : في - الكلاب ، إذ الكلبُ ؛ إذا دُعي إلى طعام حضَر ، وإذا زُجِر أنزجر . في ذلك دلالة على كمال رؤيته الأفعال من الله تعالى ، فإنَّه لما دُعي لم يتأخَّر عن الإجابة ، لما فيها من الفضل وإدخال المسرَّة على قلب الدَّاعي ، ولَمَّا ردَّه واعتذر إليه . . قبلَ اعتذاره . .

احتمال الأذى : وقيل : إنَّ أبا عثمان اجتاز بسِكَّة : زقاق وقتَ الهاجرة : شدَّة الحَرِّ فأُلقي عليه من سَطح طِسْتُ رماد ، فتغيَّر أصحابه ؛ وبسطوا ألسنتهم في الملقي للرَّماد . فقال لهم أبو عثمان : لا تقولوا شيئاً ، من استحَقَّ عند نفسه أن يُصَبَّ عليه النار فصُولح على الرَّمادِ لم يجزْ له - يعني : لم يلق به - أن يغضب !! وأنا عند نفسي أستحقُّ النار ، فإذا صولحت بالرماد . . كان للهِ الفضلُ عليَّ ، وهذا منه بالغٌ في احتمال الأذى .

الضيف المريض : وقيل : نزل بعض الفقراء على جعفرَ بن حنظلة ضيفاً ، فكان جعفر يخدمُه جدَّاً . . والفقيرُ يقول له : نِعمَ الرجل أنتَ ؛ لو لم تكن يهودياً !! فقال جعفر : عقيدتي لا تقدحُ فيما تحتاج إليه من الخدمة : لا تمنعنُي من اجتهادي في خدمتك ، فإن أردتَ مكافأتي فَسَلْ لنفسك الشِّفاء من جهلك ، وعجلتك بالحكم على ما لا تتحقَّقُه ؛ حيث زعمتَ أنِّي يهوديٌّ ، وسل لي

الهدايةَ : الدلالةَ على الخير .

توضيح : في ذلك دَلالة على كمال خُلُقه ، وكان الحاملُ له على تحمُّل ما قاله الفقير حملَه له على جهله . . مع حسنٍ ظنِّه به ؛ لما رأى من شمائل الخير عليه ، وفي سؤاله الهدايةَ له سترٌ لما هو عليه ، لأنَّها صالحةٌ لكلِّ أحد ، فهدايتُه تكون بحسب حاله ومقامه ؛ وعونِ ربِّه له .

يقبل الزيف : وقيل : كان لعبد الله الخيَّاط حَريف : معامل مجوسيٌّ يخيط له ثياباً ويدفع إليه بدل خياطته دراهَم زيوفاً ، وكان عبدُ الله يأخذها منه ، فاتفق له أنَّه قام من حانوته يوماً لشُغْل ، فجاء المجوسيُّ بالدَّرَاهم الزُّيوفِ فدفعَها إلى تلميذه ؛ فلم يقبَلْها ، فدفع إليه الصِّحاح ، فلما رجع عبد الله إلى حانوته ، قال لتلميذه : أينَ قميصُ المجوسيِّ ؟! فذكر له القصَّة ، فقال : بئسما عملتَ !! إنَّه منذ مدَّة يعاملني بمثلها وأنا أصبرُ عليه وآخذها منه ؛ وألقيها في بئر لئلا يغترَّ بها غيري . وإن احتمل أن يدفع مثلَها لغيره أيضاً ، فإنَّ هذا الاحتمالَ لا يرتفع بأخذه لها ، ولا بعدم أخذه . وفيما ذكره دَلالة على حُسن خُلُقه حيث أشفق على غيره ؛ وعمل بلا أجرة ينتفع بها .

ضيق القلب : وقيل : الخُلُق السَّيِّءُ يُضيِّق قلبَ صاحبه ، فقلَّما ينشرحُ قلبهُ لشيء مما يعامل به ، لأنَّ الأمور كلَّها لا تجري على مُراده ، فهو يشبهُ الحاسدَ ، لأنَّه لا يسعُ فيه غيرَ مراده ، كالمكان الضيِّق لا يسعُ فيه غيرَ صاحبه ، فسوء الخلق كان ضررُه على صاحبه ، وبذلك يعرَفُ حكم حسن الخلق .

حسن الخلق : وقيل : حُسْن الخُلُق أن لا تتغيَّر أنت ممن يقفُ في الصفِّ بجنبك . . من كونه عبداً . . أو حراً ، فقيراً . . أو غنياً ، جاهلا . . أو عالماً ، لأنَّ تغيُّركَ منه يدلُّ على الكِبْرِ والأَنفة ، فلم يحسُن خُلُقك .

سوءُ الخلق : وقيل : من سُوء خُلُقك وقوعُ بصرك على سوءِ خُلُق غيرك . وذلك إمَّا لعدم حُسْن ظنِّك بالخَلْق ، إذ لو حَسُن ظنُّك بهم لَحمَلت أفعالَهم على جهةٍ حَسَنة ، كما أشار إليه خبر : « إِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ »[1] أي : بل أَوِّل الأفعال

---

(١) تقدم تخريجه (أصول الخطايا) ص٥٠٣ .

واْحملْها على أحسن الوجوه ، وإمَّا لعدم كمال اشتغالك بنفسك ، إذ لو كَمُل لكَ ذلك واهتممت بعمارة أوقاتك . . كان لك في ذلك شغل شاغل عن غيرك ، فلا تطَّلع على نقص فيه ؛ ولا كمال .

الشؤم : وسئل رسول الله ﷺ عن الشؤم ؛ فقال « سُوْءُ ٱلْخُلُقِ »[1] فأكثرُ ما يضرُّ العبدَ في حياته ومعيشته سوءُ خُلُقه ، لأنَّ ما يلازم العبد إذا خالف هواه ومصلحته فيه شؤم ، كما أشار إليه خبر : « إِنْ كَانَ ٱلشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ فَفِي ٱلمَرْأَةِ وَٱلدَّارِ وَٱلفَرَسِ »[2] .

فإذا كان الشؤم في الزوجة المخالفة لغرض الزوج ، والدَّار الضيِّقة السيِّئة الجوارِ ، والدابَّة العَسِرة الانقياد ؛ فهو في الخلق عَظُمَ لِشدَّة ملازمته لصاحبه مع احتياجه إلى إصلاحه ، ليستقيم له أمر دنياه وأخراه .

رحمته ﷺ : أخبرنا أبو الحسن عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ رحمه الله ؛ قال : حدَّثنا أبو الحسن الصفار البصري ؛ قال : حدَّثنا معاذ بن المثنَّى ؛ قال : حدَّثنا يحيى بن معين ؛ قال : حدَّثنا مروان الفِزاريُّ ؛ قال : حدَّثنا يزيد بن كَيْسان ؛ عن أبي حازم ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قيل (يا رسول ؛ أدع اللهَ على المشركين) . قال : « إِنَّما بُعِثْتُ رَحْمَةً . . وَلَمْ أُبْعَثْ عَذَاباً » .

إيضاح : فيه دَلالة على كمال خُلُقه ﷺ ، فهو إنَّما بُعِث ليردَّ الخلق إلى الله ، ويعرِّفَهم فضلَه عليهم ، لينشِّطَ قلوبَهم لطاعته ؛ فيسعدوا دنيا وأخرى ، فلو دعا عليهم . . لهلكوا عن آخرِهم على ضلالهم فتفوتُهم الدُّنيا والأخرى .

* * *

---

(١) أخرجه أحمد : ٦/ ٨٥ ، والطبراني في « مسند الشاميين » : ١٤٦٢ ، وأبو نعيم في « الحلية » : ٦/ ١٠٣ ؛ عن عائشة رضي الله عنها وعن أبويها .

(٢) متفق عليه عند البخاري : ٥٠٩٣ ، ومسلم : ١١٥ ـ ٢٢٢٥ ، وأحمد : ٢/ ٨٥ ، وغيرهم ؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما .

٣٤ ـ باب الجود والسخاء

الجود والسخاء : هما عند كثير بمعنىً ، وفرَّق القومُ بينهما ـ كما سيأتي ـ بأنَّ السخاء : إخراجُ العبد بعض ما يملكُه بسهولة ، والجود : إخراجُه أكثرَ ما يملكه بسهولة . والإيثار المذكور في الآية الآتية إخراجُه جميعَ ما يملكه بسهولة مع حاجته إليه ، فحقيقته تقديمُكَ غيرَك على نفسك . ومنه ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ ﴾ : تقدِّمون العمل لها على العمل للآخرة ، ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ . وقريب مما قاله السماحةُ والكَرَم .

رتبتهما : وكلٌّ منها ممدوحٌ ومطلوب .

قال الله سبحانه ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ : حاجة .

السخيُّ والبخيل : أخبرنا عليُّ بن أحمد بن عبدان رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد ؛ قال : حدَّثنا الحسن بن العبَّاس ؛ قال : حدَّثنا سهل ؛ قال : حدَّثنا سعيد بن مسلم ؛ عن يحيى بن سعيد ؛ عن محمَّد بن إبراهيم ؛ عن علقمةَ ؛ عن عائشة رضي الله عنها ؛ قالت :

قال رسول الله ﷺ : « ٱلسَّخِيُّ ـ : بماله وجاهه وبسائر ما طُلب منه شرعاً قَرِيْبٌ مِن ٱللهِ تَعَالَىٰ ؛ قَرِيْبٌ مِنَ ٱلنَّاسِ ؛ قَرِيْبٌ مِنَ ٱلْجَنَّةِ . . بَعِيْدٌ مِنَ ٱلنَّارِ ، وَٱلْبَخِيْلُ ـ : بما ذكر ـ بَعَيْدٌ مِنَ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، بَعِيْدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ ، بَعِيْدٌ مِنَ ٱلْجَنَّةِ ، قَرِيْبٌ مِنَ ٱلنَّارِ ، وَٱلْجَاهِلُ ٱلسَّخِيُّ أَحَبُّ إِلَىٰ ٱللهِ تَعَالَىٰ مِنَ ٱلعابِدِ ٱلْبَخِيْلِ » . لأنَّ الأوَّل سريعُ الانقياد إلى ما يؤمَرُ به مِن تعلُّمٍ وغيره ، وإلى ما يُنَهىٰ عنه ، بخلاف الثاني . . فإنَّه ببخله عصىٰ الله على عَلِمٍ بما يضرُّه .

الفرق بينهما : قال الأستاذ : ولا فرقَ على لسان القوم في تحصيل الأحبِّيَّة المذكورة بين الجود والسخاء ؛ وإن كان بينهما فرقٌ معنويٌّ كما مرَّ ، وكما يأتي .

ولا يوصَف الحقُّ سبحانه بالسَّخَاء والسماحة ؛ لعدم التوقيف عليهما منه تعالى .

وحقيقة الجود ممَّن اتَّصف به أن لا يصعُب عليه البَذْل . . على ما تقدمَّ بيانَه .

ترتيبهما : وعند القوم : السخاءُ هي الرُّتبة الأُولى في البذل ثمَّ الجود ، لأنَّه يُشعِر

بزيادة البذل والسرعة إليه بعده ؛ تأكيداً لما أفادته « ثمَّ » . ثم الإيثار ، فمن أعطى البعض وأبقى البعض ؛ فهو صاحب « سخاء » ، ومَن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً ؛ فهو صاحب « جود » ، والذي قاسَىٰ الضَّرر وآثر غيرَه بالبُلْغَة ! فهو صاحب « إيثار » . . كذلك سمعت الأستاذَ أبا عليٍّ الدَّقَّاقَ رحمه الله ؛ يقول وتقدم بيانُ ذلك .

لا يردُّ أحداً : قال أسماء بن خارجة : ما أحبُّ أنْ أردَّ أحداً عن حاجة طلبها مني ، لأنَّه إنْ كان كريماً . . أصون عرضَه ؛ عن أن يُذلَّه لغيري بسؤاله له ، فلا أردّه خائباً بعد سؤاله إليَّ . وإن كان لئيماً !! أصونُ عنه عرضي ؛ بأن يتكلَّم فيّ وينسبَني إلى البخل .

التلطف بالتصدق : وقيل : كان مورق العِجْليُّ يتلطَّف في إدخال الرِّفق على إخوانه بحيث أنَّه إذا عَرف منهم حاجة إلى شيء . . فلا يأتيهم به على وجه الصَّدَقة ؛ خوفاً من انكسار قلوبهم وقتَ ذكرهم له ، بل يضعُ عندهم ألفَ درهم مثلاً بصورة الأمانة ، فيقول : أمسكوها عندكم حتَّىٰ أعود إليكم ، ثمَّ يتركهم زماناً . ثم يرسلُ إليهم مَن يقول لهم (أنتم منها في حِلٍّ فأنفقوها) ، فلم يباشرهم بأنها صدقةٌ !! وكلُّ ذلك شفقة على قلوبهم ، وفي ذلك صيانة لماء وجه الفقير ، ورفعة لقَدْره .

أستاذ الغنىٰ : وقيل : لقيَ رجلٌ من أهل « منبج »[1] رجلاً من أهل المدينة المشرَّفة ؛ فقال : مِمَّن الرَّجلُ : من أهل أيِّ بلد ؟! فقال : من أهل المدينة . فقال له : لقد أتانا رجل منكم يقال له الحَكَم ابن المطَّلب فأغنانا . فقال له المدني : وكيف أغناكم وما أتاكم إلاَّ في جبَّة صوف ؟! . . فقال : ما أغنانا بمال ، ولكنَّه علَّمنا الكرمَ ، فعاد بعضُنا على بعضٍ : واسىٰ غنيُّنا فقيرَنا حتَّى استغنينا كلُّنا ، إذ الغنىٰ غنىٰ النَّفس ، لخبر : « لَيْسَ ٱلغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ ٱلعَرَضِ ، إِنَّما ٱلغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ »[2] .

---

(١) بلده في شمالي حلب من بلاد الشام .

(٢) متفق عليه عند البخاري : ٦٤٤٦ ، ومسلم : ١٢٠ ـ ١٠٥١ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه . =

وذلك لأنَّ مَن استغنت نفسُه بالله ؛ ووثق به . . هان عليه بذلُ ما في يده في البِرِّ ، ومَن كَثُر مالُه ولم يَهُن عليه بذلُه ، وربَّما اشتدَّ حرصه على الزيادة فيه ؛ فهو فقير ، فهذا المدنيُّ لمَّا أتى إلى « منبج » ووجد فيها الفقير والغني . . دلَّهم على غنىٰ النفس ، فزَهِد ذو المال ؛ وهان عليه بذلُه ، وقَنِع الفقير فاستغنىٰ بما تيسَّر له ؛ فاستغنوا كلُّهم .

يؤثر بالقتل : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق ؛ يقول : لَمَّا سعىٰ : وشىٰ غلامُ الخليل بن أحمد بالصُّوفية إلى الخليفة وسكنت نفسُه إلى قوله بأنَّهم يستحقُّون القتل بما هم عليه من الزندقة . . أمر بضرب أعناقهم ، فأمَّا الجنيدُ فإنَّه تستَّر بالفقه فخلَّى سبيلَه . وكان يفتي على مذهب أبي ثور ، وأما الشحَّام والرقَّام والنُّوري وجماعة غيرُهم فقُبِض عليهم للقتل فبُسِط النِّطع[1] لضرب أعناقهم ، فتقدَّم النُّوري ؛ فقال له السيَّاف : تدري لماذا تبادر ؟ فقال : نعم ؛ أبادرُ للقتل . فقال : وما يعجِلُك ؟ فقال : أُوثر عليّ أصحابي بحياةِ ساعة .

أوجه الإيثار : هذا من أشدِّ الإيثار ! فإنَّ الإيثار ١ـ قد يكونُ بالمال ، و٢ـ قد يكون بالنكاح ، و٣ـ قد يكون بإتلاف عضوٍ ومنفعة ، و٤ـ قد يكون بالنفس ؛ وهو أعظمها .

فتحيَّر السيَّاف ؛ بأن ألقىٰ اللهُ الرُّعب والحَيْرة في قلبه لَمَّا علم صِدْق النُّوري ، وأنهىٰ الخبر إلى الخليفة فردّهم : توقَّف عن قتلهم وردَّ أمرهم إلى القاضي ليتعرَّف حالَهم ، فألقىٰ القاضي على أبي الحسين النُّوري مسائل فقهية لينظر . . أجاهلٌ أم عالم !! فأجابه عن الكلِّ ، ثم أخذ يقول زيادةً حسنة تليق بالمقام ؛ وهي : وبعد ؛ فإنَّ للهِ عباداً إذا قاموا قاموا باللهِ : بإعانته . . لا بأنفسهم ، وإذا نطقوا نطقوا بالله ، وسَرَد ألفاظاً حَسَنة . . أبكىٰ بها القاضي ، وعرف بها فضلَه في الأصول والفروع ، فأرسل القاضي إلى الخليفة ؛ وقال : إن كان هؤلاء زنادقة . . فما على وجه الأرض مسلم !! : فالذي هم عليه الحقُّ وهوالإسلام ! فخلَّىٰ سبيلَهم .

---

(١) بساط من أديم يفرش تحت مَن يُراد قتله ليجتمع عليه الدم .

نزلوا بقربنا : وقيل : كان عليُّ بنُ الفضيلِ بنِ عياض يشتري من باعة المحلَّة ؛ جمع بائع : من البائعين في الحارة القريبة من منزله ، فقيل له : لو دخلت السوق البعيدَ عن منزلك فٱسترخصت : فاشتريت بأرخصَ مما تشتريه من المحلَّة . . لكان أنفعَ لك !! فقال : هؤلاء نزلوا بقرْبنا رجاءَ منفعتنا لهم وفضلنا عليهم ، فإذا مضينا إلى السوق وتركناهم . . فاتهم مرادُهم .

تكميل : وفيما قاله كَرَم النفس وقلَّة الحِرص على طلب الزيادة ، وعلى نفع الناس المطلوب شرعاً ، ولهذا مَنَعَ الشرع تلقِّي الرُّكبان ، ومِن بيعِ حاضر لباد ؛ وقال : « دَعْ ٱلنَّاسَ يَرْزُقِ ٱللهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ »[1] كلُّ ذلكَ للتَّوسعة على الخلق وانتفاعِ بعضهم من بعض .

يشارك في الهدية : وقيل : بعث رجلٌ إلى جَبَلَة بن سُحَيْم بجارية هديةً ، وكان إذ ذاك بين أصحابه ؛ فقال : قبيح أن أتَّخذها لنفسي وأنتم حضورٌ ، وأكره أن أخصَّ بها واحداً منكم ، لأنَّ الهدية في العرف لمَن حضر ، وكلُّكم له حقٌّ وحرمة ، وهذه الجارية لا تحتمل القسمة !! وكانوا ثمانين نفساً ، فأمر لكلِّ واحد منهم بجارية ؛ أو وصيف يُشترىٰ له .

توضيح : وهذا يدلُّ على كرم نفسه ، وسهولةِ إخراج الدنيا عليه ، والوصيف : الخادم . . ذكراً كان ؛ أو أنثى ، فقوله (أو وصيف ؟) يحتمل أن يكون شكًّا من الراوي ، وأن يكون جبلة خَيَّر بين الأمرين ، وأراد بالوصيف الذَّكَر .

ساقية الماء : وقيل : عطش عبيد الله ابن أبي بَكْرة يوماً في طريقه ؛ فاستسقىٰ ماءً من منزل امرأة ، فأخرجت له كُوزا من ماء وقامت خلفَ الباب ؛ وقالت : تنحَّوْا عن الباب ، وليأخذْه بعضُ غلمانِكم ، فإنِّي امرأةٌ من العرب مات خادمي منذ أيام !! فشرب عبيد الله الماء ؛ وقال لغلامه : احمل إليها عشرة آلاف درهم ؛ إعانةً لها ، ففهمتْ أنَّه يسخرُ بها ! فقالت له : سبحان الله تسخر بي !؟ فَهِم أنَّها ما رضيت بذلك ، وأنها لكونها من العرب لا تواجِه بمثله ، فقال لغلامه : احمل إليها عشرين ألف درهم . فزاد تعجُّبُها بحَسْب ما فهمته ، فقالت له :

---

(١) أخرجه أحمد : ٣/٣٠٧ ، ومسلم : ٢٠ـ١٥٢٢ ، والترمذي : ١٢٢٣ ، وأبو داود : ٣٤٤٢ ، وغيرهم .

أسأل الله تعالى لكَ العافية ممَّا ابتُلِيتَ به من السُّخْرِية !! فقال لغلامه : يا غلام ؛ اِحمل إليها ثلاثين ألف درهم . فردَّت الباب ؛ وقالت له بناء على ما فهمَته من أنَّه يسخرُ بها : أفٍّ لك . فحمل إليها ثلاثين ألف درهم ، فأخذتها ؛ فشاع أن عبيد الله أرسل إليها ثلاثين ألف درهم ؛ وكانت ذات شَرف في نفسها وبيتها فزاد شرفُها بالمال . فما أمست حتى كَثُر خُطَّابُها ورغبوا في نكاحها !

وفي ذلك دَلالة على كرم عبيد الله وحُسْن نيته ؛ وعدِم تأثُّره بما قابلَتْه به .

الخاطر الأول : وقيل : الجودُ إجابةُ الخاطر الأوّل ، لأنَّه لو لم يَجِبْ لَخِيْف على صاحبه تغيُّره فيما عزم عليه .

غاية الجود : سمعت بعضَ أصحاب أبي الحَسَن البوشنجي رحمه الله ؛ يقول : كان أبو الحسن البوشنجي في الخلاء يقضي حاجته ، فوقع في خاطره أن فقيراً يعرفه محتاجاً إلى قميص ، فدعا تلميذاً له ؛ وقال له : اِنزع عني هذا القميص وادفعه إلى فلان . فقيل له : هلا صبرت إلى فراغك من قضاء حاجتك . . حتَّى تخرج من الخلاء ؟! فقال : لم آمن على نفسي ؛ من أن يكون سبباً في أن يتغيَّر عليَّ ما وقع لي من التخلُّف منه بذلك القميص ، فاستعجلت بالنزع والدفع ليتعذر رجوعُها . وهذا غايةٌ الجود .

الركب اللئام : وقيل لقيس بن سعدِ بن عُبَادة : هل رأيت أحداً أسخىٰ منك ؟ فقال له : نعم ، نزلنا بالبادية على امرأة كان زوجُها غائباً ، فحضر زوجُها بعد نزولهم ؛ فقالت له : إنَّه قد نزلت بك ضِيْفانٌ . فجاء بناقة ونَحَرها لهم ؛ وقال لهم بعد طبخها : شأنكم بها . فلما كان بالغد جاء بأُخرى فنَحَرها ؛ وقال لهم بعد طبخها : شأنكم بها . فقلنا : كيف نحرت لنا وما أكلنا من التي نحرتَ لنا البارحة ! إلاَّ اليسير !؟ فقال : إنّي لا أُطعم أضيافي الغابَّ : البائت .

فبقينا عنده في الضيافة يومين ؛ أو ثلاثة ، وكان ذلك في الشتاء والسماء تمطرُ . . وهو يفعل كذلك : مثل ذلك الفعل المذكور . فلما أردنا الرحيل من عنده وكان الرجل إذ ذاك غائباً . . وضعنا له مئة دينار في بيته يعتان بها على شأنه ؛ وقلنا للمرأة : ادفعيها له ، واعتذري لنا إليه . ومضينا إلى جهة مَقْصِدنا ، فلما مَتَع النهار : ارتفع وسرنا زماناً ؛ إذا نحن برجل فارس يصيح

خلفنَا : قفوا أيُّها الرَّكب اللئام ؛ أعطيتموني ثمنَ قِرايَ !! . ثم إنَّه لَحِقنَا ؛ وقال لنا : لتأخُذُنَّه ؛ وإلاَّ طعنتكم برمحي هذا . فأخذناه منه وانصرف عنا ، فأنشأ يقول :

وَإِذَا أَخَـذْتُ ثَـوَابَ مَـا أَعْطَيْتُـهُ فَكَفَـىٰ بِـذَاكَ لِنَـائِـلٍ تَكْـدِيْـرَا

وفي ذلك دلالة على الكرم من الجانبين .

بيت مقفل : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : دخل أبو عبد الله الرُّوذَباريُّ دار بعض أصحابه فوجده غائباً عنها . . وباب بيت له بها مقفل ، فقال منكِراً عليه : صوفيٌّ وله باب بيت مقفل !! : لا ينبغي لصوفيٍّ أن يكون عنده حرصٌ على الدُّنيا ، ولهذا قال : اكسروا القفل . فكسروا القُفْل وأمر بجميع ـ أي : بإخراج جميع ـ ما وجد في الدار والبيت وأنفذه : أخرجه وأرسله إلى السوق فنقلوه ، وباعوه وأصلحوا وقتاً لهم من الثمن الذي باعوا به ، وقعدوا في الدار لوثوقهم برضا صاحبها بذلك ؛ ومحبَّته لهم وشكره لله تعالى على ما منَّ عليه . . من عَدَم اعتبار الدُّنيا عنده .

فدخل صاحبُ المنزل فوجدهم فيه ، ولم يمكنه أن يقول شيئاً مع سروره بذلك ، فدخلت امرأته بعدَهَم الدار : بعد أن دخلوها وفعلوا ما فعلوا . . وعليها كساءٌ وأعلمها زوجُها بما جرى وبمن الدَّاخل عليهم ؛ فدخلت بيتاً من بيوت الدار ورمت لهم بالكساء الذي كانت ملتحفة به ، وقالت : يا أصحابنا ؛ هذا أيضاً من جملة المتاع الذي في الدار فبيعوه ، وكمِّلوا بثمنه وقتكم . ـ وفي نسخة : فبيعوها ـ بتأنيث الكساء باعتبار أنَّه مِلْحَفة للمرأة . فقال الزوج لها ليعرِّفهم فضلَها : لم تكلَّفتِ هذا باختيارك ؟! فقالت له : أسكت مثل هذا الشيخ يباسطنا ويحكم ويدلُّ علينا ؛ ويتصرَّفُ في أموالنا ، ويبقى لنا شيءٌ ندَّخره عنه !!؟

النظر للبخيل : وقال بشر بن الحارث : النظر إلى البخيل على نفسه وغيره يقسِّي القلب لقساوة قلبه ؛ فيؤثر في قلب الناظر إليه ما ينظره منه فيصير من حزبه .

عُوَّاد قيس : وقيل : مرض قيسُ بن سعدِ بن عبادة . . فاستبطأَ إخوانَه في العيادة له ، فسأل عنهم فقيل له ـ وفي نسخة : فقالوا ـ : إنهم يستحيون من عيادتك مما لك

عليهم من الدَّيْن الذي لك بإقراض ؛ أو غيره !! فقال : أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة والعيادة ! ثم أمر مَن ـ وفي نسخة : منادياً ـ ينادِي : مَنْ كان لقيس عليه دينٌ فهو مِنْه في حِلٍّ . فَكُسِرت عتبته ـ وفي نسخة : عتبة بابه ـ بالعشي لكثرة من عادَهُ .

في ذلك دلالة على صدقه وزهده في الدنيا وهوانها عليه .

أبذل وأضنُّ : وقيل لعبد الله بن جعفر : إنَّك تبذلُ : تعطي الكثيرَ إذا سُئلت ، وتضنُّ : تبخل في القليل إذا نُوجِزْتَ : شوححت !! فقال : إني أبذلُ مالي وأضنُّ بعقلي .

أسخى العبيد : وقيل : خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم فيها للاستظلال بها ؛ أو لغيره . . وفيها غلام أسود يعمل فيها بالسَّقْي وغيره ، فبينما هو في عمله إذ أُتيَ الغلام : جيء له بقُوْته ثلاثَة أقراص ، فدخل كلبٌ الحائط : غيط النخل ، ودنا من الغلام لمَّا رأىٰ الأقراص فرأى به أثر الجوع ، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه بالثاني والثالث . . لمَّا رآه متشوِّفاً جائعاً فأكله ، أي : ما رماه إليه ـ وفي نسخة : فأكلها ـ. وعبد الله بن جعفر ينظر إليه فتعجَّبَ منه ؛ فقال له : يا غلام ؛ كم قوتُك كلَّ يوم ؟! قال : ما رأيتَ . قال : فِلمَ آثرت به هذا الكلب ؟! قال : ما هِيَ ـ أي هذه الأرض ـ بأرض كلابٍ غيرَ أنَّه جاء تبعاً للناس من مسافةٍ بعيدة ، ورأيته اليوم جائعاً ، فكرهت ردَّه !! قال : فما أنت صانعٌ ؟! فقال له : أطوي يومي هذا .

فقال عبد الله بن جعفر في نفسه : أَأُلام على السخاء !؟ إنَّ هذا الغلام لأسخىٰ مني ، فاشترىٰ الحائط : حائط النخيل والغلامَ وما فيها : النخيل وحائطها من الآلات ، فأعتق الغلام أوَّلاً ليصير حُرَّاً يملك . . ووهبها له . ـ وفي نسخة : ووهبها منه ـ: فلما آثر الغلام الله بالكُلِّ . . حرَّك له قلب عبد الله حتَّىٰ حصل له كلُّ هذا الخير !! فما عامَلَ اللهَ أَحد بصدق فخاب .

وفي ذلك دَلالة على كرم عبد الله بن جعفر .

بكاء جواد : وقيل : أتى رجلٌ صديقاً له ودَقَّ عليه الباب ، فلما خرج إليه قال له :

لماذا جئتني ؟! قال : جئتُك لأربع مئة درهم دينٍ ركبتني . فدخل الدار ووزن له من ماله أربع مئة درهم وأخرجها إليه ، ودخل الدار باكياً . فقالت له امرأته ـ ظنّاً منها أنَّ بكاءَه على كثرة الدراهم التي أخرجها ـ: هلاَّ تعلَّلْتَ واعتذرت للرجل وأمسكتَها عنه . . حين شَقَّ عليك الإجابة !! فقال لها : ما هذا الذي أبكي عليه ، إنَّما أبكي لأنِّي لم أتفقَّد حاله حتَّىٰ ٱحتاجَ إلى مُفاتَحَتي به : بحاله . وهذا غايةُ الكرم والجود حيث أعطىٰ الكثيرَ وتألَّم من التقصير .

تكريم محتاج: وقال مطرِّف بن الشِّخِّير لأصحابه : إذا أراد أحدكم مني حاجة فليرفَعْها إليّ في رُقْعة ، فإني أكره أن أرىٰ في وجهه ذُلَّ الحاجة بسؤاله لي مباشرة .

توضيح : فيه دَلالة على كرمه واستحيائه من سؤال السائل ، وإشارةٌ إلى أنَّه لو أمكنه الاطلاع على حوائج أصحابه بدون ما ذُكر لقضاها ؛ ولم يحوجهم إلى رفع رقعة .

إحراجة كريم : وقيل : أراد رجلٌ أن يضارَّ عبدَ الله بن العبَّاس ؛ حسداً لما شاع من كرمه وسخائه ، وذلك بأن يُعجِزَه ويزيل عنه هذه السِّمَة الشريفة ؛ فأتى في غفلة منه وجوهَ البلد : أعيانه ، وقال لهم : يقول لكم ابن العبَّاس (تغَدَّوا عندي اليوم) فأتوا فملؤوا الدارَ ، فقال لهم : ما هذا ؟! فأُخبر الخبر ففهم القضية فأمر وكلاءه بشراء الفواكه في الوقت ، وأمر بالخبز والطَّبْخ ، وأصلح لهم أمراً يليق بهم ، فما فرغوا من أكل الفواكه حتَّى تهيَّأتْ بقيَّة الأطعمة ، فقدَّمها إليهم ، فلما فرغوا من أكلها . . قال لوكلائه : أموجودٌ لنا كل يوم هٰذا !! : هل يأتي في دَخْلنا كلَّ يوم مثلُ ما أُنفق اليوم ؟ فقالوا : نعم . فقال لهم : فليتغَدَّ هؤلاء كلُّهم : مُروا هؤلاء فليتغَدَّوا عندنا كلَّ يوم ، فقابل الحاسد بنقيض قصدِه ، فأراد أن ينقص درجتَه فرفعها اللهُ .

يحتال للصدقة : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : كان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي يتوضأ يوماً في صحن داره من قُمقمة ، فدخل إليه إنسان وسأله شيئاً من الدنيا . . ولم يحضره شيءٌ يعطيه له !! فقال له : اِصبر حتى أفرُغ من وضوئي فصبر ، فلما فرغ . . قال له : خذ القُمْقُمة وٱخرج ، فأخذها وخرج ، ثمَّ صبر حتى عَلِم أنَّه بَعُدَ وأيس أن يلحقَه أحدٌ ؛ فصاح ؛ وقال : دخل إنسان عليَّ وأخذ القمقمة !! يوهِمْ أنَّه اختلسها ، فَمَشوا خلفه فلم يدركوه . وإنَّما

فعل ذلك : أوهمهم اختلاس القُمْقمة !! لأنَّ : أهل المنزل كانوا يلومونه على كثرة البَذْلِ .

إمام البلد : وسمعته أيضاً ؛ يقول : وَهَب الأستاذ أبو سهل الصُّعلوكيُّ جُبَّته من إنسان في الشتاء مع احتياجه إليها ، وكان يلبَس بدَ لَها جبَّة النساء حين يخرج إلى التدريس . مع أنَّها تُزْرِي بقدره !! إذ لم يكن له جُبَّةٌ أخرى ، فقَدِم الوفدُ المعروفون من فارس فيهم من كُلِّ نوع إمامٌ . . من الفقهاء والمتكلمين والنحويين ، فأرسل إليه صاحب الجيش أبو الحسن ؛ وأمره بأن يركب للاستقبال للوفد ، فلبس دُرَّاعة فوق تلك الجُبَّة التي للنساء وركب ، فقال صاحب الجيش : إنَّه يستخفُّ بي ، ولم يجعل لنفسه حرمة !! إمام البلد . . يركبُ في جُبَّة النّسوان ؟! ويَلقى بها مَن أقبل علينا من العلماء ؟! ثمَّ إنَّه ناظرهم أجمعين فظهر كلامُه على كلامِ جميعِهم ، وارتفع عليهم في كلِّ فنِّ تكلَّموا معه فيه . فتبيَّن أنَّ حرمتَه دينية لا دنيوية ، وأنَّ درجته علميَّة وقلبية . . لا قالَبية .

تواضع متصدِّق : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : لم يناول الأستاذ أبو سهل أحداً شيئاً بيده على وجه الصدقة ، وإنَّما كان يطرحُه على الأرض ليأخُذَهُ الآخذ من الأرض ؛ لكمال زهده في الدنيا وقلَّة قدرها في عينه .

وكان يقول : الدنيا أقلُّ خطراً : قَدْراً من أن أرىٰ لأجلها يدي فوق يدِ أحد . فأنا أفعل ذلك حتَّى لا تكون يدُ الآخذ سفلىٰ . . وقد قال ﷺ : « ٱلْيَدُ ٱلْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ ٱلْيَدِ ٱلسُّفْلَىٰ » والعليا : هي المنفقة ، والسُّفلى : هي الآخذة . لم يَرَ لنفسه قَدْراً في كونه منِفقاً لحقارة الدُّنيا في عَيْنه ولم يَهُن عليه أن تكونَ يده فوق يد مَن يأخذ صدقته ، ويدُ الآخذ أسفلَ يَده !

وفي ذلك دَلالة على فضيلةِ وكمالِ جُوده وسَخَائه وزُهده في الدنيا .

حيلة كريم : وقيل : كان أبو مِرْثد رحمه الله أحدَ الكرام ، فمدحه بعض الشعراء بقصيدة ؛ فقال : ما عندي ما أُعطيك ، ولكن قَدِّمني إلى القاضي وٱدَّع عليَّ عشرةَ آلاف درهم حتَّى أُقِرَّ لك بها ، ثم احبسني ، فإنَّ أهلي لا يتْركوني مسجوناً !! ففعل ذلك ، فلم يُمْسِ حتَّى دُفع إليه عشرةُ آلاف درهم وخرج من السجن في يومه ! وإنَّما التزم هذا المال العظيم !! مكافأةً لمن مَدَحه كما جرت

به عادة العرب ، وخشيةَ أن تلحقه النقيصة في كونه لم يكافِيء مادحه .

كراء الحمَّال : وقيل : سأل رجل الحسنَ بن عليّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه شيئاً من الدنيا ، فأعطاه خمسين ألف درهم وخمس مئة دينار ، وقال : اِئتِ بحَمَّال يحملُه : ما أعطيتُه لك . فأتىٰ بحَمَّال فأعطاه : الحمَّال طيلسانَهُ ، وقال : يكون كِراءُ الحَمَّال من قِبلَي .

تكميل : في ذلك دَلالة على أنَّ الحسن دفع للسائل جميعَ ماله من النقد ، بدليل أنَّه دفع للحمال طيلسانه ، إذ لو كان عنده من النقد ما يعطيه في أجرة الحَمْل . . لم يعطيه طيلسانة أجرةً .

كلٌّ بشاكلته : وسألت امرأة فقيرةٌ الليثَ بن سعد سُكْرُجَّةَ عسل ! ! فأمر لها بزِقٍّ من عسل ! فقيل له في ذلك : أي أنَّها طلبت شيئاً قليلاً فأعطيتَها هذا كلَّه ! !

فقال : إنَّها سألتْ على قَدْر حاجتها ؛ ونحن نعطيها على قَدْر نِعَمنا : نعم الله علينا ، ليتخلَّق بخلْقُ الله تعالى ، فإنَّه يعطي للحسنة إذا همَّ العبدُ بها أجراً ، فإنْ عَمِلَها أعطاه عشرةَ أمثالها إلى سبع مئة ضعف ، واللهُ يضاعف لمن يشاء .

هدايا الأشعث : وقال بعضهم : صلَّيْتُ في مسجد الأشعث بن قيس بالكوفة الصبح أطلبُ غريماً لي ، فلما سلَّمتُ من الصلاة وُضِع بين يدي كلِّ واحد حُلَّةٌ ونعلين ـ وفي نسخة : ونعلان ـ والحُلَّة : ثوبان يُؤْتَزر بأحدهما ويرتَدَىٰ بالآخر ، وكذلك وضع بين يديَّ مثل ذلك ! فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : إنَّ الأشعث قدم من مكَّة فأمر بهذا ، فهذا لأهل جماعة مسجده . فقلت : إنَّما جئت أطلبُ غريماً لي . . ولستُ من جيرانه ؛ فلست من جماعته ؟! فقالوا : هو لكلِّ مَن حضر وأنت قد حضرتَ ! !

في ذلك دلالة على كرم الأشعث .

فراسة وفطنة : وقيل : لما قَرُبت وفاةُ الشافعيِّ رضي الله تعالى عنه قال : مُروا فلاناً يغسِّلُني . وكان الرجل غائباً . فلما قَدِم أُخبر بذلك فدعا بتذكِرَته ـ : بدفتر الشافعي ـ فوجد عليه سبعينَ ألف درهم دَيْناً . فقضاها ؛ وقال : هذا غُسلي إيَّاه .

في ذلك دَلالة على فراسة الشافعي في هذا الرَّجُل ، وعلى كرم الرجل

وسرعةِ تفطُّنه ، لأنَّ الشافعيَّ من الأئمة ، فلا يرضىٰ بمن يغسِّلُه إلاَّ مَن كان متَّصفاً بالفضل والدين ، ولما عَدَل عنه ومال إلى أهل الكرم المتَّسعين في الدنيا ؛ وبَلَغ الموصَىٰ له بغسله ذلك . . ظهر له أنَّ مرادَ الشافعيِّ بغسله طهارتُه من المطالبة بدينه ، وأنَّه أهل لذلك ، واختاره له فنظر في دفتره ؛ فإذا عليه سبعون ألف درهم ؛ فقضاها عنه .

كرم الشافعي : وقيل : لَمَّا قَدِم الشافعيُّ من صنعاءَ إلى مكَّة كان معه عشرةُ آلاف دينار ، فقيل له : تشتري بها قُنْيَةً[1] فضرب خيمته خارج مكَّة وصبَّ الدَّنانير ، فكلُّ مَن دخل عليه كان يعطيه قبضة . . قبضة !! فلما جاء وقتُ الظهر قام ونَقَض الثوب ؛ ولم يبقَ منها شيءٌ .

تكميل : وقد فعل الشافعي بذلك ما أشير عليه به ، فاشترى بالدنانير قُنيةً ، لأنَّ ما يشترىٰ للقُنية ؛ وهو ما يشترىٰ للانتفاع . . دنيوياً كان ؛ أو أخروياً . وقد اختار الأُخروي ، وشتَّان ما بين قصور الجنة والدُّنيا ، وخدمِهما وثيابهما ، وأنهارِهما وأشجارهما . . وغيرهما .

وفي ذلك دلالة على زُهد الشافعي رضي الله عنه .

يؤثر بالأجر : وقيل : خرج السريُّ يومَ عيد فاستقبله رجلٌ كبير الشأن ، فسلَّم السريُّ عليه سلاماً ناقصاً ؛ بأن قبض نفسه عن البِشر له . . وأظهر الرَّجل له البِشرَ .

فقيل له : هذا رجل كبيرُ الشأن ! فقال : قد عرفتهُ ، ولكن رُوي مُسنداً أنَّه « إذَا ٱلْتَقَىٰ ٱلمُسْلِمَانِ قُسِمَتْ بَيْنَهُما مِئَةُ رَحْمَةٍ تِسْعُونَ لأَبَشِّهِمَا »[2] ، فأَردتُ أن يكون معهَ الأكثرُ ؛ رغبةً فيما يعظُم نفعُه الأخروي !! والتبسُّم مِن حيث هوُ ليس هو

---

(١) شيئاً تقتنيه لأجل الانتفاع به (عروسي : ٣/ ٢٠١)
قلت : هو مبيَّن في مواضع أخرىٰ حائط (بستان) ؛ أو ضيعة ؛ أو عقار .

(٢) أخرج الحكيم الترمذي : ٢٤٥ ، وأبو الشيخ ـ كما في « كنز العمال » : ٢٥٢٤٥ ـ؛ عن عمر رضي الله عنه ، ولفظ الحكيم : « إِذَا ٱلْتَقَىٰ ٱلْمُسْلِمَانِ كَانَ أَحَبَّهُمَا إِلىٰ ٱللهِ أَحْسَنُهُمَا بِشْراً لِصَاحِبِهِ ، فَإِذَا تَصَافَحَا أَنْزَلَ ٱللهُ عَلَيْهِما مِئَةَ رَحْمَةٍ . . تِسْعُونَ مِنْهَا لِلَّذِي صَافَحَ ؛ وَعَشَرَةٌ لِلَّذِي صُوفِحَ » .

بطاعة ، وإلَّا ! كيف آثره به ، مع أنَّ الإيثار به مكروهٌ !! ولعلَّه آثره به !! لأنَّ إمساكه عنه لا يستلزم بشرَ الآخر ؛ وإن كان الظَّاهرُ أنَّه فُهِم منه ذلك!!

يفتقد للضيف : وقيل : بكىٰ أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب الله عنه يوماً ! فقيل له : ما يبكيك ؟! فقال . . مع كمال زهده الدنيا وإنفاقه جميعَ ما في بيت المال : لم يأتني ضيف منذ سبعةِ أيَّام ؛ وأنا أخافُ أن يكون اللهُ تعالى قد أهانني ؛ ونقص درجتي ؟! .

زكاة الدار : وقد رُوي عن أنسٍ بن مالك رضي الله عنه أنَّه قال : زكاةُ الدَّار : بركتُها ونموُّها أن يُتَّخَذَ فيها بيتٌ للضِّيافة ، لأنَّ أهل الدار لا بدَّ أن يحتجبوا عن الضيوف غالباً ، والمراد أنَّ البركات والخيرات . . إنَّما تنمو في الدار . . إذا تكرَّر عليها الضيوف .

الضيوف المكرمون : وقيل ؛ في قوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾[1] ما سبب وصفهم بذلك!! قيل : قيامُه عليه السلام عليهم بنفسه . . لا بوكلائه .

وقيل : إنَّما كانوا مُكرَمين عنده !! لأنَّ ضيف الكريم كريمٌ .

أربعة لا تؤنَف : وقال إبراهيم بن الجنيد : كان يقال : أربعةٌ لا ينبغي للشريف : شريف الهِمَّة الطالب لمعالي الأمور بأن يأنَف منهُنَّ ؛ وإن كان أميراً . .

١ـ قيامه من مَجْلسه لأبيه ، لأنَّ ذلك يزيده شرفاً عند الله وعند الخلق .

و٢ـ خدمته لضيفه ، لأنَّها تدلُّ على كمال شرفه وشِدَّة رغبته في الخير .

و٣ـ خدمته لعالم يتعلَّم منه ، وليقتديَ به غيرُه ، ولأنَّها كمال في درجته وتحمِلُ العالَم على أن يَخُصَّه بفوائد . و٤ـ والسؤال عما لم يعلم . . مما طُلب منه شرعاً ، لأنَّه إما واجبٌ . . أو مندوب .

تفسير مأثور : وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾[2] : إنَّهم كانوا يتحرجَّون : يرون الحرج

---

(١) الآية : ٢٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الذاريات .

(٢) الآية : ٦١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النور .

ـ أي : الإثم ـ في أن يأكل أحدُهم وحدَه ، فرخصَّ لهم بالآية في ذلك ؛ توسعةً لهم ، فنفت عنهم الحَرَج والجُنَاح في أكلهم مجتمعين أو متفرِّقين .

كراهية الارتحال : وقيل : أضافَ عبد الله بن عامر بن كُرَيْز رجلاً فأحسن هو وغلمانه قِراهُ بحسن القول والفعل له ولمن معه ، فلما أراد الرجل أن يرتحل عنه لم يُعِنه غلمانه ، فاستنكر الرَّجُل منهم ذلك ، ورآه مبايناً لما فعلوه معه عند قدومه عليهم . فقيل له ـ : لعبد الله ـ في ذلك : ما السبب فيه ؟! فقال عبد الله : إنَّهم ـ وفي نسخة : لأنَّهم ـ لا يُعِينون مَن يرتحل عنَّا ؛ لمحبَّتهم لدوام إقامته عندهم وكراهتهم لرحيله عنهم . وهذا غايةٌ في الكرم .

إمساك الضيف : أنشد عبد الله بن باكويه الصوفيُّ ؛ قال : أنشدنا المتنبي في معناه :

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدِرُوا على ... أَن لاَّ تُفَارِقَهُمْ فَٱلرَّاحِلُونَ هُمُ

أي : القوم ، فكأنَّ القوم هم الراحلون لكراهتهم ارتحاله من وطنهم ، وفي ذلك تحريضٌ على أن لا تدعَ من نزل بك أن يرتحلَ عنك ؛ وأنت متمكِّن من بقائه عندك . . فإنَّ ذلك من الكرم .

أفضل السخاء : وقال عبد الله بن المبارك : سخاءُ النفس عما في أيدي الناس : عدم طلبه منهم ، وعدم الرغبة فيه وهو الزهد في الدنيا . . أفضلُ من سخاء النفس بالبذل لما في يدها ، فالزهدُ في الدُّنيا أفضلُ من بذل ما في اليد .

يواسي بالمشابهة : وقال بعضهم : دخلتُ عَلى بشر بن الحارث في يوم شديد البرد وقد تعرَّىٰ من الثياب ما يدفع عنه ألم البرد . . ودفعه إلى فقير ؛ وهو ينتفض من البرد !! فقلت له : يا أبا نصر ؛ الناسُ يزيدون في الثياب في مثل هذا اليوم وأنت قد نَقَصْتَ منها ؟! فقال : ذكرتُ الفقراء وما هم فيه من البرد ؛ ولم يكن لي ما أُواسيهم به . . فأردت أن أَوافقَهم بنفسي في مقاساة البرد ؛ بأن أخرجت من ثيابي ما كان يدفع عني ألمَ البرد لفقير ؛ ولم أقدر أعمَّهم فوافقتهم . . بأن قاسيت ألمَ البرد مثلهم .

وفيه دلالة على كمال إيثاره بما يحتاجه .

تصحيح السخاء : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر

الرازي ؛ يقول : سمعتُ الدقّاق يقول : ليس السخاء أن يعطي الواجدُ للشيء المعدم له ، إنَّما السَّخاءُ أن يعطيَ المعدم للشيء الواجد له بأن يتركَه له ؛ إذا أتاه بأن لا يقبله منه ، كما هو طريقةُ إبراهيم بن أدهم ، فإنَّه إنَّما كان يأكُل من عمل يده من حراسة البساتين وغيرها مما عُرف حاله .

* * *

٣٥ ـ باب الغيرة

تعريفها : وهي سقوط الاحتمال[١] ، وضيقُ الصدر عن الصَّبْر ، ويقال غير ذلك ؛ كما سيأتي . وهي . . إن لم تكن في مباح ؛

حكمها : ١ـ المذمومة : فهي مذمومة ، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ : « لاَ تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ ٱللهِ »[٢] .

٢ـ الممدوحة : وإن كانت في مباح !! فهي ممدوحةٌ ومطلوبةٌ . . قال الله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[٣] : علانيتها وسرَّها ، وإنما حرَّمها لغيرته كما سيأتي .

غيرة الله تعالى : أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدوس المزكي رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أبو أحمد حمزة بن العباس البزَّار ببغداد ؛ قال : حدَّثنا محمد بن غالب بن حرب ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن مسلم ؛ قال : حدَّثنا محمَّد بن الفرات ؛ عن إبراهيم الهجري ؛ عن أبي الأحوص ؛ عن عبد الله بن مسعود ؛ قال : **قال رسول الله ﷺ** : « مَا أَحدٌ أَغْيَرُ مِنَ ٱللهِ ، وَمِنْـ أجل ـ غَيْرَتِهِ حَرَّمَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ »[٤] .

---

(١) التحمُّل .

(٢) أخرجه مسلم : ١٣٦ ـ ٤٤٢ ، وأحمد : ٦/١٦ ؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) الآية : ٣٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

(٤) متفق عليه . . البخاري : ٥٢٢٠ ، ومسلم : ٣٣ ـ ٢٧٦٠ ، وغيرها ، عن ابن مسعود رضي الله عنه .

غيرتان : أخبرنا علي بن أحمد الأهوازي رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد الصفَّار ؛ قال : حدَّثنا علي بن الحسن بن بنان ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن رجاء ؛ قال : أخبرنا حرب ابن شدَّاد ؛ قال : حدَّثنا يحيى ابن أبي كثير ؛ عن أبي سَلَمة أنَّ أبا هريرة رضي الله عنه حدَّثهم أنَّ رسول الله ﷺ قال : « **إِنَّ ٱللهَ يَغَارُ ، وَإِنَّ ٱلمُؤْمِنَ يَغَارُ ، وَغَيْرَةُ ٱللهِ تَعَالَىٰ** ـ علىٰ عبده المؤمن ـ **أَنْ يَأْتِيَ ٱلعَبْدُ ٱلمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ ٱللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ** »[1] . ويبعد اللهُ عنه ذلك ويحميه عنه ، ولا يرضاه الله له .

تعريفها : والغَيرة : كراهيةُ مشاركة الغير : كراهية مَن قامت به الغَيْرة مشاركةَ غيره له في حقِّه ، كأن يكره الرجل مشاركة غيره له في درجته .

أقسام الغيورين : قيل : وينشأ من ذلك انقسام الناس أربعةَ أقسام :

١ـ قوم لا يغارون على شيء أصلاً ؛ وهم الذين لا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسوله ، أو لا يغارون على بعض المحرمات ؛ كالديُّوث والقَوَّاد .

و٢ـ قوم يغارون على كلِّ شيءٍ حتَّى على ما أمر اللهُ به . . مما هو من نوعُ الحسد .

و٣ـ قومٌ يغارون على ما أمر الله به دونَ ما حرَّمه ؛ فيكرهون العبادات ، ويحبُّون الفواحش .

و٤ـ قوم يغارون على ما يكرهه الله ويحبُّون ما يحبُّه ، وهم أهلُ الإيمان . وقد يتوقَّف في تسمية بعض ذلك غيرةً !؟

غيرته تعالى : وإذا وُصف الحقُّ سبحانه بالغيرة على عبده . . فمعناه أنَّه لا يرضى بمشاركة الغير معه فيما هو حقٌّ له تعالى مِن طاعة عبده له ، فهو تعالى يصرفه عنه ؛ ويحميه عن الوقوع فيه .

حجاب الغيرة : حُكي عن السَّرِيِّ السَّقَّطي أنَّه قُرِىء بين يديه ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾[2] . . فقال السريُّ

---

(١) متفق عليه . . البخاري : ٥٢٢٣ ، ومسلم : ٣٦ ـ ٢٧٦١ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) الآية : ٤٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب !! هذا حجاب الغَيْرة ، ولا أحدَ أغيرُ من الله تعالى .

توضيح : قال المملي : ومعنى قوله (هذا حجاب الغَيْرة) يعني : أنَّه لم يجعل الكافرين أهلاً لمعرفة صدق الدين ، بل أبعدهم عنه إرادةً لشقاوتهم .

أصحاب الكسل : وكان الأستاذ أبو عليٍّ الدقَّاقُ رضي الله عنه ؛ يقول : إنَّ أصحاب الكسل عن عبادته تعالى هم الذين ربط الحق بأقدامهم مثقلة الخذلان . يعني : ربط أقدامهم بمثقلات الخذلان عن العبادة ؛ بحيث يتمنَّونَها ولا يجدون عليها عوناً . فاختار لهم البعدَ عنه تعالى ، فأخَرَهُم عن محلِّ القُرْب ، ولذلك تأخَّرواعن خدمته تعالى . وفي معناه أنشدوا[1] :

أَنَا صَبٌّ مشتاق محبٌّ لمَنْ هَوِيْتُ : أحببته وَلَكِنْ

مَا ٱحْتِيَالِي لِسُوءِ رَأيِ ٱلْمَوَالِي !؟ الذين حكموا عليَّ ! وهم : هواه وشهوته ونفسه وشيطانه ، فهؤلاء هم الذين عاقوه عن خدمة مولاه ، كما قال تعالى ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[2] !!

تأييد : وفي معناه أيضاً قالوا : هو سقيمٌ : مريض على تخلُّفه عن طاعة ربِّه . . ليس يعادُ : لا يقصد بالعيادة ، ومريدٌ للمنازل الرفيعة ولا يرادُ لها ! .

هذا من قائله ذمٌّ لنفسه ؛ وتمنٍّ لعافيته من مرضه وكسله .

كُوفِيءَ بالحكمة : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ العبَّاس الزَّوْزَنيَّ ؛ يقول :

كان لي بدايةٌ حسنة . . وكنت أعرف كم بقي بيني وبين الوصول إلى مقصودي من الظفر بمرادي . . من بعض المقامات العالية ، فرأيت ليلة من الليالي في المنام كأنّي أتدهدهُ: أتدحرج من حالق جبل: من جبل مرتفع . ـ قال الجوهريُّ: الحالقُ هو الجبل المرتفع ـ. فأردت الوصول إلى ذِروته: عُلوِّه.

قال : فحزنتُ بعد استيقاظي على تقصيري عن مطلوبي من ذُروة الجبل ؛

---

(١) أَنَـا صَـبٌّ لِمَـنْ هَـوِيْـتُ وَلٰكِـنْ مَـا ٱحْتِيَـالـي لِسُـوءِ رَأْيِ ٱلْمَـوَالِـي

(٢) الآية : ٤٣ : من السورة التي ذكر فيها : الفرقان .

فأخذني النوم أيضاً فرأيتُ ما يدلُّ على ما اختاره الله لي . . دونَ ما اخترته ؛ من أنَّ قائلاً يقول : **يا عبَّاسُ ؛ اَلحقُّ تعالى لم يُرِد منك أن تصل إلى ما كنتَ تطلبُ ، ولكنَّه فَتَح على لسانك الحكمة** ؛ لينتفع بك مَن تعِظُه فيتزايد فضلك وأجرُك . **قال : فأصبحتُ وقد أُلهمت كلماتِ الحكمة .**

بيان وإيضاح : في ذلك تحريض على رضا العبد بالمقام الذي أقامه الله فيه ؛ وإن علم أنَّ فوقَه أرفعُ منه !، لأنَّه تعالى عالم بما يُصلِحُ عبيدَه ، وبما أَهَّلَهم لحمله ، ولا يمنعُه ذلك من سؤال المقامات العالية ، فالممنوع إنَّما هو كراهةُ المقام الذي هو فيه ؛ لا سؤالُ ما هو أرفعُ منه ، فهذا الرائي كانت نفسه متعلِّقةً بذُروة الجبل الذي رآه ؛ وهي مكانةٌ رفيعة في الدين ، وَالقَدَر يمنعُه من ذلك !! فحزن على تقصيره عن مطلوبه ، فرآىٰ في نومه ما دَلَّه على ما اختاره اللهُ له من فتح الحكمة على لسانه . . كما تقرَّر .

أحد الحجابين : وسمعت الأستاذ أبا علي رحمه الله ؛ يقول : كان شيخ من الشيوخ له حال ووقت مع الله ، فخفي عن الناس مدَّة لم يُرَ : لم يظهر **بين الفقراء !! ثمَّ إنَّه ظهر بعدَ ذلك ؛ لا على ما كان عليه من الوقت ، فسُئِل عنه فقال : آه وقعَ حجاب !!** يحتمل أن يكون ما انتقل إليه دون ما كان عليه ، ويحتمل أن يكون أرفعَ منه ، والحجاب على الأوَّل نقصٌ ، وعلى الثاني حجابُ كمال ؛ وهو شغله عن الناس بربِّه .

غَيرة الصفاء : وكـان الأستاذ أبو علي رحمه الله تعالى إذا وقع شيء في خِلال المجلس يشوِّش ويكدِّر **قلوبَ الحاضرين ؛ يقول : هذا من غَيْرة الحقِّ سبحانه** عليهم ؛ حيث **يريد أن لا يجري عليهم ما يجري من صفاء هذا الوقت** ، لعدم أهليَّتهم له ، بل أجرى عليهم ما يشوِّش عليهم ويحجُبُهم عن ذلك . **وقد أنشدوا في معناه**[1] :

هَمَّتْ : المحبوبة ، أو الفوائد التي كانت تجري عليهم لو كانوا أهلا لها **بِإِتْيانَنَا**

---

(١) **هَمَّـتْ بِـإِتْيَـانِنَـا حَتّـىٰ إذا نَظَـرَتْ ... إِلَـىٰ ٱلْمَـراةِ نَهـاهـا وَجْهُهُـا ٱلحَسَـنُ**
والبيت من البسيط .

ـ وفي نسخة : بإتيانها ـ حَتَّىٰ إِذَا نَظَرَتْ

إِلَىٰ ٱلْمَرَاةِ نَهَاهَا وَجْهُهَا ٱلْحَسَنُ .

وفي نسخة : بعد هذا البيت :

مَا كَانَ هٰذا جَزَائِي مِنْ مَحَاسِنِهَا

عَذَّبْتِ بِٱلْهَجْرِ حَتَّىٰ شَفَنِّي ـ: أنحلني ـ ٱلْحَزَنُ .

وقد يكون ذلك رحمةً ، وقد يكون عقاباً وإبعاداً .

نزاهة رؤية : **وقيل لبعضهم** : **تريد** : **أتحبُّ أن تراه تعالى ؟! فقال** : **لا** . **فقيل** : **لِمَ ؟! فقال** : **لأنِّي أُنزِّهُ ذلك الجمالَ عن نظر مثلي** . من حيث إنَّه لا يصلح لهذه المنزلة في القرب والرؤية ، أو لأنِّي لا أطيق رؤيته ، لضعفي عن حمل بغتتها كما جرى لصواحبات يوسف عليه السلام لَمَّا أخرجته امرأة العزيز عليهنَّ ، فلم يطِقْنَ رؤيته ، لكمال جماله . . فقطَّعن أيديهُنَّ وهنَّ لا يشعرن ، وامرأة العزيز تنظر إليه معهنَّ ؛ فلم تتأثر برؤيته لتمكُّنها في ذلك .

حاسد عينيه : **وفي معناه أنشدوا**[1] :

إِنِّي لأَحْسُدُ نَاظِرَيَّ عَلَيْكَا يا ربِّ ؛ لعدم صلاحيَّة نظري لنعمة الرؤية .

حتَّىٰ أَغُضُّ أجفاني محبَّةً لزوالها ، ولهذا سمَّاه حسداً

إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَا . قيدٌ لحَسَد ناظريه .

وَأَرَاكَ تَخْطُرُ فِي شَمَائِلِكَ يعني أفعالك الدالَّة على كمالك وجلالك **ٱلَّتِي** . .

هِيَ فِتْنَتِي ؛ بأن يُغشَىٰ عليَّ لكوني لا أطيق حملَه **فأَغَارُ مِنْكَ عَلَيْكَا** ، فلا أحبُّ أن يظهر لي من جلالك وعظمتك مالا أحتمله .

غيرة الشبلي : **وسئل الشِّبليُّ** : متى تستريح من الغيرة ؟ **فقال** : إذا لم أَرَ له تعالى ذاكراً ، فإنِّي إذا رأيتُ له ذاكراً يذكُره . . فغيرتي عليه باقيةٌ ، لأني لا أُحبُّ

---

(١) إِنِّي لأَحْسُدُ نَاظِرَيَّ عَلَيْكَا ... حَتَّىٰ أَغُضُّ إذا نَظَرْتُ إِلَيْكَا
وَأَرَاكَ تَخْطُرُ في شَمائِلِكَ ٱلَّتِي ... هِيَ فِتْنَتِي فَأَغَارُ مِنْكَ عَلَيْكَا

جريانَ ذِكر محبوبي على لسان غيري ، ويحتملُ أنَّه أراد إذا لم أَرَ له ذاكراً غافلاً ، فإنِّي لا أحتمل مَن يذكرُه غافلاً ؛ كالعتَّالين والمُنَادين على معايشهم ، أو ذاكراً صادقاً ، فإنِّي إذا رأيتُه . . وقد أثَّر ذكره في ظاهره . . تجدَّد عليَّ أحوال عظيمة لا أطيق حملَها ، وكنتُ مسترحياً قبل رؤيتي له ، وهذا يجري في مجالس الذكر كثيراً ، فقد يكون فيها من أرباب الأحوال مَن يسرع إليه الحالُ لسماع بعض المقال ، فيؤثر حاله في كثير ممَّن حضر معهم ، ويتجدَّد عليهم أحوال ، وتظهر عليهم غلبةٌ . . وهم يريدون ستَرها ، وما ذاك إلاَّ لمشاهدتهم أربابَ الأحوال الشديدة ؛ فيؤثِّر صدقُهم في غيرهم !! .

جفاء أعرابيّ : **سمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ رحمه الله ؛ يقول ـ في قول النبي ﷺ ـ : في مبايعته فرساً من أعرابي ، وأنَّه استقاله فأقاله ؛ فقال الأعرابي : عَمَّرك الله تعالى . . ممن أنت ؟ فقال له النبيُّ ﷺ : « أمْرُؤٌ مِنْ قُرَيْشٍ » ، فقال بعض أصحابه من الحاضرين للأعرابيِّ : كفاك جفاءً أن لا تعرف نبيَّك ! وكأنه كان لا يعرف شخصه! .**

تورية نبوية : وكان الأستاذ أبو علي رحمه الله يقول : **إنَّمَا قال« ٱمْرُؤٌ مِنْ قُرَيْشٍ » !! غيرةً على مقام النبوَّة . . من أن يتعرَّف به إلى غير أهله ، أو من أن يشاركه في معرفته غيرُ أهله ، وإلاَّ كان واجباً عليه التعرُّف إلى كلِّ أحد أنه من هو ، ليتعرَّف كلُّ أحد أنَّه نبيٌّ ، ثمَّ إن اللهَ سبحانه أجرى على لسان ذلك الصحابيِّ التعريفَ للأعرابي بأن المسؤول نبيُّ الله . بقوله (كفاك جفاءً أن لا تعرف نبيَّك) .**

الأوجه أنَّه لا إنكار على الأعرابيِّ حتَّى يحتاج إلى الاعتذار عنه بما ذُكر، لأنَّ قولَه (ممن أنت ؟) سؤالٌ عن القبيلة ، فأجابه بأنه « ٱمْرُؤٌ مِنْ قُرَيْشٍ » وهو صحيح حسن ، ولو قال (من أنت) لأجابه بقوله (نَبِيُّ ٱللهِ) أو نحوه .

أهل الغيرة : **ومِن النَّاس مَن قال : إن الغيرةَ من صفات أهل البداية ، وإنَّ الموحِّد الذي تمكَّن في التوحيد . . لا يشهد الغَيْرة ولا يتَّصفُ بالاختيار ؛** فلا غيرة له ، لأنه لا يرى غير الواحد ، وربَّما اشتغل به عن نفسه . . فلا يذكرها .

وليس له فيما يجري في المملكة تحكُّمٌ في شيء ، بل الحقُّ تعالى أولى من غيره بالأشياء كلها فيما يقضي : يحكم به . . على ما يقضي .

تفْرقة الغيرة : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا عثمان المغربيَّ ؛ يقول : **الغيرة مِن عمل المريدين** الذين لم يتمكَّنوا في التوحيد ، **فأما أهـل الحقائق** . . **فلا غيرةَ** لهم لتمكُّنهم في التوحيد ، فلا يروا غيرَ الله كما مرَّ ، فلا تفرقـة عندهم ، وصاحب الغيرة عنده تفرقةٌ ، لأنَّه يرى المغار والمغار عليه .

أصناف الغيرة : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ أبا نصر الأصبهانيَّ ؛ يقول : سمعتُ الشبليَّ يقول : **الغيرة** من العبد **غيرتان** : غيرة البشرية ، وغيرة الإلهية ، والأُولى مذمومة ؛ والثانيةُ ممدوحة .

١ـ **بشرية** : **فغيرة البشرَّية** : حظوظ النفس . . تكون **على النفوس** بأن يغار العبد على حظوظ نفسه . . أن يشاركه غيره .

٢ـ **إلهية** : **وغيرة الإلهية** : الدينية تكون **على القلوب** بأن يغار ذو القلب المعتني بدينه . . على قلبه أن يراه متفكِّراً في غير ما ينفعه في دينه ، وكلما رآه مال إلى خطأ وغفل عما خُلق له . . ثارت من قلبه الغيرة الإلهيّة لتكُفَّه عمَّا مال إليه .

تكميل : ويحتمل أن لا تقيَّد الغيرة بالعبد ؛ ويراد بـ « الغيرة الإلهية » غيرةُ الله ؛ بأن يغار على قلب من اختصَّه فيحفظه عن أن يشتغل بغيره ، لكن كلام الإمام القشيري فيما يأتي قد يقتضي أنَّه فَهِم من كلام الشَّبلي خلافَ هذا .

وقال الشبلي أيضاً : غَيرة الإلهية على الأنفاس أن تضيع الأنفاسُ فيما سوى الله تعالى . . بأن لا يكون له ميل إلى غير الله تعالى .

بيان الغيرة : قال القشيريُّ رحمه الله تعالى : **والواجب أن يقال** في بيان الغيرة : **الغيرةُ غيرتان** :

١ـ **غيرته تعالى** : ١ـ **غيرةُ الحقِّ سبحانه على العبد ؛ وهو أن لا يجعله** الحقُّ تعالى **للخلـق ، فيضنُّ** : يبخـل بمعنى : أنه لا يجـود **به عليهم** ، بأن يشغله اللهُ تعالى عنهم .

٢ـ غيرة عبده : و٢ـ غيرةُ العبد للحقِّ ؛ وهو : أن لا يجعل شيئاً من أحواله وأنفاسه لغير الحقِّ تعالى ، فالحقُّ يغار على عبده الذي حفظه واصطفاه أن يدعَ قلبه لغيره ، والعبد يغار على أعماله وأحواله أن يقع شيءٌ منها لغير الله .

إذا عُلم ذلك . . فلا يقال (أنا أغار على الله تعالى) . لاقتضاء ذلك أنَّه يكره مشاركة غيره له في طاعة الله ، ولكن يقال (أنا أغار لله) . فإذن الغَيرة على الله تعالى جهلٌ . . وربَّما تؤدِّي إلى ترك الدِّيْن !! والغيرةُ للهِ توجب تعظيم حقوقه ، وتصفية الأعمال له . وذلك حسن .

سنة الحقِّ : واعلموا أنَّ مِن سنَّة الحقِّ تعالى : طريقته مع أوليائه : أنَّهم إذا ساكنوا غَيْراً ، أو لاحظوا شيئاً ، أو ضاجعوا بقلوبهم شيئاً . . شوَّش عليهم ذلك أحوالهم ، فيغار على قلوبهم بأن يعيدها خالصة لنفسه ؛ فارغة عما ساكنوه ولاحظوه وضاجعوه ، كآدم عليه السلام لمَّا وَطَّن نفسه على الخلود في الجنَّة وسكن له . . أخرجه الله منها ، وإبراهيم عليه السلام لمَّا أعجبه إسماعيل عليه السلام . . أمره بذبحه حتى أخرجه : إعجابه من قلبه ، فلما أسلما : خضعا وانقادا لأمر الله ؛ وتلَّه للجبين : صرعه عليه ، وصفا سِرُّه منه . . أمره سبحانه بالفداء عنه ، ففداه بذبح عظيم .

صفاء : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا زيد الفقيه المروزيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن شيبان ؛ يقول : سمعت محمد بن حسان ؛ يقول : بينا ـ وفي نسخة : بينما ـ أنا أدور في جبل لبنان . . إذ خرج علينا رجلٌ شابٌّ قد أحرقته السَّموم والرياح . والسَّموم : الريحُ الحارة ؛ قاله الجوهري ، فعطف الرياح عليه مع أنَّ المراد بها المحرِقة أيضاً !! لاختلاف اللفظ ؛ ورعاية التفخيم ، كما في قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ ﴾[1] . . فلما نظر إليَّ ولَّىٰ هارباً فتبعتُه ، وقلت له : غرضي تعظُني بكلمةٍ أنتفع بها . فقال لي : اِحذر من تعلُّقك بي ؛ أو بغيري من سائر الخلوقات لئلا يبعدك عنه تعالى . فإنه غيورٌ لا يحبُّ أن يَرى في قلبِ عبده سواه .

---

(١) الآية : ١٥٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

وحدة الطريق : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان رحمه الله أيضاً ؛ يقول : قال النصراباذي : الحقُّ تعالى غيورٌ ، ومن غَيْرته أنَّه لم يجعل إليه طريقا سواه ، إذ لا فعل لغيره حقيقةً ، فكل ما يوصل إليه من طاعة . . إنَّما يناله عبده بعونه وفضله .

حاجته تعالى : وقيل : أوحىٰ الله سبحانه إلى بعض أنبيائه ﴿ إنّ لفلان إليَّ حاجةً ، ولي أيضاً إليه حاجة ، فإن قضى حاجتي قضيتُ حاجته ﴾!! فقال ذلك النبيُّ عليه السلام في مناجاته : « إلهي كَيْفَ يَكُونُ لَكَ حَاجَةٌ » !! فقال ﴿ إنَّه سَاكَنَ بِقَلْبِهِ غَيْرِي ، فَلْيُفَرِّغْ قَلْبَهُ عَنْهُ أَقْضِ حَاجَتَهُ ، وَإلاَّ فَلاَ أَقْضِيْهَا ﴾ . لما مرَّ أنَّه غيورٌ لا يحبُّ أنَّه يساكن غيره ، ولا يخفى أنَّ الحقَّ تعالى غنيٌّ عن العالمين ؛ فلا يحتاجُ إلى أحد ، فإطلاق الحاجة عليه تعالى من باب المشاكلة .

والمعنىٰ أنِّي ما أقضي حاجتَه إلاَّ إذا غيرَّ قلبَه عمَّا هو عليه ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

شواغل عن الله : وقيل : إنّ أبا يزيد البَسطاميَّ رأى جماعة من الحور العين في منامه . . فنظر ومال إليهنَّ لكونه في اليقظة يميل إلى المستحسنات من المخلوقات! فسُلِب وقته أي : حاله أيّاما عقوبةً له وزجراً له عن العودة لمثله . وفي ذلك من الغَيْرة أنَّه تعالى لم يرضَ لقلبه الشريف أن يلتفت إلى مخلوقاته!! .

ثم إنَّه رأى في منامه جماعة منهنَّ ؛ فلم يلتفت إليهنَّ ، وقال إنكُنَّ شواغل عن الشغل بالله .

تأديب رابعة : وقيل : مرضت رابعةُ العدوية . . فقيل لها . . ما سبب علتك : مرضك؟ . فقالت : نظرتُ بقلبي إلى الجنَّة فأدَّبني به على ذلك ، فله العتبىٰ عليَّ لكونه لا يرضىٰ ذلك !! لا أعودُ لمثله .

هذا يدلُّ عل شريف حالها ، فإنَّها لما زَهِدت في الدنيا واشتغلت بالآخرة . . أعرضت عمَّا سِوى الله شُغْلاً به ، فلما ٱلتفتت بقلبها إلى الجنَّة وما فيها في بعض الأوقات . . أدَّبها الحقُّ تعالى بما شاء من الأدب ، فعرفت ذلك منه ؛ فتابت ورجعت إليه . وفيه من الغَيْرة ما مرَّ آنفاً .

مؤدِّب السريّ : ويُحكىٰ عن السريِّ أنَّه قال : كنتُ أطلبُ رجلاً صَديقاً لي مدَّة من

الأوقات ، فمررت في بعض الجبال ؛ فإذا أنا بجماعة زمنىٰ وعميان ومرضىٰ !! فسألت عن حالهم من جماعة ؟ فقالوا : ههنا رجلٌ يخرج في السنة مرَّة يدعو لهم فيجدون الشفاء ، فصبرتُ حتَّىٰ خرج فدعا لهم ؛ فوجدوا الشفاء ، فقَفَوتُ: تبعتُ أثره ، وتعلَّقتُ به ؛ وقلت له : بي علَّةٌ باطنة ، فما دواؤها !؟ فقال : يا سريُّ ؛ خلِّ عنِّي ، فإنَّه تعالى غيورٌ لا يراك تساكِن غيرَه . . فتسقطَ من عَيْنه . لأنَّه يغارُ على قلوب أوليائه أن تسكُن أو تتعْلَّق بشيء من مخلوقاته !!

الغيرة للغفلة : قال الأستاذ : ومنهم مَن غَيْرتُه حين يرى الناس يذكرونَه تعالى بالغفلة ـ أي : معها ـ فلا يمكنُه رؤية ذلك وتشقُّ عليه الرؤية . . كما مرَّ ذلك .

مشقة الجلال : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **لما دخل الأعرابي مسجد الرسول وبال فيه، وتبادر إليه الصحابة لإخراجه**[1] . . قال رحمه الله : إنَّما أساءَ الإعرابيُّ الأدب ببوله في المسجد بحضرة النبي ﷺ؛ وإن كان جاهلاً بالحرمة ، ولكن الخجل وقع على أصحابه، والمشقَّة حصلت لهم حين رأوا مِنْ وَضْع حشمتِه ما رأوا . . كذلك العبد إذا عرف جلال قدرِه سبحانه يشقُّ عليه سماعُ ذِكر مَن يذكره بالغفلة ، وطاعة : ورؤية طاعة من لا يعبدُه بالحرمة كما علم ذلك ، وإنَّما بادر الصحابة إلى الإنكار !! غيرةً على شرف المكان لئلا يناله نقص ؛ أو زيادة خبث ، ولما كان النَّبيُّ ﷺ أثبتَ منهم وأرحمَ ؛ وعلم أن الأعرابيَّ إنَّما فعل ذلك جهلاً !! نهاهم عن منعهم له من إتمام بوله ، لأنَّه إمَّا يتضرَّر ببقيَّته ، أو ينجِّس أمكنةً أخرى غلبةً ، ثمَّ أمرهم أن يصبُّوا عليه ذَنوباً من ماء ليطهِّرَه .

وقوله (لما دخل) ظرفٌ لـ (أساء) ، وجملة (إنما أساء الإعرابي الأدب) مقولُ القول .

فداهم بلحيته : حُكي أن أبا بكر الشبليَّ مات له ابن كان اسمه « أبا الحسن » ، فجزعت أمُّه عليه وقطعت شعرَ رأسها ، فدخل الشبليُّ الحمَّام وتنوَّر : استعمل النورة بلحيته : فيها . فكان كلُّ مَن أتاهُ معزِّيا قال : إيش هذا الذي فعلتَه ؛ يا أبا بكر !! فكان يقول : فعلتُه موافقةً لأهلي وتطييباً لقلبها .

---

(١) أخرجه البخاري : ٢٢٠ ، ومسلم : ١٠٠ ـ ٢٨٥ ؛ عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما .

فقال له بعضهم : أخبرني يا أبا بكر ؛ لم فعلتَ هذا !؟ فإنَّ قلبي لم يَمِلْ إلى أنَّك فعلتَه موافقةً لأهلك !! . فقال فعلتُه لأنِّي علمتُ أنَّهم يعزُّونني على الغفلة : غافلين عن تعظيم الله ، ويقولون لي : آجرك الله تعالى في مصيبتك ، ورَزَقك الصبرَ على ما ابتلاك . . ونحو ذلك ، ففديتُ ذكرهم لله تعالى بالغفلة - أي : معها - بلحيتي .

يعني أنَّ قلب العارفين لا يحتمل شيئاً من ذلك، فإنَّه مسرورٌ بفعل الله راضٍ به، فهو يتألَّم بسماع خلاف ما هو فيه، فأزال لحيتَه ليشتغلوا عن تعزيته بما يرون من تغيُّر هيئته . وهذا فعلُه مداواةٌ لعلل قلبه ؛ فلا يكونُ مذموماً في حقِّه .

غفلة مؤذِّن : وسمع النُّوريُّ رجلاً يؤذِّنُ ؛ فقال له عند تشهُّده : طَعْنَةً : طعنك الله طعنة وسُمَّ الموت : مع سُمِّه ، وسمع كلباً ينبَحُ ؛ فقال له (لبيك وسعديك) .

فقيل له : إنَّ هذا القول تركٌ للدِّين !! فإنَّه يقول للمؤذِّن في حال تشهُّده (طعنةٌ وسمٌّ) ويلبِّي عند نُبَاح الكلب . - وفي نسخة : ويقول للكلب لبَّيك - . فسئل عن ذلك !! فقال : أمَّا ذلك المؤذِّن . . فكان ذِكره لله على رأس الغفلة عن تعظيم الله : كان على حُكم العادة من غير تعظيم ؛ فجزاؤه على ذلك ما قلتُه له . وأمَّا الكلبُ !! فإنَّه دعا إلى خير وطاعة . . بحسب ما فَهَّمَه الله تعالى ذلك عنه، فإنَّ نُباح الكلب منه خيرٌ وطاعة. فقال تعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[1] وقد علَّم اللهُ سليمانَ عليه السلام كلامَ الطير وكلامَ النمل . . لمَّا سمعها تقول ﴿ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾[2] .

توجيه وإيضاح : ووجه دخول ذلك في الغَيْرة كونُ النُّوري لم يحتمل ذكر المؤذِّن مع الغفلة .

غيرة الشبلي : وأذَّنَ الشِّبليُّ مرَّة ، فلما انتهى إلى الشهادتين ؛ قال : لولا أنَّك ؛ يا ربِّ أمرتني بذكره ﷺ ما ذكرتُ معك غيرَك .

وذلك لأنَّه لما غلب عليه دوامُ ذكر الله بقلبه ولسانه ؛ حتَّىٰ شغله ذلك عن الشُّغل بغيره . . لم يحتمل قلبُه ذكرَ غيره معه .

---

(١) الآية : ٤٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

(٢) الآية : ١٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النمل .

توضيح : ووجهُ دخول ذلك في الغَيْرة : أنَّ مَن كَمُلت محبَّتُه وغَيْرتُه لله تعالى لا يحتمل ذِكر غيره في حال غلبةِ ذكره على قلبه .

غيرة الإجلال : **وسمع رجلٌ رجلاً يقول (جَلَّ الله) ؛ فقال له** . . لمَّا سمعَه يذكر الله ولم يَرَ ما يدلُّ على إجلاله وتعظيمه له : **أَحَبُّ لك أن تجلَّه عن هذا** !! بأن تذكَره مُجِلاًّ مَعظِّماً له بقلبك ولسانك حتَّى يظهرَ ذلك على جوارحك .

غيرة فقير : **سمعتُ بعض الفقراء ؛ يقول** : **سمعت أبا الحسن الخزفاني رحمه الله ؛ يقول قائلُ (لا إله إلا الله)** . . يقولها **مِن داخل القلب** ؛ عارفاً به محبّاً له ، وقائل (**محمد رسول الله**) يقولها **من خلف القُرْط** ؛ وهو ما يعلَّق في شحمة الأَذن يعني : من القفا بغير اختيار .

تبيين : **ومَن نظر إلى ظاهر هذا اللفظ توهَّم أنَّه استصغر الشَّرع** ، **ولا** : وليس كما **يخطرُ بالبال** ، **إذ الإخطار في القلب للأغيار بالإضافة إلى قَدر الحقّ تعالى متصاغرةٌ في التحقيق** ؛ وإن كان بعضُها عظيماً في نفسه . . فإنَّ جلالةَ الله لا توازىٰ بمخلوق ، وإنما عُظِّمت الأنبياء !! لتعظيم اللهِ لهم ، حتَّى جَعَل طاعتَهم طاعتَه ؛ فقال ﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] .

إيضاح : هذا ؛ مع أنَّ الأدب ترك هذه المقالة لبشاعتها ، ولو قدِّر أنَّها جرت على لسان مَن غلب عليه الحالُ والبسط وكان معذوراً ؛ فذكرها عنه على وجه المدح له وحُسْن حاله ليس بحسن ، إذ مِن كمال الأحوال أن يحفظ اللهُ العبدَ في غيبته وحضوره .

* * *

* *

*

(١) الآية : ٨٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

٣٦ ـ باب الولاية

أنواعها : وهي عامَّة وخاصَّة . فالعامَّة : ولاية الإيمان ، ثمَّ ولاية القيام بالمأمورات . والخاصَّة : محبة الله للعبد وحفظهُ له .

رتبتها : وهي بكلٍّ حال ممدوحة ومطلوبةٌ ، ولكن المراد الخاصَّة ، قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[(١)] .

شأن الأولياء : أخبرنا حمزةُ بن يوسف السَّهميُّ رحمه الله ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن عديٍّ الحافظُ ؛ قال : حدَّثنا أبو بكر محمد بن هارون بن حميد ؛ قال : حدَّثنا محمد بن هارون المقري ؛ قال : حدَّثنا حمَّادُ الخيَّاط ؛ عن عبد الواحد بن ميمون (مولى عروة) ؛ عن عروة ؛ عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « يَقُوْلُ ٱللهُ تَعَالىٰ :

﴿ مَنْ آذَىٰ لِيْ وَلِيَّاً فَقَدْ ٱسْتَحَلَّ مُحَارَبَتِي ـ وروي : فَقَدْ آذَنْتُهُ بِٱلْحَرْب ـ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ٱلعَبْدُ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا ٱفْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلاَ يَزَالُ ٱلعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِٱلنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فاعِلُهُ كَتَرَدُّدي فِيْ قَبْضِ رُوْحِ عَبْدِي ٱلمُؤْمِنِ ، فَإِنَّهُ يَكْرَهُ ٱلمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ . . وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْهُ ﴾ »[(٢)] .

ورُوي : « ﴿ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا ٱفْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَلاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِٱلنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ . . كُنْتُ سَمْعَهُ ٱلَّذي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ ٱلَّذي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ ٱلَّتِي يَبْطِشُ بهَا ، وَرِجْلَهُ ٱلَّتي يَمْشِي عَلَيْهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِن ٱسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ . . تَرَدُّدِي فِي نَفْسِ عَبْدِي ٱلمُؤْمِنِ . . يَكْرَهُ ٱلمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ﴾ » .

ورُوي : « ﴿ مَنْ أَهَانَ لِيَ وَلِيّاً بَارَزَنِي بِٱلمُحَارَبَةَ ﴾ » .

إيضاح : وفيما ذُكِر دَلالة على شرف الأولياء ورِفعة منزلتهم ، حتَّىٰ لو تأتَّىٰ أنَّه تعالى

---

(١) الآية : ٦٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : يونس عليه الصلاة والسلام .

(٢) تقدم تخريجه عن البخاري ص٣٦ .

لا يذيقُهم الموتَ الذي حَتَمه علىٰ عباده لفعل ، ولهذا المعنى ورد لفظ التردُّد ! ، كما أنَّ العبد إذا كان له أمرٌ لا بدَّ له أن يفعلَه بحبيبه لكنَّهُ يُؤلمه ، فإن نظر إلى أَلَمه ٱنكَفَّ عن الفعل ، وإن نظر إلىٰ أنَّه لا بدَّ له منه لمنفعته . . أقدم عليه ، فيعبَّر عن هٰذه الحالة في قلبه بالتردُّد ، فخاطب اللهُ الخلق بذلك على حسب ما يعرفون ، ودَلَّهم به على شرف الوليِّ عندَه ورفعة درجته .

معاني الولي : ثمَّ الوليُّ له معنيان أحدُهما : أنَّه (فعيل) بمعنى (مفعول) ؛ وهو من يتولَّىٰ اللهُ سبحانه أمره ، قال الله سبحانه ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1] ، فلا يكِلُه إلى نفسه لحظة ، بل يتولَّىٰ الحقُّ سبحانه رعايته .

والثاني : أنَّه (فعيل) مبالغة من الفاعل ؛ وهو الذي يتولَّىٰ عبادة الله وطاعته ، فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخلَّلها عصيانٌ .

فالوليُّ بهذا المعنى هو الَّذي توالت طاعاتُه لربِّه ، وارتفعت درجاتُ قُربه ؛ وهو ما تضمَّنَه قولُه في الخبر السابق « ﴿ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ . . . ﴾ الخ » .

وبالمعنى الأوَّل هو الَّذي توالت عليه النِّعمُ من ربِّه ، والحفظ له في قلبه وجوارحه من الزلَّات ، وما تضمَّنه قولُه في الخبر : « ﴿ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهَ . . . ﴾ الخ » فهو حينئذ يحفظِه في قلبه وجوارحه . . من سمعه وبصره ، ويده ورجله . . وغيرها ، فيصحُّ وصف العبد بالولي بهذين المعنيين ، فيكون « وليّاً » بمعنى توالِي طاعاته لربِّه ، و« وليّاً » بمعنى توالي فضلِ ربِّه عليه كما تقرَّر .

تحقق الوصف : وكلا الوصفين : المعنيَيْن واجبٌ تحققُّه حتَّى يكونَ الوليُّ عندنا ولياً في نفس الأمر ، بحيث يجبُ : يتحقَّق قيامُه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء لجميع ما أُمر به، و يتحقَّق دوامُ حفظ الله تعالى إياه في السَّرَّاء والضَّراء .

---

(١) الآية : ١٩٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

حفظ الوليّ : ومِن شرط الوليِّ أن يكون محفوظاً ؛ كما أنَّ مِن شرطِ النَّبيِّ أن يكون معصوماً ، لأنَّه مبلِّغٌ عن الله ما أُرسل به ، وقد دَلّت المعجزة على استحالة خطئه في أحكام ربِّه .

شرح الشرط : والمرادُ بكون الوليِّ محفوظاً : أن يحفظَه اللهُ من تماديه في الزلل والخطأ ؛ إن وقع فيهما بأن يُلْهِمَه التوبَة ؛ فيتوب منهما ، وإلاَّ فهما لا يقدحان في ولايته .

ثمرته : وإذا ثبت أنَّه يشترط فيه كونُه محفوظاً . . **فكلُّ مَن كان للشرع عليه اعتراضٌ فهومغرور مخدوع** .

أمانة الأدب : سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقّاق رحمه الله يقول : قصد أبو يزيد البَسطاميُّ مع جماعته بعضَ مَن وَصف بالولاية ؛ ليستفيد من أحواله وينتفع برؤيته ومقاله ، فلما وافىٰ مسجده قعد ينتظر خروجَه ، فخرج الرَّجُل وتنخَّم في المسجد : ورمى بنخامته تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد بمَن معه ولم يسلِّم عليه ؛ وقال : هٰذا رجلٌ غيرُ مأمونٍ على أدب من آداب الشريعة !! فكيف يكون أميناً على أسرار الحق التي وهبها لأوليائه !؟

إيضاح : والغرض من ذلك تحذيرُ الناس من الاغترار بجمال الأفعال وحُسْن المقال ؛ وَجَريان خوارق العادات ؛ وانتشار الثناء ؛ وشيوع الذكر في الخلق . . من غير استقامة ، فلا يراعَىٰ في الولِّي إلاَّ ٱلاستقامة على ما ثبت بالأدلَّة الصحيحة ، وجريانُ خوارق العادة على يد العبدِ لا يدلُّ على ولايته ؛ بل قد يكون ممكوراً به وكذَّاباً على ربِّه ، ويكفي في ذلك دليلاً خروجُ الدجَّال في آخر الزمان ومعه جنَّةٌ ونار . . ويحيي ويميت ؛ وهو عدوُّ الرحمان !!

معرفة ولايته : واختلفوا في أن الوليَّ . . هل يجوزُ : يصحُّ أن يعلم أنَّه وليّ ؛ أم لا !؟ فمنهم مَن قال : (لا يجوز ذلك) ، وقال : إن الوليَّ يلاحِظ نفسَه بعين التصغير ، وإن ظهر عليه شيءٌ من الكرامات . . خافَ أن يكون مَكْراً ، وهو يستشعر الخوف دائماً أبداً ، لخوف سقوطه عما هو فيه من المنزلة ، وأن تكون عاقبتُه بخلاف حاله . وهؤلاء القائلون بذلك يجعلون من شرط الولاية وفاءَ

المآل : أن يوفِّي للولي بالولاية في العاقبة بأن يختمَ له بها ؛ وهو لا يعلمه ، لاحتمال التبديل والتغيير .

اعتذار : **وقد ورد في هذا الباب : في هذا القولِ القائل بأنَّه لا يجوز أن يعلم الوليُّ بأنَّه وليٌّ حكاياتٌ كثيرةٌ عن الشيوخ ، وإليه ذهب من شيوخ هذه الطائفة جماعةٌ لا يحصَون ، ولو اشتغلنا بذكر ما قالوا لخرجنا عن حدِّ الاختصار ! !**

وإلى هذا كان يذهب من شيوخنا الذين لقيناهم الإمامُ أبو بكر ابن فُوْرَك رحمه الله ، ومنهم من قال(يجوز أن يعلم الوليُّ أنَّه وليٌّ) ، لأنَّ العبد يدرِكُ من نفسه ومن غيره كُلًّا من معنيي الوليّ السابقين بلا ريب .

تحققُّها : **وليس مِن شرط تحقيق الولاية** : العلم بها **في الحال الوفاء** : العلم بالوفاء بها **في المآل** ، فلا يقدَح في ذلك احتمال التغيير والتبديل . . في جواز علمه بأنَّه وليٌّ ، إذ لو قَدح فيه . . لم يُعَظَّم الوليُّ والعالم والصالح ، ولم يُهَن الكافر والعاصي والمبتدع لاحتمال ذلك .

ثم إن كان ذلك : الوفاءُ في المآل **من شرطه** : شرطِ تحقيق الولاية **أيضاً** ؛ كما قال القائل الأوَّل . . **فيجوز أن يكون هذا الوليُّ خُصَّ بكرامةٍ هي تعريفُ الحقِّ سبحانه إيَّاه أنَّه مأمونُ العاقبة** ؛ في أنَّه يُخْتَمُ له بالولاية ، **إذ القولُ بجواز كرامات الأولياء واجبٌ** : حقٌّ ثابت ، فيجوزُ أن يَعلَم أنَّه وليٌّ ، **وهو وإن قارفه** : خالطه وجامَعَهُ **خوف العاقبة** بتقدير أن لا يعرِّفه الحقُّ أنَّه مأمونُها **فما هو عليه من الهيبة والتعظيم والإجلال في الحال أشدُّ وأتمُّ** من خوف العاقبة ، **فإنَّ اليسير من الهيبة والتعظيم أهدأُ** : أثقل وأسكن للقلوب **من كثير من الخوف** ، مع أنَّ في خوفه من عاقبته زيادةً في فضله لا شكَّ في حاله ، بل هو الموجِب لحفظه بفضل ربِّه .

سلامة المبشرين : **ولِمَا** ـ أي : ولِمَا ثبت في الخبر ـ **أنَّه قال ﷺ** في حقِّ عَشَرة من أصحابه : « **عَشَرَةٌ فِي الجَنَّةِ مِنْ أَصْحَابِي** »[1] ـ وفي نسخة : أصحابه » . . ـ

---

(١) أخرجه أبو داود : ٤٦٤٩ ، والترمذي : ٣٧٥٨ ؛ وقال حسن صحيح ، والنسائي في « الكبرىٰ » : ٨١٩٥ ؛ عن سعيد بن زيد رضي الله عنه وهو أحدهم . وله شواهد كثيرة عند أحمد وغيره . =

فالعشرةُ لا محالةَ صدَّقوا الرسولَ ﷺ وعَرَفوا بإخباره سلامةَ عاقبتهم ؛ ثمَّ لم يقدح ذلك : احتمال التبديل في حالهم .

معرفة ولايتهم : ولأنْ مِن شرط صِحَّة المعرفة بالنبوَّة التي هي ولايةُ الله الوقوفَ على حدِّ المعجزة ؛ من أنَّها أمرٌ خارق للعادة مقارِن للتحدِّي ، ويدخل في جملته ؛ أي : جملة حدِّ المعجزة بأن يعلم منه العلم بحقيقة الكرامات ، فإذا رأى الكراماتِ ظاهرةً عليه . . لا يمكنه أن لا يميِّز بينها وبين غيرها ، بل يميِّزُ بينهما قطعاً ، فإذا رأى شيئاً من ذلك . . عَلم أنَّه في الحال على الحقِّ ؛ ثم يجوز أن يعرف أنَّه في المآل يبقىٰ على هذه الحالة ، ويكون هذا التعريفُ له كرامةً أيضاً ، فجاز أن يعلَم الوليُّ أنَّه وليٌّ .

الإقرار بها : والقول بكرامات الأولياء صحيح ، وكثير من حكايات القوم يدلُّ على ذلك كما نذكر طرفاً من ذلك في (باب كرامات الأولياء) إن شاء الله تعالى .

وإلى هذا القول : القولِ (بجواز أن يعلمِ الوليُّ أنه وليٌّ) . . كان يذهب من شيوخنا الذين لقيناهم الأستاذُ أبو عليٍّ الدقّاق رحمه الله . وقد استبعد بعضُهم القول بالأوَّل ، فجعل الخلافَ راجعاً إلى المؤمن . . هل يعلم أنه نال الولاية ويختَمُ له بها ؛ أوْ لا !! فمَن جوَّز أن تخرق العادةُ للوليِّ في عِلم ذلك . . قال به ، ومَن لم يجوِّزه ورآه من الغيب الذي يختصُّ به الإله . . منعه .

طالب الولاية : وقيل : إن إبراهيم بن أدهم ؛ قال لرجل : أتحبُّ أن تكون لله عزَّ وجلَّ وليًّا؟! فقال : نعم! فقال : لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة ، وفرِّغ نفسك لله عزَّ وجلَّ ، وأقبلْ بوجهك عليه ليُقبِلَ عليك ويواليك الخير الجزيل ، وذلك بأن يكون الحامل لك على طاعتك له امتثالَ أمره واجتناب نهيه وابتغاء وجهه ، لا طلب حظٍّ آخر عاجلٍ ؛ أو آجل ، كما قال تعالى ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ .

صفة الأولياء : وقال يحيى بن معاذ في صفة الأولياء : هم عبادٌ تسربلوا بالأُنس بعد

= ثم اعلم أن الاقتصار علىٰ العشرة ليس للحصر ، بل هم كثير ؛ وإنما هؤلاء اختصوا لثبوتهم في حديث مجتمعين! وإلا . . فإن أزواجه ﷺ الطاهرات كلهُنَّ مبشرات ، وكذلك ما ورد فيه خصوصية كعكاشة بن محصن (انظر ص ٥٢١) ؛ وأم سليم بنت مِلْحان وغيرهما رضي الله عنهم أجمعين .

المكابدة . . السِّربالُ : اللباس ، قال تعالى ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾[1] : لباسهم ، فهؤلاء صارَ لباسُهم الذي لا يفارقهم الأنسَ باللهِ تعالى بعد مكابدتهم أنفسهم وهواهم حتى استراحوا منها . واعتنقوا الرَوح : الراحة والنعيم بعد المجاهدة بوصولهم إلى مقام الولاية .

فالوليُّ على هذا مَن تنعَّم بقُربه تعالى وأُنِس به عن غيره .

عرائس الله : سمعت الشيخَ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت عمي البسطامي ؛ يقول : سمعت أبي ؛ يقول : سمعت أبا يزيد ؛ يقول : أولياء الله تعالى عرائس الله ، ولا يرى العرائسَ إلاَّ المُحْرِمون[2] الذين تجرَّدوا للَّحِاق بهم ، وإنْ مَنَّ اللهُ عليهم بما مَنَّ به على أولئك . . صاروا مِن جملتهم مشغولين عن أنفسهم بكمال أُنسهم باللهِ ، وهم : عرائس الله مخدَّرون : محجوبون عنده في حِجاب الأُنس لكمال أُنسهم به . . لا يراهم أحدٌ في الدنيا ؛ ولا في الآخرة إلَّا المحرمون المذكورون .

محبُّ الخمول : سمعت أبا بكر الصيدلانيَّ رحمه الله ؛ وكان رجلاً صالحاً . . قال : كنت أُصلح اللَّوح في ـ بمعنى « على » ـ قبر أبي بكر الطمستاني فكنت أنقرُ فيه اسمه في مقبرة الحِيْرة كثيراً ، وكان يُقلَع ذلك اللوح ويسرَقُ ، ولم يقلع مثلُه من غيره من القبور ! ! فكنت أتعجَّبُ منه ! ! فسألت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله يوماً عن ذلك ؛ فقال : إنَّ ذلك الشيخ آثر الخفاء والخمول عن الناس في الدنيا ؛ وأنت تريد أن تشهر قبره باللوح الذي تُصلِحُه فيه ، وإنَّ الحقَّ سبحانه يأبىٰ إلاَّ إخفاءَ قبرِه كما آثر هو سترَ نفسه . وهكذا شأنُ الحقِّ تعالى مع أوليائه أن تجريَ المقادير على ما يحببه لهم في الدنيا ، ويفعلُ ذلك بهم في الآخرة ، فكلُّ مَن أحبَّ الخمولَ في الدنيا ، وجعله الله له قُرَّةَ عينه . . كَمُل ذلك له بعد موته .

---

(١) الآية : ٢٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

(٢) يمكن ضبطها لغةً : المَحْرَمون ؛ جمع مَحْرم . . وإن كان الأفصح جمع التكسير (المحارم) وهم ذو الأرحام . ولكن الشرح يلزم بما ضبطناه به ؛ وهم جمع مُحْرِم ؛ بنسكٍ حجٍّ أو عمرة ، فيجب عليه التجرُّد عن المخيط وغيره . .

الشهرة والفتنة : وقال أبو عثمان المغربي : **الوليُّ قد يكون مشهوراً . . ولكن لا يكون مفتوناً** ؛ بأن تكون شهرته بركة عليه وعلى غيره ؛ بأن لا تشغلَه عن ربِّه فيسعدَ بها ؛ وتضاعف أعمالهُ لكثرة من يقتدي به ، بخلاف مَن أشغلتْه شهرتُه عن ربِّه ، فإنَّه يكون مفتوناً بها .

سؤال الأولياء : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله؛ يقول : سمعت النصرآباذي؛ يقول : **ليس للأولياء في أغلب أحوالهم سؤالٌ بألسنتهم ، إنما هو** : سؤالهم في بواطنهم **الذبولُ والخمول** والتذلُّل تحت جريان المقادير ، والرضى بما يُجريه الحقُّ عليهم ، فأكثرُ أعمالهم بقلوبهم لأنَّها محلُّ نظرِ ربِّهم ، ولأنَّ أعمالَها أشدُّ من أعمال الجوارح .

نهايات وبدايات : قال : وسمعتُهأيضاً ؛ يقول : **نهايات الأولياء في الكرامات بداياتُ الأنبياء عليهم السلام**؛ كتسليم الحجر والشَّجر على نبيِّنا ﷺ في أوَّل أمره مدَّة .

أفعال الولي : وقال سهلُ بن عبد الله : **الوليُّ هو الذي توالت أفعالُه على الموافقة** لأوامر الله تعالى ؛ بناء على ما مرَّ ص٧٣٧ من أنَّ الوليَّ يسمى « وليّاً » باعتبار كونه فاعلاً ، كما يسمَّاه باعتبار كونه مفعولًا .

صدق الولي : وقال يحيىٰ بن معاذ : **الوليُّ لا يرائي الخلق بعمل الحقِّ ، ولا ينافِق معهم** ، بل يوافِق باطنُه ظاهرَه ، فإنْ رأى من أخيه نقصاً نبَّهه عليه ، وإن رأى منه فتوراً عن الخير حَرَّضه وأعانه عليه .

وما أقلَّ صديقَ من كان هذا خُلُقَه : صفتُه ؛ إذ لا يحتمل التنبيهُ على النقائص إلَّا مَن قويت رغبتُه في الخلاص منها ، فيُسرُّ بمزيد له عليها ، والمتصف بهذا قليل الوجود ، بل ربَّما كان في زماننا مفقوداً ، فلو خالفتَ أحداً في هواه لخفتَ على نفسك منه ما تخشاه .

هٰذا في عدم الموافقة فيما يهواه . . فكيف لو أظهرتَ له نقصه ونبَّهتَه على نقصه في أُخراه ، ولقد صدق مَن خَبِر الناس ورأى أنَّ سلامة نفسه في بعده عنهم ، وإنَّما يصحبُهم بقَدْر حاجته إليهم ؛ فقال :

عَـدُوُّكَ مِـنْ صَـدِيْقِـكَ مُسْتَفَـادٌ فَـلاَ تَسْتَكْثِـرَنَّ مِـنَ ٱلصِّحَـابِ

فَـإِنَّ ٱلـدَّاءَ أَكْثَـرُ مَـاتَـرَاهُ   يَكُونُ مِنَ ٱلطَّعَامِ أَوْ ٱلشَّرَابِ

وقال آخر :

اِحْـــذَرْ عَـــدُوَّكَ مَــــرَّةً   وَٱحْـذَرْ صَـدِيْقَـكَ أَلْـفَ مَـرَّهْ

فَلَــرُبَّمَــا ٱنْقَلَــبَ ٱلصَّــدِيْـ   ــقُ فَكَـانَ أَعْلَـمَ بـالمَضَـرَّهْ

ولهذا كان الوليُّ الذي يخالِط الناس يُدارِي ولا يُرائي؛ ويخالق ولا ينافق.

ثمرات التولِّي : **وقال أبو عليٍّ الجَوْزجانيُّ : الوليُّ هو الفاني في حاله .. الباقي في مشاهدة الحقِّ ؛ تولَّى اللهُ سبحانه سياسته فتوالت عليه أنوارُ التولِّي : تولِّي الله سياسته ، لم يكن له عن نفسه إخبارٌ ، ولا مع غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ قرار .**

هذا حالُ الوليِّ المنقطعِ إلىٰ اللهِ ، وما مرَّ حالُ الوليِّ المتوسِّط بين الله وعباده .

حظوظ الأولياء : **وقال أبو يزيد : حظوظُ الأولياء مع تباينها تنشأُ من أربعة أسماء من أسماء الله تعالى ، ومن قيام كلِّ فريق منهم باسم منها ، وهو - أي : ما ذُكر - من الأسماء الأربعة : الأوَّل ، والآخر ، والظاهر ، والباطن .. فمن فَنِي عنها كلِّها بحيث لم يلتفت إليها ؛ ولا إلىٰ غيرها لشُغْله بربِّه بعد ملابستها وجَرَيانها عليه بحيث كَمُلت بها صفاتُه .. فهو الكاملُ التامُّ : هو أجلُّ الأولياء ، لأنَّه لمَّا كَمُلت صفاتُه جَذَبَهُ الحقُّ إليه ، وشَغَله به عن غيره بكمال ذكره ومناجاته .**

وإذا تقرَّر أنَّ حظوظ الأولياء منشؤُها من الأسماء الأربعة ..

١- حظُّ « الظاهر » : فمَن كان حظّه من اسمه تعالى « الظاهر » .. لاحظ عجائب قدرته ؛ حيث شَغَله ربُّه بما أجراه عليه من نعمه في دنياه ، وما وُفِّق له مِنْ عمل أخراه ، فهو موقوفٌ على ما أجراه عليه في ظاهره مِن استقامته في سلوكه ؛ وحفظه له عن زَلَلِه .

٢- حظُّ « الباطن » : ومَن كان حظُّه من اسمه « الباطن » .. لاحظ ما جرى في السرائر من أنواره ؛ حيث شغلَهُ ربُّه بباطن أمره ، وما أسرَّه له عن غيره .. مما يحدُثُ في قلبه من خواطر وطوارق تطرقه .

٣- حظُّ « الأول » : ومن كان حظُّه من اسمه « الأول » ... كان شُغله بما سبق له عند مولاه في أزله ؛ من غير عمل سَبَق منه ، بل فضلٌ من ربِّه .

٤ـ حظُّ « الآخر » : ومن كان حظُّه من اسمه « الآخر » . . كان مرتبطاً بما يستقبله في أخراه مما يقوله ؛ ويقالُ له وقتَ مثواه بين يدي الله .

وكلٌّ منهم مع كونه مشغولاً بربِّه عن غيره . . كُوشف علىٰ قدر طاقته ، إلاَّ مَن تولاَّه الحقُّ سبحانه ببرِّه؛ وقام عنه بنفسه، فيكاشف بما هو فوق طاقته من الكرامات .

شأن الخواصِّ : وهذا الَّذي قاله أبو يزيد يشيرُ إلىٰ أنَّ الخواصَّ من عباده كالذين فَنُوا بعد ملابسة الأسماء المذكورة ؛ وارتقوا عن هذه الأقسام الأربعة إلى ما هو أعلى منها ، فلا العواقبِ هم في ذكرها ، ولا السوابق هُم في فكرها ، ولا الطوارق الظاهرة والباطنة هم في أسرها ؛ وكذا أصحابُ الحقائق . وهم من جملة الخواصِّ من عباده . . يكونون محواً عن نعوت الخلائق ، كما قال الله سبحانه ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ـ لو رأيتهم ـ أَيْقَاظًا ـ لأنَّ أعينَهم مفتوحةٌ ـ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ .

ريحان الله : وقال يحيىٰ بن معاذ: الوليُّ رَيْحانُ الله تعالى في الأرض يشمُّه الصدِّيْقون: الذين كَمُل صدقُهم في سلوكهم نيَّةً وعملاً وحالاً ؛ ولم يصلوا إلىٰ مقامات الولاية الخاصَّة ، فتصلُ رائحته : الولي إلى قلوبهم فيشتاقون به إلى مولاهم ، ويزدادون عبادةً ورغبةً فيها على تفاوت أخلاقهم : صفاتِهم ، فإذا رأوا وليّاً للهِ وشاهدوا عليه آثار القرب وعلاماتِ الحبّ . . اشتدَّ شوقُهم وتنعَّموا بأنفاسهِ الدالَّة على قُرْبه من ربِّه ، ولهذا كان ريحانةً يحيا بها أرواحُ الصدِّيقين .

تغذية الولي : وسئل الواسطيُّ عن الترقِّي في درجات الولاية ؛ بأن قيل له : كيف يغذَّىٰ الوليُّ : يربَّىٰ في ولايته ؟ فقال : يغذَّىٰ في بدايته بعبادته ؛ ليحصل له النشاط والرغبة فيها ، وفي كهولته يعني : نهايته بسَتْره بلطافته بأن يسبغ نعمه عليه ، ثمَّ يجذُبُه : ينقلُه إلى ما سبق له من نعوته تعالى وصفاته ؛ بأن يَشغلَه به تعالى عن غيره ، لكمال مراقبته له ، وتنعُّمه بحاله ، وتلذُّذه بكماله وجماله .

ثمَّ يذيقُه طعمَ قيامه به في أوقاته . . من وجود اللذَّات والتنعُّم بالمناجاة . فهذا نوعٌ مما يغذِّي اللهُ به بعض أوليائه ، وأنواع ذلك لا تنحصر كما يلوحُ به كلامُه فيما يأتي ، لاختلاف القلوب والنيَّات والسُّرعة والإبطاء . . في المجاهدات والرياضات .

علامات الولي : وقيل : علامةُ الوليِّ ثلاثةُ أشياء : ١ـ شُغلُهُ باللهِ ؛ بأن يشتغل بالأوراد والعبادات ، و٢ـ فِراره إلى الله من الشهوات والمشغلات ، و٣ـ هَمُّه

إلى الله وحده؛ بأن يغلبَ على قلبه قربُه من ربِّه، ودوامُ ذكره له، واستغراقه فيه.

ترقيات الولاية: وقال الخرازُ: إذا أراد اللهُ تعالى أن يواليَ عبداً مِن عبيده؛ بأن يجعلَه وليًّا له.. فتح عليه بابَ ذكره باللسان مع النية، فإذا استلذَّ الذكر؛ وتكررَّ ذلك عليه.. فتح عليه بابَ القُرب من ربِّه، ثمَّ إذا داوم على ذكر القلب واللسان.. رفعه إلى مجالِس الأُنس به، ووجد اللذَّة في خلوته به عن الخلق. ثمَّ إذا تمكَّن أُنسه به.. أجلسه على كرسيِّ التوحيد، يعني: لم يرَ قلبه إلاَّ الواحد لشُغْله به. ثمَّ إذا توالَىٰ عليه شُغْله به.. رَفَع عنه الحُجُب: المشغلات من حظوظ النفس ونحوها.. وأدخله دارالفردانية: فلا يرى إلاَّ الله الفردَ، وكشف له عن الجلال والعظمة حتَّىٰ أجلَّه وعظَّمه. ـ وفي نسخة: وكشف عنه الجلال والعظمة ـ: ليريَهُما له، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة.. بقي مع الله بلا هو: ناسياً نفسه في ذكره.. فحينئذٍ صار العبد زَمِنا فانياً: لم يشعر من نفسه بحركة، وفنيَ عنها بالكليّة لكمالِ شُغْله بما يراه من كمال الجلال والعظمة لله.. فوقع بذلك في حفظه سبحانه وبرىء مِن دعاوىٰ نفسه لغَيْبته وفنائه عنها.

ثمرة الإعراض: سمعت محمد بن الحسين رحمه الله؛ يقول: سمعت منصور بن عبد الله؛ يقول: سمعت أبا علي الرُّوذَباريَّ؛ يقول: قال أبو تراب النخشبي: إذا أَلِف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعةُ في أوِلياء الله تعالى، بسوء ظنه بهم وحمل ما يبدو منهم على غير وجهِ المحمود، وذلك لأنَّه لا يعظِّمُهم إلاَّ مَن عَظَّم في قلبه جلالَ الله وعظمته. وهذا إنَّما يحصل لمن دامت مراقبتُه لله، ولاحظ كمال ذاتِه وصفاتِه، ومَن أعرض عن الله فاتَهُ تعظيمُه، وإذا فاتَهُ تعظيمُه فاتَهُ تعظيمُ مَن عظَّمَهم؛ ووقع فيهم بما ذكر.

صفة الولي: وقالوا: مِن صفة الولِّي أن لا يكون له خوفٌ، لأنَّ الخوفَ ترقُّب مكروهٍ يحلُّ في المستقبل، أو انتظار محبوبٍ يفوت في المستأنَف: المستقبل والوليُّ ابن وقته.. ليس له مستقبل فيخافَ شيئاً.

وكما لا خوفَ له لا رجاءَ له، لأنَّ الرجاء انتظارُ محبوبٍ يحصُل؛ أو مكروه يكشَفُ، وذلك في الثاني: المستقبل من الوقت.

وكذلك لا حزن له ، لأنَّ الحزن من حُزونة القلب : صعوبته ، ومَن كان في ضياءِ الرِّضا وبردِ الموافقة . . فأنىٰ يكون له حزنٌ !! قال تعالى ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ .

إيضاح : ما قاله من أنَّ الوليَّ لا خوفَ عنده ولا رجاءَ ولا حزن . . هو في حقِّ بعض الأولياء ؛ في بعض الأحوال ، وإلاَّ ! فغالب الأولياء يطرقُهم في غالب الأحوال ذلك ، فإنَّهم لا يثبتون على حالة مع مولاهم ، وإن رضوا بما يُجريه عليهم ! فإنَّ الَّذي يَرِدُ عليهم تختلفُ أنواعه ؛ من خوف ، ورجاء ، وبسط ، وحزن ، فهم محلٌّ لما يوضع فيهم ، وكيف لا يكون عندهم خوفٌ . . والهيبة والخشية لا تفارقهم !! لرؤيتهم جلال اللهِ وعظمتَه !

والمراد بنفي الخوف والحزن عنهم في الآية نفيُه عنهم في الآخرة .

* * *

٣٧ ـ باب الدعاء

تعريفه : هو رفع الحاجات إلى رافع الدرجات ، ويقال : هو إظهارُ العجز والمسكنة بلسان التضرُّع . ويقال غير ذلك ، وسيأتي بعضُه .

مدحه : وهو ممدوحٌ ومطلوب . . قال الله عزَّ وجلَّ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾(١) ، وقال تعالى ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾(٢) .

رتبته : وأخبرنا عليُّ بن أحمد بن عبدان رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أبو الحسن الصفّار البصري ؛ قال : حدَّثنا محمد بن أحمد العودي ؛ قال : حدَّثنا كامل ؛ قال : حدَّثنا ابن لهيعة ؛ قال : حدَّثنا خالد بن يزيد ؛ عن سعيد بن أبي هلال ؛ عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال :

---

(١) الآية : ٦٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : غافر .

(٢) الآية : ٥٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

« اَلدُّعَاءُ مُخُّ ٱلعِبَادَةِ »[1] : خالصُها ، لما فيه من التذلُّل والتضرُّع ، ولأنَّه تعالى أثنى على المتَّصف به ؛ فقال ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾[2] .

أدعية نبوية : وكان النَّبيُّ ﷺ ؛ يقول : « اللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ ٱلعَجْزِ وَالكَسَلِ ، وَٱلجُبْنِ وَٱلبُخْلِ ، وَٱلهَرَمِ وَعَذَابَ ٱلقَبْرِ ، ٱللَّهُمَّ ؛ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا ، ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلبٍ لاَ يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفسٍ لاَ تَشْبَعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا »[3] .

وكان من دعائه : « اللَّهُمَّ : إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ ، وتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَجَمِيْعِ سَخَطِكَ »[4] .

شأن الدعاء : **والدعاء مفتاحُ الحاجة** : قضاءها ، **وهو** : **الدعاء مستروَحُ** : محلُّ راحةِ **أصحاب الفاقات** : الحاجات ، **وملجأ المضطرين** : المكروبين الذين مسَّهم الضرُّ ، **ومتنفَّس** : محلُّ تنفُّس **ذوي المآرب** : الحاجات .

وقد ذمَّ اللهُ سبحانه قوماً تركوا الدعاء، فقال ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾[5] . . **قيل** : **معناه لا يمدُّونها إلينا في السؤال** ، فمدُّها فيه . . من أدب الدعاء ، لما فيه من التضرُّع والتذلُّل .

رغبة الخالق : **وقال سهلُ بن عبد الله** : **خلق الله تعالى الخلق ؛ وقال لهم** : ﴿ **ناجوني** بقلوبكم وألسنتكم ، **فإن لم تفعلوا ذلك** . . ! **فانظروا إليَّ** : راقبوني بقلوبكم ، **فإن لم تفعلوا** . . **فاسمعوا مني** : الوعد للمطيعين والوعيد للعاقين **فإن لم تفعلوا** . . **فكونوا ببابي فقراءَ منتظرين** لما يُنعَم به عليكم ، **فإن لم تفعلوا** ؛ وكانت لكم حاجة . . **فأنزلوا حاجاتكم بي** لا بغيري ﴾ .

---

(1) أخرجه الترمذي : ٣٣٧١ ؛ عن أنس رضي الله عنه وقال : غريب .

(2) الآية : ٩٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنبياء .

(3) أخرجه مسلم : ٧٣ ـ ٢٧٢٢ ؛ عن زيد بن أرقم رضي الله عنه .

(4) أخرجه مسلم : ٩٦ ـ ٢٧٣٩ ؛ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه .
والفَجْأَة والفُجَاءة بمعنىً واحد .

(5) الآية : ٦٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

فالمناجاةُ درجة رفيعة ، لأنَّها تدلُ على كمال المعرفة والقُرْب من الله ، فمن فاته فلا تفوته المراقبةُ ؛ ليسلم من ارتكاب المنهيَّات ، ويقوم بالمأمورات ، فإن فاته ذلك . . فليسمع من الله وعدَه ووعيده؛ ليقوى تثبُّته عند أفعاله، فإن فاته ذلك . . فليعترف بعجزه وقصوره ويلازم بابه على وجه الفقر والاحتياج لما لا بدَّ منه ، فإن عجز عن الافتقار والتذلُّل ؟ فإياه أن ينزل حاجتَه بغيره كما تقرَّر ذلك .

دعاء الحال : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : قال سهل بن عبد الله :

أقرب الدعاء إلىٰ الإجابة دعاءُ الحال ، ودعاءُ الحال أن يكون صاحبُه مضطرَّاً لا بدَّ له مما يدعو لأجله . ويدلُّ لذلك قوله :

دعـوة مضطـر : أخبـرنـا حمـزة بـن يـوسـف السَّهمـي رحمـه الله ؛ قـال : سمعـتُ أبـا عبد الله المكانسيَّ ؛ يقول : كنت عند الجنيد . . فأتت امرأة إليه ؛ فقالت له : أُدع الله أن يردَّ عليَّ ابني ، فإنَّ ابناً لي ضاع !! فقال لها : اِذهبي واصبري فمضت ، ثم عادت فقالت له مثل ذلك ! فقال لها الجنيد : اذهبي واصبري . فمضت ، ثم عادت فقالت له مثل ذلك ! فقال : لها الجنيد (اذهبي واصبري) . فمضـت ، ثـم عـادت ؛ ففعلـت مثـل ذلـك (مـراتٍ) والجنيـدُ يقـول لهـا (اصبري) . فقالت له : عيل صبري : عجزت عنه . . ولم يبقَ لي طاقة عليه ؛ فادعُ لي ! فقال لها الجنيد بعد أن ظهر له اضطرارها وكَمُلت شفقتُه عليها ، ثم دعا لها اعتماداً على ربِّه : إن كان الأمرُ كما قلتِ . . فاذهبي فقد رجعَ ابنُك ، فمضت فوجَدْتُه ، ثم عادت تشكر لهُ فضله . فقيل للجنيد : بم عرفتَ ذلك : مجيئه ؟! فقال : قال اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[1] .

أفضليته : وقد اختلف الناس في أَنَّ الأفضلَ . . الدعاءُ ؛ أم السكوتُ عنه . . والرِّضا بما قُدِّر ؟!

فمنهم مَن قال (الدعاء أفضل) ، لأنَّه في نفسه عبادةٌ ، قال ﷺ : « اَلدُّعَاءُ مُخُّ ٱلعِبَادَةِ »[2] ، والإتيانُ بما هو عبادةٌ أَولى مِن تركِها ، ولأنَّ الدعاء إظهارُ

(١) الآية : ٦٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النمل .

(٢) تقدم تخريجه قريباً عن الترمذي .

الافتقارِ إلى الله تعالى .

حقٌّ لله : ثمَّ هو ؛ أي الدعاء حقُّ اللهِ سبحانه وتعالى على العبد ، فإن استجاب للعبد . . فهو زيادةٌ ، وإن لم يستجب للعبد ؛ ولم يَصِل : العبد إلى حظِّ نفسه ! ! فلقد قام بحقِّ ربِّه ، لأنَّ الدعاء إظهارُ فاقة العبودية ، وقد قال أبو حازم الأعرجُ : لأَن أُحرم الدُّعاء أشدُّ عليَّ من أن أُحرمَ الإجابة ، لأنَّ الدعاء حقُّ الله ؛ والإجابة حقُّ العبد .

رأي آخر : وطائفة قالوا (السكوت والخمول تحتَ جريان الحكم أتمُّ من الدعاء ، والرضا بما سبق من اختيار الحقِّ للعبد أولى من ذلك) .

ولهذا قال الواسطيُّ : اختيار ما جرىٰ لك في الأزل خيرٌ لك من معارضةِ الوقت . وقد قال ﷺ خبراً عن الله تعالى : « ﴿ مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي ٱلسَّائِلِيْنَ ﴾ »[1] .

رأي ثالث : وقال قومٌ : يجب أن يكون العبدُ صاحبَ دعاءٍ بلسانه وصاحبَ رضاً بقلبه ، ليأتيَ بالأمرين جميعاً .

والأَوْلىٰ أن يقال : إنَّ الأوقات والأحوال مختلفةٌ ، فرُبَّ شخصٍ في خلوة يغلب عليه الدُّعاءُ ، وكمال التضرُّع والبكاء فملازمته لحاله أقربُ لنيل مقصوده ، وربَّما يغلبُ عليه توالي نِعَم ربِّه عليه وعجزِهِ عن شكرها ، فهو مستحيي لعجزه عن شكرِ ما توالى علَيه من النِّعم أن يطلبَ زيادةً على ما هو فيه ، فالسكوتُ ولزومُ الحياءِ أَوْلى له كما ذَكَر ذلك بقوله :

مراعاة الأدب : ففي بعض الأحوال . . الدعاء أفضل من السكوت ؛ وهو الأدبُ ، وفي بعض الأحوال . . السكوتُ أفضلُ من الدعاء ؛ وهو الأدب .

وإنما يعرف ذلك في الوقت ، لأنَّ علم الوقت إنَّما يحصُل في الوقت ، فإذا وَجَد بقلبه إشارة إلى الدعاء بأن أحسَّ من نفسه الحركة والانزعاج . . فالدعاءُ

---

(١) أخرجه الدارمي : ٢/٤٤١ ، والترمذي : ٢٩٢٧ ؛ وقال : حسن غريب ، والبيهقي في « شعب الإيمان » .

له أولى ، وإذا وجد بقلبه إشارةً إلى السكوت ؛ اعتماداً على الرِّضا بما يجريه الحقُّ عليه . . فالسكوت له أولى .

تفصيل الأحوال : ويصحُّ أن يقال : ينبغي للعبد أن لا يكون ساهياً عن شهودِ ربِّه تعالى في حال دعائه ، ثمَّ يجبُ عليه عند إرادة الدعاء أن يراعيَ حالَه ووقته ، فإن وجد من الدعاء زيادةَ بَسطةٍ في وقته . . فالدعاءُ له أَوْلى ، وإن عاد إلى قلبه في وقت الدعاء شِبْهُ زَجْر ومِثْلُ قَبْض ! ! فالأَوْلى له تركُ الدعاء في هذا الوقت ، وإن لم يجد في قلبه زيادةَ بسطٍ ولا حصولَ زجر ! ! فالدعاءُ وتركه ههنا سيَّان ، فإن كان الغالب عليه في هذا الوقت العِلْمُ فالدعاءُ أَوْلى ؛ لكونه عبادةً ، وإن كان الغالبَ عليه في هذا الوقت المعرفةُ والحال والسكوت ؛ فالسكوتُ أَوْلى .

مراعاة المنفعة : ويصحُّ أيضاً أن يقال (ما كان للمسلمين فيه نصيبٌ : صلاح وإظهار للعبودية ، أو للحقِّ سبحانه فيه حقٌّ على العبد . . فالدعاءُ أولى ، لأنَّ الخير المتعدِّيَ أولى من القاصر ، وما كان لنفسك فيه حظٌّ فالسكوتُ أتمُّ ؛ دفعاً للرياء والعجب) .

الإخراس بالإجابة : وفي الخبر المرويِّ : « إنَّ ٱلعَبْدَ يَدْعُو ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَهُو يُحِبُّهُ ، فَيَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿ يا جِبرِيْلُ ؛ أَخِّرْ حَاجَةَ عَبْدِي ، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ ﴾ ، وَإِنَّ ٱلعَبْدَ لَيَدْعُو ٱللهَ وَهُوَ يُبْغِضُهُ ؛ فَيَقُولُ ﴿ يا جِبْرِيْلُ ؛ اِقْضِ لِعَبْدِي حَاجَتَهُ ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ ﴾ »[1] .

غيرة لله : ويحكىٰ عن يحيى بن سعيد القطَّان رحمه الله تعالى أنَّه رأى الحقَّ سبحانه في المنام ؛ فقال : إلهي ؛ كم أدعوكَ فلا تُجيبني ! فقال : ﴿ يا يَحْيَى ؛ لأني أُحبُّ أن أسمع صوتَك ﴾ .

وقال ﷺ : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ إِنَّ ٱلعَبْدَ لَيَدْعُو ٱللهَ تَعَالَى وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ فَيَعْرِضُ عَنْهُ ، ثمَّ يَدْعُوهُ فَيُعْرِضُ عَنْهُ ، ثمَّ يَدْعُوهُ فَيُعْرِضُ عَنْهُ ، ثُمَّ يدْعُو فَيَقُولُ ٱللهُ تعَالَى لِمَلاَئِكَتِهِ ﴿ أَبىٰ عَبْدِي أَنْ يَدْعُوَ غَيْرِي فقدْ ٱسْتَجَبْتُ لَهُ ﴾[2] .

---

(١) أخرجه ابن عساكر ؛ عن أنس وجابر (كنز العمال : ٣٢٦٤) .

(٢) لم أجده في ما تيسر الآن .

الأخلاف رحمة : وقد يدعو العبد فيعلم الحقُّ تعالى أنَّ مصلحته في ضدِّ ما دعا به ؛ فلا يخلقُه له رحمةً له ؛ فيظنُّ لجهله أن تأخير استجابة دعائه مضرٌّ له ؛ وهو نافعٌ له ، وربَّما جرى على لسانه (دعوتُ فلم يُستجب لي) ؛ فيكون سبباً لمنعه الإجابة ! قال ﷺ : « إِنَّهُ يُسْتَجابَ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ ؛ فَيَقُولُ (قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِيْ !) »[1] .

الفارس الكفء : وأخبرنا أبو الحسين عليُّ بن محمد بن عبد الله بن بشران ببغداد رحمه الله ؛ قال : حدَّثنا أبو عمرو . . عثمانُ بن أحمد المعروفُ بـ « ابن السَّمَّاك » ؛ قال : أخبرنا محمدَّ ابن عبدِ ربِّه الحضرميُّ ؛ قال : أخبرنا بشر بن عبد الملك ؛ قال : أخبرنا موسى بن الحجاج ؛ قال : قال مالك بن دينار : أخبرنا الحسن ؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ قال :

كان رجلٌ على عهد رسول الله ﷺ يتَّجرُ من بلاد الشام إلى المدينة ، ومن المدينة إلى بلاد الشام ، ولا يصحَبُ القوافل توكُّلاً منه على الله تعالى ، قال : بينما هو جاءٍ من الشام يريدُ المدينة . . إذ عَرَضَ له لصٌّ راكب على فرس ، فصاح بالتاجر (قف) ، قال : فوقفَ له التاجر ؛ وقال له (شأنَك بمالي وخلِّ سبيلي) ، قال : فقال له اللصُّ (المال مالي ؛ وإنَّما أريد نفسَك) ، فقال له التاجر (ماتريدُ بنفسي ! شأنَك والمال وخلِّ سبيلي) . قال : فرَدَّ عليه اللِّصُّ

---

(١) أخرجه البخاري : ٦٣٤٠ ، ومسلم : ٩٠ ـ ٢٧٣٥ ، والأربعة إلاَّ النسائي ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فيه دلالة علىٰ أن تأخير الإجابة قد يكون محبَّة لتكرير الطلب ، وسرعةُ الإجابة قد يكون بقضاء ! فعلى المكلَّف أن يدوم علىٰ قرع باب الفتاح بالطلب ، ولا يغترَّ لو أُجيب بسرعة (عروسي : ٣/ ٢٢٢) .

إنما جعل الله الإجابة في مختاره غيباً !! لوجوه ثلاثة :

أحدها رفقاً بعبده ، لأنه رحيم كريم ، والكريم إذا سأله مَن يعزُّ عليه أعطاه أفضلَ ما علمه له ، والعبد جاهل بالصلاح والأصلح ، فقد يحبُّ الشرَّ وهو شرٌّ له ! وقد يكره الشيء وهو خيرٌ له .

والثاني لأنَّ ذلك أبقىٰ لأحكام العبوديَّة في نظر العبد وأقوىٰ في ظهور سطوة الربوبيَّة ، إذ لو كانت الإجابة علىٰ وفق مراد العبد . . . لكان الدعاء منه تحكُّماً علىٰ الله تعالىٰ ؛ وذلك باطل .

والثالث أنَّ الدعاء عبوديَّة ، وسرُّها إظهار الفاقة ، ولو كانت الإجابة بعين المراد حتماً . . لما صحَّت فاقة في عين الطلب ! فيبطل سرُّ التكليف ومعنىٰ الاضطرار المطلوب فيه . فتدبّر ذلك وعضَّ عليه بالنواجذ . (عروسي : ٣/ ٢٢٠) .

مثلَ المقالة الأولى ، فقال له التاجر : أنظرني حتى أتوضَّأ وأصلِّي وأدعوَ ربِّي عزَّ وجلَّ !! قال (افعل ما بدا لك) . قال : فقام التاجر وتوضَّأ[1] وصلَّى أربع رَكَعات ، ثم رفع يديه إلى السماء ؛ فكان من دعائه أن قال « يا وَدُودُ يَا وَدُودُ ، يَا ذَا ٱلعَرْشِ ٱلمجِيْدُ ، يَا مُبْدِيءُ يامعيدُ ، يا فعَّالاً لما تريد ؛ أسألُكَ بنورِ وجهك الَّذي ملأ أركان عرشِك ، وأسألُك بقدرتك التي قَدرتَ بها على خلقك ، وبرحمتِك التي وَسِعْتَ كلَّ شيء ، لا إله إلاَّ أنت ، يا مغيثُ . . أغثني » (ثلاث مرات) .

فلما فرغ من دعائه إذا بفارس على فرس أشهب ؛ عليه ثياب خُضر بيده حربةٌ من نور ، فلما نظر اللصُّ إلى الفارس . . ترك التاجر ومرَّ نحو الفارس ، فلما دنا منه شدَّ الفارس على اللصِّ فطعنه طعنة أذْراه : ألقاه عن فرسه ، ثم جاء إلى التاجر ؛ فقال له (قم فأقتله) . فقال له التاجر : مَن أنت !! فما قتلتُ أحداً قطُّ ، ولا تطيبُ نفسي بقتله! قال : فرجع الفارس إلى اللص فقتله ، ثم جاء إلى التاجر ؛ وقال :

اعلم أنِّي ملك من السماء الثالثة ، حين دعوت المرَّةَ الأُولىٰ سمعنا لأبواب السماء قعقعة ؛ فقلنا (هذا أمرٌ حدث)، ثم دعوتَ الثانية ؛ ففتحت أبواب السماء ولها شرر كشرر النار ، ثمَّ دعوت الثالثة فهبط جبريل علينا مِن قبَل السماءِ ؛ وهو ينادي : مَن ينزلُ لهذا المكروب !!؟ فدعوت ربِّي أن يولِّيَني قتلَه .

واعلم يا عبد الله ؛ أنَّه مَن دعا بدعائك هٰذا في كلِّ كُربة وكلِّ شِدَّة وكلِّ نازلة . . فرَّج الله تعالى عنه وأعانه .

قال : وجاء التاجر سالماً غانماً حتَّى دخل المدينة ، وجاء إلى النَّبيِّ ﷺ فأخبره بالقصَّة وأخبره بالدُّعاء ، فقال له النبيُّ ﷺ : « لَقَدْ لَقَّنَكَ ٱللهُ تَعَالَىٰ أَسْمَاءَهُ ٱلحُسْنَىٰ ٱلتِي إِذَا دُعِيَ بِهَا أَجَابَ ، وَإِذَا سُئِلَ بِهَا أَعْطَىٰ » .

تعقيب : في ذلك دَلالة على أنَّ صدق الاضطرار تكونُ معه الإجابة ، كما تمدَّحَ به

---

(١) في (م) فتوضأ .

تعالى على لسان مَن اصطفاه ؛ فقال ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾[1] .

آداب الدعاء : ومن آدابِ الدعاء : ١ـ حضور القلب عنده ، و٢ـ أن لا يكون الداعي ساهياً ، فقد روي عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ لا يَسْتَجِيْبُ دُعَاءَ عَبْدٍ مِنْ قَلْبٍ لاَهٍ »[2] .

وقد عدَّ الغزاليُّ آداب الدعاء عشرة ! هي في الحقيقة أكثرُ .

١ـ أن يترصَّد الأزمان الشريفة ؛ كيوم الجمعة ، وشهر رمضان ، ووقت السَّحَر . و٢ـ أن يغتنم الأحوال الشريفة ؛ كحالة السجود ، وإقامة الصلاة ، وبعدَها ، وحالةِ رِقَّة القلب . و٣ـ أن يستقبل القبلة ؛ ويرفعَ يديه ويمسحَ بهما وجهه في آخره ، وأن يخفض الصوت بين المخافتة والجهر . و٥ـ أن لا يتكلَّف السَّجْع ، وقد فُسِّر به الاعتدال في الدعاء . و٦ـ أن يتضرَّع ويخشعَ ويرهَبَ ، قال تعالى ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ . و٧ـ أن يجزم بالطلب ؛ ويوقن بالإجابة ؛ ويصدِّق رجاءه فيه . و٨ـ أن يُلحَّ في الدعاء ، ويكرِّرَه ثلاثاً ، ولا يستبطىءُ الإجابة . و٩ـ أن يفتتحَ الدعاء بذكر الله ؛ وبالصلاة على رسوله بعد الحمد لله والثناءِ عليه ، ويختُمه بذلك كلِّه ، و١٠ـ أن يتوبَ إلى الله[3] .

شرائط الدعاء : ومنِ شرائطه : ١ـ أن يكون مطعمه حلالاً ، فلقد قال النَّبيُّ ﷺ

---

(١) الآية : ٦٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النمل .

(٢) أخرجه الترمذي : ٣٤٧٩ ؛ وقال : غريب ، والحاكم : ١/ ٤٩٣ ؛ وقال : مستقيم الإسناد ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه : « أُدْعُوا ٱللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ ، وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لاَ يَسْتَجِيْبُ دُعاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ » .

(٣) قال ابن عطاء السكندري رحمه الله تعالىٰ : **واعلم** أنَّ للدعاء أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقاتاً . فإن وافق أركانه قوي ، وإن وافق أجنحته طار في السماوات ، وإن وافق مواقيته فاز ، وإن وافق أسبابه **نجح** .
فأركانه : ١ ـ حضور القلب ، و٢ ـ الرقَّة ، و٣ ـ الاستكانة ، و٤ ـ الخشوع ، و٥ ـ تعلُّق القلب بالله ، و٦ ـ قطعه من الأسباب . **وأجنحته** : الصدق ، **ومواقيته** : الأسحار ، وأسبابه الصلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ . اهـ .

لسعدٍ : « أَطِبْ كَسْبَكَ تُسْتَجَبْ دَعْوَتُكَ »[1] . ولأنَّ أكل الحلال من أهم الأمور في صفاء القلب وصلاحِه ، وإذا صَلَح صَلُح الجسد كلُّه ، لأنَّه مُثِّل بالزيت والمصباح ؛ كلَّما صفا ورَقَّ . . قوي ضياؤه في البيت ، وانكشفت به الأمور الخفيَّة ، ولهذا حَفِظَ الله الصالحين في أطعمتهم عن أيسرِ الشُّبَه التي يعلمها هو دونهم ، كان المحاسبيُّ رحمه الله إذا مدَّ يده إلىٰ طعام فيه شبهة ، لم تمتدَّ ، وإن امتدت لخفَّة الشبهة ، وأتى بشيء منه . . لم يبتلعه ، ومن الناس مَن يراه يغلِي دوداً فيدَعُه ، وذلك مِن حفظ اللهِ لهم .

مفتاح الحاجة : وقد قيل : **الدعاءُ مفتاح الحاجة ؛ قال تعالى ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، وأسنانها ـ الأَوْلى** : وأسنانه : مفتاح الحاجة ـ **لُقَم الحلال** .

الداعي الخائف : **وكان يحيى بن معاذ يقول : إلهي كيف أدعوك يا ربُّ وأنا عاصٍ ، وكيف لا أدعوك وأنت كريم !! فتعارض عنده الأمران .**

وبالجملة فشرطُ استجابة الدعاء طاعةُ العبد لربِّه .

الداعي الغافل : **وقيل مرَّ موسى عليه السلام برجل يدعو ويتضرَّع إلى الله فقال موسى عليه السلام : إلهي ؛ لو كانت حاجته بيدي قضيتُها !! فأوحي الله تعالى ﴿ أنا أرحمُ به منك ، ولكنه يدعوني وله غَنَم وقلبُه عند غنمه ، وإنِّي لا أستجيب لعبد يدعوني وقلبُه عندَ غيري ﴾ . . فذكر موسى عليه السلام للرَّجُل ذلك ! فانقطع لله تعالى بقلبه فقُضيت حاجتُه .**

إيضاح : فيه دَلالة على أنَّ مِن شرط الدعاء حضورَ القلب وصحَّة النية ، ففي ترك ذلك قبحٌ ، وأقبحُ منه مَن يقرأ الفاتحة في الصلاة وهو غافلُ القلب عمَّا يتكلَّم به بلسانه ، مشتغل بأسباب الدنيا .

جهالة المدعوِّ : **وقيل لجعفر الصادق ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟! فقال : لأنَّكُم تدعون مَن لا تعرفونه حقَّ معرفته التي تفيد قلوبَكم تعظيمه .**

---

(١) في رواية : « تكن مُستجابَ الدعوة » .

الدواء الناجع : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : ظهر بيعقوب بن الليث علَّة أعيت الأطباء ، فقيل له : في ولايتك رجلٌ صالح يسمَّى (سهل بن عبد الله) . . لو دعا لك لعلَّ الله تعالى يستجيبُ له !! فاستحضر سهلاً ؛ فقال له : أُدعُ الله عزَّ وجلَّ لي . فقال سهل رحمه الله : كيف يُجاب دعائي فيك وفي محبسك ـ وفي نسخة : حبسك ـ مظلومون !! فأطلق كلَّ مَن كان في حبسه ، فقال سهل : اَللَّهمَّ كما أرأيتَه ذُلَّ المصيبة بما ابتليته به وعجز عن إزالته . . فأره عِزَّ الطاعة التي طلب الخلاص مما هو فيه بأهلها ، وفرِّج عنه . فعُوفيَ من ساعته . فعرض مالاً على سهل فأبىٰ أنْ يقبله ، فقيل له : لو قبلته ودفعتَه إلى الفقراء لكان خيراً لك !! فنظر إلى الحصباء في الصحراء ؛ فإذا هي جواهرُ ، فقال لأصحابه : مَن يعطى مثل هذا يحتاجُ إلى مال يعقوب بن الليث !!

تكميل وإيضاح : وفي ذلك دَلالة على أنَّ من الكُرَب العظيمة ما لا يفرِّجُها مالٌ ولا جاهٌ ؛ ولا سلطنة ولا طِبٌّ ، وإنَّما يفرِّجها صحيح الافتقار والتوبة ، والالتجاء إلى من بيده النفعُ والضرُّ .

جَهِلَ وعلمَتْ : وقيل : كان صالح المُرِّيُّ يقول كثيراً : منَ أدمن قرع باب : داوم عليه ـ وفي نسخة : الباب ـ يوشك أن يفتحُ له ، فقالت له رابعة : إلى متى تقول هذا القول ؟! متى أغلق هذا الباب حتى يستفتح !! فقال صالح : أنا شيخ جَهِلَ . . وهذه امرأة علمت .

توضيح : تكلَّم صالح من مقام الكسب والعبودية ، فأشار إلى الدعاء والابتهال إلى الله ، فإنَّه يجيبُ المضطرَّ إذا دعاه ، وتكلَّمت رابعة من مقام التوحيد ؛ فأشارت إلى أنَّ رحمته مبسوطةٌ ، كما في خبر : « إِنَّ ٱللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِٱللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيْءُ ٱلنَّهَارِ ، وَيَدَهُ بِٱلنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيْءُ ٱللَّيْلِ »[1] : يبسط رحمته وفضله على عباده ، وكلٌّ منهما على حقٍّ ، إلاَّ أنَّ صالحاً عَرَف علوَّ درجة رابعة وما أشارت إليه . . فأقرَّ لها بذلك .

دعاء التربية : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر

---

(١) أخرجه مسلم : ٣١ ـ ٢٧٥٩ ؛ عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه .

الرازي ؛ يقول : سمعت أبا بكر الحربيَّ ؛ يقول : سمعت السريَّ ؛ يقول : حضرتُ مجلس أبي محفوظ معروف الكرخي ، فقام إليه رجل ؛ فقال : يا أبا محفوظ ؛ أُدع الله تعالى أنْ يردَّ عليَّ كيسي ، فإنَّه سُرِق وفيه ألف دينار !! فسكت . فأعاد له ذلك ، ثم سكت فأعاد له ذلك ، فقال معروف : ماذا أقول لربِّي يا أخي : أقولُ له (ما زوَيْتَه : قبضته عن أنبيائِك وأصفيائك . . فرُدَّه عليه) ؟!! فقال له الرجل : فادع الله تعالى لي ، فقال : اللهم ؛ خِرْ له[1] .

إيضاح : فيه دَلالة على كمال مراقبة معروفٍ لمولاه ؛ وما يدعو به ، فإنَّه لم يلتفت لحُرْقَة السائل ؛ ولا لكثرة ما ضاع له من المال ؛ ولا لما عليه أكثرُ الناس من أنَّهم يتأسَّفون ويتألَّمون لمن أخبرهم بمصيبة له نزلت به ، ويزيدونه بذلك ألماً على ألمه ، فإنَّه خلافُ معهودِ الشَّرع ، إذ معهودُه أن أرباب البلايا يصبَّرون ويعزَّون ويهوَّنُ عليهم ما نزل بهم ، ويعرفون أنَّ في الله خَلَفاً من كُلِّ مصيبة ، فتثبَّتَ معروف . . والسائل يكرِّرُ عليه السؤال بالدعاء له أن يجمعَ الله عليه كيسَه ، فرفع رأسَه له ؛ وقال له : (يا أخي ؛ شيء زواه الله عن أنبيائه وأوليائه . . أدعو لك أن يأتيك به !!) فلما سمع منه ذلك ؛ قال : (ادعُ الله لي) : مما يراه لي صَلاحاً . فقال (اللَّهُمَّ خِرْ لَهُ) . . كما تقرَّر .

يُرَدُّ بصرُه : وحكي عن الليث أنَّه قال : رأيت عقبةَ بن نافع ضريراً ، ثم رأيتُه بصيراً !! فقلت له : بم رُدّ عليك بصرك ؟! فقال : أُتيتُ في منامي فقيل : قل (يا قريب يا مجيب ؛ يا سميعَ الدعاء ، يا لطيفاً لما يشاء رُدَّ علي بصري) يردُّ عليك بصرُك . فقلتُها فردَّ اللهُ عليَّ بصري . في ذلك دَلالة على فضيلة هذا الدعاء .

---

(١) شبيه بهذه الحكاية ما أخرجه الإمام الخلال في « كرامات الأولياء » ص١١٢ بتحقيقنا بسنده « ولد لرجل مولود، فقالت امرأته : اذهب إلىٰ معروف يدعُ الله له ، فأتىٰ به معروفاً ؛ قال : (يا أبا محفوظ ادع الله لولدي هذا). فقال : (اللهم خِرْ له) . فمات الصبيُّ . . ثم ولد الآخر فكان مثل ذلك ! فلما ولدت الثالث قالت : لست أريد أن تذهب به إلىٰ معروف . قال : فرأينا في ذلك الصبيِّ من الوَهَن ما لم يكن لنا معه نوم ولا قرار ؛ ولا أكل ولا شرب . قال : فلما عيل صبرنا ؛ قالت : اِذهب به إلىٰ معروف يدعو الله له . قال : فجئته فحدَّثته بالحديث ؛ وقلتُ (أُدع الله له) . فقال (اللهم ؛ خِرْ له) . فمات الصبيُّ .

كافي عباده : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : كان بي وجعُ العين ابتداءَ ما رجعتُ إلىٰ نَيْسابور من مرو[1] ، وكنت مدَّة أيَّام لم أجد النوم ؛ من شدَّة الألم ! فتناعست صباحاً ؛ فسمعت قائلاً يقول لي : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ فانتبهتُ وقد فارقني الرَّمَد ؛ وزال في الوقت الوجع ، ولم يصبني بعد ذلك وَجَع العين ؛ ببركة صبره على ما ابتلاه ، وكأنَّه حين فارقه الرَّمَد كان في ضرورة احتاج فيها إلى بصره .

مشية الخُدَّام : وحُكي عن محمد بن خزيمة أنَّه قال : لما مات أحمد ابن حنبل كنت في الإسكندرية فاغتممت ، فرأيت في المنام أحمد ابن حنبل وهو يتبختر ! فقلت : يا أبا عبد الله ؛ أيُّ مِشيةٍ هذه !؟ فقال : مشية الخُدَّام في دار السلام : الجنة . فقلت له : ما فعل الله عزَّ وجلَّ بك ؟ . فقال : غفر لي وتوَّجني بتاج ، وألبسني نعلين من ذَهَب ؛ وقال : ﴿ يا أحمد ؛ هذا بقولك (القرآن كلامي) . ﴾ .

ثم قال : ﴿ يا أحمد ؛ أُدْعني بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفيان الثوري وكنت تدعو بها في دار الدنيا ﴾ . فقلت : (يا ربَّ كلِّ شيء ؛ بقدرتك على كلِّ شيء . . اغفر لي كلَّ شيء ، ولا تسألني عن شيء) ! فقال : ﴿ ياأحمد ؛ هذه الجنة فأدخلها ﴾ فدخلتُها .

تعقيب : في ذلك دَلالة على فضيلة الإمام أحمد . وفائدةُ قوله (يا رب . . . الخ) ترجع إليه في الدنيا ؛ حيثُ نُبِّه على أن يدعوَ به فيها لفضيلته ، فإنَّ الآخرة ليستَ دار عمل .

عتيق النار : وقيل : تعلَّق شابٌّ بأستار الكعبة ؛ وقال (إلهي ؛ لا لك شريك فيؤتىٰ ويقصد ، ولا وزير فيُرشىٰ ؛ إن أطعتُك فبفضلك . . ولك الحمدُ على ذلك ، وإن عصيتك . . فبجهلي . . ولك الحجَّةُ عليَّ ، فبإثبات حجَّتِك عليّ وانقطاع حجَّتي لديك . . إلاَّ غفرت لي) . فسمع هاتفاً يقول : الفتىٰ عتيقٌ من النَّار .

استدعاء الرحمة : هذا من أحسن الأسباب في استدعاء الرحمة بالفعل والقول ؛

---

(١) في (م) من مرو إلى نيسابور .

أما الفعل فالتعلُّق بالجنانَ، وأما القول . . فحسنُ الخطاب ، لأنَّ قوله (فبإثبات حجَّتك عليَّ) إقرارٌ للهِ بلزوم الحقِّ عليه ، كما قال ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[1] .

وقوله (وانقطاع حُجَّتي لديك) إقرارٌ بالمعصية ، ومَن تكون هذه حالتُه . . فهو فقيرٌ إلى الرحمة ، ومن له الحجَّة . . فهو المقتدر على ما يشاء ، ويرغب إليه في العفو عن الخطأ .

فائدة الدعاء : وقيل : **فائدةُ الدعاء إظهارُ الفاقة بين يديه تعالى ، فإظهارها سببٌ للرحمة ، وإلاَّ ! فالربُّ يفعلُ ما يشاء من رحمة وهلاكٍ ، لأنَّه مالكٌ للكلِّ . .** فيتصرَّف في ملكه كيف يشاء ، والظلم في حقِّه محالٌ ، لأنه :

إمَّا ١ـ أن يرجع إلى مخالفة الأمر وارتكاب النهي . . واللهُ تعالى لا آمر له ؛ ولا ناهٍ .

أو ٢ـ إلى التصرُّف في ملك الغير بغير إذنه ولا ملكَ حقيقةً لغير اللهِ حتى يكونَ تصرُّفُه فيه ظلماً ، كما قال تعالى ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[2] .

دعاء العامَّة : وقيل : **دعاء العامَّة بالأقوال ، لأنَّهم يدعون في حوائجهم بألسنتهم ،** وغايته حضور النية .

دعاء الزهَّاد : **ودعاء الزهَّاد بالأفعال ،** لأنَّه يتبرَّأُ من الدُّنيا . . ثمَّ يدعو ، فأضاف إلى الأقوال الأفعالَ ؛ وهي : إخلاء اليد من الدنيا امتثالاً لأمر الله .

دعاء العارفين : **ودعاء العارفين بالأحوال التي هي التضرُّع والتذلُّل بالقلب ،** فإنَّه يُضيفها إلى الأقوال والأفعال .

وظاهر كلامِه أنَّ دعاء العامَّة بالأقوال خاصَّة ، ودعاء الزاهد بالأفعال خاصَّة ، ودعاء العارف بالأحوال خاصَّة !!

خير الدعاء : وقيل : **خيرُ الدعاء ما هيَّجتْه الأحزانُ على التقصير في حقِّ اللهِ تعالى** مع إفراغ الجهد في طاعة الله تعالى .

---

(١) الآية : ١٤٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

(٢) الآية : ١١ ؛من السورة التي ذكر فيها : الفتح .

تمام النعمة : وقال بعضُهم : **إذا سألتَ اللهَ تعالى حاجة فتسهَّلتْ عليك : عُجِّل** قضاؤها . . فإن كانت في أُخراك فقد بلغت منتهاك ، أو في دنياك . . **فاسأل الله تعالى عقبَ ذلك الجنَّة ، فلعل ذلك يومُ إجابتك** ؛ فيجمع له خير الدارين ! !

ألسنة الداعين : **وقيل : ألسنةُ المبتدئين منطلقة بالدعاء ، فأيُّ شيءٍ خَطَر لهم من** مصالحهم دَعَوا ربَّهم فيه ، فلا يفرِّقون بين ما هو وقتُه وما ليس وقته ! .

ألسنة المتحققين : **وألسنة المتحققين** : العارفين **بالله خرست عن ذلك** : عن الدعاء إلاَّ فيما يدعوهم العلم إليه ، ويكون هو الأحبَّ عند ربِّهم ، وربمَّا كان سكوتُهم في وقتٍ أولى مِن دعائهم ، فيَدَعُ الخيرةَ لله . . وهو يعلم ما في قلبه ؛ فلا ينطلِقُ لسانُه ، ولهذا خرست ألسنتهم ؛ لا قلوبهم .

محترز الدعاء : **وسئل الواسطيُّ أن يدعوَ ؛ فقال : أخشى أنِّي ؛ إن دعوتُ يقال لي (إن سألتنا مالَكَ عندنا ؛ فقد اتهمتنا في تأخيره ، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا ! ؛ فقد أسأت الثناء علينا** . لأنَّ الدَّاعي يثني على ربِّه قبل دعائه ، فإذا أثنى عليه وطلب منه في الإثْر ما لا يستحِقُّه . . فلم يُوقِع ثناءه عليه موقعَه ، لأنَّه أردفه بما لم يوافقه مما يخالف ما جرى به القضاء . **وإن رضيتَ بما أجريناه** لك ؛ ولم تَدْعُ بشيء . . **أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك به في الدهور**) .

هجر الدعاء : **ورُوي عن عبد الله بن منازل أنَّه قال : ما دعوتُ منذ خمسين سنة ، ولا أريد أن يدعوَ لي أحدٌ** ، لأنَّ الدعاءَ إنَّما يكون فيما اختاره العبد لنفسه ! وابن منازل ممن كَمُل رضاه بما يُجريه عليه مولاه ؛ فاستغنى عن الدعاء بحسن اختيار مولاه له فيما قدَّره وأمضاه .

استدراك : وفي هذا وما قبلَه ميلٌ إلى أنَّ ترك الدعاء أَولى ، والأكثرون على خلافه ! !

قال الغزاليُّ : فإن قيل : فما فائدةُ الدعاء . . مع أنَّ القضاء لا مردَّ له ؟ !

فاعلم أنَّ من جملة القضاء ردَّ البلاء بالدعاء ، فالدعاءُ سببٌ لردِّ البلاء ؛ ووجودِ الرحمة ، كما أنَّ التُّرس سببٌ لدفع السِّلاح ، والماء سببٌ لخروج النبات من الأرض ، فكما أنَّ الترس يدفع السَّهم فيتدافعان . . فكذلك الدعاءُ والبلاء ، وليس مِن شرط الاعتراف بالقضاءِ أن لا يحمل السلاحَ ؛ وقد قال الله

تعالى ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾[1] فقدَّر الله الأمرَ وقدَّر سببَه .

سلَّم المذنبين : وقيل : الدعاء سلَّم المذنبين : وسيلتُهم ، فلا يصلون إلى عفوِ الله إلاَّ بتضرُّعهم ودعائهم ، كما قال تعالى ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[2] .

وصلة الدعاء : وقيل : الدعاء هو المراسلةُ بينك وبين الله ؛ بأن يخلُق لك في قلبك الدعاء ، والتضرُّع والبكاء على نفسك ، وما دامت المراسلةُ باقيةً . . فالأمر جميلٌ بعدُ . بخلاف مَن استرسل في غفلته وتنعَّم بشهوته .

لسان المذنبين : وقيل : لسانُ المذنبين دموعُهم : بكاؤهم على تقصيرهم في حقِّ ربِّهم ، فبكاؤهم على ذلك مع سكوتهم أنفعُ لهم من دعائهم بألسنتهم مع قساوة قلوبهم .

مراسل الله : وسمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : إذا بكى المذنب من خشية الله ؛ فقد راسَلَ الله تعالى . فبكاؤهُ شفيعٌ له ، فهو الرَّسول : الواسطة بين ذنبه وعفوِ ربّه ، ولذلك استغنى به عن النطق بلسانه . وفي معناه أنشدوا[3] :

دُمُوعُ ٱلفَتَىٰ عَمَّا يُجِنُّ: يستر تُتَرْجِمُ وَأَنْفَاسُهُ تُبْدِيْنَ مَا القَلْبُ يَكْتُمُ

فاستغنىٰ بالبكاء والنَّفَس عن التضرُّع بالدعاء .

باب الإجابة : وقال بعضهم : الدعاءُ ترك الذنوب مع طلب غفرانها ، لأنَّ طلب غفرانها مع استمرارها يسدُّ باب الإجابة ، قال تعالى ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾[4] .

دعاء كوز : وقد حُكي أنَّ بعضَهم أتى مَكَّاسين ليخلِّص مظلوماً منهم فسألهم فيه ؛ فتركوه ، ثم قالوا له : أُدع لنا . فقال (قولوا لذلك الكوز يدعو لكم) . يعني : الكوز الذي يجمعوا فيه الدراهم من الظُّلم . نبَّههم علىٰ أنَّكم إن تبتم غُفِر لكم ، وما يفيد دعائي على استمراركم على الظُّلم !! .

---

(١) الآية : ١٠٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

(٢) الآية : ٦٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : غافر .

(٣) دُمُوعُ ٱلفَتَىٰ عَمَّا يُجِنُّ تُتَرْجِمُ وَأَنْفَاسُهُ تُبْدِيْنَ مَا القَلْبُ يَكْتُمُ

(٤) الآية : ٨٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : طه ﷺ .

سرُّ الدعاء : وقيل : **الدعاءُ لسان الاشتياق إلى الحبيب** ، إذ لولا اشتياق العبد للمدعوِّ به . . لم ينطق لسانُه بالدُّعاء بحصوله .

الإذن خير : وقيل : **الإذن في الدعاء خيرٌ للعبد من العطاء** ، إذ لولا أنَّ الحقَّ تفضَّل على عبده وأذن له بالدعاء الذي هو سببُ العطاء عادةً . . لم ينل العطاء ! فهو من جملة العطاء ، فإذا عَجَّل اللهُ للعبد الدعاء ؛ فقد تفضَّل عليه بالعبادة ، فإن رتَّب عليه ما دعا به ؛ فقد حصل له مرادُه ، وإلاَّ ! فقد حصل له بعضُ العطاء وهو الدعاء ، فالدُّعاء خيرٌ من العطاء[1] !! فالإذن له فيه كذلك قطعاً .

علامة الإجابة : وقال الكَتَّاني : **لم يفتح الله تعالى لسانَ المؤمن بالمعذرة والاعتراف بالتقصير** ؛ بأن يدعوَ الله بتضرُّع إليه . . **إلاَّ لفتح باب المغفرة له** ، فإنَّ الدُّعاء عبادةٌ كما مرَّ ، فإنْ ترتَّب عليه المدعوُّ به . . كان زيادة ، وإلاَّ ! فالحقُّ يَدَّخِرُ له جزاء دعائه ، أو يؤتيه ما هو خيرٌ له مما يعلم أنَّ فيه مصلحتَه .

المقام الأتمُّ : وقيل : **الدُّعاء يوجبُ الحضورَ والمُقامَ للدَّاعي على باب الحقِّ تعالى ، والعطاءُ يوجِبُ الصَّرف** : انصرافه عن باب الحقِّ ـ وفي نسخة : الانصراف ـ .

والمقام والبُكاء على الباب أتمُّ من الانصراف بالمثاب

ـ وفي نسخة : بالثواب ، وفي أخرى : بالمبلوِّ ـ .

الدعاء المحمود : وقيل : **الدعاءُ مواجهةُ الحقِّ بلسان الحياء** . يعني : الدعاء المحمودُ ما قارنه الحياءُ ، لأنَّ الحياءَ إنَّما يكون مع استشعار الحقِّ إليك في حال دعائك ، فإن دعوتَه ؛ وقد تقدَّمت أجرامك[2] غَلَب على قلبك الحياءُ من الله ، لكونك تسألُه رحمته . . وقد عصيتَ ! .

شرط الدعاء : وقيل : **شرطُ الدُّعاء الوقوفُ مع القضا بوصف الرِّضا** ؛ بأن يرضى العبدُ بكلِّ ما يَرِدُ عليه مِن الله عقب دعائه ، لعلمه بأنَّ مولاه اختار له .

---

(١) المراد أنه خير من بعض العطاء ؛ لا من مطلقه ، فالمفضول عطاءُ بعضِ الحظوظ ، والغرض إفادة أن الدعاء لا بدَّ له من الثمرة والفائدة . والمحقَّق من ذلك نفس الدعاء . . باعتبار التوفيق له (عروسي : ٣/٢٢٨) .

(٢) جمع (جُرم) بمعنىٰ المعصية الكبيرة .

سدُّ الطريق : وقيل : كيف تنتظر أنتَ إجابة الدَّعوةِ ؛ وقد سدَدْتَ طريقها بالهفوة : الزَلَّة ، لأنَّ السبب في العفو ملازمةُ الطاعة . . اللازمِ لها تركُ الهفوة .

حجاب البعد : وقيل لبعضهم : أُدعُ لي . فقال : كفاك من الأجنبيَّة : البعدِ عنه تعالى أن تجعل بينك وبينه واسطةً .

حاصله : أنَّه سأله أن يدعوَ له فنبَّهه على طريقٍ أقربَ إلى الإجابة ممَّا سلكه ؛ وهو أنَّك لو دعوتَه بنفسك وتضرَّعت إليه . . لاستغنيتَ عنِّي وعن غيري ، قال تعالى ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

تخلصة أسير : سمعتُ حمزةَ بن يوسف السَّهْمِيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا الفتح نصرَ بن أحمد بن عبد الملك ؛ يقول : سمعتُ عبد الرحمان بن أحمد ؛ يقول : سمعتُ أبي ؛ يقول :

جاءت إمرأة إلى تقي بن مَخْلد ؛ فقالت له : إنَّ ابني قد أَسَره الروم ؛ ولا أقدر على مال أفديه به أكثر من دُوَيْرة[2] لي ؛ ولا أقدر على بيعها ! فلو أشرتَ إلى مَن يفديه بشيء من ماله . . لكان خيراً لك ! فإنَّه ليس لي ليلٌ ولا نهار ؛ ولا نوم ولا قرار أقرُّ فيه من أجله ! فقال لها : نعم ؛ انصرفي حتى أنظر في أمره إن شاء الله تعالى . قال :

فأطرق الشيخ رأسَه وحرَّك شفتيه بالدعاء لها ؛ بأن يخلِّص ابنَها لها بلا كُلفة ولا غَرَامة ، وكان ذلك سِرَّاً بينه وبين ربِّه . فوَرَّخ أصحابُه وقتَ الدعاء ليعرفوا بذلك ما يُجريه الحقُّ من القضاء ، قال : فلبثنا مدَّة ؛ فجاءت المرأة إلى الشيخ ومعها ابنها وأخذت تدعو له ؛ وتقول : قد رجع سالماً ؛ وله حديث يحدِّثُك به ؛ وهو ما ذكره بقوله :

فقال الشابُّ : كنتُ في ـ وفي نسخة : بين ـ يدي بعض ملوك الروم مع جماعة من الأسارى ، وكان له إنسان يستخدمنا كلَّ يوم ، فكان يخرجنا من البلد إلى الصحراء للخدمة ؛ ثمَّ يردُّنا وعلينا : على أرجلنا قيودُنا التي قيَّدونا

---

(١) الآية : ٤٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

(٢) تصغير دار ، والدار ما يدار حوله الحدود الأربعة . أي : منزل صغير .

بها ، فبينا نحن نجيء من العمل بعد المغرب مع صاحبه الذي كان يحفظنا . . أنفتح القيد من رجلي ووقع على الأرض !!

ووصف اليوم والساعة اللتين وقع فيهما القيدُ . . فوافق الوقت الذي جاءت فيه المرأة للشيخ ودعا لها الشيخ فيه ، قال : فنهض إليَّ الذي كان يحفظني وصاحَ عليَّ ؛ وقال لي (كسرتَ القيد ؟!) قلت : لا ، بل إنَّه سقط من رجلي . قال : فتحيَّر في أمري وأحضر أصحابه وأحضر الحدَّاد ؛ وقيَّدوني ثانياً ، فلما مشيت خطوات سَقَط القيدُ أيضاً من رجلي فتحيَّروا في أمري . . فدعوا رُهْبَانهم ؛ فقالوا لي : ألك والدة ؟ قلت : نعم . قالوا : وافق دعاؤها الإجابةَ ، وقد أطلقك اللهُ عزَّ وجلَّ . . فلا يمكننا تقييدُك ! فزوَّدوني وأصحبوني بمن أوصلني إلى ناحية المسلمين .

تعقيب : في ذلك كرامةٌ للشيخ ، ودلالة على أنَّ دعاء الوالدين معلومُ الإجابة . . في كلِّ شريعة ؛ بشَرَفِهما وحرمَتِهما عند الله ، كما قال ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فقَرَن شكرهما بشكره من الولد ، لكمال إحسانهما إليه وبرِّهما به .

* * *

٣٨ ـ باب الفقر

تعريفه : هو التبرِّي من رؤية المِلْكَة . ويقال : هو إرسال النفس في أحكام الله تعالى . ويقال غير ذلك ، وسيأتي بعضُه .

درجاته : وهو ثلاث درجات : **الأولى** ؛ وهو فقر الزهاد : التبرُّؤ من رؤية الفقر .

والثانية : التبرُّؤ من رؤية الأعمال من الأحوال والمقامات .

والثالثة : التبرُّؤ من رؤية كونِه متبرِّئاً .

رتبته : وهو بُكلِّ حالٍ ممدوحٌ ومطلوب ، **قال اللهُ عزَّ وجلَّ** ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ

أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[1] .

فضيلة الفقراء : أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن شجاع بن الحسين بن موسى البزاز ببغداد ؛ قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن الهيثم الأنباري ؛ قال : حدَّثنا جعفر بن محمد الصائغ ؛ قال : حدَّثنا قَبيصةُ ؛ قال : حدَّثنا سفيانُ ؛ عن محمد بن عمرو بن علقمة ؛ عن أبي سَلمةَ عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ عن النَّبيّ ﷺ قال :

« يَدْخُلُ ٱلْفُقَرَاءُ ٱلْجَنَّةُ قَبْلَ ٱلأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِ مِئَةِ عَامٍ هي نِصْفُ يَوْمٍ »[2] من أيام الآخرة .

حقيقة المسكين : وأخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدوس الحيريُّ ببغداد ؛ قال : حدَّثنا أبو أحمد حمزة بن العباس البزَّاز ببغداد ؛ قال : حدَّثنا محمد بن غالب بن حرب ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن مسلمة ؛ قال : حدَّثنا محمد ابن أبي الفرات ؛ عن إبراهيم الهجري ؛ عن أبي الأحوص ؛ عن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«إنَّ ٱلمِسْكِينَ لَيْسَ بِالطَّوَّافِ ٱلَّذِي تَرُدُّهُ ٱللُّقْمَةُ وَٱللُّقْمَتَانِ وَٱلتَّمرةُ وَٱلتَّمْرَتَانِ» .

قال : فقيل : مَن المسكين ؛ يا رسول ﷺ !؟ قال : هو « ٱلَّذِي لاَ يَجِدُ مَا يُغْنِيْهِ ، وَيَسْتَحِيي أَنْ يَسْأَلَ ٱلنَّاسَ ، وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ »[3] .

توضيح : قال الأستاذ الإمام القشيريُّ رحمه الله : معنى قوله (يَسْتَحْيي أَنْ يَسْأَلَ ٱلناسَ) : يستحي من الله تعالى أن يسأل الناس . لا أنه يستحيي من الناس أن يسأل الناس ! ولبقاء الكلام على ظاهره أيضاً وجهٌ .

شعار الأولياء : والفقر شعارُ الأولياء وحِلية الأصفياء ، واختيارُ الحقِّ سبحانه لخواصِّه من الأتقياء والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والفقراء صفوة الله تعالى

---

(١) الآية : ٢٧٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

(٢) يأتي تخريجه ص ٧٧٤ .

(٣) متفق عليه عند البخاري : ١٤٧٩ ، ومسلم : ١٠١ ـ ١٠٣٩ ؛ وغيرهم عن أبي هريرة بألفاظ مختلفة متقاربة ، وأقربُها للفظ المؤلف ما عند مالك في «الموطأ» : ٥٧٥ ، وأحمد : ٢/ ٣١٦ .

من عباده ، ومواضع أسراره بين خلقه . . بهم يصون الحقُّ تعالى الخلق ، وببركاتهم يبسط عليهم الرِّزق : يوسِّعُه وينشرُه .

جلساء الله : والفقراء الصُبَّرُ الصابرون هم جلساءُ الله تعالى يوم القيامة ؛ بأن يكرمَهم ويرفعَ درجتهم ، لأنَّه تنزَّه عن أن يجلس أو يجالس ، لكن لَمَّا كان من المعهود فيما بيننا أنَّ مَن جالس الملوك كان مُكَرَّماً ؛ مرفوعَ الدرجة . . أُطلقت المجالسة وأُريد بها ما قلناه ؛

مفتاح الجنة : بذلك وَرَد الخبرُ عن النَّبِيِّ ﷺ كما ذكره بقوله : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلميُّ رحمه الله ؛ قال : أخبرنا إبراهيم بن أحمدَ بنِ محمد بن رجاء الفِزَاريُّ ؛ قال : أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر بن أحمد بن خشيش البغدادي ؛ قال : حدَّثنا عثمان بن معبد ؛ قال : حدَّثنا عمر بن راشد ؛ عن مالك ؛ عن نافع ، عن ابن عمر ؛ عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ؛ قال : **قال رسول الله ﷺ : « لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحٌ ، وَمِفْتَاحُ ٱلجَنَّةِ حُبُّ ٱلمَسَاكِيْنَ ، وٱلفُقَرَاءُ ٱلصُّبَّرُ جُلَسَاءُ ٱللهِ يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ »**[1] .

محبَّة الفقراء : في هذا وما تقدَّم دَلالة على شرف الفقراء ومحبَّة اللهِ لهم ، ومن أحبَّ مَنْ أحبَّه اللهُ . . كان شريكاً له في محبَّة الله له ، وبهذا الاعتبار كان حبُّ المساكين مفتاحَ الجنة ؛ لأنَّهم فيها ، وحبُّهم سببٌ لدخولها معهم ، وكان الفقراءُ جلساءَ الله يوم القيامة .

أهلية الديوان : وقيل : إنَّ رجلاً أتى إبراهيمَ بن أدهم بعشرة آلاف درهم ليعتان بها ! فأبى أن يقبلَها منه ، وقال له : تريدُ أن تمحوَ اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ! ! لا أفعل ذلك .

اختيار الفقر : فيه دلالة على شِدَّة حبِّ الفقر عندهم ، وأنَّهم يعضُّون عليه بالنواجذ ، كيف لا . . وهو حال النَّبيِّ ﷺ الذي كان يختارُه لنفسه ، ويدعو به لأهله ، ويصفُ بالفلاح مَن اتَّصف به ، ففي الخبر : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوْتاً» . وروي . . « كَفَافاً »[2] .

---

(١) أخرجه ابن لال ؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما ؛ كما عزاه إليه في «كنز العمال» : ١٦٥٨٧ .

(٢) تقدم تخريجه ص٣٦٧ ؛ ٥١٣ .

وفيه أيضاً : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَكَانَ قُوتُهُ كَفافاً وَقَنَّعَهُ اللهُ »[1] .

سبب الهلاك : **وقال معاذٌ النَّسَفي : ما أهلك الله تعالى قوماً ؛ وإن عملوا ما عملوا . . حتَّى أهانوا الفقراء وأذلُّوهم** . كما قالوا لنوح عليه السلام : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾[2] ؟ ! !

وفي قصة صالح عليه السلام ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾[3] .

تذكير : وما قاساه بلالٌ وصهيب وعمَّار في أوائل الإسلام معلومٌ .

فضيلة الفقراء : **وقيل : لو لم يكن للفقير إلى الله فضيلةٌ غيرُ إرادته وتمنِّيه سَعة أرزاق المسلمين ؛ ورُخْصَ أسعارِهم** للأشياء التي يحتاج إلى شرائها . . **لكفاه ذلك** : ما ذكر من إرادته وتمنِّيه ، **لأنَّه يحتاج إلى شرائها** بأيسرِ الأثمان فيريدُ ذلك ويتمنَّاهُ . **والغنيُّ يحتاج إلى بيعها !!** وشتَّان بين مَن يتمنَّىٰ الرَّخَاء للمسلمين لفقره ؛ وإن كان ذلك تَبَعاً لحاجته . . وبين مَن يتمنَّىٰ غلاءَ الأسعار لكثرة فائدته !! .

هذا لعوامِّ الفقراء ـ وفي نسخة : حال العوام من الفقراء ـ **فكيف حالُ خواصِّهم !!** ؛ وهم الزهاد الذين ترقَّوا بإيثارهم على أنفسهم . . بما هم محتاجون إليه ، وبحسن معاملتهم ؛ وبكمال تنعُّمهم بالذكر والمناجاة لمولاهم !!؟ .

حقيقة الفقر : **سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الواحد ابن بكر ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر بن سمعان ؛ يقول : سمعت أبا بكر بن مسعود ؛ يقول** :

سُئل يحيى بن معاذ عن الفقر ؛ فقال : حقيقتُه أن لا يستغنيَ العبدُ إلاَّ بالله تعالى : دونَ خلقِه ، لأنَّه مَن افتقر إليهم لم يستغنِ بالله . . وقلَّت معرفتُه به ، ومن صحَّت معرفتُه به ؛ وأنَّه لا مُلك لغيره حقيقةً . . لم يفتقر لغيرِه .

---

(١) أخرجه مسلم : ١٢٥ ـ ١٠٥٤ ، وأحمد : ٢/ ١٦٨ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الآية : ١١١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الشعراء .

(٣) الآية : ٧٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

ورسمُه : الفقر : **عُدْم الأسباب كلِّها** لئلا يكون اعتماده عليها .

لباس الرضا : **وسمعتُه أيضاً ؛ يقول** : **سمعتُ منصور بن عبد الله ؛ يقول** : **سمعت إبراهيم القصار ؛ يقول** : **الفقرُ لباسٍ يورث الرِّضا** بكلِّ ما يُجريه الحقُّ عليه . . ما سبق به تقديره وقضاءه **إذا تحقَّق العبدُ** : تمكَّن فيه ، بخلافه قبل تمكُّنه فمتىٰ قنع العبد بما رَزَقهُ اللهُ من الدنيا وقلَّ تشوُّقه لها . . تعوَّد الرِّضا بما وقع ووافق طبعه ، وإذا تعوَّد الرِّضا بذلك ؛ وتمكَّن فيه . . انتقل منه إلى الرِّضا بكلِّ ما يَرِدُ عليه ؛ وإن خالف طبعه !! .

فقر العارفين : **وقدِم على الأستاذ أبي عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله فقير في سنةِ خمس ـ أو أربع ـ وتسعين وثلاث مئة من « زوزن » وعليه مِسَح** : لباس ، **وَقَلَنسوةُ مسحٍ** بالإضافة : قلنسوة مِسح . . **فقال له بعضُ أصحابنا** : **بكم اشتريتَ هذا المِسْح !؟ على وجه المطايبة** والمداعبة معه . . ففهم منه أنَّه سُئِل عن حاله الَّذي هو عليه ليكون اللِّباس الصحيحُ هو لباسَ التقوى ؛ كما قال تعالى ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾[1] ، **فقال** له : **اشتريته بالدنيا** : بإعْرَاضي عنها **فطُلب منِّي بيعُه بالآخرة** وأسكنُ إليها . . **فلم أبعه بها** . لأنَّ حالي هذا هو شُغلي بالله ؛ لا بغيرِهِ ، وسكوني إليه ؛ لا إلى غيره ، فلو مِلت إلى حظٍّ آخرَ . . لكنت بعتُ حظَّاً بحظٍّ وكلٌّ منهما حادث ، وحظِّي الذي أنا مشغولٌ به هو الذي لم يَزَل ولا يتغيَّر .

شمولية الفضل : وهذا فقر العارفين ، ومَن عداهم من الفقراء قد يتمسَّك بالفقر ليكون من السَّابقين إلى الجنة ؛ كما صحَّت به الأخبار[2] ، وأنَّ الكلَّ في الجنة ، وإنَّما اختلفوا في البواعث على الأعمال ، ففرقٌ بين من عمل لوجهه وقُرْبه . . ومَن عَمِل لثوابه في جنَّته ؛ وإن كان لا بدَّ من الثواب !! .

موضع السرِّ : **سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول** : **قام فقير في مجلس**

---

(١) الآية : ٢٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها الأعراف .

(٢) انظر ما تقدم ص ٧٦٤ وما بعد ، ومنه قوله ﷺ « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بخمس مئة عام » .

يطلب شيئاً من الدنيا ؛ وقال على رؤوس الأشهاد: إني جائع منذ ثلاث من الأيام. وكان هناك بعض المشايخ ؛ فصاح عليه ؛ وقال له تأديباً : كذبتَ في فقرك ! إن الفقر لكونه درجةً عالية سرٌّ من أسراره تعالى ! وهو لا يضعُ سِرَّه إلَّا عند من افتقر إليه ؛ لا إلى غيره فلا يضعه عند مَن يحمله إلى مَن يريد : من الإرادة . وقرأه بعضُهم (يزيد) ؛ من الزيادة . قال : مَن يزيد في النداء بما ناديت به .

مفرحات إبليس: سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمداً الفرَّاءَ ؛ يقول: سمعتُ زكريا النخشبيَّ ؛ يقول : سمعت حمدون القصَّار ؛ يقول : إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفَرَحِهِم بثلاثة أشياء: ١ـ رجل مؤمن قتل مؤمناً، و٢ـ رجل يموت على الكفر ، و٣ـ قلب فيه خوفُ من الفقر إلى الله تعالى .

ثالثة الكبائر: فقرن خوف الفقر بكبيرتين: ١ـ قتل المؤمن، و٢ـ الموت على الكفر، لأنَّ العبد إذا خاف الفقر . . اكتسب المال المحرَّم غالباً ، وربَّما قَتَل عليه مَن يجده معه ، وربَّما كَفَر لنيله إذا احتاج إليه ، فخوفُ الفقر آفةٌ عظيمة ، وهذا الفقرُ الذي اختاره النَّبيُّ ﷺ وسأل فيه لنفسه وآله[1] ، وأما الَّذي استعاذ منه! فهو الفقرُ لغير الله، وهو المُنسِي للاشتغال بالله. وسيأتي إيضاحه ص ٧٧٩ .

عظة جنيديَّة : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت عبد الله بن عطاء ؛ يقول : سمعت أبا جعفر الفرغاني ؛ يقول : سمعت الجنيدَ ؛ يقول : يا معشر الفقراءِ : إنكم تُعرَفون بالله ، وتُكرمَون بالله . . فأنتم من أهل الله ! فانظروا كيف تكونون مع الله إذا خلوتُم به ؟! حرَّضهم بذلك على القيام في خلواتهم بحقوق الله الذي أُكرموا لأجله ، ومن ذلك كمالُ الأدب معه ، والجدُّ في تحصيل ما يرضيه ؛ وتبريِّهم من القدرة على شيء من طاعاتهم .

تكامل الأحوال : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن الحسن البغدادي ؛ يقول : سمعتُ محمد بن عبد الله الفَرْغانيَّ ؛ يقول :

سمعت الجنيدَ ؛ وقد سُئل عن الافتقار إلى الله . أهو أتمُّ أم الاستغناءُ بالله

---

(١) انظر ص٣٦٧ ، ٥١٣ ، ٧٦٥ . والذي استعاذ منه مثل : « اللهم ؛ إني أعوذ بك من الكفر والفقر . . » أخرجه أبو داود : ١٥٤٤ ، والنسائي : ٥٤٦٦ ، والحاكم : ١/ ٢٥٢ .

تعالى ؟! فقال : إذا صحَّ الافتقار إلى الله . . فقد صحَّ الاستغناء بالله ، وإذا صحَّ الاستغناء بالله كَمُل الغنىٰ به . فلا يقال (أيهما أتمُّ . . الافتقار أم الغِنىٰ ؟) لأنَّهما حالتان لا تتمُّ إحداهما إلاَّ بالأخرى .

تحصيل : فمن كَمُل افتقاره إلى الله . . كَمُل استغناؤه عن غير الله ، بل كَمُلَ بالله .

نعت الفقير : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت جعفراً ؛ يقول : سمعت رُويماً ؛ يقول : وقد سئل عن نعت الفقير ؛ فقال :

هو إرسال النَّفس في أحكام الله . فمن كان افتقارُه إلى الله في كلِّ ما يُجريه عليه حتَّى كَمُلت معرفتُه بلطفه به وتفضُّله عليه . . أرسل نفسه تحت الأحكام في الرِّضا بجميع ما يُجريه عليه ؛ لعلمه بحُسْن اختياره له ، وقلَّ منه الاختيار والاهتمام .

معنى آخر : وقيل : نعتُ الفقير ثلاثةُ أشياء :

١ـ حفظُ سِرِّه فيما بينه وبين مولاه ، و٢ـ أداء فرضه الذي هو أساس تقواه ، و٣ـ صيانة فقره عن غير الله . . إظهاراً لكمال استغنائه بمولاه .

موانع العطاء : وقيل : لأبي سعيد الخراز : لِمَ تؤخِّر عن الفقراء رِفق الأغنياء ؟ . . فقال : لثلاث خصال :

١ـ لأنَّ ما في أيديهم غيرُ طيِّب ، والفقراء الخواصُّ إنَّما افتقروا من الدنيا اختياراً ؛ لا اضطراراً ، فلا يطعمهم الله أوساخ الأغنياء ، بل يطعُمهم تارة بإيثار بعضِهم لبعض، وتارة بكسبهم من وجه صافٍ ، وتارة بخَرْق العادة لهم .

و٢ـ لأنهم ـ أي : الأغنياء ـ غيرُ موفَّقين غالباً ، إذ لو وُفِّقوا لبذلوا أموالهم لمن يستعين بها على التفرُّغ للطاعات .

و٣ـ لأن الفقراء مرادون بالبلاء : بالفقر كغيره ، لأنَّ الحقَّ تعالى اختاره لهم ؛ فلم يحرِّك قلوب الأغنياء للإتيان بالأموال إليهم .

مؤانسة الفقراء : وقيل : أوحى اللهُ تعالىٰ إلى موسى عليه السلام ﴿ إذا رأيت الفقراء فسائلهم : حدِّثهم كما تسائِلُ الأغنياء ، وإن لم تفعل ذلك . . فاجعل كلَّ شيء علَّمْتُك تحت التراب ﴾ . هذا إرشاد إلى نفي الكبر والعظمة على الفقراء ، وأن

تحادثهم كما تحادث الأغنياء ؛ خلافا لما عليه غالب الناس ، والغرض من إيحاء الله تعالى ذلك إلى موسى عليه السلام : أن يعلِّمَهُ لبني إسرائيل ، وإلاَّ ! فالأنبياء معصومون من الكِبْر ، فأجرى الله ذلك مجرىٰ التعليم للأمة ؛ كما قال لنبيه محمد ﷺ ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] ولم يطردهم ، وربَّما قال له أغنياءُ قريش وعظماؤهم (أبعدْ عنا هؤلاء الفقراء ، فإنَّا نتأذَّىٰ بروائحهم . . كبلال وعمار وصهيب ، اِجعلْ لنا يوماً ولهم يوم) ! فهَمَّ بذلك ! فأنزل اللهُ تعالى ذلك ردّاً عليهم ، وأمره أنَّهم إذا أتوه فليسلِّمْ عليهم ، فقال تعالى ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾[2] فكان ﷺ يقول لهم إذا أتوه : « مَرْحَباً بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيْهِمْ رَبِّيْ » ؛ ويدنيهم إليه .

مجالسة الموتى : ورُوي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنَّه قال : لأَن أقعَ من فوق قصر فأنحطمَ أحبُّ إليَّ من مجالسة الغنيِّ ، لأنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إِيَّاكُمْ وَمُجَالَسَةَ ٱلمَوْتَىٰ » . قيل : يا رسول الله ؛ ومن الموتى ؟! قال : « ٱلأَغْنِيَاء »[3] . ولأنَّ مجالستهم لا يسمع فيها غالباً إلاَّ مدحُ الدُّنيا وكثرة فوائدها ، والتمكُّن من الجاه والمال فيها وسائر الأعراض ، والنفس مائلة إلى كلِّ لذيذ ؛ فينغرسَ في القلب محبَّتُها .

والمرادُ أنَّهم موتى القلوب بمحبَّة الدُّنيا حتَّى اشتغلت عن أعمال الآخرة ، كما قال تعالى ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[4] ، وقال ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يجيع أولياءه : وقيل للربيع بن خيثم : قد غلا السعر فنخشىٰ الجوع !!

---

(١) الآية : ٥٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

(٢) الآية : ٥٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

(٣) مثله ما أخرجه الحاكم : ٤/ ٣١٢ ؛ عن عائشة وصحَّحه : « إياك ومجالسة الأغنياء » . وانظر ما مرَّ عن أبي عثمان الحيري ص ٢٣٨ .

(٤) الآية : ٢١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .

فقال : **نحن أهون على الله مَن أن يجيعَنا ، فإنَّه إنَّما يجيع أولياءَه !**

فيه دلالة على أنَّه عرف حقارة الدنيا ، وأنَّها لا قَدْر لها عند الله ، وقد زواها عن أنبيائه وأوليائه .

الطلب والعطاء : وقال إبراهيم بن أدهم : **طلبنا الفقرَ فاستقبَلَنا الغنىٰ** . . لأنَّ مَن زهد في الدُّنيا وتفرَّغَ للطاعات . . اكتفى منها بأقلِّ القليل ؛ وهو القَدْر المحتاجُ إليه منها في الحقيقة ، لأنَّ المحتاجَ إليه منها ما كان عوناً على أعمال الآخرة .

وطلب الناس الغنىٰ فاستقبلهم الفقر . لأنَّ العبدَ كلمَّا نال من الدُّنيا شيئاً ورأىٰ رفعةَ درجته به فيها على غيره . . طلب الازدياد منها ، فصار بذلك فقيرَ النفس إلى الازدياد من المال والجاه .

الغنىٰ والفقر : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أحمد بن علي ؛ يقول : سمعت الحسن بن علويه ؛ يقول : **قيل ليحيىٰ بن معاذ : ما الفقر** : المذموم ؟ . **قال** : هو **خوف الفقر** : محبَّة الغنىٰ ، لأنَّ محبَّته تورث فقرَ النفس ، فكلما خاف العبد أن يفتقر جَدَّ في تحصيل الدنيا . **قيل** له : **فما الغنىٰ** : الممدوح ؟ . **قال** : هو **الأمنُ بالله تعالى** : محبَّةُ الفقر والقناعة ، لأنَّ محبَّتهما تورث الأمن والسكون إلى وعد الله بقوله ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[1] ورزق العبد ؛ وهو : ما ينتفع به من طعام وقوة وصبر وغيرها . . مضمونٌ لا بدَّ له أن يأتِيه ما دام حيّاً .

احتراز الفقير : وسمعتُه أيضاً يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت الجُريريَّ ؛ يقول : سمعتُ ابن الكُرَّيْني ؛ يقول : **إنَّ الفقير الصادق ليحترز من الغَنيّ** ؛ حذراً من **أن يدخُلَهُ الغنىٰ فيفسد عليه فقره** ، لأنَّ فقره صار قُرَّة عينه ، واستغنىٰ به عن غيره ، فكلما توهَّم أمراً يشوِّشُ عليه فقره . . أعرض عنه ، **كما أنَّ الغنيَّ يحترز من الفقر** ؛ حَذراً **من أن يدخل عليه الفقر فيفسد غناه عليه** ، لأنَّ غناه صار قرَّة عينِه . . فكلما توَّهم أمراً يشوِّش عليه غناه . . هرب منه ، وربَّما لو أتاه فقيرٌ يطلب منه شيئاً قطَّب وجهه عليه ، ولذلك قيل في مدح الفقراء الصادقين :

---

(١) الآية : ٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : هود .

إِذَا ٱفْتَقَرُوا عَضُّوا عَلَىٰ ٱلفَقْرِ ضِنَّةً   وَإِنْ أَيْسَرُوا عَادُوا سَرِيْعَاً إِلىٰ الْفَقْرِ

قَدْمة الفقير : **وسئل أبو حفص : بماذا يقدمُ الفقير على ربّه عزَّ وجلَّ ؟!**

فقال : وما للفقير شيءٌ يحسُنُ أن يقدُم به على ربِّه تعالى سوى فقره !! فالفقر محبوب ؛ لأنَّ العبد إنَّما يقدُم على ربِّه بأحبِّ الأعمال إليه وأشرفِها عنده ، فهو أحسنُ ما يقدُم به العبدُ على ربِّه ، كيف لا ؛ وهو قد استغنى بالله عن غيره !!.

وافر الحسنات : **وقيل : أوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام ﴿ أتريد أن يكون لك يوم القيامة مثلُ حسنات الخلق أجمع !؟﴾ قال : نعم . قال : ﴿عُد ٱلمَريض ، وكن لثياب الفقراء فالياً ﴾** من القمل ونحوه . **فجعل موسى عليه السلام على نفسه[1] في كلِّ شهر سبعةَ أيَّام يطوف على الفقراء يفلي ثيابهم ويعودُ المرضى** .

في ذلك دلالة على شِدَّة كرامة الفقراء على الله ؛ وشرفِ منزلتهم عنده ، وكمال رحمته بهم ؛ حيث أمر أنبياءه وأحبَابَه بأن يكرموهم .

جوهر النفس : **قال سهل بن عبد الله : خمسة أشياء من جوهر النفس** . . مَن كانت نفسُه شريفة اجتمع فيهاالخمسةُ ؛ أو بعضها . . بحسب شرفيَّة نفسه ونزاهتها ؛ وهي **١ـ فقير يظهر الغنىٰ** ، لأنَّ ذلك يدلَّ على تنزُّهه عن الخلق ، وقوَّة صبره وزهده وتوكُّله إلى أن يأتيه الفتح من ربِّه . **و٢ـ جائع يظهر الشِّبَع** ، لأنَّ ذلك يدلُّ على اختيار الجوع لصومٍ ؛ أوكسر شهوة ؛ أو رِقَّة قلب . **و٣ـ محزون يظهر الفرح** ، لأنَّ ذلك يدلُّ على كمال صبره ورضاه بما أجراه عليه ربُّه. **و٤ـ رجلٌ بينه وبين رجلٍ عداوة فيظهر له المحبَّة** ؛ بأن يداريه ، فإن لقيَه . . بشَّ في وجهه ، وإن أتاه . . أكرمه بدنيا ليندفع عنه ما يخشى وقوعَه مما هو فوقَ العداوة ، ويزول ما في نفس عدوِّه من الشرِّ ، ولذلك قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه[2] :

---

(١) واجباً ، بأن ألزمها بذلك .

(٢) ينسب إلىٰ سيدنا علي كرَّم الله وجهه شعر كثير لا يليق بفصاحته وبلاغته ؛ فضلاً عن أن تصحَّ نسبته إليه !! ولعل هذه الأبيات من ذلك ؛ إذ قال العلامة اللغوي مجد الدين الفيروزابادي في « قاموسه المحيط » مادة / ودق : =

إِنِّـي أُحَيِّـي عَـدُوِّي عِنْـدَ رُؤْيَتِـهِ ... لأَدْفَـعَ ٱلشَّـرَّ عَنِّـي بِـٱلتَّحِيَّـاتِ
وَأُظْهِـرُ ٱلْبِشْـرَ لِـلإِنْسَـانِ أُبْغِضُـهُ ... كَأَنَّهُ قَدْ وَلَىٰ قَلْبِي مَسَرَّاتِ[1]
وَلَسْتُ أَسْلَمُ مِمَّنْ لَسْتُ أَعْرِفُهُ ... فَكَيْفَ أَسْلَمُ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَوَدَّاتِ

و٥ـ رجل يصوم بـالنهار ؛ ويقوم بـالليل . . ولا يظهر ضعفاً . لأنَّ ذلك يدلُّ على القوَّة وستر الأعمال ، والسلامة من الشهرة بين الناس الحاصلة بإظهار الضعف ؛ بانحلال بدن ونعاس ونحوهما ممَّا يدلُّ على القيام والصوم .

أفضل المقامات : **وقال بشر بن الحارث** : **أفضلُ المقامات اعتقاد** ـ أي : عقد ـ **الصبر على دوام الفقر** الافتقارِ إلى الله تعالى ، والإعراض عن المال والعمل ، والحال مستمرٌّ على ذلك **إلى القبر** ؛ يعني : الموت .

علامة السخط : **وقال ذو النُّون المصريُّ** رحمه الله تعالى : **علامةُ سَخَط الله تعالى على العبد خوفُه من الفقر عمَّا ضَمِنَه الله ُله** ، لأنَّه بذلك شاكٌّ في الضمان ، فهو عاص .

علامة الافتقار : **وقال الشبلي** : **أدنىٰ علاماتِ الفقر** ؛ ـ أي : الافتقار إلى الله ـ **أن لو كانت الدُّنيا بأسرها لأحدٍ فأنفقها في يوم واحد ثمَّ خطر بباله** : بقلبه **أن لو أمسكَ منها قوتَ يوم** كان خيراً له **ما صدق في فقره** . لأنَّ العبد إذا كان فقيراً إلى الله وحدَه . . لم يكن غنياً بغيره ، فمَن زعم أنَّه ليس له حاجةٌ لغير الله ، ثُمَّ حبس شيئاً لنفسه ؛ وإن كان يسيراً بعد أن أنفق الأكثر . . فهو فقيرٌ إلى ما حبسه ، نعم إذا دعاه الشرع إلى حبسه لأمر اقتضاه .!! فلا بأس به .

أيهما أفضل : سمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **تكلَّم الناس في الفقر والغنىٰ . . أيُّهما أفضل** ؟ عند الله للعبد حتى يكتسبه ويتخلَّق به !! فالقائل بالأوَّل . . نظر إلى أنَّه بذلك يتفرَّغ قلبُه للعبادة من المشغلات ، وينال لذَّة

= قال المازنيُّ ـ وصوّبه الزمخشريُّ ـ: لم يصحَّ أنّه تكلّم بشيءٍ من الشعر غير هذين البيتين :

تِلْكُـمْ قُـرَيْـشٌ تَمَنَّـانِـي لِتَقْتُلَنِـي ... فَـلاَ وَرَبِّـكَ مَـا بَـرُّوا وَلاَ ظَفِـرُوا
فَـإِنْ هَلَكْـتُ فَـرَهْـنٌ ذِمَّتِـي لَهُـمُ ... بِـ « ذَاتِ وَدْقَيْـنِ » لاَ يَعْفُـو لَهَـا أَثَـرُ

قلت : فهذه الأبيات من ذاك القبيل كما يظهر من ألفاظها .

(١) من ولىٰ . . يلي ؛ منح وأعطىٰ .

المناجاة ، والقائل بالثاني . . نظر إلى أنَّه يفعل بالمال الخيراتِ ، وينال به المنافع المتعدِّيات .

وعندي قول ثالثٌ ؛ وهو أن الأفضل أن يعطىٰ الرجل كفايته ثمَّ يصان فيه : فيما أعطيه ، وهي حالةٌ متوسِّطةٌ بين الفقر والغنى ، و« خَيْرُ ٱلأُمُورِ أَوْسَطُهَا »[1] . وهي الحالة التي اختارها النَّبيُّ ﷺ لنفسه وسألَها بقوله : « ٱللَّهُمَّ ٱجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتاً » . وروي : « كَفَافاً »[2] .

وهذه حالةٌ سليمة من آفات الغنىٰ المطغي وآفاتِ الفقر المُدْقِع اللَّذَيْنِ كانا يتعوَّذ منهما ﷺ ، فالفقيرالصابرُ بهذا المعنى أفضلُ من الغنيِّ الشاكر ، وهو المختارُ ؛ تَبَعاً لابن الصلاح وغيره ، واحتجُّوا بخبر : « دخولُ الفقراءِ الجنَّةَ قبل الأغنياء بخمس مئة عام »[3] .

شرط المتكلِّم : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله الرازي ؛ يقول : سمعتُ أبا محمد ابن ياسين ؛ يقول : سمعت ابن الجلاَّء ؛ يقول . . **وقد سألتُه عن الفقر ؛ فسكت حتَّى خلا عن الناس ، ثمَّ ذهب إلى محلِّه ورجع عن قريب ! ثم قال : كان عندي أربعةُ دوانيق** ـ جمع دانَق ؛ وهو : سُدُس درهم ـ **فٱستحييت من الله عزَّ وجلَّ أن أتكلَّم في الفقر** . . وأنا غير متَّصفٍ به ظاهراً ! ! **فذهبتُ وأخرجتُه** أي : ما عندي ـ وفي نسخة : وأخرجتها ؛ أي : الدوانيق ـ **ثم قعد وتكلَّم في الفقر بما يليقُ به** .

اسم الفقير : **وسمعتُه أيضاً** ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن محمد الدِّمشقي ؛ يقول : سمعتُ إبراهيم بن المولَّد ؛ يقول : **سألتُ ابن الجلاَّء : متى يستحقُّ الفقير اسم الفقر ؟** يسمَّى فقيراً . **فقال : إذا لم يَبْقَ عليه بقيَّةٌ منه . فقلت : كيف ذلك !؟ فقال : إذا كان الفقرُ له** ؛ بأن ادَّعاه له والتفت إليه . . **فليس هو له** ، فلم يَكْمُل فقرهُ ،

---

(١) أخرجه ابن السمعاني في « تاريخ بغداد » ؛ عن عليٍّ كرم الله وجهه .

(٢) تقدم تخريج الروايتين ص ٣٦٧ ، ٥١٣ ، وانظر ص ٧٦٥ .

(٣) أخرجه أحمد : ٢/٢٩٦ و٣/٦٣ ، وأبو داود : ٣٦٦٦ ؛ والترمذي : ٢٣٥٣ ، وابن ماجه : ٤١٢٢ ، والنسائي في «الكبرىٰ» عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما .

لأنَّ دعواه الفقر ٱلتفاتٌ منه لنفسه . وإذا لم يكن له ؛ بأن لم يَدَّعِهِ لنفسه . . فهو له ، فقد كَمُل فقره .

تحصيل : وحاصله أن الفقير الكامل هو المستغني بالله عن غيره حتَّى عن نفسه ، فمن كان عنده بقيَّةُ التفات ؛ كأن التفت لنفسه ؛ فضلاً عن غيرها في شيء . . لم يكمل فقرهُ ، وهذه هي البقيّة التي بقيت عليه في فقره ، فمن ٱلتفتَ لفقره في مقاماته العالية . . لم يكمُل فقره ، ومَن رأى فقره فضلاً من ربِّه وتبرَّأَ من إضافته إلى نفسه ؛ فقد كَمُل مقامَه وتمكَّن فيه .

صحة الفقر : وقيل : صحَّة الفقر أن لا يستغني الفقير في فقره بشيء إلاَّ بمن إليه فقرهُ ؛ وهو الله ، لأنَّ الفقر الصحيح هو الافتقار إلى مَن يملك قضاء الحوائج ، ولا يملكها حقيقةً إلَّا اللهُ ، فالفقيرُ إلى الله هو الغنيُّ بالله ؛ بأن يستغنيَ به عن غيره . وهذا القولُ قريبٌ من الذي قبله .

ستر الفقر : وقال عبد الله بن المبارك : إظهارُ الغنى في الفقر أحسنُ من الفقر ، لأنَّ الفقر درجةٌ رفيعة ؛ فسترها بإظهار الغنى أحسنُ منها ، كما قال تعالى ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾[1] .

لمتى يعيش؟! : سمعت محمد بن عبد الله الصوفيّ ـ ابن باكويه ـ يقول : سمعت هلال بن محمد ؛ يقول : سمعت النقاش ؛ يقول : سمعت بنان ـ الأَوْلى بناناً ـ المصريَّ ؛ يقول : كنتُ بمكَّة قاعداً وشابٌّ بين يدي ، فجاءه إنسان وحمل إليه كيساً فيه دراهم ، ووضعه بين يديه ليأخذَه ، فقال له : لا حاجةَ لي فيه . فقال : فرِّقهُ على المساكين . فأخذه وفرَّقه عليهم ، فلما كان العشاء رأيتُه في الوادي يطلب شيئاً لنفسه ، فقلت : لو تركتَ لنفسك شيئاً مما كان معك . . كان خيراً لك !! فقال له : لم أعلم أني أعيش إلى هذا الوقت . في ذلك دلالة على فقره وزهده وقِصَر أمله .

أحسن الوسائل : سمعت الشيخَ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت علي بن

---

(١) الآية : ٢٧٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

بندار الصيرفي ؛ يقول : سمعت محفوظاً ؛ يقول : سمعتُ أبا حفص ؛ يقول :

أحسنُ ما يتوسَّل ـ وفي نسخة : يتوصَّل ـ به العبدُ إلى مولاه دوامُ الفقر إليه على جميع الأحوال ، وملازمة السنة في جميع الأفعال ، وطلبُ القوت من وجه حلال . المشار إليه بخبر : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ . . وَكَانَ قُوتُهُ حَلَالاً ؛ وَقَنَّعَهُ ٱللَّهُ »[1] .

همة الفقير : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ الحسين بن أحمد ؛ يقول : سمعتُ المرتعش ؛ يقول : ينبغي للفقير أن لا تسبق همَّتُه خطوته : حالته التي هو فيها ؛ بأن لا يعلِّق قلبَه من الدنيا بغير ما هو محتاجٌ إليه في الوقت .

أربعة متفاوتون : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا الفرج الورثاني ؛ يقول : سمعت فاطمة (أخت أبي علي الروذَباري) ؛ تقول : سمعت أبا عليٍّ الرُّوذباريَّ ؛ يقول : كان أربعة في زمانهم متفاوتي الدرجة بالنظر إلى الأخذ من الغير وعدمِه بغير سؤال . .

١ـ **كامل السلامة** : واحدٌ منهم : كان لا يقبل من الإخوان . . ولا من السلطان ؛ طلباً لكمال سلامته من غرر الأخذ في الدين والدنيا ؛ وهو يوسف بن أسباط . . ورث سبعين ألف درهم ، ولم يأخذ منها شيئاً تورُّعاً ، وكان يعمل الخُوصَ بيده ليأكل من كسبه .

٢ـ **معين المتفرغين** : وآخر وهو الثاني : كان يقبل من الإخوان والسُّلطان جميعاً ؛ عملاً بقول النّبيِّ ﷺ لعمر رضي الله عنه : « مَا أَتَاكَ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَخُذْه »[2] ؛ وهو أبو إسحاق الفزاري ، فكان ما يأخذه من الإخوان ينفقُهُ في المستورين المنقطعين للعبادة الذين لا يتحرَّكون للاكتساب ؛ عوناً لهم على ما هم بصدده من الاشتغال بالعبادة ، والذي يأخذُه من السلطان كان يُخرجُه إلى مستحقيِّه من أهل طَرَسوس ، ليوصلهم حقوقَهم من بيت المال بلا كُلْفة ، فيدخل بذلك عليه المسرَّة ، فهو لم يأخذ شيئاً من ذلك في الحقيقة لنفسه .

---

(١) أخرجه مسلم : ١٢٥ ـ ١٠٥٤ ؛ عن أبي هريرة ، وأحمد : ٢/١٦٨ ؛ ١٧٣ ؛ عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهم ، وتقدم ص ٧٦٦ .

(٢) تقدم تخريجه ص٥٢٢ .

٣ـ **متحرِّي الحلال** : والثالث : كان يأخذ من الإخوان ؛ لكونه يعلَمُ حِلَّ أموالهم ، ولا يأخذ من السلطان ، لأنَّ أموال السلاطين لا تخلو غالباً عن الحرام ؛ وهو عبد الله بن المبارك . . كان يأخذ من الإخوان ؛ عملاً بالخبر السابق ، ويكافىءُ عليه ؛ امتثالاً لأمره ﷺ في قول : « مَنْ أَسدَىٰ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِؤُوهُ . . فَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا فَٱدْعُو لَهُ »[١] .

٤ـ **آخذ حقَّه** : والرابع : كان يأخذ من السلطان ولا يأخذ من الإخوان ؛ وهو مخلَد بن الحسين . . كان يقول : السُّلطان لا يمنُّ ، لأنَّه لا حقَّ له في المال والذي آخذه منه حقِّي الذي جَعَله اللهُ لي في بيت المال . والإخوان يمنُّون . . فلا يقبل منهم شيئاً .

وكلٌّ من الأربعة قصده جميلٌ ؛ وإن تفاوتوا !!

التضحية بالدين : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : جاء في الخبر : « مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنِيٍّ لأَجْلِ غِنَاهُ . . ذَهَبَ ثُلُثَا دِيْنِهِ »[٢] . أراد به دينه الكامل ، أو العلم بحقارة الدنيا .

توضيح : وإنما كان ذلك كذلك !! لأنَّ المرء إنَّما هو بقلبه ولسانه ونفسه : سائر حوائجه . فإذا تواضع لغنيٍّ بنفسه ولسانه . . ذهب ثلثا دينه ، فلو اعتقد فضله ـ: تواضع له ـ بقلبه ؛ كما تواضع له بلسانه ونفسه ؟ . . ذهب دينُه كلُّه ، لأنَّ الدُّنيا عند الله حقيرةٌ ، فعلى العبدِ حقارتها ، فلا ينبغي له أن يتذلَّل بشيء من ذلك في طلبها .

لوازم الفقير : وقيل : أقلُّ ما يلزم الفقير في فقره ؛ من حيث إنَّه مسافرٌ إلى ربِّه عاملٌ

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد : ٢/٦٨ ؛ ٩٩ ، والبخاري في « الأدب المفرد » : ٢١٦ ، وأبو داود : ٥١٠٩ ـ ١٦٧٢ ، والنسائي : ٢٥٦٦ ، وابن حبان (الإحسان : ٣٤٠٨) ، والحاكم : ١/٤١٧ وصححه علىٰ شرطهما ؛ وأقرَّه الذهبي ؛ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . وفي بعضها بدل « أسدىٰ » . . . « آتىٰ » وبعضها « صنع » .

(٢) أخرجه البيهقي ؛ عن ابن مسعود وأنس رضي الله عنهما ؛ بلفظ : « . . . من دخل علىٰ غنيٍّ فتضعضع له ذهب ثلثا دينه » كما في « كشف الخفا » : ٢٤٤٤ . فانظره تجد المزيد .

في الوصول إلى قربه أربعة أشياء : **١ـ علمٌ يسوسه** ؛ لئلا يزلَّ عن الطريق ، و**٢ـ ورع يحجزه** من أن يقعَ فيما يكرهُه مولاه ، و**٣ـ يقين يحمله** على العبادة ، حتَّى لا يصدَّه عن سفره شيءٌ يخشاه ، و**٤ـ ذِكْرٌ يُؤْنسه** ، لأنَّه الذي يوصله إلى مطلوبه من الله .

مريد الفقر : وقيل : مَن أراد الفقر لشرف الفقر . . **مات فقيراً** ؛ لوقوفه مع الفقر ، فهو مفتقر لغير الله ، وكمال الفقر أن لا يفتقر العبدُ لغير الله ، ومَن أراد الفقر لئلا يشتغل عن الله . . **مات غنياً** ؛ لاستغنائه بالله عن غيره .

أصحُّ الطرق : وقال المزيِّن : كانت الطرق الموصلة إلى الله أكثرَ من نجوم السماء ، فما بقي منها طريق إلاَّ طريق الفقر ؛ وهو **أصحُّ الطرق** ! ! لسلامته من الآفات التي تدخل بقية الطرق لكونه تبرِّيا من الاقتدار على الأعمال .

نعت الفقير : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت الحسين بن يوسف القزويني ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن المولد ؛ يقول : سمعت الحسن بن علي ؛ يقول : سمعت الثوري ؛ يقول : **نعت الفقير السكونُ عند العدم ، والإيثار عند الوجود** ، لأنه يعلم أنَّ الله أرحمُ الراحمين به وبغيره ، فإنْ منعه الرزق في وقت عَلِم أنَّ ذلك رحمةٌ به . . فحاله الرضا بذلك والشكر عليه ، وإن أولاه من نعمهِ شيئاً آثر به غيره ، لعلمه بأنَّ ذلك يحبُّه اللهُ ، فلا يزال متردِّدا بين الرضا والإيثار ؛ محبَّةً للواحد القهار .

حقيقة الفقر : وسمعتُه أيضاً يقول : سمعتُ منصور بن عبد الله ؛ يقول : سئل الشبلي عن حقيقة الفقر ؛ فقال : هي أن لا يستغنيَ العبد بشيء دونَ الله تعالى لما مر ، ولا يكون ذلك إلاَّ لمن كَمُلت معرفتهُ بالله ، وأعرض بقلبه عمَّن سواه .

الأكمل همَّةً : وسمعته يقول : سمعتُ منصورَ بن خلف المغربيَّ رحمه الله ؛ يقول : قال لي أبو سهل الخشَّاب الكبير : الفقرُ فقرٌ وذُلٌّ : لله ، فقلت له : **لا بل فقر وعزٌّ** : بالله . فقال فقر وثرَى : تواضع ونزول إلى الأرض . فقلت : **لا ؛ بل فقر وعرش** : وارتفاع إلى العرش بالله وبكرامته ، وكلاهما على حقٍّ ، لكن الثاني أكملُ همَّةً من الأوّل .

أشرف الأوصاف : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاقَ رحمه الله ؛ يقول : **سئلت عن معنى**

قوله ﷺ : « كَادَ : قَارَب ٱلفقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرَاً »[1] . قال : فقلت : آفةُ الشيء وضدُّه على حسب فضيلته وقَدْره. أي: تعرف فضيلة الشيء وعلوُّ درجته بنزول قَدْر ضدِّه، فكلَّما كان الشيءُ في نفسه أفضلَ . . فضدُّه وآفتُه أنقصَ؛ كالإيمان. . لما كان أشرف الخصال كان ضِدُّه الكفرَ الذي هو وآفته أنقصَ الخصال ، فلما كان الخطرُ على الفقر الكفرَ بالله : التغطيةَ للحقِّ . . دلَّ على أنَّه ـ أي : الفقر إلى الله ـ أشرفُ الأوصاف . هذا تقرير كلامه ولا يخفىٰ ما فيه[2] !! .

إيضاح : والحامل له على ذلك كونُ الكلام في شرف الفقر ، وإلاَّ ! فظاهر أنَّ الفقر في الخبر هو الفقرُ إلى غير الله . . لا إلى الله. وذُكِرَ هذا!! ليحترَز عنه، فالمعنى أَنَّ الفقر إلى غير الله كادَ أن يكون كفراً ، لافتقار صاحبه إلى مَن لا يملك شيئاً ، فإنَّ المالك لكلِّ الأشياء حقيقةً هو الله ، ومِن هذا الفقر استعاذ النبيُّ ﷺ !

نوعا الفقر : فالفقرُ ـ كما مرَّت الإشارة إليه ـ فقران : محمودٌ ، ومذموم . .

١ـ فالمحمود : هو الفقرُ إلى الله تعالى ، وهو الفقرُ الذي اختاره وسأله النَّبيُّ ﷺ ، وسبق بأهله إلى الجنة قبل الأغنياء بخمس مئة عام .

و٢ـ المذموم هو : الفقر إلى غير الله ، وهو ما استعاذ منه ﷺ .

جِدِّيَّة الفقر : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا نصر الهروي ؛ يقول : سمعت المرتعش ؛ يقول : سمعتُ الجنيد ؛ يقول : إذا لقيتَ الفقير فَٱلقه بالرِّفق ، ولا تلقه بالعلم بحاله ، فإنَّ الرفق يؤنسه والعلم يوحشه . فقلت له : يا أبا القاسم ؛ وهل يكون فقيرٌ يوحشه العِلم ؟! فقال لي : نعم ؛ الفقيرُ إذا كان صادقاً في فقره فطرحت عليه علمك ـ وفي نسخة : علماً ، وفي أخرى : علمه ـ

---

(١) أخرجه أحمد بن منيع في « مسنده » ؛ كما في « المطالب العالية » : ٢٧١١ ، والشهاب القضاعي : ٥٨٦ ، وأبو نعيم في « الحلية » : ٣/ ٥٣ ، و« تاريخ أصبهان » : ١/ ٢٩٠ ، والطبراني في « الأوسط » ؛ عن أنس رضي الله عنه .

(٢) محصَّلُه أنَّ المراد بالفقر في الحديث إنما هو الفقر لغير الله ؛ لا الفقر إلىٰ الله الذي الكلام فيه ، والمؤلف جعل المقصود في الحديث مدح الفقر إلىٰ الله بذمِّ ضدِّه الذي هو الفقر إلىٰ غير الله ، فقد ارتكب خلاف الظاهر من الخبر !! والذي دعاه إلىٰ ذلك كون الكلام في شرف الفقر إلىٰ الله ؛ والخطب سهل (عروسي : ٣/ ٢٤٤) .

ذاب كما يذوب الرَّصاص على النار[1] .

لأنَّ الفقراء الغالبُ عليهم الأحوالُ التي تثمرها العلوم والأعمال ، فربَّما دلَّ ظاهرُ الفقير على ما يستنكَر فإنْ رَفَقت به . . أظهر لك ما هو فيه وأبداه ، وزال عنك وعنه ما تخشاه ، وإن اعترضت عليه بالعلم ! لم يحمله قلبُه ، لغلبة حاله على وقته ، وربَّما زاد تغيُّره وقلَّ الانتفاع به ! وهذا من شُؤْم الاعتراض عليه ، ولذلك طَلَبَ ترك ممازحته ، لأنَّ الغالب عليه الصدقُ ، فيَحمل كلَّ ما يقال له على الجِدِّ ؛ كما مرَّ .

ترك المطالبة : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله الرازي ؛ يقول : سمعت مظفر القرمسيني ؛ يقول : **الفقير هو الذي لا يكون له إلى الله تعالى حاجة**[2] .

إيضاح : قال الأستاذ الإمام القشيريُّ رحمه الله : **وهذا اللفظ الذي يعبَّر عنه وعن مثله** بالشطح . . الذي يقعُ من الفقير في وقت غَلَبة الأحوال ، والحفظُ أكمل منه . . فيه أدنى غموض لمن سمعه ، لأنَّ حقيقة الفقر الاحتياجُ إلى الله ؛ لا إلى غيره ، مع أنَّ الغموض فيه على مَن سمعه إنَّما يكون على وجه الغفلة عن مرمى القوم !! ومَن تأمَّله . . عَلِم أن لا غموض فيه ، وإنَّما أشار قائله على **سقوط المطالبات** ، وانتفاءِ الاختيار والرضى بما يُجريه الحقُّ سبحانه ، لأنَّ الفقير الصادق هو مَن عَلِم أنَّ احتياجه في جميع تعلُّقاته ، إنَّما هو إلى الحقِّ تعالى ، فإذا تحقَّق علمَه بذلك . . وافتقر إليه ، ثم رأى تواليَ نِعَمه عليه في جميع ما هو فيه بغير سؤالٍ . . منعه من ذلك احتياجُه إليه : سؤاله له ، فقوله (لا يكون له إلى الله حاجة) أي : سؤال لا فتقار ، فهو مفتقر إليه ، لكنه لا يسألُه ، لما يراه مِن توالي نعمه عليه وكفايته له .

تحقُّق الفقر : وقال ابن خفيف : **الفقرُ عدم الإملاك** : عدم إضافة العبد لها إلى

---

(١) انظر ما تقدم ص ٦٣٨ .

(٢) أي : حاجة يتوقَّف قضاؤها على سؤاله ، وهذا ـ كما ترى ـ لا ينافي سؤاله امتثالاً وعبُوديّة ، هذا هو المتعيِّن في فهم مثل هذا مما ظاهره يخالف النصَّ (عروسي : ٣/ ٢٤٥) .

نفسه ، وإنَّما جرت عليه فضلاً من ربِّه ، والخروج من أحكام الصِّفات ؛ بأن يترك دعواه لما هو فيه من أحواله ومقاماته الشريفة ، ويُضِيْفُها إلى المتفضِّل عليه ، فالفقير لا يدَّعي لنفسه ملكاً .. عيناً ؛ ولا عرضاً ، ولا عملاً ؛ ولا حالاً ؛ ولا مقاماً ، إذْ كلُّها ملكٌ لربِّه ، وهو محلٌّ لجَرَيانِها عليه .

صحّة الفقر : وقال أبو حفص : **لا يصحُّ لأحد الفقرُ حتَّىٰ يكون العطاءُ : إعطاؤه لغيره أحبَّ إليه من الأخذ** ، لأنَّ مَن كَمُل فقرُه .. كان فرحُه بما يبذله أكثرَ من فرحه بما يأخذه ، لما فيه من الكرم والإيثار والاتصاف بأخلاق المقرَّبين والأبرار ، والآخذُ محتاجٌ إلى شروطٍ في نفسه وفيمن يعطيه ، وربَّما أعطاه غيرَه لوصف فطنَّه فيه .. وهو عارٍ عنه ، ففيه انخداع واغترار ، فخوفُه عند الأخذ ؛ وفرحُه عند البذل أولى به .

حقيقة السخاء : وليس السخاءُ أن يعطيَ الواجدُ للشيء المعدِمَ له !! إنَّما السخاء أن يعطيَ المعدِمُ للشيء الواجدَ له ؛ بأن لا يقبله منه إذا أتاه به ـ كما مرَّ بيانه في باب الجود والسخاء ص٧١١ ـ.

حقّ الفقير : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الواحد بن بكر ؛ يقول : سمعت الدُّقِّي ؛ يقول : سمعت ابن الجلاَّء ؛ يقول : **لولا شرفُ التواضع** والتذلُّل والعبوديَّة لله .. لكان حكم الفقير ـ أي : لكان اللائق به وبعزَّة نفسه واستغنائه عن غير الله ـ إذا مشى أن يتبختَر في مشيته ؛ تعزُّزاً بمولاه وغيظاً واستهزاء لعدوِّه الشيطان المرصِد لعداوته في دنياه .

فقرٌ غريب : **وقال يوسف بن أسباط : منذ أربعين سنةً ما ملكت قميصين .**

فيه دلالة على تقلُّله من الدُّنيا وبُعدِه عن زهرتها ، ومع ذلك فقد حَضَّ الشرع على التجمُّل ؛ لا سيما في الأعياد والجمع ومجامع المسلمين !! وقد يخالف ذلك ليقتديَ بمخالفته غيرهُ ، حكي أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. خطب وعليه مرقَّعة فيها إحدى عشرة رقعة ؛ بعضها من أَدَم .

أسبقهما للجنة : **وقال بعضهم : رأيتُ في منامي كأنَّ القيامة قد قامت وقيل للملائكة : أدخلوا مالكَ بن دينار ومحمد بن واسع الجنَّةَ ، فنظرت أيُّهما يتقدَّم ؟ فتقدَّم محمد بن واسع ، فسألت عن سبب تقدُّمه !؟ فقيل لي : إنَّه كان**

له قميصٌ واحد . . ولمالكٍ قميصان ! وكان ابن واسع ورعاً ؛ ولا يقبل من أحد شيئاً ؛ لكمال وَرَعه وحذره على نفسه ، والمنامات تكون للبشرى وللإنذار . . كما مرَّ ! .

استغناء الفقير : **وقال محمد المسوحي** : **الفقيرُ هو الذي لا يرى لنفسه حاجة إلى** شيء من الأسباب المعتادة وغيرها ، إذ الفقير الصادق هو المستغني بالله حتَّى عن نفسه وأعماله وأحواله .

استراحة الفقير : **وسئل سهل بن عبد الله** : **متى يستريحُ الفقير ؟! فقال** : **إذا لم يَرَ لنفسه غيرَ الوقت الذي هو فيه ، فلا يرى إلى ماض ولا مستقبل** ، إذ في ذلك تثبُّت وطولُ أمل ، فمتى خلا عن ذلك كَمُل حاله وسَلِم وقته من خواطر الالتفات إلى ما مضى حالهُ ومستقبله ، ولهذا كان الفقيرُ ابنَ وقته . . لا التفات له إلى شيء من ذلك .

الموزونات الأخروية : **وتذاكروا ـ**: الفقراء ـ **عند يحيى بن معاذ الفقر والغنىٰ !!** **فقال** : **لا يوزن غداً** : يوم القيامة . . **لا الفقر ولا الغنىٰ ، وإنَّما يوزن الصبر على البلايا ؛ والشكر على النعم . فيقال** : **تصبر على البلايا وتشكر على النعم ليوزن صبرك وشكرك** .

ثواب الفقر : في ذلك إشارةٌ إلى أن ثواب الفقر إنَّما هو في الحقيقة على الصبر عليه ، ومعلومٌ أنَّ الصبر إنَّما يكون على المُؤْلِم والشكر على الموافق !! وقد يرى العبدُ المؤلِمَ له نعمةً ؛ باعتبار ما يترَّتب عليه فيشكرُ عليه ، وقد يغفل العبد عن توالي النعم عليه ؛ فيغفل عن الشكر ؛ فيُعجَب بما هو فيه ؛ فيكون ذلك سبباً للهلاك والبلاء !! نعوذُ بالله من ذلك .

ميزان الرضا : **وقيل** : **أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام** : ﴿ **إن أردتَ أن تعرف رضايَ عنك . . فانظر كيف رضا الفقراء عنك فإن رأيتَهم** راضين عنك ؛ فأنا راضٍ عنك ، لأني راضٍ عنهم ﴾ .

صاحب التقىٰ : **وقال أبو بكر الزقَّاق** : **مَن لم يصحبْه التقى في فقره . . أكل الحرام** المحض كما لا يخفى ، وقولُ بعضهم (لو كانت الدُّنيا دماً عبيطاً . . لكان قوتُ المؤمن منها حلالاً)!! يُحمَل ـ والعياذُ بالله ـ علىٰ ما إذا أطبق الحرام

الأرضَ ؛ ولم يجد للحلال سبيلاً .

الفقراء وسفيان : وقيل : كان الفقراءُ في مجلس سفيان الثوريِّ كأنَّهم الأمراء لا للتكبُّر ، بل لما فيه من الزُّهد وحقارةِ الدُّنيا في قلوبهم ؛ مع كون سفيان من العلماء العارفين بالله المُنْزِلين للنَّاس منازلهم .

وفي ذلك دلالة على إكرامه للفقراء .

حكم الفقير : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن أحمد الفراء ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر بن طاهر ؛ يقول : **مِن حُكْم الفقير أن لا يكون له رغبةٌ في الدُّنيا** ، لأنَّ مَن كان فقرهُ اختياراً وزهداً ؛ لا قهراً وعجزاً . . لا يرغب فيها ، لأنه تَرَكها مع تمكُّنه من تحصيلها بأسبابها ، **فإن كان له فيها رغبةٌ ولا بدَّ !! فلا تجاوز رغبتُه كفايتَه** ؛ كبيت يُكِنُّه وثوب يستره وقُوت يكفيه[1] ، لأنَّ ما عداها فضولٌ ، والزهدُ هو الإعراض عن الفضول .

المأتم والعيد : وأنشدنا الشيخُ أبو عبد الرحمان السُلَميّ رحمه الله قال : أنشدني عبد الله بن إبراهيم بن العلا ؛ قال : أنشدني أحمد بن عطاء لبعضهم ؛ قال :

قَالَوا : غَدَا ٱلعِيْدُ ، مَاذَا أَنْتَ لاَبِسُهُ ؟ ... فَقُلْتُ : خِلعةُ سَاقٍ حُبَّهُ جُرِعَا
فَقْرٌ وصَبْرٌ هما ثَوْبَايَ تَحْتَهُمَا ... قَلْبٌ يَرَىٰ إلْفَهُ ٱلأَعْيَادَ وَٱلْجُمَعَا
أَحْرَى الملاَبِسِ أَنْ تَلْقَىٰ ٱلحَبِيْبَ بِهِ ... يَوْمَ ٱلتَّزَاوُرِ فِي ٱلثَّوْبِ ٱلَّذِي خَلَعَا
ٱلدَّهْرُ لِي مَأْتَمٌ إِنْ غِبْتَ يَا أَمَلِي ... وَٱلعِيْدُ مَا كُنْتَ لِي مَرْأَىٰ وَمُسْتَمَعَا

وقيل : إنَّ هذه الأبيات لأبي عليٍّ الرُّوذَباري .

الفقير الصادق : وقال أبو بكر المصري ؛ وقد سُئل عن الفقير الصادق ؟ فقال : الذي لا يملك شيئاً ، ولا يدَّعي شيئاً من الأحوال والمقامات ، ولا يميل لشيءٍ من المشتهَيات ، فلا يصير رقيقاً لشيء من المخلوقات .

---

(١) لأن هذه الضروريات لا ملامة فيها ، كما ورد فيماأخرجه أحمد : ١/ ٦٢ ، والترمذي : ٢٣٤١ ؛ وقال : حسن صحيح ، والحاكم : ٤/ ٣١٢ ، وصحَّحه ووافقه الذهبي عن عثمان رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ قال : « لَيْسَ لابْنِ آدَمَ حَقٌّ في سِوىٰ هٰذِهِ ٱلخِصَالِ : بَيْتٌ يَسْكُنُهُ ، وَثَوْبٌ يُوارِي بِهِ عَوْرَتَهُ ، وَجِلْفُ ٱلخُبْزِ وَٱلمَاءِ » .

وقال ذو النون المصري : دوامُ الفقر إلى الله تعالى مع التخليط أحبُّ إليَّ من دوام الصفاء مع العُجْب ، لأنَّ المخلِّط لكونه فقيراً إلى الله يتعرَّض للتوبة ؛ بخلاف من به العُجْب المحرَّم !! وشتَّان بين فقير متعرِّض للتوبة ، وعاصٍ مقيمٍ على معصيته . . بعيدٍ من التوبة !!.

حسب حدَّاد : سمعت أبا عبد الله الشيرازيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الواحد بن أحمد ؛ يقول : سمعت أبا بكر الجوَّال ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله الحُصريَّ ؛ يقول : مكث أبو جعفر الحدَّادُ عشرين سنة يعمل كلَّ يوم بدينار وينفقه على الفقراء ، ويصوم ويخرج بين العشائين فيُتَصدَّق عليه من الأبواب . كانت نيَّتُه في كسبه سدَّ خُلَّةِ الفقراء ، أو كان قصير الأمل لا يغلب على ظنِّه حياتُه إلى آخر النهار حتى يؤخِّر بعضَ كسِبه ، فإذا عاش[1] وجاع ؛ ولم يفتحَ عليه بشيءٍ . . سأل الناس .

نعت الفقير : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا علي الحسين بن يوسف القزويني ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن المولد ؛ يقول : سمعت الحسن بن علي ؛ يقول : سمعت النُّوريَّ ؛ يقول : نعت الفقير السكونُ عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجود ، لأنَّ الموجِب لسكونه عند العدم ثقتُه بضمان الله لرزقه ، والموجب لإيثاره عند الوجود تحصيلُ رضا الله .

جلسة الله : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت محمد بن علي الكتاني ؛ يقول : كان عندنا بمكَّة فتىً عليه أطمارٌ : أثواب رَثَّة : بالية ، وغلب على ظنِّي أنَّه فقير من الدنيا ، وكان لا يداخلنا في أمورنا ، ولا يجالسنا في مجالسنا ، فوقعت - وفي نسخة : فوقع - محبَّتهُ في قلبي ، ففُتح لي بمئتَيْ - في نسخة : بمئةِ - درهم من وجه حلال ، فحملتُها إليه ووضعتها على طرف سجادته ؛ كما هو حسن الأدب مع الفقراء أن لا يكلَّفوا أن يتناولوا ما يؤتون به بأيديهم ، بل يُوضَع عندهم ، فإن أحبُّوه أخذوه ، وإلاَّ تركوه ! وقلت له : إنَّه فُتح لي ذلك من وجه حلال ، فأتيتُ به لك تصرفُه في بعضِ أمورك ، وتستعينُ به على ما أنت بصدده . فأخذَتْه عِزَّة الفقر وعمارة الوقت . . فنظر إلي شَزَراً :

---

(١) انظر ما تقدم ص٧٧٥ (لمتىٰ يعيش ؟) .

نظر الغضبان بمؤخّر عينيه ، ثم كشف عمَّا هو مستورٌ عني ؛ بقوله : قال : اشتريت هذه الجلسةَ مع الله سبحانه على الفراغ من المُشْغِلات لي عنه بسبعين ألف دينارٍ . . غير الضياع والمستغَلاَّت منها . . تريد أن تخدعني عنها وتفسدَها عليَّ بهذه الدُّرَيْهمات !!؟ وقام وبدّدها : فرَّقها ؛ بأن انتثرت لَمَّا أخذ بطرف سجادته وقام ، وقعدتُ ألتقطها ، فما رأيت كعِزِّه ورفعة حاله حين مرَّ وأعرض عنها ، ولا كذُلِّي حين كنتُ ألتقِطُها !!

شأن المتخفف : وقال أبو عبد الله ابن خفيف : ما وجبتْ عليَّ زكاةُ الفطر منذ أربعين سنة ، ولي قبولٌ عظيم بين الخاصِّ والعامِّ .

توثيق : سمعت الشيخ أبا عبد الله ابن باكويه الصوفي رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله ابن خفيف ؛ يقول ذلك .

فيه دَلالة على تقلُّله من الدُّنيا ، وعلى اختياره الفقر على السَّعة ؛ طلباً لسلامته ، وطيب قلبه مع الله ، وفراغه للتلذُّذ بمناجاته ومراقبته له في سائر حركاته وسكناته .

امتحان مكدٍّ : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا أحمد الصغير ؛ يقول : سألت أبا عبد الله ابن خفيف ؛ عن فقير يجوعُ ثلاثة أيام ؛ وبعد ثلاثة . . من الأيام يخرج ويسألُ مقدار كفايته . . إيش يقال فيه ؟! . فقال : يقال له مُكدٍّ : سائل للناس في شيء يأخذه منهم ؛ فلم يستغنِ بالله ، فليس هو بفقير كامل ، نبَّهَهُم بذلك على ضعفه في الفقر ، ثم قال للسائل وجماعة : كلوا واسكتوا عن سؤال أحوالٍ لم تبلغوها ، فلو دخل عليكم فقير من هذا الباب لفضَحَكم كلَّكُمُ !!!

هذا مِن حُسن تأديبه لأصحابه .

سوء الأدب : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله بن علي الصوفي ؛ يقول : سمعت الدُّقِّي ؛ يقول : وقد سُئل عن سوءِ أدب الفقراء مع الله تعالى في أحوالهم ؛ فقال : هو انحطاطهم . . أي : فعل ما يوجب انحطاطهم من الحقيقة ؛ وهي عندَهم غلبةُ الأحوال المطلوبة على القلوب إلى العلم بها ، فإذا نزل عنها إلى درجةِ العلم بها ؛ ولم تغلب على قلبه . . غلبت عليه العوائد والمشتهيات وتفرَّغت همَّتُه للأسباب ، ووقع في سوء الأدب مع الله ، فبغفلته

عن مقام الحقيقة واشتغاله بالأسباب . . وقع في سوء الأدب . .

محنة عظيمة : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله الطبري ؛ يقول : سمعت خيراً النساج ؛ يقول : **دخلتُ بعض المساجد وإذا فيه فقيرٌ ، فلما رآني تعلَّق بي** مستغيثاً بالله ومستعيناً به مما امتُحن به !! وقال لي : **أيها الشيخ تعطَّف عليَّ** بإخلاص ممَّا امتحنتُ به ، **فإنَّ محنتي عظيمة !! فقلت له : وما هي ؟ فقال :** **فقدتُ البلاء** : الفقر بوجود الدنيا ، **وقَويتُ بالعافيةِ**الدنيوية **!! فنظرتُ**بإشارته إلى جهةٍ ؛ **فإذا هو قد فُتح عليه بشيء من الدنيا .**

نقمة الدنيا : في ذلك دَلالة على أنَّهم يرون وجود الدنيا وسَعَتها نقمةً ، وصرفَها عنهم نعمةً أخروية ؛ وهو حقٌّ ، لأنَّ الغالب على الفقير أن يكون دائم الرجوع إلى الله ؛ سائلاً حوائجه منه ، لاعتقاده انفراده بالأفعال ، والغالبُ على الغَنيِّ الرجوع عندما يطرقه طارق إلى ما يملكه ؛ ويقدِرُ على اكتسابه ، وكفى بذلك غفلة عن ربِّه ، فهذا الفقير كان دائم الشُّغل بالله ، فرآه بعض المحبِّين ، فأراد أن يصلَه بما يعتان به على ما هو بصدده ؛ فوضع عنده شيئاً وخرج عنه هارباً ، فتشوَّش حالُ الفقير فيما يصنعه بهذا المال ، وما الحيلةُ في خلاصه منه ؟! فلما دخل عليه هذا الشيخُ المسجدَ . . ورأى عليه آثارالمعرفة ، وسلوكَ طريق الجِدّ . . قام وتعلَّق به ؛ كما تقرَّر .

فهذا كما قال قائلهم : عَضُّوا على الفقر بالنَّواجِذ .

فوائد الفقر : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت محمد بن محمد بن أحمد ؛ يقول : سمعت أبا بكر الورَّاق ؛ يقول لأصحابه : **طوبى للفقير في الدنيا والآخرة ! فسألوه عنه** : سبب ذلك ؛ فقال : **لا يطلب السلطانُ منه في الدنيا الخراج ، ولا يطلب الجبَّارُ**تعالى منه في الآخرة **الحسابَ** . هذا أقلُّ فوائد الفقر ، وإلاَّ ! فله فوائد عِظام . . منها ١ـ راحة القلب من المشغلات ، و٢ـ وجود التلذُّذ بالمناجاة ، و٣ـ سرعة مضيِّه إلى الجنة ، كما جاءت به الأخبار الواضحات .

* * *

٣٩ ـ باب التصوف

تعريفه : هو : ترك الاختيار . ويقال : هو حفظ حواسِّك ومراعاةُ أنفاسك ، ويقال : هو الجدُّ في السلوك إلى ملك الملوك ؛ ويقال : هو الإكباب على العمل والإعراض عن العلل ، ويقال غير ذلك .

وقدَّمتُ بعضه في باب ذكر مشايخ هذه الطريقة .

رتبته : وهو ممدوح ومطلوب ، لأنَّه مأخوذ من الصفاء ، وقد بيَّنه بقوله :

الصَّفاءُ محمودٌ بكلِّ لسان ، وضِدُّه الكدورةُ ، وهي مذمومة كذلك .

وقد أخبرنا عبد الله بن يوسف الأصبهاني ؛ قال : أخبرنا عبد الله بن يحيى الطَّلْحي ؛ قال : ثنا الحسين بن جعفر ؛ قال : ثنا عبد الله بن نوفل ؛ قال : حدَّثنا أبو بكر بن عيَّاش ؛ عن يزيد ابن أبي زياد ؛ عن أبي جُحَيْفة ؛ قال :

خرج علينا رسول الله ﷺ متغيِّر اللون ؛ فقال : « ذهَبَ صَفْوُ ٱلدُّنْيَا ـ وهو كثرةُ خيرها ونِعَمها ، والمراد : صفوُ قلوب أهلها ، وانشراح صدورهم ، ورضاهم بما يجريه الله عليهم فيها ـ **وَبَقِيَ ٱلْكَدَرُ** ـ وهو ضدُّ ذلك ـ **فَٱلْمَوْتُ ٱلْيَوْمَ تُحْفَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ** » للسلامة من الكدِر ، وكأنَّه بتقدير صحَّة ذلك قالَه قرب موته ! لعلمه بما يكون بعدهُ من الاختلاف والدعاوىٰ الباطلة ، ومقصودُ الخبر التحريضُ على التمسُّك بأوقات الصفاء مع الله ، وإزالة المشغلات بأنواع المجاهدة والرياضة ، فإذا كَمُل العبد في ذلك فَهُو المعبّر عنه بـ « الصوفي » ، فإنَّه قد صفا من الكَدَر بما أطلعهُ الله عليه .

اشتقاق تسميته : **ثم هذه التسمية** : التسمية بـ« الصوفية » **غلبتْ على أهل هذه الطائفة ، فيقال (رجل صوفي) وللجماعة (صوفية) ، لأنَّ الحقَّ صافاهم وأخلصَ لهم النعم بما أطلعهم عليه ، ومَن يتوصَّل إلى ذلك بالاكتساب والتشبُّه بهم . . يقال له (متصوف) . . لا صوفيٌّ ، وللجماعة (المتصوِّفة) لا صوفيَّة .**

وليس يشهد لهذا الاسم . . من حيث العربيةُ قياسٌ بَيِّنٌ ؛ ولا اشتقاق

كذلك ، لأنَّ مصدر (صفا . . صفواً) بتأخير حرف العلَّة عن الفاء ، والأظهر فيه أنَّه غيرُ مُشتَقٍّ ، بل هو جامدٌ . . كاللَّقب .

فأما قولُ مَن قال (إنَّه مشتقٌّ من الصوف ، ولهذا يقال « تصوَّفَ . . إذا لبس الصوف » ، كما يقال « تقمَّص . . إذا لبس القميص ») !! فذلك ـ وفي نسخة : فلذلك ـ وجهٌ سائغ ، بل قيل : إنَّه حسن ، لأنَّه أبعدُ من الدعوى ، بخلاف غيره مما قيل فيه !! .

ولكن القوم لم يختصُّوا بلُبْس الصوف . . لكن هذا لا يضرُّ ، لأنَّ الحكم للغالب ، والغالبُ عليهم لبسُه ، والاكتفاءُ به ، وإنَّما اختاروا لبسَه !! لأنَّه أرفقُ بهم ، ولأنَّه لباسُ الأنبياء والصالحين .

ومَن قال (إنهم منسوبون إلى صُفَّةِ مسجد الرسول ـ وفي نسخة : رسول الله ـ ﷺ وإن هذا الاسم مشتق منها)!! فالنسبة إلى الصُّفَّة لا تجيءُ على نحوِ « الصوفي » ! بل على « الصُّفِّي » ، و« نحو » زائد .

ومن قال (إنَّه مشتقٌّ من الصفا) !! فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيدٌ في مقتضى اللغة ، بل مقتضاها أنَّه إنَّما يشتقُّ من الصافي .

وقول مَن قال (إنَّه مشتقٌّ من الصفّ) ، فكأنَّهم ـ الأَوْلى : لأنهم ـ في الصف الأوَّل بقلوبهم . . من حيث المحاضرةُ والمناجاة وارتفاع الهِمَّة مع الله تعالى ؛ بحيث صاروا بقلوبهم أقربَ الناس إليه !! فالمعنى صحيحٌ ، ولكن اللغةَ لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف ! إذ لا يقال في النسبة إلى الصف «الأصفى»!! .

ثمَّ إنَّ هذه الطائفة ـ وفي نسخة : ثم هذه الطائفة ـ أشهرُ مِن أن يُحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ . . واستحقاق اشتقاق ؛ لشهرتهم بذلك . وأنت خبيرٌ بأن شهرتهم لا تغني عن بيان اشتقاق اسمهم[١] ! .

تعميم : وتكلَّم الناس في التصوف مامعناه؟! ويعرف منه من هو المتصوِّفُ مع أنَّه قدَّمه!! .

وتكلَّموا في الصوفي (مَن هو ؟) فكلٌّ عبَّر بما وقع له ، واستقصاءُ جميعِه يخرجنا عن المقصود من الإيجاز ، وسنذكر هنا بعضَ مقالاتهم فيه على حدِّ

---

(١) الذي أراه أن هذا لفظ مرتجل اصطُلِح به على قوم معروفة صفتهم . وكفىٰ !

التلويح إن شاء الله تعالى .

الجريري والتصوف : سمعت محمد بن أحمد بن يحيى الصوفيَّ ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن علي التميمي ؛ يقول : سُئل أبو محمد الجريري عن التصوّف ؛ **فقال** : هو الدُّخول في كلِّ خُلُقٍ سَنِيٍّ : رفيع ؛ كالورع والزهد والتوكل والرضا والتفويض ونحوها ، والخروجُ مِن كلِّ خُلُقٍ دَنِيٍّ ؛ كالرياء والعُجب والكِبْر والحَسَد وسوءِ الظنِّ ونحوها .

الجنيد والصوفي : سمعت عبد الرحمان بن يوسف الأصبهاني ؛ يقول : سمعتُ أبي ؛ يقول : سمعتُ أبا عبد الله محمد بن عمارالهمداني ؛ يقول : سمعت أبا محمد المرعشي ؛ يقول : سئل شيخي عن التصوف ؛ فقال : سمعت الجنيد وقد سئل عنه ؛ فقال : هو أن يميتَك الحقُّ تعالى عنك ؛ أي : عن نظرك لنفسك ، ويحييك به ؛ أي : بذكره ومناجاته والاشتغال بما يَرِدُ منه عليك ، وهذا أكمل درجات التصوُّف .

الحلاج والصوفيُّ : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ عبد الواحد ابن محمد الفارسي ؛ يقول : سمعتُ أبا الفاتك ؛ يقول : سمعت الحسين بن منصور ؛ وقد سئل عن الصوفيِّ فقال : هو وحدانيُّ الذات . . لا يقبله أحدٌ ، ولا يقبل أحداً .

أي : مشغول بالله تعالى . . ولم يبقَ فيه وسع لخلطة غيره ؛ ولا لكلامه .

وهذه أعلى أحوال الصوفيِّ ، وإن لم يَدُم له ذلك ، وإنَّما هي بحسب مَن يسأله ويجيبُه ، فإذا كان السائلُ له ممَّن يدَّعِي التصوُّف . . نبَّهه على المقام الرفيع فيه ! ليستصغر نفسه وتذهبَ عنه دعاويه .

الصوفي الصادق : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن محمد ؛ يقول : سمعتُ جعفر ابن محمد بن نصير ؛ يقول : سمعت أبا علي الورَّاق ؛ يقول : سمعت أبا حمزة البغدادي ؛ يقول :

علامةُ الصوفيِّ الصادق أن يفتقر من الدنيا بعد الغنى بها ، ويذلَّ بعد العزِّ بالغنى بها ، ويخفىٰ بعد الشهرة . لأنَّ أوَّل درجاته الزهدُ في الدنيا ، فيبعد منها عن مالها وجاهها ورفعتها ؛ فيصير في صورة الفقير ؛ وإن كان غنياً بالله ، وفي صورة الذليل ؛ وإن كان عزيزاً بمولاه ، وخفياً بين الناس ؛ وإن كان مشهورا عند الملائكة ومَن والاه ، ففي الحقيقة هو الغنيُّ بعد الفقر ، والعزيزُ بعد الذُّلِّ ،

والمشهورُ عند الله وملائكته بعد الخفاء ، وذلك ببركة صدقه في سلوكه .

الصوفيّ الكاذب : وعلامة الصوفيِّ الكاذبِ أن يستغني بالدنيا بعد الفقر منها ، ويعزَّ بعد الذلِّ بالفقر منها ، ويشتهر بعد الخفاء ، لأنَّه يتزيَّا بزِيِّ الصوفية لينال بعض الدُّنيا ؛ فيستغني بها . . وإن كان فقيراً قبلُ ، ويعزَّ عند أهل الدنيا على من لا يعرف حقيقة أمره ، ويتوهَّم صدقه في حاله ويشتهر بين الناس ؛ وإن كان مخفيَّاً قبلُ ! لمحبَّته للشهرة والتعرُّض لأسبابها .

المكيُّ والتصوف : وسئل عمرو بن عثمان المكيُّ عن التصوُّف ؛ **فقال** : هو أن يكون العبد في كلِّ وقت هو فيه مشتغلاً بما هو أولى به عند الله ؛ في ذلك الوقت ، فالصوفيُّ من كان ملازماً لما هو أولى به في وقته من أعماله وأخلاقه وأحواله وسائر ما يتقرَّب به إلى ربِّه .

خلق التصوف : وقال محمد بن علي القَصَّابُ : **التصوُّف أخلاق كريمةٌ . . ظهرت في زمان كريم ؛ من رجل كريم . . مع قوم كرام** .

أشار إلى أوَّل وقوع هذا الاسم لهذه الطائفة . . بأن رجلا قد كَمَّل الله أخلاقَه الحميدة واقتدت به طائفة ، فسَمَّوا الحالة التي هم عليها « تصوّفاً » وأنفسهم « صوفيّة » ثم صار هذا الاسم في الناس المتَّصفين بصفتهم بعدهم .

سُمنون والتصوُّف: وسئل سمنون عن التصوُّف؛ **فقال**: هو أن **لا تملك شيئاً** . . بأن تتبرَّأ من الأملاك والدعاوى ، وأن **لا يملكك شيءٌ** من الشهوات التي توقفك عن شُغْلك بمولاك ، فتكون عاملاً متبرِّئاً ، وتقدَّم نظيره في (الفقر) ص٧٨٣ .

رويم والتصوف: وسئل رويم عن التصوُّف؛ **فقال**: هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده تعالى؛ بأن تتمكَّن في الرِّضا بما يرضاه اللهُ تعالى من الأفعال.

الجنيد والتصوُّف : وسئل الجنيد عن التصوّف ؛ **فقال** : **هو أن تكون مع الله تعالى** . . في سائر أعمالك وأخلاقك وأحوالك و غيرها **بلا علاقة** : حظٍ من حُبِّ وسكون إلى غيره ، بل ترى جميع ما أنت فيه فضلاً من ربِّك عليك .

مبنىُ التصوُّف : سمعت عبد الله بن يوسف الأصبهاني ؛ يقول : سمعتُ أبا نصر السراج الطوسي ؛ يقول : أخبرني محمد بن الفضل ؛ قال ـ وفي نسخة : يقول ـ: سمعتُ عليَّ بن

عبد الرحيم الواسطيَّ ؛ يقول : سمعت رويم بن أحمد البغدادي ؛ يقول :

التصوُّف مبنيٌّ على ثلاث خصال : ١ـ التمسُّك : تمسُّك العبد **بالفقر والافتقار إلى الله** ، **و٢ـ التحقُّق** : الاتصاف **بالبذل والإيثار** بما يملِكُه لرجاءِ نفعه عندَ مولاه ، **و٣ـ ترك التعرُّض والاختيار** ؛ بأن يُسلّم ويفوِّض للهِ في كلِّ ما أجراه عليه ؛ وإن خالف هواه .

الكرخي والتصوُّف : **وقال معروفٌ الكرخيُّ** : **التصوُّف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق** ، لأنَّه مَن عرف الله وعَلِم أنَّه لا ضارَّ ولا نافع ؛ ولا معطيَ ولا مانع غيرُه . . اشتغل بما يقرُّ بهِ إليه من الحقائق ، فيلزم من ذلك إعراضه عما في أيدي الخلائق ، حتَّى لا يعتمدَ إلاَّ على الله .

الوزير الموفَّق : يُحكىٰ أنَّ وزيرَ ملك وفَّقه اللهُ فاعتزل صحبة المَلِك ، فاستحضره المَلِكُ ؛ وقال له متهدِّداً : أتفرُّ منِّي ؟!! فقال : نعم ، لأني وجدتُ خيراً منك . فازداد الملك غيظاً ؛ وقال : مَن يكون خيراً مني ؟!! فقال : منَ يطعمني ولا يطعَم ، وأنت ما لم تطعَم لا تطعمُني ، ومَن ينيمني ولا ينام ، وأنت ما لم تنَم لا أقدرُ أن أنام ، ومَن إذا تبتُ يعفو عني ؛ وإن كثرت ذنوبي ؟! وأنت إذا عصيتك أدنى معصية . . بادرتَ إلى مؤاخذتي ، ومَن إذا خدمتُه . . خدمني الوجودُ كلُّه ، وأنت إذا خدمتُك . . أحتاج إلى خدمة كلِّ مَن ينسب إليك ؛ لئلا يؤذِيني عندك ! فقالٍ له الملك : صدقتَ ، هو خيرٌ منِّي فالزم بابَه واغتنم طاعته .

أصحاب المعاذير : **وقال حمدون القصَّار** : إن أردتَ أن تصحبَ أحداً . . **اِصحب الصوفية** ، **فإنَّ للقبيح عندهم وجوهاً من المعاذير** ، فمَن وقع في زَلل قَدَّروا له المعاذيرَ والتأويلاتِ الحسنةَ ، وليس للحسن عندهم كبيرُ موقع يعظِّمونك به ، فمن فعل حسناً لم يمدحوه ولم يُطْرُوا عليه ، فيسلمَ من وقوعه في العُجْب بنفسه ، لأنَّ مَن كان كاملاً في الخيرات إذا رأى مَن تخلَّق ببعض أخلاقه لا يمدَحُه كلَّ المدح على ذلك ؛ لِقلَّة ما ناله بالنسبة إليه .

الخرّاز والصوفية : **وسُئل الخرّاز عن أهل التصوُّف** ؛ **فقال** : **هم قومٌ أُعطوا حتى بُسِطوا** : والىٰ عليهم الحقُّ نِعَمه وخوارق عاداتِه . . حتَّى سكنوا إليه وانشرحت

صدورهم لديه ، ومنُعوا عن الالتفات إلى غيره حتَّى فَقدوا : فَنُوا عن أنفسهم . . فلم يلتفتوا إليها ، ثمَّ لمَّا كَمُل شغلُهم به تعالى ؛ ولم يجدوا غايةَ مطلوبهم فيه . . نُودوا من أسرار أي : أسرارهم بإشارات قريبة : لطيفة . معناها : قولوا للناس أَلاَ فابكوا علينا لعدم وجداننا ذلك .

جهاد الصوفية : **وقال الجنيد** : التصوُّف عنوة ؛ **أي** : **جِدٌّ وتعب لا صلح لأهله فيها** مع أنفسهم ، لكمال مجاهدتهم عن التخلِّي عن الرَّذائل والتحلِّي بالفضائل .

وقال أيضاً : **هم** ـ: الصوفية ـ **أهلُ بيت واحد** . . **لا يدخل فيهم غيرُهم** . لاتحاد مقصودهم ورفعة مرامهم فيما اتَّسموا به من صفاتهم وأخلاقهم .

أركان التصوف : **وقال أيضاً** : **التصوُّف ١ـ ذكرٌ مع اجتماع** للهِمَّة مع الله ؛ بأن لا يحدِّث الذاكرُ نفسَه بغير ما هو فيه ، لأنَّ الذاكر مع الغفلة مذموم ، لأنَّ العمل إنَّما يصحُ بالنيَّة ، **و٢ـ وجدٌ مع استماع** ، لأنَّ الوجدَ الصحيحَ ما كان عند سماعٍ صحيح مُحرِّكٍ للقلوب ؛ بأن يكون سَنَدُه كتابَ الله ؛ أو سنَّة رسوله ، أَو نحوها من المواعظ المؤثِّرة ، **و٣ـ عملٌ مع اتباع** للسنَّة ، لأنَّ كلَّ علم ؛ أو حال ؛ أو مقام خلا عن اتباعها . . فهو معرَّض للابتداع ، فالصوفيُّ مَن اجتمعت فيه هذه الأوصاف .

وقال أيضاً : **الصُّوفيُّ كالأرض يُطرَحُ عليها كلُّ قبيح ، ولا يُخرَجُ منها إلاَّ كلُّ مليح** . فهو يطرَح عليه كلُّ قبيح : مؤلِم في نفسه ؛ أو ولده ؛ أو ماله ؛ أو نحوها . . فيتحَمَّلُه ، ولا يخرج منه إلَّا كلُّ حسن مع صفحٍ ؛ أو عفو ؛ أو رضا بالقضاء ؛ أو نحوها .

وقال أيضاً : **إنّه كالأرض يطؤها البرُّ والفاجر ، وكالسحاب يُظلُّ كلَّ شيء ، وكالقطر يسقي كلَّ شيء** . فهو كثيرُ التحمُّل للأذى ؛ والنفع للورى . وهذه بعضُ صفاته الحميدة ، وإلَّا ! فالصوفي كما مرّ : من تخلَّى عن الصفات الذميمة وتحَلى بالحميدة .

الظاهر والباطن : **وقال أيضاً** : **إذا رأيت الصوفيَّ يُعنىٰ بظاهره** : يهتمُّ به . . **فاعلم أنَّ باطنَه خرابٌ** ، لأنَّ ظاهره للخلق وباطنَه للحقّ ، فمن أكثرَ عنايته بما يُظهره للخلق ويُثْنُون عليه به . . كان باطنُه مِن مراقبة الله وكمالِ تقواه خراباً ، وقد يطلب

الشرعُ الاعتناءَ بكمال الظاهر ؛ كما في العيد والجمعة وإقامةِ أُبَّهة الدين !!

فليس هو مِن ذلك ، لأنَّه إنَّما اعتنى به لمولاه ؛ لا لهواه .

شأن الصوفي : وقال سهل بن عبد الله : **الصوفيُّ مَن يرى دمه هَدَراً لو قتل في سبيل الله، أو فيما هو فيه من الجد في الخير ، ومُلْكَه مباحاً** ؛ بأن يرى أنَّه لا يملك شيئاً، ولا يُضِيْفه إلى نفسه إضافةَ مِلك . . لا من مال ؛ ولا عمل ؛ ولا حال .

نعته : وقال النوريُّ : **نعت الصوفيِّ السكونُ عند العدم ، والإيثارُ عند الوجود** . . . فلا يَدَّخِر شيئاً فضلة عن حاجته . وتقدَّم نظيرُه في (الفقر) ص ٧٨٤ .

وقال الكتاني : **التصوُّف خُلُق فمن زاد عليك في الخُلُق . . زاد عليك في الصفاء والتصوف** .

الروذباري والتصوف : وقال أبو عليٍّ الرُّوذَباري : **التصوُّف الإناخة**: بروك العبد على باب الحبيب ؛ وإن طُرِد عنه ، فإنَّه حجابُ بعده وغفلته عن مقامه الشريف .

وقال أيضاً : صفوة القُرْب ؛ وهي : لَذَّة العبد بطاعة الله ، ودوامُ مراقبته لمولاه تكون بعد كُدُورة البُعد وهي جدُّه في الطاعاتِ ، ومعالجةُ أخلاقه الذَّميمة ؛ لينتقل منها إلى الحميدة .

أقبح القبيح : وقال أيضاً : **أقبحُ مِن كُلِّ قبيح صوفيٌّ شحيح** ، لأنَّ شُحَّه بالدُّنيا دليلٌ على حُبِّه لها ، وشحُّه بأعمال الآخرة دليل على قلَّة رغبته فيها .

من معانيه : وقيل : **التصوُّف كفٌّ فارغ وقلبٌ طيِّبٌ** ، لأنَّ ذلك يدلُّ على كمال زهده وتوكُّله ، ورضاه بما أجراه عليه مولاه .

الجلوس بلاهمٍّ : وقال الشبلي : **التصوُّف الجلوسُ مع الله بلا هَمٍّ** .

وهذا قريبٌ مما قبله ، لأنَّ مَن قويَ زهدُه وتوكُّله ورضاه . . كان مع الله بلا هَمٍّ في أمر آخرته ودنياه ، لعلمه بحسن اختيارِ ربِّه له ما يراه .

المشير عن الله : وقال أبو منصور : **الصوفيُّ هو المشيرُ عن الله تعالى** ، لما ناله من الفوائد والألطاف ، ودوام نظره إلى ربِّه بعد تخلُّصه من نفسه ، **فإنَّ الخَلْق** المستقيمين أشاروا إلى الله ، وطلبوا منه العونَ على ما هم بصدده من حمل

أنفسهم على استقامتها ، ونقلها عن عوائدها الذَّميمة ، وندمهم على ما كان منها من التَّقصير .

وذلك لأنَّ كلَّ قلب تكون إشارته مما غلب عليه ؛ وعنه يعبِّر لسانُه ، فمن كان دأبُه النظرَ إلى الله لشُغْله به . . فهو الصوفيُّ العارف به ، ومَن كان مع الحقِّ وتدبير نفسه ونقلِها عن عوائدها الذميمة . . . فهو يكابد نفسه ، ويشير إلى ربِّه ، ويسألهُ العون عليها وعلى استقامتها ، وهذا حال أكثر الخلَق المستقيمين .

العارف والزاهد : ولذلك قيل : العارفُ يُشِمُّك المسك والعنبر ، والزاهد يُسْعِطُك الخلَّ والخردل ، وذلك لأنَّ العارف أكثر إشاراته لما ناله من الفوائد والألطاف ، وبكلامه وسماعِ أحواله مع الحقِّ توجد الراحات ، والزاهد أكثرُ كلامه في عيوب النفس وآفاتِها وطُرق مجاهداتها في نقلها عن سوء عادتها ، وهذا مؤلِمٌ للنفوس .

المنقطع الواصل : **وقال الشبليُّ : الصوفيُّ منقطع عن الخلق متَّصل بالحق** ؛ بأن غلب ذكره على قلبه وكَمُل اشتغاله بربِّه حتَّى أنساه ذلك نفسَه ؛ فضلاً عن غيره ، **كقوله تعالى** لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾[1] : اختصَّه بخصائص قُرْبِه بحيث **قَطَعه عن كلِّ غَيْر !** . لَمَّا وصل إلى هذه الدرجة الرفيعة واشتاقَ لرؤيته ، وسأل فيها بقوله ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ .

ثمَّ قال له ﴿ لَن تَرَىٰنِى﴾ كمالاً في تحريك الشوق ودوامِ القلق .

أطفال الحق : **وقالأيضا** : **الصوفيةُ أطفالٌ في حِجرْ الحقِّ** : فقراء عاجزون ، تركوا النظر لأنفسهم وسَلَّموا أمرَهم لباريهم . . يربِّيهم بلُطْفه ويتحفُهم ببِرِّه .

البرقة المحرقة : **وقال أيضاً** : **التصوُّف بَرْقة مُحرِقة** ؛ من حيث إنَّ الصوفيَّ لمَّا فَرَغ من مجاهداته صار قلبه محلاًّ لطُروق الأحوال ؛ فهو في دوام الخوف والقلق بحسب ما يطرُق قلبَه من الحقِّ ، وينشئه فيه من الأحوال الغالبة .

وقال أيضاً : **هو** ـ أي : التصوُّف ـ **العصمةُ** : عصمة العبد عن رؤية

---

(١) الآية : ٤١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : طَه .

الكون : العالَم المشاهد ، بأن يحفظه اللهُ عن رؤيةِ ذلك رؤيةَ استحسانٍ له ومحبَّة وسُكون إليه ؛ لا رؤية علم .

تنافر الصوفية : **وقال رُوَيم : لا زالت الصوفيةُ بخير ما تنافَروا** ؛ بأن ينبِّه بعضُهم بعضاً على نقصه ، ويحركه عند غفلته بحيث ينفُر عنه لذلك ، **فإذا اصطلحوا** واستمروا على ما عليه أكثر الخلق من الفتور والكسل . . **فلا خير فيهم** ، بل يفسد حالهم ، وكانوا أهل صُلْح على دَخَل[1] .

الجريري والتصوف : **وقال الجريريُّ : التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب** ، لأنَّ السالك مبتدىء ومنتهٍ ، فالمبتدىء يراقب أعماله لتقع على وجهها ، والمنتهي صار شُغْله المراقبةَ لأحوال قلبه التي ينشئها الحقُّ فيه ؛ من الطرب والهرب واللهب ، والمحبة والشوق وغيرها من أحوال قلبه ، فهو يتأدَّب في كلِّ حال مع ربِّه بما يليق به .

المزين والتصوف : **وقال المزيِّن : التصوُّف الانقياد للحقِّ** . أي : سرعةُ قبولِ العبدِ له ، والرجوع إليه ، وتحمُّل أعبائِه من غير كُلْفة .

النخشبي والصوفي : **وقال أبو تراب النخشبيُّ : الصوفيُّ لا يكدِّرُه شيءٌ ويصفو به كلُّ شيء** . لأنَّه لا أثر في قلبه للدنيا التي أكثر الكدرِ منها ، وأحوال الآخرة لا كدر فيها ، وإن منعه ربُّه في بعض الأوقات ما تعلَّق قلبُه به من الخيرات ! فرضاه باختيار مولاه له . . يزيل عنه المؤلمات ، ورؤيتُه وكلامه يزيلانها عن غيره ويخفِّفان عنه ما ابْتُليَ به .

راحة الصوفي : **وقيل : الصوفي لا يتعبه طلب** ؛ لأنَّ محبَّته لربِّه تحملُه على الطلب والعمل له ، **ولا يزعجه سبب** ؛ لعلمه بحُسْن اختيارِ الله له ذلك ، فعلمُه بذلك يُريحه من الفكرة والانزعاج عند تغيُّر الأسباب .

القوم المؤثِرون : **سمعت أبا حاتم السجستاني ؛ يقول : سمعت أبا نصر السراج ؛ يقول : سئل ذو النون عن أهل التصوف ؛ فقال : هم قوم آثروا اللهَ عزّ وجلّ على كلِّ شيء ، فآثرهم على كلِّ شيء** . لأنَّ التصوُّف إيثارُ العبد ربَّه على غيره ، حتى على نفسه

---

(١) فساد وسوء باطن .

فمن آثره على غيره . . آثره الله على غيره ووضع درجته عليه .

أحوالهم الشريفة : قال الواسطي رحمه الله : كان للقوم فيما مضى ؛ لكمال قوَّتهم مع الله في تحمُّلهم وثبوتهم لما يطرقُهم من الأحوال الشريفة إشاراتٌ يفهمها عنهم مَن دنا منهم ، فلا يلومَنَّهم غيرُهم لكمال أدبهم ، ثمَّ نزلوا عنها حتَّى صارت حركاتٍ على الجوارح لضعف قوَّتهم عن حمل ما يَرِدُ عليهم ، ثمَّ نزلوا عنها كذلك بحيث لم يبقَ لهم في قلوبهم إلاَّ حسراتٌ . . على ما كان يفهم من تلك الإشارات .

النوري والصوفي : وسئل النوري عن الصوفي ؛ فقال : هو من سمع السماع المؤثِّر في القلوب من المواعظ ، وآثر الأسباب التي توصله إلى مطلوبه ولازمها وأعرض عما يشغله عنها .

والأسباب هي فعل المأمورات وترك المنهيَّات .

الحُصْري والصوفي : سمعت أبا حاتم السجستاني رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا نصر السَّراج ؛ يقول : قلت للحصري : من الصوفي عندك ؟! فقال : هو الذي لا تُقِلُّه الأرض : لا تطيق حمله ، ولا تُظِلُّه السماء .

المحو والصحو : قال الأستاذ أبو القاسم القشيريُّ رحمه الله : إنَّما أشار بذلك إلى حال المَحْوِ ، بل وإلى حال الصَّحو أيضاً .

أمَّا إلى المحوِ . . فلأنَّ مَن كَمُل شغله بالله حتَّىٰ نَسيَ نفسه . . غَفَل عن السماء والأرض بالأَوْلى ، فيكون محوه ـ أي : محوُ ذكره ـ لهما عن قلبه ، غفلتُه عن كون الأرض حاملةً والسماء مُظِلَّة .

وأما إلى حال الصحو ! فلأن مَن علم أنَّ الأرضَ ؛ من حيثُ إنَّها أرضٌ لا تقلُّه ، وأنَّ السماءَ من حيث إنَّها سماءٌ لا تُظِلُّه ، وإنما يُقِلُّه ويُظلُّه ربُّه . . لا يسكن إلاَّ إليه ؛ لا إلى إرض تُقلُّه ؛ ولا إلى سماء تُظِلُّه .

اختياره : وقيل : الصوفيُّ مَن إذا استقبله حالان أو خُلقَان كلاهما حسن . . كان مع الأحسن منهما ، لأنَّ الصوفيَّ من يشتغل بأفضل الأمور وأقربِها إلى محبَّة الله تعالى .

سبب تسميتهم : وسئل الشبلي (لِمَ سُمُّوا بهذه التسمية) ؟ : بهذا الاسم وهو

« الصوفية » . فقال : لبقيَّةٍ بقيت عليهم من نفوسهم ، وهي ٱلتفاتهم إليها ، ولولا ذٰلك لما تعلَّقت بهم تسميةٌ بذلك .

فيه دَلالة على أنَّ مَن كَمُل اشتغاله بالله بحيث أعرض عن غيره حتَّى عن نفسه ، لا يتعلَّق به تسميةٌ بذلك ، بل وبغيره ، لعدم ظهورِ أثره .

ابن الجلاّء والصوفية : سمعت أبا حاتم السجستاني ؛ يقول : سمعت أبا نصر السراج ؛ يقول : سمعت ابن الجلاّء ؛ يقول : ما معنى قولهم « صوفيٌّ » ؟ فقال : ليس نعرفه : لا نعرف له معنىً في شرط العلم ؛ يعني : يدلُّ عليه العلم ويقتضيه . . ولكن نعرف أنَّ مَن كان فقيراً مجرَّداً من الأسباب ؛ وكان مع الله بلا مكان : مشتغلاً بالله منزِّهاً له عن المكان ، ولا يمنعه الحقُّ سبحانه عن علمِ كلِّ مكان . يعني : ولا يغفل عن الله في كلِّ حالة من الحالات ؛ ولا مكان من الأمكنة . . يسمى « صوفيّاً » .

وجاهة الصوفي : وقال بعضُهم : التصوفُ إسقاط الجاه ، وسوادُ الوجه في الدنيا والآخرة الحاصلُ برَدِّ مَن سأل في حاجة بغير قضائها ، لأنَّ مَن مضى في حاجة ؛ ولم تقض . . يقول : (اسودّ وجهي) ، فالصوفيُّ يرضى بأن لا تقضىٰ له حاجة في الدنيا ؛ ولا في الآخرة مما يتعلَّق بنفسه وجوارحه وثواب أعماله : لا يكون له حظٌّ سوى ربِّه ؛ وإن كان جزاء الآخرة لا بدَّ منه ، فلا يعمل عليه ، ولا هو الحامل له علي طاعته .

فناء الصوفي : وقال أبو يعقوب المزابليُّ : التصوف حال يضمحلُّ : يَذهب فيها معالم الإنسانية بأنْ يكمُل استغراق صاحبه بالله بحيث يغفل عن غيره حتَّى عن نفسه .

واردات الصوفي : وقال أبو الحسن السيرواني : الصوفيُّ مَن يكون مع الواردات ؛ لا مع الأوراد . لأن الأوراد للمبتدىء حتَّى يتعوَّدَ الخير ويلتذَّ به ويتنعَّمُ بالمناجاة ، فإذا وصل إلى هذه الأحوال . . وردت على قلبه واردات ؛ كالقبض والبسط ، وغيرهما من الواردات التي ينشئها الحقُّ تعالى في قلبه ويتلَّون بسببها .

أهلية الصوفية : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : أحسنُ ما قيل في هذا الباب : باب التصوف قولُ مَن قال (هذا طريقٌ لا يصلُح إلاَّ لأقوام قد كَنَس

الله بأوراحهم المزابلَ !) لانتفاء جميع المشغلات من الشهوات عنهم بمعرفتهم قَدْر نفوسهم، لأنَّ العبد إذا عرف قَدْر نفسه في أطواره ذَلَّت نفسه وصغرت عنده، وسَلِم مِن عجبه وكِبْره ، وبهذا سَهُل عليه أن يكنس بها المزابل ويرمىٰ للكلاب .

ولهذا قال رحمه الله يوماً : **لو لم يكن للفقير إلاَّ روح فعرضها على كلاب هذا الباب** يعني : مبغضي هذه الطائفة . . **لم ينظر كلبٌ إليها** نظرَ استحسان ؛ لستر حالها عنهم وحقارتها عندهم .

ترك الاعتراض : **وقال الأستاذ أبو سهل الصعلوكي : التصوّف الإعراض عن الاعتراض** على الأقدارالجارية ، على خلاف المحبَّة بالاختيار ، فالصوفيُّ لا يلتفت إليها ويُعرض عنها ؛ علماً منه بأن الحقَّ تعالى أرحمُ به وأعلمُ بمصلحته .

وجود الصوفي : **وقال الحصري : الصوفيُّ لا يوجد بعد عدمه ، ولا يُعدَم بعد وجوده** .

تعقيب : **قال الأستاذ القشيري : وهذا فيه إشكالٌ وقلق !! والذي** يظهر أن معنى **قوله : لا يوجد بعد عدمه . . أي : إذا فنيت آفاته** ؛ من شهواته وعاداته الحقيرة ؛ ورزقه اللهُ بَدَلها التنعُّم بقربه ، واللَّذَّة بمناجاته ، والاطلاع على غرائب كراماته . . **لا تعودُ تلك الآفات** إليه ، لكمال شُغْله بما رزقه من المقامات الشريفة .

توضيح : **وقوله (ولا يعدم بعد وجوده) . . يعني إذا استقبل بالحقّ** ورُزِق تلك المقامات الشريفة . . **لم يسقط عنها بسقوط الخلق** ، فلا يعدمه الحقُّ عنها بعد أن أوجده بها .

فالحادثاتمن شهواته **لا تؤثر فيه** لبعده عنها بشُغْله بربِّه .

المستغرق بالله : **ويقال : الصوفيُّ** هو **المصطَلَم : المستغرق عنه** ـ : عن نفسه ؛ فضلاً عن غيرها من الخلق ـ **بما لاح له من الحقِّ** . أي : حال الصوفيِّ الاستغراقُ فيما هو فيه من الحقِّ عن رجوعه إلى آثار نفسه وتدبير أمره ، فهو مستغرَق في الله . . يُجري عليه ألطافَه وكراماته .

تسليم الصوفي : **ويقال : الصوفيُّ** مقهورٌ **بتصريف الرُّبوبيَّة** بخلقه وتدبيره تعالى ، إذ

لا خالق ولا مدبِّر لكلِّ شيءٍ إلاَّ هو ، **مستورٌ بتصرُّف العبودية** بالكسب ، لأنَّه مضافٌ إلى العبد ، كما قال تعالى ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[1] ، ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] . ففي هذا القول سلامةٌ من الوقوع في القَدَر والجَبْر المَحْذورين ، لأن مَن قال بالقَدَر . . أثبت فاعلاً غير الله ، ومن قال بالجبر . . نفىٰ ما أثبتته الشريعةُ ؛ من أنَّ للعبد قدرةٌ وكسباً .

ثبات الصوفيِّ : **ويقال** : **الصوفيُّ لا يتغيَّر** بما يطرقُه من الأحوال وتغيُّر الأرزاق ، لأنَّ الصوفيَّ مَن كَمُلت معرفتُه بالله ، وأنَّه لا فاعل سواه ، فهو راضٍ بما يجريه عليه مولاه ، فلا يتغيَّر بذلك . **فإن تغيَّر** ؛ بأن غلبه أمرٌ . . **لا يتكدَّر** به ، لا يدوم تغيُّره به ، بل يرجع إلى ربِّه بسرعة ، لأنَّ التغيُّر اليسير يزول بالماء الكثير بسرعة ، بخلاف التغير الكثير .

وهكذا قلبُ الصوفي طيِّب مع الله ، راضٍ بما يُجريه عليه ؛ وإن خالف هواه ، فإذا طرقه أمرٌ غيَّره عن حاله !! رجع إلى ربَّه بفقره وذِلَّته فزال تغيُّره ، ولو غفل عن الرجوع إليه وتمادى في غفلته ! تكدَّر قلبُه ، وربَّما سقط في زلله وسَخِط قَدَر ربِّه !! نعوذ بالله من بُعْده وحَجْبه .

متكدٌّ صوفيٌّ : **سمعت الشيخ أبا عبدالرحمان السُلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ الحسين بن أحمد الرازيَّ ؛ يقول : سمعت أبا بكر المصري ؛ يقول : سمعت الخَّراز ؛ يقول : كنتُ في جامع قيروان يوم الجمعة ، فرأيت رجلاً يدور في الصف ؛ ويقول (تصدَّقوا عليَّ) !!**

هذا يجري بحسب غلبة الأحوال في السُّؤَّال ، فمن الناس مَن إذا نزل عن مقامه . . تضرَّع بقلبه لربِّه ، ومنهم مَن يزيد أمره . . فيدعو بلسانه ، ومنهم مَن يزيدُ أمره . . فيظهر المَسْكَنة والتذلُّل ويصَرِّح بفقره ، فهذا الصوفيُّ لَمَّا تغيَّر حاله داوى نفسه ، فأتىٰ إلى مجمع أهل الخير ، لأنَّه لا يخلو من حضور وَليٍّ ! فصار يمشي بين الصفوف ؛ ويقول (تصدَّقوا عليَّ ؛ **فقد كنت صوفياً**

---

(١) الآية : ٨٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .
(٢) الآية : ١٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الطور .

فضعُفْتُ) وهو متذلِّل منكسرٌ راجٍ دعوةً يستجيبها فيه ممن قرَّبه مولاه . فرفقته بشيءٍ دفعتهُ له ، فقال لي (مرَّ : جاوزني ويلك ؛ ليس هذا من ذلك) !! : ما هذا أريدُ ، ولم يقبل الرفق . فهو في الظاهر سائل متذلِّلٌ بين الخلق ، وهو في الباطن مع الحقِّ .

* * *

٤٠ ـ باب الأدب[1]

تعريفه : هو ما يتولَّد من صفاءِ القلب وحضوره . ويقال : وضعُ الأشياء موضعَها .

ويقال : حُسْنُ معاملةٍ . ويتولَّد من الحياء والهيبة والشفقة .

ويقال : مجالسةُ الخلق على بساط الصدق ، ومطالعةُ الحقائق بقطع العلائق .

ويقال غير ذلك . وسيأتي بعضُه .

---

(١) **اعلم** أنَّ الأدب اسم جامع لحقائق الخيرات ، وأنواع المبرَّات ، وأصناف المحسنات ، ومع ذلك فهو مختلف باختلاف هِمَم المتأدِّبين . . فهو ١ ـ للمريدين رياضة النفوس وتأديب الجوارح ، و٢ ـ لأهل الحقائق اشتغالهم بطهارة القلوب ومراعاة السرائر .

ثم هو منحصر في خمسة : ١ ـ **حفظ الحرمة** مع الله تعالىٰ ؛ ومع ما ينسب إليه كنبي وملك وعالم وولي ومؤمن . و٢ ـ **علو الهمَّة** في الدين والدنيا ؛ بحيث لا يكون له تعلُّق بشيء من النواقص ؛ وإلاَّ بادر بالتوبة . و٣ ـ **حسن الخدمة** بالاتباع وترك الابتداع ، مع البراءة من الحول والقوة في كل أمر . و٤ ـ **نفود العزيمة** ؛ بأن لا يحلَّ عزيمة ، ولا يتراخى في تشمير ، ولا يركن لتقصير . و٥ ـ **شكر النعمة** بشهود المنعم توحيداً وإيماناً . ولكلِّ إخلال بواحد منها عقوبة ملائمة .

وترك الأدب علامة الشقاوة ، وسببه الاغترار بثلاث : ١ ـ اغتراره بظاهر ما يجري عليه من إمداده ، و٢ ـ حسن ظنِّه بنفسه ونصرة غلطها ، و٣ ـ نسيان خوف المكر به .

(عروسي : ٤/ ١٣ ؛ بتصرُّف) .

الحضُّ عليه : وهو ممدوحٌ ومطلوبٌ ، قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ : من النبي ﷺ وَمَا طَغَىٰ ﴾[1] : وما مال بصرهُ عن مرئيِّه المقصودِ له فلم يلتفت عنه .
ولهذا قيل : حَفِظَ النبيُّ ﷺ بذلك آداب الحضرة .

أدب عيسوي : ومنها جوابُ عيسى عليه السلام لقول الحقِّ تعالى له يومَ القيامة ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2] حيث لم يسرع في الجواب بقوله ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦ ﴾ ، بل صدَّر الكلام بتنزيهه تعالى ، وبإضافة عِلْمِ ذلك إليه ، وبتنزيه نفسه عما أضيف إليه ؛ حفظاً لشريف الآداب ، فقال : ﴿ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ . . الخ . ثم أجاب بقوله ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ .

وقاية النار : وقال تعالى ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[3] . . جاء في التفسير عن ابن عبَّاس أن معناه : فَقِّهُوهم وأَدِّبوهم بالعلم ونحوِه ، ليصيروا متأدِّبين مع الحقِّ والخلق .

حق الولد : أخبرنا عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ رحمه الله ؛ قال : حدَّثنا أبو الحسن الصفار البصري ؛ قال : حدَّثنا غنام ؛ قال : حدَّثنا عبد الصمد بن النعمان ؛ قال : حدَّثنا عبد الملك بن الحسين ؛ عن عبد الملك بن عمير بن مصعب بن شيبة ؛ عن عائشة رضي الله عنها ؛ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « حَقُّ ٱلوَلَدِ عَلَىٰ وَالِدِهِ ١ـ أَنْ يُحْسِنَ ٱسْمَهُ ، وَ٢ـ يُحْسِنَ مُرْضِعَهُ ، و٣ـ يُحْسِنَ أَدَبَهُ »[4] لينتفع كلٌّ منهما بذلك .

جاهل الأدب : ويُحكىٰ عن سعيد بن المسيبَ أنَّهُ قال : مَن لم يعرف ما لله عزَّ وجلَّ وما للخلق . . عليه في نفسه من الحقوق التي لزمته ؛ ولم يتأدَّب مع الله ومع خلقه بأمره ونهيه . . كان من الأدب النافع في عزلة . إذ لا حُسن ولا قُبْح عند أهل الحقِّ إلاَّ بما حَسَّنه الشرع وقبَّحه ، فمن زعم أنَّ ما يأتي به مما استحسنه

---

(١) الآية : ١٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النجم .
(٢) الآيات : ١١٦ ـ ١١٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المائدة .
(٣) الآية : ٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التحريم .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » ؛ عن عائشة كما عزاه السيوطي في « الجامع » : ٣٧٤٦ ؛ ورمز لضعفه .

برأيه ، ومال إليه بطبعه من الآداب النافعة ؛ فهو في غَلَطٍ عظيم .

خُلقُه ﷺ : وسُئِلت عائشة رضي الله عنها عن خُلقُ النَّبيِّ ﷺ ، فأشارت إلى ما أمره به ربُّه من قوله ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[١] .

وكذلك لما جَذَبَه الأعرابيُّ بردائه حتَّى أثَّرت حاشيةُ الرِّداء في صفحة عُنقُه ؛ وقال له : اِعدل ، فإنَّك لم تعدل ؟! فلم يلتفت لجهله وسوءِ معاملته ، وأجابه بقوله : « خِبْتَ وَخَسِرْتَ[٢] ؛ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ » .

أدبه ﷺ : ورُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ ؛ قال : « إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَدَّبَنِي فأَحْسَنَ أَدَبِي »[٣] وأثنى عليّ بحسن الأدب حيث قال ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ . وكان من دعائه ﷺ : « اَللَّهُمَّ ؛ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي »[٤] . قيل : معناه أنَّ كمال النعم في حُسن الخُلق ، وكمال الأدب في حُسن الخُلق . وقال ﷺ : « إِذَا أَرَادَ ٱللهُ بِعَبْدٍ خَيْرَاً جَعَلَ لَهَ وَاعِظاً مِنْ نَفْسِهِ . . يَأْمُرُهُ وينْهَاهُ »[٥] .

حقيقة الأدب : وحقيقة الأدب اجتماع جميع خصال الخير ؛ بأن يكْمُل فيها العبد قولاً وفعلاً وحالاً وغيرها ممَّا هو فيه مع ربِّه . **فالأديب هو الذي اجتمع فيه خصالُ الخير** ، **ومنه** أي : الأداب بمعنىٰ اجتماع خصال الخير **أُخِذت المأدُبة** ، **وهي اسم للمجمع** : للاجتماع للطعام .

---

(١) تقدم ص٧٦٢ .

(٢) يُقرأُ بضمِّ التاء على أنها ضمير الفاعل ، وبفتحها للخطاب .

(٣) أخرجه الإمام أبو سعد ابن السمعاني في « أدب الإملاء والاستملاء » ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ ٱللهَ أَدَّبَنِي فَأَحْسَنَ تَأْدِيْبِي » ثم أمرني بمكارم الأخلاق ؛ فقال ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وهو حديث غريب معناه صحيح . وقد رمز السيوطي في « الجامع » لصحته : ٣١٠ ، لكن قال في « الدرر » : ضعَّفه ابن السمعاني وابن الجوزي . وصحَّحه أبو الفضل ابن ناصر الدين ، وأخرجه ابن عساكر في قصة لأبي بكر ، وكذلك العسكري عن علي في قصة وفد بني فهد بن زيد . (انظر فيض القدير : ١/ ٢٢٥) .

(٤) أخرجه أحمد : ٦/ ٦٨ ، وأبو يعلىٰ : ٢٦١١ بلفظ : « الحمد لله الذي حسّن . . . » وابن السني في « عمل اليوم والليلة » : ١٦٣ .

(٥) عزاه السيوطي في «الجامع الصغير» : ٣٧٨ ؛ إلىٰ الديلمي ؛ عن أم سلمة ، ورمز لضعفه .

الأدب بالطاعة : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **العبدُ يصل بطاعته** من القيام بالمأمورات . وترك المنهيَّات **إلى الجنَّة** ، **وبأدبه في طاعته إلى الله تعالى** : يصلُ إلى ذلك بطاعته وبأدبه عادةً ، وبفضل ربِّه حقيقةً .

أدب الظاهر : **وسمعتُه أيضاً يقول** : **رأيتُ مَن أراد أن يمدَّ يده في الصلاة بين يدي الله إلى أنفه ليزيل ما به** ؛ **فقَبُض على يده !!** بأن مُنعت عن وصولها إليه ؛ حملاً له على الأدب مع الله تعالى في صلاته .

توضيح : **قال الأستاذ** الإمام القشيريُّ رحمه **الله تعالى** : **وإنَّما أشار** أبو علي **بذلك إلى نفسه** ، **لأنه لا يمكن الإنسان أن يعرفَ من غيره أنَّه قبض على يده** إلا بإخبار الغير له بذلك بعد فراغه من الصلاة ؛ أو فيها ؛ وهو ناسٍ ، مع كونه رآه فيها رفع يده إلى أنفه ولم تصل إليه .

جلوس أديب : **وكان الأستاذ أبو عليٍّ رحمه الله** إذا جلس لذكر أو غيره . . **لا يستند إلى شيء** ؛ مبالغة في لزوم الأدب في جلوسه . **وكان يوماً في مجمع** من الناس **فأردتُ أن أضع له وسادة خلف ظهره** ، **لأني رأيته غيرَ مستند** إلى شيء ، فوضعتها ، **فتنحى عن الوسادة قليلاً فتوهَّمتُ أنَّه توقى الوسادة لأنه لم يكن عليه** ـ الأولى : عليها ؛ كما في نسخة ـ **خِرقةٌ أو سَجَّادة فوضعت عليها ذلك** ؛ **فقال لي** : **لا أريد الاستناد** إلى شيء . **فتأمَّلتُ بعدُ حالَه فكان لا يستند إلىٰ شيء أَدَبا** .

موجب الإيمان : **سمعت** أبا حاتم السجستاني ؛ **يقول** : **سمعت أبا نصر السرَّاج ؛ يقول** : **سمعت أحمد بن محمد البصري ؛ يقول** : **سمعت الجلاجلي ؛ يقول** : **التوحيدُ موجِب يوجب الإيمان** : التصديق بما جاء به الكتاب والسنَّة ، لأنَّ مَن علم أنَّ الله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله . . صدَّق به قلبه ، ونطق به لسانه . **فمن لا إيمانَ له** . . **لا توحيد له** لانتفاء الملزوم بانتفاء لازمه .

موجب الشريعة : **والإيمان موجِب يوجب الشريعة** ، لأنَّ مَن آمن بالله وبرسوله تلقَّى ما في كلامهما بالقبول ؛ وهو الشريعة . **فمن لا شريعة له لا إيمان له** ؛ **ولا توحيد** له كذلك .

موجب الأدب : **والشريعة موجِب يوجب الأدب** ، لأنَّ من عرفَها تخلَّق بها وتأدَّب

بما فيها ، فمن لا أدب له لا شريعة له ، ولا إيمانَ ولا توحيد له كذلك .

معنى الأدب : وقال ابن عطاءٍ : الأدبُ الوقوف مع المحسنات .

فقيل له : وما معناه ؟ فقال : أن تعامِل اللهَ بالأدب سِرّاً وعَلَنا : في أعمال قلبك وأعمال جوارحك ، فلا تتعاطى شيئاً إلاَّ شهدتْ لك الشريعة بحُسْنه ، فإذا كنتَ كذلك . . كنتَ أديباً ؛ وإن كنتَ أعجمياً . ثم أنشد[1] :

إِذَا نَطَقَتْ : المحبوبة جَاءَتْ بِكُلِّ مَلاَحَةٍ

وَإِنْ سَكَتَتْ جَاءَتْ بِكُلِّ مَلِيْحِ .

فَمنْ لازَمَ الآداب الشرعيّة حَسُنت حركَتُه وسكونُه وكلامه وسكوته .

جلسة متأدب : أخبرنا محمد بن الحسين رحمه الله تعالى ؛ قال : سمعت عبد الله الرازي ؛ يقول: سمعت عبد الله الجُريري ؛ يقول : منذ عشرين سنة ما مددتُ رجلي وقتَ جلوسي في الخلوة ، فإنَّ حسن الأدب مع الله تعالى أَوْلى منه مع غيره ، فإنَّ العبد إذا جالس غيره من عظماء المخلوقين . . . لم يَهُن عليه أن يمدَّ رِجليه بين يديه ؛ وإن كان مدُّهما لغير الجهة التي هو فيها ، فكيف بمن يستقبل الله !! : يجلس إلى الجهة التي أَمرَه باستقبالها يمدُّ رجليه إليها ؟! .

قلَّة الأدب : سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : مَن صاحَبَ الملوك بغير أدب أسلمه الجهل به إلى القتل ، لأنَّ عزَّة نفوسهم ورفعةَ حرمتهم تمنعانهم من أن يروا مَن عليه حقٌّ يسيءُ الأدب ؛ أو يقصِّرُ في خدمتهم ، فمن ترك الأدب جَرَّه ذلك إلى العطب .

أقرب الآداب : وروي عن ابن سيرين أنَّه سُئل : أي أنواع الأدب أقربُ إلى الله تعالى ؟! فقال : ١ـ مَعرفةٌ بربوبيَّته تعالى ، و٢ـ عملٌ بطاعته ، و٣ـ الحمد لله على السرَّاء ، و٤ـ الصبر على الضرَّاء . لما تقرَّر مِن أنَّه لا يتقرَّب المتقربّون إليه تعالى إلاَّ بمعرفته وطاعته ؛ والصبر على ما ابتلي به .

هالك العارف : وقال يحيى بن معاذ : إذا ترك العارفُ بالله أدبَه مع معروفه ؛ أي :

---

(١) إذا نَطَقَتْ جَاءَتْ بِكُلِّ مَلاحَةٍ وَإِنْ سَكَتَتْ جَاءَتْ بِكُلِّ مِليْحِ

مع الله . . فقد هلك مع الهالكين .

لأنَّ مَن عرف الله بصفاته ثم أساء الأدب ؛ فقد تعرَّض لهلاك نفسه ، لأنَّ عقابَ العالِم أشدُّ من عقاب الجاهل .

موجب الطرد : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ رحمه الله ؛ يقول : تركُ الأدب موجِب يوجب الطرد ، فمن أساء الأدب على البساط . . ردّ إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب . . رُدَّ إلى سياسة الدواب ، لاستحقاقه بذلك البعد والطرد ، وألمُ كلِّ مطرود على حسب ما فارقه مِن منزلته التي كان فيها ، ولا منزلةَ أجلُّ وأعلى من مراقبة مولاه مع كمال أدبه ، فإن أساء أدبه فيها . . طُرِدَ عنها .

أنفع الآداب : وقيل للحسن البصري : قد أكثر الناس في علم الآداب ؛ فما أنفعها عاجلاً وأوصلها آجلاً ؟! فقال : هو التفقُّهُ في الدِّين ، لأنَّك إذا عدمته وقعت فيما لا ينبغي ، والزُّهد في الدنيا ، إذ مع محبَّتِك لها لا يمكِنُك القيام مع ما علمته من الأحكام ، لشُغْلك بحفظها وتحصيلها وجهاتِ كسبها ، والمعرفة بما لله تعالى عليك من حقٍّ تعبُّدُك له وإجلالك له ، واعترافك بما أسبغ عليك من نعمة .

الأدب والمحبة : وقال يحيى بن معاذ : من تأدَّب بأدب اللهِ تعالى صار من أهل محبَّة اللهِ ، لقيامه بفعل المأمورات وترك المنهيَّات ، وإذا أحبَّه الله حفِظَه في سائر أعضائه .

القوم الأكفاء : وقال سهلٌ : القوم الذين ارتفعت درجاتهم الذين استعانوا بالله على أمر الله : طاعتِه ، وتبرَّؤُوا مِنْ حَوْلهم وقوَّتهم ، وصبروا لله على آداب الله في طاعته .

حاجتنا للأدب : ورُوي عن ابن المبارك أنَّه قال : نحن إلى قليل من الأدب أحوجُ منا إلى كثير من العلم ، لأنَّ العلم يُراد لإيقاع العمل على وجهه ، ولإيقاعه كذلك شروطُ صحَّةٍ وشروطُ كمالٍ ، والأدب فيه أن يوقعه على أفضل شروطِ كماله . وأوَّل درجاته القيامُ بالطاعات ليتخلَّص من النار ، وأعلاها القيامُ بآداب فضائلها ؛ لينال محبة الجبار . وإذا نال محبَّتَه . . سَهُلت عليه طاعته .

وقت التأدّب : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن أحمد بن سعيد ؛ يقول : سمعت العبَّاس بن حمزة ؛ يقول : حدَّثنا أحمد ابن أبي الحواري ؛ قال : قال الوليد بن عُتبة : قال ابن المبارك : **طلبنا الأدب حين فاتنا الشيوخ المؤدِّبون** الذين أدركناهم ، وكانوا علماءَ بالآداب مع الله ؛ ومع خلقه ومتخلِّقين بها . حثَّ بذلك تلامذتهم على أن يتأدَّبوا بهم ؛ لئلا يتأسَّفوا على فواتِهم كما تأسَّفَ هو عليه .

خصال التأهل : **وقيل : ثلاث خصال ليس معهن غُربةٌ ١ـ مجانبة أهل الرِّيب ، و٢ـ حسن الأدب ، و٣ـ كفّ الأذىٰ** . لأنَّ الغريب من لا يُؤلف ؛ ولا يجد مَن يألف به ، ومَن اجتمع فيه هذه الخصالُ أَلِف وأُلِف ، لأَنَّه إذا بَعُد عن أهل الرِّيب حَسُن الظنُّ به ، ولم تُخش غائلَتُه ، وإذا حَسُن أدبُه . . حَسُنَت معاملَتُه وكلامُه ، وقلَّ طمعُه فيما بأيدي الناس ، وتكرَّم عليه بما يمكنه ، وإذا كفَّ أذاه عن الخلق حَسُنت صحبَتُه ، ـ وفي نسخة : عقب ذلك في ـ وأنشدنا الشيخ أبو عبد الله المغربي في هذا المعنى[١] :

يَـزِيْـنُ ٱلغَـرِيْـبَ إِذَا مَـا ٱغْتَـرَبْ ... ثَـلَاثٌ ، فَمِنْهُـنَّ حُسْـنُ ٱلأَدَبْ
وَثَـانِيَـةٌ طِيْـبُ أَخْـلَاقِـهِ ... وَثَـالِثَـةٌ اِجْتِنَـابُ ٱلـرِّيَـبْ

الظاهر والباطن : **ولما دخل أبو حفص بغداد ومعه أصحابه** ؛ ورأى الجنيدُ أدبَهم مع المشايخ وأعجبَه ذلك ؛ **قال له الجنيد : لقد أدَّبت أصحابَك أدبَ السلاطين !** : تأديبَهم لجندهم في الظاهر بنزاهة النفس ، وسرعة المبادرة لأوامر المشايخ ، والقيام بخدمة الفقراء .

فقال له أبو حفص : حُسْن الأدب في الظاهر عنوانُ حسنِ الأدب في الباطن .

يعني : أن ما هم فيه من الأدب ليس تعليماً وتكلُّفاً ، ولكنهم لما عَمُرَت قلوبهم باجلال الحقِّ من اختصَّه وعظَّمه . . جرت الآداب عليهم في الظاهر ، فلذلك قال له (أدب الظاهر . .) إلخ

---

(١) من المتقارب .

أدب العارف : وعن عبد الله بن المبارك أنَّه قال : **الأدبُ للعارف بالله كالتوبة للمستأنِف** : للمبتدىء ، فكما أنَّ المستأنِف لا يستغني عن توبتهِ إذا زَلَّ ، بل يرجع إليها بسرعة ؛ كذلك العارفُ لا يستغني عن أدبه لحظةً . . إذا غَفَل عنه ، لأنَّه يعدُّه سيئة ، ولهذا قيل (حسنات الأبرار سيئات المقربين !!) فمتى رأىٰ العارفُ عملَه صحيحاً نافعاً له عند ربِّه . . فقد زَلَّ عن درجته ، ونقص في أدبه ؛ فحقُّه أن يسرع إلى التوبة .

أدبني الصوفية : سمعت منصور بن خلف المغربيَّ ؛ يقول : قيل لبعضهم (يا سيِّءَ الأدبِ) ! فقال : لست بسيءِ الأدب . **فقيل له** : **من أدَّبك** . **فقال** : **أدَّبني الصوفيةُ** . في ذلك مدحُ أدب الصوفي لبنائه على الزهد في الدنيا وكمالِ مراقبة المولى ؛ وهي درجة الإحسان . **فهذا أحسن الآداب** .

طبقات المتأدبين : سمعت أبا حاتم السجستاني رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا نصر الطوسي السرَّاج : يقول : **الناسُ في الأدبِ على ثلاث طبقات** : ١ـ أهل الدنيا ، و٢ـ أهل الدين ، و٣ـ أهل الخصوصية .

١ـ **أهل الدنيا** : أمَّا أهل الدنيا ! **فأكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة وحفظِ العلوم** ، وأسمار الملوك ، وأشعار العرب ، وحُسن العُشرة ، والانبساط في الخلطة والأطعمة ، وغيرها ممَّا هو أدبٌ عندهم في معاملة الدنيا .

٢ـ **أهل الدين** : وأمَّا أهل الدين ! **فأكثر آدابهم في رياضة النُّفوس وتأديب الجوارحِ** ، وحفظِ الحدود التي حدَّها الله ، **وترك الشهوات** . وغير ذلك من الآداب الحاملة على أعمال الآخرة ؛ كتحريك الهمة للقيام بها والرَّجاء والمحبَّة .

٣ـ **أهل الخصوصية** : وأمَّا **أهل الخصوصية** ؛ وهم العارفون بالله **فأكثرُ آدابهم في طهارة القلوب** ، ومراعاةِ الأسرار ، والوفاءِ بالعهودِ ، وحفظ الوقت ، وقلَّة الالتفات إلى الخواطر ، وحُسَن الأدب منهم يكون في مواقف الطلب ؛ وأوقات الحضور مع الله ، ومقاماتِ القُرْب من الله تعالى ، فأدبُهم مع الله في كلِّ وقت وحال لازمٌ لهم بما يليق بوقتهم الذي هم فيه . . بالنسبة لما يَرِدُ عليهم .

العابد بالإخلاص : وحُكي عن سهل بن عبد الله أنَّه قال : **مَن قهر نفسه بالأدب في**

دفع المشغلات عن القلـوب ؛ كالريـاء والعُجْبِ . . فهـو يعبد الله بالإخلاص والنشـاط .

كمال الأدب : وقيل : كمال الأدب ؛ لكونه إنما يكون بقطع المشغلات عن القلوب . . لا يصفو إلاَّ للأنبياء والصدِّيقين ، لأنهم أقوى الناس في الدِّين وأعرفُهم به .

معرفة النفس : وقال عبد الله بن المبارك : قد أكثر الناس الكلام في الأدب ! ونحن نقول : هو معرفةُ النفس بعجزها وقلَّة قُدْرَتها وافتقارها ، لأنَّ مَن عرف نفسه بذلك . . عرف ربَّه بجلاله وكماله ، واقتداره على ما يشاء ، ومَن عرف نفسه وربَّه بما ذكرنا . . تأدَّب في طاعته ، وإن كانت كاملةً مبرَّأةً من العُجْب والاغترار بها .

وقال الشِّبلي : الانبساط بالقول مع الحقّ تعالى تركُ الأدب معه ، لأنَّ انبساطَك مع مَن تُعظِّمُه وتُجِلُّه تركٌ للأدب معه ، ولا يفعله إلاَّ جاهل بجلاله وعظمته ؛ وما هو عليه مِن أخذه وسطوته .

أدب العارف : وقال ذو النُّون المصريُّ : أدبُ العارف بالله فوقَ كلِّ أدب ، لأنَّ معروفه وهو اللهُ تعالى مؤدِّبُ قلبِه ، إذ معرفتهُ به وبجلاله وعظمته . . توجب له الأدبَ معه ، فيستغني به عن أدب المؤدِّبين ، لأنَّ دواعيَ نفسه وخواطرَها صحيحةٌ حاملةٌ له على الأدب .

الاختيار الموَّفق : وقال بعضهم : يقول الحقُّ سبحانه : ﴿ مَن ألزمتُه القيام وأوقفتُه مع تفكُّره في أسمائي وصفاتي ، لكونها تدلُّ على لطفه ورحمته ؛ وكرمه ومحبَّته وإجلاله . . ألزمتُه الأدب ، ومَن كشفتُ له عن حقيقة ذاتي القديمة المنزَّهة عمَّا لا يليق بها ؛ كالأوَّلية والآخريّة . . ألزمتُه العطب ، لأنَّه إذا تفكَّر فيها وهو لا يحيط بها كَفَر . . إن نفاها ، أو أثبتها على غيرِ وجهها ، وإلاَّ ! غاب عن نفسه وعَدِم انتفاعَه بحواسِّه ، في شُغْله بربِّه عطبٌ ، فاختر لنفسك أيَّهما شئتَ . . الأدبَ ؛ أو العطبَ ﴾ ، والموفَّق لا يختارُ إلاَّ الأدب .

الأدب المتروك : وقيل : مدَّ ابنُ عطاء يوماً رجله بين أصحابه ؛ وقال : ترك الأدب

بين أهل الأدب أدبٌ ، لما يعلمه مِنْ عَدَم انتقادهم عليه بذلك ، ومن فرحهم بجميع ما يبدو منه ؛ لكمال المحبَّة بينهم ، والمصافاة في قلوبهم ؛ بحيث تركوا التكلُّف ، فتركُ التكلُّف بينهم من الأدب ، لأنَّه مما يسرُّهم .

وأصلُ الأدب إدخالُ المسَّرة على مَن يتأدَّب معه .

شاهده : ويشهد لهذه الحكاية الخبرُ الذي رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان عنده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في حائط على طرف بئر . . وقد دَلَّى رِجليه فيها ؛ وانكشف بعضُ فخذه ولم يغطِّه !! فدخل عثمانُ رضي الله عنه فغطَّى فخذه ؛ وقال : « أَلاَ أَسْتَحيِي مِنْ رَجُلٍ ٱسْتَحْيَتْ مِنْهُ المَلاَئِكَةُ »[1] !! .

نبَّه ﷺ على أنَّ حِشمة عثمان رضي الله عنه ؛ وإن عَظُمت عندهُ . . فالحالةُ التي كانت بينه وبين أبي بكر وعمر كانت أصفى قلباً وأعظم حرمة . . من الحالة التي كانت بينه وبين عثمان .

دلالته : في ذلك دَلالة على أنَّ عثمان كان شديدَ الحياء من النَّبيِّ ﷺ ، وأنَّ حالته كانت محبوبةً لله ولرسوله ولملائكته ، والغرض من ذلك أنَّ أدبه ﷺ مع أبي بكر وعمر رضي عنهما لم يبقَ فيه تكلُّف ؛ لعدم انقباضهما مما ذكر .

وفي قريب من معناه أنشدوا[2] :

فِيَّ ٱنْقِبَاضٌ وحِشْمَةٌ فَإذا

جَالَسْتُ ـ وفي نسخة : صَادَقْتُ ـ أَهْلَ الوَفَاءِ وَالكَرَمِ

أَرْسَلْتُ نَفْسِي عَلَىٰ سَجِيَّتِهَا : طبيعتها وعادتها من عدم التحفُّظ

وَقُلْتُ مَا شِئْتُ غَيْرَ مُحْتَشِمِ .

---

(١) هذا الذي ذكره المصنف رحمه الله فيه اضطراب حيث جمع بين حديثين : أخرجهما مسلم في « صحيحه » : ٣٦ ـ ٢٤٠١ وفيه تروي عائشة الحادثة في بيتها ، وفيه ما قاله رسول الله ﷺ : « ألا أَسْتَحي . . . » . والثاني : ٢٩ ـ ٢٤٠٣ ؛ عن أبي موسىٰ ، وهي قصة البئر ـ وسمّاها « بئر أريس » ـ وقد بشَّرهم بالجنة أبا بكر وعمر وعثمان دون الشاهد « ألا أستحي » فتنبه . والله أعلم .

(٢) فِـيَّ ٱنْقِبَـاضٌ وَحِشْمَـةٌ فَـإِذَا ... جَـالَسْـتُ أَهْـلَ ٱلـوَفَـاءِ وَٱلْكَـرَمِ

أَرْسَلْـتُ نَفْسِـي عَلَـىٰ سَجِيَّتِهَـا ... وَقُلْـتُ مَـا شِئْـتُ غَيْـرَ مُحْتَشِـمِ

صحَّة المحبَّة : وقال الجنيد : **إذا صحَّت المحبَّة سقط** ـ وفي نسخة : سقطت ـ **شروط الأدب** . يعني : سقط تكلُّف الأدب ، وإن كانت المحبَّة توجِب كمال الأدب ، فالأدبُ مع الأحباب جارٍ على أكمل الوجوه الصوابِ من غير تكلَّف ؛ فيسقط الأدب تكلُّفاً . . لا وجوداً .

تأكدُ الأدب : وقال أبو عثمان : **إذا صحَّت المحبَّة تأكَّدت على المحبِّ ملازمةُ الأدبِ** ؛ وإن سقط تكلُّفه ـ كما مرّ ـ .

أدب الوقت : وقال النُّوري : **مَن لم يتأدَّب مع الله تعالى للوقت** : لوقت جريان حاله عليه . . **فوقتُه** : حاله **المقت** . أي يُخشى عليه فيه المقت ، لأنَّ مَن ترقَّب منزله مع ربِّه بما يُحدثه له في وقته ؛ فلا يليق به الغفلة عنه ، ولا تركه الأدب فيه .

تارك الأدب : وقال ذو النُّون : **إذا خرج المريد عن استعمال الأدب ؛ فإنَّه يرجع من حيث جاء** . فالمريدُ كغيره من العارفين وغيرِهم . . لا يستغني عن الأدب في حال من أحواله .

أدب أيوبيٌّ : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ رحمه الله ؛ **يقول في قوله عزَّ وجلَّ** ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[1] **قال** ـ هو زائد ـ : **لم يقل أيوب (ارحمني) ، بل قال** : ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ **فأثنى على الله تعالى بصفة من صفاته وضَمَّنَها (ارحمني) لأنَّه حفظ آداب الخطاب مع الله تعالى** . قيل : ولم يقل (مسني الضر) إلاَّ لَمَّا بلغ الألم إلى قلبه وخَشِي منه كمال الشُّغْل به عن ربِّه .

أدب عيسوي : **وكذلك عيسى عليه السلام حيث قال** . . فيما يتعلَّق بجوابه عن سؤال الله له بقوله ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ . وقال فيه أيضاً ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ . . الآية ، وأجاب عن السؤال بقوله ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ ﴾ ولم يقل بدله (لم أقل ذلك) !! رعايةً لآداب الحضرة .

وبما تقرَّر عُلِم أنَّ في كلامه إجحافاً .

---

(١) الآية : ٨٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنبياء .

اللائق بالأدب : سمعتُ محمد بن عبد الله الصوفي رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا الطيِّب بن الفرحان ؛ يقول : سمعتُ أبا القاسم الجنيدَ ؛ يقول : جاءني بعض الصالحين يوم جمعة ؛ فقال : اِبعث معي فقيراً يُدخل عليَّ سروراً ؛ ويأكل معي شيئاً . فالتفتُّ فإذا أنا بفقير شهدتُ فيه الفاقة : الحاجة إلى الأكل ، فدعوته ؛ وقلتُ له : اِمض مع هذا الشيخ ، وأدخل عليه سروراً بمضيِّك وأكلك معه . فمضى معه ، فلم ألبث أن جاء الرَّجُل ؛ فقال لي : يا أبا القاسم ؛ لم يأكل ذلك الرجل الفقيرُ إلاَّ لقمةً وخرج !! فقلت له : لعلَّك قلتَ له كلمةَ جفاء عليه ! فقال : لم أقل له شيئاً ! . فالتفتُّ فإذا أنا بالفقير جالس ؛ فقلت له : لِمَ لَمْ تُتِمَّ عليه السرور ؟ فقال لي : يا سيِّدي ؛ قد خرجتُ من الكوفة وقدمتُ إلى بغداد قاصداً لك ؛ ولم آكل شيئاً مدّة سفري . . وأنا طيِّب العيش ، وكرهتُ أن يبدوَ سوءُ أدبٍ منِّي من جهة الفاقة في حضرتك ، فلما دعوتني وأمرتني أن أمضيَ مَعه . . سُررت ؛ إذ جرى ذلك ابتداءً منك . . لا منِّي ، فمضيتُ معه وأنا لا أرضىٰ له عوضاً عما أنا فيه من الفاقة . . . الجنانَ ؛ بل أعلى منها ، فلما جلستُ على مائدته سوَّى لي لقمة ؛ وقال لي : كُلْ ؛ فهذا ـ : أكلُك لها ، أو هذا القَدْرُ الذي سوَّيته لك . . ـ أحبُّ إليَّ من عشرة آلاف درهم . فلما سمعتُ هذا منه . . علمتُ أنَّه دنيءُ الهمَّة ، لأنَّه إنَّما ذكر فضل ذلك على الدَّراهم التي هي من الدنيا ؛ ولم يذكر الآخرة !! وحقُّ الفقير أن يكون مشغولاً بالله زاهداً في الدنيا كهذا الفقير ، بل ربَّما يكون مَشغولاً عن ذكر الآخرة وما أعدَّ اللهُ فيها لأوليائه لكمال شُغلْه بمولاه . فتطرَّفْت : تجنَّبتُ أن آكل طعامه . فقال الجنيد للرجل : ألم أقل لك إنّك أسأتَ أدبك معه !! فقال لي : يا أبا القاسم ؛ أسألك التوبة . فأجابه إليها ، فتاب ورجعت همَّتُه إلى الآخرة وأعرض عن الدنيا . فسأله ـ : الجنيدُ : الفقيرَ ـ أن يمضيَ معه ـ : مع الرجل ـ ثانياً ويفرِّحَه . فأجابه إلى ذلك لزوال المانع .

في ذلك حثٌّ على ملازمة الأدب مع كلِّ أحد بحسب ما يليق به .

* * *

٤١ ـ باب أحكامهم الصوفية في السفر

وهو مطلوب لبعضهم ؛ كما سيأتي .

حضُّهم عليه : قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(١) .

دعاء السفر : وأخبرنا عليُّ بن أحمد بن عبدان ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصري ؛ قال : حدَّثنا محمد بن الفرج الأزرق ؛ قال : حدَّثنا حجَّاج ؛ قال : قال ابن جريج : أخبرني أبو الزبير أنَّ علياً الأزديَّ أخبره أنَّ ابن عمر علَّمهم ـ وفي نسخة : أعلمهم ـ أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا استوى على البعير خارجاً إلى سفر كبَّر (ثلاثاً) ، ثم قال : « ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ـ : مطيقين ـ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ » . ثم يقول : « اَللَّهُمَّ ؛ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هٰذا ٱلسَّتْرَ ـ وفي نسخة : ٱلبرَّ ، أي : الطاعة ـ وَٱلتَّقْوَىٰ ، وَمِنَ ٱلعَمَلِ ٱلصَّالِحِ مَا تَرْضَىٰ به عَنَّا ، اَللَّهُمَّ ؛ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا ، وَٱطْوِ عَنَّا بُعْدَه . اَللَّهُمَّ ؛ أَنتَ ٱلصَّاحِبُ فِي ٱلسَّفَرِ ، وَٱلخَلِيْفَةُ فِي ٱلأَهْلِ ، اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ المُنْقَلَبِ وَسُوءِ المَنْظَرِ فِي ٱلأَهْلِ وَالْمَالِ »(٢) وروي(٣) : « وَكَآبَةِ ٱلمَنْظَرِ وَسُوءِ ٱلمُنْقَلَبِ فِي ٱلمَالِ وَٱلأَهْلِ » .

دعاء الرجعة : وإذا رجع قالَهُنَّ ؛ وزاد فيهنَّ : « آيِبُونَ . . تَائِبُونَ . . لِرَبِّنَا

---

(١) الآية : ٢٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : يونس .

(٢) الآية : ١٣ ـ ١٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الزخرف .
أخرجه مسلم : ٤٢٦ ـ ١٣٤٣ ، وأحمد : ٢/ ١٤٤ ، وأبو داود : ٢٥٩٩ ، والترمذي : ٣٤٤٧ ، والدارمي : ٢٦٧٦ ، ٢٦٨٥ ، وابن خزيمة : ٢٥٤٢ ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » : ٥٤٨ .

(٣) أخرجه مسلم : ٤٢٥ ـ ١٣٤٢ .

حَـامِـدُونَ » . الـوَعْثـاء : الشـدَّة . والكـآبـة : تغيُّـر النفـس مـن حُـزْن ونحـوه ، والمنقلب : المرجعُ .

أهميته : واعلم أنَّه لمَّا كان رأي كثيرٍ من أهل هذه الطائفة : الصوفيَّة اختيار السفر على الإقامة . . أفردنا لذكر السفر في هذه «الرسالة» باباً ، لكونه من أعظم شأنهم .

أحوالهم والسـفر : وهذه الطائفـةُ التي منهـا الكثيـر مختلفون ؛ في أنَّ السفر أفضلُ أم الإقامة !!

١ـ **مؤثرو الإقامة :** فمنهم مَن آثر الإقامة على السفر ليجتمع قلبه فيها ، ولم يسافر إلاَّ لفَرْضٍ كحِجَّة الإسلام والجهاد ، والغالبُ عليهم الإقامة ؛ مثل الجنيد ، وسهل بن عبد الله ، وأبي يزيد البَسطامي ، وأبي حفص وغيرهم .

٢ـ **مؤثرو السفر :** ومنهم مَنْ آثر السفر على الإقامة ؛ ليربح فائدةً كاجتماعه بمن يتأدَّب برؤيته ، ويتخلَّق . . بأخلاقهِ . وكانوا مستمرِّين على ذلك إلى أن خـرجـوا مـن الـدنيـا ؛ مثـل أبـي عبـد الله المغـربـي ، وإبـراهيـم بـن أدهـم وغيرهم ـ الأَوْلى : وغيرهما ـ .

٣ـ **متغيِّرون :** وكثيرٌ منهم سافروا في ابتداءِ أمورهم في حال شبابهم أسفاراً كثيرة ، ثمَّ قعدوا عن السفر في آخر أحوالهم ؛ مثل أبي عثمان الحيري ، والشبلي . . وغيرهم ـ الأَولى : وغيرهما ـ .

وآخرون سـافروا في أثناء أمورهَـم . ولكلٍّ منهـم فيما آثره أصول بَنَوا عليها طريقَتَهم .

أنواع السفر : واعلم ـ وفي نسخة : واعلموا ـ أنَّ السَّفر على قسمين :

١ـ **بدنيٌّ :** سفرٌ بالبدن ؛ وهو : انتقال من بقعة إلى بقعة مسيرتُها ميلٌ فأكثر .

٢ـ **قلبيٌّ :** وسفر بالقلب ؛ وَهو : ارتقاء من صفة إلى صفة . . بأن يسافر عن شهواته بقلبه ، ويتيقَّظ لإصلاحه بنقله من الأخلاق الذميمة إلى الحميدة بمجاهدةِ نفسه . . إلى أن يصل إلى مقام التوحيد ، وكمال الأُنُس بقُربه من ربِّه ؛ ودوام ملاحظته له .

تفاوت السَّفَرين : وشتَّان ما بين سفر الأبدان وسفرِ القلوب ! . فترىٰ ألفاً يسافر

بنفسه : ببدنه ، وقليل مَن يسافر بقلبه؛ لقلّة أرباب الرُّتَب العالية وكثرة غيرهم .

السفر الحقيقي : وسفر القلوب لا يستغني عنه مسافرٌ ؛ ولا مقيم ، وهو السفر الحقيقيُّ عندهم ، لأنَّه إنَّما جُعل للنقل من الصفات الذميمة إلى الحميدة .

غرض السفر : **والغرض** من سفر الأبدان انقطاعُ الفقير عن الشهوات في محِّل الاستيطان ، واستعانتُه بمن يلقاه من السالكين على ما يوصله إلى كمال حاله في الأعمال والعرفان . والتصوُّف ـ كما مرَّ ـ هو : النقل من الصفات الذميمة إلى الحميدة . . إلى أن يتفرَّغ القلب لكمال المراقبة لله بحيث يشتغلُ قلبه به عمَّا سواه .

سفر الفرخكي : **سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : كان بـ (فَرَخْك) قرية بظاهر نَيْسابور شيخ من شيوخ هذه الطائفة ؛ وله على هذا اللسان :** لسان الصوفية تصانيفُ . . **سأله بعض الناس : هل سافرت أيُّها الشيخ ؟ فقال له : تريد سفر الأرض ؛ أم سفر السماء ؟! سفر الأرض لا !! وسفر السماء بلىٰ !!** سافرتُه لتعلُّقه بالمقامات الشريفة التي كانت أخلاقاً للأنبياء والأولياء ، وأما سفر الأرض . . فإنَّما هو للقاء الصالحين والأخيار ؛ وإن كان قد يحصلُ به ذلك .

السفر بخطوة : **وسمعتُه أيضاً رحمه الله ؛ يقول : جاءني بعض الفقراء يوماً . . وأنا بمروٍ ؛ فقال لي : قطعت في سفري إليك شقَّة :** مسافة بعيدة ، **والمقصودُ لقاؤك . فقلت له : كان يكفيك خُطوة واحدة ؛ لو سافرت عن نفسك !** أي : مفارقتك لنفسك وشهواتها بخطوةٍ أقربُ إلى نيل مقصودك من أسفارك ببدنك ، فسفر القلوب أفضلُ وأنفع من سفر الأبدان ، وشرطُه ملازمةُ شيخٍ عارف بالمطلوب ، وطَرْقُ الرياضة الموصلة للمحبوب .

وحكاياتهم في السفر تختلف على ما ذكرنا من أقسامهم وأحوالهم . .

راحلة الطفيلي : **سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن علي العلوي؛ يقول: سمعت جعفر بن محمد ؛ يقول : سمعتُ أحنف الهمداني ؛ يقول :**

كنتُ في البادية : الصحراء **وحدي وأنا مسافرٌ للحجِّ ؛ فأعييت ، فرفعتُ يدي ؛ وقلت : يا ربِّ ؛ إنِّي ضعيف زمِن وقد جئتُ إلى ضيافتك . فوقع في**

قلبي حينئذ أنْ يقال لي مَن دعاك ؟! أي : حملك على هذا ؛ فوقع في قلبي جوابُه ، وهو حسنُ ظنِّي بك أن تعينني ، وهو المرادُ بقوله (فقلت : يا ربِّ ؛ هي مملكُتك مملكةٌ واسعة تحتمل الطفيليَّ ؛ وهو : من يأتي إلى طعام غيرِه بلا دعوة) . فإذا ؛ أي : فبينا أنا كذلك . . إذا أنا بهاتف . . ملك ؛ أو وليٍّ ؛ إنسيٌّ ؛ أو جنِّيٌّ سمعتُ حِسَّهُ من ورائي ، فالتفتُّ إليه . . فإذا هو أعرابيٌّ على راحلته ! فقال لي : يا أعجمي ، إلى أين تذهب ؟ فقلت : إلى مكَّة . قال لي : أأذن لك مولاك ودعاك إليها . . وأنت عاجز ؟! قلت له : لا أدري . فقال لي : أليس قد قال فيمن يلزمه الحجُّ ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ؟! فقلت له : المملكة واسعة تحتمل الطفيليَّ . فقال : نِعْمَ الطفيليُّ أنت ؛ هل يمكنك أن تخدم الجمل ؟ أي : هل تحسن خدمته ؟ . فقلت : نعم ، فنزل عن راحلته وأعطانيها ؛ وقال لي : سِرْ عليها .

توضيح : في ذلك دَلالة على أنَّ المسافر لا يسافر في الصحراء بلا زاد ولا راحلة ؛ إلاَّ إذا عوَّده الله القوَّة على ذلك ، وقد يعوِّدُ إيَّاها ؛ ولكن يطرأُ له في أثناء سفره ما يوجب له العجزَ عن ذلك ؛ فلا يضرُّه . والأحنف كان الغالبُ عليه بحسب ما خطر له من السفر بلا زاد ولا راحلة أنَّ اللهَ يقويه على ذلك ، فلما طرأ عليه العذرُ في السَّفَر . . سأل الله واستغاث به ، فوقع في قلبه خاطر مَن دعاك ؛ فوقع في قلبه جوابُه بما مرّ .

وصية لمسافر : سمعتُ محمد بن عبد الله الصوَفيَّ ؛ يقول : سمعتُ محمد بن أحمد النجار ؛ يقول : سمعت الكتاني ؛ يقول . . وقد قال له بعض الفقراء (أوصني) ؛ فقال هو زائد : اجهد أن تكون كلَّ ليلة ضيفَ مسجد ، ليكون ذلك أسترَ وأخلص لعبادتك ، لأنك إذا طرقت بلدة ومقصودُك أن لا تُعرَف بها ؛ ونزلتَ بمسجد فيها تلك الليلة . . كان ذلك محصِّلاً لمقصودك ؛ من عدم شهرتك ، وإخلاصك لعبادتك ، واجهد أن لا تموت إلاَّ بين منزلين ـ في نسخة : منزلتين ـ ، المنزلة التي أنت فيها . . والمنزلة التي تطلُبها ؛ بأن لا تسكن إلى الأولى ، ولا تكرهها بطلبك للثانية .

جلسة الشهود : ويحكى عن الحصري أنَّه كان يقول : جلسة من العبد مع الله خير من

ألف حجة . وإنَّما أراد جلسة تجمع الهمَّ : هِمَّته على نعت : وصف الشهود : الحضور مع المشاهدة له بالقلب في العمل والمراقبة له فيه ، وهذا أفضُل الأحوال ، فإنَّه مقام الإحسان الذي قال النَّبيُّ ﷺ فيه : « أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَراكَ » . ولهذا قال الحصري : ولعمري إنها : هذه الجلسة أتمُّ : أفضل من ألف حِجَّة على وصف الغَيبة عنه تعالى .

نهج صوفي : سمعت محمد بن أحمدَ بنِ محمد الصوفيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت علي بن عبد الله التميمي ؛ يقول : حُكي عن محمد بن إسماعيل الفرغاني أنَّه قال : كنا نسافر مقدار عشرين سنة أنا وأبو بكر الزقاق والكتاني . . لا نختلط بأحد ولا نعاشر أحداً ، فإذا قَدِمنا بلداً . . فإنْ كان فيه شيخ سلَّمنا عليه وجالسناه إلى الليل ، ثم نرجع إلى مسجد فيصلِّي الكتاني فيه من أول الليل إلى آخره ، يختم بقراءته في صلاته القرآن،ويجلس فيه الزقَّاق من أول الليل إلى آخره ، مستقبل القبلة ، وكنت أستلقي فيه على ظهري من أول الليل إلى آخره متفكِّراً فيما أتفكر فيه من الأحكام ، وأصناف المخلوقات ، وٱختلاف أنواعها وهيآتها ، وعظمة الله وجلاله ، وكمال ما هو عليه من صفاته . ثم نصبح نصلِّي صلاة الفجر ونحن على وضوء العَتَمة : العشاء ، فكانت أسفارهم لا تشغلُهم عن عمارة أوقاتهم ، لأنَّها ليست لجهة معيَّنة يقصدونها حتى يجدُّوا في الوصول إليها ؛ كالمسافرين للتجارة ، إنما سفرهم للاعتبار بالأخبار للانقطاع في الصحاري ، وطيب الأحوال مع الله تعالى ، فكان بعضُهم قائماً يصلي ، وبعضهم جالساً مستقبلَ القبلة ، ذاكراً الله ، وبعضهم مستلقياً ؛ متفكِّراً فيما يتفكَّر فيه بحسب مقامه كما تقرَّر . فإذا وقع معنا إنسان آخر ينام كنا نراه أفضلَنا . لحُسْن ظنِّهم بغيرهم ، فيرون أنَّ غيرهم أفضلُ منهم .

أدب سفرهم : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : عبد الله بن علي ؛ يقول : سمعت عيسى القصار ؛ يقول : سُئِلَ رويم عن أَدَب السفر المقصودِ للصوفيِّ ؟! فقال : أن لا يجاوز هَمُّه قدمَه ، إذ ليس المقصود من السفر إلاَّ تخليصَ قلبه لمراقبته لربِّه ، ووجود لَذَّته في مناجاته ، وأوضح ذلك بقوله : وحيثما وقف قلبه لانتظار جبر نقص ؛ أو لكمال شكر زيادةٍ . . يكون منزله فلا يجاوزه .

فضل السياحة : وحكي عن مالك بن دينار رضي الله عنه أنَّه قال : أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام أن ﴿ اتخذ لك نعلين من حديد ؛ وعصاً من حديد ، ثم سُحْ في الأرض ، فاطلب الآثار والعِبَر حتَّى تنخرق النعلان وتنكسر العصا ﴾ . في ذلك حثٌّ على السياحة في الأرض ، كما قال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾(1) . وقد أثنى على السائحين والسائحات ؛ فقال ﴿ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ ﴾(2) ، وقال ﴿ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ﴾(3) . وذلك للاعتبار بالآثار ووجود الراحة من الأغيار .

سياحة المغربي : وقيل : كان أبو عبد الله المغربي يسافر أبداً ومعه أصحابه ، وكان يكون محرِماً ، فإذا تحلَّل من إحرام . . أحرم ثانياً نسك في وقته ، ولم يتَّسخ له ثوب ، ولا طال له ظفر ؛ ولا شعر . . وإن طال الزمن !! وكان يمشي معه أصحاب بالليل وراءه ، فكان إذا حاد أحُدهم عن الطريق . . يقول : (يمينَك يا فلان) . . (يسارك يا فلان) . كلٌّ من المذكورات غيرَ الأول خوارقُ للعادات ، وكلُّها ثناء على أبي عبد الله . ويحتمل أنَّه أثنى عليه بملازمته الإحرام ؛ كلمَّا تحلَّل ، وبكثرة سفره وعَوْده إلى مكَّة فقط ، فهو على هذا يغسل ثوبه ويقصُّ ظفره ويزيل شعره حالَ تحلُّله ، وكان لا يمدُّ يده إلى ما وصلت إليه يد الآدميين ؛ من طعامُهم المعهود ، وكان طعامُه أصلَ شيء من النبات : من العروق . . يؤخذ فيقلعُ لأجله : يقلعه له أصحابه ويأكله .

وفي تنبيهِهِ لهم على الطريق إذا حادوا عنه يميناً أو يساراً دَلالةٌ على أنَّه شديدُ الاعتناء بهم ، وأنَّه مشغولُ الهِمَّة باستقامتهم على الطريق الذي يقتدون به فيها ؛ وإن كان ذلكَ من خوارق العادات كما تقرَّر .

استغاثة الصاحب : وقيل : كلُّ صاحبٍ تقول أنت له (قم معي) ؛ فقال ـ وفي نسخة : فيقول لك ـ (إلى أين ؟) . . فليس بصاحب . لقلَّة اهتمامه بأمر صاحبه

---

(1) الآية : 109 ؛ من السورة التي ذكر فيها : يوسف عليه الصلاة والسلام .
(2) الآية : 112 ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .
(3) الآية : 5 ؛ من السورة التي ذكر فيها : التحريم .

وطلبه راحة نفسه . وفي معناه أنشدوا :

إِذَا ٱسْتُنْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمُ لِأَيَّـــةِ حَــــرْبٍ أَمْ لِأَيِّ مَكَــــانِ !؟

أمير صوفي : وحُكي عن أبي عليٍّ الرباطي ؛ قال : صحبتُ عبد الله المروزيَّ ؛ وكان يدخل البادية قبل أن أصحبه . . بلا زاد !! فلما صحبتُه قال لي : أيُّماأحبُّ إليك . . تكون ـ وفي نسخة : أن تكون ـ . أنت الأمير ؛ أم أنا ؟ فقلت له : لا ؛ بل أنت . فقال لي : وعليك الطاعةُ لي !؟ قلت له : نعم . فأخذ مخلاة وضع فيها زاداً وحملها على ظهره ، فإذا ـ أي : فكان إذا ـ قلتُ له : أعطني المِخلاة حتَّى أحملَها ؛ قال الأمير : بل[1] أنا أحملها وعليك الطاعة . قال : فأخَذَنا المطرُ ليلة ، فوقف المروزيُّ إلى الصباح على رأسي ؛ وعليه كساء أرْخَاه عليّ من سائر جهاتي يمنع عني المطر ، فكنت أقولُ في نفسي : يا ليتني مِتُّ . . ولم أقل (أنت الأمير) !! ثم قال لي : إذا صحبت إنساناً فاصحبه كما رأيتَني صحبتُك . فعُلم بذلك أنَّه لا بدَّ للجماعة من واحد منهم كاملُ العلم والأدبِ . . يتأمَّرُ عليهم ليسلموا من الاختلاف وإنَّهُم إذا أمَّرُوه التزموا وجوب طاعتهم له ؛ امتثالاً لقوله تعالى ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾[2] .

خلق الإخوان : وقدم شاب على أبي عليّ الروذَباري ، فلما أراد الخروج إلى السفر ؛ قال الشابُّ : يقول الشيخ شيئاً أنتفعُ به في السفر ؟! فقال : يا فتى ؛ كانوا ـ : الصوفية ـ لا يجتمعون عن موعد ، ولا يتفرَّقون ـ وفي نسخة : لا يفترقون ـ عن مشورة : لا يتعلَّقون بغير الله تعالى في الاجتماع ؛ ولا في الافتراق ، فمتى كان اجتماعهُم هو مرادَ الله اجتمعوا ، وكذا افتراقهم .

خُلُق المريدين : وهذا إنَّما يحسن من الأصحاب والإخوان ، أمَّا التلامذة مع المشايخ الذين هم تحت أوامرهم !! فلا بدَّ من استئذانهم في ذلك ، بل وفي

---

(١) أقحمها الشارح رحمه الله بغير مبرر . وقد أخلّت بالعبارة عما أراد المؤلف !! . إذ حقُّه (قال : الأميرُ أنا . . وعليك الطاعة) . وهذا يسمَّىٰ « إيطاءً » من الشارح ؛ حيث ألزم كلام المؤلف ما لم يرده !! . وقد مَرَّ مثل ذلك كثير ! (انظر مثلاً ص١٢١ ، ٥٠٠/ كفي ـ كوفيء) .

(٢) الآية : ٥٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

سائر أحوالهم التي يفتقر فيها إلى التأديب والتعليم ، وربَّما كانَ مقصودُ هذا الشيخ تركَ الاستئذان حتَّى يأذن هو له ابتداءً ، ويكون الأَوْلى في حقِّه بعد إقامته عنده أن لا يسافر حتَّى يأمرَه ويتَّبع ما أمرهُ به .

افتقار واستغناء : **وعن المزيِّن الكبير ؛ قال : كنت يوماً مع إبراهيمَ الخوَّاص في بعض أسفاره، فإذا عقربٌ تسعى على فخذه !! فقمتُ لأقتلها فمنعني من ذلك ؛ وقال لي : دعها ، كلُّ شيء مفتقر إلينا ، ولسنا مفتقرين إلى شيء غير الله .**

الخائفُ والمطمئنُّ : فيه دلالة على أنَّ الحيوانات يسخِّرها الله لأوليائه ، وتَقْرُب منهم لتنتفع بهم ولا تؤذيَهم . وهذا مِن خرق العوائد ، لأنَّ مَن كَمُلَ خوفُه من الله لم يخف من غيره ، ومَن اطمأنَّ إلى الله واعتمد عليه . . اطمأنَّت إليه الحيوانات ، وسكنت إليه ، ولم تنفر منه .

إيضاح : وأراد بقوله (كلُّ شيء . . الخ) تعريفَ تلميذه بأنَّه محفوظ بالله وذو كرامات ، لينتفع بذلك ويقوىٰ يقينه .

خلق صوفي : **وقال أبو عبد الله النصبيني : سافرت ثلاثين سنة ما خِطت قطُّ خرقةً على مرقَّعتي ، ولا عدلت إلى موضع علمتُ أنَّ لي فيه رفيقاً ، ولا تركت : مكَّنتُ أحداً يحمل معي شيئاً .**

تعليل : فيه دلالة على قناعته باليسير من الدنيا ، فيحمل من الزاد إن احتاج إليه ما يخفُّ ، فلا يحتاج إلى أن يحملَ معه غيرُه شيئاً ، وإن انخرقت له العادة . ! استغنى عن حمل الزاد بالكليَّة ، ويُؤْثِر بثيابه ويقنع بثوب واحد ، فإذا تغيَّر يسَّر الله له بغيره ، فلا يحتاج إلى ترقيع ، ويبعد عن الشهوة ، ويحتمل أنَّ الله خرق له العادة في طعامه ولباسه فيأتي بهما إليه عند حاجته فيستغني عن الترقيع والحمل .

رياضتهم وترخُّصهم : **واعلموا أنَّ القوم استوفوا** : استكملوا آداب **الحضور** مع الله ومع خلقه . . **من المجاهدات ، ثمَّ لَمَّا ظنُّوا** أنهم تعلَّموا الصبر والزهد والتوكُّل والرضا وغيرها من المقامات في الحضر . . **أرادوا أن يضيفوا لها شيئاً** ليمتحنوا أنفسهم . . **فأضافوا أحكام السفر إلى ذلك رياضةً لنفوسهم حتَّى** ـ وفي نسخة : حين ـ **أخرجوها عن المعلومات** : المألوفات ، **وحملوها على مفارقة المعارف**

والأسباب ليصحَّ لهم ما دعتْه أنفسهم من الصبر والتوكُّل على الله ، كما أشار إليه بقوله : **كيف** - وفي نسخة : كي - **يعيشون مع الله بلا علاقة ولا واسطة** ، **فلا يميلون إلى جهة تسكنُ نفوسُهم فيها إلى معلوم** ، **فلم يتركوا شيئاً من أورادهم في أسفارهم حتى إنَّهم لم يترخَّصوا فيها** ؛ **وقالوا** : **الرُّخَصُ لمن كان سفرُه ضرورةً** ؛ يعني لحاجة في جهة معيَّنة مسافَتُها مسافةُ قصر ، **ونحن لا شغل لنا** ؛ **ولا ضرورة في أسفارنا علينا** ، **لأنَّا لم نقصد جهة معيَّنة** ، **وإنَّما نحن مع قلوبنا** ، **وسياحتُنا لقصد تأديب أنفسنا وتحقيق مقاماتنا** ؛ **فلا نترخَّصُ** ، لاختلال شرط الترخُّص ، **فإن فُرِض تعيينُ جهةٍ لزيارة شيخ** ؛ **وكان السفر طويلاً** . . كان لنا أن نترخَّص .

فتح يائس : **سمعت أبا صادق بن حبيب** ؛ **قال** : **سمعت النصراباذي** ؛ **يقول** : **ضعفتُ في البادية** : الصحراء **مرّة** ، **فأيستُ من نفسي** ، وقطعت إياسي منها فافتقرتُ إلى الله تعالى بصدقِ ضرورتي ، **فوقع بصري على القمر** ، وكان ذلك بالنهار ، **فرأيت مكتوباً عليه** ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ ﴾[1] **فاستقللت** : قويتُ على الشيء ، **وفُتِح عليَّ من ذلك الوقت هذا الحديث** ؛ أي : خرق العادة واللُّطف به في أوقات الضرورة .

حوائج المسافر : **وقال أبو يعقوب السوسي** : **يحتاجُ المسافر إلى أربعة أشياء في سفره** : ١- **علم يسوسه** ؛ بحيث لا يخلُّ بما يحتاجه في دينه وأدبه مع الله ومع المسافرين ، **و٢- ورع يحجزه** : يكفُّه عن أكل الحرام ؛ وما فيه شبهة مما كان ينكفُّ عنه في الحضر ، **و٣- وجد يحمله** في سفره على رياضة نفسه ليتحقَّق له ما يدَّعيه من المقامات ، **و٤- خُلُقٌ يصونه** في سفره من ضيق الأخلاق الغالب وقوعها فيه مع الأصحاب والإخوان ، وتقدَّم الأوَّلان من الأربعة في الفقر .

تسمية السفر : **وقيل** : **سُمِّي السفر « سفراً » !! لأنَّه يُسفر عن أخلاق الرجال** : يظهرها ، لأنَّ المريد يمتحن به نفسه ليحقِّق ما ادَّعته نفسه ؛ من الصبر والزهد والتوكُّل وغيرها من مقامات الرجال ، فإذا سافر بهذا القصد . . انكشف له من

---

(١) الآية : ١٣٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

أخلاقه ودعاوي نفسه ما كان مستتراً عنه ؛ فيردُّها إلى أحكام الرياضه لتصحَّ دعاويها وتحسن أخلاقها .

سفرهم للرفق : وكان الكتاني إذا سافر الفقير إلى اليمن ثم رجع إليه مرة أخرى . . يأمر أصحابه بهجرانه ، وأن لا يخالطوه ؛ خوفاً من أن يشوِّش عليهم أحوالهم . وإنَّما كان يفعل ذلك !! لأنَّهم : الناس كانوا يسافرون إلى اليمن ذلك الوقت لأجل الرفق والسَّعَة في الدنيا . وكان الكتاني يمنع أصحابه من ذلك .

أدوات السفر : وقيل : كان إبراهيم الخوَّاص لا يحمل معه شيئاً من الدنيا في السفر زهداً وتوكُّلاً ، وكان لا تفارقه الإبرة والركوة : القِربة ، أما الإبرة! فلخياطة ثوبه إذا تمزَّق ستراً للعورة ، وأما الرّكوة . . فللطهارة ، وكان لا يرىٰ ذلك علاقة : ما يتعلّق به القلبُ من الأعراض العاجلة والحظوظ النفسية ؛! ولا معلوماً وسبباً ، وذلك صحيح لأنَّه أمر دِينيٌّ . (انظرص ٥٢٩).

موافقة الأصحاب : وحُكي عن أبي عبد الله الرازي ؛ قال : خرجتُ من طَرَسوس حافياً ، وكان معي رفيقي ، فدخلنا بعض قرى الشام فجاءني فقيرٌ بحذاء : نعل لألبسه ، فامتنعتُ من قبوله . فقال لي رفيقي : ١ـاِلبَس هذا الحذاء ، فقد عييتُ ، فإنَّه قد فتح عليك بهذا النعل بسببي . فقلت له : مالكَ : ما سببُ قولك هذا ـ؟ فقال : قد نزعتُ نعلي من أوّل سفرِنا ؛ موافقةً لك ، ورعايةً لحقِّ الصُّحبة . فمن جملة آداب السفر موافِقة الفقير رفيقه في جميع أحواله ، وأن يُؤثِره بما أمكنه ، وإن آثره بشي فقَبِله . . أدخل عليه مَسَرَّة بقبوله .

يحميهم بنفسه : وقيل : كان الخوَّاص في سفر ومعه ثلاثة نفر ، فبلغوا مسجداً في بعض المفاوز وباتوا فيه ، ولم يكن عليه بابٌ يَقيهم ألمَ البرد ، وكان في الليلة بردٌ شديد ، فناموا فلما أصبحوا رأوه ـ: الخوَّاصَ ـواقفاً على الباب ؛ فقالوا له في ذلك !! : ما سبب وقوفك هنا ؟ فقال : خشيتُ عليكم أن تجدوا البرد . أي : ألمه كما وجدتُه ، وكان قد وقف على الباب طولَ ليلته .

هذا من كمال الصحبة والشَّفَقة عليهم .

إذن شكليٌّ : وقيل : إنَّ الكتاني استأذن أمَّه في الحجِّ نفلاً مرَّة فأذنت له من غير طيب

نفس بِفراقه ، وقنع منها بذلك . . ولم يبالغ في كشف حالها .

فخْرج فأصابَ ثوبَه البولُ في البادية ؛ فقال : إنَّ هذا لخلل في حالي ! فانصرفَ راجعاً إلى بلده . فلما دَقَّ بابَ داره . . أجابته أمُّه ، ففتحت له الباب ، فرآها جالسة خلف الباب !! فسألها عن سبب جلوسها ؟! فقالت له : مذ خرجتَ من عندي اعتقدتُ : عزمت أن لا أبرح من هذا الموضع حتَّى أراك .

فردَّه اللهُ إليها لما علم صدقها في عدم صبرها .

وهذا يدلُّ على أنَّ مَن أراد أن يأتيَ بنوافل العبادت . . لا يأتي بها إلاّ مع السلامة من الإخلال بالواجبات ، وأن يتحفَّظ في ذلك غايةَ التحفُّظ ، فقد يبدو له بظاهر الحال السلامة ؛ وقد لَبَّسَ عليه نفسه ؛ فلم يكمل تثبُّتها ولا نظرُها في العواقبِ الدينيَّة .

ومنه ما وقع للكتاني . . فإنَّه استأذن أمَّه وقنع منها بأدنىٰ إشارة ، ولم يبالغ في كشف حالِها ؛ كما تقرَّر !. فلما سار عنها ؛ وهي متغيِّرةُ الباطن . . ابتلاه الله بنجاسة في طريقه ، حتّى رجع إليها ؛ كما تقرَّر .

فينبغي لمن عزم على السفر أن يتثبت من كلِّ محلٍّ بحيث يغلبُ على ظنِّه السلامةُ فيه ، فإن قَدَّر الله بعد ذلك بشيء . . لم يكن عاصياً ، ويُرجى له من الله الحفظُ والسلامة .

يصلح القلوب : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله بن محمد الدمشقي ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن المولد ؛ يقول : سمعت إبراهيم القصَّار ؛ يقول :

سافرت ثلاثين سنة أُصلح قلوب الناس من الأغنياء والفقراء للفقراء ، لأنَّ الغالب في السفر العجز والفاقة ، فأقام رحمه الله هذه المدَّة يسافر قصداً لإصلاح الناس للفقراء ، وهو يكون بالفعل والقول ، فإذا رأوا فعله اقتدوا به ، وإذا سمعوا قوله عَرَفوا قدر الفقراء ورغبوا فيما رَغَّبهم فيه ، وهذا قصد جميل وغايةٌ في الرياضة .

يسر التلاقي : وقيل : زار رجل داود الطائيَّ ؛ فقال له : يا أبا سليمان ؛ كانت نفسي تنازعني : تحرِّكُني إلى لقائك منذ زمان ! فقال لي : لا بأس إذا كانت الأبدان هادئة والقلوبُ ساكنةً .

أشار بذلك إلى أن المقصودَ من الاجتماع بالإخوان إصلاحُ القلوب والأبدان ، والاستعانة على نيل العلوم والأعمال ، وإذا كان مقصودُ الاجتماع ذلك . . فالتلاقي : الاجتماع أيسرُ : أيسر ما يفوت وأحقُّه ، فلا يبالي به .

وفيه أيضاً إشارة إلى التحذير من آفات الاجتماع ، لأنَّ الأخوين إذا كانوا متباعدَيْن مشتاقَين للاجتماع ، فإذا اجتمعا سكن كلٌّ منهما إلى الآخر ، وأظهر من علومه وأعماله وألطافِ ربِّه به ما يخشى عليه أن يكون بذلك مرائياً ؛ ومفاخراً! وأيسرُه إظهار ما ستره اللهُ من أعماله الصالحة .

همَّة مسافر : سمعت أبا نصر الصوفيَّ رحمه الله . . وكان من أصحاب النصراباذي ؛ يقول : خرجتُ من البحر بعُمَان : بلدة وقد أثَّر فيَّ الجوع ، فكنت أَمُرُّ في السوق ، فبلغت حانوت حلاوي ، فرأيت فيه حُمْلانا ؛ جمع : حَمَل : خُرْفاناً مشوِيَّةً وحلاواتٍ ، فتعلَّقت برجل وقلتُ له ؛ لما لحِقَني من الجوع لطول إقامتي في البحر ، واحتجتُ إلى ما يُصلُح به بدني للقوَّة على الطاعة وقراءة القرآن ونحوه ؛ لا للشهرة . . اشترِ لي من هذه الأشياء . فقال لي : لماذا اشتري لك ! ! ألك عليَّ شيء ؛ أو لك عليَّ دَيْن ؟! ـ الأُوْلى : ألك عليَّ شيء ، أو علي دين ؟!ـ فقلت له : لا ، لكن لا بدَّ أن تشتري لي من هذا . فرآني رجل من أهل الخير ؛ فقال لي : خلِّه عنك يا فتى ؛ ذاك الذي طلبت منه الشراء أنا ؛ لا هو ـ أي : الذي يجب عليه أن يشتريَ لك ما تريد هو أنا لا هو ـ . اقترح علي ـ: اِسألني ما شئت بغير رؤية ـ، واحكم عليّ بما تريد . ثم بعد أن قال ذلك . . اشترىٰ لي ما أردتُّ . ومرَّ . ـ وفي نسخة : ومضى ـ .

توضيح : وفي ذلك صحَّة هِمَّة هذا الفقير ، وأنه لم يطلب ذلك شهوةً ، بل دواءً . وكأنَّه لَمَّا وصل إلى الموضع الذي فيه الشواء والحلوى . . عَلَّق هِمَّته بالله وتسبَّب ، فلقي رجلاً ظاهره السَّعَةُ ، فقال (اشتر لي من هذا) . فقابله بالمعتاد من قولِه : (ألك علي شيءٌ ؛ أو علي دين) . فكلٌّ منها تكلَّم مِن حاله ، فالفقيرُ تسبَّب وقلبُه عند المسبِّب ، والرَّجُل ظنَّه سائلاً للشهوة ؛ ولم يعلَم حاله . فلما كَمُل صَدْقُ الفقير لمولاه . . ساق له ممَّن يحبُّ الفقراء مَن رأى عليه آثار الفاقة ، فحصل له مقصوده .

تخوِّنني وتصحبني!! وحُكي عن أبي الحسين المصري؛ قال: اتفقتُ مع الشجريّ في ـ بمعنى « على » السفر من طرابلس فسرنا أيّاماً لم نأكل شيئاً ، فرأيت قَرْعاً مطروحاً! فأخذتُ آكله، فالتفت إليَّ الشيخ؛ ولم يقل شيئاً! فرميت به؛ وعلمتُ أنَّه كَرِه منِّي ذٰلك ، ثمَّ فُتِح علينا بخمسة دنانير ، فدخلنا قرية ؛ فقلت : يشتري الشيخ لنا شيئاً نأكُله لا محالةَ ! فمرَّ ولم يفعل ، ثم قال لي الشيخ : لعلَّك تقول نمشي نحن جياعاً ؛ ولم يشتر لنا شيئاً !! هو ذا ـ أي : الأمر قد قَرْب ـ. فوافى اليهودية قريةً على الطريق وثَمَّ رجل صاحبُ عيال إذا دخلناها يشتغل بنا ، فأدفعها أنا إليه لينفقها علينا وعلى عياله ، فوصلنا إليها ودفع الدنانير إلى الرجل فأنفقها علينا وعلى عياله ، فلما خرجنا ؛ قال لي : إلى أين ؛ يا أبا الحسين ؟ فقلت : أسيرُ معك . فقال لي : لا ، إنَّك تخوِّنُني في قرعة وتصحبي !! أي : لا تصحبني ، وأبى أن يصحَبَني معه . ـ وفي نسخة : أن أصحبَه ـ .

أدب التلاميذ : فيه دلالة ١ـ على أنَّه ينبغي للتلميذ أن يحفظ قلوبَ المشايخ الذي يقتدي بهم ، فلا يفعل شيئاً بغير إذنهم ؛ لئلا يكون سبباً لمفارقته لهم ؛ وفوتِ مقصوده منهم ، و٢ـ على أنَّه إذا رأى مع الشيخ مالاً ؛ ولم يخرجه للفقراء وأمسكه . . فلا يسرع بالاعتراض عليه ، وينسبه إلى حبِّ الدنيا فيهلكَ ، فإنَّ إمساكها يختلف حكمُه باختلاف المقاصد الصحيحة ؛ أو الفاسدة !! ومِن المقاصد الصحيحة حفظهُ هذه الدنانير ليصلَ بها إلى ذلك الرجل الصالح لينفقُها على نفسه وعائلته ومن يطرقه من الصالحين .

إخجال فقير : سمعت محمد بن عبد الله الشيرازي رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا أحمد الصغير ؛ يقول : سمعتُ أبا عبد الله ابن خفيف ؛ يقول :

كنت في حال حَدَاثتي : شبوبيَّتي استقبلني بعض الفقراء ، فرأى فيَّ أثر الضُّرِّ والجوع ، فأدخلني داره وقدَّم لي لحماً طُبِخ بالكشك؛ واللحمُ ؛ لكون الفقير قدَّده ليُدخِل به مسرَّة على إخوانه المعدِمين ؛ ولم يكن يحسن التقديد متغيَّر ، فكنت آكل الثريد وأتجنَّبُ اللحم لتغيُّره ، والفقير يجده طيباً لاعتياده به ، فَلقَّمني لقمة بها لحم فأكلتُها بجهد ثمَّ لقَّمني ثانية فبلغتني مشقَّة ، فرأى ذلك فيَّ وخجِل لأجلي ؛ وخجلتُ لأجله ، فخرجت وانزعجت : تحرَّكت في

الحال للسفر للحجِّ، فأرسلتُ لوالدتي مَن يخبرها بسفري إلى الحج . . ويحمل إليَّ مرقَّعتي ، فلم تعارضني الوالدة ورضيتْ بخروجي ، فارتحلت من القادسية مع جماعة من الفقراء فتِهْنا عن الطريق، ونَفِد: فني ما معنا من الزاد، وأشرفنا على التلف، فوصلنا إلى حيٍّ من أحياء العرب، ولم نجد شيئاً نأكله!! فاضطررنا إلى أن اشترينا منهم كلباً بدنانير فذبحه جماعتي وشوَوْه وأعطَوْني قطعة من لحمه ، فلما أردتُ أكله فَكَّرت في حالي . . فوقع لي أنَّه عقوبةُ خَجَل ذلك الفقير ! فتبت إلى الله في نفسي ، وعزمت على أن احترس من أذِيَّة الإخوان ، وأتحمَّل ما يَرِدُ منهم من هذا ونحوه . وقصدنا المضيَّ إلى مقصدنا ، فدلُّونا على الطريق ، فمضيتُ وحججت ، ثم رجعتُ معتذراً إلى الفقير .

تكميل : في ذلك دَلالة على أن العبد إذا كره شيئاً ألزمه به غيرُه من الإخوان . . يتحمَّلُ مشقَّةَ تعاطيه ؛ وإن كانت نفسُه تكرهه . . لعدم اعتياده به . فهذا الفقير لمَّا رأىٰ ابن خفيف وما هو من أثر الجوع . . أكرمه بأطيب ما يقدرُ عليه ؛ لحُسْن ظنِّه به ، فلما رأى ابن خفيف اللحمَ متغيِّراً تركه ، فظنَّ الفقير أنَّه إنَّما تركه زهداً وتخفيفاً على الفقير ، فأخذ لقمة بها لحم وجعلها في فمه فتكلَّف في أكلها ، وظهر عليه آثار التكلُّف ، والفقيرُ على نيَّته ولم يتجسس ، فناوله أخرى فلم يمكنه تركُها ، ومَضَغها وتغيَّر حالُه منها ، وفطِن الفقير لتغيُّره ، وتألَّم لذلك واحتشم ، وفطن ابن خفيف لَمَّا تأذَّىٰ به الفقير ، وخرج من عنده وسافر . . وهو متألِّم ، لكونه لم يتكلَّف بلعها ؛ ولم يُظهر للفقير شيئاً يؤذيه ! وبقي متجسِّساً لما يُجريه الله عليه . . أدباً في ذلك ، حتى أخذه الجوع مع أصحابه إلى أن اشتروا كلباً من بعض البوادي وشَوَوْه وأعطوه منه قطعة فأكلها بفاقة الجوع ، فوقع في قلبه : لو كنتَ فيما وقع لك من الفقير جائعاً . . لما تأذَّىٰ منك باللحم الذي قدَّمه لك ، وتأدَّب . كما تقرَّر .

* * *

* *

*

٤٢ ـ باب الصحبة
في الله تعالى

مدحها : وهي ممدوحةٌ ومطلوبة ، قال الله عزّ وجلّ ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ـ هما : النبيُّ ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ـ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ النبيُّ لِصَاحِبِهِۦ الصديق لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[1] : بنصره . **لما أثبت الله سبحانه وتعالى للصدِّيق الصحبة مع النبيِّ ﷺ بيَّن له أنَّه ﷺ أظهر عليه الشفقة والخلاص من ألم الحزن ؛ فقال تعالى** ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، **فالحرُّ شفيقٌ على مَن يصحبه كما فعل النبيُّ مع الصديق .**

أحبابه ﷺ : أخبرنا عليُّ بن أحمد الأهوازي رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصري ؛ قال : حدَّثنا يحيى بن محمد الجياني ؛ قال : حدَّثنا عثمان بن عبد الله القرشي ؛ عن نعيم ابن سالمٰ ؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ **قال : قال رسول الله ﷺ : « مَتَىٰ أَلْقَىٰ أَحْبَابِي !» . فقال له أصحابه : بأبينا أنت وأمِّنا ؛ أوَلَسْنا أحبابك !! قال لهم : « أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، أَمَّا أَحْبَابِي ؛ فَهُمْ قَوْمٌ لَمْ يَرَوْنِي وَآمَنُوا بِي ، وَأَنَا إِلَيْهِمْ بِٱلأَشْوَاقِ أَكْثَرُ »**[2] . ـ وفي نسخة : بدل « أحبابي » : « إخواني » ـ . ويدلُّ لها روايةُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « وَدِدْتُ لَوْ رَأَيْتُ إِخْوَانِي !! »[3] قالوا : أَوَلَسْنا إخوانك ؛ يا رسول الله ؟! قال : « أَنْتُمْ أَصْحَابِي » . . الخبر .

وبالجملة . . فالصُّحبة له ﷺ آكد من الأُخُوَّة والمحبَّة .

---

(١) الآية : ٤٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

(٢) أخرجه أحمد: ٣/ ١٥٥ ، وأبو يعلىٰ: ٣٣٩٠ ، والطبراني في «الأوسط» ـ كما في «المجمع»: ١٦٦٩٧ ـ وأبو الشيخ ـ كما في « الكنز » : ٣٤٥٨٣ ـ؛ عن أنس رضي الله عنه .

(٣) أخرجها مسلم : ٣٩ ـ ٢٤٩ ، ومالك في « الموطأ » : ١/ ٢١٨ ، وأحمد : ٢/ ٣٠٠ ـ ٤٠٨ ، والنسائي : ١٥٠ ، وابن ماجه : ٤٣٠٦ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .
وعزاه في « كنز العمال » : ٣٤٥٨٦ إلىٰ ابن عساكر ؛ عن البراء .

أقسام الصحبة : والصحبة على ثلاثة أقسام

صحبة الأعلى : الأول : صحبةٌ مع مَن هو فوقَك في المنزلة . . من دِيْن ؛ أو علم ؛ أو نحوه . وهي في الحقيقة خدمةٌ ، فحقُّك في صحبته الأخلاصُ والخِدمة له .

صحبة الأدون : والثاني : صحبةٌ مع مَن هو دونَك فيما ذُكر ، وهي تقضي للتابع على المتبوع بالشفقة والرحمة ، وللمتبوع على التابع بالوفاق والحرمة .

صحبة الأقران : والثالث : صحبة الأَكْفاء والنُّظَراء : مَن يساويك فيما ذُكر . وهي مبنيَّة على الإيثار والفتوَّة على غيرك ، فمَن صحب شيخاً فوقَه في الرتبة . . فأدَبُه تركُ الاعتراض عليه ، وحمل ما يبدو منه على وجه جميل ، وتلقِّي أحواله بالإيمان به . أي : التصديق بحاله وبأنَّه حقٌّ .

خدمة الكبراء : سمعت منصورَ بن خلف المغربيَّ ، وقد سأله بعض أصحابنا وهو الشيخ أبو يعفور الطوسيُّ ؛ كما وجد في نسخة : كم سنةً صحبت أبا عثمان المغربي ؟ ـ وفي نسخة : مع أبي عثمان المغربي !ـ فنظر إليه شَذَراً : نظرَ الغضبان بمؤخَّر العين ؛ وقال : إنِّي لم أصحبه ، بل خدمتُه مدَّة ، لأنَّه كان فوقي .

صحبة الدُّون : وأما إذا صحِبَك مَن هو دونَك ؛ فالخيانةُ منك في حقِّ صحبته أن لا تنبِّهَه على ما فيه من نقصان في حالته ، ولهذا كتب أبو الخير التيناتي إلى جعفر بن محمد بن نصير : وِزْرُ جهلِ الفقراء : إثمُه عليكم ، لأنَّكم اشتغلتم بنفوسكم : بإصلاحها ، وحُسْنِ حالها مع الله عن تأديبِهم ، فبقوا جَهَلَةً ، فحقُّ مَن صحب مَن دونَه أن يعلِّمُه ما جهله ، ويؤدِّبَه فيما أساء فيه ، ويحملَ ما يبدو مِن جهله ، لأنَّه قريبُ عهد بجهالة .

صحبة المكافئين : وأمَّا إذا صحِبْتَ مَن هو في درجتك . . فسبيلك التعامي ـ وفي نسخة : التغاضي ـ عن عيوبه ، وحملُ ما ترى منه من نقصان على وجهٍ من التأويل جميل ما أمكنَك ، فإن لم تجد تأويلاً . . عُدْتَ إلى نفسك بالتُّهمة ، وإلى التزام اللائمة .

وقريبٌ منه ما رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : لا تظنَّنَّ بكلمة خرجت من فِيْ أخيك سوءاً ؛ وأنت تجدُ لها في الخير محملاً ، فإن لم تجد فقل : لا أعلم .

يتَّهم نفسه : سمعت الأستاذ أبا علي الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : قال لي أحمد ابن أبي الحواري ؛ قلت : لأبي سليمان الداراني : إنَّ فلانا لا يقع مِن قلبي موقِعاً !! فقال لي أبو سليمان : وليس يقع موقعاً ؛ أيضاً من قلبي ، ولكن يا أحمد ؛ لعلَّنا أُتِيْنا مِنْ قِبَلِنا !! لسنا مِن جملة الصالحين ؛ فلسنا نحبُّهم . أي : حقُّنا أن نحبَّهم ؛ وإن لم نكن منهم .

وفي ذلك دلالة على أنَّه ينبغي للعبد . . إذا وجد نقصاً في غيره أن يردَّه إلى نفسه ، وعلى أنَّ حقَّ كلٍّ من المتكافِئَيْن أن ينبِّه صاحبِه فيما يحتاج إلى التنبيه فيه ؛ برفق وحسن سياسة .

عين الوداد : وقيل : صحب رجلٌ إبراهيم بن أدهم ، فلما أراد أن يفارِقَه ؛ قال له الرجل : إن كنتَ رأيتَ فِيَّ عيباً فنبِّهْني عليه !! فقال له إبراهيم : إنيِّ لم أرَ لك عيباً، لأني لاحظتك بعينِ الوداد: المحبَّة؛ لا بعين الانتقاد . فاستحسنتُ منك ما رأيتُ، فما رأيتُ فيك عيباً . . فسل غيري عن عيبك . وفي معناه أنشدوا :

وَعَيْنُ ٱلرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيْلَةٌ   وَلكِنَّ عَيْنَ ٱلسُّخْطِ تُبْدِي ٱلمَسَاوِيَا

في ذلك دَلالة على أنَّ حقَّ كلٍّ من المتكافئين أن يحمل ما يبدو من صاحبه على أحسن المحامل .

ملك الصوفي : وحكي عن إبراهيم بن شيبان أنَّه قال : كنَّا لا نصحب مَن يقول (نعلي) . ويدلُّ لذلك قولُه :

صحبة الكرام : سمعت أبا حاتم الصوفيَّ ؛ يقول : سمعتَ أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : قال أبو أحمد القلانسيُّ . . وكان من أستاذيَّ الجنيد : صحبت أقواماً بالبصرة فأكرموني ؛ فقلت مرَّة لبعضهم (أين إزاري ؟) فسقطتُ من أعينهم . لأنَّهم يرون أنَّ الدنيا إنَّما هي زاد يُستعانُ بها على سلوك طريق الآخرة ، فلا يليق بأحد منهم ، لكون أيديهم فيما يحتاجونه متساوية . . أن يختصَّ بشيء دون بقيَّتهم ، فلا يقول (نعلي) ؛ ولا (إزاري) ؛ ولا (طعامي) ، بل إذا سأل قال (أين النعل ؟) ، و(أين الإزار ؟) ، و(أين الطعام ؟) فإن خالطهم مَن يدَّعي مِلكاً لنفسه . . سقط من أعينهم ؛ لمخالفته ما هم عليه .

رفق الصوفية : وسمعت أبا حاتم ؛ يقول : سمعت أبا نصر السراج ؛ يقول : سمعت الرقي ؛ يقول : سمعت الزقاق ؛ يقول : لي منذ أربعين سنة أصحبُ هؤلاء الصوفية ، فما رأيت رِفقاً لأصحابنا ـ أي : لم أرهم يرتفقون ـ في مطعمهم ولا ملبسهم ولا غيرهما إلاَّ مِن بعضهم لبعض ، أو ممَّن يُحبُّهم من الصالحين ؛ بأن يكون لبعضهم ، أو لمن يحبُّهم مالٌ للكسب ؛ أو نحوِه دونَ بعضهم فينفقَه عليهم . ومَن لم يصحبه التقوى والورع في هذا الأمر : الارتفاق ؛ بأن يأخذ العبد الأموال من الظلمة وغيرهم ممن لا يتَّبعون الشريعة في معاملتهم . . أَكَل الحرام النصَّ : الخالص ، أو ما فيه شبهة .

يطلب صاحباً : سمعت الأستاذ أبا علي الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : قال رجلٌ لسهل بن عبد الله المكنَّى بـ(أبي عبد الله) : **أريد أن أصحبك ؛ يا أبا محمد . فقال له : إذا مات أحدنا فمن يصحبه الباقي مِنَّا ؟ فقال : يصحبُ الله . فقال له : فليصحبه الآن ؛** بأن يعلِّق همَّته به .

إيضاح : ولا ينافي ذلك صحبة مَن ينتفع به ويتأدَّب بآدابه ؛ كالصالحين !! هذا مقام الإحسان ، وفيه صحَّة إطلاق الصُّحبة على الله ! ، ويؤيِّده الخبر : « ٱللَّهُمَّ ؛ أَنْتَ ٱلصَّاحِبُ فِي ٱلسَّفَرِ »[1] .

حقُّ الصحبة : **وصحب رجل رجلاً مدَّة ثم بَدَا لأحدهما من المفارقة للآخر ! فٱستأذن صاحبه فيها ، فقال له : أذنتُ لك بشرط أن لا تصحب أحداً إلاّ إذا كان فوقنا مرتبة . ثم بَدَا له ؛ فقال : وإن كان أيضاً فوقنا أحدٌ ؛ فلا تصحبه ، لأنَّك صحبتَنا أوَّلاً .**

توضيح : فيه إرشاد حَسَن ونصحٌ بالغ ؛ لحفظ حرمة الصاحب الأوَّل ، فإنَّ حقَّ العبد أن لا ينتقل إلى حال أنزلَ ممَّا كان فيه ؛ أو مثله ، وإنَّما نهاه عن الانتقال إلى ما هو أعلىٰ منه ؛ حفظاً للعهد القديم ، وخوفاً عليه من أنَّه إذا صَحِب مَن فوقه . . يقع في قلبه انتقاصٌ لمن فارقه ؛ فيقع في خطأ وزلل ، لأنَّ الأوَّل سبب رفعته وسعادته .

---

(١) تقدم تخريجه ص ٨١٢ .

فقال له الرجل حين سمع مقالته وعرف الحقَّ فيها : زال من قلبي إرادة المفارقة لك . وجلس معه ورغب في صحبته ، وعرف منه كمال محبَّته حيث أرشده إلى ما يسلم به في دينِه ؛ ويعلو به في درجته .

مداوي نفسه : سمعتُ أبا حاتم الصوفيَّ ؛ يقول : سمعت أبا نصر السراج ؛ يقول : سمعت الرقي ؛ يقول : سمعت الكتاني ؛ يقول : **صحبني رجل ؛ وكان على قلبي ثقيلاً بغير سبب أعرفُه ! ففكرت في سببه فلم أعرفه ! فوهبت له شيئاً تطيب به نفسه ليزول ما في قلبي من ثقله ، لخبر : « تَهَادُوا تَحَابُّوا »[1] . فلم يَزُل ! فأردت أن أُذلَّ نفسي له إذ لم تنصلح بالإحسان ، فحملتُه إلى بيتي ؛ وقلتُ له (ضع رجلك على خَدِّي)[2] فأبى . فقلت له : لا بدَّ من ذلك ففعل ، واعتقدت : عزمتُ عليه أن لا يرفع رجله من فوق خَدِّي حتَّى يرفع الله من قلبي ما كنتُ أجده من ثقله ، فلما زال عن قلبي ما كنتُ أجده . . قلتُ له . (ارفع رجلك الآن) .**

تعليل : هذا منشأه اتهام النفس في سوء أخلاقها ؛ وكراهتِها لغيرها بلا سبب يقتضي ذلك ، بل ربما بلغ العبدَ عن غيره كلامٌ ؛ ولم يُرِدْه به . . فتوهَّم أنَّه أراده به ؛ فكرهه ونفر منه ، وذلك من دَسائس النفس والشيطان ، فيداوي العبد نفسَه بمثل ذلك .

صحبة ابن أدهم : **وكان إبراهيم بن أدهم يعمل في الحصاد وحفظِ البساتين وغيره** أي : غير ذلك ، **وينفق على أصحابه أجرته** ، كأن يسلِّمها لبعض أصحابه يشتري بها نفقتهم ، وقيل : كان إبراهيم مع جماعة من أصحابه ؛ فكان يعمل بالنهار فيما ذكر وينفقُ عليهم ، ويجتمعون بالليل في موضع وهم صيامٌ ، فكان

---

(١) أخرجه البخاري في : «الأدب المفرد» : ٥٩٤ ، وأبو يعلىٰ : ٦١٤٨ ، والبيهقي : ٦/ ١٦٩ ، والحاكم في «معرفة علوم الحديث ص٨٠ ، والقضاعي في «مسند الشهاب» : ٦٥٧ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه . وشواهده كثيرة .

(٢) **أقول** : وإن لم يكن لمثل هذا شاهد من الشرع غير أنه إذا تعيَّن للمداواة فلا مانع (عروسي : ٤/ ٣٤) .

قلت : بل له شاهد في فعل بلال وأبي ذرٍّ !! انظر (كبر الجاهلية) ص ٤٩٢ .

يبطئُ في الرجوع إليهم من العمل ، وربَّما يشتغلُ بعبادته قبل العشاء وبعدها بساعة ! فقالوا ليلة لَمَّا تأخَّر عنهم وكرهوا الصبرَ إلى وقت مجيئه : تعالوا نأكل فطورنا دونَه حتَّى يعودَ بعد هذا أسرعَ ، فلا يعود إلى الإبطاء !! فأفطروا على ما معهم وناموا ، فلما رجع إبراهيم وجدهم نياماً ؛ فقال في نفسه : مساكين ! لعلَّهم لم يكن لهم طعام يفطرون عليه فناموا جياعاً ، إذ لو كان عندهم طعام لا نتظروني !! فعمَد : قَصَد إلى شيء من الدقيق كان هناك فعجنه وأوقد النار وطرح المَلَّة : الرماد الحار على العجين ووضع خَدَّه على التراب ينفخ في النار لينضج العجين ، فانتبهوا وهو ينفخ في النار ؛ واضعاً محاسنه على التراب ! فقالوا له في ذلك : ما سببه ؟ فقال لهم : لعلَّكم لم تجدوا فطوراً فنمتم جياعاً !! فأحببتُ أن تستيقظوا والمَلَّة قد أدركت نضجَ العجين . فقال بعضهم لبعض : انظروا أيش الذي عَمِلْنا معه . . وما الذي به يعاملنا !؟ فعرفوا فضله عليهم فيما فعلوا وفعل بهم ؛ حيث كان يتعب بالنهار لهم ، ويتأوَّل لهم التأويل الحَسَن في فعلهم ، ثم يسعىٰ في إدخال الرَّاحة عليهم . وفي ذلك دَلالة على كمال الصُّحبة الحسنة .

شرائط صحبته : وقيل : كان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه : رغب في صحبته أحدٌ شارطه اختياراً له على ثلاثة أشياء : الأول والثاني : أن تكون الخدمة والأذان له ؛ طلباً لزيادة الفضيلة مع التواضع ، فطلب الخدمة والأذان . . لا الإمارة والسِّيادة ، لما ورد أنَّ : « سَيِّد القَوْمِ خَادِمُهُم »[1] ، و« اَلْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ [ٱلنَّاسِ] أَعْنَاقاً يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ »[2] لعلوِّ ذِكر الله بأفواههم ودعائهم بها عبادَ الله لطاعته .

والثالث أن تكون يدُه في جميع ما يفتح الله عليهم به من الدنيا كَيَدِهم في الانتفاع به ؛ والتصرُّف فيه ، لكنه المتولِّي أمْره بالخدمة ؛ ليكمل كونُه خادماً ، ولأنَّ ردّ الأمر إلى واحد منهم يمنع من التشاجر والاختلاف بينهم . فقال له يوماً رجلٌ

---

(١) تقدَّم تخريجه ص ٦٥٥ .

(٢) أخرجه عبد بن حميد : ٤١٨ ، ومسلم : ١٤ ـ ٣٨٧ ، وأحمد : ٤/ ٩٥ ، وابن ماجه : ٧٢٥ ؛ عن معاوية رضي الله عنه .

من أصحابه لما سمع ما شرطته : أنا لا أقدر على هذا فلا أقدرُ على صحبَتِكَ .
فقال له : أعجبني صدقك ، وخلصت من عُهْدة الصحبة .

امتحان الصاحب : وقال يوسف بن الحسين : قلت لذي النون المصري : مع مَن أصحب ؟ فقال : مع مَن لا تكتمه شيئاً[1] يعلمه الله تعالى منك . فلا ينبغي لك أن تصحبَ أحداً حتَّى تمتَحنَه زماناً طويلاً وتعرف أخلاقه ؛ لا سيما في الأسفار ! فمتى لم تتثبت فيمن تريد أن تصحبَه . . ظهر لك غالباً من أخلاقه ما يؤدِّي إلى مشاجرته ومقاطعته ، فتركُ ذلك أولى لك قبل الدخول فيه .

جرأة الصاحب : وقال سهل بن عبد الله لرجل : إن كنت ممَّن يخاف السباع فلا تصحبني . لأنَّ الأسفار والبراري محلُّ طروق الآفات ووجودِ المخوفات . . من الجوع والعطش ، والحرِّ والبرد ، واللصوص والسباع . . ونحوها .

صحبة الأشرار : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت محمد بن الحسن العلوي ؛ يقول : حدَّثنا عبد الرحمان بن حمدان ؛ قال : حدَّثنا أبو القاسم ابن منبِّه ؛ قال : سمعت بشر بن الحارث ؛ يقول : صحبةُ الأشرار ؛ ولو مع الجهل بحالهم[2] تورث سوءَ الظنِّ بالأخيار . لأنَّ مَن صَحِبَ مَنْ حَسَّن ظنَّه به . . ولم يتثبَّت في حاله ؛ ثم اطلع منه على ضعف دينه . . ساء ظنُّه بالصالحين .

المأمور بالصمت : وحكىٰ الجنيد حيث قال : لمَّا دخل أبو حفص بغدادَ كان معه إنسان أصلع ؛ وهو : مَن انحسر شعر مقدَّم رأسه . . لا يتكلَّم بشيء ! فسألت أصحاب أبي حفص عن حاله ؟ فقالوا لي : هذا رجل أنفق عليه ؛ أي : علىٰ أبي حفص مع جماعته مئة ألف درهم واستدان بعد ما أنفق ذلك مئة ألف أنفقها عليه مع جماعته أيضاً . . ومع ذلك لا يرخِّص له أبو حفص أن يتكلَّم بحرف ،

---

(١) أي : مما يصحُّ إعلامه به من قبل الشريعة ، وإلا ! فلا يصحُّ الإعلام به ، ونهاية الغرض الحث علىٰ التثبيت والبحث عن أخلاق من يراد للصحبة (عروسي : ٤/ ٣٥) .
قلت : لأن ذكر المعصية والتحدث بها معصية ، وليست مفخرة كما صارت عند شبابنا هداهم الله ! .

(٢) سواء كانت صحبتهم مع العلم بحالهم ، أو مع الجهل به . هذا ويظهر من حلِّ الشارح أن الجملة للحال !! وله وجه أيضاً . فتدبر . (عروسي) . .

لما رآه في حسِّه ؛ من أنَّ السكوتَ أفضلُ له وأجمع لهَمِّه وأبعد من رؤية نفسه ، ولخوفه من أن يبدوَ منه كلمة يشير بها إلى ما أنفقه . . فيسقط من عينه ، وربَّما كان الغالب عليه آفة لسانه !! فمنعه من النطق بالكليّة ، وآفةُ اللسان أعظمُ الآفات ، فمن قويَ على الخلاص منها . . قويَ على ما هو دونَها . ويؤيِّدهُ خبرُ : « وَهَلْ يَكُبُّ ٱلنَّاسَ [فِي ٱلنَّارِ] عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ـ وروي : مَنَاخِرِهِمْ ـ إلاّ حَصائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ »[1] .

أنواع المصاحبة : وقال ذو النون المصريُّ : لا تصحبْ : لا تكن صحبتك مع الله إلاّ بالموافقة في أمره ونهيه .

ولا مع الخلق إلا بالمناصحة لهم وعدم غِشِّهم ، لأنَّهم عيالُ اللهِ وأحبُّهم لله أنصحُهم وأنفعُهم لعياله[2] ، فلا يطَّلع على خلل منهم إلاَّ سَدَّه ، ولا على حاجة لهم إلاَّ ساعَدَهم في قضائها . ولا مع النفس إلاَّ بالمخالفة لها ، لأنَّها مائلة بطبعها إلى كلِّ لذيذ ، ونافرةٌ بطبعها عن كلِّ كريهٍ فحقُّ صاحبها في صحبته معها أن يخالفهاويردَّها عن هواها ، حتَّى يتبيَّن لها الحقُّ فتتبعه ؛ والباطل فتجتنبه .

ولا مع الشيطان إلاَّ بالعداوة له ، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[3] ، وقال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وَلَهُ شَيْطَانٌ » . فقيل له : حتَّى أنت يا رسول الله !! قال : « حَتَّىٰ أَنَا ، إِلاَّ أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمْ »[4] .

---

(١) من حديث طويل عن معاذ بن جبل رضي الله عنه . . قلت : يا رسول الله ؛ أخبرني بعمل يدخلني الجنَّة . . . قال : « لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ . . . » أخرجه أحمد : ٥/ ٢٣١ ، والترمذي : ٢٦١٦ ؛ وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه : ٣٩٧٣ ، وابن حبان : ٢١٤ ، والطبراني : ج٢٠/ رقم ٢٠٠ ومواضع أخرىٰ . وما بين المنعكفين من النص النبوي .

(٢) يشير إلىٰ قوله ﷺ : « الخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ ٱللهِ ، فَأَحَبُّهُمْ إِلىٰ ٱللهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ » أخرجه أبو يعلىٰ : ٣٣١٥ ، والبزار : ١٩٤٩ ؛ والحارث بن أبي أسامة ـ كما في « المطالب » : ٨٩٧ ـ عن أنس ، والطبراني في « الكبير : ١٠/ ١٠٠٣٣ ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) الآية : ٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : فاطر .

(٤) أخرجه مسلم : ٦٩ ـ ٢٨١٤ ، وأحمد : ١/ ٢٥٧ ، والدارمي : ٢/ ٣٠٦ ، والترمذي : ١١٧٢ ، والنسائي : ٣٩٧٠ ؛ عن ابن مسعود وجابر وغيرهما رضي الله عنهم .

صحبة الحقِّ تعالىٰ : وقال رجلٌ لذي النون : مع مَن أصحبُ ؟! فقال : مع مَن إذا مرضتَ عادك ، وإذا أذنبت تاب عليك . فلا تصحب إلاَّ الله ، فإنَّه الممرض المعافي ، المانُّ بالتوبة على مَن عصاه ، قال تعالى ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾[1] ، أو من يعتني بأمرك ويعينك على ما ينفَعُك ، فإنَّ المريضَ عاجزٌ ، أحبُّ شيءٍ إليه مَن يباشره ويقوم بأمره ، وكذا إذا وقع في معصية . . رجع صاحبُه إلى الله فيه ، وتضرَّعَ إليه وسأله أن يتوبَ عليه وتسبَّب له بدعاء الصالحين ؛ رجاءَ استجابة دعائهم له .

مثل المريد : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ رحمه الله ؛ يقول : الشجر إذا نبت بنفسه ؛ ولم يستنبته أحدٌ يورِق . . ولكنه لا يثمر ، كذلك المريد . . إذا لم يكن له أستاذ يتخرَّجُ به ؛ ويتأدَّب بآدابه ليخرج بذلك عن عوائد نفسه . . لا يجيءُ منه شيء نافع ، فلا يقتدى به ؛ وإن اجتهد بنفسه في العبادة والعلم ، فإنَّ النفوس لها خفايا باطنة وعللٌ كامنة ؛ لا تتبيَّنُ مع محبَّة العبد لها ، وإنَّما يتبيَّنُها مَن هو خارجٌ عنها ، كاشفٌ لها بالعلم مبالغٌ في نُصحها .

ولذلك كان الأستاذ أبو عليٍّ رحمه الله ؛ يقول : أخذت هذا الطريق عن النصرأباذي ، والنصرأباذي أخذه عن الشبليِّ ، والشبليُّ عن الجنيد ، والجنيدُ عن السريِّ ، والسريُّ عن معروفٍ الكرخي ، ومعروفٌ عن داودَ الطائيِّ ، وداود الطائيُّ لقي التابعين وأخذ عنهم[2] .

أدب فريد : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : لم أختلف : أتردد إلى مجلس النصراباذي قطُّ إلاَّ اغتسلتُ قبلَه لأكون في دخولي عليه متطهِّراً الطهارةَ الحسيَّة ؛ وهي بالماء ، والمعنويةَ ؛ وهي العزُم على قبول ما يقوله الشيخ من الخير مِن غير اعتراضٍ عليه ؛ وإن كان مُشقَّاً على النفوس .

بداية مريد : قال الأستاذ الإمام القشيريُّ رحمه الله : ولم أدخل أنا على الأستاذ أبي عليٍّ في وقت بدايتي إلاَّ صائماً ؛ مُجِلاًّ معظِّماً له ، وكنت اغتسل قبله : قبل

---

(١) الآية : ١١٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

(٢) ومنهم إمامنا الجليل أبو حنيفة رضي الله عنه ، والحسن البصري وعنه أكثر طرق الصوفية .

دخولي عليه ، وكنت أحضرُ بابَ مدرسته غيرَ مرَّة فأرجع من الباب ؛ فلا أستطيع دخولها ، احتشاماً منه أن أدخل عليه ، فإذا تجاسَرْتُ مرَّة ودخلت المدرسة . . كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبني : يلحقني من الحشمة والخشوع شبهُ خَدَر يكون في الرِّجل ، حتَّى لو غُرِز فيَّ إبرةٌ مثلاً لعلي كنتُ لا أُحسُّ بها ؛ إجلالا له . ثم إذا قعدتُ عنده لواقعةٍ وقعتْ لي . . لم أحتج إلى أن أسأله بلساني عن المسألة : الواقعة !! فكما : فعندما كنتُ أجلس عنده كان يبتدىء بشرحِ واقعتي ، وغير مرَّة رأيت منه هذا عياناً . وكلُّ ذلك تنبيهٌ على آداب التلامذة مع مشايخهم ليكمُل انتفاعُهم بهم ، واقتفاؤهم لآثارهم ، وبالغ في ذلك حتى قال : وقدَّر في نفسه ما لم يقع ، ويقع تقريباً للأذهان في تعظيمه لشيخه ؛ فقال :

وكنت أذكر في نفسي كثيراً أنَّه لو بعث الله في وقتي رسولاً إلى الخلق : هل يمكنني أن أزيد من حِشمَته على قلبي فوقَ ما كان منه رحمه الله ! فكان لا يتصوَّر لي أن ذلك ممكنٌ ، ولا أذكر أنِّي في طول اختلافي وتردّدي إلى مجلسه ؛ ثمَّ كوني معه فيه بعد حصول الوصلة بيني وبينه . . أن جرى في قلبي أو خطر ببالي عليه قطُّ اعتراضٌ . لو أخرَّ عن هذا « عليه » . . كان أوضح !! إلي : واستمرَّ ما بي من تعظيمي واحتشامي له إلى أن خرج رحمه الله من الدنيا ؛ طلباً لزيادة الفضيلة والانتفاع .

مناجاة موسىٰ : أخبرنا حمزة بن يوسف السهميُّ الجرجاني رحمه الله ؛ قال : أخبرنا محمد بن أحمد العبديُّ ؛ قال : أخبرنا أبو عوانة ؛ قال : حدَّثنا يونس ؛ قال : حدَّثنا خلف بن تميمٍ أبو الأحوص ؛ عن محمد بن النضر الحارثي ؛ قال : أوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام ﴿ كن يقظاناً[1] : بعيداً من الغفلات ؛ مراقباً في استشعار نظر الله إليك مرتاداً : طالباً لنفسك أخدانا : أصحاباً يعينونك على ما أنت بصدده مما أُمرت باليقظة له ، وكلُّ خِدْن لا يؤاتيك : يوافقك ويطيعك على مسرَّة نأقصِهِ

(١) اعلم أن هذا وأمثاله مما ورد في حقِّ الرسل المعصومين عليهم صلوات ربِّ العالمين . . الغرض منه أممهم ، فهو للتشريع . والله أعلم (عروسي : ٤/ ٣٧) .

من القصور ؛ وهو البعد : فأبعده عنك ـ وفي نسخة فارفضه ـ **ولا تصحبْه ، فإنَّه يقسِّي قلبك ، وهو لك عدو لا خدنٌ ، لأنَّه يصدُّك عن مرادِك بحالته وإشارته ومجالسته ، وأكثرْ أنت من ذكرني تستوجبُ على شكري المزيدَ من فضلي ﴾ .**

بركة الصحبة : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن المعلِّم ، يقول : سمعت أبا بكر الطمستاني ؛ يقول : **اصحبوا مع الله بأن تشتغلوا به ؛ لا بغيره . فإن لم تطيقوا صحبته . . فاصحبوا مع مَن يصحبُ مع الله لتُوصِلكم بركاتُ صحبتهم إلى صحبة الله تعالى .** ولتعلموا منها كيف تصحبون الله .

* * *

٤٣ ـ باب التوحيد
سيأتي بيانه . .

فضيلته : وهو ممدوح ومطلوب ، قال الله عزّ وجلّ ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[(١)] .

الموحِّد الخائف : وأخبرنا الامام أبو بكر محمد بن الحسين بن فورك رضي الله عنه ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن محمود بن خرزاذ ؛ قال : حدَّثنا مسيح بن حاتم العكلي ؛ قال : حدَّثنا الحجبي عبد الله بن عبد الوهاب ؛ قال : حدَّثنا حمَّاد بن زيد ؛ عن سعيد بن سعد بن حاتم العتكي ؛ عن ابن أبي صدقة ؛ عن محمد بن سيرين ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« **بَيْنَا رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ إلاَّ ٱلتَّوْحِيْدَ ، فَقَالَ لأَهْلِهِ : (إِذَا مِتُّ فَٱحْرِقُونِي ثُمَّ ٱسْحَقُونِي ثُمَّ ذُرُّوا نِصْفِي فِي ٱلبَرِّ ؛ وَنِصْفِي فِي ٱلبَحْرِ فِي يَوْمِ رِيْحٍ) فَفَعَلُوا ، فَقَالَ ٱللهُ تعالى لِلرِّيْحِ ﴿ أَدّي مَا أَخَذْتِ ﴾ . فَإِذَا هُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ**

---

(١) الآية : ١٦٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

تعالى ! فقَالَ لَهُ : ﴿ مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ ﴾؟ فقَالَ : اِسْتِحْيَاءً مِنْكَ . فَغَفَرَ لَهُ »[1] . وعليه تُحمَل روايةُ « الصحيحين »[2] :

رواية أخرى : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطْ ؛ قالَ لأَهْلِهِ (إِذَا مِتُّ فَٱحْرِقُونِي ثُمَّ ذُرُّوا نِصْفِي فِي ٱلبَرِّ ؛ وَنِصْفِي فِي ٱلبَحْرِ ، لَئِنْ قَدَّرَ ٱللهُ عَلَيَّ - : ضيَّق عليَّ - فِي ٱلْمُؤَاخَذَةِ وَٱلحِسَابِ لَيُعَذِّبَنِي عَذَاباً لَا يُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ ٱلعَالَمِيْنَ)!! فَلَمَّا مَاتَ ٱلرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَ بِهِ ، فَأَمَرَ ٱللهُ تَعَالَىٰ ٱلبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيْهِ ، وَأَمَرَ ٱلبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : ﴿ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا !؟ ﴾ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ ؛ وَأَنْتَ أَعْلَمُ !! فَغَفَرَ ٱللهُ لَهُ » .

رتبته : فعُلم أنَّ التوحيد مطلوبٌ ، وأنَّه سببُ النجاة من النار ، وهو أفضلُ الطاعات وأشرفها ، وشرطٌ في صحَّتها ، ثمَّ بيَّنه ؛ فقال :

بيانه وأنواعه : التوحيد هو الحكم بأنَّ الشيء واحد ، والعلمُ بأنَّ الشيء واحدٌ أيضاً توحيدٌ ، وغلبة رؤية الحقِّ على القلب توحيدٌ أيضاً ، فمن اعتقد[3] ؛ أو علم بالدليل أنَّه تعالى واحد ، أو غلب على قلبه رؤيةُ الحقِّ حتَّى غفَل عن الخلق فهو موحِّدٌ ، فمن حصل له التوحيدُ الأوَّل . . فهو مؤمن ، ومن حصل له التوحيد الثاني . . فهو عالم ، ومَن حصل له الثالث . . فهو عارف بالله .

فالأوَّل : توحيدُ الكافَّة ، والثاني : توحيد العلماء ، والثالث : توحيد الصوفية .

اشتقاقه : واعلم أنَّه يقال في اللغة (وحَّدتُه) . . إذا وصفتَه بالوحدانية ؛ أي : نسبتُه إليها ، **كما يقال (شجَّعت فلانا) . . إذا نسبتَه للشجاعة ، ويقال في اللغة أيضاً (وَحَد يَحَد) فهو واحد ، و(وحد ووَحيد) كما يقال فَرَد فهو فارِد وفَرَد**

---

(١) أخرجه أحمد : ٢/ ٣٠٤ ، وشواهده كثيرة . . منها ما عند البخاري : ٧٥٠٦؛ عن أبي هريرة .

(٢) هي عند البخاري : ٦٤٨١ ، ومسلم : ٢٤ ـ ٢٥/٢٧٥٦ ؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) اعتقاداً مجرداً عن دليل . وقوله (علم بالدليل) أي السمعي أو العقلي . وقوله (غلب . . .) أي بواسطة تكرر الدليل وروده على قلبه (عروسي : ٤/ ٣٩) .

وفَرِيْد ، وأصل « أَحَد » تصريفاً وَحَدَ ، فقلبت الواو المفتوحة همزةً ، والواو المفتوحةُ قد تقلَبُ همزة ؛ كما تقلب المكسورةُ والمضمومةُ ؛ كما هو مقرَّر في علم التصريف . ومنه قولهم (امرأة أسماء) بمعنى : وَسْماء من الوَسَامة : الحُسْن ، فَأصل أسماء : وسماء . . قَلَبوا الواو همزةً .

معنى الواحدية : ومعنى كونه سبحانه واحداً على لسان أهل العلم !! قيل هو الذي لا يصحُّ في وصفه الوضع والرفع اللَّذين هما من صفات الأجسام ، بخلاف قولك « إنسان واحد » فإنَّه يصحُّ في وصفه ذلك ، لأنَّك تقول فيه إنسان بلا يد ولا رجل ؛ فيصحُّ رفعُ شيءٍ منه ، بل رفعه بالكليَّة كما يصحُّ وضعه !! والحقُّ سبحانه منزَّه عن ذلك ، لأنَّه أحديُّ الذات . . لا يقبل شيئاً من ذلك بخلاف اسم الجملة الحاملة لأجزاءٍ ، كالإنسان . . حامل لرأسه ويده ورجله وغيرها .

معنى آخر : وقال بعضُ أهل التحقيق : معنى أنَّه تعالى واحدٌ نفيُ التقسيم لذاته ونفي التشبيه عن حقِّه وصفاته ، ونفيُ الشريك معه في أفعاله ومصنوعاته . فلا تُشبهُ ذاته الذواتِ ، ولا صفته الصفاتِ، ولا فعلَ لغيره حتَّى يكون شريكاً له في فعله ؛ أو عديلاً له . وهذا هو الذي تضمَّنتْه سورةُ الإخلاص ؛ من كونه واحداً[1] صمداً . . إلى آخرها .

فالحقُّ سبحانه مخالِفٌ لمخلوقاتِه كلِّها مخالفةً مطلقة ، وعطف (صفاته) على (حقِّه) !! للإيضاح .

أقسامه ومعانيه : والتوحيدُ أقسام ثلاثة : الأوَّل : توحيدُ الحقِّ للحقِّ ؛ وهو علمُه تعالى بأنَّه واحد ، وخبره : إخباره عنه بأنَّه واحد ؛ بقوله ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ .

والثاني : توحيدُ الحقِّ سبحانه للخلق ؛ وهو حكمُه سبحانهَ بأنَّ العبد المؤمِنَ موحِّدٌ ، وخلقُه توحيدَ العبد فيه ؛ بأن أوجده فيه ، وأثنى عليه به .

والثالث : توحيدُ الخلق للحقِّ ؛ وهو علمُ العبد بأنَّ اللهَ تعالى واحد ، وحكمُه ، وإخبارُه عنه بأنَّه واحد . فهذه جملةٌ في معنى التوحيد على شرطِ

---

(١) بل أحداً !! لقول ثعلب (إن « أحداً » لا يبنىٰ عليه العدد ابتداءً ، فلا يقال (أحد . . اثنان . .) ولا يقال (رجل أحد) . ولذلك اختصَّ به تعالىٰ .

الإيجازْ والتحديد ؛ بدالَيْن : التعريف . وفي نسخة : والتحرير ؛ براءَيْن .

إيضاح : واختلفت عبارات الشيوخ عن ـ وفي نسخة : في ـ معنى التوحيد الثالث .

قدرة الواحد : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله ابن شاذان ؛ يقول : سمعت يوسف بن الحسين ؛ يقول : سمعت ذا النون المصريَّ ؛ يقول : وقد سئل عن التوحيد ؟ فقال : هو : أن تعلم أنَّ قدرة الله تعالى في إيجاد الأشياءِ بلا مِزَاج : طباع ، وصنعَه للأشياء بلا علاج ، وعلَّة كلِّ شيء صنعهُ ؛ ولا عِلَّة لصنعهِ ، لاستقلاله بإيجاد كلِّ ممكن . ومهما تُصوِّر في نفسك شيءٌ فاللهُ بخلافه ، لأنَّه تعالى لا يدخله تصوير ؛ كما مرَّ بيانه أوائل الكتاب ص ٤٩ .

علم ولسان : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أحمد بن محمد بن زكريا ؛ يقول : سمعتُ أحمد بن عطا ؛ يقول : سمعت عبد الله بن صالح ؛ يقول : قال الجُريريُّ :

ليس لعلم التوحيد إلاَّ لسان التوحيد ؛ بأن يعبِّر عنه مَن عَرَفه بلسانه .

وفيه إشارة إلى الفرق بين علم التوحيد وحالِ التوحيد وحقيقتِه ، فمن عَلِم الوحدانيةَ بالدَّليل ؛ أو بالموهبة . . فهو عالم بالتوحيد ، مخبرٌ عنه بما عَلِمه . ومَن غلب على قلبه النظرُ إلى الله بأن اشتغل به ؛ لا بغيره . . فهو في حال التوحيد وحقيقته ؛ وإن كان ساكناً . وإشارتُه إلى ما وجده . . من حقيقة التوحيد عند أكثر الناس خافيةٌ غامضة .

تحقيق التوحيد : وسئل الجنيد عن التوحيدِ ؛ فقال : هو إفراد الموحَّد بتحقيق وحدانيته . . بكمال : مع كمال أحديَّته ؛ أي أنَّه الواحد الذي لم يلد ولم يولد ، بنفي : مع نفي سائر الأضداد والأنداد والأشباه بلا تشبيه ولا تكييف ، ولا تصوير ولا تمثيل ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1] . تقدَّم بيانُ هذا أوائل الكتاب ص ٤٥ .

التوحيد العقلي : وقال الجنيد أيضاً : إذا تناهت عقول العقلاء في التوحيد . . تناهت إلى الحيرة . لا حيرةَ شكٍّ ونفي . . حتى يوقع في التعطيل ، ولا حيرةَ إثباتِ جهةٍ وجرم . . حتى يوقع في التجسيم ، بل حيرةُ علم الوحدانية ؛ بأن يعلم العبد واحداً قديماً منزَّهاً عن صفات الحوادث .

---

(١) الآية : ١١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الشورىٰ .

توثيق : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سَمعت أبا الحسن بن مقسم ؛ يقول : سمعت جعفر بن محمد ؛ يقول : سمعتُ الجنيد يقول ذلك . .

الأهل للتوحيد : فمن ثبَّته اللهُ للعلم بواحد قديم منزَّه عما ذكرنا . . فهو الذي يراه في آخرته بإدراكٍ يخلقه له في بصره ، ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[1] .

معنى التوحيد : وسئل الجنيد عن التوحيد ؛ فقال : معنىً تضمَحِلُّ فيه الرسوم الآثار ، وتندرج فيه العلوم ، ويكون اللهُ تعالى كما لم يزل .

أي : هو معنىً يخلقه الله في قلب الموحِّد العارف به ، ويغلبُ على قلبه حتَّى لا يرى غيرَه تعالى ، كما كان في الأزل .

أصولنا التوحيدية : وقال الحصري : أصولنا في التوحيد خمسةُ أشياء . . ١ـ رفع الحدث يعني : الإعراض عن غير الله . و٢ـ إفراد القدم : كمال الشُّغْل باللهِ . و٣ـ هجر الإخوان للتفرُّغ لكمال الشُّغل به ، والتلذُّذ بمناجاته ؛ مع أنَّهم لا يضرُّون العبد ولا ينفعونه ، والمراد الخروج عن عاداتهم المعهودة ؛ لا هجرُهم بالكلِّيَّة ، كيف والعبدُ مأمور بمواصلتهم ومصاحبتهم . . منهيٌّ عن هجرهم ومقاطعتهم !! و٤ـ مفارقة الأوطان المعهودة بَين الأهل ، والمعروفة عند الصوفية . . من السكون إلى مقام ، فيفارقَه بأن يَجِدَّ في السلوك ، ولا يسكن إلى مقام سكوناً يمنعه من الارتقاء إلى غيره . و٥ـ نسيان ما علم وجهل ؛ أي : ما كان يسكن إليه ثمَّ تركه ؛ بأن يعرض عنه رضاً بما يختاره له ربُّه ؛ ويجريه عليه ممَّا يرضاه له .

علم التوحيد وحاله : سمعت منصور بن خلف المغربي ؛ يقول : كنت بين اليقظة والنوم في صحن الجامع ببغداد ـ يعني : جامع المنصور ـ والحصريُّ يتكلَّم للناس في التوحيد ، فرأيت مَلَكين يعرجان إلى السماء ، فقال أحدهما

---

(١) الآية : ٧٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء . أي من كان في هذه الدنيا أعمىٰ البصيرة عن إدراك التوحيد ؛ وعن تصديق النبيِّ ﷺ ، فهو في الدار الآخرة أعمىٰ البصر والبصيرة لا يهتدي لشيء من طرق النجاة (عروسي : ٤/ ٤٣) .

لصاحبه : **الذي يقول ـ أي : يتكلَّم فيه ـ هذا الرجل علمُ التوحيد . . والتوحيدُ غيره !!** هذا صريحٌ في الفرق بين علم التوحيد وحالِ التوحيد ، فإنَّ الحصريَّ كان يكلِّم الناس بالأدلَّة الدالَّة على الوحدانية ؛ لينقلهم من الاعتقاد إلى درجة العلم لترتفع درجتُهم عند ربِّهم ، كما قال تعالى ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[1] . وكان الرائي يسمع كلامه فرأى المَلَكَين صاعدَيْن ؛ وأحدُهما يقول للأخر (هذا يتكلم في علم التوحيد . . لا في حال التوحيد وحقيقته)! .

وفائدةُ هذه الرؤيا تحريكُ الرائي إلى الانتقال . . من علم التوحيد إلى حال التوحيد وحقيقته ، ليكون في أعلى درجات التوحيد ، فإنَّ مَن كان في حال التوحيد . . فعلمُ التوحيد عنده . ومَن كان في علم التوحيد فاعتقاد التوحيد عنده ، فمتى بلغ أعلى مقامات التوحيد . . كان متَّصفاً بمقاماته كلِّها .

وقوله (كنت) !! **يعني كنت بين اليقظة والنوم** كما تقرَّر .

ويحتمل أنَّه اشتغل حِسُّه بالسماع فكُوشف برؤية المَلَكين .

كلام جامع : **وقال فارس** : **التوحيد هو إسقاط الوسائط**[2] : الأدلَّاء على الحقِّ تعالى . . **عند غلبة الحال** والاستغراق ، **والرجوع إليها** ـ أي : إلىٰ الوسائط ـ **عند الأحكام** .

هذا كلامٌ جامع بين العلوم والأحوال ، فمتى وجد العبد المدلول واستغرق فيه . . سَقَط عن قلبه الوسائط ذِكْراً ، ومتى زال عنه ذلك ورجع إلى ذكرهم

---

(١) الآية : ١١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المجادلة .

(٢) أي : المحسوسة والمعقولة ، ومعناه : شهود الموحَّد القديم مجرَّداً عن الوجود الحادث ، وهذا بعينه معنىٰ قولهم (التوحيد إسقاط الحدث وإثبات القدم) ـ تقدم ص ٨٤٠ ـ.
وأما معنىٰ قولهم (التوحيد إسقاط الإضافات) ـ سيأتي ص ٨٤٦ ـ. فهو شهود القديم مجرداً عن التعيينات الكونية . . .
والحاصل : أن ذلك معناه الإشارة إلىٰ ثمرة التوحيد بع تحققه للعبد ، **فتارة** تغلبه أحواله ؛ فتسقط عنده الوسائط ، **وتارة** يعود إلىٰ الصحو فيرجع عند الأحكام . (عروسي : ٤/٤٦).

عَظَّمَهم وعرف قدرَهم وحَكَم بذلك . وإنَّ الحَسَناتِ والخيرات الواقعةَ في الدنيا لا تغيِّر الأقسام الأزليَّةَ من الشقاوة والسَّعادة .

العبد والقدر : فحقُّ العبد أن لا يسكن إلى أعماله التي رتَّب عليها الشرع الثوابَ ؛ خوفاً من أن يكون قد سبق في علمِ اللهِ ما يحبطها !! فحقُّه أن يكون في حال علمه خائفاً ممَّا سبق له ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1] .

الحقيقة والرسم : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا بكرابن شاذان ؛ يقول : سمعت الشبليَّ ؛ يقول : التوحيد صفةُ الموحَّد حقيقةً ، وحِلْيَة الموحِّد رسماً . لأنَّ وحدانيته تعالى ثابتة أزلاً وأبداً ، وإذا مَنّ على عبدٍ بمعرفتها علماً ؛ أو حالاً . . فهي خِلْعة خَلَعها اللهُ عليه ، وحليةٌ حسنة حلَّاه بها في دنياه ، ويكمِّلُها له في أخراه .

توحيد الخاصِّ : وسئل الجنيد عن توحيد الخاصِّ ؛ فقال : هو أن يكون العبد شبحاً ـ أي : شخصاً ـ ملقىً بين يدي الله تعالى ؛ تجري عليه تصاريفُ تدبيره ؛ في مجاري أحكام قدرته ، في لُجَج بحار توحيده بالفناء عن نفسه ، وعن دعوة الخلق له في مهمَّاتهم ، وعن استجابته ؛ أي : إجابته لهم بحقائق ـ أي : فناؤه عما ذُكر بسبب حقائق ـ وجوده ووحدانيته تعالى .

وقولُه (في حقيقة قربه منه تعالى صلةُ الفناء بذهاب حِسِّه وحركته) تفسيرٌ للفناء ، وإنَّما فني بذلك !! لقيام الحقِّ له فيما أراد منه ، وهو : أن يرجع آخر العبد إلى أوَّله ، فيكون كما كان قبل أن يكون . . في أنَّه لا حركة له ولا إرادة .

والمرادُ بما ذكره : أنَّ حقَّ العبد أن يكون راضياً بما يُجريه اللهُ عليه مما يرضاه له ، وتشهد بصحَّته الشريعةُ ، وربُّه حينئذ لكمال حفظه ومحبَّته له . . لا يجري عليه إلاَّ ما ينفعه .

البوشنجي والتوحيد : وسئل البوشنجي عن التوحيد ؛ فقال : أن تعلم أنَّه غيرُ مشبهٍ الذواتِ ، ولا منفيُّ الصفات القديمة ؛ كما مرَّ بيانُه أوائل الكتاب ص ٤٥ .

---

(١) الآية : ٩٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

مطلب في رؤيته تعالىٰ

ذات الله : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت أبا الحسين العنبريَّ ؛ يقول : سمعت سهل بن عبد الله ؛ يقول . . وقد سئل عن ذات الله ؛ فقال هو زائد : **ذات الله موصوفة بالعلم ، غيرُ مدرَكَة بالإحاطة ؛ ولا مرئيَّة لنا بالأبصار في دار الدنيا ، وهي - أي : ذاتُه تعالى - موجودةٌ بحقائق الإيمان من غير حدٍّ ؛ ولا إحاطة ؛ ولا حلول .**

وتراه العيون في العُقبىٰ : الآخرة ظاهراً في ملكه وقدرته ؛ لا بالإحاطة ، فلا يُرى رؤيةَ الأشباح ، وإنَّما يُرى على ما هو عليه . . من جلاله وعظمته وتنزُّهه عن مشابهته لغيره ، قد حَجَب اللهُ الخلقَ عن معرفةِ كُنْهِ ذاته ، ودلَّهم عليه بآياته الظاهرة ، فالقلوبُ تعرفُه بها ؛ لا على وجه الإحاطة . والعقول لا تدركه إدارَكَ إحاطة ؛ بل إدراكاً بوجهٍ ما .

ينظر إليه المؤمنون في الآخرة بالأبصار ؛ بأن يخلق لهم فيها إدراكا يدركونه به . . من غير إحاطة ، ولا إدراكِ نهاية .

الصدِّيق والتوحيد : وقال الجنيد : أشرفُ كلمة في التوحيد ما قاله أبو بكر الصدِّيقُ رضي الله عنه : **سبحان مَن لم يجعل لخلقه سبيلاً : طريقاً إلى معرفته إلاَّ بالعجز عن معرفته .**

تأويل كلامه : قال الأستاذ الإمام القشيريُّ رحمه الله : ليس يريد الصدِّيق رضي الله عنه أنَّه تعالى لا يُعرَف إلا بالعجز عن معرفته المعدومة . لأنَّ عند المحققين : العجزُ . . إنَّما هو عجز عن الموجود ؛ دون المعدوم ؛ كالمُقعَد ، فإنَّه عاجز عن قعوده الموجود ، إذ ليس هو بكسب له ؛ ولا فعل منه ، لما ذكره بقوله والقعود موجود فيه ، فهو مجبورٌ عليه ومخلوقٌ له ! ! كذلك العارف بالله ِعاجزٌ عن معرفته ، والمعرفةُ موجودةٌ فيه ، لأنَّها ضرورية حينئذ .

وعند هذه الطائفة : المعرفةُ به سبحانه في الانتهاء ضرورية ، فهم عاجزون

عن معرفتهم التي عَرَّفهم إيَّاها وأوجدها لهم ، فالمعرفة الكسبيَّة في الابتداء ؛ وإن كانت معرفةً على التحقيق . . فلم يَعُدَّها الصدِّيق رضي الله عنه شيئاً بالإضافة إلى المعرفة الضرورية ؛ كالسراج عند طلوع الشمس وانبساط شعاعها عليه .

تأويل آخر : واستبعد بعضُهم هذا التأويل . . قال : وإنَّما أراد الصدِّيق أنَّ العبد إنَّما يعرف من جلال الله وعظمته ما خَلَق له المعرفة به ؛ دون ما عجزت العقول عن إدراكه . . ولم يخلقه له من حقيقة ذاته وصفاته ، فهو عاجزٌ عن معرفة ذلك ، فقوله (سبحان مَن لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته) أي : إلى كمال معرفته في الدنيا إلاَّ بعلمهم بعجزهم عن غاية معرفته[1] ، وإلاَّ ! فالتأويل جارٍ في كلِّ معتقد ، فإنَّ مَن عرف الله بالدليل ؛ أو خَلَق الله له اعتقاداً صحيحاً بذلك . . عاجزٌ عن تحصيله .

توحيد الصوفية : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أحمد بن سعيد البصري بالكوفة ؛ يقول : سمعت ابن الأعرابيِّ ؛ يقول : قال الجنيد : **التوحيدُ الذي انفرد به الصوفية هو : إفراد القدم عن الحدث** : الحدوث ، **والخروج عن الأوطان وقطعُ المحابِّ** : محبوبات النفس ، **وترك ما علم وجهل ، وأن يكون الحقُّ** تعالى **مكانَ الجميع** ليشتغل قلبُ العبد به ويتفرَّغ عما عداه ؛ حتى عن نفسه . وتقدَّم بيانُ ذلك ص ٨٤٠ .

بحر التوحيد : **وقال يوسف بن الحسين : مَن وقع في بحار التوحيد لا يزداد على مرِّ الأوقات إلاَّ عطشاً إليه** ، فإنَّه وإن بلغ فيه ما بلغ . . لم يبلغ كُنْهَه - كما مرَّ - فهو متعطِّشٌ إلى ما لم يبلغه .

علم التوحيد وحاله : **وقال الجنيد : علمُ التوحيد مباينٌ لوجوده**[2] **، ووجودُه**

---

(١) محصَّلُه أن غاية معرفة الخلق المصحِّحة لإيمانهم بعد نظرهم في أدلّة وجوده . . اعترافهم بالعجز عن الإحاطة بما لذاته من كمال مع وقوفهم عن التفكر في الكنه ، فالعلم بالعجز عن غاية معرفته هو سبيل معرفته الذي قدَّره لعباده (عروسي : ٤/٤٨ ؛ بتصرف وتنسيق) .

(٢) أي العلم الموصل إلىٰ اعتقاد وحدته ذاتاً وصفة وفعلاً مغاير لوجوده بمعنىٰ التخلُّق بحقيقة ما علمه (عروسي) .

مفارقٌ : مباينٌ لعلمه . فكلٌّ منهما مباينٌ للأخر ! وفيه الفرق بين علم التوحيد وحاله . وتقدَّم بيانُه ص ٢٧٢ ، ٥٩٧ ، ٨٤٠ .

الناس والتوحيد : **وقال الجنيد أيضاً : علمُ التوحيد** ـ : علم دقائقه ـ **طُوِي بِساطه منذ عشرين سنة . . والناسُ يتكلَّمون في حواشيه** : ظواهره .

وأراد بذلك أن يحرِّك غيره إلى الجِدِّ في السلوك ليصلوا إلى العلم بدقائق التوحيد . وقيل : المرادُ بعلم التوحيد الذي طُوي بساطُه . . كلامُ أرباب الأحوال في أحوالهم ، وحواشيه كلامُهم في أقوالهم .

المعلُّ ولا يعتلُّ : **سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن أحمد الأصبهاني ؛ يقول : وقف رجل على الحسين بن منصور ؛ فقال : مَن الحق الذي تشيرون إليه !؟ فقال : مُعِلُّ الأنام ولا يَعْتَلُّ** : هو المحدِث للخلق . . ولا محدثَ له .

حمل الموحِّد : **وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت الشبليَّ ؛ يقول : مَن اطَّلع على ذرَّة من عِلم التوحيد ضَعُف من حمل بقَّة** ـ وفي نسخة : نفسه ـ **لِثقَل ما حَمِلَه** ، لأنَّ مَن اطَّلع على ذلك . . عَلمِ أنَّ اللهَ هو الفاعل لكلِّ مخلوق ، وأنَّ غيرَه لا فعل له ، فلم يُطقْ حمل شيء ؛ من بقَّة وغيرها . . إلاَّ بقوَّته تعالى ولطفه .

تصوُّر التوحيد : **سمعت أبا حاتم السجستاني ؛ يقول : سمعت أبا نصر السراج ؛ يقول : سئل الشبلي فقيل له : أخبرنا عن توحيدٍ مجرَّد** : خالص **بلسان حقٍّ مُفرد** ؟!

فقال مجيباً : **ويحك ؛ مَن أجاب عن التوحيد المجرَّد بالعبارة . . فهو ملحد** : مائل عن الحقِّ إلى غيره ، لأنَّه لا يدرك كنهه . . فكيف يعبِّر عنه !!

ومَن **أشار** : أجاب بالإشارة إليه . . **فهو ثِنْوي** . نسبة إلى اثنين : فهو مدرك نفسَه وربَّه ، فلم يَكْمُل استغراقه ؛ فلم يكمُل توحيده .

ومَن أومأ : أجاب بالإدعاء إليه . . **فهو عابدُ وثن** : صنم ، لتضمُّن ذلك جهةً وشَبَحاً ؛ فلم يكمل استغراقه .

ومَن نطق فيه : في الجواب . . **فهو غافِل** عن كمال التوحيد . وهذا يرجع إلى الأوَّل .

ومَنْ سكت عنه : عن الجواب . . فهو جاهل بالتوحيد .

ومَن توهَّم أنَّه واصل بنفسه . . فليس له حاصل في علم التوحيد .

ومَن رأى أنَّه قريبٌ منه تعالى بالذات . . فهو بعيدٌ من هذا العِلم وغيره .

ومَن تواجد فَرَحاً بالتوحيد . . فهو فاقد للاستغراق فيه . فالمراد مما قاله أنَّ التوحيد المجرَّد باللِّسان الحقِّ ؛ وهو التوحيد الكامل . . استغراقُ العبد في كمال الله وجلاله وتنزيهه استغراقاً يَنسىٰ فيه نفسه لشُغْله بوحدانيَّته تعالى .

وكلُّ ما ميَّزتموه بأوهامكم ، وأدركتموه بعقولكم في أتمِّ معانيكم الدالَّة على الحدوث من جهةٍ وشَبَح ونُور ونحوها . . فهو مصروفٌ عنه تعالىٰ مردود إليكم ، محدَث مصنوعٌ مثلكم ، فإنَّه تعالى منزَّه عن الحدوث والأشكال .

توحيد الخاصَّة : وقال يوسف بن الحسين[1] : توحيد الخاصَّة ؛ وهو التوحيد الكامل : أن يكون العبد بِسِرِّه ووجده وقلبه . . كأنَّه قائمٌ بين يديه سبحانه ؛ يُجري عليه تصاريفَ تدبيره وأحكامَ قدرته . . مِن تحريك وتسكين وغيرهما في ـ أي : يجري ذلك في ـ بحار توحيده وشُغْله به ؛ بالفناء : مع الفناء عن نفسه وذهاب حسِّه عن كلِّ مخلوق ؛ بقيام : بسبب قيام الحقِّ له في مراده منه ، فيكون كما كان هو قبلَ أن يكون في جَرَيان حكمه سبحانه عليه . فإنَّه كان قبل أن يكون في علمه تعالى وإرادته معلوماً مراداً ؛ وإن لم يكن موجوداً ، فكذا يكون لكمال شُغْله بما ذكر . . كأنَّه لم يكن بالإضافة إلى غير الله ، وإلاَّ ! فهو بالإضافة إليه تعالى غيرُ غافل عنه ، بل كاملُ الشُّغْل به .

التوحيد حقيقة : وقيل : التوحيدُ حقيقةً إنَّما هو للحقِّ تعالى ، لأنَّه صفةٌ قديمة له .

و التوحيد في الخلق : القائم بكلٍّ منهم طفيليٌّ حادث . . كائن بعد أن لم يكن .

وحدة الإضافة : وقيل : التوحيد إسقاط الياآتِ[2] ـ أي : ياآتِ الإضافة ـ؛ بأن لا يضيف العبدُ إلى نفسه شيئاً ؛ لا ملكاً . . ولا عملا ؛ ولا حالا . لا تقول

---

(١) تقدَّم ص٨٤٢ مثله عن الجنيد (عروسي : ٤/ ٥٠) .

(٢) ذلك من لوازم حقيقة التوحيد إذا نازله العبد ؛ لا معناه حقيقة (عروسي : ٤/ ٥٠) .

(لي) و(بي) و(مني) و(إليَّ) مثلاً . وإنَّما تضيف ذلك إلى فاعله الحقيقيِّ ، ويغلبُ على قلبك ذلك حتى تنسىٰ الأغيار .

أركان التوحيد : وقيل لأبي بكر الطمستاني : ما التوحيد ؟ فقال : هو ١ـ توحيدٌ : حكمٌ بأنَّه تعالى واحد ، و٢ـ موحَّد ، و٣ـ موحِّد . هذه ثلاثة لا يحصل التوحيد إلاَّ بها[1] .

توحيد العارفين : وقال رويم : التوحيد ـ يعني : توحيد العارفين ـ محوُ ذكر آثار البشرية عن القلب ، وتجرُّدُ الأُولوهية : تجرُّد القلب بكمال شغله بالله عن الالتفات إلى غيره ، حتى لم يبقَ في قلبه غيرُه .

أمارات التأييد : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول في آخر عمره . . وكانت قد اشتدَّت به العلَّة ؛ فقال هو زائد: مِن أمارات : علامات التأييد للولي حفظُ اللهِ له في التوحيد ؛ في أوقات الحكم عليه ؛ بما يجريه عليه . ثم قال كالمفسِّر لقوله هذا . . مشيراً إلى ما كان من حاله : هو أن يقرضك بمقاريض القدرة في إمضاء الأحكام التي تجري عليك قطعة قطعة ؛ وأنت في ذلك ناظر إلى توحيده، شاكرٌ له على نعمه، حامدٌ له بصفاته. ـ وفي نسخة: ساكن خامد ـ .

توحيد المستغرِق : وقال الشبليُّ : ما شَمَّ رائحة التوحيد مَن تصوَّر عنده التوحيد . لأنَّ كمال التوحيد أن يشتغل باللَّه شغلاً ينسيه عن غيره تعالى ، ومِن جملته توحيده ، فمتى تصوَّره . . لم يستغرق في كمال توحيده .

أول مقام الموحد : وقال أبو سعيد الخراز : أوَّل مقام لمَن وُجد عنده علمُ التوحيد وتحقَّق : واتصَّف بذلك ـ : بالتوحيد ـ فناءُ ذكر الأشياء عن قلبه ، وانفراده بشُغْله باللهِ تعالى ؛ بأن اشتغل به . . لا بغيره ، فإن كَمُل شُغْله به بحيث نَسيَ نفسه مع غيره ما عدا الله ! فقد بلغ نهاية مقام التوحيد .

صحَّة التوحيد : وقال الشبليُّ لرجل : تدري لِمَ لا يصحُّ توحيدُك !! فقال : لا . قال : لأنَّك تطلبه بك . . لا بالله ، فإن طلبتَه به صحَّ توحيدُك .

---

(١) قلت : هذا في حقِّ توحيد العبد ؛ لا في حقِّ صفة الوحدانية ، إذ هي قائمة بذاته تعالىٰ قبل أن يخلق مَن يوحِّده .

أصل الخير : وأصل كلِّ خيرٍ ؛ وكلِّ مقام رفيعٍ . . أن يُخلِص فيه العبدُ لربِّه ويتبرَّأ من حوله وقوَّته ، فلا يلتفت لنفسه . . ولا لكسبه ، ولهذا قال تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1] .

علامة حقيقته : **وقال ابن عطاء : علامةُ حقيقة التوحيد نسيانُ التوحيد** .

لما مرَّ مِن أنَّ كمال التوحيد أن ينسىٰ العبدُ نفسه وتوحيدَه ، **وهو أن يكون القائم به ـ أي : بقلبه ـ واحدا ؛ وهو الله تعالى لا غيره** .

ثمَّ أشار إلى بيان اختلاف مقامات الموحِّدين ؛ فقال :

مكاشَف الأفعال : **ويقال : مِن النّاس مَن يكون في توحيده مكاشَفاً بالأفعال . . يرى الحادثات باللهِ** ؛ بأن يرى الأفعال لواحد ؛ وقلبُه مع الحادثات ، فأيُّ شيءٍ حَدَث ذُكِر محدثه .

مكاشَف الصفات : ومنهم مَن هو مكاشَف بالصفات ؛ وهو أن يعلم انفرادَ اللَّه بالصفات القديمة ؛ كالقدرة والإرادة والعلم . وهذا **أرفعُ درجةً مما قبله** .

مكاشف الحقيقة : **ومنهم مَن هو مكاشف بالحقيقة**[2] **فيضمحلُّ فيها إحساسُه بما سواه تعالى ، فهو يشاهِد الجمع سِرًّا بسِرٍّ** ؛ أي : يشاهد باطنه شيئاً فشيئاً بوصف الجمع . . **وظاهرَه بوصف التفرقة** ، فيكمُل عنده انفراد الحقِّ في ذاته وأفعاله وصفاته ، وهذا هو **التوحيدُ الكامل** .

توحيد الفناء : **سمعت محمد بن عبد الله الصوفيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت علي بن محمد القزويني ؛ يقول : سمعت القنفد**[3] **؛ يقول : سئل الجنيد عن التوحيد ؛ فقال : سمعتُ قائلاً يقول :**

وَغَنَّـــا لِـــي مُنَـــىٰ قَلْبِـــي ... وَغَنَّيْـــتُ كَمَـــا غَنَّـــا
وَكُنَّـــا حَيْثُمَـــا كَـــانُـــوا ... وَكَـــانُـــوا حَيْثُمَـــا كُنَّـــا

فاعتبر الجنيد بذلك نفسه وحاله مع الله ، وكونه تعالى خلق له السماع في قلبه ،

---

(١) الآية : ٢٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المائدة .

(٢) الفرق بين هذا وما قبله أن الأول سبب وصوله شاهد العلم ؛ وهذا سبب وصوله تكرر ذلك الشاهد علىٰ قلبه حتىٰ غلب عليه ، وصار كأنه معاين له ؛ محسوس عنده بواسطة قوَّة اليقين ، ومن هنا قيل (لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً) . (عروسي : ٤/ ٥١) .

(٣) كذا في (ح) ، وفي (م) : القناد .

وعبَّر عنه بالفناء ، فلما خلقه في قلبه . . هاجت عليه أحوالُ الموافقة لمَّا سمعه ؛ أخذاً من قوله (وَغَنَّيْتُ كَمَا غَنَّىٰ) ، وأخبر أنَّه لما توالَىٰ عليه هذا الحال . . لم يبقَ فيه وُسْع لا ذِكرَ لغير الحقِّ ؛ شُغْلا به عن غيره ؛ أخذاً من البيت الثاني .

وفيه إشارة إلى استغراقه بالكليَّة حتَّىٰ عن نفسه ؛ فلم يَرَ إلاَّ واحداً .

فقال له السائل لَمَّا لَمْ يفهم الجواب من البيتين كما فَهِمه هو : **هلك القرآن والأخبار** . . حتَّى تستدلَّ بغيرِهما ؟! **فقال : لا ، ولكن الموحِّد يأخذ أعلىٰ التوحيد من أدنىٰ الخطاب** وأيسره ، فمن غلب على قلبه التوحيدُ . . صار له من كلِّ شيءٍ حال ووجدٌ وسماع ، والمعنى : أني ظننتُ أنَّك تأخذ الفائدة ، وتفهمُ مقامَ التوحيد من كلِّ خطاب .

* * *

٤٤ ـ باب
أحوالهم : الصوفية عند الخروج من الدنيا
من خوفهم ورجائهم ؛ وحبِّهم لِلقاء الله ؛ وغير ذلك[١] .

أصل أحوالهم : قال الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾[٢] يعني : طيِّبةً نفوسُهم **ببذلهم مُهَجَهم ، لا يثقل عليهم رجوعهم إلى مولاهم** ؛ بل يحبُّون لقاءه[٣] ،

(١) اعلم أن المطلوب في هذه الحالة تغليب الرجاء بالنسبة إلىٰ سعة الرحمة وزيادة الفضل ، ولأنَّ الانتقال إنما هو لأكرم الكرماء ، فما يقع من الخوف لبعضهم . . إنما هو من الغلبة لا الاختيار . والآية المذكورة مما يدلُّ علىٰ طلب الرجاء (عروسي : ٤/ ٥١) .

(٢) الآية : ٣٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .

(٣) اعلم أن محبَّة لقاء الله هي العمل علىٰ ما يحبُّه ويرضاه ، لا الميل إلىٰ الموت ؛ لأنه عرض يضادُّ الحياة . . لا يمكن الميل إليه ، ولا تتيسر محبَّتهُ لأحد من الخلق (عروسي : ٤/ ٥٢) .

ويفرحون بخروجهم من الدنيا .

مفارقة الأعضاء : أخبرنا عبد الله بن يوسف الأصبهانيُّ رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن عُقبة الشيباني بالكوفة ؛ قال : أخبرنا الخضر بن أبان الهاشمي ؛ قال : أخبرنا أبو هدبة ؛ عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

« إِنَّ ٱلعَبْدَ لَيُعَالِجُ كَرْبَ ٱلمَوْتِ وَسَكَرَاتِ ٱلمَوْتِ ، وَإِنَّ مَفَاصِلَهُ لَيُسلِّمُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ . . تَقُولُ (عَلَيْكَ ٱلسَّلاَمُ . . تُفَارِقُنِي وَأُفَارِقُكَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلقِيَامَةِ)[(١)] » . والمراد بمفارقتها بِلاها بعد الموت[(٢)] إلى أن تعاد .

شيئآن لا يجتمعان : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُلَمي رحمه الله ؛ قال : حدَّثنا أبو العبّاس الأصمُّ ؛ قال : حدثنا الخضِرُ بن أبان الهاشميُّ ؛ قال : حدثنا سوار ؛ قال : حدَّثنا جعفر ؛ عن ثابت ؛ عن أنس **أنَّ النَّبِيَّ ﷺ دخل على شابٍّ ؛ وهو في حالة الموت ؛ فقال له : « كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ » فقال : أرجو الله وأخافُ ذنوبي . فقال رسول الله ﷺ : « شَيْئَآنِ لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ فِي هٰذا ٱلمَوْطِنِ ـ : موطن الموت ؛ يعني حاله ـ إِلاَّ أَعْطَاهُ ٱللهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ »[(٣)] . وأحسنُ أحوال العبد في دنياه مع مولاه أن يستويَ عنده رجاؤه فيه وخوفُه منه[(٤)] .**

---

(١) تفرَّد به المؤلف رحمه الله ، وإليه عزاه المتقي الهندي في «كنز العمال»: ٤٢١٨٣ ! ثم ذكر شاهده : ٤٢١٨٤ ؛ معزياً للديلمي : ٦٨٧٢ ؛ (وهو فيه عن ابن عبَّاس !!!) عن أبي هدبة أيضاً ؛ بلفظ « الْمُسْلِمُ إذا حَضَرَتْهُ ٱلوَفَاةُ سَلَّمَتْ ٱلأَعْضَاءُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ . . تَقُولُ (سَلاَمٌ عَلَيْكَ تُفَارِقُنِي وَأُفارِقُك إلىٰ يَوْمِ ٱلقِيَامَةِ » وذكره في « تنزيه الشريعة » : ٢/ ٣٧٥ .
وأبو هدبة (الراوي عن أنس) هو إبراهيم بن هدبة ، له ترجمة مخزية في « ميزان الاعتدال » ١/ ٧١ ـ ٧٢ منها قول ابن معين وقد سئل عنه (قدم علينا هاهنا وكتبنا عنه عن أنس ثم تبيّن لنا أنه كذاب خبيث) .

(٢) الذي يظهر من الحديث أنَّ ذلك وقت الموت ؛ لا بعده ، بجعل الواو (وإن مفاصله . .) للحال ، فهو خبر عما سيصير بعد الموت (عروسي : ٤/ ٥٢) .

(٣) أخرجه الترمذي : ٩٨٣ ؛ وقال : حسن غريب ، وابن ماجه : ٤٢٦١ ؛ عن أنس رضي الله عنه .

(٤) مراده عدم إفراط صفة الخوف ؛ أو الرجاء . . إلىٰ اليأس ؛ أو التساهل ، وذلك لا ينافي ما ذكره الفقهاء من طلب تغليب الخوف في الصحة ، والرجاء في المرض . فتدبَّر . (عروسي : ٤/ ٥٢) . =

أحوالهم في النزع : واعلم أنَّ أحوالَهم في حال النزع مختلفة . .

١ـ الهيبة : فبعضُهم الغالب عليه الهَيْبَةُ : الخوف من الله تعالى والإجلال للقائه ، فيقلق ويبكي ويَشْهَق ، كما رؤي بعضُهم يبكي ؛ فقال : ما أبكي حزناً على الدنيا ، ولا ضَنّاً بكم ، ولكني أخشىٰ إحدى المنزلتين .

٢ـ الرجاء : وبعضهم الغالبُ عليه الرجاء فينبسط ، كما قال بلال رضي الله عنه : وآطرباه ! غداً نلقىٰ الأحِبَّة . . محمَّداً وحزبه .

٣ـ الكشف : ومنهم مَن كُشف له في تلك الحالة : حالة النزع ما أوجب له السكون وجميلَ الثقة بالله ِتعالى .

صحيفة الجنيد : حكىٰ أبو محمد الجُريريُّ ؛ قال : كنتُ عند الجنيد في حال نزعه . . وكان يومَ الجمعة ويومَ نيروز ؛ وهو يقرأ القرآن ، فختمه ثم ابتدأ البقرة فقرأ منها شيئاً ! فقلت له : في هذه الحال ؛ ياأبا القاسم !؟ قال : ومَن أولى مني بذلك !! . . بالاشتغال بالأفضل والأحبِّ إلى الله تعالى . وهوذا ـ أي : في هذا الحين ـ تطوىٰ صحيفتي !!

توضيح : كان الجنيد ممن يغلبُ عليه قبلَ حالة النزع دوامُ الذكر والقراءة ، وأعمال البرِّ ، فتمادىٰ ذلك عليه بفضل ربِّه إلى وقت نزعه .

تأصيل : وأنت إذا تأمَّلتَ أحوال الخلقِ وجدتَ الجاريَ عليهم عند موتهم ما كان الغالبَ عليهم قبل ذلك . ويؤيِّده خبرُ : « يَمُوتُ ٱلْمَرْءُ عَلَىٰ مَا عَاشَ عَلَيْهِ »[1] .

وجهك حُجَّتُنا : سمعت أبا حاتم السجستاني رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج الطوسيَّ ؛ يقول : بلغني عن أبي محمد الهروي ؛ قال : مكثتُ عند الشبليِّ الليلةَ التي مات فيها ، فكان يقول طولَ ليلته هٰذين البيتين[2] :

---

(١) لم أجده فيما بين يديَّ الآن ! .

(٢) كُـلُّ بَيْـتٍ أَنْـتَ سَـاكِنُـهُ   غَيْـرُ مُحْتَـاجٍ إِلَـىٰ ٱلسُّـرُجِ
وَجْهُـكَ ٱلمَـأْمُـولُ حُجَّتُنَـا   يَـوْمَ تَـأْتِـي ٱلنَّـاسِ بِـٱلحُجَـجِ

كلُّ بَيْتٍ أَنْتَ يا ربّ سَاكِنُهُ غَيْـرُ مُحْتَـاجٍ إِلَـى ٱلسُّـرُجِ
وَجْهُـكَ ٱلمَـأْمُـولُ حُجَّتُنَـا يَـوْمَ تَـأْتِـي ٱلنَّـاسُ بِـٱلحُجَـجِ

في ذلك دَلالة على أنَّ لقاءَ الله يحصل به فرح العبد ، وانشراح صدرِه ودوامُ مناجاته حتَّى عند وفاته .

وحُكي عن عبد الله بن منازل أنَّه قال : إنَّ حمدون القصَّار أوصى إلى أصحابه أن لا يتركوه في حال الموت بين النّسوان ! لتشويشهنَّ عليه بالصياح والعويل ونحوهما ، وهذا من كَمَال تثبُّته . . ومراقبته ؛ وبُعْدِه عن المشوِّشات ؛ وقت الحاجة إلى التثبُّت ، فإنَّ العبد إذا حضره عند الموت منَ يذكِّرُه بالخيرات برفق ، ويُحسِّن ظنَّه باللَّهِ ويتلو عنده القرآن . . مات على أحسن الأحوال ! بخلافه مع حضور النساء ، فإنَّهُنَّ كُلَّ ما اطلعن عليه من كَرْب وشدَّة . . صِحْنَ بالويل والثُّبور ، ووقع منهُنَّ ما لا يرضي الرحيم الغفور .

القدوم شديد : وقيل لبشرٍ الحافي ؛ وقد احتُضِر : كأنَّك يا أبا نصر ؛ تحبُّ الحياةَ !؟ فقال : القدومُ على الله شديدٌ . إذ لو لم يكن إلاَّ الموتُ . . كفت شدَّته ، فإنَّ له سكراتٍ .

شدَّة الموت : وقيل : كان سفيان الثوريُّ إذا قال له بعض أصحابه . . إذا سافر : أتأمرُ بشُغْل !؟ يقول : إن وجدتَ الموت فاشتره لي ، لمحبَّتي للقاءِ الله ، ولخوف التبديل والتغيير في هذه الدار . **فلما قربَتْ وفاتُه . . كان يقول : كنَّا نتمنَّاهُ** ـ أي : الموت ـ فباشرنا أمارته . . **فإذا هو شديدٌ !!** مع أنَّ شِدَّته منقولةٌ عن الأنبياء وغيرِهم .

قدوم الحسن : وقيل : لما حضر الحسنَ ـ وفي نسخه : الحسينَ ـ **بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما الوفاةُ . . بكى . فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : كَوْني أقدُمُ على سيِّدٍ لم أَرَه** . فيه دَلالة على إجلال الله ، وتعظيمه في قلبه ، والهيبة منه ، وَالخوف مما يبدو مما لم يحسبه .

قدوم بلال : ولما حضر بلالاً الوفاةُ ؛ قالت امرأته : واحزناه ! فقال هو : بل واطرباه ؛ غدا نلقىٰ الأحبَّة . . محمَّداً وحزبه . . غلب على ظنِّه حينئذ ذلك

بقوله ﷺ . . لما قال له (أنا أحبُّك) : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ »[1] . وهو كان يحبُّهم .

قدوم ابن المبارك : وقيل : فتح عبد الله بن المبارك عينَه عند الوفاة وضحك ؛ وقال ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾[2] . فيه دَلالة على أنَّه رأىٰ مِن إكرام الله له والبشرى بما وعده به ما حمله على ذلك .

قدوم مكحول : وقيل : كان مكحولٌ الشاميُّ الغالبُ عليه الحزنُ ، فدخلوا عليه في مرض موته ؛ وهو يضحك . . فقيل له في ذلك ! : ما سببه ؟ فقال : ولِمَ لا أضحكُ وقد دنا فراقُ ما كنت أحذره . من الهوى ، والشيطان ، والدنيا ، وسرعة القدوم على ما كنت أرجوه وآمله مِن لقاء ربِّي .

فيه دَلالة على كمال حُسْنِ ظنِّه بربِّه . وحصولِ الأمن له في قلبه ، كما قال تعالى ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾[3] . قال ﷺ « لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ ٱلظَّنَّ بِٱللهِ »[4] .

قدوم العارفين : وقال رويم : حضرتُ وفاةَ أبي سعيد الخراز ؛ وهو يقول في آخر نفسه[5] :

حَنِيْنُ قُلُوبِ ٱلعَارِفِيْنَ إِلَى الذِّكْرِ ... وَتَذْكَارُهُمْ وَقْتَ ٱلمُنَاجَاةِ لِلسِّرِّ

---

(١) متفق عليه . . البخاري : ٦١٦٧ ، ومسلم : ١٦١ ـ ٢٦٣٩ ؛ عن أنس رضي الله عنه .

(٢) الآية : ٦١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الصافات .

(٣) الآية : ٦٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : يونس .

(٤) أخرجه مسلم : ٨١ ـ ٢٨٧٧ ، عن جابر رضي الله عنه ، وأحمد : ٣/ ٣٢٥ ، وأبو داود : ٣١١٣ ، وابن ماجه : ٤١٦٧ .
وقولُه ﷺ (لا يموتن) خبرٌ ، ومعناه النهيُ عن غير هذه الحالة (عروسي) .

(٥)
حَنِيْنُ قُلُوبِ ٱلعَارِفِيْنَ إِلىٰ ٱلذِّكْرِ ... وَتَذْكَارُهُمْ وَقْتَ ٱلمُنَاجَاةِ لِلسِّرِّ
أُدِيْرَ كُؤُوسٌ لِلْمَنَايَا عَلَيْهِمُ ... فَأَغْفَوْا عَنِ ٱلدُّنْيَا كَإِغْفَاءِ ذِيْ ٱلسُّكْرِ
هُمُومُهُمُ جَوَّالَةٌ بِمُعَسْكَرٍ ... بِهِ أَهْلُ وُدِّ ٱللهِ كَالأَنْجُمِ ٱلزُّهْرِ
فَأَجْسَامُهُمْ فِي ٱلأَرْضِ قَتْلَىٰ بِحُبِّهِ ... وَأَرْوَاحُهُمْ فِي ٱلحُجْبِ نَحْوَ ٱلعُلاَ تَسْرِي
فَمَا عَرَّسُوا إِلاَّ بِقُرْبِ حَبِيْبِهِمْ ... وَلاَ عَرَّجُوا عَنْ مَسِّ بُؤْسٍ وَلاَ ضُرِّ

أُدِيْـرَتْ كُـؤُوسٌ لِّلمَنَـايَـا عَلَيْهِـمُ فَأَغْفَوا: أعرضوا عَنِ ٱلدُّنْيَا كَإِغْفَاءِ ذِي ٱلسُّكْرِ
هُمُـومُهُـمُ جَـوَّالَـةٌ بِمُعَسْكَـرٍ بِـهِ أَهْـلُ وُدِّ ٱللهِ كَـٱلأَنْجُـمِ ٱلـزُّهْـرِ
فَـأَجْسَـامُهُـمْ فِـي الأَرْضِ قَتْلَىٰ بِحُبِّهِ وَأَرْوَاحُهُمْ فِي ٱلحُجْبِ نَحوَ ٱلعُلَىٰ تَسْرِي

أي : تقطعها بسرعة إلى نحو العلى ، حتَّى لم يبقَ على قلوبهم حجابٌ يحجُبُها عنه ، لإعراضهم عن الدنيا .

فَمَا عرَّسُوا ـ : نزلوا في سفرهم ـ إلاَّ بِقُرْبِ حَبِيْبِهِمْ وفي نسخة : مليكهم ولاَ ـ وفي نسخة : وَمَا ـ عَرَّجُوا عَنْ مَسِّ بُؤْسٍ وَلاَ ضُرِّ .

في ذلك إشارة إلى أنَّ أحوال العارفين في الدنيا مع مولاهم هي التي حملتهم على حنين قلوبهم إليه وقتَ الارتحال ، ولم يجدوا ألماً لِمَا هم فيه من نزع الروح والأهوال ، لإعراضهم عن الدنيا !!

قدوم الخراز : وقيل للجنيد : إنَّ أبا سعيدٍ الخرَّازَ كثيرُ التواجد عند الموت !! فقال للقائل : لم يكن بعجيب أن تطيرَ روحُه اشتياقاً للقاءِ ربِّه .

فيه إشارة إلى أنَّ الخرَّاز كاملُ الأحوال في محبَّته لله ، ومعرفته له ، ودوام شغله وأُنسه به ؛ في سائر أحواله .

قبول مستكين : وقال بعضهُم ؛ وقد قَرُبت وفاتُه لغلام عنده : يا غلام ؛ أُشدد كِتَافِي وعَفِّر خدِّي بالتراب[1] . لاحظ نفسه بعين التقصير ؛ فأمر الغلام أن يفعل به ذلك ثم قال : دنا الرحيل ولا براءةَ لي من ذنب ، ولا عذر لي أعتذرُ به ، ولا قوَّة لي أنتصر بها !! أنت لي ؛ أنت لي . ثمَّ صاح صيحة ومات عقبَها !! فسمعوا صوتا مِن قائل يقول : استكان العبد لمولاه فقبله بفضله وكرمه .

شهوة في النزع : وقيل لذي النون المصري عند موته : ماذا تشتهي ؛ قال : أشتهي أن أعرفه تعالى فوقَ معرفتي له قبل موتي بلحظة .

رأىٰ نفسه مقصِّراً عن القيام بحقِّ معرفته ؛ فعدَّ معرفته كلا معرفَةَ ، فطلب أن يستغرقَ في جلال الله وكماله بحسب ما عَلِمه من ذلك .

كامل الحضور : وقيل لبعضهم ؛ وهو في النزع : (قل الله) فقال لهم : إلى متى

---

(١) قال العروسيُّ : لعل لهذا دليلاً من شواهد القلوب ، وإلاَّ فعلم النقل لا يساعده !! .
قلت : لكن في قصة ذبح إسماعيل ما يدلُّ له .

تقولون لي (قل الله) ؛ وأنا محترقٌ بالله[1] !! فلست بغافل عنه ، فلا أحتاج إلى مَن يذكِّرُني به .

وهذا يدلُّ على أنَّه كامل الحضور مع الله ، شديدُ المراقبة له .

يختار ميتة !!: وقال بعضُهم : كنت عند ممشاد الدينوري وجماعته ، فقدم عليهم فقير ؛ وقال (سلام عليكم) . فردُّوا عليه السلام . فقال لهم : هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسانَ أن يموت فيه ؟! فأشاروا عليه بمكان ، وكان ثَمَّ عينُ ماء ، فجدَّد الفقير الوضوء منها ؛ وركع ما شاء الله ، ومضى إلى المكان الذي أشاروا إليه ومدَّ رجليه ومات .

هذا من خرق العوائد ، وهو مستثنىٰ من عموم : « خَمْسٌ مِنَ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ »[2] فيُطلعُ اللهُ الوليَّ على ذلك ، مع أنَّ عمومَ ما ذُكر خُصَّ بقوله تعالى ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾[3] .

وفائدة هذه الحكاية : أنَّه كان في مجلس الدينوري مَن ينكر خرق العوائد فيما ذُكر ، فأتى اللهُ به جهاراً مرتِّباً على سؤال وجواب ؛ ليرجع إليه مَن ينكره ، وينتفع به ، ويتقوَّى به يقينُ مَن ينظره .

تبرهن بالموت : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : كان أبو العبَّاس الدينوري يتكلَّم للرِّجال والنساء في مجلسه يوماً ، فصاحت امرأة تواجداً بما سمعَتْه منه من الحِكَم ؛ وذكرِ مقامات القُرْب إلى الله تعالى ، فكَرِه منها ذلك بحضرة الرجال ؛ فقال لها : إن كنت صادقة مغلوبةً موتي . فقامت المرأة ، فلما بلغت باب الدار التفتت إليه ؛ ورجعت إلى الله بالاضطرار أن لا يفضحها ، وأن يميتَها لتسلَمَ مِن نسبتها إلى العار ، والتكلُّف لأحوال الفقراء . . فأجاب الله دعاءَها ؛ وفاءً بقوله تبارك وتعالى ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا

---

(١) الغرض منه الحثُّ علىٰ مثل حاله وإفادة مقامه ؛ لا مللاً من التذكير . . كيف وهو به جدير ؟! (عروسي) .

(٢) أخرجه البخاري : ٤٦٢٧ ؛ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بلفظ « مَفَاتِيحُ ٱلْغَيْبِ خَمْسٌ . . . » .
ولفظه عند أحمد : ٢/ ٢٤ ؛ عن بُرَيْدة رضي الله عنه .

(٣) الآيتان : ٢٦ و٢٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الجن .

دَعَاهُ﴾[1] . وقالت : قَدْ مِتُّ . ووقعت ميتة ! نفعنا الله بها وبأمثالها .

سلوا العلَّة : وقال بعضهم : كنت عند ممشادٍ الدينوريّ عند وفاته ، فقيل له : كيف تجدُ العلَّة التي بك ؟ فقال لهم : سلوا العلَّة عني ؛ كيف تجدني !! ـ كما وجد في نسخة ـ فقيل له : قل (لا إله إلا الله) . فحوَّل وجهه إلى الجدار تأدُّباً مع الله تعالى؛ وقال : أفنيتُ كلِّي بكلِّك : شغلتني بك شغلاً كلِّيّاً حتَّى أنسيتني نفسي! هذا جزاء مَن يُحبُّكَ !؟ أثنى بذلك على الله وشَكَره على ما تفضَّل به عليه .

وفيه دَلالة علىٰ أنَّه كان مشغولاً بربِّه عن نظره في علَّته .

تلقين ذاكر : وقيل لأبي محمد الدَّبيلي . . وقد حضرته الوفاةُ : قل (لا إله إلا الله) . فقال : هذا شيءٌ قد عرفناه ، وبه نفنىٰ . ثم اشتغلنا به واستغرقنا فيه حتى نسينا أنفسنا ، فلا نحتاج إلى مَن يذكِّرُنا به ، إذ لا يُذكَّر إلاَّ الغافل ، كما أشار إلى ذلك بقوله : ثمَّ أنشأ يقول[2] :

تَسَرْبَلَ ثَوْبَ ٱلتِّيْهِ : المفازة[3] . استعار ذلك لينزِّهَ الله تعالى عن أن ينالَ العبد جميعَ مقاصده منه إلاَّ بعونه ـ لَمَّا هَوِيْتُهُ : أحببتُه . يعني أنَّه أحبَّه تعالى حُبّاً شديداً حتَّى نسيَ كونَه يعبده .

وَصَدَّ : أعرض عني وَلَمْ يَرْضَ بأنْ أَكُ عَبْدَهُ : شغلني عن عبادته ؛ وإن كنتُ غارقاً فيها باستغراقي عنه في كماله وجلاله وتنزُّهه .

سلطان الحبِّ : وقيل للشِّبليِّ عند وفاته : قل (لا إله إلا الله) . فقال[4] منشداً :

---

(١) الآية : ٦٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النمل .

(٢) تَسَرْبَلَ ثَوْبَ ٱلتِّيْهِ لَمَّا هَوِيْتُهُ ... وَصَـدَّ وَلَـمْ يَـرْضَ بِـأَنْ أَكُ عَبْـدَهُ

(٣) مراده تنزيه الحقِّ تعالىٰ عن أن يُدرَك ؛ أو يُتصوَّر ؛ أو يتوهَّم ؛ إذ لا تدركه العقول ، ولا تتصوَّره الأوهام . . . غير أنه لا يخفىٰ ما في التعبير ! فلعله صدر في وقت غلبة حال ! (عروسي : ٤/ ٥٥) .

(٤) قَـالَ سلْطَـانُ حُبِّـهِ ... (أَنـا لاَ أَقْبَـلُ ٱلـرُّشَـا)

فَسَلُـوهُ فَـدَيْتُـهُ ... (لِـمْ بَقَتْلِـي تَحَـرَّشَـا) ؟!

والرُّشا جمع رُشوة ؛ وهي ما يدفع لإحقاق باطل ، أو إبطال حقٍّ ، وهي من الكبائر ، أما الموصلة إلىٰ الحقِّ ! فلا بأس بها (عروسي : ٤/ ٥٥)

قَالَ سُلْطَانُ حُبِّهِ :

أَنَا لاَ أَقْبَلُ ٱلرُّشَا يعني : لا يمنعه شغلُه بمحبوبه أن يلتفت إلى غيره ، وفي نفسه أنَّه لو التفت إلى غيره . . مات .

فَسَلُوهُ فَدَيْتُهُ أنا :

لِمْ بِقَتْلِي تَحَرَّشَا !؟ أي : لِمَ تَحرَّش بقتلي .

وفيه دلالة على أنَّه في حالةٍ شريفة مِن شُغْل قلبه بربِّه . ولما قيل له : قل (لا إلٰه إلا الله) . . ردَّ من شغل القلب إلى شغل اللسان ؛ فأنشد البيت المذكور .

المربِّي المحتضر : سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفي ؛ يقول : سمعت عبد الله بن علي التميمي ؛ يقول : سمعت أحمد بن عطاء ؛ يقول : سمعت بعض الفقراء ؛ يقول :

لمَّا مات : أشرف على الموت يحيى الإصطخريُّ جلسنا حوله ، فقال له رجل منا : قل (أَشهد أن لا إله إلا الله) . فجلس مستويا ، ثمَّ أخذ بيد واحد منا ؛ وقال له : قل (أشهد أن لا إله إلا الله) . ثم أخذ بيد الآخر ؛ وقال له قل (أشهد أن لا إله إلا الله) . حتى عرض الشهادة على جميع الحاضرين ، ثمَّ مات .

فَهِم رحمه الله مِن قَوْل مَن قال له منهم : قل (لا إله إلا الله) . . أنَّهم يعتقدون غفلَته عن ربِّه لشُغْله بألمه ، فأخذ يذكِّرُهم واحداً واحداً بذلك ، ويبيِّنُ لهم أنَّه أشدُّ منهم يقظةً وحضوراً بذلك .

بُلِّغ ولم يُرد : ويحكىٰ عن فاطمة (أختِ أبيَ عليٍّ الرُّوذَباريِّ) أنَّها قالت : لَمَّا قرب أَجَل أخي (أبي علي الرُّوذَباريِّ) ؛ وكان رأسُه في حجري . . فَتَح عينيه ؛ وقال : هذه أبواب السماء قد فتحت ، وهذه الجنان قد زُيِّنَت ، وهذا قائل يقول لي : (يا أبا عليٍّ ؛ قد بلَّغناك الرتبة القصوى ؛ وإن لم تُرِدْها) . ثم أنشد يقول :

وَحَقِّكَ لاَ نَظَرْتُ إِلَى سِوَاكَا ... بِعَيْنِ مَوَدَّةٍ حَتَّىٰ أَرَاكَا
أَرَاكَ مُعَذِّبِي بِفُتُورِ لَحْظٍ ... وَبِٱلْخَدِّ ٱلْمُوَرَّدِ مِنْ جَنَاكَا

توضيح : في ذلك دَلالة على أنَّ أبا عليٍّ كان له في هذه الحالة ٱلتفات إلى زوجته ، وما هي عليه من الحُسْن ، وما هو فيه من حال النزع وطلِبه الحضور مع ربِّه ، وانقطاع قلبه عن غيره ، وهو تعالى أطلعه في هذه الحالة على ما شَغَله به عن ملاحظة زوجته . والشِّعر المذكورُ يدلُّ عليه ، فهو بجميع هِمَّته مع ربِّه ،

وخواطرُه في التفاته إلى زوجته تنازعه ، فجعلها عذاباً ، ثمَّ أخبر أنَّ الله أطلعه على ما شَغَله عنها بالكليَّة من ملكوته وعجائب قدرته . ثم قال (يا فاطمة) ؛

الأوَّل من البيتين ظاهرٌ ، إذ هو قَسَم بعظمته وجلاله تعالى أن لا يلتفت إلى غيره ، والثاني منهما فيه إشكالٌ على مَن لم يعرف المرادَ به ، ويتوهَّم أنَّه راجع إلى ربِّه . وفي نسخة بعد البيت الثاني :

فَلَــوْ قَطَّعْتَنِــي فِــي ٱلحُــبِّ إِرْبَــاً   لَمَــا حَــنَّ ٱلفُــؤَادِ إِلَــىٰ سِــوَاكَــا

حرمة الشيوخ : سمعت بعض الفقراء يقول : لمَّا قربتْ وفاة أحمد بن نصر رحمه الله . . قال له واحد من تلامذته : قل (أشهد أن لا إله إلا الله) . فنظر إليه نظرَ تأديب ؛ وقال له : لا تترك الحرمة . أي : حرمة المشايخ واجعلهم عندك في كلِّ وقت حاضرين مع الله . لا سِيَّما في وقت الانتقال من الدنيا إليه ، ولَمَّا كان حينئذ بكليَّته مع الله منتظراً لما يَرِدُ عليه منه . . ذَكَّره التلميذُ خوفاً من غفلته ، فأدَبَّه الشيخ بما ذُكِر ؛ وهو معنى ما قال بالفارسية : بي حرمتي مكن .

وقت الصفو : وقال بعضهُم : رأيت فقيراً في مرضه وهو يجود بنفسه . . غريباً ، ملقى على ظهره . . والذبابُ على وجهه ، وكان حاله مع الله طيباً مجموعاً ، فجلستُ عنده أذبُّ عن وجهه الذُّبابَ ففتح عينيه فرآني ، وقال : مَن هذا ! أنا منذ كذا وكذا سنة في طلب وقت يصفو لي ؛ فلم يتفق لي إلاَّ الآن ! ! جئتَ لي أنت توضعُ نفسك فيه ؛ بأن تشوِّش عليَّ حالي ؟! مُرَّ : جاوزني ولا تذبَّ عن وجهي . . عافاك الله من أن تكون مشوِّشاً على أحد حاله .

معلَّق الهمَّة : وقال أبو عمران الإصطخريُّ : رأيت أبا تراب في البادية قائماً ميتاً لا يمسكُه شيء . هذا من خرق العوائد ! ! وربَّما كان أبو تراب في حال طيب مع مولاه معلَّق الهِمَّة به ؛ فمات حينئذ فأمسكه الله آيةً لمن يراه ، لكمال شغله بالله .

المتواجد الهائم : سمعت أبا حاتم السجستانيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : كان سببُ وفاة أبي الحسين النوري رحمه الله . . أنَّه سمع هذا البيت[1] وهو :

---

(١) مَا زِلْتُ أَنْزِلُ فِي وِدَادِكَ مَنْزِلاً   تَتَحَيَّـرُ ٱلأَلْبَــابُ عِنْــدَ نُــزُولِــهِ

مَا ـ وفي نسخة : لا ـ زِلْتُ أنْزِلُ فِي وِدَادِكَ ـ : حبِّك ـ مَنْزِلاً
تَتَحَيَّرُ ٱلأَلْبَابُ عِنْدَ نُزُولِهِ .

فتواجدَ النُّوريُّ بذلك وقويَ تواجدُه عليه ، وهام على وجهه من الحُبِّ في الصحراء ، فوقع في أَجَمةِ قصبٍ قد قُطِعَت وبقي أصولُها مثل السيوف ، فكان يمشي عليها . . وهو مستغرِقٌ لا يُحِسُّ بها . . ويعيد هذا البيت إلى الغداة . . والدمُ يسيل من رجليه ، ثمَّ لَمَّا سُرِّيَ عنه . . وقع مثل السكران فورمت قدماه ومات بذلك .

إليه أعود : وحكي عنه أيضاً أنَّه قيل له عند النزع (قل لا إله إلاَّ الله) فقال : أليس إليه أعودُ !! . فيه دَلالة على كمال حاله عند النزع ، فإنَّه لم يَبْدُ منه ما ينهى مَن قال له (قل لا إله إلا الله) . . مثل ما مرّ ، بل أجابه بأنَّه إليه يعود .

ملازم الطهارة : وقيل : مرض إبراهيمُ الخوَّاص في المسجد الجامع الكائن بالرِّيِّ ؛ وكانت به علَّة الإسهال ، فكان إذا قام للإسهال مجلساً يدخل الماء ويتوضَّأ منه ، فدخل الماء مرَّة فخرجت روحه بأَجَله .

فيه دلالة على كمال حاله ؛ وفضيلةِ ملازمته الطهارة على عادته . . أنَّه كلَّما أحدث تطهَّر .

شهوة مريض : سمعت منصور المغربي ؛ يقول : دخل عليه ـ: على الخوَّاص ـ في مرضه يوسفُ بنْ الحسين عائداً له بعدما أتى عليه أيام لم يَعُدْه ؛ ولم يتعهَّدْه ، فلما رآه . . قال للخوَّاص : أتشتهي شيئاً ؟؟ فقال : نعم ؛ أشتهي قطعة كَبِد مشويٍّ ـ وفي نسخة : مشويَّة ـ.

الأخ الشفيق : قال الأستاذ الإمام أبو القاسم القشيريُّ : لعل الإشارة فيه أنَّه أراد بما قاله له أشتهي قلباً يرقُّ لفقير ؛ وكبداً تشتوي وتحترقُ لغريب. لأنَّه كالمستجفي . . من الجفاء ليوسف بن الحسين حيث لم يتعهَّدْه !! فإنَّه لما انقطع عنه مدَّة ثم عاده وَشَهَّاه . . أجابه بما هو فيه ؛ من أنَّه يشتهي أخاً مشفقاً على أخيه . . ينقطع كبده عليه ؛ ويحترق لما يراه عليه ، لا سيما في حاله مرضه .

الوزير والواعظ : وقيل : كان سبب موت ابن عطاء أنَّه أُدخل مرَّة على الوزير فكلَّمه

الوزيرُ بكلام غليظ ! فقال ابن عطاء : اِهدأْ يا رجل ! خاطبه بخطاب مَن لا تأخذه في الله لومةُ لائم ، فلم يحتمل قلبُه . . فأمر فضُرب بخُفِّه على رأسه ، فمات منه ـ وفي نسخة : حتى مات ـ !

وفي ذلك دَلالة على فضيلته حيثُ : نهىٰ مَن يُخاف منه عن المنكر .

يتعجَّل الرحيل : سمعتُ محمَّد بن أحمد بن محمَّد الصوفيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله ابن علي التميمي ؛ يقول : سمعت أبا بكر الدقي ؛ يقول : كنا عند أبي بكر الزقَّاق بالغداة ؛ فقال خوفاً على نقصٍ في دينه ؛ أو نحوه : إلهي ؛ كم تبقيني ههنا !! : في الدنيا . فما بلغ الغداة الأُولىٰ حتى مات !! استجاب الله دعاءه بتعجيل الوفاة .

إلى من يشتكي : وحُكي عن أبي عليٍّ الرُّوذَباري أنَّه قال : رأيت في البادية حَدَثاً ـ : شخصاً حديث السِّنِّ ـ مريضاً ، فلما رآني ؛ قال : أما يكفيه تعالى أن شغفني بحبِّه !! : بلغ حبُّه شِغافَ قلبي : غلافه حتى عَلَّني !! ، ثمَّ رأيتُه يجود بروحه ؛ فقلت له (قل لا إله إلا الله) . فأنشأ يقول :

أَيَـا مَـنْ لَيْـسَ لِـيْ عَنْـهُ   وَإِنْ عَـذَّبَنِـي بُـدُّ
وَيَـا مَـنْ نَـالَ مِـنْ قَلْبِـي   مَنَـالاً مَـالَـهُ حَـدُّ

بعده :

إِذَا لَـمْ يَـرْحِـمِ ٱلْمُـوْلَـىٰ   إِلَىٰ مَنْ يَشْتَكِي ٱلعَبْدُ !!؟

وفيما قاله دَلالةٌ على كمال حضوره مع مولاه ؛ وكمالِ حبِّه له ورضاه .

حاضر القلب: وقيل للجنيد (قل لا إله إلا الله) !! فقال : ما نسيتُه فأذكرُه ! وقال :

حَاضِرٌ فِي ٱلقَلْبِ يَعْمُرُهُ   لَسْـتُ أَنْسَـاهُ فَـأَذْكُـرُهُ
فَهُـوَ مَـوْلَايَ وَمُعْتَمَـدِي   وَنَصِيْبِـي مِنْـهُ أَوْفَـرُهُ

فيه دَلالة على كمال قربه وثبوته .

أدب محتضر : سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله ابن علي التميمي ؛ يقول : سأل جعفر بن نصير بكران الدينوري . . وكان يخدم الشبليَّ : ما الذي رأيتَ منه من الفضائل ؟! فقال : قال لي (عليَّ درهم مظلمةٌ ؛ وقد

تصدَّقْت عن صاحبه بألوفٍ ، فما على قلبي شغلٌ أعظمَ عليَّ منه) . . لأجل براءة الذِّمَّة . ثم قال لي : وضئني للصلاة . ففعلتُ ، فنسيت تخليلَ لحيته ؛ وقد أُمسِك على لسانه . فقَبَض على يدي وأَدخلها في لحيته لأخَلِّلَها ! ثمَّ مات ، فبكى جعفر ؛ وقال : ما تقولون في رجل لم يفتْهُ حتَّى في آخر عمره أدبٌ من آداب الشريعة .

في ذلك دلالة على كمال فضيلة الشبلي وتعظيمه للشريعة .

موت الكرام : سمعت عبد الله بن يوسف الأصبهاني رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا الحسن ابن عبد الله الطَّرَسوسي ؛ يقول : سمعت علوشاً الدينوري ؛ يقول : سمعت المزيِّن الكبير ؛ يقول :

كنت بمكَّة حرسها الله تعالى ، فوقع بي انزعاج ـ : تحرُّكٌ ـ فخرجتُ أريد المدينة الشريفة ، فلما وصلت إلى بئر ميمونة إذا أنا بشابٍّ مطروح على الأرض فعدلتُ إليه وهو ينزِع إلى الموت ؛ فقلت له (قل لاإله إلا الله) ! ففتح عينيه وأنشأ يقول :

أَنَا إِنْ مِتُّ فَٱلْهَوَىٰ حَشْوُ قَلْبِي وَبِـدَاءِ ٱلْهَـوَىٰ تَمُـوتُ ٱلْكِـرَامُ

فشهق شهقه ثمَّ مات ، فغسَّلتُه وكفَّنته وصلَّيتُ عليه ، فلما فرغتُ من دفنه . . سكن ما كان بي من إرادة السفر ، فرجعت إلى مكَّة حَرَسها الله تعالى .

تعقيب : هذا من جملة اعتناء الله بالمزيِّن ؛ حيث خلق له خاطرَ الانزعاج في السفر إلى المدينة ، وكان المرادُ منه أن يتولَّىٰ أمر هذا الشاب الذي رآه وسمع منه ما قاله حتَّى أعلمه الله أنَّه من محبِّيه ، فإنَّ سبب قتله وضنى جسمه المحبَّةُ ، فعرَّف اللهُ المزيِّن فضلَه عليه حيث أزعجه إلى أن واراه التراب .

طمع قادم : وقيل لبعضهم : أتحبُّ الموت؟! فقال : القدوم على مَن يُرجَىٰ خيرُه ؛ وهو الله . . خيرٌ من البقاء مع مَن لا يؤمَن شرُّه[1] ؛ وهو الهوى والدنيا والشيطان .

---

(١) يشير إلىٰ أنَّ الموت وقتَ الفتن عرس وتحفة للمؤمن (عروسي : ٤/ ٥٨) .
قلت : ولذا كان من دعائه ﷺ : « وَإِذا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَٱقْبِضْنِي إِلَيْكَ . . . » .
ويدلُّ له قوله ﷺ : « تُحْفَةُ ٱلْمُؤْمِنِ ٱلْمَوْتُ » أخرجه ابن المبارك في « الزهد » : ٥٩٩ ، =

تعليم محتضَر : وحُكي عن الجنيد أنَّه قال : كنت عند أستاذي ابن الكرنبي وهو يجودُ بنفسه ؛ من شِدَّة النزع ، فنظرتُ إلى السماء داعياً له . فقال لي : هذا بَعْدُ ! ثمَّ نظرت إلى الأرض كذلك ، فقال لي : هذا بعدُ أيضاً . يعني أنَّه أقربُ إليك مَن أن تنظر إلى السماء ، أو إلى الأرض ، بل هو وراءَ المكان . أي : قبله ، فإنَّه تعالى قديمٌ والمكانُ حادث ، عرَّفَه بذلك قرب الله منه ، وأنَّه منزَّه عن العلو والسُّفْل ، وسائر الجهات ؛ ليجتمعَ هَمُّه ويحضر قلبه ، ويكمل أدبه وقت دعائه ، فإنَّ الله يسمعه ويراه ، وهو أقربُ إليه من حبل الوريد .

تفقد حبيب : سمعت أبا حاتم السجستاني رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا نصر الطوسيَّ السرَّاج ؛ يقول : سمعت بعض أصحابنا ؛ يقول : قال أبو يزيد عند موته : ما ذكرتُك يا ربِّ ؛ إلاَّ عن غفلة : ما أنشأت ذكرك إلاَّ إذا طرقتني غفلةٌ ، وإلاَّ فأنا ذاكرٌ لك على الدوام . ولا قبضتني : قبضت باطني إلاَّ على فترة . يعني : أنَّ كلَّ ما هو فيه شكرٌ لربِّه ، فإن طرأت عليه غفلةٌ . . مَنَّ الله عليه بذكره ليجدِّدَ له الأُنس والانبساط ؛ وإن فتَر عن ذكره . . مَنَّ عليه بالألم والقبض ؛ ليرجع إلى النشاط .

شهيد الأمل : سمعت أبا حاتم السجستانيَّ ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : سمعت الوجيهي ؛ يقول : سمعت أبا عليٍّ الروذَباري ؛ يقول : دخلت مصر فرأيت الناس مجتمعين !! فسألتُ عن سبب اجتماعهم ؛ فقالوا : كنَّا في جنازة فتىً سمع قبل موته قائلاً يقول :

كَبِـــرَتْ هِمَّـــةُ عَبْـــدٍ طَمِعَتْ[1] فِيْ أَنْ تَراكَا

بعده :

أَوَ مَـــا حَسْـــبُ لِعَيْـــنٍ أَنْ تَـرَىٰ مَـنْ قَـدْ رَآكَـا

ذكره قبيل باب كرامات الأولياء . فشَهَق شهقةً : صاح صيحة ومات .

= وعبد بن حميد : ٣٤٧ ، والحاكم : ٤/٣١٩ ؛ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ! والقضاعي في « مسند الشهاب » : ١٥٠ ، والطبراني في « الكبير » برجال ثقات ؛ عن عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما .

(١) وقوله (طمعت) قوي منها الرجاء .

توضيح : في ذلك إشارةٌ إلى أنَّ هذا الشابَّ كان كثير الذكر لله تعالى ، والمراقبة له . . يتمَّنىٰ أن يراه ، فلما سمع هذا البيت وصادف ما بقلبه وما هو متعلِّقُ الهمَّة بحصوله . . فَرِح ، وقويت رغبته ؛ شوقاً إلى رؤية ربِّه ، فشهق شهقة فمات ؛ ووصل إلى محبوبه .

الزاهد بالجنة : وقيل : **دخل جماعةٌ على ممشادٍ الدينوري في مرضه ؛ فقالوا** له ؛ لما يعرفونه من صلاحه وكثرة اشتغاله بربِّه : أبشر بكذا وكذا من الجنَّة وغيرها ؛ **فقد فعل الله بك وصنع** . أَعَدَّ لك ذلكَ . وفي نسخة : ما فعل اللهُ بك ، وصنع !! فأجابهم بأنه مشغول بربِّه دونَ الجنَّة وغيرها ؛ **فقال** : **أنا منذ ثلاثين سنة تُعرَض عليَّ الجنَّة بما فيها فما أَعَرْتُها طرفي** : بصري . أي : ما التفتُّ إليها يعني : لم أعملْ للجزاء ؛ وإن كان لا بدَّ منه ، وإنَّما عملتُ امتثالاً لأمر ربِّي ونهيِه وكمالِ محبَّته لي .

فاقد قلبه : **وقالوا له عند النزع** : **كيف تجدُ قلبك؟** والقلب إنَّما يصلُح بالانتقال من الأخلاق الذميمة إلى الحميدة . . من الصبر والزهد والتوكُّل والرِّضا ونحوها !! **فقال** : **منذ ثلاثين سنة فقدتُ قلبي** ، لما مَنَّ الله عليَّ مِن كَمَال شغلي به عنه ، فأعرضت عنه ؛ وعن كلِّ ما يَشغلني عن الله .

مرتع الأحباب : **سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفيَّ** رحمهُ اللهُ ؛ **يقول** : **سمعت عبد الله بن علي التميمي** ؛ **يقول** : **قال الوَجيهي** : **كان سبب موت ابن بنان أنَّه ورد على قلبه شيءٌ** من محبَّته لمولاه . . **فهام على وجهه** ، **فلحقوه في وسط متاهةِ** ـ : تيهِ ـ **بني إسرائيل في الرمل ففتح عينيه** ؛ **وقال** لنفسه : **اِرْتَعْ** ـ : تنعَّمْ وتلذَّذ فقد وجدتَ مرادَك من لقاءِ ربِّك ـ **فهذا مرتع الأحباب** . **وخرجت روحه** رحمه الله .

يرتِّب تجهيزه : **وقال أبو يعقوب النهرجوري** : **كنت بمكَّة** حرسها اللهُ تعالى ، **فجاءني فقيرٌ معه دينار** ؛ **فقال** : **إذا كان غدا فأنا أموتُ** ، **فأصلحْ لي بنصف هذا الدينار قبراً** ، **والنصفُ الثاني اجعله لجهازي** : لبقيَّته .

فقلت في نفسي : **دُوخِل الشابُّ** : خولط في عقلُه . **فإنَّه قد أصابته فاقة**

الحجازَ . فأخذتُ منه الدينار لأنظر ما الذي يكون منه !! فلما كان الغد جاء ودَخل الطواف ، ثمَّ بعد فراغه منه مضى وامتدَّ على الأرض ، فقلت : هوذا يتماوت : يتشبَّهُ بالموتى في رُقادهم . فذهبتُ إليه لمَّا طال أمرُه . . ولم يقم !! فحرَّكْتُه ؛ فإذا هو مَيْت على أحسن أحواله ! فَدَفنتُه وجهَّزتُه كما أَمَرني . هذا من خوارق العوائد يجريه الله على بعض الصالحين ليعرِّفَهم بأوقاتِ موتهم ، وكيف يموتون ليستعدُّوا للقائه أحسنَ استعداد .

خلاف السنة : وقيل : لمَّا تغيَّرت الحال على أبي عثمان الحِيْري قبل موته . . مَزَّق ابنه أبو بكر قميصاً ، ففتح أبو عثمان عينيه ، وقال : يا بني ؛ إن خلافَ السنَّة في الظاهر من رياءٍ في الباطن ! أي : تخريقك ثوبَك عند موتي ليس من السنَّة ، بل السنَّة أن تصبر وتسترجع ، وما حَمَلك على خلاف السنَّة في ظاهرك . . إلاَّ رياءٌ في باطنك ، رغبة في أن يحمدك الناس على تألُّمك على فراقي .

أولوية الوِرْد : وقيل : دخل ابن عطاء على الجنيد ؛ وهو يجود بنفسه فسلَّم عليه ، فأبطأ في ردّ الجواب عليه ؛ ثم ردّ عليه ؛ وقال له : أُعذرني في إبطائي ؛ فلقد كنتُ في وِردي الذي التزمته في وقت معيَّن ؛ فما أمكنني قطعهُ لردِّ السلام . ثم مات . في ذلك دلالة على مراعاته للأفضل .

وحكىٰ أبو عليٍّ الرُّوذَباري ؛ قال : قدم علينا فقير فمات ، فدفنته وكشفتُ في القبر عن وجهه لأضعه على التراب ؛ ليرحم الله عزَّ وجلَّ غربتَه . ففتح عينيه ، وقال : يا أبا عليٍّ ؛ أتدلِّلُني : أتكرمني !! بين يدي مَنْ دَلَّلني : أكرمني !! فقلت له : يا سيِّدي ؛ أحياةٌ بعد موت !؟ فقال لي : بلى : نَعَم أنا حيٌّ ، وكلُّ محبٍّ للهِ تعالى حيٌّ[1] ، لأنصرَنَّك غدا : يوم القيامة بجاهي يا روذَباري . هذا من خرق العوائد أيضاً أعني الكلام بعد الموت ، وقد جرى مثلُه في الصحابة .

وفائدةُ هذه الحكاية تعريفُ الرُّوذباري أنَّ الأولياء مخفيُّون في الفقراء

---

(١) بشاهدِ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (عروسي : ٤/ ٥٩) .

ليزداد رغبة في مساعدتهم والقيام بحقوقهم .

يدعىٰ ليموت : ويحكىٰ عن عليٍّ بن سهل الأصبهاني أَنَّه قال : أترون ـ : أتظُنُّون ـ أنيِّ أموت كما يموت الناس ؛ بأن يتقدَّم الموتَ مرض وعيادة لصاحبه ـ وفي نسخ : مِن مرض وعيادة ـ لا إنَّما أُدعى للموت ؛ فيقال لي : يا علي . فأجيبُ ، فكان يمشي يوماً ؛ فقال لمن دعاه (لبَّيْك) ومات[1] . هذا من خرق العوائد أيضاً .

ملقِّن الأولياء : سمعت محمد بن عبد الله الصوفي ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله ابن خفيف ؛ يقول : سمعت أبا الحسن المزيِّن ؛ يقول : لمَّا مرض أبو يعقوب النَّهْرَجوري مرضَ وفاته . . قلتُ له . . وهو في النزع : قل (لا إله إلا الله) . فتبسَّمَ إليَّ ؛ وقال : إيَّايَ تعني !! وعِزَّة مَن لا يذوق الموت ؛ ما بيني وبينه إلاَّ حجابُ العزَّة ؛ حيث تعزَّز فمنعني أن أَراه في الدنيا ببصري . وإلاَّ ! فأنا راءٍ له فيها بقلبي ، وفي الآخرة به وببصري وانطفأ : مات من ساعته .

تنبُّه : فكان المزيِّن يأخذ بلحيته : بلحيةِ نفسه . . ويقول توبيخاً لها : حجَّامٌ مثلي يلقِّن أولياء الله تعالى كالنهرجوريِّ الشهادةَ !! واخجلتاه[2] ، وافضيحتاه منه !! وكان يبكي إذا ذكر هذه الحكاية ، لكونه تجرَّأَ على وليِّ الله بتلقينه له مع استغراقه مع الله .

يا له من نسَّاج !! وقال أبو الحسين المالكيُّ : كنتُ أصحب خيراً النساجَ سنين كثيرة ، فقال لي قبل موته بثمانية أيام : أنا أموتُ يومَ الخميس وقت المغرب وأدفنُ يومِ الجمعة قبلَ الصَّلاة ، وستنسىٰ هذا . . فلا تنسَ !!

---

(١) فجأة ، وهو من اللطف به ، إذ موت الفجأة لا كراهة فيه لأهل الديانة والصلاح دون غيرهم (عروسي : ٤/ ٥٩) .
قلت : لأنها حينئذ لا تكون « أَخذَةُ الأَسَفِ » ؛ كما ورد في الحديث الشريف !! أخرجه أحمد : ٣/ ٤٢٤ ، وأبو داود : ٣١١٠ ، والبيهقي في « السنن » : ٣/ ٣٧٨ ؛ عن عبيد بن خالد السُّلَمي .

(٢) لعل ذلك لقوله للأستاذ (قل)!! وإلا فمجرَّد قوله (لا إله إلا الله) وقت احتضاره مندوب ومستحبٌّ وإنْ عظم المحتضر (عروسي : ٤/ ٥٩) .

قال أبو الحسين : فأُنسيته إلى يومِ الجمعة فلقيني مَن أخبرني بموته ، فخرجت لأحضر جنازته فوجدتُ الناس راجعين يقولون : يدفن بعد الصلاة ! فلم أنصرف ، وحضرتُ فوجدتُ الجنازة قد أُخرجت قبل الصلاة كما قال ، فسألتُ مَن حضر وفاته ؟ فقال : إنَّه غُشي عليه ثم أفاق ، ثمَّ التفتَ إلى ناحية البيت ؛ وقال لملك الموت ؛ وقد جاءه يستأذنه في وقتِ قبض روحه إكراماً له وتشريفاً له ، ثمَّ أراد المضي : قف عافاك الله ، فإنَّما أنتَ عبدٌ مأمور بقبض روحي ، وأنا عبدٌ مأمور بالصلاة ، والذي أُمرتَ أنت به لا يفوتك ، والذي أُمرت أنا به يفوتني . فدعا بماء فجدَّد وُضوأه وصلَّىٰ صلاته التي عليه ، ثمَّ تمدَّد وغَمَّض عينيه ومات !

فرئي في المنام بعد موته ؛ فقيل له : كيف حالك ؟. فقال للسائل : لا تسلْ ؛ الأمر عظيم ، ولكِني تخلَّصتُ من دنياكم الوَضِرة : الفاسدة .

في ذلك دلالة على كمال فضيلة النسَّاج ورفعةِ درجته عند ربِّه .

تمسح الملائكة : وذكر أبو الحسين الحمصي ابن جهضم (مصنف كتاب « بهجة الأسرار »[1]) أنَّه لَمَّا مات سهل بن عبد الله انكب الناس على جنازته . . بحيث

---

(١) هكذا في (ح) ، وهكذا نقله في « هدية العارفين » : ١/٧١٦ ؛ عن « نفحات الأنس » للحسامي ، لكن في « سير أعلام النبلاء » : ١٧/ ٢٧٥ وغيره : أبو الحسن !! الشيخ الإمام الكبير علي بن عبد الله (ابن جَهْضَم) الهمذاني ، شيخ الصوفية بالحرم ، توفي مجاوراً سنة : أربع عشرة وأربع مئة .
فما في « كشف الظنون » ١/٢٥٦ أنه توفي : ٧١٣ !! فغلط فاحش ، وكذلك نسبته لـ علي بن يوسف اللخمي ، وكذلك غلط فيه البغدادي في « هدية العارفين » : ١/ ٧١٦ ، وتبعه كحالة في « معجم المؤلفين » : ٧/ ٢٦٤ (علي الشطنوفي) . وإنما الصواب ما ذكره ٧/ ١٣٤ .
أما كتابه « بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب السادة الأخيار » . . فمنه ثلاث نسخ خطية في الظاهرية تحت الأرقام : ٥٤١٢ ، ٨٥٤٦ ، ٩١٥١ . لكن تبع مفهرسها الأستاذ المرحوم محمد رياض المالح : ١/ ١٩٥ « كشف الظنون » علىٰ خطئه ، وذكر طبعات الكتاب ، ونسخة (الأوقاف) ببغداد تحت رقم : ٤٧٩٠ .

كان لهم ضجَّة ؛ وكان في البلد يهوديٌّ عمره نيَّف على السبعين من السنين ، فسمع الضجَّة فخرج لينظر ما كان ! فلما نظر إلى الجنازة . . صاح وقال لهم : أترون ما أرى !! فقالوا : لا ؛ إيشٍ ترىٰ ؟ فقال : أرىٰ أقواماً ينزلون من السماء يتمسَّحون بالجنازة !! كشف الله بصيرتَه حتَّى رأىٰ الملائكة ينزلون على الجنازة يتمسَّحون بها ، ثمَّ إنَّه بسبب ذلك تشهَّد وأسلم وحَسُنَ إسلامه . وقد نُقل أنَّ الملائكةَ يصلُّون على بعضٍ بني آدم !!

حياة الأموات : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت أبا جعفر بن قيس بمصر ؛ يقول : سمعت أبا سعيد الخرَّاز ؛ يقول : كنت بمكَّة حرسها الله تعالى ، فجزتُ يوماً بباب بني شيبة . . فرأيت شابَّاً حسن الوجه ميتاً ، فنظرت في وجهه فتبسَّم في وجهي ؛ وقال لي : يا أبا سعيد ؛ أما علمتَ أن الأحبَّاء أحياءٌ ؛ وإن ماتوا !! وإنَّما ينقلون من دار إلى دار .

برزخ الأرواح : هذا مِن خرق العوائد أيضاً ، مع أنَّ الأرواح لا تفنىٰ ، وإنَّما تفارق الأجسام ، وأرواح المؤمنين في عليين ، وأرواحُ الكفَّار في سِجِّين ، والكلُّ محبوسون في البرزخ .

وصية مشغول : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت الجُرَيريَّ ؛ يقول : بلغني أنَّه قيل لذي النون المصري عند النزع (أوصِنا) !

فقال : لا تشغلوني ، فإنيِّ متعجِّب فيما رأيت من محاسِن لطفه تعالى بي وإنعامه عليَّ .

موعظة محتضر : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن محمد الرازيَّ ؛ يقول : سمعت أبا عثمان الحيري ؛ يقول : سئل أبو حفص في حال وفاته : ما الذي تعظُنا به ؟ . فقال : لستُ أقوى على القول لقوَّة مرضي . ثم رأىٰ مِن نفسه قوَّة ؛ فقلتُ له : قل : عِظْنا . . حتَّى أحكي عنك ما تعظُنا به !! فقال : موعظتي الانكسار بكلِّ القلب . أي : انكسار القلب بكلِّيَّته على التقصير في القيام بحقِّ خدمة المولى .

* * *

٤٥ ـ باب المعرفة بالله[١]

معناها : هي تحقيق العلم بإثبات الوحدانية[٢] ، ويقال : حياةُ القلب مع الله ، ويقال : نسيانُ غير الله ، ويقال . . غير ذلك . وسيأتي بعضُه .

الحضُّ عليها : وهي ممدوحة ومطلوبة ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾[٣] . . جاء في التفسير : وما عرفوا الله حقَّ معرفته . وقال ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[٤] .

ثمرتها : ومَن عرفه بقدرته وجلالِه وعظمته . . خافه وأَجَلَّه وأطاعه ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[٥] .

دعامة الدين : وأخبرنا عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله العدل ؛ قال : حدَّثنا محمد بن القاسم العتكي ؛ قال : حدَّثنا محمد بن أشرس ؛ قال : حدَّثنا سليمان بن عيسى الشجري ؛ عن عَبَّاد بن كثير ؛ عن حنظلةَ بنِ أبي سفيان ؛ عن القاسم بن محمد ؛ عن

---

(١) المعرفة : جزم القلب بوجود واجب الوجود ؛ متَّصفاً بسائر الكمالات بواسطة الأدلَّة والبراهين العقلية والسمعية ، والمعرفة عند الصوفية تنشأ من تكرر ما للحقِّ من الكمالات بنور المكاشفات . فالعارف مَن تعرَّف إليه الحقُّ تعالىٰ بالكشف له عن مظاهر الأسماء والصفات . . فصار لا يشهد غير الله ؛ ولا يعوِّل علىٰ ما سواه .
والمعرفة أرقىٰ من العلم ، والفرق بين العارف والعالم : أنَّ العالم يبتغي الثواب ويخاف العقاب . . تراه دائراً بين العلَّة والغرض ، بخلاف العارف ؛ فإن عبادته لامتثال أمر مولاه ، لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً (عروسي : ٤/ ٦٠ بتصرف) .

(٢) تعريف للمعرفة بلازمها ، وإلا! فحقيقتها الجزم الناشىء عن تكرر الدليل علىٰ قلب العارف . وما يليه من (حياة القلب . . .) و(نسيان . . .) من ثمرة المعرفة ؛ لا لبيان حقيقتها وعينها (عروسي : ٤/ ٦١) .

(٣) الآية : ٩١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

(٤) الآية : ٩٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

(٥) الآية : ٢٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : فاطر .

عائشة رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ دِعَامَةَ ٱلبَيْتِ أَسَاسُهُ ، وَدِعَامَةَ ٱلدِّيْنِ كذلك ٱلمَعرِفَةُ بِٱللهِ تَعَالَىٰ . . وَٱليَقِيْنُ وَٱلعَقْلُ ٱلقَامِعُ » . فقلت : بأبي أنتَ وأمي ؛ ما العقل القامع ؟ قال : « ٱلْكَفُّ عَنْ مَعَاصِي ٱللَّهِ ، وَٱلحِرْصُ عَلَىٰ طَاعَةِ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ »[1] . المستلزمة لطاعة رسوله . ثمَّ بيَّن المعرفة ؛ فقال :

عند العلماء : قال الأستاذ : المعرفةُ على لسان العلماء غير الصوفيَّة هي : العلم ؛ وهو : صفةٌ توجب تمييزاً لا يحتمل متعلَّقه النقيض ؛ فكلُّ علمٍ معرفةٌ ، وكلُّ معرفة علمٌ ، وكلُّ عالم بالله تعالى عارفٌ ، وكلُّ عارفٍ عالمٌ .

عند الصوفية : وعند هؤلاء القوم : الصوفية : صفةُ مَن عَرَف الحقَّ سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثمَّ صدق الله تعالى في معاملاته ، ثمَّ تنقَّىٰ عن أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثمَّ طال بالباب وقوفُه ، ودام بالقلب اعتكافُه . . فحَظِيَ من اللهِ تعالى بجميل ـ وفي نسخة : بجميع ـ إقباله ، وصَدَق الله في جميع أحواله ، وانقطع عنه هواجس نفسه : خواطرها ، ولم يُصْغِ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره تعالى . فإذا صار العارفُ بذلك من الخلقِ أجنبياً ، ومن آفات نفسه بريًّا ، ومن المساكنات والملاحظات إلى ذلك نقياً ، ودام في السِّرِّ مع الله تعالى مناجاتُه ، وحقَّ في كلِّ لحظة إليه رجوعُه ، وصار محدَّثا : ملهماً من قِبَل الحقِّ سبحانه وتعالى بتعريف أسراره ؛ فيما يُجْريه عليه من تصاريف أقداره ، يسمَّى عند ذلك : عند صيرورته كذلك «عارفاً» ، وتسمَّى حالتُه التي تسمَّى بها عارفاً «معرفة» .

وبالجملة فبمقدار أجنبيَّته عن نفسه وسائرِ المخلوقات . . تحصل معرفتُه بربِّه تعالى . فلا يُطلقون « العارف » إلاَّ على مَن توالىٰ عليه العلمُ باللهِ وصفاته ، والنظرُ في مصنوعاته ، وغلب عليه ذلك . بحيث صار حالاً له ، حتَّى قالوا (من عرف الله كَلَّ لسانه) : شغلته معرفتُه به عن ذكرِ غيره .

كلامهم بها : وقد تكلَّم المشايخ الصوفيَّة في المعرفة . . فكلٌّ نطق بما وقع له

---

(١) أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » : ٢٩٠٠ ؛ عن عائشة رضي الله عنها بتصرف . انظر « تنزيه الشريعة المرفوعة » لابن عراق في (أحاديث العقل) .
اليقين جزم القلب جزماً لا يحتمل ظنّاً ولا شكّاً .
وقوله (الكف . . .) بيان للعقل بلازمه وثمرته ، وإلاَّ ! فهو ملكة في النفس بها إدراك الأشياء علىٰ ما هي عليه . وعليه مدار التكليف (عروسي : ٤/ ٦٢ بتصرف) .

منها ، وأشار إلى ما وجده منها في وقته ؛ فقال :

أماراتها : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : مِن أمارات المعرفة بالله حصولُ الهيبة من اللهِ تعالى ، فمَن ازدادت معرفته به ازدادت هيبته منه ، ومَن ازدادت هيبته استقامت حالته ؛ وعَظُمت بين الخلق حرمته .

موجبَها : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : المعرفة توجِب السكينة : الثبوت والصبر في القلب ؛ كما أنَّ العلم يوجب السكون ، فمن ازدادت معرفته بالله .. ازدادت سكينته ، فَمن عَرَفه وأَجَلَّه .. لم يهب غيره ، وصَبَر على ما يَرِد عليه منه .

حال العارف : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت أحمد بن محمد بن زيد ؛ يقول : سمعت الشبلي ؛ يقول : ليس لعارف بالله علاقة[1] : حظٌّ في غيره . ولا لمحبٍّ له ؛ ولا لما يَرِد عليه منه شكوى ، لأنَّ ما يرد عليه من محبوبه رضاء ؛ فكيف يشكوه لسواه !! ولا لعبد له دعوى ، لأنَّه لا يملك شيئاً فكيف يدَّعي لنفسه ما ليس ملكا له !! ولا لخائف منه قرارٌ ولا اهتداء ؛ حتى ينال ما يخاف فوتَه ، ويأمن ما يخاف ضرره ، ولا لأحد من الله عزَّ وجلَّ فرار ، لأنَّ الخلق في قبضته .

طرفاها : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت محمد بن محمد بن عبد الوهاب ؛ يقول : سمعت الشبليَّ يقول ؛ وقد سئل عن المعرفة ؛ فقال هو زائد : أوَّلها الله : ذكره باللسان والقلب . وأخرُها ما لا نهاية له .. بأن يتوالىٰ ذلك على قلبِه حتَّى ينسىٰ نفسه وسائرَ المخلوقات ، وقُدْرة الله صالحة لنقله في ذلك ؛ لا إلى نهاية ، يعني : بالنسبة للإمكان ، وإلاَّ ! فكلُّ عارفٍ له حدٌّ ؛ أَوْصَله الله إليه ، وكلُّ ما دخل في الوجود محصورٌ .

القلب الحصين : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبي ؛ يقول : سمعت أبا العبَّاس الدينوري ؛ يقول : قال أبو حفص : منذ عرفتُ الله ما دخل قلبي حقٌّ ولا باطل .

قال الأستاذ الإمام القشيريُّ رحمه الله : وهذا الذي أطلقه أبو حفص فيه طرفٌ من الإشكال ! لأنَّ مَن عرف الله لا يستغني عن النظر في عبادته ،

---

(١) تعلُّق بغيره من الكائنات الدنيوية والأخروية (عروسي : ٤/ ٦٤) .

ليوقعها له بحسب ما طلبها . . وهذا حقٌّ ، ولا بدَّ من دخوله قلبَه ، والشيطانُ عدوٌّ له لا يسكت عنه . . وذلك باطل ؛ ولا بدَّ أن يدركه بقلبه ثم ينفيه !! قال الأستاذ في دفع الإشكال :

حقيقة المعرفة : وأجلُّ ما يحتمله كلامُه أنَّ عند القوم . . المعرفةُ توجب غَيْبة العبد عن نفسه ، لاستيلاء ذِكْرِ الحقِّ تعالى عليه ، فلا يشهدُ غيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ من سائر المخلوقات ، ولا يرجع في مهمَّاته إلى غيره تعالى ، فكما أنَّ العاقل يرجع إلى قلبه وتفكُّره وتذكُّره . . فيما يسنح : يخطر له من أمر ، أو يستقبله من حال . . فالعارفُ رجوعه إلى ربِّه تعالى ، فإذا لم يكن مشتغلاً إلاَّ بربِّه تعالى . . لم يكن راجعاً إلى قلبه ، ولا إلى غيره من سائر المخلوقات . وكيف يدخل المعنى قلب مَن لا قلبَ له عنده لشُغْله عنه بربِّه !! وفرقٌ بين مَن عاش بقلبه . . ومن عاش بربِّه تعالى .

معنى آخر : وسئل أبو يزيد عن المعرفة ؛ فقال ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾[1] . قال الأستاذ : هذا معنى ما أشار إليه أبو حفص فيما مرَّ . . من أنَّ المعرفة عندهم توجب غَيْبَة العبد عن نفسه لاستيلاء ذِكْرِ الحقِّ عليه ، فالمرادُ من الآية أنَّ القلب إذا تعمَّر بذكرِ الله وبشُغْله به . . لم يبقَ فيه سَعة لغيره ، فلا يدخله ما يفسده .

أحوال الخلق : وقال أبو يزيد أيضاً : للخلق أحوال لما عندهم من آثار النفوس وتنعُّمها وتغيُّرها بما يَرِدُ عليها ، ولا حالَ للعارف بالله ، لأنَّه قد مُحيَت عنه رُسُومه : آثاره وفنيت هُويتَّه - يعني : ذكر نفسه - بهوية غيره ؛ يعني : بذكر الله تعالى . وغَيَّبته آثاره بآثار غيره ؛ وهو الله ، لكمال شغله به فنسي نفسه وأحوالها وآثارها ، فلا حال له يراه .

المعرفة الكاملة : وقال الواسطيُّ : لا تصحُّ المعرفةُ باللهِ : الكاملة . . وفي العبد استغناء بالله وافتقار إليه .

إيضاح : قال الأستاذ : أراد الواسطيُّ بهذا أنَّ الافتقار إليه والاستغناءَ به من

---

(١) الآية : ٣٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النمل .

أمارات صحو العبدِ وبقاء رسومه ، لأنَّهما من صفاته ـ أي : صحو العبد ـ لأنَّ فيهما تفرقةً بين المستغني والمستغنىٰ به ، والفقير والمفتقَر إليه . والعارف الكامل محوٌ في معروفه ؛ وهو الله . . لا يحسُّ بنفسه فضلاً عن غيرها من سائر المخلوقات ؛ فكيف يصحُّ له ذلك ؛ أي : ما ذكر من الاستغناء بالله والافتقار إليه . . وهو لاستهلاكه في وجوده ؛ أي الله ! ! أو لاستغراقه في شهوده ؛ في حضور الله . إن لم يبلغ الوجود : لم يعلمه مختَطَفٌ : مغيَّب عن إحساسه بكلٍّ وصف هو له ، فلا يحسُّ بمخلوق .

حال العارف : ولهذا قال الواسطيُّ أيضاً : مَن عرف الله تعالى انقطع عن غيره ، بل خرس وانقمع : ذلَّ في نفسه وخضَعَ تحت أنوار العزَّة ، كما قال ﷺ : « لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ »[1] . هذه صفاتُ الذين بَعُدَ مرماهم : غرضهم ، فأمَّا من ـ أي : الذين ـ نزلوا عن هذا الحدِّ إلى إحساسهم ؛ فقد تكلَّموا في المعرفة فأكثروا ، وأعطوا كلَّ ذي حقٍّ حقَّه ؛ كماأمرهم به ربُّهم .

خشية العارف : أخبرنا محمد بن الحسين رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد ابن سعيد الرازي ؛ قال : حدَّثنا عيَّاش بن حمزةَ ؛ قال : سمعت أحمد ابن أبي الحواريِّ ؛ يقول : سمعت أحمد بن عاصم الأنطاكيَّ ؛ يقول : مَن كان باللهِ أعرفَ . . كان له أخوفَ ، لأنَّ مَن عرفه وعَرَف ما فعله ويفعله بالمخالفين في دنياهم وأُخراهم . . كان أشدَّ خوفاً من غيره ، وقد قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[2] العلماء به .

وقال بعضهم : من عرف الله تعالى تبرَّم بالبقاء : سئمه ، وضاقت عليه الدنيا بسَعَتها . فقد حكىٰ اللَّه تعالى عن كعب بن مالك وأصحابه لَمَّا تخلَّفوا عن غزوة تبوك ؛ وهُجِروا إلى أن نزل فيهم قرآن ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا

---

(١) أخرجه مالك : ١/ ٢١٤ ، وأحمد : ١/ ٩٦ ، ومسلم : ٢٢٢ ـ ٤٨٦ ، وأبو داود : ٨٧٩ ، والترمذي : ٣٤٩١ ، والنسائي : ١٠٩٩ ، وابن ماجه : ١١٧٩ وغيرهم ؛ عن عائشة رضي الله عنها وعن أبويها .
وقد تقدم ص ٢١٣ تخريج حديث « أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ » وهذا فيه .

(٢) الآية : ٢٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : فاطر .

رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾[1] . . وذلك لمعرفتهم باللهِ وعظمته وعظمةِ رسوله ، وتخلُّفهم عن الجهاد مع رسوله ، فكلُّ مَن عرف الجليل العظيم لا يحتمل قلبه الاشتغال بغيره ؛ ولا البعد عنه .

عيش العارف : وقيل : مَن عرف الله تعالى وأنَّ ما يُجريه عليه منه صلاحُه . . صفا له العيش بما ينعِّمُه به من قُرْبه به ، وتلذُّذه بمناجاته . . وطابت له الحياة ، وهابه كلُّ شيءٍ ، وذهب عنه خوفُ المخلوقين ، وأَنِس باللهِ تعالى .

رغبة العارف : وقيل : مَن عرف الله تعالى . . ذهب عنه رغبةُ الأشياء ، لزهده في الدنيا ، ورضاه بجميع ما يختاره له مولاهُ ، والرغبةُ إنَّما تكون مع الاختيار والحبّ لبعض الأشياء دون بعض ، وقد زال الاختيار برضاه بما يختارُهُ له مولاه . وكان هو بلا فصل ولا وصل ، لكمال استغراقه في ذكر ربِّه ، وشُغْله به عن ذكر نفسه . . هل هي مفصولة أو موصولة !! فإنَّ ذِكرَ ذلك فيه تفرقةٌ ، ومَن استُغرِق في شيء . . لم يبقَ عنده ذكرٌ لغير ما هو فيه .

موجَب المعرفة : وقيل : المعرفةُ باللهِ . . لكونها تقتضي تعظيم العارف له واستشعار نظره إليه في سائر أحواله . . توجِبُ له الحياء ، والتعظيم كما أَنَّ التوحيد يوجبُ للموحِّد الرضاءَ بما يُجْريه اللهُ عليه ، والتسليمَ فيه لكونه يغلب على قلبه رؤيةُ الفعل من الواحد في سائر أحواله .

مرآة العارف : وقال رُوَيم : للعارف مرآةٌ هي قلبُه . . إذا نظر فيها تجلَّى له فيها مولاه ، فليس في الوجود حركةٌ ولا سكون ، ولا ذرَّة إلاَّ وهي مذكِّرَة للعارف ربَّه . كما قال بعضهم : مَا رأَيْتُ شَيْئاً حَتَّىٰ رَأَيْتُ ٱللَّهَ قَبْلَهُ . . وقال بعضهم : مَعَه . والأوَّل أكملُ لدوام يقظته وقلَّة احتياجه للمذكِّرات عن الغفلات .

الروح السابقة : وقال ذو النون المصريُّ : ركضتْ أرواحُ الأنبياء عليهم السلام في مَيْدان المعرفة فسبقت روح سيِّدنا محمد ﷺ أرواحَ الأنبياء عليهم السلام إلى روضة الوصال . ليس هذا راجعاً إلى الكشف ، بل هو إخبار عن الواقع واختصاصٌ إلهيٌّ ، كما أخبر ﷺ بقوله : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ . . وَلاَ فَخْرَ »[2] .

---

(١) الآية : ١١٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

(٢) تقدَّم تخريجه ص ٣١٠ .

معاشرة العارف : وقال ذو النون أيضاً : معاشرة العارف كمعاشرة الله تعالى في أنَّه يحتملُك ويحلُم عنك ؛ تخلُّقاً بأخلاق الله تعالى . فمتى صحبتَه عفا عن كلِّ ذنب يكون منك ، وزال عنك برؤيته الفتورُ والكسل ، وتخلَّقتَ بأخلاقه الحميدة .

شهود العارف : وسئل ابن يزدانيار : متى يشهد العارفُ الحقَّ تعالى صِرْفا ؛ بأن لا يشهد معه غيره ؟! فقال : إذا بدا له الشاهدُ بمعنى المشهود الواحد ، وفني الشواهد : الإدراكات ، وذهب الحواسُّ ، واضمحل : ذهب الإخلاص ، ولم يبقَ عنده إلاَّ الشاهد ؛ وهو المشهود الواحد . ويجوز أن يراد بالشاهد الحاضرُ .

رتبة العارف : وقال الحسين بن منصور : إذا بلغ العبد إلى مقام المعرفة بالله . . أوحى الله إليه بخواطره : ألهمه بها المقاصدَ الصحيحة . . من الفراسة والإخبار ببعض المغيَّبات . وحرس سِرَّه عن أن يسنح : يخطر فيه غيرُ خاطر الحقِّ ، فالعارف يحفظُه الله في سائر ما يَرِدُ عليه من الخواطر الذميمة ويُلهمه المقاصد الصحيحة ؛ وفاءً بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[1] .

علامة العارف : وقال : علامة العارف بالله أن يكون فارغاً من الدنيا والآخرة ، لا زاهدا فيهما ، بل شغلاً عنهما بما هو أجلُّ وأعظم منهما ، وهو كمال شغله بمعروفه ، فلم يبقَ فيه سَعة لذكر غيره من المخلوقات التي هي الدنيا والآخرة وما فيهما .

غاية المعرفة : وقال سهل بن عبد الله : **المعرفة غايتها شيئآن** : الدَّهش لكمال المعروف وعزَّته ، والحَيْرة في معلوماته وتنزُّهاته من الجهات ونحوها .

أعرف الناس : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن أحمد بن سعيد ؛ يقول : سمعت محمد بن أحمد بن سهل ؛ يقول : سمعت سعيد بن عثمان ؛ يقول : سمعت ذا النون ؛ يقول :

أعرفُ الناس بالله أشدُّهم تحيُّراً فيه . هذا يرجعُ إلى قول الصدِّيق (سبحانَ مَن لم يجعل إلى خلقه سبيلاً إلى معرفته ؛ إلاَّ بالعجز عن معرفته !) فغاية معرفتهم وصولهم إلى الحدِّ الذي جعل لهم إدراكاً ، ومعرفتهم بعجزهم عما لم يجعل إليه سبيلاً .

---

(١) الآية : ١٢٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .

الواصلون بأعمالهم : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازي ؛ يقول : سمعت أبا عمر الأنطاكيَّ ؛ يقول :

قال رجلٌ للجنيد : من أهل المعرفة أقوامٌ يقولون بترك الحركات : الأعمال التي من باب البرّ والتقوى . . كالصلاة والصوم ، لأنَّهم زعموا بضلالهم أنَّهم إنَّما يحتاجون إليها ليصلوا بها إلى الله ، وإلى أن يغلب على قلوبهم ذكرُه ومناجاته والأُنس به ؛ وقد وصلوا ! !

فقال له الجنيد : إنَّ هذا قولُ قوم تكلَّموا بإسقاط الأعمال المتعبَّد بها . . وهو عندي أمر عظيم[1] في الضلال ، والذي يسرق[2] ويزني أحسنُ حالاً من الذي يقول هذا القول ! ! فإنَّ كُلَّاً من السارق والزاني يعلم أنَّه مخطىء شرعاً ، ويرجو له التوبة من ذلك ، وهؤلاء يظنُّون أنَّهم في أعلى الطاعات ، ولا ينتقلون عمَّا هم عليه أصلاً ، ولأنَّ العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى ! ! : عن أمره ونهيه ، وإلى الله رجعوا فيها : استعانوا به على القيام بها ، قال : ولو بقيتُ ألفَ عام لم أنقص من أعمال البرِّ ذرّة ! !
ما ذكره هو المراد بقولهم (العارف مَن لا يُطفىء نورُ معرفته نورَ ورعه)[3] ، بل يأتي بجميعِ ما أمر به .

طريق المعرفة : قيل لأبي يزيد : بِمَ وجدت : نلت هذه المعرفة ؟ فقال : ببطن جائع وبدن عار . يعني باجتهادي في العلمِ والعمل من غير التفاتي إلى جوع ؛ أو بَرْد ، وكأنَّه أورده في معرض تأديبِ مَن يزعمُ أنَّه يسلك طريقَ المعرفة ، وهو مقيمٌ على ما يُتْرِفُهُ به من مطعم وملبس .

تأسُّف العارف : وقال أبو يعقوب النَّهْرَجوري : قلتُ لأبي يعقوب السوسي : هل يتأسَّف العارف الكامل : يتلهَّف ويحزن حزنا شديداً على فواتِ شيءٍ غيرِ الله ؟

---

(١) لما يلزمه من إنكار أحكام الشريعة التي هي معلومة من الدين بالضرورة ، وذلك يوجب الكفر والخلود في النار (عروسي : ٤/ ٧٠) .
(٢) تقدم ص٣٨ .
(٣) من كلام ذي النون كما سيأتي ص٨٨٢ . وقد مرَّ ص٩١ معزيّاً إلى السَّريِّ وفيها شرح معناه .

قال : وهل يرى غيره ، فيتأسَّفَ عليه !! لا ، فإنَّه إذا غلب على قلبه رؤيةُ معروفه واستغناؤه به . . لا يجد ما يتأسَّف على فواته .

نظر العارف : **قلتُ له** : **فبأيِّ عين ينظر العارف إلى الأشياء ؟! فقال لي** : ينظر إليها بعين الفناء والزوال ، لأنَّ مصيرها إليهما ، أما مَن لم تكمُل معرفتُه . . بأن كان مستغنياً بمن يُوصلُه إليها من العَارفين . . فيتأسَّف على فواته ، ويحبُّ دوامَ انتفاعه به في وصوله إلى محبوبه ، ويراه لأجل ذلك ، فما أحبَّه ورآه إلاَّ من حيثُ كونُه وسيلةً لنيل مقصوده .

العارف والزاهد : **وقال أبو يزيد** : **العارف** بالله في سيره إليه **طيَّار** : سريع الرجوع إليه لعدم الشواغلِ والآفات ؛ لاستغراقه في شغله بالله . **والزاهد** في سيره إلى الله **سيَّار** إليه ، لأنَّ آفاتِه لم تنقطع عنه بالكلِّية ؛ وإنَّما انقطع عنه آفةُ الدنيا دون آفتَيْ الشيطان والنفس .

جوارح العارف : **وقيل** : **العارف** باللهِ **تبكي عينه** تارة . . لكمال الأدب وعدمِ صلاحيَّته عنده لما وُهبَ له ، وتارة خوفاً مِن أن يُبْعَد ويُحجَب ، **ويضحك قلبه** ؛ لِمَا توالى عليه من النعم والفوائد .

مثل العارف : **وقال الجنيد** : **لا يكون العارف عارفاً حتَّى يكون كالأرض**[1] ؛ في أنَّه **يطؤه** ـ وفي نسخة : يطؤها ـ **البَرُّ والفاجر** ، فيتذلَّل لمولاه ، ويتواضَعُ له ولخَلْقه ،

وكالسحاب يُظِلُّ كلَّ شيء فينفع العارفُ كلَّ أحد . . حبيباً ؛ أو بغيضاً . . قريباً ؛ أو بعيداً .

وكالمطر يسقي ما لا يحبُّ كالسَّبِخَة ؛ **وما يحبُّ** كغيرها ، فينفع العارفُ العاصيَ والميطع .

---

(١) قال في « عوارف المعارف » : اعلم أنَّ العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلاَّ عند لمعان نور المشاهدة في قلبه ، فعند ذلك تذوب النفس ، وفي ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب ، فتلين وتطيع وتنقاد للحقِّ بمحو آثارها وسكون رهجها وغبارها . اهـ .
وأقول : فالناس ثلاثة : ١ـ رجل رأىٰ قبيح فعله . . ولم يَرَ لنفسه قدراً ، و٢ـ رجل شهد قبيح وصفه ؛ فلم يشهد لنفسه نسبة ، و٣ـ رجل شاهد عظمة ربِّه فنسي كلَّ شيءٍ به . وهذا أتمُّ الوجوه وأحسنها . والله أعلم (عروسي : ٤/ ٧١)

شهوة العارف : وقال يحيىٰ بن معاذ : **يخرج العارف من الدنيا . . ولا يقضي وطَرَه** : غرضه من شيئين . .

أحدُهما : بكاؤه على نفسه ، لما يعرفه من تقصيرها وسوء أدبها في عبادتها .

وثانيهما : ثناؤه على ربِّه ، لما يواليه على قلبه من النعم والفوائد .

أسباب المعرفة : وقال أبو يزيد : **إنَّما نالوا المعرفة بـ ١ـ تضييعِ ما لَهُم** ؛ وهو : ما أبيح لهم في دنياهم ولم يُجْرِه عليهم مولاهم ، **و٢ـ الوقوفِ مع ما لَهُ تعالى** ممَّا أَمَر به ونهى عنه .

حقيقة العارف : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا الحسين الفارسيّ ؛ يقول : سمعت يوسف بن علي ؛ يقول : **لا يكون العارف بالله عارفا به حقًّا حتَّى يكون بحيث لو أُعطي مثلَ ملكِ سليمان عليه السلام لم يَشْغَله ذلك عن الله طرفةَ عين** ، لكمال شغله به حتى نسيَ نفسه وغيرَها من سائر المخلوقات ، فلم يبقَ منها شيءٌ تميل نفسه إليه .

أركان المعرفة : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا الحسين الفارسي ؛ يقول : سمعت ابن عطاء ؛ يقول : **المعرفة بالله على ثلاثة أركان : ١ـ الهيبة ، و٢ـ الحياء منه ، و٣ـ الأُنس به** ، لأنَّ علمَ العبد بجلاله تعالى وسطوته . . يوجب الهيبة منه ، وعلمه بنظر الحقِّ إليه في سائر أحواله . . يوجب الحياء منه ، وعلمُه بتوالي نعمه عليه ؛ ودوامُ مناجاته له . . يوجبِ الأُنس به .

جواهر المعرفة : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان ؛ يقول : سمعت يوسف بن الحسين ؛ يقول : **قيل لذي النون : بمَ عرفت ربَّك ؟ فقال : عرفت ربِّي بربِّي ، ولولا ربِّي لَمَا عرفت ربِّي** ، إذ لا قدرة للعبد علىٰ تحصيل مقام من معرفةٍ ومحبَّة وغيرها . . إلاَّ بفضل ربِّه وعونه ، فمَن عرف الله به فهو **العارف** ، ومن عرفه بالتقليد . . **فهو عاميٌّ** ، ومن عَرَفه بالدليل . . **فهو متكلِّم** .

العالم والعارف : وقيل : **العالم يقتدىٰ به والعارف يهتدىٰ به** ؛ بناء على طريقتهم من الفرق بين العالم والعارف ؛ بأنَّ العالِم مَن يدرك الأحكام . . فيقتدىٰ به في العمل بها ، والعارف مَن غلب على قلبه شغُله بمولاه . . فيهتدىٰ به وبرؤيته ، لظهور النعم ومواهبِ الله عليه .

حفظ العارف : وقال الشبليُّ : العارفُ باللهِ لكونه دائمَ الشغل به عمَّن سواه ، وعالماً بأنَّه لا حافظَ له ؛ ولا مالكَ إلاَّ إيَّاه . . لا يكون لغيره تعالى لاحِظاً ، ولا بكلام غيره لافظاً . . لا يرى لنفسه غيرَ اللهِ تعالى حافظاً .

العارف والخلق : وقيل : العارفُ أَنِس بذكر الله تعالى فأوحشه من خلقِهِ ، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه ، وذَلَّ لله تعالى فأعزَّه في خلقه ، فهو مستوحِشٌ منهم بأُنْسه باللهِ فقيرٌ فيهم . . لغناه به عمن سواه ، ذليل فيهم . . لتعزُّزه بمولاه .

صلة العارف : وقال أبو الطيِّب السامَرِّيُّ : المعرفةُ طلوع الحقِّ تعالى : ظهوره وغلبتُه على محلِّ الأسرار ؛ وهو قلبُ العبد بمواصلةِ الأنوار : بتوالي أنوار معرفته عليه حتَّى لا ينساه في شيءٍ من حالاته .

معرفة العارف : وقيل : العارف بِاللهِ معرفتهُ فوقَ ما يقول ، إذ لا قدرةَ له على تعبيره عن جميع مقاماته وأحوالِهِ ، لقصور العبارة عنه كما يقصُر عن الفرق بين روائح المحسوسات كرائحةِ الزبد . . ورائحةِ المسك ، وحلاوة العسل . . وحلاوة السكر ، وحموضة النارنج . . وحموضة الليمون ، وإذا قَصُرت العبارة عن ذلك . . فعما يواليه الله ؛ ويفتح به على قلوب العارفين أَولى . ولذلك قال بعضهم : لو أراد العارفُ أنْ يتكلَّم بما في قلبه . . لعَجَز عنه لسانُه .

علم العالم : والعالم بأحكام الله علمُه بها دونَ ما يقول : ما يقولُه من العلم بأحكام الآداب والحضرة مع الله لا يبلغه علمُه السابق ، لأنَّه عاجز عن أن يصلَ إلى ذلك بعلمه .

يقظة العارف : وقال أبو سليمان الدارانيُّ : إن اللَّه تعالى يفتح للعارف باللهِ ؛ وهو على فراشه ما لا يفتح لغيره ؛ وهو قائم يصلي . لأنَّ أحوالَه كلَّها مع الله ، فلا يَغْفُل عنه في متقلَّبه ومثواه .

نطق العارف : وقال الجنيد : العارف بالله مَن نطق الحقُّ تعالى عن سِرِّه ؛ بأن جعل أحواله الظاهرة التي أجراها عليه دالَّة ناطقة للخلق بعمارة باطنه ، وكمال حاله معه تعالى . . وهو ساكت لم ينطق .

عقوبة العارف : وقال ذو النُّون : لكلِّ شيء من المخلوقات عقوبةٌ ، وعقوبةُ العارف

انقطاعه عن ذكر اللَّهِ تعالى ، لأنَّ العارف به محبٌّ له ، ومَن أحبَّ شيئاً أكثر مِن ذكره ، والعبد إنَّما يترك ذِكر ربِّه بقلبه . . إذا غفل عنه ، وغفلته عنه نقصٌ ؛ وكفى بها عقوبة !!

رياء العارفين: سمعت أبا حاتم السجستاني رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : سمعت الوجيهي ؛ يقول : سمعت أبا عليٍّ الروذباري ؛ يقول : سمعت رويماً ؛ يقول :

رياء العارفين بأن رأوا أعمالهم واستحسنوها . . **أفضلُ من إخلاص المريدين** ، لأنَّ غاية إخلاص المريدين خلاصُ أعمالهم من الرياء الحقيقي الذي هو محرَّم ، وإن رأوا عملهم واستحسنوه وسكنوا إليه ورجوا الثواب عليه ، والعارف عندهُم مَن كَمُلت معرفتُه بمولاه ، ورأىٰ فضله عليه وعطاياه . ومِن جملة ذلك حفظُه له عن الغفلة عنه ، فمتى رأىٰ عمله واستحسنه . . عدَّ ذلك رياء ؛ تشبيهاً بالرياء حقيقة .

سكوته وكلامه : وقال أبو بكر الورَّاق : سكوتُ العارف بالله **أنفعُ** من سكوت غيره ، لأنَّ أحواله الظاهرة تدلُّ على عمارة باطنه مع مولاه ؛ فينتفع به وبرؤيته وحده . . مَن رآه . **وكلامُه أشهى وأطيبُ** لسامعه من كلام غيره ، كالزاهد . . لأنَّ كلامه في صفة الجلال والكمال لمولاه ، وذكرِ تفاصيل نعمه عليه ؛ وعلى غيره في دنياه وأخراه ، وبذلك تطيبُ به النفوسُ وتهواه ، وكلام الزاهد ـ مثلاً ـ غالبُه في بيان نقص الدنيا وقلَّة وزنها عند الله ، وذلك لا يحتمله كلُّ النفوس .

ملوك الآخرة : وقال ذو النون : الزهَّاد ملوكُ الآخرة ، وهم فقراءُ العارفين ، لأنَّ الله تعالى يعوِّضُهم في الآخرة بَدَل ما زهدوا فيه ، ولا يبلغون فيها درجةَ العارفين ، فهم فقراؤهم بالنسبة لما مَنَّ الله به على العارفين .

حال العارف : وسئل الجنيد عن العارف باللهِ **!! فقال : لون الماء لون إنائه**[1] .

---

(١) يعني ليس للحقِّ صورة معيَّنة ، فتميزه عن صورة أخرىٰ . . . فإنَّ الحقَّ لذاته يقتضي القبول لكلِّ نعت ، والظهور بكلِّ وصف بحسب الواصف والعالم والحاكم ، فإن كان العالم به صاحب اعتقاد خبري ظهر في معتقده بحسبه ، فهو بالنسبة إلىٰ كلِّ ذي اعتقاد علىٰ حكم معتقده ، ومَن لم يتقيَّد في معرفته وشهوده له إحاطة بالجمع ! فذلك هو العارف الذي لا لون له (قاله بعض شراح « فصوص الحكم ») . زاد العروسي ٤/ ٧٤ : ويوضِّح هذا أنَّ=

يعني : أنَّه ؛ أي العارف لا حالَ له معيَّنٌ ، بل هو كالماء في الإناء . . يتغيَّر لونه بحسب تغيُّر الإناء ، فهو بحكم وقته الذي هو فيه ، فتارة بحكم القبض والإجلال ، وتارة بحكم البسط والجمال ، وتارة بحكم الدَّهَش ، وتارة بحكم السرور وحُسْن النَّفَس .

صدقيَّة العارف : وسئل أبو يزيد عن العارف بالله !! فقال : هو مَن لا يرى في نومه غيرَ الله ، ولا في يقظته غيرَ الله . والأول مرتَّب على الثاني ، لأنَّ الغالب على العبد في نومه ما هو مشغولٌ به في يقظته ، وكلُّ إناء بالذي فيه ينضح . ولا يوافق غيرَ الله : لا يزال ذاكراً لله بقلبه ، ولا يطالع غيرَ الله : لا يزال رائياً لله بقلبه .

عرفته بلمعة : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت عبد الله بن محمد الدمشقيَّ ؛ يقول : سئل بعض المشايخ : بم عرفتَ الله؟ فقال : عرفتُه بلمعة لمعت في قلبي ؛ بلسان شخص ؛ مأخوذ عن التمييز المعهود ، ولفظة جرت على لسان شخص هالك بشغله بربِّه ؛ مفقودٍ عن حسِّه بغلبة الأحوال عليه .

يشير هذا القائل بما قاله إلى وَجْدٍ ظاهر حَصَل له من ذلك الشخص ، ويخبر عن سِرٍّ في باطنه . . ساترٍ لحاله عمَّن يراه ويسمعه ، فكلُّ ما ذكره من صفة العارف الكامل فأخبر عن أوَّل معرفته باللمعة المذكورة من ذلك الشَّخْص الذي غلبت أحواله على ظاهره . . مع كمال قوَّته ؛ فهو بكمالها . . هو هو بما أظهره ، و هو غيره بما أشكله : ستره ممَّا توالى على قلبه من أسرار الغيب .

ثمَّ أنشد(١) في معناه :

نَطَقْتُ لأجل ما ستره الحقُّ عن غيري ، وخصَّني به في باطني **بِلا نُطْقٍ** : مغلوباً عليَّ غيرُ مختار . **هُوَ**: النطق المغلوب عليَّ **ٱلنُّطْقُ** الحقيقيُّ ؛ أي مثله **إنَّه**: الشأن **لَكَ** يا ربِّي **ٱلنُّطْقُ لَفْظاً** شبَّهه بالنطق لفظاً !! لوضوح دلالته على

= مدد العارف . . إنَّما هو النور ، وهو لا لون له ، إنما يتلوَّن بلون زجاجاته . والله أعلم ، وبكلِّ شيء أحكم ، وسلِّمْ تسلم .

(١) نَطَقْتُ بِلا نُطْقٍ هُوَ ٱلنُّطْقُ إنَّهُ … لَكَ ٱلنُّطْقُ لَفْظاً أَوْ يَبِيْنُ عَنِ ٱلنُّطْقِ
تَرَائَيْتَ كَيْ أَخْفَىٰ وَقَدْ كُنْت خَافِيَا … وَأَلْمَعْتَ لِيْ بَرْقاً فَأَنْطَقْـتَ بِٱلبَرْقِ

المعنى ، ولذلك أَوْ يَبِيْنُ : يظهر عَنْ ٱلنُّطْقِ .

ثمَّ أشار إلى المعنى الذي خصَّه به الحقُّ وشَغَله به عن غيره ؛ بقوله :

تَرَاءَيْتَ ياربِّي : ظهرتَ لي وشغلتني بك ، كَيْ أَخْفىٰعن غيرك وَقَدْ كُنْتَ خَافِياًعني[1] .

وَأَلْمَعْتَ لِيْ بَرْقاً : أظهرت على لساني فَأَنْطَقْتَ يا ربيِّ بِٱلْبَرْقِ الذي خصَّصتني به في وقت غلبةِ حالي .

صفة العارف : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت عليَّ بن بندار الصيرفيَّ ؛ يقول : سمعت الجُرَيري ؛ يقول : سئل أبو تراب عن صفة العارف بالله ؛ فقال : هو الذي لا يكدِّرُه شيءٌ ، ويصفو به كلُّ شيء[2] ، لِرضا العارف بحُسْن ما يختاره له مولاه ، فعنده بكرم الله ما يخلِّصُه من كلِّ كرب ، ويصفِّيه من كلِّ كَدَر .

أنوار العلم : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ أبا عثمان المغربيَّ ؛ يقول : العارفُ باللهِ تضيءُ له أنوار العلم ؛ فيبصر به : بنور العلم عجائب الغيب ، لأنَّه انتقل من أخلاقه الذميمة إلى الحميدة ، فلم يبقَ إلاَّ نَظَرهُ في العجائب والآيات ، فهو يتفرَّج في ملكه تعالى وملكوته .

بحار التحقيق : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : العارف باللهِ مستهلَك : غريق في بحار التحقيق . إذ ليس له حالٌ معيَّن ، بل هو مصرَّفٌ بما يَرِد عليه من آثار اللهِ ، فهو في بحار المعرفة . . فتارة في بحار نعمه ، وتارة في بحار أفعاله ومقدوراته ، وتارةً في بحار صفاته ، فهي بحارٌ . . والمعارف فيها . كما قال قائلهم : المعرفة أمواج تغطُّ : ترفع العارف بما يطلعه الله على تارة ، وتحطُّه بالعجز والقهر أخرى .

الكائن البائن : وسئل يحيى بن معاذ عن العارف باللهِ ؟ فقال مرَّةً : هو رجل كائن مع الخلق ببدنه . . بائن عنهم بقلبه . ومرَّةً قال : كان مع الخلق وعوائدهم ؛ فبان : ففارقهم بشُغْله بربِّه .

---

(١) بسبب قوَّة حجبي بملابسة الحظوظ ممنوعاً من شهود الحقِّ تعالىٰ ، وإلا فالحقُّ تعالىٰ منزَّه عن الحجاب (عروسي : ٤/ ٧٦) .

(٢) بسبب قوَّة التخلُّق بالمتابعة تأثيره فيما يقابله ويخالطه (عروسي : ٤/ ٧٦) .
وفي (م) : يصفو به عن كلِّ . . . لكن ما علَّق عليه المحشي لا يساعده !! .

علامة العارف : وقال ذو النُّون : علامةُ العارف بالله ثلاثة :

أحدها : **لا يطفىء نورُ معرفته باللهِ نورَ ورعه** . الذي هو ترك الشبهات المتضمِّن للعمل ؛ فلا يتركه لزعمه أنَّه وصل ، أو أنَّه لا فائدةَ له مع ما سَبَقَ له في الأزل .

وثانيها : **لا يعتقد باطنا من العلم [ما] ينقض عليه ظاهراً من الحكم** . فإذا وقعت له خواطرُ صحيحةٌ عنده . . فلا يعمل بها حتَّى يزنَها بميزان الشرع ، ولا عبرةَ بما قيل : إنَّها خواطر خصَّهم الحقُّ بها ، فهي عن الله صادقةٌ ؛ فلا سبيل إلى تركها !! وإن صحَّ في وقت . . لم يطَّرد .

وثالثها : **لا تحمله كثرةُ نعم الله عليه من الكرامات ونحوها على هتك أستار محارم اللهِ** ، والإقدام على ما نهى عنه ؛ بناء على أنَّ مثله لا يؤاخَذ بذلك ، ومَن قال به !! فقد أَمِن مكر الله ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1] .

واصف المعرفة : وقيل : **ليس بعارف مَن وصف المعرفة ؛ عند أبناء الآخرة** ، لأنَّ وصفها لهم يشوِّش عليهم حالهم ، لأنه يكلِّمُهم بما لا يفهمونه لشُغْلهم بربِّهم عن غيره حتَّى عن أنفسهم . . **فكيف بمَنْ وَصَفَها عند أبناء الدنيا الهلكى** تحتها !! فإنَّهم لا يفهمون ولا يسمعون .

مصدر المعرفة : وقال أبو سعيد الخرَّاز : **المعرفةُ تأتي مِن عين الجود وبذلِ المجهود** : لا تُنَال إلاَّ بعون الله على بذلك المجهود بمحض الكرم والجود ، فلا تُنال إلاَّ ببذل المجهود ؛ بإعانة الكريم المعبود ، مع التبرِّي من الحول والقوَّة ، لتكون عينُ الجمع أتمَّ .

شغل العارف : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله ؛ يقول : سمعت جعفر ؛ يقول : سئل الجنيد عن قول ذي النُّون المصري في صفة **العارف بالله** (كان ههنا : مع الخلق وعوائدهم ، فذهب) م بشغله بربِّه ؛ فقال الجنيد : **العارف بالله هو الذي لا يحصره حال عن حال** : لا يتقيَّدُ

---

(١) انظر ما قدمناه ص٨٧٥ . وص٩١ ؛ ٩٢ **وجوباً** . والآية : ٩٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

بحال معيَّن ، ولا يحجُبُه منزل : لا يمنعه مقام حلَّ فيه عن التنقُّل في المنازل ، بل ينتقل فيها إلى أن يصل إلى مقام المعرفة . فهو مع أهلِ كلِّ مكان بمثل الذي هو فيه . . يجد مثل الذي يجدونـه ، وينطق فيها كلِّها بمعالمها لهم لينتفعوا بها ، وهو أقدرُ منهم على ما هم فيه ؛ بيانا ممن تخلَّق به ، لأنَّه قد أحكمه قبلَ أن ينتقل عنه ، فصارت المقاماتُ كلُّها حاصلةً له .

حياة القلب : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت عبد الله الرازيَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن الفضل ؛ يقول : المعرفة حياة القلب مع الله . لأنَّ القلب إنَّما خُلق للعارف ، فإن اشتغل بها كلِّها على أكمل وجوهها . . كان حيَّاً ، أو على ضَعْف ؛ أو بعضها دونَ بعض . . كان مريضاً ، وإن أعرض عنها بالكلية ؛ واشتغل بنفسه . . كان ميتاً ، قال الله تعالى ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[1] ، فالمعرفةُ حياة القلوب بالله ، وبسائر ما أمر بمعرفته ، فبكمالها يكمل العبدُ ، وبنقصها ينقُص .

بكاء العارف : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أحمد بن علي بن جعفر ؛ يقول : سمعت الكتاني ؛ يقول : سئل أبو سعيد الخرَّاز : هل يصير العارف إلى حالٍ يجفو عليه البكاء : يبعد عنه ؟ فقال : نعم ؛ إنَّما البكاء من العارفين في أوقات سيرهم إلى الله . . لتعلُّق همَّتهم بوصولهم إليه ، فلا يزالون فيها يبكون ويتضرَّعون ويتوسَّلون . . حتَّى يصلوا إليه وينزلوا بمقام القرب ، فإذا نزلوا إلى حقائق القرب ، وذاقوا طعم الوصول من برِّه تعالى وكرمه . . زال عنهم ذلك ، وبقي في قلبه خدمة مولاه وتعظيمُه .

ثبات العارف : والعارف مع كمال قوَّته يحفظ سِرَّه ، يَرِد على قلبه ما يردُ على غيره وأعظم ، ولا يتحرَّك !! ولذلك لَمَّا قيل للجنيد ؛ وقد حضر سماعاً . . ولم يتغيَّر ظاهرهُ ، فسئل عن ذلك . . فقال : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[2] .

---

(١) الآية : ١٢٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

(٢) تكرر ورود هذه القصة ص ٢٧٠ ، ص ٢٩٥ ، ص ٣٠٨ ، ص ٩٤٩ .

٤٦ ـ باب المحبة

رتبتها والحضُّ عليها : سيأتي بيانها[١] . وهي ممدوحةٌ ومطلوبة .

قال اللهُ تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[٢] . وسيأتي بيانُ محبَّته ومحبَّتهم .

المحب المحبوب : وأخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسين ؛ قال : أخبرنا أبو عوانة يعقوبُ بن إسحاق ؛ قال : حدَّثنا السُّلَميُّ ؛ قال : حدَّثنا عبد الرزاق ؛ عن معمر ؛ عن همام بن منبِّه ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال : **قال رسول الله ﷺ** « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ ٱللهِ . . أَحَبَّ ٱللهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ لَمْ يُحِبَّ لِقَاءَ ٱللهِ . . لَمْ يُحِبَّ ٱللهُ لِقَاءَهُ »[٣] .

وفي رواية : « ومَنْ كَرِهَ لِقَاءَ ٱللَّهِ . . كَرِهَ ٱللهُ لِقَاءَهُ »[٤] .

جزاء المحبَّة : وأخبرنا أبو الحسن عليُّ بن أحمدَ بنِ عبدان ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن عبيد الصفَّار البصري ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن أيُّوب ؛ قال : حدَّثنا الحسن بن موسى ؛ قال : حدَّثنا الهيثمُ بن خارجة ؛ قال : حدَّثنا الحسن بن يحيى ؛ عن صدقة الدمشقي ؛ عن هشام الكتاني ؛ عن أنس بن مالك ؛ عن النَّبيِّ ﷺ ؛ عن جبريل عليه السلام ؛ عن ربِّه سبحانه ؛ قال :

---

(١) هي لغة : الودُّ والميل للمحبوب . واصطلاحاً : حالة لطيفة يجدها العبد بقلبه تحمله على إيثار المحبوب طوعاً ، قال الجويني (إمام الحرمين) اختلف أهل الحقِّ في مردِّ المحبَّة . . هل ١ـ هي صفة فعل ؛ فتكون بمعنى الإنعام والإحسان لاستحالة معنى التحنُّن ، أو ٢ـ هي صفة ذات ؛ فتكون بمعنى الإرادة للخير ؟! ويمكن الجمع فيه بتحقُّق الإرادة والفعل بين الربِّ والعبد ، فيحمل عليه قوله تعالى ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ والله أعلم (عروسي : ٤/ ٧٨ ؛ بتصرف) .

(٢) الآية : ٥٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المائدة .

(٣) أخرجه أحمد : ٢/ ٣١٣ ؛ عن أبي هريرة بلفظه .

(٤) متفق عليه عند البخاري : ٦٥٠٧ ، ومسلم : ١٤ ـ ٢٦٨٣ ؛ عن عائشة رضي الله عنها .

« ﴿ مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيّاً . . فَقَدْ بَارَزَنِي بِٱلْمُحَارَبَةِ ﴾» ـ وفي رواية : «﴿ مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيّاً . . فَقَدْ آذَنْتُهُ بِٱلْحَرْبِ ﴾» : أعلمته بأنِّي محارِبٌ لَهُ ـ وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ كَتَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي ٱلْمُؤْمِنِ . . يَكْرَهُ ٱلْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ـ . . لأنَّه تعالى يكره ما يؤلِم وَلِيَّه ، والموتُ بطبعه مؤلمٌ ـ وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْهُ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا ٱفْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلاَ يَزَالُ ٱلْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِٱلنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ ، وَمَنْ أَحْبَبْتُهُ . . كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وَبَصَراً وَيَداً وَمؤَيِّداً ﴾»[1] .

أصل المحبَّة : وأخبرنا عليُّ بن أحمدَ بن عبدان ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد ؛ قال : حدَّثنا عبيد بن شريك ؛ قال : حدَّثنا يحيى ؛ قال : حدَّثنا مالك ؛ عن سهيل ابن أبي صالح ؛ عن أبيه ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ ؛ قال :

« إذا أَحَبَّ ٱللهُ تَعَالَىٰ ٱلعَبْدَ . . قَالَ لِجِبْرِيْل عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ ﴿ يَا جِبْرِيْلُ ؛ إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنَاً فَأَحِبَّهُ ﴾ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيْلُ ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ فِي أَهْلِ ٱلسَّمَاءِ : إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ قَدْ أَحَبَّ فُلاَنَاً فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبَّهُ أَهْلُ ٱلسَّمَاءِ ، ثُمَّ يَضَعُ لَهُ ٱلقَبُولَ فِي ٱلأَرْضِ»[2] ؛ فتحبُّه النفوس وتُقبل عليه القلوب .

« وَإِذَا أَبْغَضَ ٱللهُ تَعَالَىٰ ٱلعَبْدَ . . » قال مالكٌ : لا أحسَبُه إلاَّ قالَ في البغضِ مثلَ ذلك ! ! أي مثل ما قال في الحبِّ[3] .

تعريفها : ثمَّ بيَّن المحبَّة ؛ فقال : المحبَّة حالةٌ شريفة شَهِدَ الحقُّ سبحانه بها للعبد ، وأخبر عن محبَّته للعبد حيث قال ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ .

---

(١) تقدم تخريجه عن البخاري ص ٣٦ .
وقوله « ما تَرَدَّدْت . . » ذلك من التقريب للأفهام القاصرة بما أُلف وُعِهد ! وتعالىٰ ربنا عن التردُّد ؛ وما هو من شأن الحوادث (عروسي : ٤/ ٨٤ ؛ ٨٥) .

(٢) متفق عليه . . البخاري : ٣٢٠٩ ، ومسلم : ١٥٧ ـ ٢٦٣٧ مع الزيادة ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وعند أبي نعيم في « الحلية » عن أنس رضي الله عنه : « إذا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً قَذَفَ حُبَّهُ في قلوب ٱلمَلائِكَةِ ، وَإِذا أَبْغَضَ عَبْداً قَذَفَ بُغْضَهُ في قُلُوبِ ٱلمَلائِكَةِ ، ثُمَّ يَقْذِفُهُ في قُلُوبِ الآدَمِيِّيْنَ » .

(٣) بأن قال « إذا أَبْغَضَ ٱللهُ عَبْداً قَالَ لِجِبْرِيْلَ عليه السلام : ﴿ إِنِّي أُبغِضُ . . . ﴾ ولا يخفىٰ أنَّ المراد بالبغض السخط والكراهة (عروسي : ٤/ ٨٥) .

محبة العلماء : فالحقُّ سبحانه يوصَف بأنَّه يحبُّ العبد ، والعبد يوصف بأنَّه يحبُّ الحقَّ ؛ والمحبَّةُ الواردة على لسان العلماء غيرِ الصوفيَّة . . هي الإرادة ؛ على ما يأتي بيانه .

محبَّة الصوفية : وليس مرادُ القوم : الصوفية بالمحبَّة الإرادةَ ، فإنَّ الإرادة من العبد لا تتعلَّق بالقديم[1] ؛ بناءً على أن أثرها التخصيصُ ، فلا تتعلَّق بالقديم ، كما لا تتعلَّق بالمستحيل !! اللهم إلاَّ أن تُحْمَل على إرادة التقرُّب إليه تعالى ، والتعظيم والرؤية له فيصحُّ تفسيرها بالإرادة .

تحقيق محبته تعالى : ونحن نذكر من تحقيق هذه المسألةِ طرفاً إن شاء الله تعالى . .

١ـ **إنفاذ إرادته** : فمحبَّة الحقِّ سبحانه للعبد إرادتُه لإنعام مخصوص عليه ؛ أي : لإنعامٍ على العبد مخصوصٍ بدرجة رفيعة ؛ كحفظه وتقريبه له ، وعداوته لمن عاداه ، كما أنَّ رحمته له إرادةُ الإنعام عليه ، فالرحمةُ أخصُّ من الإرادة ، والمحبَّةُ أخصُّ من الرحمة ، فإرادة الله تعالى أن ـ أي : لأَنْ ـ يوصل إلى العبد الطائعِ الثواب والإنعام تسمَّى تلك الإرادة « رحمة » ، وإرادته لأَن يَخُصَّه بالقُرْبة والأحوال العليَّة تسمَّى « محبَّة » ، وإرادته سبحانه من حيث هي صفةٌ واحدة ، فإنَّها صفة توجِب تخصيص أحدِ المقدوريَنْ في أحد الأوقات بالوقوع . .

متعلقات الإرادة : فبِحَسَبِ تفاوت متعلَّقاتها تختلفُ أسماؤها . . فإذا تعلَّقت بالعقوبة تسمَّى « غضباً » ، وإذا تعلَّقت بعموم النِّعم تسمَّى « رحمة » ، وإذا تعلَّقت بخصوصها تسمَّى « محبَّة » ، فمحبَّة الله تعالى للعبد إرادتُه بأن يخصَّه بدرجة رفيعة .

٢ـ **مدحه القديم** : وقوم قالوا : محبَّةُ الله تعالى للعبد مدحُهُ له وثناؤه عليه بجميل ؛ فيعود معنىَ محبَّته له على هذا القول إلى كلامه تعالى . . وكلامُه قديم .

٣ـ **صفة أفعاله** : وقال قوم : محبَّته للعبد من صفات فعله تعالى ، فهو إحسان مخصوصٌ يلقى الله العبدَ به ، وحالة مخصوصة يرقِّيه إليها ، كما قال بعضهم :

---

(١) أي بذاته وصفته ، إنَّما تتعلَّق بمراده تعالىٰ المحبوب للعبد ، وذلك لأن الإرادة لا تتعلَّق إلا بمتجدِّد ؛ والربُّ تعالىٰ أزليٌّ لا افتتاح لوجوده (عروسي : ٤/ ٨٥) .

إنَّ رحمته بالعبد نعمتُه معه لا تفارقه ، وهذا لا يخرجها عن كونها إرادة ، إذ لا فعل بدونها !!

٤ـ **صفة خيرية** : وقوم من السلف قالوا : محبَّتُه تعالى للعبد من الصفات الخيريَّة ، فأطلقوا هذا اللفظ وتوقَّفوا عن التفسير له .

جمع الصفات : فهذه أربعةُ أقوال ترجع إلى قولين : الإرادة والكلام ، لرجوع الفعل إلى الإرادة . . كما مَّر ، والخيرية إلى الكلام .

فأما ما عدا هذه الجملة . . مما هو المعقول من صفات محبَّة الخلق ؛ كالميل إلى الشيء والاستئناس بالشيء ، والسكون إليه وتعلُّق القلب به ، وكحالةٍ يجدُها المحبُّ بقلبه مع محبوبه من المخلوقين كما يأتي بيانُ ذلك . . فالقديمُ سبحانه يتعالى عن ذلك علوَّاً كبيراً .

محبَّة العبد : وأما محبَّة العبد لله تعالى !! فحالةٌ يجدها العبد من قلبه . . يستدلُّ عليه بآثارها ؛ لا بلفظ ، لأنَّها تلطُفُ عن العبارة : لا يمكن التعبير عنها بلفظ غير لفظ المحبَّة ، وقد تحملُه تلك الحالة على التعظيم له تعالى ، وإيثار رضاه وقلَّة الصبر عنه ، والاهتياج : الثَّوَران إليه ، وعدم القرار من دونه : من غير حضورٍ معه ، ووجود الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه .

وليست محبَّة العبد له سبحانه المستلزِمة لميل قلبه له . . متضمِّنة مَيْلاً إلى جهةٍ فيها المحبوبُ ، ولا اختطاطا : كونه في خط يحيط به ، لأنَّ هذه المحبَّةَ تابعة للمعرفة بالله ، وكما أنَّ المعروف منزَّه عن الجهات والإحاطة . . فكذا المحبوبُ ، ولأنَّ الميل معنويٌّ وحسيٌّ ، والمراد المعنويُّ بلا ريب . وهذا كمن سَمِعَ بعالمٍ عارف بالله جرت على يده كراماتٌ ، فإنَّه يميل بقلبه إليه ، ويتمنَّىٰ رؤيته ؛ وإن لم يعلم له جهة . . ولا قطراً يحيطُ به ! كيف . . وحقيقةُ الصمديَّة مقدَّسةٌ عن اللُّحوق والدَّرْك بمعنى الإدراك والإحاطة !! قال تعالى ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[1] : لا تحيطُ به . والمحبُّ المتَّصف بوصف الاستهلاك : الاستغراق في المحبوب أَولى منه : من المحبِّ . . بأن يوصف

---

(١) الآية : ١٠٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

بالاختطاط !! : بأنَّه في خُطَّة تحيط به وبمحبَّته ، لأنَّ وصفَه بهذا قد يُوهِم أنَّ المحبوب محاطٌ به أيضاً .

المحبة حدٌّ ووصف : ولا توصَف المحبَّةُ بوصفٍ أوضحَ ؛ بحيث يعرفها ، **ولا تحدُّ بحدٍّ أوضح** ، كما علم مما مرَّ . ومع ذلك . . **لا أقرب إلى الفهم من المحبَّة !!** فعدمُ وصفها بذلك ، أو تحديدها . . ! إما لعسره ، أو لكونها ضروريَّة ؛ كما قيل به في تعريف العلم ! **والاستقصاء** : الاستغراق والامعان **في المقال** ، وشرح الكلام على المحبَّة . . إنَّما هو **عند** حصول **الإشكال** : الاستعجام والاستبهام . **فإذا زال الاستعجام والاستبهام** . . **سقطت الحاجة إلى الاستغراق** ـ وفي نسخة : الإمعان ـ **في شرح الكلام** على ذلك .

طبقات المحبة : ومحبَّة العبد تختلف . . فـ ١-تارة تكون للحنوِّ والشفقة ؛ كمحبَّة الوالد لولده ، و٢-تارة تكون للنِّعم ؛ فيحبُّ مَن أنعم عليه ، و٣-تارة تكون للاتصاف بصفة جميلة ؛ كالعلم والكرم ، والشجاعة . . فيُحبُّ المتَّصفَ بها ؛ وإن لم يكن له عليه نعمة ! وإذا عرف جلال اللهِ وعظمتَه وعفوه عن الزلل أحبَّه ، وهذه **١ـ محبة العارفين** ، و٢ـ دونها **محبة العابدين والزاهدين** ؛ وهي المحبَّة للإنعام ، و٣ـ دونها **محبَّة عوام المؤمنين** ؛ وهي : اعتقادهم أنَّ جميع ما هم فيه من صحَّةِ أبدانهم وغيرها من الله تعالى .

اشتقاق أصل المحبَّة : وعباراتُ الناس المفصحة **عن** ـ وفي نسخة : **في** ـ **المحبَّة كثيرةٌ ، وقد تكلَّموا في أصلها في اللغة** . .

فبعضهم قال : **الحبُّ اسم لصفاء المودَّة** : المحبَّة . **لأنَّ العرب تقول لصفاء بياضِ الأسنان ونضارتها** : حسنها « **حُبَبُ الأسنان** » .

وقيل : **الحبُّ مأخذه الحُبَاب** ، وهو : **ما يعلو الماء عند المطر الشديد** .

تعريفها : فعلى هذا . . **المحبَّةُ غليانُ القلب وثورانه عند العطش والاهتياج إلى لقاء المحبوب** . والحِبَاب : المحابَّة والموادَّة .

اشتقاقها : وقيل : **إنَّه** ـ أي : الحبُّ ـ **مشتقٌّ** : **مأخوذ من حَباب الماء وهو معظمه** ؛ **فسمِّيَ بذلك** !! **لأنَّ المحبَّة غايةُ معظمِ ما في القلب من المهمَّات** .

وقيل : اشتقاقه ـ أي : أخذه ـ من الإحباب بمعنى اللزوم والثبات ؛ يقال (أحبَّ البعير) . . وهو أن يبرُكَ فلا يقومُ ، فكأنَّ المحبّ لا يبرح بقلبه عن ذكر محبوبه . وقيل : الحبُّ بمعنى المحبَّة ؛ مأخوذ من الحُبِّ بمعنى ما ذَكَره بقوله هو القُرْط وهو الحَلَق الذي يعلَّق في الأُذُن .

قال الشاعر في وصف شخص بالشجاعة :

تَبِيتُ ٱلحَيَّةُ ٱلنَّضْنَاضُ مِنْهُ   مَكَانَ ٱلحِبِّ تَسْتَمِعُ ٱلسِّرَارَا

النَّضْنضة تحريكُ الحيَّة لسانَها ، ويقال لها : نَضْناض ونَضْناضة . . قاله الجوهريُّ .

وسُمِّي القُرْط حُبًّا !! إمَّا للزومه الأُذُن ، أو لقلقه ، وكلا هذين المعنيين صحيحٌ في الحُبِّ .

وقيل : هو مأخوذ من الحَبّ ، والحَبُّ جمع حبَّة ، وحبَّةُ القلب ما به قِوامه ، فسمي الحُبُّ للشيء « حُبًّا » باسم محلِّه .

وقيل : الحُب والحَب كالعُمْر والعَمْر ؛ في جواز الضمِّ والفتح .

وقيل : هو مأخوذ من الحِبَّة ـ بكسر الحاء ـ وهي بُزورُ الصحراء ، فسمي الحُبُّ حبًّا ، لأنَّه لُباب الحياة ، كما أنَّ الحَبَّ ؛ الذي هو جمع حِبَّة . . لُباب النبات .

وقيل : الحُبُّ في الأصل هي الخَشَبات الأربع التي يوضع عليها الجَرَّة فسُمِّيت المحبَّة حُبًّا ، لأنَّه ـ أي : لأنَّ الحُبَّ ؛ كما هو كذلك في نسخة ـ يتحمَّل عن محبوبِهِ كُلَّ عزٍّ وذُلٍّ .

وقيل : هو ـ أي : الحُبُّ ـ بمعنى المحبَّة مأخوذٌ من الحُبِّ بمعنى الزِّير الذي فيه الماءُ[1] ، لأنَّه يُمسِك ما فيه ، فلا يسع فيه هو زائد غير ما امتلأ به ؛ كذلك إذا امتلأ القلبُ بالحُبِّ . . فلا مساغ فيه لغير محبوبه .

---

(١) ولذا يقال (لك عندي حُبٌّ وكرامة) مرادهم بالحُبِّ هذه الجرَّة الكبيرة (الخابية)، ومرادهم بالكرامة غطاؤها .

أقوالهم في الحب : وأما أقاويـل الشيوخ من الصوفية وغيرهم فيه ـ : في الحبِّ ؛ في تعريفه ـ . .

١ـ **الميـل بالقلـب** : فقـال بعضهـم : **المحبَّة الميلُ الدائم بالقلب الهائم الذي** لا قرارَ له .

٢ـ **الإيثار** : وقيل : **المحبَّة إيثار المحبوبِ على جميع المصحوب للمحبِّ** ، لأنَّ القلب إذا أحبَّ شيئاً . . اشتغل به ؛ وآثره على غيره ، حتَّى على نفسه ! ويتحمَّل في خدمته فوقَ طاقته .

٣ـ **الموافقة** : وقيل : **هي موافقه الحبيب في المشهد والمغيب** ؛ لكمال مراقبته واشتغاله به .

٤ـ **المحو والإثبات** : وقيل : **هي محوُ المحبِّ لصفاته ، وإثباتُ المحبوب بذاته** . أي : المحبوب لكمال اشتغاله بمحبوبة حتَّى ينسى صفاتِ نفسه ، بل قد ينسى نفسَه ، وللخبر الآتي : « حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ »[١] .

٥ـ **موافقة المرادات** : وقيل : **هي مواطأة : موافقة القلب لمرادات** ـ وفي نسخة : لموارد ـ الرَّبِّ لسرعة انقياد المحبِّ لمحبوه .

٦ـ **الخدمة بالحرمة** : وقيل : **هي خوفُ ترك الحرمة** ـ : حرمةِ المحبوب ـ **مع إقامة الخدمة له** ، لإجلال المحبِّ محبوبَه ، وكمال محبَّته له ،

فالأوَّل يوجب ترك الحرمة ، والثاني يوجب إتقان الخدمة .

البسطامي والمحبة : وقال أبو يزيد البَسْطاميُّ : **المحبَّة استقلال الكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك** . لكمال المحبَّة والمعرفة ،

لأنَّك وإن بالغت في خدمته . . رأيت ذلك يسيراً حقيراً فيما يليق بجلاله وعظمته ، وإن أنعم عليك بنعمة . . رأيتها كثيرة عظيمة لاستصغارك نفسَك عما أنعم به عليك .

---

(١) تقدم تخريجه ص ٥٠٠ وسيأتي ٨٩٧ ، ٩٠٨ .

التُّسْتَري والمحبة : وقال سهل : الحُبُّ معانقة الطاعة للمحبوب : لا تفارقه ، ومباينة المخالفة له .

الجنيد والمحبة : وسئل الجنيد عن المحبَّة ؛ فقال : هي دخولُ صفات المحبوب على البدل من صفات المحبِّ ؛ بأن يتخلّى عن الرذائل ثمَّ يتحلَّى ببدلها من الفضائل .

إيضاح : أشار الجنيد بهذا إلى استيلاء ذكر صفات المحبوب على قلب المحبِّ ودخولها فيه حتَّى لا يكون الغالب على قلب المحبِّ إلاّ ذكر صفات المحبوب ؛ والتغافل بالكلية عن صفات نفسه ، وعن الإحساس : الشعور بها .

من ثمرتها : وقال أبو عليٍّ الروذَباريُّ : المحبَّة الموافقةُ للمحبوب في أمره ونهيه ؛ كما عُلِم .

من حقيقتها : وقال أبو عبد الله القرشي : حقيقة المحبَّة أن تهب كلَّك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شيء . لكمال محبَّتك له وشُغْلك به .

تسميتها : وقال الشبليُّ : سمِّيت المحبَّة « محبَّة » !! لأنَّها تمحو من القلب ما سوىٰ المحبوب .

غرضها : وقال ابن عطاء : المحبَّة إقامةُ العِتاب على الدوام . العِتاب كلامٌ من المحبِّ لمحبوبه ؛ يؤلف به ما خُشِيَتْ فرقته ، ويجبر به ما لاحت قطيعته .

من حقيقتها : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : المحبَّة في أوَّل أمرها لَذَّة . ومواضعُ الحقيقة : ما غلب على قلب العبد من شغله بالله بحيث تكاملت محبَّتُه فيه ، وامتلأ قلبُه بعجائب ما يرى من كماله وجلاله وقدرته . . دهشٌ . وهذا حقيقة المحبَّة .

العشق والمحبة : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : العشق مجاوزةُ الحدِّ في المحبَّة ؛ بأن يستغرق المحبُّ في محبوبه حتَّى لا يُحسَّ بنفسه ، فمجاوزته لإحساسه بنفسه هي مجاوزته الحدَّ .

ولكن الحقَّ سبحانه لا يوصف بأنَّه يجاوز الحدَّ لتنزُّهه عن ذلك . . فلا يوصف بالعشق ؛ وإن وُصف بالمحبَّة !! لعدم الإذن فيه ، ولأنَّه إنَّما يكون

لغائب ، والله لا يغيب عنه شيءٌ ، لأنَّه عالِمٌ بكلِّ شيء ، ولا يؤثر في ذلك كونُ الوصف كمالاً عادة !! فإنَّا نصفُه تعالى بأنَّه (حكيم) و(كريم) و(عالم) ، لأنَّه وَصَف نفسه بها ، ولا نصفُه بأنَّه (مهندس) و(سخيٌّ) و(فقيهٌ) أو (نحوي) أو (أصولي) . .

تعميم : **ولو جُمِع محابُّ الخلق كلِّهم لشخص واحد . . لم يبلغ ذلك استحقاقُ قَدْر الحقِّ سبحانه وتعالى عن ذلك الشخص ، فلا يقال (إنَّ عبداً جاوز الحدَّ في محبَّة الله تعالى) بل ؛ ولا بلغه . . فلا يوصف الحقُّ سبحانه وتعالى بأنَّه يعشق عبده ، ولا يوصف العبد في صفته سبحانهُ بأنَّه يعشقـه** ، لعدم الإذن كما مَرَّ . فنفى العشق عن أن يوصف به الحقُّ ، وأن يوصَف به العبد فيما ذُكِر !

وقد أوضحه بقوله : **ولا سبيل له** ـ أي : للعشق ـ **إلى وصف الحقِّ سبحانه به ، لا من الحقِّ للعبد ، ولا من العبد للحقِّ سبحانه** .

فلا يقال (الحقُّ عَشِق عبدَه) و(العبد عشق الحقَّ) . ولا يخفى ما في كلامه من التكرار !

غيرة المحبِّ : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت الشبليَّ ؛ يقول : **المحبَّة أن تغار أنت على المحبوب** لكماله وجماله وتُنَزِّهَه أن يحبَّه **مثلك** ؛ لنقصك وعدم صلاحيَّتِها لكَ عند نفسك ، فليس مرادُه أن تغارَ عليه أن يُحبَّه أحدٌ من المؤمنين مثلَك لتختصَّ به دونَهم !! فإنَّ ذلك نقصٌ وحَسد .

ثمرة المحبة : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا الحسين الفارسيَّ ؛ يقول : سمعت ابن عطاء ؛ يقول . . وقد سئل عن المحبة ؛ فقال زائد : **أغصانٌ تُغرسُ في القلب فتثمرُ على قدر العقول** . فهي مواهبُ يهبُها الله لعبده ؛ من معرفة كماله وجلاله وغيرهما ، فإنْ رَزَقه الأدب في حفظها ؛ واستعمل عقله في جهاتِ حفظ أدبه معه في جميع تعلُّقاته . . ظهرت ثَمرةُ تلك المحبَّة عليه ، وانتفع بها هو ومَن رآه وسمع كلامه .

نوعا المحبة : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت النصرآباذي ؛ يقول : **المحبَّة نوعان** :

١ـ محبَّة توجِب حقن الدماء ، و٢ـ محبَّة توجِب سفك الدماء .

فيه دليل على أنَّ المحبَّة من العبد إيثارُ المحبوب ، ولها أقلُّ وأكملُ .

أقلُّهما : فأقلُّها محبَّة النعم وتواليها عليه من المنعم ، فإذا شكر عليها . . تزايدت عليه ، وحُفظت عليه نفسه ونعمه .

أكملُهما : وأكملُها استغراقُه في ذكر ربِّه ومناجاته ، وتلذُّذه بذلك بحيث غلب على قلبه ذلك ، وبذل نفسه في الجهاد ؛ حتَّى أوجب أن يراه تعالى ، فالمحبَّة الأُولىٰ أوجبت حقن الدماء للشكر على النعم ، والثانية أوجبت سفكَ الدماء لرؤية المنعم .

مقام المحبّ : **وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت محمد بن علي العلوي ؛ يقول : سمعت جعفر ؛ يقول : سمعت سُمنوناً ؛ يقول : ذهب المحبُّون لله تعالى بشرف الدنيا والآخرة ، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « اَلْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »[1] فهم مع الله تعالى ،** كما أنَّ الله معهم ، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[2] .

والتقوى : اسمٌ جامع للطاعات ، والإحسان : « أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ . . فَإِنَّهُ يَرَاكَ » كما مرَّ .

حقيقة المحبة : **وقال يحيىٰ بن معاذ : حقيقةُ المحبَّة الكاملة ما : حال لا ينقص بالجفاء ، ولا يزيدُ بالبرِّ** . لأنَّ هذه المحبَّة محبَّة للذات لما هي عليه من صفات الكمال ، والجلال التي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر ، لاستحالة تغيُّر متعلَّقها ، بخلاف المحبَّة للنعم ؛ فإنَّها تزول بزوالها .

محبة الكاذب : **وقال أيضاً : ليس بصادق مَن ادَّعىٰ محبَّته تعالى . . ولم يحفظ حدوده التي طلبها منه ونهاه عنها .**

ثمرتها : **وقال الجنيد : إذا صحَّت المحبَّة . . سقطت شروط الأدب** . أي تكلُّفُ المحِّب للمحبوب ؛ كما مرَّ . وفي معناه أنشد الأستاذ أبو عليٍّ رحمه الله :

إِذَا صَفَـتِ ٱلْمَـوَدَّةُ بَيْـنَ قَـوْمٍ وَدَامَ وِدَادُهُـمْ سَمُـجَ ٱلثَّنَـاءُ

---

(١) سيأتي تخريجه ص٩٠٨ .

(٢) الآية : ١٢٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .

أي قَبحُ ، لأنَّ ما بينهم من المودَّة أعظمُ من الثناء بالألسن .

خطاب الشفيق : وكان يقول رحمه الله : **لا ترى أباً شفيقاً يبجِّل ابنه في الخطاب والنَّاسُ يتكلَّفون في مخاطبته بما فيه تبجيلٌ وتعظيم ، والأب يقول في ذلك له : (يا فلان) باسمه ، فلا يتكلَّف لما ذُكر .**

وقال الكتاني : **المحبَّةُ الإيثار للمحبوب على غيره لكماله وجلاله وجماله ، فحَقُّ مَن أحبَّه أن يتفرَّغ له بكلِّيَّته .**

الحجَّة على المحبِّين : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا سعيد الأرّجاني ؛ يقول : سمعت بندار بن الحسين ؛ يقول : **رؤي مجنونُ بني عامر في المنام بعد موته ؛ وكان قد استغرق في حبِّ امرأة وساح في البراري ؛ فقيل له : ما فعل الله تعالى بك ؟ فقال : غفر لي ما كان من الزَّلل ، وجعلني حُجَّة على المحبيِّن الذي يدَّعون محبَّته تعالى .**

توضيح : فيه دليلٌ على كماله تعالى وتنزُّهه ، وإنَّ مَن أحبَّه حقُّه أن يُفرِغ كلِّيَّته في طلبه ، وإن مجنون بني عامر كانت محبَّته لمن له أشباه ، مع أنَّه استغرق في حبِّه هذا الاستغراق العظيم وساح في البراري ، ولما رآه هذا الرائي في النوم ؛ وهو من المحبِّين للهِ سأله عن حاله ؛ فأجابه بما ذُكر ، وإنَّما جَعَله حُجَّة على مَن ذُكر !! لأنَّه بذل نفسه في محبَّة مخلوقٍ . . له أشباهٌ ، فكيف بمن ادَّعى محبَّة مَن لا مثل له ولا شبيه !! فحقُّه أن تزيد محبَّتُه له على محبَّة مجنون بني عامر الزيادةَ الغالبة ، فهذه الرؤيا في حقِّ الرائي . . إن كانت كَمُلت محبَّتُه لله ، وفي حقِّ كلِّ مَن سمعها . . إن كان كذلك .

حقيقة المحبَّة : وقال أبو يعقوب السوسي : **حقيقةُ المحبَّة أن ينسى العبدُ حظَّه من الله عزَّ وجلَّ ، وينسىٰ حوائجه إليه !** بأن تشغله محبَّتُه للذَّات والكمال والجلال والأُنس به تعالى عن ذكر الإنعام والإحسان إليه ، فحبُّه للهِ يتعلَّق تارةً . . ١ـ بأفعاله من نعمه وإحسانه ، وتارة ٢ـ بكماله وجلاله وجماله ، والثانية أكملُ من الأُولى ؛ كما عُرف .

حقيقتها والحلاج : وقال الحسين بن منصور : **حقيقةُ المحبَّة قيامُك مع محبوبك**

بخلـع أوصافك[1] ؛ بأن تنسىٰ نفسك شغلاً بربِّك ، وبأُنسك به فيرجع إلى ما مرَّ .

الأدب الكامل : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : قيل للنصراباذي : **ليس لك من المحبَّة له شيءٌ ؟! فقال : صدقوا ، ولكن لي حَسَراتهم ، فهو ذا احترق فيه : في الله .**

وهـذا كمـالٌ فـي الأدب ، وسترٌ لحالـه عمـن حجـب فـورَّىٰ بقـولـه (صدقوا) . أي : في أنَّ محبَّته ليست هي قلقاً ؛ ولا طيشاً . . وإنَّما هي حسراتُ المحبِّين الكاملين الذين أفرغوا جهدَهم في المحبَّة . . وما بلغوا مطلوبهم ، لأنَّ معرفتَهم لكماله وجلاله وجماله لم يقوموا بها حقَّ القيام .

مجانبة السلوّ : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : قال النصراباذي : **المحبَّة مجانبةُ السلوِّ عن المحبوب على كلِّ حال** ؛ بأن يستغرق العبدُ في صفات محبوبه من الكمال والجلال والجمال . . بحيث يتعذَّر عليه سلوُّه عنه واشتغاله بغيره . ثم أنشد[2] في معنى ذلك :

---

(١) لعلَّه يشير للخروج عن حسِّ العقل عند من أراد إدراك الحقائق الإلهية ، لأنَّ العقل كالرقيب يمنع المواصلة ، وينغِّص عيش الأحبَّة بالمراقبة ، وذلك لأنه معقول عن دَرْك الحقائق المطلقة غافل عن إدراكها ، قال تعالىٰ ﴿ إنِ في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلب ﴾ ولم يقل (عقل) !! لأنَّ القلب يتقلَّب مع الحقِّ في شؤون مظاهره . . إن تجلَّىٰ بالأسماء ؛ أو الصفات ؛ أو غيرها . والمراد بالعقل المعاشي أو المعادي ؛ لا عقل المعاني .
ثم اعلم أن العقول ثلاثة : ١ـ **معاشيٌّ** ؛ وهو ما اشترك فيه الإنسان والبهائم والأنعام ؛ وهو **للشريعة** ، وبه مقام علماء الرسوم وفقهاء الظاهر .
و٢ـ **معاديٌّ** ؛ وهو ما اختصَّ به الإنس والجن ؛ وهو **للطريقة** ، وبه مقام علماء القلوب ، وفقهاء الباطن .
و٣ـ **معانيٌّ** ؛ وهو ما امتاز به الإنسان وشارك الملائكة ؛ وهو **للحقيقة** ، وبه مقام الراسخين في العلم المخزون والسرِّ المكنون . فكلٌّ في مقام يتفاوتون بالإنعام
(عروسي : ٤/ ٩٤ ـ ٩٥ بتصرف) .

(٢) وَمَنْ كَانَ فِي طُولِ ٱلْهَوَىٰ ذَاقَ سُلْوَةً فَـإِنِّـي مِـنْ لَيْلـىٰ لَهَـا غَيْـرُ ذائِـقِ
وَأَكْثَـرُ شَـيْءٍ نِلْتُـهُ مِـنْ وِصَـالِهَـا أَمَـانِـيُّ لَـمْ تَصْـدُقْ كَلَمْحَـةِ بَـارِقِ

وَمَنْ كَانَ فِي طُولِ ٱلْهَوَىٰ : الحبِّ الليليِّ ذَاقَ سُلْوَةً

فَإِنِّيَ مِنْ لَيْلَىٰ لَهَا - أي للسُّلْوة - غَيْرُ ذَائِقِ

وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نِلْتُهُ وأدركته مِنْ وِصَالِهَا أَمَـانِـيُّ لَـمْ تَصْـدُقْ كَلَمْحَـةِ بَـارِقِ

أي : لم يدرك مِن كمالها وجلالها ، والأُنس بها إلاَّ شيئاً يسيراً ، فلو كَمُل حاله في الشغل بها لاستحالت السُّلْوَة . وأما المحبَّة للنعم ! فقد تزول بزوالها ؛ كما مرَّ فيسلو فيها المحبُّ عن محبوبه .

تفردُّ المحبة : **وقال محمد بن الفضل** : **المحبَّة سقوطُ كلِّ محبَّة من القلب ، إلاَّ محبَّة الحبيب** . لشغل المحبِّ به عن نفسه ؛ فضلاً عن محبَّة حبيبٍ آخر .

المحبـة الكاملـة : **وقال الجنيد** : **المحبَّةُ إفراطُ الميل بالقلب بلا نيل** . أي : إصابته للنعم .

أشار بذلك إلى بيان المحبَّة الكاملة ، والمراد الميل المعنويُّ ؛ وهوتعلُّق القلب برؤية محبوبه ، أمَّا الميل الذي نفاه العلماء بقولهم (الحقُّ تعالى لا يميل ؛ ولا يمال إليه) !! فهو الميل الحسيُّ ، لأنَّه تعالى ليس بجسم .. ولا في جهة ؛ حتَّى يُمال إليه .

مضمونها : **ويقال** : **المحبَّة تشويش في القلوب يقع من المحبوب** .

لأنَّه تعالى إذا مَنَّ على عبده بمحبَّته .. تشوَّشت عليه أسبابُه وأحواله المعتادة ، وتعلَّقت آماله بالوصول إلى محبوبه ، وتمنَّىٰ رؤيتَه .

فتنة المحبة : **ويقال** : **المحبَّة فتنةٌ** ابتلاءٌ واختبار **تقع في الفؤاد** : القلب من المراد المحبوب المطلوب . **وأنشد ابنُ عطاء**[1] في معناه :

غَرَسْتُ يا ربِّ لِأَهْلِ ٱلْحُبِّ غُصْناً - وفي نسخة : غرساً - مِنْ ٱلْهَوَىٰ الحبِّ :

وَلَمْ يَكُ يَدْرِي مَا ٱلْهَوَىٰ أَحَدٌ قَبْلِي

---

(١) غَرَسْتُ لأَهْلِ ٱلْحُبِّ غُصْناً مِنَ ٱلْهَوَىٰ وَلَـمْ يَـكُ يَـدْرِي مَـا ٱلْهَـوىٰ أَحَـدٌ قَبْلِـي
فَـأَوْرَقَ أَغْصَـانـاً وَأَيْنَـعَ صَبْـوَةً وَأَعْقَـبُ لِـيْ مُـرّاً مِـنَ ٱلثَّمْـرِ ٱلْمَحْلِـي
وَكُـلُّ جَمِيْـعُ ٱلْعَـاشِقِيْـنَ هَـوَاهُـمُ إِذَا نَسَبُـوهُ كَـانَ مِـنْ ذٰلِـكَ ٱلأَصْـلِ

فَأَوْرَقَ ذلك الغصن**أغْصَاناً وَأَيْنَعَ** : أظهر**صَبْوُهُ مَيْلاً** إلى محبوبه ،

وَأَعْقَبَ لِي بسبب الهموم وتغيُّر الأحوال**مُرّاً مِنَ ٱلتَّمْرِ ٱلْمَحْلِي** : اليابس .

تحصيل : **وحاصل ذلك** أنَّ الأصل الذي خلقه الله له . . لمَّا تمكَّن في قلبه تغيَّرت أحواله ، فظهر عليه أمارات الغَلَبة والصَّبْوة إلى محبوبه ، ثمَّ تغيَّرت أحواله من صعوبة الحال ومرارته عليه إلى أن صار يتلذَّذ به ويتنعَّم ، وهو قوله (وأعقب . . إلى آخره) فلما تمكَّن حالُه في المحبَّة وطلبِ الوصال . . توالت على قلبِه الهمومُ والأحزان .

وَكُلُّ جَمِيْعِ ٱلعَاشِقِيْنَ هَوَاهُمُ : حبَّهم الصحيح **إِذَا نَسَبُوهُ** . . **كَانَ مِنْ ذَلِكَ ٱلأَصْلِ** : الغرس الذي غرسه في قلوبهم ، وإلاَّ كانت أحوالهم دعاوىٰ لا أصل لها .

لازم الحبُّ : وقيل : **الحبُّ أوَّله خَتْل** : مخادعة ـ يعني معاملة الله عبده بالرفق وتوالي نعمه عليه ، **وآخرُه قتل** : ألم وسقم ، لأنَّ العبد إذا أَحبَّ الله ودامت معاملته له . . اطَّلع من صفاته تعالى على ما يحثُّه على طلبه له ، ويشغله به عن غيره ، فإذا وجد اللذَّة في كمال شغله ثمَّ حُجِب عنها . . تألَّم وسقم . وفي نسخة . . بعد الأبيات المذكورة :

جَرَيْتُ مَعَ ٱلعُشَّاقِ فِي حَلْبَةِ ٱلهَوَىٰ ... فَفُقْتُهُـمُ سَبْقـاً وَجِئْـتُ عَلَـىٰ رِسْلِـي

أثر المحبَّة : **سمعت الأستاذ أبا عليٍّ رحمه الله ؛ يقول في معنى قوله** ﷺ « **حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يعْمِي وَيُصِمُّ** »[١] ؛ **فقال** : هو زائد **يعمي عن الغير** ؛ أي : غيرِ الشيء المحبوب غيرةً للمحبوب أن يُرىٰ أنَّه ناقص لا يصلح لمحبَّة محبوبه . ويصمُّ عن المحبوب هيبةً له . وقد قُرىء بين يدي السَّري ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾[٢] . . فقال لأصحابه : أتدرون

---

(١) تقدم ص ٥٠٠، ويأتي ص ٩٠٨ .

(٢) الآية : ٤٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

ما هذا الحجاب !؟ هذا حجاب الغيرة .

مجالي الغيرة : فالحقُّ سبحانه يغار على كلامه العزيز أن يسمعَه مَن ليس له أهلاً ، فالعبدُ يغار لربِّه لهيبته وجلاله ، ويغار على نفسه لغفلته واشتغاله بالأغيار بعد معرفته بالواحد القهَّار ، فلا يقال (غار على ربِّه) بل : غار لربِّه . ثمَّ أنشد[١] أبو عليٍّ :

إِذَا مَا بَدَا لِي تَعَاظَمْتُهُ .

فَأَصْدُرُ : أرجع عنه **فِي حَالِ مَنْ لَمْ يَرِدْ** . . مضارعُ (وَرَد الماءَ) .

تدرُّج المحبَّة : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أحمد بن علي ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن فاتك ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : سمعت الحارث المحاسبيَّ يقول : **المحبَّة ١ـ ميلُك إلى الشيء بكلِّيَتك ، ثمَّ ٢ـ إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثمَّ ٣ـ موافقتُك له سِرَّاً وجهراً** على ما أمرك به ونهاك عنه ، **ثمَّ ٤ـ علمُك بتقصيرك في حُبِّه** .

صحَّة المحبة : **وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أحمد بن عليٍّ ؛ يقول : سمعت عبَّاس بن عصام** ـ وفي نسخة : عاصم ـ **يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : سمعت السَّرِيَّ ؛ يقول :** **لا تصلح** ـ وفي نسخة : تصحُّ ـ **المحبَّة بين اثنين حتَّى يقولَ الواحدُ للآخر (يا أنا)** فينزِّلُه منزلتَه ، فكأنَّه قال (أنت أنا) .

لأنَّ المحبَّة بين المتحابَّيْن توجِب إيثار كلٍّ منهما للآخر على نفسه ، فيلزمُ منه رؤيةُ كلٍّ منهما الفضلَ للآخر على نفسه ، ولهذا قال ﷺ : « لَا يَبْلُغُ ٱلْمُؤْمِنُ حَقِيْقَةَ ٱلإِيْمَانِ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ ، وَمَالِهِ ، وَأَهْلِهِ »[٢] .

المحبُّ والعارف : **وقال الشبليُّ** : **المحبُّ إذا سكت** : عن ذكر محبوبه **هَلَك غمَّاً** ، لأنَّ راحته إنَّما هي في ذكره ، فلولا توالي ذِكره على قلبه ولسانه . . هلك غمَّاً ، **والعارفُ إن** ـ وفي نسخة : إذا ـ **لم يسكتْ** . . **هلك غمَّاً** ، لأنَّه لا يقدر على النطق بكلِّ ما يخلُقُه الله في قلبه ، وربَّما نطق بما لا يُفهَم ، فكان فيه ضرورة .

---

(١) إِذَا مَـا بَـدَا لِـي تَعَـاظَمْتُـهُ فَـأَصْـدُرُ فِـي حَـالِ مَـنْ لَـمْ يَـرِدْ

(٢) تقدم تخريجه ص ٥٦٥ .

من معانيها : وقيل : المحبَّة نارٌ في القلب تحرِق ما سوى مرادِ المحبوب . لِشدَّة تأثيرها في القلب .

وقيل : المحبَّة بذل المجهود في طاعة الحبيب ، والحبيبُ يفعل في مُحِبِّه ما يشاء

وقال النُّوري : المحبَّة هتك الأستار وكشفُ الأسرار . لأنَّ مَن كَمُلت محبَّتُه . . قلَّ صبره عن محبوبه ؛ فظهرت محبَّته على لسانه وبدنه ؛ وصار مغلوباً ، فظهر سرُّه للخلق ، وبدا لهم ما كان مستوراً عنهم .

صحة المحبة : وقال أبو يعقوب السُّوسيُّ : لا تصحُّ المحبَّة إلاَّ بالخروج عن رؤية المحبَّة إلى رؤية المحبوب . . بفناء علم المحبَّة . لأنَّ محبَّة العبد تكون أوَّلاً للنعم ، ثمَّ تكون للكمال والجلال ، ثمَّ يشتغل به تعالى حتَّى يُستَغْرَقَ فيه وينسى المحبّة ، فكلامه رضي الله عنه في كمالِ درجات المحبَّة ؛ وهو الشغل عنها بالمحبوب .

رقعة السريِّ : وقال جعفر : قال الجنيد : دفع السريُّ إليَّ رُقعة ؛ وقال : هذه لك خيرٌ من سبع مئة قصة ؛ أو حديث يعلو ؛ أي : حديث من أحاديث الصالحين وحكايات كراماتهم العالية الرفيعة . . التي تتحرَّك لسماعها القلوبُ ؛ فتنشط بها للعمل ! قال الجنيد : وفائدةُ حكاياتها تقويةُ قلوب المريدين بها . قال : ودليلُ ذلك من الكتاب قوله تعالى ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[1] . فإذا فيها[2] ؛ أي : الرّقعة[3] .

وَلَمَّا ٱدَّعَيْتُ ٱلحُبَّ لليلىٰ قَالَتْ كَذَبْتَنِي ... فَمَالِي أَرَىٰ ٱلأَعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَا

: مكسوَّاتٍ باللحم ، لأنَّ كمال المحبَّة يُمسك عن الطعام والمنام حتَّى يُظهِر على المحبِّ النحولَ والسقام ؛ كما بيَّنه بقوله :

---

(١) الآية : ١٢٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : هود عليه الصلاة والسلام .

(٢) وَلَمَّا ٱدَّعَيْتُ ٱلحُبَّ قَالَتْ كَذَبْتَنِي ... فَمَا لِي أَرَىٰ ٱلأَعْضَاءَ مِنْكَ كَواسِيَا
فَمَا ٱلحُبُّ حَتَّىٰ يَلْصَقَ ٱلقَلْبُ بِٱلحَشَا ... وَتَذْبُلَ حَتَّىٰ لاَ تُجِيبَ ٱلمُنَادِيَا
وَتَنْحُلُ حَتَّىٰ لاَ يُبَقِّي لَكَ ٱلهَوَىٰ ... سِوَىٰ مُقْلَةٍ تَبْكِي بِهَا وَتُنَاجِيَا

(٣) سيأتي ص ٩٢٣ ما يشبه هذه القصَّة بأبيات مغايرة !! .

فَمَا ٱلْحُبُّ موجوداً حَتَّىٰ يَلْصَقَ ٱلْقَلْبُ بِٱلْحَشَا

وَتَذْبُلَ أنت حَتَّىٰ لاَ تُجِيْبُ ٱلْمُنَادِيَا لك

وَتَنْحُلُ : تهزل حَتَّىٰ لاَ يُبَقِّي لَكَ ٱلْهَوَىٰ ـ : الحب ـ

سِوَى مُقْلَةٍ تَبْكِي بِهَا وَتُنَاجِيا بها محبوبك .

وإنَّما كانت هذه الأبيات خيراً له ممَّا ذُكر !! لخصوصيتها بقلبه .

قناديل الحبّ : قال ابن مسروق : رأيتُ سُمنونا يتكلَّم في المحبَّة . . فتكسَّرت قناديلُ المسجد كلُّها ! إما لاستماعها خرقاً للعادة ؛ كحنين الجذع للنَّبيِّ ﷺ[1] وتسبيحِ الحصى في كفِّه[2] ، وإمَّا لتحرُّكها بتحريك جماعة منا ؛ أو من الجنِّ .

الطائر المحبُّ : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ سمعت أحمد بن علي ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن فاتك ؛ يقول : **سمعت سُمنونا ، وهو جالس في المسجد يتكلَّم في المحبَّة . . إذ جاء طير صغير فقَرُب منه ، ثمَّ قَرُب منه . . فلم يزل يدنو منه حتَّى جلس على يده** ـ وفي نسخة : بين يديه ـ **ثمَّ ضرب بمنقاره الأرض حتَّى سال منه الدم ، ثمَّ مات .**

تعقيب : فيه دلالة على أنَّ الحيوان يستمع ويفهم ، وإنَّما يمتنع عليه الكلامُ . . إلاَّ مع مَن فَهَّمه الله كلامَه ؛ كإجابة الهدهد لسليمان عليه السلام بسبب تأخُّره عنه ؛ بقوله ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[3] ، وكقول النملة لأصحابها ﴿ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾[4] . (انظر ص ٢٤٣ ، ١٠٣٤)

المحبَّة الغرضية : وقال الجنيد : كلُّ محبَّة كانت لِغَرَضٍ كنعمة ، فـإذا زال ذلك

---

(١) تواتر ذلك عن سيدنا رسول الله ﷺ . قاله عياض في « الشفا » ، والسيوطي في « الأزهار المتناثرة » . وغيرهما كجعفر الكتاني في « نظم المتناثر » : ص١٣٤ .

(٢) وكذا في كف أصحابه الثلاثة الخلفاء رضي الله عنهم ، ومثله تسبيح الطعام وهو يؤكل ؛ كما أخرجه البخاري : ٣٥٧٩ ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) الآية : ٢٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النمل .

(٤) الآية : ١٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النمل .

الغرض . . زالت تلك المحبَّة . بخلاف محبَّة صفاتِ الله كالكمال والجلال ، لأنَّ صفاتِه تعالى قديمةٌ لا تزول ، فالمحبَّة لها كذلك .

امتحان محبِّين : وقيل : حُبس أبو بكر الشبليُّ في المارستان ليتداوىٰ فيه مما حصل له من شِبْهِ الجنون بسبب غَلَبة المحبَّة عليه ؛ وهو مع ذلك ناظرٌ إلى الله ، ولما أجراه عليه وابتلاه به . فدخل عليه جماعة من إخوانه ؛ فقال لهم : مَن أنتم ؟ فقالوا : محبُّوك ؛ يا أبا بكر . فأخذ يبتليهم كما ٱبْتلي ؛ ليعرف صدقَهم في دعواهم محبَّتهِ . فأقبل يرميهم بالحجارة ؛ ففرُّوا ! فقال : إن ادَّعيتم محبَّتي فاصبروا على بلائي[1] . وأنشد الشبليُّ يناجي ربَّه ؛ فقال :

يَـا أَيُّهَـا ٱلسَّيِّـدُ ٱلكَـرِيـمُ ... حُبُّـكَ بَيْـنَ ٱلحَشَـا مُقِيـمُ
يَا رَافِعَ النَّوْمِ عَنْ جُفُونِي ... أَنْـتَ بِمَـا مَـرَّ بِـي عَلِيْـمُ

شاربو الحب : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت النهرجوريَّ ؛ يقول : سمعت عليَّ بن عبيد ؛ يقول : كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد : سكرتُ من كثرةِ ما شربت من كأس محبَّته ! فكتب إليه أبو يزيد لَمَّا فهم أنَّه ذاق منها مرَّة واحدة . . فلم يطق حملَها فسَكِر غيرُك شرب بحور السماوات والأرض من المحبَّةِ ، وما رَويَ بعدُ ! بل هو فاغرٌ فاه ، ولسانه خارج عنه . . وهو يقول (هل من مزيد ؟) .

وذلك لكمال قوَّته ووجود العون من ربِّه في حاله ، فلذلك يحفظ نفسه ، ولا يظهر شيئاً من محبَّته على ظاهره . وأنشدوا[2] في معناه :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ (ذَكَرْتُ إِلْفِي) ـ وفي نسخة : ربي ـ: لأنَّ الذكر إنَّما يكون بعد النسيان والغَفْلَة ، أمَّا دائمُ الذكر ! فلا يقول (ذكرت) ، لأنَّ الحاصل لا يُطلبَ تحصيلُه .
وهَلْ أَنْسَىٰ فَأَذْكُرُ مَا نَسِيْتُ .

---

(١) تقدمت هذه القصة ص٥٧٦ .

(٢)
عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ (ذَكَرْتُ إِلْفِي) ... وَهَـلْ أَنْسَـىٰ فَـأَذْكُـرُ مـا نَسِيْـتُ
أَمُـوتُ إِذَا ذَكَـرْتُـكَ ثُـمَّ أَحْيَـا ... وَلَـوْلا حُسْـنُ ظَنِّـي مَـا نَسِيْـتُ
فَـأَحْيَـا بِـٱلمُنَـىٰ وَأَمُـوتُ شَـوْقـاً ... فَكَـمْ أَحْيَـا عَلَيْـكَ وَكَـمْ أَمُـوتُ
شَرِبْتُ ٱلحُبَّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ ... فَمَـا نَفِـدَ ٱلشَّـرَابُ وَلاَ رَوِيْـتُ

أَمُوتُ إِذا ذَكَرْتُكَ ثُمَّ أَحْيَا وَلَوْلاَ حُسْنُ ظَنِّي مَا حَيِيتُ
فَأَحْيَا بِالْمُنَىٰ وَأَمُوتُ شَوقاً فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتُ
شَرِبْتُ ٱلْحُبَّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ فَمَا نَفِدَ ٱلشَّرابُ وَمَا رَوِيْتُ

لما مرَّ .

القلب المؤهَّل : وقيل : أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى عيسى عليه السلام : ﴿ إنِّي إذا اطَّلعتُ على قلب عبد ؛ فلم أجد فيه حُبَّ الدنيا والآخرة . . ملأتُه من حُبِّي ﴾ : محبَّتي ، لإعراضه عن المشغلات والشهوات .

ورأيتُ بخطِّ الأستاذ أبي عليٍّ الدقَّاق رحمه الله : في بعض الكتب المنزَّلة : ﴿ يَا عَبْدِي ؛ أَنَا مبتدأٌ وَحَقِّكَ ـ قَسَمٌ أَقْسمَ به لشدَّة حرمته عليه ، فإنَّ حرمة المؤمن عند الله عظيمةٌ ـ لَكَ مُحِبٌّ فَبِحَقِّي عليك كُنْ لِيْ مُحِبّاً ﴾ لتكمل سعادتُك ، وقد قال تعالى ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ ﴾ فما أحبُّوه حتَّى أحبَّهم ، إذ لو لم يحبَّهم لَمَا خلق لهم محبَّته .

المحبة والخشية : وقال عبد الله بن المبارك : مَن أُعطي شيئاً من المحبَّة . . ولم يُعطَ مثلَه من الخشية : الخوف . . فهو مخدوع . لأنَّ كلَّ نعمة لم يصحبها خوفُ زوالِها . . فصاحبها معجَب بها ؛ فهو مخدوع بها .

وقيل : المحبَّة ما يمحو أثَرك[1] . لأنَّ شدَّة الحبِّ تورث السُّقم .

وقيل : المحبَّةُ سكرٌ لا يصحو صاحبُه ـ وفي نسخة : صاحبها ـ إلاَّ بمشاهدة محبوبه .

ثم السُّكْر الذي يحصُل عند الشهود لا يوصف لعظمِهِ ، فشغلك بالله عند غيرك من المخلوقين ؛ وأنت مدرِك لسلوكك سكرة ، وشغلك به عن غيره حتَّى عن نفسك سَكرةٌ أخرى أعظمُ من تلك ، وهي **محبَّة العارفين** ، وتلك محبَّة العابدين والزَّاهدين . وأنشدوا في معناه :

فَأَسْكَرَ ٱلْقَوْمَ دَوْرُ كَأسٍ وَكَانَ سُكْرِي مِنَ ٱلْمُدِيْرِ

---

(١) أثر جسمانيتك وطبيعتك كالعادات والمألوفات . (عروسي : ٤/ ١٠٠) .

صاحب السكرتين : وكان الأُستاذ أبو عليٍّ ينشِدُ كثيراً[1] :

لِيْ سَكْرَتَانِ مرَّ بيانُهما آنفاً . وَلِلنُّدْمَانِ : السَّكَارىٰ الداخل أنا فيهم منهما وَاحِدَةٌ تشترك فيها ؛ وهي السكرة الأولىٰ ؛ وما ذكرتُه من أنَّ لي سكرتين . .

شَيْءٌ خُصِصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِم وَحْدِي . وهذا بحسب ما قام عنده .

وقال ابن عطاء : المحبَّة إقامةُ العِتاب : الاعتذار للهِ تعالىٰ من التقصير ؛ مع كمالِ الجِّد والتشمير . . على الدوام .

إيذاء المحبِّ : وكان للأستاذ أبي عليٍّ رحمه الله جاريةٌ تسمَّى « فيروز » ، وكان يُحبُّها ، إذ كانت قد خدمته كثيراً ، فسمعته يقول : كانت فيروز تؤذيني يوماً وتستطيلُ عليَّ فيه بلسانها . فقال لها أبو الحسن القاري : لم تؤذين هذا الشيخ ؟! فقالت : لأنِّي أحبُّه .

فيه دلالة على أن المحبَّ يتحمَّل من محبوبه كلَّ ما يَرِدُ عليه منه ، وإن كان في بعضه أذيَّته ، لكونه يدلُّ عليه فينكر عليه ما لا يصلُح أن يقعَ منه .

قيمة الحب : وقال يحيى بن معاذ : مثقالُ خردلةٍ من الحبِّ أحبُّ إليَّ من عبادةِ سبعين سنةٍ بلا حُبٍّ[2] . لأنَّ كلَّ عبادة تجري من المحبّ تكون على أحسن وجوهِها عند محبوبه ، بخلاف من تعبَّد محمولًا بالخوف والرجاء ، فتارة يَغِلبُ ؛ وتارة يُغلب .

ميت العشق : وقيل : إنَّ شاباً أشرف على الناس في يوم عيد ، وقال :

منْ مات عشقاً : حبَّاً فليمت هكذا إذ لا خير في عشق بلا موت .

وألقى نفسه من سطح عال ؛ فوقع ميتاً . لأنَّ من قويت محبَّتُه من

---

(١) لِيْ سَكْرَتَانِ وَلِلنُّدْمَانِ وَاحِدَةٌ شَيْءٌ خُصِصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي
والسكرتان : محبة العارفين ؛ ومحبة العابدين والزاهدين . والندمان جمع نديم ؛ وهو من ينادمك ويشاكلك ويوافقك علىٰ ما تريد وتهوىٰ (عروسي : ٤/ ١٠١) . وانظر ص٩٦٠ .

(٢) المقصود حبُّ الذات العليِّ ؛ باعتبار حقِّه من الجلال والجمال والكمال ، وذلك لأنَّ العمل مع المحبَّة يدوم علىٰ أحسن الوجوه، بخلافه مع غير المحبَّة كما لا يخفىٰ (عروسي ٤/ ١٠١) .

محبوبه ؛ ولم يجد وصولاً إليه . . هان عليه بذلُ نفسه فيه ، لكن لا يخفى أنَّ الفعل المذكور ممنوعٌ منه . . فلا فضيلةَ فيه ، ولعل فاعلَ ذلك كان كافراً ؛ أو جاهلاً ؛ أو مغلوباً على عقله[1] !!

عاشق هندي : وحُكي أنَّ بعض أهل الهند عشق جارية ، فرحلت الجارية ، فخرج الرجل في وداعها فدمعت إحدى عينيه دونَ الأخرى ، فغمَّض التي لم تدمع أربعاً وثمانين سنة ؛ ولم يفتحها عقوبةً لها !! لأنَّها لم تبكِ على فراق حبيبته .

توضيح : **الغرض** من ذلك أنَّ العبد إذا وجد مع الله لذَّة ودام ذكرُه ومناجاته له ، ثمَّ ابتلاه ببعده وفتوره عما كان فيه . . فحقُّه دوامُ البكاء والقلق ، فإن لم تساعده نفسه على ذلك أدَّبها بالآداب الجائزة عقوبةً لها ؛ كما فعل هذا بعينه .

وفي معناه أنشدوا[2] :

بَكَتْ عَيْنِي غَدَاةَ ٱلبَيْنِ: الفراق دَمْعاً وَأُخْرَىٰ بِٱلْبُكَا بَخِلَتْ عَلَيْنَا
فَعَاقَبْتُ ٱلَّتِي بَخِلَتْ عَلَيْنَا بِأَنْ غَمَّضْتُها يَوْمَ ٱلْتَقَيْنَا

وفي نسخة بعد هذا :

وَجَازَيْتُ ٱلَّتِي جَادَتْ بِدَمْعٍ بِأَنْ أَقْرَرْتُهَا بِٱلحبِّ عَيْنَا

دعوىٰ النفوس : وقال بعضُهم : كنا عند ذي النون المصريِّ فتذاكرنا المحبَّة ؛ فقال ذو النون : كُفُّوا عن هذه المسألة لا تسمعَها النفوس فتدَّعيَها . ثم أنشأ يقول[3] :

اَلْخَوْفُ أَوْلَىٰ بِٱلْمُسِيْءِ إِذَا تَأَلَّهَ وَكَذا ٱلحَزَنْ
وَٱلحُبُّ يَجْمُلُ بِٱلتَّقِيْيِ وَبِٱلنَّقِيِّ مِنَ ٱلدَّرَنْ: الوسخ

دعيُّ المحبَّة : وقال يحيى بن معاذ : مَن نشر المحبَّة عندِ غير أهلها . . فهو في دعواه

---

(١) فالمراد إذن الاطلاع علىٰ ما يؤدِّي إليه العشق ؛ لا ما يطلب للاقتداء .

(٢) بَكَتْ عَيْنِي غَدَاةَ ٱلْبَيْنِ دَمْعاً وَأُخْرىٰ بِٱلْبُكَا بَخِلَتْ عَلَيْنا
فَعَاقَبْتُ ٱلَّتِي بَخِلَتْ عَلَيْنا بِأَنْ غَمَّضْتُهَا يَوْمَ ٱلْتَقَيْنَا

(٣) الْخَوْفُ أَوْلَىٰ بِٱلْمُسيْءِ إذا تَأَلَّهَ وَٱلحَزَنْ
وَٱلحُبُّ يَجْمُلُ بالتقيْيِ وَبِٱلنَّقِيِّ مِنَ ٱلدَّرَنْ

لها دَعِيٌّ فيها ، لأنَّ أربابها لا يظهرون مواجيدهم إلاَّ عند مَن يفهم عنهم إشاراتهم لما هم فيه ، فينتفعون وينتفع ، فمن ذكرها عند غير أهلها فهو مراءٍ ، أو متشبِّعٌ بما لم يَنَلْ .

امتحان محب : وقيل : ادَّعى رجلٌ الاستهلاك في محبَّة شخص شابٍّ ، فقال له الشابُّ : كيف هذا الاستهلاك في المحبَّة ؛ وهذا أخي أحسنُ منِّي وجهاً ، وأتمُّ جمالاً !؟ فرفع الرجل رأسه يلتفت إلى الأخ ، وكان ـ وفي نسخة : وكانا ـ على سطح فألقاه من السطح ؛ وقال منكِراً عليه : مَنْ يدَّعي هوانا : حبَّنا لا ينظرُ إلى سوانا .

الغرض من ذلك : أنَّ مَن كَمُلت محبَّته لشيءٍ قبُح أن ينظر إلىٰ غيره ، فمن كملت محبَّتُه لله قَبُح التفاته إلى غيره .

المحبة والمعرفة : وكان سُمنون يقدِّم المحبة على المعرفة ؛ أي : على حقيقتها ، وهي غلبةٌ أحوالها على العارف لكمال شُغله بمعروفه واستغراقه في مناجاته ، حتَّى يفْنى عن نفسه ، والمحبُّون يبقى معهم بقايا يتنعَّمون فيها بمحبوبهم .

تقديم المعرفة : والأكثرون يقدِّمون المعرفة على المحبَّة ، لأنَّ العبد إنَّما يحب مَن يعرف كمالَه وفضله .

الترجيح : وكلٌّ من القولين صحيح باعتبار التوجيهين ، لكن الأوَّل أوفق بما عند محقِّقيهم .

وقد أشار الإمام القشيريُّ إلى ترجيحه بقوله :

وعند محقِّقيهم : **المحبَّة هي استهلاكٌ في لَذَّة بالتنعُّم فيما بقي معهم .**
والمعرفة شهودٌ في حَيْرة ، وفناءٌ في هيبة .

المحبَّة وتاج العارفين : وقال أبو بكر الكتاني : جرت مسألةٌ في المحبَّة بمكَّة أيَّام الموسم . . فتكلَّم الشيوخ فيها ، وكان الجنيدُ أصغرَهم سِنّاً ! فقالوا له : هات ما عندك ؛ يا عراقي ! فأطرق رأسه ودمعت عيناه ، ثمَّ قال : المحبُّ عبدٌ ذاهب عن نفسه إلى ربِّه ، متَّصلٌ بذكر ربِّه ، قائمٌ بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه . . قد أحرق قلبَه أنوارُ هُوِيَّته : ذاته ، وصفا شربُه من كأسِ وُدِّه : حبّه ، وانكشف له الجبَّار تعالى من أستار غيبه .

ثمرتها : فالمحبَّة استفراغُ الجهد في العمل إلى أن يحصل الأمل ، ويغيبُ العبد في مذكوره حتَّى عن نفسه ! فإن تكلَّم . . فبالله ، وإن تطوَّر . . فمن الله ، وإن تحرَّك . . فبأمر الله : إرادته ، وإن سكن . . فمع الله !! فهو بالله ، ومن الله ، ولله ، ومع الله .

فبكىٰ الشيوخُ من كلامه ، وقالوا : ما على هذا مزيدٌ ! جبرك الله ؛ يا تاجَ العارفين . لَقَّبوه بذلك لما جرى على لسانه من حقائق المحبَّة والمعرفة وأماراتهما .

تنازع محبتين : وقيل : أوحىٰ اللهُ تعالىٰ إلى داود عليه السلام : ﴿ يَا دَاوُدُ ؛ إِنِّي حَرَّمْتُ عَلَىٰ ٱلْقُلُوبِ أَنْ يُدخُلَهَا حُبِّي وَحُبُّ غَيْرِي ﴾ . فالمحبَّة الكاملة لله تعالى أن لا يبقىٰ في القلب ذكرٌ لغيره .

محبة الفضيل : أخبرنا حمزة بن يوسف السهمي ؛ قال : أخبرنا محمد بن أحمد بن القاسم ؛ قال : حدَّثنا هميم بن همام ؛ قال : حدَّثنا إبراهيم بن الحارث ؛ قال : حدَّثني عبد الرحمان بن عفان ؛ قال : حدَّثني محمد بن أيُّوب ؛ قال : حدَّثني أبو العبَّاس (خادمُ الفضيل بن عياض) ؛ قال : احتبس بول الفضيل بن عياض ، فرفع يديه إلى السماء ؛ وقال : اللهم بحبِّي لك إلاَّ أطلقتَهُ عني . قال : فما برحنا : زِلْنا حتَّى شُفيَ ! استجاب الله دعاءه . . حيث تفضَّل عليه بإطلاق بوله ، كما تفضَّل عليه بما وَهَبه من محبَّته العظمى .

المحبة والإيثار : وقيل : المحبَّة الإيثار : إيثار المحبوب على النفس كامرأة العزيز ؛ واسمها زليخا . . لمَّا تناهت في أمرها : حبِّها ليوسف عليه السلام أقرَّت بالذنب وأضافته إلى نفسها حيث قالت ﴿ أَنَاْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ : طلبتُ منه أن يواقعني ، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[1] وفي الابتداء : ابتداء حبِّها له ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] فوَرَكَت الذنب في الابتداء عليه : نسبته إليه ، وفي الانتهاء نادت على نفسها بالخيانة وبرَّأته منها .

سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق يقول ذلك !! .

---

(١) الآية : ٥١ ؛ من السورة التي ذكر فيها يوسف عليه الصلاة والسلام .
(٢) الآية : ٢٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها يوسف عليه الصلاة والسلام .

معذرة مبارك : **وحكي عن أبي سعيد الخراز أنَّه قال : رأيت النَّبيَّ ﷺ في المنام ؛** وكان يحبُّ الله وسولهُ . . لكن محبته لله أكثرُ . . **فقلت : يا رسول الله ؛ أعذرني ؛ فإنَّ محبَّة الله تعالى شغلتني عن محبَّتك . فقال لي : « يا مباركُ ؛ مَنْ أَحَبَّ الله . . فقد أحبَّني »**[1] ، لأنَّ مَن أحبَّ محبوباً وكَمُل حبُّه له . . أحبَّ مَن أحبَّه المحبوبُ ، فلو كَمُل نظرك لأحببتني أشدَّ المحبَّة ، لأني حبيبُ المحبوب ، ولفظة « يا مبارك » تستعمل في حقِّ مَن قَصُر نظره بعضَ القصور .

مناجاة محبٍّ : **وقيل : قالت رابعةُ العدويَّةُ في مناجاتها لربِّها : إلهي ؛ تحرقُ بالنار قلباً يحبُّك !! فهتف بها هاتفٌ ﴿ ما كنا نفعل هكذا بمن يحبُّنا ، فلا تظنِّي بنا ظنَّ السوء ﴾** .

في ذلك تنبيهٌ على حُسن الظنِّ بالله ، فإنَّه لا يخلف الميعاد ، ولو أراد بالمحبِّ العذابَ . . لما خلق له المحبَّة .

رموز الحب : **وقيل : الحبُّ حرفان . . حاء وباء ، والإشارة فيه أنَّ مَن أحبَّ الله فليخرج عن روحه وبدنه**[2] .

موافقة المحب : **وكالإجماع** : والأقوالُ الحاصلة من **إطلاقات القوم** كالإجماع ؛ أي : تُقارِبُ الإجماع على **أنَّ المحبَّة هي الموافقةُ** منك للمحبوب على ما طلبه منك ، **وأشدُّ الموافقاتِ الموافقةُ بالقلب** ، لأنَّ موافقته سببٌ لموافقة الجوارح ، فإنَّه إذا صلُح . . صلُح الجسَد كلُّه ، وإذا فسد . . فسدالجسد كلُّه .

لزوم المحبوب : **والمحبَّة توجب انتفاء المباينة**[3] بين المحبِّ والمحبوب ، ومِن

---

(١) محصَّله أنَّ مَن ادَّعىٰ محبَّة الحقِّ تعالىٰ والاشتغال بها عن محبَّة رسوله ﷺ فدعواه من الزور ، وأحواله من الغرور ، كيف . . ومحبة الله السبب في معرفته ؛ وهي لا تكون بدون واسطته ؟! كما يصرِّح به قوله جلَّ وعزَّ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (عروسي : ٤/ ١٠٤) .

(٢) فالحاء من الروح ، والباء من البدن ، وحينئذ فلا تتمُّ المحبَّة لعبد حتىٰ يبذلهما في محبته تعالىٰ (عروسي) .

(٣) الحاصلة بنوع الغفلات عن مرادات المحبوب . قال بعضهم : غواص الفكر يغوص في بحر القلب ، يستخرج درر المعاني فينقلها إلىٰ ساحل الصدر ؛ فينادي عليها سمسار اللسان =

لازمها ملازمةُ ذكر المحبوب وقلّة الغفلة عنه ، فإنَّ المحبَّ أبداً مع محبوبه ، كما أنَّ محبوبه معه الدالَّ عليه آيةُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾[١] . وبذلك ورد الخبر الآتي ، وخبر « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ »[٢] .

صحبة المحب : حدَّثنا الإمام أبو بكر ابن فُوْرَك رحمه الله ؛ قال : حدَّثنا القاضي أحمد بن محمود بن خرزاذ ؛ قال : حدَّثنا الحسين بن حمَّاد بن فضالة ؛ قال : حدَّثنا يحيى بن حبيب ؛ قال : حدَّثنا مرحوم بن عبد العزيز ؛ عن سفيان الثوري ؛ عن الأعمش ؛ عن أبي وائل ؛ عن أبي موسى الأشعري . . **أنَّ النَّبيَّ ﷺ قيل له : الرجل يحبُّ القوم . . ولَمَّا يلحقْ بهم . . في العمل !؟ فقال : « اَلْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »**[٣] .

مفاسد الأحوال : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ عبد الله الرازي ؛ يقول : سمعت أبا عثمان الحِيريَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا حفص ؛ يقول : **أكثر فسادِ الأحوال من ثلاثة . . ١ـ فسق العارفين ، و٢ـ خيانة المحبِّين ، و٣ـ كذب المريدين**[٤] .

قال أبو عثمان في تفسير ذلك : فسق العارفين : إطلاق الطرف : التفات البصر واللسان والسمع إلى أسباب الدنيا ومنافعها . وخيانةُ

= فتشترىٰ بنفائس أثمان حسن الطاعة ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ فافهم (عروسي : ٤/ ١٠٥) .

(١) الآية : ١٢٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .
والمعنىٰ معهم بالحفظ والإعانة والنصر . فهي معية معنوية ، إذ الحسِّيَّة مستحيلة في حقِّه تبارك وتعالىٰ وتنزَّه وتقدس .

(٢) تقدم تخريجه ص ٨٥٣ .

(٣) متفق عليه . . البخاري : ٦١٦٩ ، ومسلم : ١٦٥ ـ ٢٦٤٠ ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٤) وسبب الجميع عمىٰ البصيرة ، قال تعالىٰ ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ فهو العمىٰ عمّا يعود علىٰ العبد من الخير والشرِّ ، أو أنها لا تعمىٰ الأبصار عن درك الحقائق ، إذ هي ليست محلاّ لإدراكها ، ولكن عمىٰ القلوب عن ذلك لأنه محلُّها .
قال الشاذلي : عمىٰ البصيرة في ثلاثة أشياء : ١ـ إرسال الجوارح في معاصي الله ، و٢ـ التضييع لطاعة الله ، و٣ـ الطمع في خلق الله . فمن ادعىٰ البصيرة مع واحدة من هذه الثلاثة فقلبه هدف الظنون والوساوس (عروسي : ٤/ ١٠٥) .

المحبِّين : اختيارُ هواهم على رضا الله تعالى فيما يستقبلهم من الأفعال ، وكذب المريدين أن يكون ذكر الخلقِ ورؤيَتُهم تغلب عليهم على ذكر الله تعالى ورؤيته .

مسامحة العشاق : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازي ؛ يقول : سمعت أبا القاسم الجوهري ؛ يقول : سمعت أبا علي ممشاد بن سعيد العُكبَري ؛ يقول : راوَدَ خُطَّاف ؛ وهو ما يسمَّى « عصفور الجنة » خُطَّافة : طلب منها أن يواقعَها في قبَّة سليمان عليه السلام . . فامتنعت عليه ، فقال لها . . وسليمانُ يَسمعُه : تمتنعين عليَّ . . وأنا إن شئتُ قلبتُ القبَّة على سليمان ؟! فدعاه سليمان عليه السلام ؛ وقال له : « مَا حَملَكَ عَلَىٰ مَا قُلْتَ !؟ » مع ما فيه من قلَّة الأدب . . فقال له : يا نبيَّ الله ؛ إن العشَّاق لا يؤاخَذون بأقوالهم لكثرة خطاياهم فيها . فقال له . . وكان يعرف منطق الطير بنصِّ القرآن كما مرَّ : « صَدَقْتَ » . وهذا النوع قد يقع من بعض المحبِّين ويسمَّى « الشطح » ؛ فلا يؤاخذون به ولا يعدُّلهم مقاماً . . ولا حالاً .

* * *

٤٧ ـ باب الشوق
سيأتي بيانه

رتبته والحضُّ عليه : وهو ممدوح ومطلوب ؛ قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ ﴾[1] ، إذ الرجاء يتضمَّن الاهتياج والارتياح إلى المرجوِّ .

دعوات نبوية : أخبرنا عليُّ بن أحمد بن عبدان الأهوازيُّ رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصري ؛ قال : أخبرنا ابن أبي قماش ؛ قال : أخبرنا إسماعيل بن زرارة ؛ عن حمَّاد ابن زيد ؛ قال : أخبرنا عطاء بن السائب ؛ عن أبيه ؛ قال :

---

(١) الآية : ٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : العنكبوت .

صلَّىٰ بنا عمَّارُ بن ياسر رضي الله عنه صلاة فأوجز : خفف !! فقلتُ : خفَّفت في صلاتك ؛ يا أبا اليقظان ! فقال : وما عليَّ من ذلك : لا يضرُّني تخفيفُها ؛ ولقد دَعَوتُ الله تعالى بدَعَوات سمعتُها من رسول الله ﷺ !! فلما قام تبعه رجل من القوم فسأله عن الدَّعوات ؛ فقال له هي :

« اَللَّهُمَّ بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق .. أحيني ما علمتَ الحياة خيراً لي ، وتوفَّني ما ـ وفي نسخة : إذا ـ علمتَ الوفاة خيراً لي .

اَللهمَّ ؛ إنِّي أسأَلُك خشيتك في الغيب والشهادة : الحضور ، وأسألك كلمةَ الحقِّ في الرضا والغضب ، وأسألك القصد : التوسط في الغنىٰ والفقر ، وأسألك نعيماً لا ينفد : لا يفنىٰ ، وأسألك قُرَّة عين لا تنقطع ،

وأسألك الرضا بعد القضاء : الابتلاء . وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك النظر إلى وجهك ، وأسألك شوقاً إلى لقائك في غير ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ـ ولا فتنةٍ مضلَّةٍ ؛ كما في نسخة ـ .

اللهم ؛ زيِّنا بزينة الإيمان ، اللهم ؛ اجعلنا هداةً مهتدين »[1] .

المحبة والشوق : قال الأستاذ القشيري : الشوق اهتياج ـ وفي نسخة : ارتياح ـ القلوب إلى لقاء المحبوب ، وعلى قدر المحبَّة يكون الشوق ، لأنَّه ثمرتُها .

ويؤخَذ من كلامه أنَّ الله تعالى لا يوصَفُ بالشوق ؛ وإن وصف بالمحبة ! وهو كذلك ؛ كما مرَّ بيانُه .

الشوق والاشتياق : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله يفرِّق بين الشوق والاشتياق ؛ ويقول : الشوق يسكُن باللقاء والرؤيةِ للمشتاقِ إليه ، والاشتياق لا يزول باللقاء له . وفي معناه أنشدوا :

مَا يَرْجِعُ ٱلطَّرْفُ عَنْهُ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ حَتَّىٰ يَعُودَ إِلَيْهِ ٱلطَّرْفُ مُشْتَاقَا

فذو الاشتياق لا تكفيه الرؤيةُ واللِّقاء مرَّة واحدة ، بخلاف ذي الشوق .

مقام الخلق : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت

---

(١) تقدم بعضه (أسألك الرضا بعد القضاء) ص ٥٩٦ .

النصراباذي يقول : **للخلق كلِّهم مقامُ الشوق يناله كثير من السالكين ، وليس لهم مقامُ الاشتياق ، ومَن دخل في حال الاشتياق . . هام فيه حتَّى لا يُرى له أثرٌ ولا قرار !** لاشتغاله عن نفسه بالكلِّية بما هو مستغرق فيه من صفات الله العظيمة . . كالكمال والجلال .

الأجل البعيد : **وقيل : جاء أحمد بن حامد الأسود إلى عبد الله بن منازل ؛ وقال له : رأيتُ في المنام أنَّك تموتُ إلى** ـ يعني : بعد مدَّةٍ ـ **سنةٍ** . **فلو استعددتَ للخروج** من الدنيا إلى الآخرة في هذه المدَّة . . لكان خيراً لك ! .

فقال له عبد الله بن منازل : أجَّلتنا إلى أمد بعيد ، أعيشُ أنا إلى سنة !؟

أشار بذلك إلى محبَّته للقاء الله ، وأنَّه مشتاق إليه ، والمشتاق لا يحتمل طول الأجل !! ثم قال له أيضاً : **لقد كان لي أُنس** وراحة **بهذا البيت الذي سمعتُه من هذا الثقفي ـ يعني أبا عليٍّ رحمه الله ـ وهو :**

يَا مَنْ شَكَىٰ شَوْقَهُ مِنْ طُولِ فُرْقَتِهِ ... اِصْبِـرْ لَعَلَّـك تَلْقَـىٰ مَـنْ تُحِـبُّ غَـداً

بموتك فيه ، وإنَّما أَنِس به !! لما فيه من ذكر الغد المنبىءِ عن قُرب موته المحصِّل لمطلوبه ، وفيه إشارة إلى أنَّه كان شديدَ الشوقِ إلى لقاء الله تعالى . . بسرعة مجيء الموت الذي يلقىٰ به مَن هو مشتاقٌ إليه .

علامة الشوق : **وقال أبو عثمان : علامة الشوق حبُّ الموت مع الراحة** الحاصلة بتوالي النعم الدينوية والأُخروية ، فلَا يسكن إلى شيء منها ، بل يكون قلبه مشتاقاً إلى لقاء ربِّه ، أما حُبُّ الموت مع التَّعب والضُرِّ المنهيِّ عنه في خبر : « لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ ٱلْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ »[1] !! فليس هو لمحبَّةِ لقاءِ الله ، بل هو للرَّاحة ممَّا هو فيه من البلاء .

علامة أخرى : **وقال يحيى بن معاذ : علامةُ الشوق فِطام الجوارح عن الشهوات ؛** بأن يُعرض العبد عنها شوقاً إلى ربِّه ، كما يُعرض الطفل عن اللبن حين يطيب له الطعام ويشتاق إليه .

---

(١) متفق عليه . . البخاري : ٥٦٧١ ، ومسلم : ١٠ ـ ٢٦٨٠ ؛ عن أنس رضي الله عنه .

الجهبذ الضليع : سمعت الأُستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق ؛ يقول : خرج داود عليه السلام يوماً إلى بعض الصحارَىٰ منفرداً عن الخلق ، فأوحىٰ الله إليه ﴿ مَا لِي أَرَاكَ يَا دَاوِدُ ؛ وَحْدَانِيًّا !! ﴾ فقال : إلهي قد استأثر الشوقُ إلى لقائك على قلبي . . فحال بيني وبين صحبةِ الخلق ، فأوحىٰ الله سبحانه إليه : ﴿ اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّكَ إِنْ أَتَيْتَنِي بِعَبْدٍ منهم آبِقٍ أَثْبَتُّكَ فِي ٱللَّوْحِ ٱلمَحْفُوظِ جِهْبِذاً ﴾ : نقَّاداً عارفاً بالجيِّد والرَّديء[1] . ـ وفي نسخة : شَهِيْداً ـ وأشار بذلك إلى أنَّ مَن كَمُلتَ قوَّتُه ومحبَّته لله لزهادته في الدنيا ، فالأَولىٰ له الرجُوع إلى الخلق ، فإنَّه ينفعهم ؛ ولا يتضرَّر بهم في آخرته ، فلا يليقُ به الهروبُ منهم ، وبذلك كان العلماءُ ورثةَ الأنبياء ؛ وخلفاءَ الله في أرضه ، لأنَّهم وسائط بينه وبين عباده ، ومَن كان ضعيفاً . . فالهرب والشُّغْل بما كَلَّفه به ربُّه أَوْلى به[2] .

يوم القدوم : وقيل : كانت عجوزٌ قَدِم بعضُ أقاربها من السفر ؛ وأظهر قومُها السرورَ بقدومه ؛ والعجوزْ تبكي ! فقيل لها : ما يبكيكِ ؟ فقالت : ذكَّرني قدومُ هذا الفتىٰ ؛ باختلاف أحوال الناس بسبب قدومه . . يومَ القدوم : قدومِهم على الله ، واختلافهم في أحوالهم . . من مسرور ومحزون .

ومناسبةُ ذكر هذه الحكاية في هذا الباب : أن إظهار سرور المذكورين لقدوم هذا المسافر يدلُّ على شوقهم إلى لقائه .

شوق الملتفت : وسئل ابن عطاء عن الشوق ؛ فقال هو : احتراق الأحشاء ؛ جمع حَشَا وهو : ما انضمَّت عليه الضلوع . وتلهُّب القلوب ، وتقطُّع الأكباد من المشتاق على المشتاق إليه ؛ لشدَّة التفاته .

---

(١) محصَّله أن اشتغال العبد الكامل بإرشاد الغير أفضل من تبتُّله في العبادة ، ويشهد له خبر « لأَنْ يَهْدِيَ ٱللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ ٱلنَّعَمِ » .
وبالرجوع إلىٰ الخلق لهدايتهم ودلالتهم كان (العلماء ورثة الأنبياء) : نوَّابهم في مثل هذا العمل . والله أعلم (عروسي : ٤/١٠٨) .

(٢) وعليه تحمل أحاديث إيثار العزلة (عروسي) .

الشوق والمحبة : وسئل أيضاً الشوقُ أعلى أم المحبَّة[1] ؟! فقال : المحبَّة ؛ لأنَّ الشوقَ منها يتولَّد . وهذا يختلفُ باختلاف المقصد . . فمن نظر إلى أنَّها سببُه فاعتنى بها لتحصيله . . جَعَلها أعلى ، ومَن نظر إلى أنَّه يتلوها ويترتَّب عليه قُرْباً إلى الله تعالى . . جعله أعلى ، فالأفضليَّةُ في حقِّ الطالب إنَّما تكون بالنسبة إلى مقصوده .

الشوق والفرقة : وقال بعضهم : الشوقُ لهيبٌ ينشأ بين أثناء الحشا يسنح : يُظهِر عن الفرقة بين المشتاق والمشتاق إليه . فإذا وقع اللقاء بينهما طُفِيءَ اللهيب .

وإذا كان الغالبُ على الأسرار مشاهدةَ المحبوب . . لم يطرقها الشوقُ ، لأنَّه إنَّما يكون لغائب ؛ كما ذكره بقوله :

الشوق لغائب : وقيل لبعضهم : هل نشتاقُ إلى الله ؟ فقال : لا ؛ إنَّما الشوقُ إلى غائب وهو تعالى حاضر[2] !! هذه طريقة رفيعةٌ ، وأصلها جمعُ الهمَّ على الله ، ودوام الإقبال عليه ؛ وهو (أن تعبد الله كأنَّك تراه) ، فهو بذلك حاضرٌ معه ، ولا يمكنه الشوقُ إلى حاصل ! نعم ؛ إذا كان في درجة وفوقها أعلىٰ منها . . أمكن الشوقُ إلى المقام الأعلى .

الشوق للرضا : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله يقول في قوله تعالى ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[3] : زيادةً على رضاك ؛ قال زائد معناهُ : عجلت إليك شوقاً ـ وفي نسخة : شوق ـ إليك ! فستره : الشّوق بلفظ الرِّضا المؤوَّل بما ذكر .

علامة الشوق : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : مِن علاماتِ الشوق تمنِّي الموت على بساط

---

(١) محصَّله قولان ، لكلٍّ منهما وجه عند قائله ، فمن ذهب إلىٰ أن المحبَّة أصل والشوق فرع . . قال (إنَّ المحبَّة أفضل) ، ومن نظر إلىٰ أنَّ الشوق يتلوها وفوقها في الدرجة . . قال (إن الشوق أفضل) فلكلٍّ وجهة هو موليها . (عروسي : ٤/١٠٨) .

(٢) اعلم أن مثل هذا المقام حجابه ١ـ فساد القلوب من حب الدنيا ، و٢ـ فساد النية من الحرص والطمع واتباع الهوىٰ ، و٣ـ فساد الأرواح من حب البقاء وطول الأمل فلهذا يجب الزهد في النفس . . . . (عروسي : ٤/١٠٩) .

(٣) الآية : ٨٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : طه ﷺ .

العوافي ؛ جمع عافية . هذا كقول أبي عثمان فيما مرَّ : حبُّ الموت مع الراحة . وتقدَّم بيانُه . ومثَّلَ ذلك بقوله :

كيوسف عليه السلام ؛ لما أُلقي في الجب . . لم يقل (توفني) ، ولما أُدخل السجنَ . . لم يقل (توفني) أي : لما ابتُلِيَ برَميِ إخوته له في الجُبِّ وبيعِهم له ، وما جرى له مع امرأة العزيز ؛ وإدخالِه السجنَ ، وطولِ مكثه فيه وغيرها . . لم يتغيَّر ؛ ولم يتمنَّ الموت مع هذه الشدائد ؛ ولما دخل عليه أبواه ، وخرَّ الإخوةُ له سُجَّداً ، واعترفوا بخطئهم وعجزهم ؛ وقالوا له : (جئناك ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدَّقْ علينا .) وتمَّ له الملك والنِّعَمُ ؛ قال ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1] لارتفاع همَّته إلى الله تعالى ، واشتياقه إلى لقائه بما ناله من ذلك .

وفي معناه أنشد بعضهم[2] :

نَحْنُ فِي أَكْمَلِ ٱلسُّرُورِ وَلَكِنْ لَيْسَ إلاَّ بِكُمْ يَتِمُّ ٱلسُّرُورُ

عَيْبُ مَا نَحْنُ فِيْهِ : عيب حالِنا هذه ؛ يَا أَهْلَ وُدِّي : حُبِّي

أَنَّكُمْ غُيَّبٌ وَنَحْنُ حُضُورُ ! فلو حضرتم معنا . . انتفىٰ العيب .

وفي معناه أيضاً أنشدوا[3] :

مَنْ سَرَّهُ ٱلعِيْدُ ٱلجَدِيْـ

ـدُ تمَّ سرورُه واكتفى به ، وأمَّا أنا فَقَدْ عَدِمْتُ بِهِ : فيه ٱلسُّرُورَا

وإِنَّما كَانَ ٱلسُّرُورُ يَتِمُّ لِيْ لَوْ كَانَ أَحْبَابِي حُضُورا

الشوق والوجد : وقال ابن خفيف : الشوقُ ارتياح القلب بالوَجْد ، ومحبَّة اللقاء لله

---

(١) الآية : ١٠١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : يوسف عليه الصلاة والسلام .

(٢) نَحْنُ فِي أَكْمَلِ ٱلسُّرُورِ وَلَكِنْ لَيْسَ إلاَّ بِكُمْ يَتِمُّ ٱلسُّرُورُ
عَيْبُ مَا نَحْنُ فِيهِ يَا أَهْلَ وُدِّي أَنَّكُمْ غُيَّبٌ وَنَحْنُ حُضُورُ

(٣) مَنْ سَرَّهُ ٱلعِيْدُ ٱلجَدِيْـ ـدُ فَقَدْ عَدِمْتُ بِهِ ٱلسُّرُورَا
كَانَ ٱلسُّرُورُ يَتِمُّ لِي لَوْ كَانَ أَحْبَابِي حُضُورا

بالقُرْب منه ، وبذلك يقوى اشتغالُهم بربِّهم ، وبما يُجريه على قلوبهم حتَّى يشتغلوا عن أنفسهم .

المستغيثون من الجنة : ولذلك قال أبو يزيد البَسطاميُّ : إنَّ للهِ تعالى عباداً لو حَجَبهم في الجنَّة عن رؤيته . . لاستغاثوا من الجنة ؛ كما يستغيث أهلُ النار من النار ، لشدَّة تألُّمهم بذلك .

سكر الكرخي : أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفيُّ رحمه الله ؛ قال : حدَّثنا أبو العبَّاس الهاشمي بالبيضاء ؛ قال : حدَّثنا محمد بن عبد الله الخزاعيُّ ؛ قال : حدَّثنا عبد الله الأنصاريُّ ؛ قال : سمعتُ الحسين الأنصاريَّ ؛ يقول : رأيتُ في النوم كأنَّ القيامة قد قامت . . وشخصٌ قائم تحت العرش ؛ فيقول الحقُّ سبحانه : ﴿ يا ملائكتي ؛ مَن هذا القائم !؟ ﴾ . فقالوا : اللهُ أعلم . فقال : ﴿ هذا معروفٌ الكرخيُّ سَكِر من حُبِّي ؛ لشدَّة شوقه إليَّ فلا يُفيق من سَكْرته إلاَّ بلقائي ﴾ .

وفي بعض الحكاياتِ في مثل هذا المنام أنَّه قيل (هذا معروف الكرخي خَرَج من الدنيا مشتاقاً إلى الله تعالى ، فأباح الله تعالى له النظرَ إليه) .

المشتاقون لربهم : وقال فارس : قلوبُ المشتاقين إلى الله منوَّرةٌ بنور اللهِ تعالى ، فإذا تحرَّك اشتياقهم إليه . . أضاء النور ما ـ زائدة ـ بين السماءِ والأرض ، فيعرضهم الله على الملائكة ؛ فيقول لهم : ﴿ هؤلاء المشتاقون إليَّ ؛ أُشهدكم أنِّي إليهم أشوقُ ﴾ : أحبُّ ، لما مرَّ أنه تعالى لا يوصف بالشوق ، فوَصفه به هنا مَجازٌ على سبيل المشاكلة .

أجزاء الشوق : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول في قوله ﷺ : « أَسْأَلُكَ ٱلشَّوْقَ إِلَىٰ لِقَائِكَ »[1] ؛ قَالَ ـ زائد ـ : كَانَ ٱلشَّوْقُ مئة جزء . . منها تسعةٌ وتسعون له ﷺ ، والباقي جزءٌ متفرِّقٌ في الناس ، لأنَّه ﷺ أكمُل النَّاس محبَّة وشوقاً للهِ . فأراد أن يكونَ ذلك الجزءُ أيضاً ، له فغار أن تكون شظيَّةٌ : فَلْقةٌ من الشوق لغيره ، لعدم صلاحيَّة غيره لنيل كمال الشوق .

شوق المحبوب : وقيل : شوقُ أهْلِ القُرْب أتمُّ من شوق المحجوبين عنه ، لأنَّ

---

(١) لفظ أحمد : ٤/ ٢٦٤ ؛ ٥/ ١٩١ ، والنسائي : ١٣٠٥ « لَذَّةَ ٱلنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ وَٱلشَّوْقَ إِلَىٰ لِقَائِكَ » . والطبراني في «الكبير» : ٤٨٠٣ ، و«مسند الشاميين» : ١٤٨١ ، والبيهقي في «الدعوات» : ٤٢ ؛ ٤٣ .

مَن نال منه شيئاً . . طَلَب الزيادة منه ، بخلاف المحجوب عنه ، فإنَّه إذا فتح الله عليه بشيء منه . . قنع به . **ولهذا قيل**[1] :

وَأَبْرَحُ : أشقُّ مَا يَكُونُ ٱلشَّوْقُ يَوْماً

إِذَا دَنَتْ ٱلْخِيَامُ مِنَ ٱلْخِيَامِ بخلاف ما إذا بَعُدت

علامة الموت : **وقيل** : **إنَّ المشتاقين يَتَحَسَّوْن حلاوة الموت عند وُروده** ، لِمَا قد كُشِف لهم من رَوح الوصول : راحته أحلى من الشهد ، لأنَّ العبد إذا كَمُل اشتياقه للقاء ربِّه . . لم يقمْ لاشتياقه شيءٌ . ويؤيِّدهُ خبرُ : « لاَ يَجِدُ ٱلشَّهِيْدُ مِنْ أَلَمِ ٱلقَتْلِ فِي سَبِيْلِ ٱللهِ إِلاَّ كَمَا يَجِدُ مِنَ ٱلقَرْصَةِ »[2] . فإنَّه لَمَّا كَمُل شَوْقُه من الحُبِّ للقاء حِبِّه . . لم يجد من السيف ألما .

تحقق الشوق : **سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله بن عليٍّ ؛ يقول : سمعت جعفر ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : سمعت السريَّ السَّقَطيَّ ؛ يقول :**

الشوقُ أجلُّ مقام للعارف بالله . . إذا تحقَّق وتمكَّن فيه : غلب على قلبه وصار به حقيقة وحالاً ، **وإذا تحقَّق وتمكَّن في الشوق لَهَى** - وفي نسخة : كُفي - **عن كلِّ شيء يشغله عمن يشتاق إليه** .

شغل المشتاق : هذا يؤيِّد ما مرَّ من أنَّه إذا كَمُل المحبُّ ؛ وتوالت عليه ثمراتها . . اشتغل بمحبوبه عن غيره حتَّى نفسِه ، والشوقُ من ثمرات المحبَّةِ .

تعريض بالشوق : **وقال أبو عثمان الحيريُّ في تفسير قوله عزَّ وجلَّ ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ ﴾**[3] : **هذا تعريضٌ للمشتاقين؛ معناه: إنِّي أعلمُ أن اشتياقكم إليَّ غالبٌ، وأنا أجَّلت للقائكم أجلاً، وعن قريب يكونُ وصولكم إلى مَن تشتاقون إليه** . لأن كلَّ آتٍ قريب ، ولولا أنَّ الله أجَّل للموت أجلاً . . لعجَّل للمشتاقين لقاءَه .

تشويق الشبَّان : **وقيل** : **أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ﴿ قُلْ لِشُبَّانِ بَنِي**

---

(١) وَأَبْرَحُ مَا يَكُونُ ٱلشَّوْقُ يَوْماً إذا دَنَتْ ٱلْخِيَامُ إِلَىٰ ٱلْخِيَامِ

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٦٥ .

(٣) الآية : ٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : العنكبوت .

إِسْرَائِيْلَ : لِمَ تَشْغَلُونَ أَنْفُسَكُمْ بِغَيْرِي ؛ وَأَنَا مُشْتَاقٌ إِلَيْكُم : محبٌّ لكم !! مَا هذا ٱلجَفَاءُ ؟ ﴾ فإنَّه غير لائق !.

إرادتي للمدبرين : وقيل : أوحى الله تعالىٰ أيضاً إلى داود عليه السلام : ﴿ لَو يَعْلَمُ ٱلمُدْبِرُونَ عَنِّي ؛ كَيْفَ ٱنْتِظَارِي لَهُمْ ، وَرِفْقِي بِهِمْ ، وَشَوْقِي إِلَىٰ تَرْكِ مَعَاصِيْهِمْ . . لَمَاتُوا شَوقاً إِلَيَّ ، وَٱنْقَطَعَتْ أَوْصَالُهُمْ مِنْ مَحَبَّتِي ! يَا دَاوُدُ ؛ هٰذِهِ إِرَادَتِي لِلْمُدبِرِيْنَ عَنِّي ! فَكَيْفَ إِرَادَتِي لِلْمُقْبِلِيْنَ إِلَيَّ ﴾ . ـ وفي نسخة : عليَّ ـ .

تذكرة توراتية : وقيل : مكتوبٌ في « التوراة » : ﴿ شَوَّقْنَاكُمْ فَلَمْ تَشْتَاقُوا ، وَخَوَّفْنَاكُمْ فَلَمْ تَخَافُوا ، وَنُحْنَا لَكُمْ فَلَمْ تَنُوحُوا !! ﴾ لم تختلف الشرائع في الترهيب والترغيب ، ويكفي في ذلك ما في الكتاب العزيز من بيان درجات المقرَّبين ؛ وما أعدَّ لهم ! وبيانِ دَرَكات العصاة ؛ وما أعدَّ لهم ! وكيف أهلكهم في الدنيا بأنواعِ العذاب ؛ من الريح والصيحة والحجارة وغيرها ؟! فكلُّ ما يتعلَّق بالترهيب والترغيب مقطوعٌ به . . لم تختلف فيه الشرائع ، ولهذا قال تعالى في كتابه العزيز ؛ بعد ذكر الجنة والنار ، وأمرِ الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[1] .

جزاءِ مشتاق : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : بكىٰ شعيب عليه السلام حتَّى عَمِيَ[2] ؛ فردَّ اللهُ بصرَه عليه ، ثمَّ بكى حتَّى عمي ؛ فردَّ الله بصره عليه ، ثمَّ بكى حتَّى عمي ، فأوحى اللهِ تعالى إليه ﴿ إِنْ كانَ هٰذَا ٱلْبُكَاءُ لأَجْلِ ٱلجَنَّةِ . . فَقَدْ أَبَحْتُهَا لَكَ ، وَإِنْ كَانَ لأَجْلِ ٱلنَّارِ . . فَقَدْ أَجَرْتُكَ مِنْهَا ﴾ . فقال : لا ؛ بل شوقاً إليك . فأوحى الله تعالى إليه لأجلِ ذَلِكَ أَخْدَمْتُكَ نَبِيي وَكَلِيْمِي موسى عليه السلام عَشْرَ سِنِينْ في رعاية غنمك ﴾ .

منزلة الشوق : فيه دلالة على أنَّ منزلة الشوق إلى الله رفيعة ، وأنَّها لا تُعطىٰ إلاَّ لخواصِّه ، وأنَّ الشوقَ إليه بحسب المعرفة بكماله وجلاله وجماله ، فإن عَظُمت

---

(١) الآية : ١٨ و١٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعلىٰ جلَّ جلاله .

(٢) ليس عمىٰ آفة ونقص ، وإنما هو حجاب الدموع عن الرؤية كما حصل مع سيدنا يعقوب إذ ﴿ ٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ ، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من كلِّ منفِّر .

المعرفةُ بذلك في القلب . . زاد فيه الألم ، وتوقَّد الاشتياق في محبَّة اللقاء .

المشتاق لله : وقيل : مَن اشتاق إلى الله . . اشتاق إليه كلُّ شيء ، وفي الخبر : « اِشْتَاقَتْ ٱلْجَنَّةُ إِلَىٰ ثَلاَثَةٍ . . عَلِيٍّ ، وَعَمَّارٍ ، وَسَلْمَانَ »[1] رضي الله عنهم ، لاشتياقهم إليه تعالى .

حرية زاهد : سمعت أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : قال بعض المشايخ : أنا أدخلُ السوق . . والأشياء من الفواكه وغيرها تشتاقُ إليَّ . . وأنا عن جميعها حرٌّ لم يسترقَّني منها شيءٌ، فلم ألتفت إليها زهداً فيها، وذلك لأنَّ مَن شرَّفه الله وعظَّمهُ . . عَرَف جميعُ الخلق منزلتَه عند ربِّه وشرَّفوه وعظَّموه ، وتشتاق كلُّ الأشياء إليه ! من خرق العوائد ، وقد كان الحجر والشجر يسلِّمان على النَّبيِّ ﷺ قبل مبعثه، وحنَّ الجذع إليه، وسبَّح الحصى في كفِّه؛ وكفِّ أصحابه[2] .

شوقناكم وزمرنا لكم : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله بن جعفر ؛ يقول : سمعت محمد بن عمر الرمليّ ؛ يقول : حدَّثنا محمد بن جعفر ؛ قال حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم ؛ قال : حدَّثنا مرحوم ؛ قال : سمعت مالك بن دينار ؛ يقول : قرأتُ في « التوراة » : ﴿ شَوَّقْنَاكُمْ فَلَمْ تَشْتَاقُوا ، وَزَمَّرْنَا لَكُمْ . خلقنا لكم على لسان داود عليه السلام من الأصوات الحسنة ما يحرِّك الجبال ، بل مات بوعظه للناس خلقٌ كثير من الإنس والطير والوحش فَلَمْ تَرْقُصُوا ولم تتحرَّكوا !! ﴾ وحاصلُه أنَّ الله تعالى وَعَظهم وحرَّكهم إلى الرجوع إليه ؛ وطلبِ مرضاته . . فلم يتحرَّكوا .

بكاءٌ للقاء : سمعت محمد بن عبد الله الصوفيَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن فرحان ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ وقد سئل : من أيِّ شيءٍ يكون بكاء المحبِّ إذا لقي المحبوب ؟ !

فقال : إنَّما يكون ذلك سروراً به ووجدا من شِدَّة الشوق إليه .

فالبكاء يكون عند الفرح والسرور ؛ كما يكون عند الألم والمصائب .

---

(١) أخرجه الترمذي : ٣٧٩٧ بلفظ « إنَّ ٱلجَنَّةَ لَتَشْتَاقُ . . . » ، والحاكم : ٣/ ١٣٧ ؛ وقال : صحيح الإسناد.ووافقه الذهبي .

(٢) تقدَّم تخريجه ص ٩٠٠ .

ولقد بلغني أنَّ أخوين تعانقا ، فقال أحدهما : واشوقاه ! وقال الآخر : واوجداه ! صرَّح كلٌّ واحد منهما بما وجده من السرور بأخيه ، فانطفأ باللقاء ما كان يجده الأوَّل من الشوق ، وزال به ما كان يجده الثاني من الوجد .

مراتب الشوق : **واعلم** أنَّ للشوق مراتبَ . .

أوَّلُها **استحسانٌ** ، وينشأُ عن النظر والسماع .

ثمَّ ٢- **مودَّة** ؛ وهي : الميل ، وينشأ عن دوام الفكر في محاسن الحبيب .

ثمَّ ٣- **محبَّة** ؛ وهي : ائتلاف روحانيٌّ .

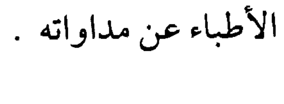
ثمَّ ٤- **خُلَّة** ؛ وهي : تمكُّن المحبَّة في القلب .

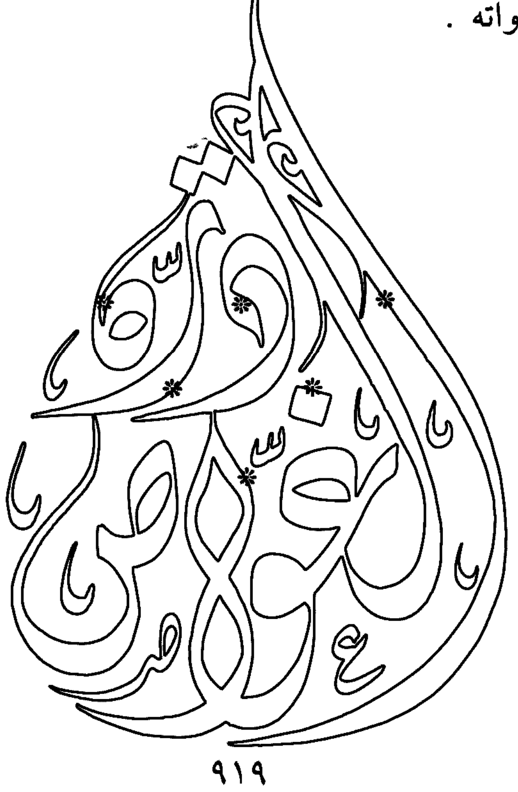
ثمَّ ٥- **هوى** ؛ وهو : أن لا يخالِط المحبَّ في المحبَّة تغيُّر ، ولا يداخله فيها تكدُّر .

ثمَّ ٦- **عشقٌ** ؛ وهو : أن لا يخلوَ فِكره من تخيُّل المحبوب .

ثمَّ ٧- **تهيُّم** ؛ وهو : أن لا يوجد في قلبه متَّسعٌ لغير صورته .

ثمَّ ٨- **وَلَهٌ** ؛ وهو : الخروج عن الحسِّ فيداخله التغيَّر في صفاته ، ويعجز الأطباء عن مداواته .





٤٨ ـ باب حفظ قلوب المشايخ
وترك الخلاف عليهم

الحضُّ عليه : وذلك ممدوحٌ ومطلوب لينتفع به تلامذتهم ، ولأنَّ التقليد أمانة ، فمتى خالف فيه التلميذ . . فقد خان ، وقد قال الله تعالى في قصَّة موسى؛ حكايةً عنه مع الخضر عليهما السلام ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾[1] .

موسى والخضر : لا خلاف في أنَّ موسى نبيٌّ . واختلفوا في الخضر . . هل هو نبيٌّ ، أو وليٌّ ؟! والأكثرُ على أنَّه نبيٌّ . وجزم به ابن الصلاح ، وأقرَّه عليه النوويُّ ، ورجَّحه الجمهور ، وقد سئل موسى : هل على وجه الأرض أحد أعلمُ منك ؟! فقال : « لاَ » . فأوحىٰ الله إليه ﴿ بَلْ عَبْدُنَا خَضِرٌ بِمَجْمَعِ ٱلْبَحْرَيْنِ أَعْلَمُ مِنْكَ ﴾ فَعزم على طلبه ، وقال ﴿ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ : دهراً طويلاً . قيل : إنَّه مئة سنة . فلما اجتمع به قال ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ إلخ .

شرط الصحبة : قال الإمام القشيريُّ : لَمَّا أراد موسى صحبة الخضر . . حَفِظَ شرط الأدب معه ، فاستأذن أوَّلاً في الصحبة له ، ثمَّ شرط عليه الخضر ألا يعارضه في شيء ، ولا يعترض عليه في حكم ، بقوله ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ فوافقه .

ثمَّ لمَّا خالفه موسى عليه السلام ثلاث مرَّاتٍ . . **الأُوْلى** : بقوله في نزع لوح من السفينة : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ . والثانية : بقوله في قتل الشاب : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ . والثالثة : في قوله في إقامة الجدار الذي أراد أن ينقضَّ : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ . .

---

(١) الآية : ٦٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الكهف .

تجاوز عنه المرَّة الأولى والثانية ، فلما صار إلى الثالثة ـ والثلاثُ آخر حدِّ القِلَّة ؛ وأوَّل حدّ الكثرة ـ . . سامه الفُرقة : أولاه إياها وأرادها منه . . فقال : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ .

ثم بيَّن له السبب في فعله كلَّ مرَّةٍ ، بقوله ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ ﴾ . . إلى آخره .

إيضاح : فعُلم أنَّه لا ينبغي للتلميذ أن يعترض على شيخه ، فإن وقع في نفسه شيءٌ . . فليمسك عن السؤال !! فلعلَّه يبيِّنُ له بعد ذلك ما أشكلَ عليه ، فإنْ دعته حاجةٌ إلى معرفة ما سَمِع . . فليورد كلامه على وجه السؤال ، لا على وجه الاعتراض .

جزاء الإحسان : أخبرنا أبو الحسين الأهوازيُّ رحمه الله ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن عبيد البصري ؛ قال : حدَّثنا أبو سالم . . ـ وفي نسخة : أبو سليم ، وفي أخرى : أبو سلمة ـ القزاز ؛ قال : حدَّثنا يزيد بن بيان ؛ قال : حدَّثنا أبو الرجاء ؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ قال :

قال رسول الله ﷺ : « مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخاً لِسِنِّهِ إلاَّ قَيَّضَ ٱللهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ كِبرِ سِنِّهِ »[1] . أي : جاءه به حينئذ ، قال تعالى ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[2] .

سبب الفرقة : سمعت الأستاذ أبا علي الدقَّاقَ رحمه الله ، يقول : بدءُ كلِّ فُرقة بينك وبين غيرك المخالفةُ . يعني به : أنَّ مَن خَالف شيخه . . لم يبقَ على طريقته ، وانقطعت العُلقة بينهما ، وإن جَمَعَتْهما البقعةُ ؛ لتغيُّر قلب الشيخ عليه ، ونُفرته عنه ، ولأنَّه حينئذ لا يراه أهلاً للانتفاع به .

نقض الصحبة : فمَن صَحِب شيخاً من الشيوخ ثمَّ اعترض عليه ولو بقلبه ؛ فقد نقض عقد الصحبة . لأنَّه بذلك ترك تقليد مَن لزمه تقليده ، ووجبت عليه التوبة من ذلك ، والرجوع إلى تقليد شيخه ، علىٰ أنَّ الشيوخ ؛ قالوا : عقوق الأُستاذِيْن

---

(١) أخرجه الترمذي : ٢٠٢٢ ؛ وقال : غريب ؛ عن أنس رضي الله عنه .

(٢) الآية : ٦٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها الرحمان جلَّ جلاله .

لا توبة عنها[1] الأَوْلى : عنه . وذلك لا بمعنى أنَّه معصيةٌ لا يتوب الله على فاعلها ، فإنَّه يقبل التوبة عن عباده في الكفر . . فما دونه ، بل بمعنى أنَّه لا ينبغي للشيخ أن يعفوَ عنه ، بل يؤدِّبهُ ، لأنَّ العفوَ عنه يجرِّئُه ؛ ويزيل عنه حرمةَ الشيخ من قلبه بالكلية[2] .

تبديل مجلس : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : **خرجت إلى مروٍ في حياة شيخي الأستاذ أبي سهل الصعلوكي ، وكان له قبل خروجي إليها أيامَ الجمعة بالغدوات مجلسٌ دَوْر** ـ وفي نسخة : درس ـ **القرآن والختم** ؛ بأن يختم بجماعته ختمة ، ثمَّ يبتدىء بأخرى . . **فوجدته عند رجوعي منها قد رفع ذلك المجلس ، وعقد لأبي الغفاني في ذلك الوقت مجلسَ القول** ؛ ليذكِّر به الناس ، وربَّما أنشدهم فيه أشعاراً ترقِّق قلوبَهم !! فداخلني من ذلك شيء من الاعتراض عليه !! **فكنت أقول في نفسي : قد استبدل مجلس الختم بمجلس القول !؟ فقال لي يوما مكاشفةً : يا أبا عبد الرحمان ؛ إيش يقولُ الناس فيَّ !!** . في هذا ستر لحاله حيث لم يقل له (ما الذي تقوله فيَّ ؟) . **فقلت له : يقولون (رفع أبو سهل مجلس ختم القرآن ووضع مجلس القول !) فقال لي : مَن قال لأستاذه(لم فعلت كذا) ؛ ولو على وجه السؤال . . بلا حاجة لا يفلح أبداً** . فحقُّه الانقياد والتسليم له ، ولعل أبا سهل إنَّما عَدَل عن مجلسِ ختم القرآن !! لما نقل عن الإمام مالك من أنَّه مكروه[3] .

---

(١) نقله النووي في « تهذيب الأسماء واللغات » ؛ عن سفيان رضي الله عنه .
قال العروسي رحمه الله ٤/ ١١٩ : لعلَّه لا توبة جائزة بدون تأديب علىٰ الذنب الذي وقع من المريد ! كما هو اللائق بالرأفة من المؤمنين بعضهم مع بعض .

(٢) فيه أنَّ العفو من صفات الكرم ، وقد ندبه له الحقُّ تعالىٰ لعباده بآيات الكتاب المبين !! .
قلت : لعل ذلك فيما إذا عادت مصلحة التأديب إلىٰ نفس العافي ، وما نحن فيه . . المصلحة تعود علىٰ فعل الذنب ! **ويؤيد ذلك** ما نصَّ عليه في كتب الفروع . . من أنّ الوالد لا ينبغي له العفو عن ولده إذا جنىٰ ذنباً ، بخلاف الزوج في ذنب زوجته !! **والفرق** : عود مصلحة التأديب في الأوّل علىٰ الولد الجاني ، وفي الثاني علىٰ الزوج العافي والله أعلم (عروسي : ٤/ ١١٩ ـ ١٢٠) .

(٣) انظر وجه الكراهة عنده رضي الله تعالىٰ عنه !! ولعل وجهها ما فيه من الابتداع الذي لم يعهد=

المبادر للحاجة : ومن المعروف أنَّ الجنيد ؛ **قال : دخلتُ على السريِّ السَّقَطي يوماً فأمرني شيئاً** : بشيء ؛ كما في نسخة ـ أي : **بقضاء حاجة له** .

فقضيت حاجته سريعاً ، فلما رجعت إليه . . ناولني رقعة ؛ وقال : خذ هذا لمكان قضاء حاجتك لي ـ يعني : حاجتي ـ **سريعاً . فقرأت الرقعة فإذا فيها مكتوبٌ : سمعتُ حادياً يحدو في البادية[1] يقول :**

أَبْكِي ؛ وَهَلْ يُدْرِيْكِ يا ليلىٰ ؛ مَا يُبْكِيْنِي ؟ !

أَبْكِي حِذَاراً من أنْ تُفَارِقِيْنِي

وَتَقْطَعِي حَبْلِي وَتَهْجُرِيني . وفي نسخة بعد هذا :

وتَجْعَلِيْنَ ٱلْبُعْدَ مِنْكِ دُونِي

إيضاح : جعل الرقعة جزاءَ السرعة في قضاء حاجته ، ورآها أسرعَ في صلاح حاله ، لأنَّ البكاء مع الله يختلفُ ، فقد يكون العبد بعيداً . . فيبكي لبعده ؛ طلبا لقربه ، وقد يكون قريباً . . فيبكي خوفاً من إبعاده !

فالسريُّ عَلِمَ من حال الجنيد أنَّه نال من معرفة الله ومحبَّته حالةً رفيعة ، فدَلَّه على سبب حفظها ، وأنَّه يبكي خوفاً من أن يُبعدَه الله عنه ، فأعطاه هذا الشعر الدالَّ على ذلك ، ولهذا أقام الله المشايخ ليداووا قلوب الطالبين ، ويردُّوا إليه الشاردين ، ومداواةُ كلِّ مريد باللائق بمرضه ، وهو ممَّا يختصُّ به

= في زمنه ﷺ ولا في زمن أصحابه ! إذ كان المعهود مدارسة القرآن من اثنين لا غير (عروسي : ٤/ ١٢٠) .

قلت : لعله أراد رفع الصوت والنَّبر به . قال القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) (١/ ١٠) : وروي عن مالك أنَّه سئل عن النَّبر في القرآن في الصلاة ؛ فأنكر ذلك وكرهه كراهة شديدة ، وأنكر رفع الصوت به ! .

أما إن كان المراد القراءة جماعة كما يفعله العوامُّ في زماننا من تلاوة السورة التي ذكر فيها يس ﷺ عِبَّ دفن الميت !! فلا شك في حرمة ذلك كما نقله المؤلف (قاضي القضاة شيخ الإسلام زكريا الأنصاري) **إجماعاً** عن الأئمة الأربعة رضي الله عنهم ! .

(١) أَبْكِي وَهَلْ يُدْرِيْكِ مَا يُبْكِيْنِي ؟! ... أَبْكِي حِذَاراً أَنْ تُفَارِقِيْنِي
وَتَقْطَعِي حَبْلِي وَتَهْجُرِيْنِي ... وَتَجْعَلِيْنَ ٱلْبُعْدَ مِنْكِ دُونِي
وانظر ما تقدم ص ٨٩٩ (رقعة السَّرِيِّ) !!

مشايخ هذا الفَنِّ ، فإنَّهم عرفوه علماً وسلوكاً وحالا .

تأديب بكلب : ويحكى عن أبي الحسن الهمداني العلوي ؛ قال : كنتُ ليلة عند جعفر الخلدي لزيارته ، وكنتُ أَمرتُ في بيتي أن يعلَّق طيرٌ ؛ وكان سميناً في التنوُّر ، وجعلتُ تحته جَذَّابة[1] ، وكان قلبي معه ، فقال لي جعفر : أقم عندنا الليلَة : لمصحلة لي ؛ أو لك . فتعلَّلت بشيءٍ لتعلُّق نفسي بالطير والجذَّابة . ورجعتُ إلى منزلي ، فأُخرج الطير مع الجذَّابة من التنُّور ، ووضع بين يديَّ ، فدخل كلبٌ من الباب وحَمَل الطير عند تغافل الحاضرين باشتغالهم بأسبابٍ يكمُل أكلُهم بها . . فأتىٰ بالجواذب : الجذابة الذي تحته ، فتعلَّق به ذيل الغلام لَمَّا انزعج وتحرَّك في طلب الكلب ؛ فانصبَّ ما كان تحت الطير !! فلما أصبحتُ . . دخلت على جعفر ، فحين وقع بصره عليَّ قال لي مكاشفة : مَن لم يحفظ قلوب المشايخ . . سُلِّط عليه كلبٌ يؤذيه ؛ عقوبة له ، فينبغي تجنُّب مخالفتهم ، فقد يكون لهم مقاصدُ صحيحة تخفىٰ على التلامذة ! فهذا الهمداني عُوقب بما ذكره فلم يأكل الطير . . ولا الجذَّابة .

الساقط بالمخالفة : وسمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله بن عليٍّ الطوسيَّ ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله الدينوري ؛ يقول : سمعت الحسن الدامغانيَّ ؛ يقول : سمعتُ (عمِّي البَسطامي) يحكي عن أبيه أنَّ شقيقاً البلخي وأبا تراب النخشبي قدِما على أبي يزيد البَسطامي لزيارته ، فقُدِّمت السُّفرة ، وهناك شابٌّ يخدم أبا يزيد ! فقالا له : كلْ معنا يا فتى ، وكان صائماً نفلاً . فقال لهما : أنا صائم . فقال له أبو تراب : كلْ وَلَك أجرُ صوم شهر ! فأبىٰ . فقال له شقيق : كلْ ولكَ أجرُ صوم سنة ! فأبىٰ . يعني كلٌّ منهما بما قاله : أنَّ أكلك معنا وإدخالَك السرور علينا أفضلُ من صومك . . فقال له شيخه أبو يزيد : دَعُوا : اتركوا مَن سقط من عين الله تعالى بمخالفته قول المشايخ . فأخذ ذلك الشابُّ في السرقة بعد سنة ، وقطعت يده ؛ عقوبة له .

---

(١) لعلها أشياء توضع في إناء الطبخ تجذب ما في اللحم من الدسم ؛ وتؤكل مع الطعام بعد نضجه (عروسي : ٤/ ١٢٠) .

الوليُّ الخباز : وسمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : وصف سهل بن عبد الله رجلاً بالولاية ، وكان خبازا بالبصرة ، فسمع رجلٌ من أصحاب سهل ابن عبد الله ذلك ، فاشتاق إليه ، فخرج إلى البصرة لزيارته . . فأتىٰ حانوت الخبَّاز فرآه يخبز الخبز ، وقد تنقب لمحاسنه[1] . . على عادة الخَبَّازين ؛ فإنَّهم يتنقبون . . بأن يُلقُوا على وجوهم المناديل وقت خَبْزهم ؛ خوفاً من احتراق شعر وجهه بالنار ؛ وتشوّه خَلْقه بلحوق حرارتها ووجهه حين يميل بشِقِّه ليضع الخبز في جوانب التنُّور . فقال في نفسه : لو كان هذا ولياً ـ كما قال الشيخ ـ لم يحترق شعره ، ولم يتشوَّه خَلْقه بغير نِقاب . . لأنَّ النار لا تسلَّط على الأولياء ! ثمَّ إنَّه سلَّم عليه . . وسأله شيئاً ـ : مسألة ـ من المسائل ، فقال له الرجل الخبَّاز مكاشفةً : إنَّك استصغرتني ، ولا ـ الأَوْلى : فلا ؛ كما في نسخة ـ تنتفعُ بكلامي . وأبىٰ أن يكلِّمَه ؛ عقوبةً له بمخالفة شيخه ، فحقُّ التلميذ تجنُّبها ، لأنَّه وإن سُلِّم أنَّ النار لا تسلَّط على الأولياء في الدنيا . . فَلَفُّ هذا الوليِّ وجهَه بالمنديل أسترُ لحاله ، فإنَّه يتعاطىٰ الأسباب التي يتعاطاها العوامُّ . وهو عند ربِّه من السادة الكرام .

ضبط القصد : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي رحمه الله ؛ يقول : سمع عبد الله الرازي أبا عثمان الحيريَّ يصف محمَّد بن الفضل البلخي ويمدحُه فاشتاق إليه . . فخرج إلى زيارته ، واجتمع بهِ بنيَّةِ الامتحان . . فلم يقع بقلبه من محمَّد بن الفضل ما كان اعتقده فيه ، فرجع إلى أبي عثمان وسأله ؛ فقال : كيف وجدتَه ؟ فقال له : لم أجده كما ظننتُـه ! فقال لي : لأنَّك استصغرته ، وما استصغرَ أحدٌ أحداً إلاَّ حُرِم فائدتَه ! اِرجع إليه بالحرمة له . . تنتفع به . فرجع إليه عبد الله بالاحترام له ، فانتفع بزيارته ؛ لخبر : « إِنَّمَا ٱلْأَعْمَالُ بِٱلنِّيَّاتِ »[2] . وخبر : « إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ »[3] . وقد قال تعالى

---

(١) جبينه وأنفه وخداه ومواضع الحسن من وجهه .

(٢) أخرجه الستة ومالك في « الموطأ » برواية محمد (انظر شرحه «منتهى الآمال» بتحقيقنا) .

(٣) تقدم تخريجه ص ٣٨٢ .

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾[1] .

عقوبة الحلاج : ومن المشهور أنَّ عمرَ بن عثمان المكيَّ رأىٰ الحسين بنَ منصور الحلاَّج يكتب شيئاً ؛ فقال له : ما هذا الذي تكتبه ؟! فقال : هوذا شيء أعارِضُ به القرآن . فدعا عليه وهَجَره لِعظَم ما سمعه منه !!

قال الشيوخ : إن ما حَلَّ به بعد طول المدَّة[2] . . كان لدعاء ذلك الشيخ عليه ! في ذلك تحذير من دعاء المشايخ وتغيير قلوبهم بما يطَّلعون عليه من فساد أحوال التلامذة .

الولي المنفيُّ : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : لمَّا نفىٰ أهل بلخ محمدَ ابنَ الفضل من البلد . . دعا عليهم ، وقال : (اللهم ؛ امنعهم الصدق) فلم يخرج من بلخ بَعْدَهُ ، ولا في زمنه صدِّيق . هذا كالذي قبله ؛ مع زيادة في التحذير من تغيير قلوبهم ؛ من حيث إنَّه يعذِّب به بعد موتهم .

مكافأة البارّ : سمعت أحمد بن يحيى الأبيوردي رحمه الله تعالى ؛ يقول : مَن رضي عنه شيخُه لا يكافأ - أي : يجازي - في حال حياته ، لئلا يزولَ عن قلبه تعظيمُ ذلك الشيخ فتنقصَ درجتُه باستنقاصه له ؛ لو كوفيء في حال حياة شيخه .

فإذا مات الشيخ أظهر الله عزَّ وجلَّ عليه ما هو جزاءُ رضاه ؛ رحمةً منه تعالى بهما ، وحفظا لمقاماتهما عليهما .

عقوبة العاقِّ : ومَن تغيَّر عليه قلبُ شيخه لا يُكافأ في حال حياة ذلك الشيخ ؛ لئلا يرِقَّ له فيرحمَه ، فإنهم - أي : مشايخ الصوفية - مجبولون على الكرم ، فإذا مات الشيخ . . فحينئذ يَجِدُ تلميذُه الذي تغيَّر هو عليه المكافأةَ .

وقولُه (بعده) ساقطٌ من بعض النسخ ! ولا حاجة إليه .

---

(١) الآية : ١٦٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

(٢) من الحكم بقتله . وقد قتل مصلوباً بفتوىٰ خاله الجنيد رضي الله عنه .

وقول (أعارض به . . .) قال الشيخ العروسي رحمه الله : ذلك منه ؛ وإن احتمل معنىً صحيحاً يحمله علىٰ بيان معانيه بعد عرض ألفاظه الشريفة علىٰ ذهنه !! غير أنّه لبشاعة ظاهره قد دعا عليه الأستاذ وهجره لخروجه عن طريق الأدب ، فعقابه وما حلَّ به ! لذلك .

٤٩ ـ باب السماع

تعريفه : هو الانتباه بالقلب إلى ما يُحمَد شرعاً .

ويقال غير ذلك . وسأتي بعضُه .

رتبته : وهو ممدوح ومطلوبٌ . . على ما يأتي ، **قال اللهُ عزَّ وجلَّ** ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ : الذي أثنى الله عليه وأمر باستماعه والتدبُّر له واتّباعه ، فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[1] وهو ما فيه كمالُ فلاحِهم ، فكلُّه حسن ، وهم يتَّبعون أحسنَه ، وأحسنُ كلِّ شيءٍ ما تضمَّنه الكتابُ العزيز .

واللام ـ وفي نسخة : والألف واللام ـ في قوله ﴿ يستمعون القول ﴾ تقتضي التعميم والاستغراقَ لأفراده ممَّا ذكرته .

والدليلُ عليه أنَّه مَدَحهم باتباع الأحسنِ ، وقال تعالى ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾[2] . . **جاء في التفسير أنَّه السماع المذكور** .

وسيأتي ص ٩٤٢ عن مجاهد : أنه السماع في الجَنَّة من الحور العين .

وقال تعالى ﴿ ۞وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[3] .

درجات السماع : والسماع على ثلاث درجات : ١ـ سماع العامَّة : عامَّة المريدين ، و٢ـ سماع الخاصَّة ، و٣ـ سماعُ خاصَّة الخاصَّة .

فسماع العامة : يحصل من دواعي الأعمال ؛ كالرجاء والخوف ، ورؤية النعم .

---

(١) الآية : ١٧ و١٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الزمر .

(٢) الآية : ١٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الروم .

(٣) الآية : ٨٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المائدة .

وسماع **الخاصَّة** من طروقِ الأحوال لهم .

وسماع **خاصَّة الخاصَّة** من فضل الله ، لشغلهم به عن غيره .

أسبابه : فسببُ سماع الطائفة الأولى التجريدُ للأعمال ، وسببُ سماع الثانية توالي الواردات والأحوال على قلوبهم ، وسببُ سماع الثالثة ما يجريه الله عليهم من فضله بلا واسطة .

السماع المباح : واعلم أنَّ سماع الأشعار بالألحان الطيِّبة والنِّغم المستلَذَّة ؛ إذا لم يعتقد المستمع لها أنَّ ثَمَّ محظوراً : ممنوعاً منه ، ولم يسمع على مذموم في الشرع ؛ كمِزمار وطُنبور . . ولم يَنْجَرَّ بسماعه لها في زِمام هواه ، ولم ينخرط في سلك لَهْوه ودنياه . . مباحٌ في الجملة .

ولا خِلاف أنَّ الأشعار أُنشدت بين يدي رسول الله ﷺ ، وأنَّه سمعها مِن منشديها ؛ ولم ينكر عليهم في إنشادها ، فإذا جاز استماعها بغير الألحان الطيِّبة ؛ فلا يتغيَّر الحكم بأن يسمع بالألحان المطربة ، هذا ظاهرٌ من الأمر : الحال .

السماع المستحبُّ : ثمَّ ما ـ أي : السماع الذي ـ يوجِب للمستمع تَوَفُّر الرغبة على الطاعات ، وتَذَكُّر ما أعدَّ الله لعباده المتَّقين من الدرجات ، ويحمله على التحرُّز من الزلاَّت ، ويؤدِّي إلى قلبه في الحال صفاءَ الواردات . . مستحبٌّ في الدين ، ومختارٌ في الشرع . وقد جرى على لفظ رسول الله ﷺ ما هو قريبٌ من الشعر ، وإن لم يقصد هو أن يكون شعراً ! ! .

عهد ورجز : فقد أخبرنا أبو الحسين عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد الصفَّار ؛ قال : حدَّثنا الحارث ابنُ أبي أسامة ؛ قال : حدَّثنا أبو النضر ؛ قال : حدَّثنا شعبةُ ؛ عن حميد ؛ قال : سمعت أنساً رضي الله عنه ؛ يقول : كانت الأنصار يحفرون الخندقَ ، فجعلوا يقولون :

نَحْنُ ٱلَّذِيْنَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ... عَلَىٰ ٱلجِهَادِ مَا بَقِيْنَا أَبَدَا

فأجابهم رسول الله ﷺ :

«اَللَّهُمَّ ؛ لاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ ٱلآخِرَهْ فَأَكْرِمِ ٱلأَنْصَارَ وَٱلمُهَاجِرَهْ»[١]

---

(١) متفق عليه . . البخاري : ٢٨٣٥ ، ومسلم : ١٣٠ ـ ١٨٠٥ ؛ عن أنس رضي الله عنه .

وليس هذا اللفظ منه ﷺ على وزن الشعر ؛ لكنه قريب منه!

السلف والسماع : وقد سمع السلف والأكابر الأبيات بالألحان . . فممن قال بإباحته : سماع الشعر الألحان من السلف مالكُ بن أنس رضي الله عنه ، وأهل الحجاز كلُّهم يبيحون الغِناءَ . المنقولُ عن مالك والحجازيين كراهَتُه !! فإن أُريد بالإباحة مقابلُ الحرمة ، وبالكراهة كراهةُ التنزيه . . فلا منافاة .

حداء الإبل : وأمَّا الحُداء ؛ وهو ما يقال خلف الإبل من رَجَز وغيره !!

فإجماعٌ منهـم على إجازتـه ، وقد وردت الأخبار واستفاضت الآثار في ذلك : بإجازة ذلك .

ابن جريج والسماع : ورُوي عن ابن جريج أنَّه كان يرخِّص في السماع ! فقيل له : إذا أُتي بك يوم القيامة ويُوتىٰ بحسناتك وسيئآتك ؛ ففي أيِّ الجانبين سماعُك !؟ فقال : لا في الحسنات ؛ ولا في السيئات . يعني أنَّه من المباحات . قيل : بل المشهور عن ابن جريج منعُه .

الشافعي والسماع : وأمَّا الإمام الشافعيُّ رحمه الله !! فإنَّه لا يحرِّمُه ـ: سماع الغناء ـ ويجعله في حقِّ العوامِّ الذين يرتكبون مكروها ، حتى لو احترف بالغناء ؛ أو اتصف على الدوام بسماعه على وجه التلهِّي . . تُرَدُّ به الشهادةُ ، ويجعله أيضاً مما يُسقِطُ المَروْءة ، ولا يُلحقه بالمحرَّمات .

الصوفية والسماع : وليس كلامُنا أيها الصوفيَّةُ في هذا النوع من السماع : نوع سماع الغناء . فإنَّ هذه الطائفة جَلَّت رتبتُهم عن أن يستمعوا بلهوٍ ؛ أو يقعدوا للسماع بسهوٍ ، أو يكونوا بقلوبهم مفكِّرين في مضمون لغوٍ ، أو يستمعوا على صفةٍ غيرِ كفـءٍ للسماع !!

وقد رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما آثار في إباحة السماع للغناء[1] .

---

(١) الإجماع في حقِّ سماع الناطق البشري للرجل بين الرجال ؛ أو المرأة بين النساء . . مع ضوابطه الشرعية ، وإنما الخلاف فيما يصاحب ذلك من آلات !؟ . **فليكن هذا هو التوفيق** بين المبيحين والمانعين ، وحينئذ فلا خلاف يذكر .

وكذلك عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[١] .

وكذلك عن عمر رضي الله عنهم أجمعين ، فجميعُهم أباحوا السماع في الحُداء وغيرِه . . لا سيما إذا ترتَّب عليه ما ينتفع به القلب ، وينشرح به الصدر ، ويحمل على كمال الأعمال ، ويكشف شريف الأحوال .

ونقل عن ابن عمر خلاف ذلك .

النَّبيُّ والسماع : وأُنشد بين يدي رسول الله ﷺ الأشعار فلم يَنْهَ عنها[٢] .

ورُوي أنَّه ﷺ استنشد الأشعار بين يديه[٣] !!

ومن المشهور الظاهر أنَّه دخل بيت عائشة رضي الله عنها ، وفيه جاريتان تغنِّيان . . فلم ينههما ﷺ عن ذلك !! .

غناء العيد : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَميُّ رحمه الله ؛ قال : أخبرنا محمد بن جعفر ابن محمد بن مطر ؛ قال : حدَّثنا الحباب بن محمد التُّستَري ؛ قال : حدَّثنا أبو الأشعث ؛ قال : حدَّثنا محمد بن بكر البرساني ؛ قال : حدَّثنا شعبةُ ؛ عن هشام بن عروة ؛ عن أبيه ؛ عن عائشة رضي الله عنها أنَّ أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه دخل عليها . . وعندها قَيْنَتَانِ ـ: أمتان مغنِّيتان ـ تغنِّيان بما تقاذفت ـ وروي : تقاولت ـ به الأنصار يومَ بُعَاث : يوم الوقعة بني الأوس والخزرج ـ فقال أبو بكر رضي الله عنه على وجه

---

(١) انظر له ولمن بعده شواهد وأدلة إباحة السماع في « إيضاح الدلالات في سماع الآلات » للعلامة المحقق الشيخ عبد الغني النابلسي (ط) .

(٢) تقدم تخريجه ص ٩٢٨ .

(٣) منها ما أخرجه مسلم : ١ ـ ٢٢٥٥ ؛ عن عمرو بن الشريد ؛ عن أبيه قال : ردفت رسول الله ﷺ يوماً ؛ فقال : « هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بنِ أَبي ٱلصَّلْتِ شَيْءٌ ؟ » قلت : نعم . قال « هِيْهِ » فأنشدته بيتاً ؛ فقال « هِيْهِ » . . . حتىٰ أنشدتُه مئة بيتٍ ! .
ومنها ما أخرجه البخاري : ٤١٢٤ ـ واللفظ له ـ، ومسلم : ١٥٣ ـ ٢٤٨٦ ؛ عن البراء بن عازب قال : قال النبيُّ ﷺ يوم قريظة لحسان بن ثابت : « أَهْجُ ٱلْمُشْرِكيْنَ ، فَإِنَّ جِبْرِيْلَ مَعَكَ » .
وفي المتفق عليه . . البخاري : ٣٢١٢ ، ومسلم : ٥١ ـ ٢٤٨٥ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يقول لحسان : «أَجِبْ عَنِّي ، اللَّهُمَّ ؛ أَيِّدْهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ » .

الإنكار : مزمار الشيطان (مرَّتين) !! فقال له رسول الله ﷺ : « دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ ، فإِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيْدَا ، وَعِيْدُنا هَذَا ٱلْيَوْم »[1] : الذي نغنِّي فيه .

غناء العرس : أخبرنا عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن عبيد ؛ قال : حدَّثنا عثمان بن عمر الضَّبِّيُّ ؛ قال : حدَّثنا أبو كامل ؛ قال : حدَّثنا أبو عوانة ؛ عن الأجلح ؛ عن أبي الزبير ؛ عن جابر ؛ عن عائشة رضي الله عنها أنَّها أنكحت ذاتَ قرابتها من الأنصار ، فجاء النَّبيُّ ﷺ ؛ فقال لها : « أَهْدَيْتُمُ ٱلْفَتَاةَ » إلى بعلها ؟! فقالت له : نعم . قال : « فَأَرْسَلْتِ مَنْ يُغَنِّي ؟ » . قالت : لا . فقال النَّبيُّ ﷺ : « إنَّ ٱلأَنْصَارَ فِيْهِمْ غَزَلٌ : رفع صوت بمحاسن العروس ليُحَبِّبوها لبعلها ، فَلَوْ أَرْسَلْتُمْ مَنْ يَقُولُ :

(أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيَّانَا وَحَيَّاكُمْ !!)»[2]

وفي نسخة : (فَحَيُّونَا نُحَيِّيْكُمْ) .

ويدلُّ لجوازِ ذلك خبرُ : « أَشْهِرُوا ٱلنِّكَاحَ ، وَٱضْرِبُوا عَلَيْهِ بِٱلدُّفِّ »[3] .

الصوت الحسن : أخبرنا الأستاذ الإمام أبو بكر محمد بن الحسين بن فُوْرَك رحمه الله ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن محمود بن خرزاذ ؛ قال : حدَّثنا الحسين بن الحارث الأهوازيُّ ؛ قال : حدَّثنا سلمة بن سعيد ؛ عن صدقة بنت أبي عمران ؛ قالت : حدَّثنا علقمة بن مرثد ؛ عن زاذان ؛ عن البراء بن عازب ؛ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

« حَسِّنُوا ٱلْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ ، فَإِنَّ ٱلصَّوْتَ ٱلْحَسَنَ يَزِيْدُ ٱلْقُرْآنَ حُسْناً »[4] .

---

(1) متفق عليه . . البخاري : ٩٥٢ ، ٩٨٧ ، ومسلم : ١٦ ؛ ١٧ ـ ٨٩٢ ؛ عن عائشة رضي الله عنها وعن أبويها .

(2) أخرجه أحمد ٣/ ٣٩١ ، وابن ماجه : ١٩٠٠ ، وابن حبان : ٥٨٧٥ ، والبزار : ١٤٣٢ ، والبيهقي : ٧/ ٢٨٩ ؛ عن جابر وابن عباس رضي الله عنهم .

(3) أخرجه الترمذي : ١٠٨٩ ؛ وقال : غريب حسن ، وابن ماجه : ١٨٩٥ ، والبيهقي : ٧/ ٢٩٠ ؛ عن عائشة رضي الله عنها وعن أبويها . . بلفظ « أعلنوا » .

(4) أخرجه الدارمي : ٣٥٠١ ، والحاكم ١/ ٥٧٥ ، وسكت عنه هو والذهبي .
ومن شواهده ما أخرجه أحمد : ٤/ ٢٨٣ ، وأبو داود : ١٤٦٨ ، والنسائي : ١٠١٤ ، وابن ماجه : ١٣٤٢ . « زَيِّنُوا ٱلْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ » ؛ عن البراء رضي الله عنه .

دَلَّ هذا الخبر على فضيلة الصوت الحسن ، لما فيه من زيادة المنفعة ؛ والتأثيرِ في قلب السامع ، لكن قد يقال : إنَّما دَلَّ على فضيلته في كتاب الله ؛ لا في الغناء . وفي قياسه عليه بُعْدٌ !! .

حلية القرآن : وأخبرنا عليُّ بن أحمد بن عبدان الأهوازيُّ رحمه الله ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن عبيد ؛ قال : حدَّثنا عثمان بن عمر الضَّبِّيُّ ؛ قال : حدَّثنا أبو الربيع ؛ قال : حدَّثنا عبد السلام ابن هاشم ؛ قال حدَّثنا عبد الله بن محرز ؛ عن قتادة ؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لِكُلِّ شَيْءٍ حِلْيَةٌ ، وَحِلْيَةُ ٱلْقُرْآنِ ٱلصَّوْتُ ٱلْحَسَنُ** »[1] . في سنده عبد الله بن محرز !! وهو ضعيف لا يحتجُّ به .

الأصوات الملعونة : وأخبرنا عليُّ بن أحمد الأهوازيُّ رحمه الله أيضاً ؛ قال : أخبرنا أحمد ابن عبيد ؛ قال : حدَّثنا محمد بن يونس الكريمي ؛ قال : حدثَّنا الضحَّاك بن مخلد : أبو عاصم ؛ قال : حدَّثنا شبيب بن بشر البَجَليُّ ؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

قال رسولُ الله ﷺ : « **صَوْتَانِ مَلْعُونَانِ . . ١ـ صَوْتُ وَيْلٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ ، و٢ـ صَوْتُ مِزْمَارٍ عِنْدَ نِعْمَةٍ** »[2] .

مفهومُ الخطاب : مفهوم المخالفة يقتضي إباحة غيرِ هذا : ما ذكر من الصَّوْتَين في غير هذه الأحوال !! أي : الحالين المذكورين ، وإلاَّ ! أي : وإن لم يقتضِ ذلك . . . **بَطَلَ التَّخصيصُ** !!

بيان الحق : الحقُّ أن الصوت الحسن محبوبٌ مطلقاً ، وإنَّما ذُمَّ في الحالين المذكورين !! لما قارنه من القصد الذميم .

والأخبار في هذا الباب تكثرُ ـ أي : كثيرة ـ والزيادة على هذا القدر من ذكر الروايات الدالَّةِ على ذلك تُخرجنا عن المقصود من الاختصار !

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في « مصنفه » : ٤١٧٣ ، والبزار ، والضياء المقدسي ؛ عن أنس رضي الله عنه .
وقوله (عبد الله بن محرز) . . صوابه : محرَّر براءين ! وهو متروك . قاله الهيثمي في « مجمع الزوائد » : ٧/ ١٧١ .

(٢) أخرجه البزار ، والضياء ؛ عن أنس رضي الله عنه كما في « الجامع الصغير : ٥٠٥٠» : « صَوْتَانِ مَلْعُونانِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ : مِزْمَارٌ عِنْدَ نِعْمَةٍ ، وَرَنَّةٌ عِنْدَ مُصِيبَةٍ » .

قصة فقيرة : وقد رُوي أنَّ رجلاً أنشد بين يدي رسول الله ﷺ[1] :

أَقْبَلَتْ : المحبوبةُ فَلَاحَ لَهَا

عارِضَانِ : فظهر لي عارضان لها كَالسَّبَجِ ؛ وهو الخرز الأسود

ثم أَدْبَرَتْ فَقُلْتُ لَهَا : في شأنها

وٱلْفُؤَادُ القلب : فِي وَهَجٍ : حرِّ النار منها :

هَلْ عَلَيَّ وَيْحَكُمَا أيها العارضان ؛ إنْ عَشِقْــتُ مِــنْ حَــرَجِ !!

فقال رسول الله ﷺ : « لاَ حَرَجَ عَلَيْكَ» . هذا حديثٌ موضوع .

زيادة الخلق : وروي أنَّ حُسنَ الصوت ممَّا أنعم الله به على صاحبه من الناس، قال الله تعالى ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾[2] قيل في التفسير من ذلك ـ أي : ممَّا يشاؤه من زيادة الخلق : الصوت الحسن ، فهو أمر موهبي لا كسبي . وذمَّ الله سبحانه الصوت الفظيع : الشنيع ؛ فقال تعالى ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾[3] .

واستلذاذ القلوب واشتياقها إلى الأصوات الطيبة واسترواحها إليها . . مما

---

(١)
أَقْبَلَــتْ فَــلاحَ لَهــا عــارِضــانِ كــٱلسَّبَــجِ
أَدْبَــرَتْ فقلــت لهــا وَٱلْفُــؤادُ فِــي وَهَــجِ
هَــلْ عَلَــيَّ وَيْحَكُمَــا إِنْ عَشِقْــتُ مِــنْ حَــرَجِ ؟!

ذكره السيوطي في « اللآلىء المصنوعة » : ٢/ ٢٠٧ !!

وذكره الفُتَّني في « تذكرة الموضوعات » : ١٩٧ قال : وعنه ﷺ مرَّ بحسَّان بن ثابت . . وقد رشَّ فناء أطمة وجلس . . فذكر وجهاً آخر ، وأضاف : تفرَّد به أبو أويس عن حسين المتفرد عن عكرمة . وحسين متروك ، أبو أويس ضعيف . قلت ـ أي : الفتني ـ: أخرجه أبو نعيم من وجه آخر عن أبي أويس . قال ابن حجر : ورواه ابن وهب عن أبي أويس . والله أعلم .

(٢) الآية : ١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : فاطر . وقُرِىءَ شاذاً ﴿ بالحلق ﴾ . بالحاء المهملة فيكون أدلَّ . وقوله (قيل في التفسير) !! هو قول الزهري وابن جريج ؛ كما في « القرطبي » ١٤/ ٣٢٠ .

(٣) الآية : ١٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : لقمان .

لا يمكن جحوده : إنكاره ، فإنَّ الطفل يسكن إلى الصوت الطيِّب ، والجمل يقاسي تعب السير ومشقَّة الحُمُولة : الأحمال فيهون عليه ذلك بالحُداء . قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ـ نظر اعتبار ـ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[1] ليستدلُّوا بها على قدرة الله تعالى على إلهامه لها السكون إلى الأصوات الحسنة .

الحسُّ المرهف : وحكىٰ إسماعيلُ ابن عُلَيَّة[2] أنَّه قال : كنتُ أمشي مع الشافعيِّ رضي الله عنه وقتَ الهاجرة ؛ فجزنا بموضع يقول : ينشد فيه أحدٌ ـ الأُوْلى : واحد ـ شيئاً ، فقال لي : مل بنا إليه لنسمع صوته ! فملنا إليه فسمعناه ، ثم قال لي : أيطربك هذا ؟ فقلت : لا . فقال : ما لَكَ حِسٌّ ؟! .

لعل إطرابَه إنَّما كان لتضمُّنه معانيَ حسنةً يختصُّ بإدراكها بعضُ الناس دونَ بعض ؛ لا لمحض الصوت ، فإنَّ حُسْن الصوت لا ينكره أحد ؛ كما مرَّ .

التغنيِّ بالقرآن : وقال رسول الله ﷺ : « مَا أَذِنَ ٱللهُ : ما استمع لشَيْءٍ كَأَذَنِهِ ـ بفتح الذال : كاستماعه ـ لِنَبِيٍّ حَسَنِ ٱلصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِٱلْقُرْآنِ »[3] : يجهر به . والمراد باستماعه له الرِّضا والقبول .

أجلُّ الإذن : أخبرنا عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد ؛ قال : حدَّثنا ابن ملحان ؛ قال : حدَّثنا يحيى بن بكير ؛ قال : حدَّثنا الليث ؛ عن عقيل ؛ عن ابن شهاب ؛ أنَّه قال : أخبرني أبو سلمة ؛ عن أبي هريرة ؛ قال :

قال رسول الله ﷺ : « لَمْ يَأْذَنِ ٱللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذَنَ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّىٰ بِٱلْقُرْآنِ »[4] .

تلاوة داود : وقيل : إنَّ داوُد عليه السلام كان يستمع لقراءته الجنُّ والإنس والطير والوحش إذا قرأ « الزبور » ، وكان يُحمَل من مجلسه أربع مئة جنازة ممن قد

---

(١) الآية : ١٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الغاشية .

(٢) هو إسماعيل بن إبراهيم المعروف بـ« ابن عُلَيَّة » أحد الأعلام ، غير أنه كان يقول بخلق القرآن ثم عاد ، ولذا قال الذهبيُّ في « السير » : إمامة إسماعيل وثيقة لا نزاع فيها ، وقد بدت منه هفوة ثم تاب ؛ فكان ماذا ؟!! (انظر « أحاسن الأخبار » ص٢٩٦ بتحقيقنا) .

(٣) متفق عليه ؛ عن أبي هريرة . . البخاري : ٧٥٤٤ ، ومسلم : ٢٣٣ ـ ٧٩٢ .

(٤) متفق عليه . . البخاري : ٥٠٢٣ ؛ ٥٠٢٤ ، ومسلم : ٢٣٢ ـ ٧٩٢ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

مات . . ممن قد سمعوا قراءته وموعظته ـ وفي نسخة : من سماع قراءته ـ .

تلاوة أبي موسى : وقال ﷺ لأبي موسى الأشعري في شأنه : « لَقَدْ أُعْطِيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيْرِ آلِ دَاوُدَ »[1] .

تلاوة معاذ : وقال معاذ بن جبل لرسول الله ﷺ : لَو علمتُ أنَّك تسمعُ قراءتي لحبَّرته لك تحبيرا[2] ! : لحَسَّنتُه لك تحسينا ؛ وزيَّنته لك تزييناً ، والمراد تحسينُ ما يتلوه بحسن إيراده .

الحدَّاء المِفَنّ : أخبرنا أبو حاتم السجستاني ؛ قال : أخبرنا عبد الله بن علي بن السرَّاج ؛ قال : حكىٰ أبو بكر محمد بن داود الدينوري الرِّقي ؛ قال : كنتُ في البادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافني رجل منهم ، فرأيت غلاماً أسود مقيَّداً هناك ، ورأيت جمالاً قد ماتت بفناء البيت ، فقال لي الغلام : أنت الليلة ضيف عند مولاي ، وأنت على مولاي كريمٌ ، لأنَّه يكرم الضيوف فتشفَّع لي ، فإنَّه لا يردُّك !! فقلت لصاحب البيت : لا آكلُ طعامك حتَّى تخلِّيَ ـ وفي نسخة : تحلَّ ـ هذا العبد : تفكُّه من قيده . فقال لي : هذا الغلام قد أفقرني وأتلف مالي . فقلت له : فما فعل ؟ فقال : له صوت طيِّب وكنتُ أعيش بما أكتسبه من ظهر هذه الجمال ، فحملَّهَا أحمالاً ثقيلة . . وحَدَّىٰ لها ، حتَّى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في يوم واحد ، فلما حَطَّ عنها . . ماتت كلُّها . ولكن قد وهبتُه ـ ذنَبه ـ لك ، وقبلتُ شفاعتَك فيه . وحَلَّ عنه القيد ، فلما أصبحنا أحببت أن أسمعَ صوته . فسألتُه ـ أي الواهب ـ ذلكَ ، فأمر الغلامَ أن يحدوَ على جمل كان على بئر هناك . . يستقى عليه ، فحدا ! فهام الجمل على وجهه ، وقطع حِبَاله !! ولم أظنَّ أنِّي سمعت صوتا أطيبَ منه ، فوقعت لوجهي حتَّى أشار إليه بالسكوت فسكَتَ .

[انظر ص ٩٥٧]

خطاب الميثاق : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت

---

(١) متفق عليه . . البخاري : ٥٠٤٨ ، ومسلم : ٢٣٥ ـ ٧٩٣ ؛ عن أبي موسىٰ رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ : ٧٢٧٩ ، والبيهقي ١٠/ ٢٣٠ ، لكن عن أبي موسىٰ ؛ لا عن معاذ !! فلعله سهو من المؤلف رحمه الله .

محمد بن عبد الله بن عبد العزيز ؛ يقول : سمعت أبا عمر الأنماطيَّ ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول . . وقد سئل : ما بال الإنسان يكون هادئاً . . فإذا سمع السماع اضطرب بقلبه مع جوارحه ؛ وبدونها ؟! فقال زائد : إنَّ الله سبحانه لمَّا خاطب الذَّرَّ في الميثاق الأوَّل بقوله ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ استفرغت عذوبةُ سماع الكلام المخاطب به الأرواح ، فالمراد بالذريَّة والذَّرِّ الأرواحُ التي خلقت قبل الأشباح .

فلما سمعوا السماع حرَّكهم السماعُ ذكر ذلك الذي خوطبوا به ، فالأرواح كلُّها أقرَّت لله بالربوبيَّةِ ، وعلى هذا حُمل خبرُ : «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ ٱلفِطْرَةِ . . فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ»[1] . وهي فطرة التي فطر الناس عليها ، فمن سَبقَ في علمه تعالى أنَّه يدوم على الفطرة بعد خلق جسمه ، ويكمل شرف روحه بالطاعات ؛ وبالمواهب الربَّانية . . قرَّت روحه إليه تعالى عند طروق سماعه ما يذكِّرُه ذلك الميثاق .

أحكام السماع : سمعت الأستاذ أبا علي الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : السماعُ . .

١ـ **الحرام** : حرامٌ على العوامِّ لبقاء نفوسهم ، فهي لما تسمعه من الشعر ونحوه بالألحان مائلةٌ إلى ما اعتادته من الشهوات .

٢ـ **المباح** : مباحٌ للزهَّاد لحصول مجاهداتهم ، لأنَّهم عرفوا اللهَ وجاهدوا أنفسهم في طلبه ، وأعرضوا عنها . . فلا يتضرَّرون بالسماع ، بل يُرجَى لهم به الانتفاع .

٣ـ **المستحب** : مستحبٌّ لأصحابنا الصوفية الذين ارتقوا عن مجاهدة أنفسهم ، وغلب على قلوبهم مناجاةُ ربِّهم ، وتمكَّنوا في الأحوال حتَّى صارت مقاماتٍ لحياة قلوبهم ، فالسماعُ في حقِّهم يزيدُهم حياةً وقربا ، ويوالي عليهم بِرّاً ولطفاً .

مجالي المتعة : سمعت أبا حاتم السجستاني ؛ يقول : سمعت أبا نصر الصوفيَّ ؛ يقول : سمعت الوجيهي ؛ يقول : سمعت أبا عليٍّ الروذَباريَّ ؛ يقول : كان الحارث بن أسد المحاسبيُّ ؛ يقول :

---

(١) متفق عليه . . البخاري : ١٣٥٨ ؛ ١٣٥٩ ؛ ٤٧٧٥ ؛ ٦٥٩٩ ، ومسلم : ٢٢ ـ ٢٦٥٨ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه : « ما من مولود إلا يولد . . . . » .

ثلاثٌ إذا وُجدت تمتَّعْ ـ وفي نسخ : متع ـ بِهنَّ في الدنيا وذلك قليل ، قال الله تعالى ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ﴾[1] فلا يجدُ العبد الراحة إلاَّ بهذه الثلاث ، وقد فقدناها ! !

١ـ **الوجه المصان** : أحدها : حسنُ الوجه : الاقبال ، والملقى في الظاهر بين الإخوان . . مع الصيانة للباطن عن التكلُّف ؛ و مخالفة الظاهر .

٢ـ **الصوت الدَّيِّن** : وثانيها : حسن الصوت ؛ بأن لا يتكلَّم إلاَّ بما يثابُ عليه . . مع الديانة الحاصلة بالطاعات .

٣ـ **الأُخوَّة الوفيَّة** : وثالثها : حسن الإخاء بأن ينظر كلُّ واحد في حقِّ أخيه ؛ كما ينظر في حقِّ نفسه ، بل يؤثره على نفسه مع دوام الوفاء بذلك .

مورد الصوت : وسئل ذو النونِ المصريُّ عن الصوت الحسن ؛ فقال : هو مخاطبات وإشارات أودَعَها اللهُ كلَّ ذَكَر طيِّب ، وكلَّ أنثىٰ طيِّبة .

مورد السماع : وسئل مرَّة أُخرى عن السماع ؛ فقال : هو واردُ حقٍّ يزعج القلوب : يحرِّكُها إلى الحقِّ تعالى ، فمن أصغى إليه الواردُ بحقٍّ . . تحقَّق وتمكَّن من حقّ ، ومن أصغى إليه بنَفْسٍ وباطل . . تزندق .

مواطن الرحمة : وحكىٰ جعفر بن نصير عن الجنيد أنَّه قال : تنزل الرحمةُ على الفقراء في ثلاثة مواطن :

١ـ **السماع الحقّ** : أحدها عند السماع ، كما قال تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2] ، وقال النَّبيُّ ﷺ : « مَا ٱجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ ؛ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ . . إلاَّ غَشِيَتْهُمُ ٱلرَّحْمَةُ ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّكِيْنَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ ٱلمَلاَئِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ ٱللهُ فِيْمَنْ عِنْدَهُ »[3] . .

---

(١) الآية : ٧٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

(٢) الآية : ٢٠٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

(٣) أخرجه أبو داود : ١٤٥٥ ، ومسلم : ٣٩ ـ ٢٧٠٠ ، بلفظ « لا يقعد . . . يذكرون . . » ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فإنَّهم لا يسمعونَ إلى عن حقٍّ ، ولا يقولون إلاَّ عن وَجْدٍ صادق ، ويستحيون من ربِّهم أن يطَّلعَ على قلوبهم ؛ وهم يتكلَّفون لغيره .

٢ـ طعام الفاقة : وثانيها : عند أكل الطعام ؛ فإنَّهم لا يأكلون إلاَّ عن فاقة لينشَطُوا للعبادة .

٣ـ مجاراة العلم : وثالثها : عند مجاراة العلم ، فإنَّهم لا يذكرون مع صفات الله تعالى ورسله إلاَّ صفاتِ الأولياء ؛ من أحوالهم ومقاماتهم .

فتنة السماع : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت الحسين بن أحمدَ بنِ جعفر ؛ يقول : سمعت أبا بكر بن ممشاد ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : **السماعُ** فتنة : امتحان وابتلاء لمن طَلَبه ، لأنَّ مَن طلبه تكلَّف له ، وَمن تكلَّف له استجلبه بظاهره ، ومَن استجلبه . . قارنه الرياء والتشبُّع بما لم ينل ، فليحذر مِن طلبه . **ترويحٌ** لمن صادفه ـ أي : راحة لمن أتاه بغتة ـ وقهره من فضل ربِّه ؛ فهو ترويح لقلبه ؛ وعونٌ له في سلوكه ونيل لطلبه .

مطالب السماع : وحُكي عن الجنيد أنَّه قال : السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء :

١ـ الزمان : سلامته مما يشوِّشُ على القلوب من الأسباب للتفرُّغ للسماع .

و٢ـ المكان : سلامته من الأغيار والأضداد ؛ بأن يكون خالياً عما لا يوافقه ليسْلَمَ من القبض والتكلُّف في الأحوال .

و٣ـ الإخوان ليتَّخذ المقاصد وتحصُل المساعدة في نيل الفوائد .

الفتنة والعبرة : وسئل الشِّبليُّ عن السماع ؛ فقال : ظاهرهُ فتنةٌ ؛ لما فيه من سماع غناء بأصوات حسنة ، وربَّما كان معه آلات ! وباطنهُ عبرةٌ ؛ للسامع بما يفهمه مما سمعه . . مما يدلُّ على المحبَّة والشوق والقُرْب والبعد ونحوها . فمَن عرف الإشارة من الكلام . . حَلَّ له استماع العِبرة ، وإلاَّ ! فقد استدعىٰ الفتنة وتعرَّض للبليَّة ؛ لعدم معرفته الإشارة .

صلوح السماع : وقيل : لا يصلح السماع إلاَّ لمن كانت له نفس ميتة وقلبٌ حيٌّ ، فنفسه ماتت . . لأنَّها ذبحت بسيوف المجاهدة . . فخرجت بها عن شهواتها وعاداتها ، وقلبهُ حيٌّ بنور الموافقة للأوامر والنواهي ، فإنَّ

موافقتها سببٌ لتوالي النِّعم والمعرفة والمناجاة ودوام المشاهدة .

معنى السماع : **وسئل أبو يعقوب النَّهْرَجُوري عن السماع ؛ فقال : هو حال يبدي : يظهرُ الرجوع إلى الأسرار** : المعاملات التي بين السامع وربِّه ؛ مِنْ حيث **الاحتراقُ** . فالسماعُ حالٌ يظهر هذه الأسرار على ظاهر السامع من المحبَّة والشوق والقرب والبعد . . ونحوها .

وقيل : **السماع لطف غذاء** الأرواح **لأهل المعرفة** ؛ أي أرواحهم تتغذَّى وتعيش بالمعاني اللطيفة التي تفهم من السماع ، ويقوىٰ بها جِدُّها وطلبها ، ويدوم أنسها بمحبوبها ، ويظهر عليه طربُها .

قيود السماع : **سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : السماعُ ١ـ طبع**[1] ؛ بأن يستجلبه السامع بالغناء والآلاتِ . . **إلاَّ عن شرع** : سبب مأذون فيه شرعاً ؛ بأن يستجلبه بسماع القرآن والمواعظ ؛ أو الشعر الجائز . . **و٢ـ خرق** ؛ بأن يقوم في السماع ويرقص ويصيح . . **إلاَّ عن حقٍّ** : غلبة . **و٣ـ فتنة** ؛ بأن يستجلبه بسماع الأشعار الموضوعة لمدح المخلوقين وجَمَالِهم وقُرْبهم وبُعْدهم . . **إلاَّ عن عبرة** ؛ بأن يعتبر بما سمعه من ذلك حالَه مع مولاه ؛ فيسلم من الفتنة .

قسما السماع : **ويقال : السماعُ على قسمين** :

أولهما : **١ـ سماع بشرط العلم والصحوِ فمن شرط صاحبه** ؛ أي : ما ذكر من العلم والصحو **معرفةُ الأسامي والصفات** التي لله تعالى ليصفَه بما يليق بجلاله مما سمعه ؛ وينفي عنه ما سواه ، **وإلاَّ ! وقع في الكفر المحض** والعياذ بالله .

---

(١) أي ينشأ بموافقة الطبع الحيواني والمألوف الشهواني ، وحينئذ فثمرته الطبع علىٰ القلب ؛ حتىٰ لا تؤثر فيه المواعظ . فقول الشارح (بأن يستجلبه . . .) تصوير للسماع الذي يُحذَر . وقوله (إلاّ عن شرع) . . أي : إلاّ السماع الناشيءُ عن سبب مأذون فيه شرعاً ؛ بأن يستجلبه بسماع القرآن والمواعظ والشعر الجائز ؛ كما ذكره الشارح ، فإنَّه من الوسائل المُدْنية من عليِّ المقامات (عروسي : ٤/ ١٣٢) .

ثانيهما : و٢ـ سماعٌ بشرط الحال ، فمن شرط صاحبه الفناءُ عن أحوال البشرية ، والتنقِّي من آثار الحظوظ ؛ بظهور غَلَبة أحكام الحقيقة على السامع بشُغله بربِّه ودوامِ مراقبته له بحيث نسي سائر خلقه .

أحبُّ السماع : وحُكي عن أحمد ابن أبي الحواري أنَّه قال : سألتُ أبا سليمان عن السماع ؛ أي أَحَبِّه !! فقال هو من اثنين ـ: دليلين ؛ أو مسمعين ـ أحبُّ إليَّ منه من الواحد ، لأنَّ تأثير القلب بالاثنين أبلغُ وأقوى وأنفع . . من تأثيره بالواحد .

سماع الصوفيِّ : وسُئل أبو الحسن النوريُّ عن الصوفي ؛ فقال : هو مَن سمع السماع وآثر الأسباب : أسباب السماع ، فإذا كان سببَ سماعِه كلامُ الله تعالى ، أوموعظةٌ من أخ صادق . . كان إيثاره له ومحبَّتُه له أكثرَ من غيره .

الروذباري والسماع : وسئل أبو عليٍّ الروذباري عن السماع يوماً ؛ فقال : ليتنا تَخَلَّصنا منه رأساً برأس : لا لنا ؛ ولا علينا . خوفاً من التكلُّف واستجلاب الأحوال مع الجماعة .

مدعي السماع : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا عثمان المغربي ؛ يقول : مَن ادَّعى السماع ؛ ولم يسمع صوتَ الطيور وصرير الباب وتصفيق الرياح : ولم ينتفع بسماعه لها . . فهو فقير مدَّعٍ .

لأنَّ الصوفيَّ الكامل قد رَقَّ قلبه وقوي إدراكُه ، فله في كلِّ صوتٍ سماعٌ ، سواءٌ كان من طير ؛ أم من رعد ؛ أم من تصفيق ريح ؛ أم غيرها . . على غفلة لتأثُّر قلبه وانزعاجه بأدنىٰ سبب ، كما قال بعضُهم (ما رأيتُ شيئاً حتَّى رأيت اللهَ) ؛ أي كلُّ حادث يذكِّرُه المحدِثَ .

ابن زيري والسماع : سمعت أبا حاتم السجستانيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج الطوسيَّ ؛ يقول : سمعت أبا الطيِّب أحمدَ بن مقاتل العَكِّي ؛ يقول : قال جعفر : كان ابن زيري (من أصحاب الجنيد) شيخاً فاضلاً . . فربَّما كان يحضر موضع سماع ، فإن استطابه ووجد فيه خيراً . . فَرَش إزاره وجلس لكمال الخير ؛ وقال : الصوفيُّ راحتُه مع قلبه . وإن لم يستطبه . قال : السماعُ لأرباب

القلوب ! أَخبرَ أنَّ قلبه بهذا الوقت ليس بطيِّب . . ومرَّ : انصرف وأخذ نعله ، ولم يتكلَّف لسماع .

الصوفية والسماع : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الواحد بن بكر ؛ يقول : سمعت عبد الله بن عبد المجيد الصوفيَّ ؛ يقول : **سئل رويمٌ عن وجود الصوفية ؛ أي : عما يجدونه عند السماع . . فقال : يشهدون المعانيَ المرضيَّة للَّهِ التي تعزب عن غيرهم ، فتشير إليهم . . اِئتوا إليَّ إليَّ فيتنعَّمون بذلك من الفرح . لأنَّ كلَّ عارف بالله . . له معه معاملةٌ وقُرْبٌ بحسب حاله ؛ وما فتح الله به عليه . .**

تفاوت أحوالهم : فـ ١ـ منهم خائف ، و٢ـ منهم راجٍ ، و٣ـ منهم مقبوض ، و٤ـ منهم مبسوط ، و٥ـ منهم محبٌّ ، و٦ـ منهم مشتاقٌ ، و٧ـ منهم واجد ، و٨ـ منهم مراقب ، و٩ـ منهم مشاهد ، فإذا سمعوا السماعَ دلَّ المسموعُ كلَّ واحد منهم على المعنى الذي بلغ إليه في معاملته وقربه من مولاه ، فإن كان متمكِّناً . . قوي عليه الفرحُ والأُنس والانبساط .

ثمَّ يقع الحجاب لهم ليتأكَّد شوقُهم ويقوىٰ طلبُهم لما كانوا فيه ، فيعود ذلك الفرحُ بكاءً ، فـ ١ـ منهم مَن يخرق ثيابه ، و٢ـ منهم من يصيح ، و٣ـ منهم مَن يبكي ، و٤ـ منهم من يُغشىٰ عليه ، و٥ـ منهم مَن يموت . . كلُّ إنسان على قَدْره : قدرِ تعلُّقه بربِّه ورفعةِ مقامه ، وعِظَم بُعْده وحجبه .

السماع الباقي : سمعت محمد بن أحمد بن محمد التميمي ؛ يقول : سمعت عبد الله بن علي ؛ يقول : سمعت الحصري ؛ يقول . . **في بعض كلامه : إيش أعمل بسماع ينقطع إذا انقطع مَن يسمع منه ! فلا ينبغي للسامع هذا السماع ؛ وهو السماع المعتاد الذي بالآلات وجميل الأصوات ، بل ينبغي أن يكون سماعُك سماعاً متصلاً غيرَ منقطع . قال :**

شراب السامع : وقال الحصريُّ أيضاً ما هو كالتفسير لذلك : **ينبغي أن يكون للسامع ظمأٌ دائمٌ وشرب دائم ، فكلما ازداد شربُه . . ازداد ظمؤُه . وذلك بداوم معرفة الله ومحبَّته ومناجاته ، والاشتغال به حتَّى تتأنَّس القلوب به ؛ وتنال من فضله وعطاياه ، وما يمنحه لها الله ، فإذا وصل العبدُ إلى هذا السماع . . لم يصبر عنه بحال ، وكلَّما ازداد شربُه منه والانتفاع . . توالى عَطَشه عليه ،**

وتواردت على قلبه الأوجاع ، فعَمَل المؤمن دائمٌ لا ينقطع ، قال تعالى ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[1] : الموت . وقال النَّبيُّ ﷺ : « أَحَبُّ ٱلعَمَلِ مَا دَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ »[2] .

قينات الجنة : وجاء عن مجاهد ؛ في تفسير قوله تعالى ﴿ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴾[3] : أنَّه معناه السماعُ من الحور العين بأصوات شهيَّة : نحن الخالدات . . فلا نموت أبداً ، نحن الناعمات . . فلا نَبْأَس أبداً ؛ كسائر أهل الجنة ، إذ لا موت فيها ولا شِدَّة ، والبأس الشدَّة في الحرب ونحوِه يقال منه(بَؤُس الرجل يبأس بأساً) . . إذا كان شديدَ البأس .

السماع والوجد : وقيل : السماع نداء من الله للعبد ، والوجد من العبد قصد وإجابة له .

سماع أهل الحق : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا عثمان المغربي ؛ يقول : **قلوبُ أهل الحقّ قلوبٌ حاضرة وأسماعُهم أسماعٌ مفتوحة** .

في ذلك دلالة على دوام تكلُّف القلوب للحضور والسماع ، فلما كملت أحوالها . . كُشف لها في وقت عن الجلال والجمال ؛ ليكمل إدراكها . وستر ذلك عنها في وقت ؛ ليَعْظُم لَهَبُها واشتياقها . . فهي بين كشف واستتار ،

---

(١) الآية : ٩٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحِجْر .

(٢) متفق عليه . . البخاري : ٤٣ ، ومسلم : ٢١٥ ـ ٧٨٢ ؛ عن عائشة رضي الله عنها وعن أبويها بلفظ : « أَحَبُّ ٱلأَعْمَالِ إِلىٰ ٱللهِ أَدْوَمُها . . وَإِنْ قَلَّ » .

(٣) الآية : ١٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الروم . لكن الظاهر أنَّ عزوَه إلىٰ مجاهد سهوٌ ، إذ في «تفسيره» ٢/ ٥٠٠ : تنعَّمون!! وهي بلغة قيس عيلان؛ كما ذكره السيوطي في «الإتقان» : ١/ ١٧٧ ، وهكذا نقله العلامة القرطبي في « تفسيره » : ١٤/ ٢٤ ، وابن كثير : ٣/ ٤٢٨ ، وقد عزيا (سماع الغناء) إلىٰ يحيىٰ ابن أبي كثير هكذا أخرجه الترمذي : ٢٥٦٨ عنه .
وفي « لسان العرب » (حبر) ، و« زاد المسير » : ٦/ ٢٩٣ ؛ عن الزجَّاج : الحبرة في اللغة كلُّ نغمة حسنة .
ويدل لما ورد أنه السماع ما ورد (لحبَّرته لك تحبيراً) ؛ عن أبي موسىٰ راجع ص ٩٣٥ .
ونداء الحور العين أخرجه أحمد : ١/ ١٥٦ ، والترمذي : ٢٥٦٧ ؛ عن علي وقال : غريب .

وحياة ودمار ، ونيل وانتظار ، قال تعالى في وصف المؤمنين ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[1] ، ووصف الكفار بأنَّهم في أذانهم وقر ، وبأنَّه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم .

حال المستمع : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعتُ الأستاذ أبا سهل الصعلوكيَّ ؛ يقول : المستمع بين استتار وتجلٍّ ، فالاستتار يوجب التلهيب : الاشتياق ، والتجَلِّي يورث - وفي نسخة : يوجب - الترويح ، والاستتار يتولَّد منه حركات المريدين ؛ وهو - أي الاستتار - محلُّ الضعف والعجز ، والتجلِّي يتولَّد منه سكونُ الواصلين إلى الله تعالى ؛ وهو محلُّ الاستقامة والتمكين ، وذلك صفةُ الحضرة ؛ ليس فيها إلاَّ الذبول تحت مواردِ الهيبة ، قال الله تعالى ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ - أي : قال بعضهم لبعض - أَنصِتُواْ ﴾ : أصْغُوا لاستماعه .

أوجه السماع : وقال أبو عثمان الحيريُّ : **السماعُ** لكونه إنَّما طُلب للانتفاع . . والخلق فيه ثلاثةُ أقسام : مبتدىءٌ ، ومُنْتهٍ ، ومتوسِّطٌ **على ثلاثة أوجه** . .

١- للمريدين : ١- فوجهٌ منها للمريدين والمبتدئين . . يستدعون بذلك الأحوال الشريفة ، ويُخشى عليهم في ذلك الفتنةُ والمراءاةُ ، فسماعُهم لتحصيل ما لم يحصل ، وهم متكلِّفون عاملون في أسباب التحصيل . . بالفكر والبكاء ، وخلطة أرباب الأحوال ، فيخشى عليهم دخولُ آفات الأعمال . . من الرياء والعجب ؛ وغيرِهما مما يفسد الأحوالِ .

٢- للصادقين : والثاني للصادقين . . يطلبون الزيادة في أحوالهم ، ويسمعون من ذلك السماع ما يوافِقُ أوقاتهم ، فسماعُهم لكمال الأحوال والترقِّي في درجات الكمال .

٣- للعارفين : والثالث لأهل الاستقامة من العارفين بالله ، فهؤلاء لا يختارون على الله : لا ختيار لهم فيما يَرِدُ من الله على قلوبهم . . من الحركة والسكون ، بل هي محلٌّ لذلك ، فسماعهم لدوام الكمال .

---

(١) الآية : ٣٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : قَ .

السامع الصادق : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا الفرج الشيرازيَّ ؛ يقول : سمعت أبا عليٍّ الروذَباريَّ ؛ يقول : كان أبو سعيد الخرَّاز ؛ يقول : مَن ادَّعى أنَّه مغلوب على قيامه وحركاته عند الفهم ـ يعني في السماع ـ وأنَّ الحركاتِ مالكةٌ له . . فعلامتُه : علامة صدقه في دعواه تحسينُ أهل المجلس الذي هو فيه ، بوجده بأن يؤثِّر فيهم حالُه بما ظهر عليه مِن أمارة الغَلَبة والقهر في حركاته وسكناته ، فيوقع الله صدقَه في قلوبهم ؛ فينال كُلّاً منهم نصيبٌ من حاله .

علامة الصدق : قال الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَميُّ : فذكرت هذه الحكاية لأبي عثمان المغربي ؛ فقال : هذا : ما ذكر من علامات صدقه أدناه ، وأمَّا علامتُه الصحيحة الدالَّة على كمالِ صدقه وتناهي حاله . . فهي : أن لا يبقى في المجلس مُحِقٌّ إلاَّ أَنِس به ، لأنَّه وجد بعض ما وجد ؛ أو مثلَه ، ولا يبقى فيه مبطِلٌ منكِرٌ إلاَّ استوحش منه ، لأنَّه أنكر عليه حاله .

أحوال السامعين : وقال بندار بن الحسين : السماعُ الحاصلُ للناس على ثلاثة أوجه . ١ـ منهم مَن يسمع بالطبع ، و٢ـ منهم من يسمع بالحال ، و٣ـ منهم مَن يسمع بحقٍّ ـ وفي نسخة : بالحقِّ ـ .

١ـ السامع بالطبع : فالذي يسمع بالطبع يشتركُ فيه ـ : فيما يسمعه ـ الخاصُّ والعامُّ ، فإنَّ جِبلَّةَ ـ الأَوْلى الجبلِّيَّة ـ البشريَّة استلذاذُ الصوت الطيِّب والنغم الحسن .

٢ـ السامع بالحال : وأما الذي يسمع بالحال . . فهو من يتأمَّل ما يَرِدُ عليه . . مِن ذكر عتاب ؛ أو خطاب ، أو وصل ؛ أو هجر ، أو قرب ؛ أو بُعْد ، أو تأسُّف على فائت ؛ أوتعطُّش إلى آت ، أو وفاء بعهد ؛ أو تصديق لوعد ؛ أو نقض لعهد ، أو ذكر قلق . . أو اشتياق ؛ أو خوف فراق ، أو فرحِ وصال ؛ أو حذر انفصال ، وما جرى مجراه .

٣ـ السماع بحق : وأمَّا مَن يسمع بحقٍّ . . فيسمع باللهِ وللهِ ، ولا يتَّصفُ بهذه الأحوال التي هي ممزوجةٌ بالحظوظ البشرية ، فإنَّها مبقَّاةٌ مع العلل ، فيسمعون من حيث صفاءُ التوحيد بحقٍّ . . لا بحظٍّ .

حاصل ذلك : **أنَّ الأوَّل** ؛ وهو المبتدئُ موقوفٌ على خلاصه من ضرر الأثم .

والثاني ؛ وهو صاحبُ الحالِ سماعُه للزيادة مما هو فيه ؛ من معاملته مع الله وقربه منه ، فلا علم عنده لعدم المجاهدة ، وهو يتنعَّم بما يتوالَىٰ عليه من المشاهدة .

والثالث ؛ وهو صاحب الحقّ مستغرقٌ فيما هو فيه ؛ من شُغله بالله حتَّى لم يَرَ ما عداه ، وإنَّما سماعُه منه ، وبه ، وإليه . . لا إله سواه .

طبقات السامعين : وقيل : أهل السماع على ثلاث طبقات : أضرُب . .

١ـ **أبناء الحقائق** : ضربٌ أوَّل : هم **أبناء الحقائق** ؛ **يرجعون في سماعهم إلى** مخاطبة الحقّ سبحانه لهم ؛ بأن يسمعوا منه ما يخلقُه في قلوبهم من الفهم ، مع أنَّهم لم يقطعوا العلائق الآتي بيانُها .

٢ـ **أهل القلوب** : وضربٌ ثانٍ **يخاطبون اللهَ تعالى بقلوبهم بمعاني ما يسمعون** ؛ بأن يخاطبوه بما يلهمُهم إيَّاه من الدعاء والالتجاء والنجوى ، **فهم مطالبون بالصِّدق** فيما يشيرونَ به إلى الله تعالى بقلوبهم .

٣ـ **المتجرِّدون** : وضرب ثالثٌ ؛ **هو فقيرٌ مجرَّد قَطَع** ـ : هم فقراء مجرَّدون قطعوا ـ العلاقاتِ من الدنيا والآفات ، لا يخاطبون اللهَ . . بل يسمعون منه بطيبة قلوبهم ما يلهمه لهم ، فإنَّهم لكونهم فَرَغوا من تدبير أنفسهم ورياضة أحوالِهم . . صاروا محالَّ لما يُجريه اللهُ عليهم من المعاني التي يتلذَّذون بها .

أسلُمهم : وهؤلاءِ أقربُهم : أقرب الأضرب الثلاثة إلى السلامة ، لبُعدهم عن دعوىٰ الصدق فيما يخاطِبُون الله به ، لأنَّهم لا يخاطبونه كما مرَّ .

السماع الصحيح : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت أبا عليٍّ الروذَباريَّ ؛ يقول . . وقد سئل عن السماع ؛ فقال : هو مكاشفةُ الأسرار الموصلة إلى مشاهدة المحبوب ؛ بأن يكون العبدُ في غِطاءٍ من غفلته عن ربِّه ، ثمَّ يُكشَف عنه الغطاء ، فيذكُر ربَّه ، ويتمتع برؤيته ومشاهدته بقلبه ، فانتقاله عن غفلته إلى ذكِر ربِّه ورؤيته ، هو ما يعبَّر عنه بالسماع الصحيح .

أثر السماع : وقال إبراهيم الخوَّاصُّ رحمه الله تعالى ؛ وقد سئل : ما بال الإنسان يتحرَّك ويَجِدُ عند سماع غير القرآن . . من الشعر ونحوه ما لا يجد ذلك في ـ وفي نسخة : عند ـ سماع القرآن ؟! فقال زائد : لأنَّ سماع القرآن صدمة

لا يمكن لأحد أن يتحرَّكَ فيه لشدَّة غلبته ، وسماع القول ترويحٌ لقلب السامع ، فيتحرَّك بسماعه ، لأنَّه مطابِقٌ لما عنده ؛ فيسرعُ الفهم إليه فيقبله ويأنسُ به .
وقد قيل (القرآنُ ذَكَر فلا يقدر على فهمه ووجودِ الأحوال في سماعه إلاَّ الذكور من الرجال) ، بخلاف الشِّعر ونحوه الذي هو لمخاطبة المخلوقين .

سماع المريدين : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله تعالى ؛ يقول : سمعت عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان الرازي ؛ يقول : سمعتُ الجنيد ؛ يقول : **إذا رأيت المريدَ يحبُّ السماع . . فاعلم أنَّ فيه بقيَّةً من البطالة ، لأنَّه لم تكمل معرفتُه بمولاه ، ولا جاهد نفسَه في مفارقة هواه ، بخلاف سماعِ مَن كَمُلت معرفتُه ، فإنَّه إنَّما يكون بعد تقدُّم المجاهدات والرياضات ، والإعراض عن الشهوات ؛ شغلاً بالله ، وطمعاً في وجود الراحات ، فيكون سماعُه من باب العون له على مقاصده الصحيحة ؛ وأحواله الرفيعة .**

عِلم السماع : وسمعته أيضا ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله البغدادي ؛ يقول : سمعت أبا سعيد الرَّمليَّ ؛ يقول - زائد - قال : سهل بن عبد الله : **السماعُ علم استأثر الله : اختصَّ به لا يعلمُه إلاَّ هو ، لأنَّه ليس مكتسباً ، بل موهبة من الله لمن اختصَّهُ به .**

عذاب الهوى : وحكىٰ أحمد بن مقاتل العَكِّيُّ ؛ قال : **لمَّا دَخل ذو النون المصريُّ بغداد . . اجتمع إليه الصوفيَّةُ ومعهم قوّالٌ يُنشدُ الشِّعر ، فاستأذنوه - أي : ذا النون - بأن يقول القوَّال بين يديه شيئاً ، وكان محتاجاً إلى السماع مِن غيره . . فأَذِن بذلك ، فابتدأ يقولُ**[1] :

صَغِيْرُ هَوَاكَ : حبّك عَذَّبَنِي

فَكَيْفَ بِهِ إِذَا ٱحْتَنَكا ؟! : استولى وقهر

وَأَنْتَ جَمَعْتَ مِنْ قَلْبِي

هَوَىً : حبّاً قَدْ كَانَ مُشْتَرَكا

---

(١) صَغِيْـــرُ هَـــوَاكَ عَـــذَّبَنِـــي ... فَكَيْـــفَ بِـــهِ إِذا ٱحْتَنَكَـــا
وَأَنْـــتَ جَمَعْـــتَ مِـــنْ قَلْبِـــي ... هَـــوَىً قَـــدْ كَـــانَ مُشْتَـــرَكـــا
أَمَـــا تَـــرْثـــي لِمُكْتَئِـــبِ ... إذَا ضَحِـــكَ ٱلخَلِـــيُّ بَكَـــىٰ !؟

أَمَا تَرْثِي لِمُكْتَئِبٍ : شديدِ الحزن
إِذَا ضَحِكَ الخَلِيُّ : الخالي من الهمِّ بَكَى ؟

قال : فقام ذو النون وسقط على وجهه من شدَّة حاله . . والدمُ يقطر من جبينه ؛ ولا يسقط على الأرض !؟ ـ وفي نسخة : ولا يشعر ـ : به .

ثمَّ قام رجلٌ من القوم لم يبلغ حالُه حالَ ذي النون . . يتواجدُ ، فقال له ذو النون ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ ! فقعد الرجل .

إشراف وإنصاف : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاقَ رحمه الله ؛ يقول في هذه الحكاية : كان ذو النون صاحبَ إشراف على ذلك الرجل حيث نبَّهه على أنَّ ذلك ليس مقامه ، وكان ذلك الرجل صاحبَ إنصاف حيث قَبِل ذلك منه فرجع وقعد .

قارىء وسامع : سمعت محمد بن أحمد بن محمد التميمي ؛ يقول : سمعت عبد الله بن عليٍّ الصوفيَّ ؛ يقول : سمعت الرقِّيَّ ؛ يقول : سمعت ابن الجلاَّء ؛ يقول :

كان بالمغرب شيخان لهما أصحاب وتلامذة ، يقال لأحدهما « جبلة » وللثاني « رزيق » ، فزار رزيق يوماً جبلة في أصحابه ، فقرأ رجل من أصحاب رزيق شيئاً ، فصاح واحد صادق من أصحاب جبلة ومات لقوَّة حاله عليه .

وفي ذلك دَلالة على صدق القارىءِ والمستمع في السماع .

فلما أصبحوا قال جبلة لرزيق (أينِ الذي قرأ بالأمس ! فليقرأ . .) فقرأ آيةً ، فصاح جبلةُ صيحةً فمات القارىءُ على أحسن أحواله ! فقال جبلة : واحدٌ بواحدٍ . ـ أشار به إلى أنَّ في أصحاب كلٍّ منها صادقاً ـ ولكن البادي منهما بالقراءة أظلمُ من الظُّلْمة ؛ لا من الظُّلْم ! لأنَّ قلبَه لم يتأثَّر بقراءته ، كما تأثَّر بها قلبُ سامعه ، فكان قلب سامعه أصفىٰ وأنورَ من قلبه ، فمات بسماع قراءته دونه ، ولَمَّا كَمُل صفاءُ قلبه . . وزالت عنه ظلمتُه بقراءته ثانياً ؛ وبصيحة جبلة بقوَّة الحال . . مات ! فرحم الله الجميع .

مراد السماع : وسئل إبراهيم المارستاني عن الحركة عندالسماع ؛ فقال : بلغني أنَّ موسى عليه السلام قصَّ في بني إسرائيل : ذكر لهم قصَّة . . فمزَّق واحد منهم قميصَه ، فأوحى الله إليه ﴿ قُلْ لَهُ مَزِّقْ لِيْ قَلْبَكَ وَلاَ تُمَزِّقْ ثِيَابَكَ ﴾ .

فالمرادُ من السماع سماعُ القلب وإصلاحه ؛ وحفظه لإسماع الجوارح من غير غلبة ، إذ يخشى على مَن ظهر عليه الرَّقصُ والتواجد والقلق من غير غلبة . . دخولُ الرياء والكذب في دعواه : أنَّ ذلك عن غلبة ، فيدخل في خبر : « اَلْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يَنَلْ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ »[1] .

عطف وشفقة : وسأل أبو عليٍّ المغازليُّ الشبليَّ رحمهما الله ؛ فقال له : ربَّما يطرقُ ـ وفي نسخة : طرق ـ سمعي آيةٌ من كتاب الله تعالى فتحدُوني : تسوقني وتحملني على ترك الأشياء المشتهاةِ ، والإعراض عن الدنيا ، والإقبال على الله . ثم أرجع إلى أحوالي وإحساسي وإلى الناس ؟! فقال الشبلي : ما اجتذبك وساقك إليه تعالى . . فهو عطفٌ منه عليك ، ولطفٌ وإكرام منه لك ، وما رُدِدْتَ به إلى نفسك وإحساسك والناسِ . . فهو شفقةٌ منه عليك ، لأنَّه لم يصحَّ لك لكونك لم تكمل . . التبرِّي من الحَوْل والقوَّة في التوجُّه إليه تعالى ، فهو تعالى يربِّيك ويعلِّمُك ويذيقك أشرف الأحوال معه لتعرفَ قدر نِعَمه ، ويَرُدُّك إلى نفسك وإحساسِك لتعرفَ عجزك عن نَيْلِ ذلك ، ويتكامَل همُّك ؛ وتقوىٰ رغبَتُك في الاشتغال به ، والاعتماد عليه دونَ غيره .

خطاب الأحباب : سمعت أبا حاتم السجستانيَّ ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : سمعت أحمد بن مقاتل العكيَّ ؛ يقول : كنت مع الشبليِّ في مسجدٍ ليلةً في شهر رمضان ؛ وهو يصلِّي خلفَ إمام له وأنا بجنبه ، فقرأ الإمام ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾[2] فزعق زعقة ؛ قلت في نفسي طارت بها روحُه ؛ وهو يرتعد . . ويقول : بمثل هذا يخاطَبُ الأحباب ؟! فكيف بغيرهم !؟! ويردِّدُ ذلك كثيراً على نفسه وهو مغلوب عليه ، فالعارفون ؛ وإن بلغوا مِن معرفة الله ومحبَّته وكرامتِه ما بلغوا . . لا يأمَنُون المَكْر ، ولا ييأسونُ من الفضل ، لعلمهم بأنَّه تعالى يفعل ما يشاء .

---

(١) متفق عليه عند البخاري : ٥٢١٩ ـ بلفظ « يعط » بدل « ينل » ـ ، ومسلم : ١٢٧ ـ ٢١٣٠ ؛ عن أسماء رضي الله عنه .

(٢) الآية : ٨٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

إنعاش مغشيٍّ : وحُكي عن الجنيد أنَّه قال : دخلت على السَّريِّ يوماً ؛ فرأيتُ عنده رجلاً مغشيّاً عليه ؛ فقلت : ما له ؟ فقال لي : سمع آية من كتاب الله تعالى فغُشي عليه واستغرق فيها . فقلتُ له : تُقرأُ عليه ثانياً . لعلَّه يفيق!! فقُرِىءَ ـ الأَوْلى : فقُرِئت ـ عليه فأفاق ، فقال لي : مِن أينَ علمتَ هذا ؟ فقلت له : إن قميصَ يوسف الذي لُطِّخ بالدم . . ذهب بسببه ـ مع ما يأتي ـ عينُ ـ وفي نسخة : عينا ـ يعقوب عليهما السلام ، ثم به ؛ أي : بعوده ـ يعني بعود جنسه ، فإنَّه غيرُ القميص الذي لُطِّخ بالدم ـ . . . عاد بصره . فاستحسن مني ذلك ، لأنَّ ذهاب بصر يعقوب كان بسبب بُعْد يوسف وغيبَته عنه ، وأسفه عليه ؛ مع إتيان قميصه له ملطَّخاً بالدم ، فلما أتاه قميصُه تحقَّق وجودُه وسلامته ؛ وقُرْبَ الاجتماع به ، فزال عنه ما كان فيه ، ورَدَّ الله عليه بصره .

شهيد الكتمان : سمعت أبا حاتم السجستانيَّ ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : سمعت عبدالواحد بن علوان ؛ يقول : كان شابٌّ يصحبُ الجنيد ، فكان إذا سمع شيئاً من الذكر يزعَقُ ، فقال له الجنيد يوماً : إن فعلت ذلك مرَّة أُخرى لم ـ الأَوْلى : لا ـ تصحبني ، لأنَّ إخفاء الأحوالِ عن غير الله أفضلُ لمن قَدرَ عليه . فكان إذا سمع شيئاً يتغيَّر ويضبط نفسَه حتَّى كان يقطر كلُّ شعرة ببدنه بقطرة ـ وفي نسخة : قطرة ؛ أي قطرة ـ ماء مما يقاسيه في الكَتْم من الشدَّة ! فيوماً من الأيام صاح صيحة تلفَتْ بها نفسُه ؛ لغلبة قوَّة الحال عليه ، فكان ذلك سببَ موته على أحسن أحواله .

تذييل : وما قاله الجنيد !! هو شأنُه في القوَّة ، ولهذا لَمَّا حضر سماعاً ؛ وقيل له : مالك في هذا السماع من نصيب !؟ . . أجاب بقوله تعالى ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾[1] .

زنديق الرِّيِّ : وسمعت أبا حاتم السجستانيَّ ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : حكىٰ لي بعض إخواني عن أبي الحسين الدرَّاج ؛ قال : قصدتُ يوسف بن الحسين الرازيَّ من بغداد لزيارته . . وكان بالريِّ ، فلما دخلتُ الريَّ ؛ سألت عن منزله ، فكلُّ

---

(١) الآية : ٨٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل . وقد مرَّ ذلك ص٢٧٠ ، ص٣٠٨ ، ص٨٨٣ .

أسأله عنه من يقول لي : إيش تفعل بذلك الزنديق ! فضيَّقوا صدري حتى عزمت على الانصراف عنه !! فبتُّ تلك الليلة في مسجدٍ ، ثم قلتُ في نفسي : جئتُ هذا البلد . . فلا أقلَّ من زيارته !! فلم أزل أسألُ عنه حتَّى وقعتُ إلى مسجده ؛ وهو قاعد في المحراب . . وبين يديه رَحْل ؛ وعليه مصحفٌ يقرأُ فيه ، وإذا هو شيخٌ بهيٌّ ، حسن الوجه واللحية ! فدنوتُ منه وسلَّمتُ عليه ، فردَّ عليَّ السلامَ ؛ وقال لي : مِن أين جئتَ ؟ فقلتُ : من بغداد ؛ قصدتُ زيارة الشيخ . فقال لي مكاشفةً وامتحانا فيما وقع لي من تردُّدي في زيارته بسبب ما قيلَ لي إنَّه زنديق ، ومن قولي بعدُه (فلا أقلَّ من زيارته)، ثمَّ زيارتي له بهذه النية ، ورؤيتي له على صورة حسنة وهو يقرأ في المصحف . . : لو أنَّ في بعض البلدان التي بيننا وبين بغداد قال لك إنسان (أقم عندي حتَّى أشتري لك داراً ؛ أو جارية) . . أكان يمنعك ذلك عن زيارتي ؟ فقلت له : يا سيِّدي ؛ ما امتحنني الله به بشيء من ذلك ، ولو كان قد امتحنني . . لا أدري كيف كنتُ أكون !! يعني : ما كنت أدري ما يكون ! ففُهِم من كلامه أنَّه عاقل عالم بقدر الله ، صادق في زيارته . . فقال لي : هل تُحسِن أن تقول شيئاً من الشعر المناسب للحال !؟ فقلت له : نعم . وقلت[1] :

رَأَيْتُكَ يا عبدي ؛ تَبْنِي دَائِباً : مجدّاً فِي قَطِيْعَتِي
وَلَوْ كُنْتَ أنت ذَا حَزْمٍ لَهَدَّمْتَ مَا تَبْنِي

أشار به إلى أنَّ العبد يشتغل في أكثر عمره بغير ربِّه ؛ وما خُلق له .

فأطبق الشيخ المصحف لمَّا سمع منه هذا البيت ، ولم يزل يبكي حتَّى ابتلَّت لحيته وثوبُه حتَّى رَحِمْتُه من كثرة بكائه . ثم أراد أن يعرِّفني أيضاً كمال حاله ، وأن زيارتَه لم تخبْ حيث قال لي : يا بني ؛ تلومُ أهل الريِّ على قولهم (يوسف بن الحسين زنديق) . . ومِن وقت الصلاة هوذا : أنا أقرأُ - وفي نسخة : يقرأ - القرآن ، ثمَّ لم تقطر من عيني قطرةٌ ؛ وقد قامت عليَّ القيامةُ وجرى عليَّ ما رأيت ! بهذا البيت !! أي : بسماعي له .

---

(١) رَأَيْتُكَ تَبْنِي دَائِباً فـي قطيعتـي   وَلَـوْ كُنْـتَ ذَا حَـزْمٍ لَهَـدَّمْـتَ مَـا تَبْنـي

وهذا كلُّه يدلُّ على كماله ، لاشتغاله بكتاب الله من وقت الصلاة إلى وقت الاجتماع ؛ مع ما رأيتُ ! وأينَ هذا من الزندقة !!

وبالجملة فالغرض أنَّ العبد لا يلتفت لمدح العوامِّ .. ولا ذمِّهم ، لأنَّهم يوقِعون ذلك بغير أصل، ولو سمع هذا الزائر من كلامهم لفاتته هذه الخيرات .

المتلوِّنُ مع الحق : سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفيَّ ؛ يقول : سمعت عبد الله بن عليٍّ الطوسيَّ ؛ يقول : سمعت الرقِّيَّ ؛ يقول : سمعت الدرَّاج ؛ يقول :

كنت أنا وابن الفُوَطي مارّين على الدجلة ـ وفي نسخة : دجلة ـ بين البصرة والأُبُلَّة : مدينة بجنب البصرة .. وإذا نحن بقصر حَسَن له منظر ؛ وعليه رجل ، وبين يده جارية تغنِّي ؛ وتقول[1] :

فِـــيْ سَبِيْـــلِ ٱللهِ وُدٌّ : حـــبٌّ كَـانَ مِنْـيٍّ لَـكَ يُبْـذَلْ : يعطىٰ

كُلَّ يَوْمٍ تَتَلَوَّنْ عليَّ يا عبدي ! وتلوُّنه مع مولاه دليلُ قلَّة معرفته به ، فتارة يذكر فضل ربِّه عليه وما والاه ، وتارة يضعف حاله ويرجع إلى دنياه ! ولذلك قال :

غَيْرُ هَذا بِكَ أَجْمَلْ .

وإذا شابٌ تحت المنظرة بيده رِكوة وعليه مرقَّعة يسمع هذا البيت ؛ فقال لها : يا جارية ؛ بحياة مولاك ؛ أعيدي

(كلَّ يوم تتلوَّن

غيرُ هذا بك أجمل !!)

فأعادته بإذن مولاها ، فقال لها الشابُّ : قولي ـ: أعيديه أيضاً ـ. فأعادته أيضاً بإذن مولاها . فقال الفقير الشابُّ : هذا ؛ والله ِتلوُّني مع الحقِّ تعالى . وشهق شهقة خرجت بها روحُه .

فقال صاحب القصر للجارية لَمَّا أثَّر فيه صدقُ الشابِّ : أنت حرَّةٌ لوجه الله

---

(١) فِـــي سَبِيْـــلِ ٱللهِ وُدٌّ كَـــانَ مِنِّـــي لَـــكَ يُبْـــذَلْ
كُـــلَّ يَـــوْمٍ تَتَلَـــوَّن ؟ غَيْـــرُ هـــذا بِـــكَ أَجْمَـــلْ !

تعالى . وخرج أهل البصرة في جنازته ، وفرغوا من دفنه والصلاة عليه ، فقام صاحبُ القصر ؛ وقال لهم : أليس تعرفوني !؟ أشهدُكم أنَّ كلَّ شيء لي فهو في سبيل الله ، وكلُّ مماليكي أحرارٌ ، ثمَّ اتَّزر بإزار وارتدىٰ برداء وتصدَّق بالقصر ، فلم يُرَ له بعد ذلك وجهٌ ، ولا سُمع له أثر : خبر .

سماع نافع : سمعتُ محمد بن أحمد بن محمد الصوفيَّ ؛ يقول : سمعت عبد الله بن علي الطوسيَّ ؛ يقول : سمعتُ يحيى بن الرِّضا العلويَّ ؛ قال : سمع أبو سليمان الدمشقيُّ طوَّافاً ينادي على السعتر الذي يؤتىٰ به من البريَّة : (يا سعتر برِّي) ! فسقط مغشياً عليه : فلما أفاق . . سُئل عن ذلك !! فقال : حسبته : وقع في سمعي أنَّه يقولُ : (يا عبدي ؛ اسعَ إليّ تَرَ بِرِّي) : إكرامي لك . .

الخيار والشرار : وسمع بعضهم منادياً ينادي في السوق على الخيار (أربعة بربع)! فبكىٰ وانتحب ؛ وقال : إذا كان هذا قدرُ الخيار ؛ فكيف يكونُ قدرُ الشِّرار[١] .

عناء المحبِّ : وسمع عتبةُ الغلام رجلاً يقول (سبحان ربِّ السماء ؛ إنَّ المحبَّ لفي عناء) : تعب ومشقَّة . فقال عتبةُ : صدقتَ .

وسمع رجل آخرُ ذلك القول ؛ فقال : كذبتَ . فكلٌّ واحدمنهما سمع من حيث هو متَّصفٌ بحاله الذي هو فيه ، فأخبر عن نفسه بما وَجَده من ربِّه .

أحوال السامعين : سمعت أبا حاتم السجستاني ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : سمعت أبا الحسن عليَّ بن محمد الصوفي ؛ يقول : سمعت رويماً . . وقد سئل عن حال المشايخ الذين لقيهم في السماع ؛ فقال : هو كالقطيع من الغنم إذا وقع فيه الذئب[٢] ، فإنَّ كلَّ واحد منه تشرد إلى جهة ! فكذلك كلُّ واحد من المشايخ الذين يستمعون القول يسمع من حاله الذي هو فيه ، فكلٌّ منهم مضىٰ إلى جهة ، وهذا يدلُّ على كمال صدقهم ، وأنَّ كلاًّ منهم مع الحال الذي فتح اللهُ عليه به .

الشيخ الزفّان : وحكي عن أبي سعيد الخراز ؛ قال : رأيت عليَّ بن الموفَّق في السماع ؛ يقول : أقيموني . فأقاموه ، فقام وتواجد ورقص ، ثم قال : أنا

---

(١) سيأتي مثلها ص٩٥٥ عن الشبلي عند (الخيار بعشرة) .

(٢) التشبيه في مطلق الفرار ، وذلك بحسب حاله مع ربه (عروسي) .

الشيخ الزفّان[1] . هذا ذمٌّ لنفسه ؛ وإظهارٌ لعجزه عن كتم حاله .

ليلة مكتئب : وقيل : قام الرقي ليلة إلى الصباح يقوم ويسقط على سماع هذا البيت :
والنَّاسُ قيام يبْكُون لما يشاهدون من حاله وشدَّة ما هو فيه ؛ ولم يشعر بنفسه :
والبيت هو[2] :

بِٱللهِ فَٱرْدُدْ فُؤَادَ مُكْتَئِبٍ : شديد الحزن لَيْسَ لَهُ مِنْ حَبِيْبِهِ خَلَفُ : بدل .

فدية ضعيف : سمعتُ محمَّد بن أحمد التميميَّ ؛ يقول : سمعتُ عبدالله بن علي الصوفيَّ ؛
يقول : سمعتُ عليَّ بن الحسين بن محمد بن أحمد بالبصرة ؛ يقول : سمعتُ أبي ؛ يقول :

خدمتُ سهل بن عبد الله سنين كثيرةً ، فما رأيته تغيَّر عند سماع شيءٍ كان يسمعُه من الذِّكر والقرآن وغيره ! فلما كان في آخر عمره . . قرىءَ بين يده قولُه تعالى ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾[3] رأيتُه تغيَّر وارتعد ؛ وكاد يسقط على الأرض ، فلما رجع إلى حال صحوه . . سألتُه عن سبب ذلك ؛ فقال : يا حبيبي ؛ لَمَّا كَبِرْنا !! واستشعرنا قربَ الأجل والوقوفَ بين يدي الله ؛ وأنَّه لا يؤخذ فديةٌ ممن عليه حقٌّ فدية ضَعِفنا عن كتم أحوالنا فظهرت .

الوارد القوي : وحكىٰ ابن سالم ؛ قال ـ الأولى : فقال ـ : رأيته : سهلَ بن عبد الله مرَّة أخرى قرىء بين يديه قولُه تعالى ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾[4] فتغيَّر حالُه وكاد يسقطُ ، فقلت له في ذلك : ما سببُه ؟ فقال : ضعُفْت عن كَتْم حالي ، وهذه صفةُ الأكابر . . لا يَرِدُ عليه : على الكبير واردٌ ؛ وإن كان الكبير قويًا إلاَّ وهو : الواردُ أقوى منه ؛ أي : الكبير . وهذا كالذي قبله .

مقالة بكرة : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : دخلت على أبي عثمان المغربيِّ . . وواحد يستقِي الماء من البئر على بَكَرةُ ؛ فقال لي أبو

---

(١) الكاذب المخادع . ومعناه الرَّقّاص الذي لا يكون منه إلاّ الحركات والتكسُّر بغير فائدة ، وأصله السرعة في المشي ﴿ وأقبلوا إليه يزفون ﴾ : يسرعون المشي .

(٢) بِـــٱللهِ فَـــٱرْدُدْ فُـــؤَادَ مُكْتَئِـــبٍ لَيْـــسَ لَـــهُ مِـــنْ حَبِيْبِـــهِ خَلَـــفُ

(٣) الآية : ١٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحديد .

(٤) الآية : ٢٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الفرقان .

عثمان : يا أبا عبد الرحمان ؛ تدري إيش تقولُ البَكَرة ؟! فقلت له : لا . فقال لي : تقول (الله . . الله) بحسب ما وقع في نفسه من صوتها .

مقال ناقوس : سمعت محمد بن عبد الله الصوفيَّ ؛ يقول : سمعت عليَّ بن طاهر ؛ يقول : سمعت عبد الله بن سهل ؛ يقول : سمعت رويماً ؛ يقول : رُوي عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّه سمع صوت ناقوس ؛ وهو : ما تضرِبُ به النصارى لأوقات الصلوات . . فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا الناقوس ؟! فقالوا له : لا . فقال لهم : إنَّه يقول

(سُبْحَانَ ٱللهِ ! حَقّاً حَقّاً

إنَّ ٱلمَوْلَىٰ صَمَدٌ - وفي نسخة : حقٌّ - يَبْقَىٰ) .

بحسب ما وقع في نفسه من صوتها .

لهو صوفي : سمعتُ محمد بن أحمد التميمي؛ يقول: سمعت عبد الله بن علي؛ يقول: سمعت أحمد بن علي الكرخيَّ الوجيهيَّ ؛ يقول : كان جماعةٌ من الصوفيَّة متجمِّعين في بيت الحسن القزَّاز ؛ ومعهم قوَّالون يقولون الشعر ويتواجدون ، فأشرف عليهم ممشاد الدينوري فسكتوا ، فقال لهم : اِرجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلو جُمع ملاهي الدنيا في أُذني ما شَغَل ذلك همِّي بربِّي . يعني : صَرَفه عني . ولا شفىٰ بعضَ ما بي !! لكمال شُغله بربِّه ، فلا يُحِسُّ بمن يحضرُه ؛ ولا بمن يكلِّمُه .

صراط الدنيا : وبهذا الإسناد عن الوجيهي ؛ قال : سمعت أبا عليٍّ الروذَباريَّ ؛ يقول :

بلغْنَا في هذا الأمر : التصوُّف إلى مكان مثلِ حدِّ السيف ؛ إن ملنا كذا ففي النار سقطنا ، هذا هو الصراط المستقيم في الدنيا ، وذلك أنَّ مَن عرف مولاه حقَّ معرفته ؛ فهو مضيف إلى ربِّه ما تفضَّل به عليه . . مِن توفيقه لطاعته ، مستحقر للعمل ، خائفٌ من الزلل ، وبذلك يكون أبداً عاملاً بما طُلب منه خائفاً مما سَبَق له في الأزل ، فإنْ مال إلى ما سَبَق له . . خشي عليه الوقوع في الجَبْر[١] ، وإن مال إلى علمه وطاعته . . خُشي عليه الوقوع في القَدَر[٢] .

---

(١) الجبرية : فئة من المبتدعة يرون أن الإنسان مجبور فيما يفعله .

(٢) القَدَريَّة : فئة من المبتدعة يرون أن الإنسان يقدر لنفسه ما فعله . وانظر ما تقدم ص ٥٥=

فهذا هو الصراطُ المستقيم في الدنيا الذي هو أحدُّ من السيف وأدقُّ من الشَّعَر ، فمن يسَّره عليه مولاه وسارَ فيه السَّيرَ المطلوب نَجَّاه ، وإلاَّ زلَّت به قدمه وتغيَّر . . والعِياذ بالله !! .

أثر المحبة : وقال خيرٌ النسَّاجُ : قصَّ موسى بن عمران عليه السلام على قوم قصَّة . . فزعق واحد منهم زعقة ، فانتهره موسى عليه السلام . فيه دلالة على أنَّ كتم الأحوال أولى من إظهارها ، لكنها إن غلبت السامع عُذِر ، كما ذكره بقوله :

فأوحى الله تعالى إليه : ﴿ يا موسى ؛ بطيبي ناحوا ، وبحبِّي باحوا ، وبوجدي صاحوا . . فلِمَ تنكرُ على عبادي ؟! ﴾ فإنِّي خلقت لهم من الوجد ما لا قدرة لهم على حمله ؛ فناحوا . . وباحوا . . وصاحوا .

الخيار بعشرة : وقيل : سمع الشبليُّ قائلاً يقول : (الخيارُ عَشَرة بدانقٍ) فـبكىٰ وصاح ؛ وقال : إذا كان الخيارُ عَشَرةً بدانق . . فكيف الشِّرار ؟![1] لم ير للخيار قَدْراً ؛ أو وزنا من جهة أنفسهم ، بل بكرم الله وفضله ، ومَن كان عند نفسه من الأشرار . . لا ييأسُ من فضل الله عليه ، فالكلُّ منه تعالى ، فإنَّه يفعل في خلقه ما يشاء ، يعزُّ من شاء ، ويذل من شاء ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾[2] ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[3] . . فمَن رَحِمَه الله . . فبفضله ، ومن أهلكه فبعدله .

غناء الحور : وقيل : إذا تغنَّت الحورُ العَيْن في الجنة . . تورَّدت الأشجار التي فيها : خرج وَرْدُها وزهرها ، وتغيَّر حالها بسماع الصوت الطيِّب الموافق ، وكذا مَن يسمع السماع الصحيح ؛ لا سيما إذا كان بصوت حسن ، فإنَّه يعيش مِن موت غفلته ، وتظهر آثار الخيرات عليه .

الغناء المبكي : وقيل : كان عونُ بن عبد الله يأمُر جارية له حسنةَ الصوت بالغناء ،

= (أوائل الكتاب في الكلام عن عقائد الصوفية) .

(١) انظر ما تقدم ص٩٥٢ (سماع نافع) .

(٢) الآية : ١٣٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

(٣) الآية : ٩٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : يونس عليه الصلاة والسلام .

فتغنِّي بصوت حزين حتَّى تُبكي القوم باستماعهم لها ؛ بناء على أنَّ استماع صوت المرأة ليس بحرام ؛ مع أنَّها إنَّما كانت تورده على وجه الوعظ ؛ لا وجه الغِناء المُطرب .

القلب والسماع : وسئل أبو سليمان الداراني ؛ عن السماع .. أهو الميل إلى الصوت الحسن ؛ أو غيره !؟ فقال : كلُّ قلب يريد الصوت الحسن فهو ضعيف . لأنَّه موقوف مع الأصوات دون المعاني ، وإلاَّ لَتَلَقَّفَ ذلك من كلِّ قائل لصحَّة قلبه وكمال فهمه ؛ فقلب مَن لم يسمع إلاَّ بواسطة الصوت الحسن ضعيف .. يداوىٰ كما يداوىٰ الصبيُّ إذا أُريد أن ينام .

تأثير الصوت : ثمَّ قال أبو سليمان أيضاً : إنَّ الصوت الحسن لا يُدخِل في القلب شيئاً ، إنَّما يحرِّك من القلب ما فيه .

قال ابن أبي الحواريِّ : صدق والله ؛ أبو سليمان في ذلك .

سماع الربانيين : وقال الجُريريُّ : كونوا ربَّانيِّين : مشغولين بالربِّ تعالى ؛ بأن تكونوا سامعين من الله تعالى ؛ قائلين بالله ِتعالى ، لأنَّ مَن كَمُلت معرفته بالله ِ.. كان سامعاً للهِ وبالله ِ، وناطقاً بالله ِ، والربَّانيُّون : هم العلماءُ العبَّاد ، والأحبار : هم العلماءُ خاصَّة .

أنوار السماع : وسئل بعضهم عن السماع ؛ فقال : هو بروقٌ تلمع ؛ ثم تخمد ، وأنوار تبدو : تظهر للقلب ثم تخفى ، ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها طرفةَ عين ! لأنَّه يتنعَّم بها .

خطرة السرِّ : ثم أنشأ يقول[1] :

خَطْـرَةٌ فِـي ٱلسِّـرِّ مِنْـهُ خَطَـرَتْ   خَطْـرَةَ ٱلبَـرْقِ ٱبْتَـدَىٰ ثُـمَّ ٱضْمَحَـلّْ

أي : أنَّه كما لَمَع ذَهَب .

أَيُّ زَوْرٍ لَكَ ـ : أيُّ زائر زارك ـلَوْ قَصْداً سَرَىٰ : لو قصد الإقامة عندك

---

(١) خَطْـرَةٌ فِـي ٱلسِّـرِّ مِنْـهُ خَطَـرَتْ   خَطْرَةَ ٱلبَرْقِ ٱبْتَدَىٰ ثُمَّ ٱضْمَحَلّْ
أَيُّ زَوْرٍ لَـكَ لَـوْ قَصْـداً سَـرىٰ   وَمُلِـمٍّ بِـكَ لَـوْ حَقّـاً فَعَـلْ

وَأيُّ مُلِمٍّ بِكَ لَوْ حَقًّا فَعَلْ : لو قصد الإلمام بك حقًّا ، ولكنه ألَمَّ وٱنطفأ ،
فبَيَّن بالبيتين أنَّ السماع كالبرق الذي لم يثبت ، وكالنور الذي لم يَدُم .

السماع والأعضاء : وقيل : السماعُ فيه نصيبٌ لكلِّ عضوٍ ؛ فما يقعُ إلى العين تبكي ، وما يقع إلى اللسان يصيح ، وما يقع على اليد يمزِّق الثياب ؛ ويلطم الوجهَ وغيره ، وما يقع على الرِّجْل يُرقِص .

السماع النافع : فالسماعُ النافع ما يقبله القلب ؛ وإن كان طريقُه الآذان ، لأنَّ السماع هـو قَبول المعنى الذي ينشئه الله في القلب ، وإذا أنشأَه فيه . . ظهرت آثاره على الجوراح .

تولية رضيع : وقيل : مات بعض ملوك العجم وخلَّف ابناً صغيراً رضيعاً ، فأرادوا أن يبـايعوه على الولاية ؛ فقالوا : كيف نصل إلى معرفة عقله وذكائه حتَّى نبايعه ؟! فتوافقوا على أن يأتوا بقوّال يقول : ينشد شيئاً ، فإن أحسن الإصغاء إليه . . علموا كَياسته ، فأتوا بقوّال يقول ، فلما قال القوَّال شيئاً . . ضحك الرضيع ! فقبَّلُوا الأرض بين يديه وبايعوه ؛ لِمَا علموا من تمييزه الحسن . . لَمَّا امتحنوه بذلك .

حال الصغار : إذ مِنَ الصغار مَن إذا سمع زَمْراً أو نحوه . . فرح وضحك ، ومنهم إذا سمع شيئاً مفزعاً . . بكى ، ومنهم مَن إذا طلب حاجة وشُغل بأخرى أحسنَ منها . . سكن وقَبِل الثانية !! فيدلُّ علىَ حسن تمييزه ، ومنهم من إذا خطر بباله شيء ؛ أو غُيِّب عنه شيء وشُغِل بغيره . . لم يرجع إليه ، ويدومُ بكاؤه على ما خطر له ، وليس ذلك إلاَّ لسوء خلقه وقوَّة رأسه !!

والغرض أنَّ مَن عنده أدنى تمييز يميل إلى السماع ، وهذه الإبل إذا حَدَا لها حَادٍ حَسَنُ الصوت وحُملت الأثقال لا تبالي بأحمالها وطاب لها سماع الحادي ومدَّت أعناقها وجدّت في سيرها[1] .

الغيبة والرياء : سمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : اجتمع أبو عَمْرو ابن نُجَيْد

---

(١) انظر ما تقدم ص ٩٣٥ (الحدَّاء المفن) .

والنصراباذي والطبقة : طبقتهما في موضع . . فقال النصراباذي : أنا أقول إذا اجتمع القوم لسماع شيء من الشعر . . فواحد منهم يقول شيئاً ويسكتُ الباقون : فإن قول واحد منهم شيئاً . . وسكوتَ الباقين لسماعه ؛ وإن حصل فيه رياء . . خيرٌ من أن يغتابوا أحداً ! لما قام عنده من أنَّ الغِيبة أقبحُ من الرياء .

فقال أبو عمرو : لأَنْ تغتابَ أنتَ ثلاثين سنة أنجىٰ لك من أن تُظهر في السماع ما لستَ متَّصفاً به ، لما قام عنده من أنَّ الرياءَ أقبحُ من الغيبة .

التوفيق بينهما : وقيل : لا مخالفةَ ، إذ كلام النصرآباذي في السماع حقيقةً ، فهو دائرٌ بين حرام ونفل ، لأنَّ الغيبةُ حرامٌ . . والسماع نفل ، وتركُ الحرام مقدَّم على كلِّ نافلة . وكلام أبي عمرو في السماع المراءَىٰ به . . فهو دائر بين محرَّمين : الرياء والغيبة ، ورأى أنَّ الرياء أقبحُ وأضرُّ ، والغرض من ذلك التحذير من آفات السماع ؛ من قيام وصياح وتكلُّم وتحرُّكٍ بغير حقٍّ .

أحوال السامعين : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ ؛ يقول : الناس في السماع ثلاثة :
١ـ متسمِّع ، ٢ـ ومستمع ، ٣ـ وسامع .

١ـ المتسمِّع : فالمتسمِّعُ : مَن يسمع بوقت بأن يتكلَّف ويستجلب في وقته حالَه ليجد ما يطلبُه في السماع .

٢ـ المستمع : والمستمع : من يسمع بحال ؛ بأن يصير السماع حالَه ، بحيث يثور عليه ؛ ويغلبه بأوَّل استماعه .

٣ـ السامع : والسامع : مَن يسمع بحقٍّ ؛ بأن يجريه الحقُّ تعالى عليه بلا تكلُّف منه ، ولا حال ، فهو أرفع من الأوَّلَيْن ، والثاني أرفعُ من الأول .

رخصة السماع : وسألتُ الأستاذ أبا عليٍّ رحمه الله غيرَ مرَّةٍ شِبْهَ : نوع طلب رخصة في السماع ، فكان يحيلني على ما يوجب الإمساك عنه ، ثم بعد طول المعاودة له في ذلك . . قال : إنَّ المشايخ ؛ قالوا : ما جمع قلبكَ إلى الله تعالى ؛ ولا يكون إلاَّ مشروعاً . . **فلا بأس به** .

توقَّف الشيخ عن إجابته أوَّلاً ، لكونه لم يَرَ له السماع نافعاً ، لأنَّه كان شاباً ومعرفته بربِّه ضعيفةٌ ، فلما ارتفعت درجتُه وصَلُح أمرهُ ؛ وهو مستمرٌّ على

طلبه . . أجابه ، مع أنَّه لم يَهُن عليه أن يجيبه عن نفسه ؛ بل عن المشايخ .

استعداد موسويٌّ : أخبرنا أبو الحسن عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ ؛ قال : أخبرنا أحمدُ بن عبيد البصري ؛ قال : حدَّثنا إسماعيل بن الفضل ؛ قال : حدَّثنا يحيى بن يعلى الرازيُّ ؛ قال : حدَّثنا حفص بن عمر العمري ؛ قال : حدَّثنا أبو عَمْرو عثمانُ بن بدر ؛ قال : حدَّثنا هارون بن حمزة ؛ عن الغدافر ؛ عن سعيد بن جبير ؛ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما ؛ قال :

أوحىٰ الله تعالى إلى موسى عليه السلام : ﴿ إنِّي جَعَلْتُ فِيْكَ عَشْرَةَ آلاَفِ سَمْعٍ ـ يعني : معنىً ـ حَتَّىٰ سَمِعْتَ كَلاَمِي ، وَعَشْرَةَ آلاَفِ لِسَانٍ حَتَّىٰ أَجَبْتَنِي[١] ، إذ لا قدرة للعبد على ما يَرِدُ عليه من الله إلاَّ إذا أمدَّه بزيادةٍ في قوَّته ، وَأَحَبُّ مَا تَكُونُ أنت إِلَيَّ وَأَقْرَبُهُ منِّي إِذَا أَكْثَرْتَ ٱلصَّلاَةَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴾ .

أحب القُرَب : وقد رُوي أَنَّ أَحَبَّ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ ٱلصَّلاَةُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ ! ـ وقد سُئل : كيف نصلِّي عليك ؟ـ فقال : « قُولُوا (اَللَّهُمَّ ؛ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ ؛ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيْمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيْمَ ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيْمَ وعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيْمَ ، فِي ٱلعَالَمِيْنَ إِنَّكَ حَمِيْدٌ مَجِيْدٌ) »[٢] .

غلط السماع : وقيل : رأى بعضهُم النَّبيَّ ﷺ في المنام ؛ فقال له : الغَلَطُ في هذا أكثُر منه في غيره . يعني به السماع . والغَلَط فيه يرجع إلى أصله ؛ من حيث إنَّه مشروعٌ ؛ أم لا ، أو إلى السامع من حيث إنَّه يسمع بحقٍّ ؛ أو بتكلُّف ! .

مدخل شيطاني : سمعتُ الشيخَ أبا عبد الرحمان السُّلَمِيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمَّد بن عبد الله بن شاذان ؛ يقول : سمعت أبا بكر النهاوندي ؛ يقول : سمعت عليًّا السائِحَ ؛ يقول : سمعت أبا الحارث الأَوْلاَسيَّ ؛ يقول : رأيتُ إبليس ـ لعنه الله ـ في المنام على بعض سطوح أولاس ؛ وأنا على سطح ، وعلى يمينه جماعةٌ . . وعلى

---

(١) الذي يظهر لي منه ـ والله أعلم ـ أنَّ المراد لولا أن أقدرتك وأعنتك علىٰ سماع كلامي ومكافحة خطابي حتىٰ سمعتَ وأحببت ما أمكنك ذلك ، وذكر العدد لبيان قوَّة التهيُّءِ بما خلقه الله فيه من القوىٰ ! والله أعلم (عروسي : ٤/ ١٤٥) .

(٢) متفق عليه . . البخاري : ٣٣٧٠، ومسلم : ٦٦ ـ ٤٠٦ ؛ عن كعب بن عجرة رضي الله عنه .

يساره جماعة ، وعليهم ثيابٌ لِطاف ، فقال لطائفة منهم : قولوا شيئاً . فقالوا وغَنَّوا !! فاستفزَعَني طيبُه : طيب قولِه .. حتَّىٰ هممتُ أن أطرح نفسي من السطح ، ثمَّ قال للقوم : أُرقصوا . فرقصوا أطيبَ ما يكون ! ثمَّ قال لي : يا أبا الحارث ؛ ما أصبتُ شيئاً أدخلُ به عليكم إلاَّ هذا السماع ! من حيث اشتمالُه على الرياء والعُجْب ، فإنَّ العبد يستفزُّه السماع حتَّى يقومَ قبلَ وقته ، فلا يكون مغلوباً ؛ ولا معذوراً ، وربَّما قام مغلوباً وسُرِّي عنه ؛ فلا يهون عليه أن يقعد ؛ ويتمادىٰ في التواجد متكلِّفًا ، فيكون مرائياً ، لأنَّه فعل ذلك خوفاً من نسبته إلى ضعف حاله وقلَّة وجده .

المخصوص بالحبِّ : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت عبد الله بن عليٍّ ؛ يقول :

اجتمعتُ ليلة مع أبي بكر الشِّبليِّ رحمه الله تعالى ؛ فقال القَّوال شيئاً ، فصاح الشبلي وتواجد قاعداً ! فقيل له : يا أبا بكر ؛ ما لَكَ مِن بين الجماعة قاعداً !! فقام وتواجد . وقال :

لِـيْ سَكْـرَتَـانِ وَلِلنُّـدْمَـانِ وَاحِـدَةٌ ... شَيْءٌ خُصِصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي

يعني : شاركتُهم في واحدة ، واختصصت بأخرى .. إذ كانت له محبَّتان : محبَّة شارك فيها الناس ؛ وهي محبة الإنعام والإفضال ، ومحبَّة اختُصَّ بها وحدَه ؛ وهي محبَّة الكمال والجلال والجمال ، وتقدَّم ذلك في (باب المحبة) ص ٩٠٣ .

شهيد سماع : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله الأصبهاني ؛ يقول : سمعت أبا علي الرُّوذَباريَّ ؛ يقول : جزت بقصرٍ فرأيتُ شابّاً حَسَنَ الوجه مطروحاً وحوله ناسٌ ، وكان عارفاً بالله ، كثيرَ الطلب لأولياء الله ؛ ليجد معهم راحة ما وجدوه من معرفتهم بالله ، وكمالِ أحوالهم مع محبوبهم . فسألتُ عنه ؛ فقالوا : إنَّه جازَ بهذا القصر وفيه جاريةٌ تغنِّي[1] وتقول :

كَبُرَتْ هِمَّـةُ عَبْـدٍ ـوفي نسخة: عيـن ـ ... طَمِعَـــتْ فِـــي أَنْ تَـــرَاكَـــا

---

(١) كَبُـــرَتْ هِمَـــةُ عَبْـــدِ ... طَمِعَـــتْ فِـــي أَنْ تَـــراكَـــا
أَوَمَـــا حَسْـــبٌ لِعَيْـــنِ ... أَنْ تَـــرَىٰ مَـــنْ قَـــدْ رآكَـــا ؟!

فعرفَ أنَّها هِمَّتُه ، فوقف لسماع باقي البيت ؛ وهو

أَوَمَا حَسْبُ لِعَيْنٍ : أوما يكفيها أَنْ تَرَىٰ مَنْ قَدْ رَآكَا ؟!

وهُم العارفون بالله ، فكان فيه ردٌّ لهمَّته العالية المتعلِّقة برؤيته تعالى ، وتعزيةٌ له في فواتِ مقصوده ؛ فلم يحمله قلبُه . . فشهق شهقةً ومات على أحسن أحواله .

* * *

٥٠ ـ باب
إثبات كرامات الأولياء

تعريفها : الكرامة ظهورُ أمر خارق على يد الوليِّ ؛ غيرِ مقارن لدعوى النبوة .

ثمرتها : وهي عون له على طاعته ، ومقوِّية ليقينه ، وحاملةٌ له على حُسْن استقامته ، ودالَّة على صدق دعواه الولاية . . إن ادَّعاها لحاجة وشهدت له الشريعة .

ثُمَّ ظهورُ الكرامات على الأولياء جائزٌ . . بل واقع .

دليلها : والدليل على جوازه أنَّه أمرٌ موهومٌ حدوثه في العقل ، لا يؤدِّي حصولُه إلى رفع أصل من الأصول ، فواجب وصفُه سبحانه بالقدرة على إيجاده في الولي ، فوجب كونه مقدوراً لله . . وإذا وجب كونه مقدوراً لله تعالى . . فلا شيء يمنع جواز حصوله! فثبت جواز ظهور الكرامات على الأولياء .

دلالتها : وظهورُ الكرامات علامةُ صدقِ مَن ظهرت عليه في أحواله ، فمن لم يكن صادقاً . . فظهور مثلها عليه لا يجوز ، والذي يدلُّ عليه أن تعريف القديم سبحانه إيَّانا الكرامةَ حتَّى نفرِّق بين مَن كان صادقاً في أحواله . . وبين مَن هو مُبطل ؛ من طريق الاستدلال أمرٌ موهومٌ حدوثُه في العقل .

قيدها : ولا يكون ذلك إلاَّ باختصاص الوليِّ بما لا يوجد مع المفتري في دعواه ،

وذلك الأمر الموهومُ هي الكرامةُ التي أشرنا إليها آنفاً ، فلو ظهر أمرٌ خارق للعادة على يد كاذب . . كان مكراً واستدراجاً ؛ لا كرامة . . إن وافق مراده ، وإلاَّ ! كان إهانَةً ؛ رويَ أنَّ مسيلمةَ الكذَّاب دعا لأعور أن يفتح الله عينه العوراءَ فعميَ !!

شرطها : ولا بدَّ أن تكون الكرامة ١ـ فعلاً ناقضاً : خارقاً للعادة . ٢ـ في أيام التَّكليف ؛ لا في أيام الآخرة ، لأنَّها ليست دارَ تكليف . ٣ـ ظاهراً على موصوفٍ بالولاية . ٤ـ في معنى تصديقه في حاله الذي اتَّصَف به .

الكرامة والمعجزة : وتكلَّم الناس في الفرق بين الكرامات وبين المعجزات ؛ من أهل الحق هو بيانٌ للناس . .

١ـ **رأي الإسفراييني** : فكان الإمام أبو إسحاق الإسفراييني رحمه الله يقول : المعجزاتُ دلالاتُ صدقِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ودليلُ النبوَّة لا يوجد مع غيرِ النَّبِيِّ ، كما أنَّ العقل المحكَم . . لمَّا كان دليلاً للعالم به في كونه عالماً . . لم يوجد ممن لا يكون عالماً به .

وكان يقول أيضاً : الأولياء لهم كراماتٌ . . شِبْهُ إجابة الدعاء ؛ كالإخبار بمجيء زيد من سفره ؛ وبعافيته من مرضه !!

فأما جنس[1] ما هو معجزة للأنبياء ؛ كإحياء الموتى وتسبيح الحصا !! فلا تكون للأولياء .

٢ـ **رأي ابن فُوْرك** : وأما الإمام أبو بكر ابن فُوْرَك رحمه الله !! فكان يقول : المعجزات دلالاتُ الصدق : صدق الأنبياء ، ثمَّ إن ادَّعى صاحبُها النبوَّة . . فالمعجزةُ تدلُّ على صدقه في مقالته ، وإن أشار صاحبها إلى الولاية . . دلَّت المعجزةُ على صدقه في حالته ؛ فتسمَّى « كرامةً » له ؛ وإن كان نبياً . . ولا تسمَّى « معجزة » . . وإن كانت من جنس المعجزات ؛ للفرق بينهما . . بأنَّ المعجزة ما قارنها دعوىٰ النبوة ؛ بخلاف الكرامة ، فعنده أنَّ ما يكون من

---

(١) المراد ما اختص به الأنبياء ؛ لا الجنس ، لأن تسبيح الحصا من جنس المعجزة ولكن ليس من خصوصيات الأنبياء ، فقد سبّحن في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ؛ وليسوا بأنبياء !! .

جنس المعجزات يكون للوليِّ أيضاً ؛ وهو المختار الذي دَلَّ عليه كلامُ المصنِّف فيما يأتي .

الفرق : وكان رحمه الله يقول أيضاً : مِن الفرق بين المعجزات والكرامات :

١ـ أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مأمورون بإظهارها ؛ أي المعجزات . . والوليُّ يجب عليه سَتْرها وإخفاؤها : الكرامات .

٢ـ والنَّبيُّ يدَّعي ذلك : ما ذكر من المعجزة ، ويقطعُ القول به لشدَّة قوَّة حاله . . والوليُّ لا يدَّعيها : الكرامة ، ولا يقطع بكرامته ، لجواز أن يكون ذلك مَكرا واستدراجا !!

والحاصل : أنَّ النَّبيَّ ١ـ لا بدَّ مِن علمه بأنَّه نبيٌّ ، و٢ـ مِنْ قصده إظهار الخوارق ، و٣ـ مِن قطعهِ بأنَّها معجزاتٌ ، بخلاف الوليِّ .

٣ـ **رأي الباقلاني** : وقال أوحد وقته في فنِّه القاضي أبو بكر الأشعريُّ الباقِلاَّنيُّ رحمه الله : إنَّ المعجزاتِ تختصُّ بالأنبياء ، والكراماتُ تكون للأولياء . . كما تكون للأنبياء ، ولا تكون للأولياء معجزةٌ ، لأنَّ مِن شرط المعجزة اقترانَ دعوى النبوة بها ، والمعجزةُ لم تكن معجزة لعينها ، وإنَّما كانت معجزةً لحصولها على أوصاف كثيرة . . وإن شاركتها في بعضها الكرامةُ .

إذ الفعل الخارق للعادة من حيث إنَّهِ خارق ؛ لا يدلُّ على كرامة . . ولا معجزة ، إلاَّ إذا اقترن به ما دَلَّ الشرعُ على استقامته .

فمتى اختلَّ شرط من تلك الشرائط . . لا تكون معجزة ، وأحد تلك الشرائط دعوى النبوة ، والوليُّ لا يدَّعي النبوة !! فالذي يظهر عليه لا يكون معجزة .

اعتماد : وهذا القول هو الذي نعتمده ونقول به ، بل ندينُ الله به .

توضيح : فشرائط المعجزاتِ كلُّها أو أكثُرها يوجد في الكرامات ، إلاَّ هذا الشرط الواحد ؛ وهو دعوى النبوة ، فلا تكون المعجزةُ كرامةً . . فالكرامةُ كالمعجزة فعلٌ من الله لا محالة ، فهي حادثةٌ لا قديمة . لأنَّ ما كان قديماً لم يكن له اختصاص بأحدٍ من الخلق ، بل ولا يشارك اللهَ فيه غيرُه !! وهو ؛ أي ذلك

الفعل ناقض : خارق للعادة ، وتحصل : الكرامة في زمان التكليف ؛ لا في غيره من أزمنة الآخرة !! وليس المراد أنَّها لا تحصل من غير مكلَّف . . فقد صرَّح الإمام اليافعيُّ بأنَّها لا تحصُل من الصبيِّ غيرِ المميِّز . ويدلُّ لذلك ما ذكره الماتن بعد . (ممن تكلَّم في المهد) .

امتيازها : وتظهر على عبدٍ مطيع ؛ تخصيصاً له وتفضيلاً له على مَن لا كرامة له ، وقد تحصُل الكرامةُ له باختياره ودعائه : طلبه لها . . وقد لا تحصل له ؛ وإن اختارها وطلبها !

وقد تكون : تحصل بغير اختياره وطلبه في بعض الأوقات .

ولم يؤمَر الوليُّ بدعاء الخلق إلى نفسه ، بل إلى الله فقط ، بخلاف النبيِّ في ذلك ، فإنَّ المعجزة إنَّما تحصل له باختياره وطلبه ، وهو مأمور بدعاء الخلق إلى نفسه ، كما أنَّه مأمور بدعائهم إلى الله ، لأنَّه تعالى بعثه إليهم ؛ فطاعته طاعته ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] .

إظهار الأهلية : ولو أظهر الوليُّ شيئاً من ذلك : مما ذكر من كراماته على من يكون أهلا له !؟ لجاز ، بل قد يُندَبُ لما يترتَّبُ عليه من الخيرات ؛ كزيادة يقينه .

معرفة الولي : واختلف أهل الحقِّ في الوليِّ . . هل يجوز أن يعلم أنَّه وليٌّ ؛ أم لا ؟!

فكان الإمام أبو بكر ابن فُوْرَك رحمه الله ؛ يقول : لا يجوز ذلك لأنَّه يسلبه الخوف ، ويوجب له الأمن .

وكان الأستاذ أبو عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول بجوازه ، وهو الذي نَأْثُره : ننقله ونقول به . وهو الصحيح ، ولا نسلِّم أنَّ ذلك يسلُب الخوف ويوجب الأمن ، فالعشرة الذين بشَّرهم النَّبيُّ ﷺ بالجنَّة علموا ببشارته أنَّهم أولياءُ الله ، وكانوا مع ذلك خائفين ، مع كمال فضلهم واجتهادهم في الدين ؟! وسيأتي هذا في كلامه .

وليس ذلك : علم الوليِّ بأنَّه وليٌّ بواجب في جميع الأولياء حتى يكونَ كلُّ

---

(١) الآية : ٨٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

وليٍّ يعلمُ أنَّه وليٌّ واجباً : وجوباً ، ولكن يجوز أن يعلم بعضهم ذلك ؛ كما يجوز أن لا يعلمه بعضهم ، وإذا علم بعضُهم أنَّه وليٌّ . . كانت معرفته تلك كرامةً له انفرد بها ، وليس كلُّ كرامة لوليٍّ يجبُ أن تكون تلك بعينها لجميع الأولياء ، بل لو لم يكن للوليِّ كرامة ظاهرة عليه في الدنيا . . لم يقدح عدمُها في كونه وليًّا ، بل يكون أفضلَ ممن ظهرت عليه كراماتٌ ، لأنَّ الأفضليّة إنَّما هي بزيادةِ اليقين ؛ لا بظهور الكرامة .

قال الجنيد : وقد مشىٰ رجالٌ باليقين على الماء ومات بالعطش أفضلُ منهم يقيناً . [انظر ص٥٦٥، ٩٨٣]

وقال اليافعيُّ في كرامات مريم : إنَّه كان في بدايتها يُعرف لها خرقُ العادات بلا سبب ليكمل يقينُها ، فكانت ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾[1] ، فلمَّا كَمُل يقينها رُدَّت إلى السبب ؛ وقيل لها ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾[2] بخلاف الأنبياء ، فإنَّه يجبُ أن تكون لهم معجزاتٌ ، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ مبعوثٌ إلى الخلق ، فبالناس حاجةٌ لمعرفة صدقه ، ولا يُعلم صدقُه إلاَّ بالمعجزة ، لأنَّ وجودَها عقب دعواه النبوَّة منزَّلٌ منزلَة قولِ الله له ﴿ لقد صدقتَ في دعواك ﴾ ! وبعكس ذلك حالُ الوليِّ : لا يجب أن تكون له كرامة ، لأنَّه ليس بواجب على الخلق ـ ولا على الوليِّ أيضاً ـ العلمُ بأنَّه وليٌّ .

نعم ؛ يجوز أن يعلم أنَّه وليٌّ ؛ كما مرَّ . واحتُجَّ له (بقوله والعشرة من الصحابة رضي الله عنهم صدَّقوا الرسول ﷺ فيما أخبرهم به مِن أنَّهم من أهل الجنة) فقد علموا بذلك أنَّهم أولياءُ الله ، واجتمعت الأمَّةُ على فضلهم ! .
وقولُ مَن قال (لا يجوز ذلك : علمُ الولي بأنَّه وليٌّ) !! لأنَّه يخرجهم من الخوف إلى الأمن لا يضرُّ في عدم خوف تغيُّر العاقبة ؛ فلا بأس أن لا يخافوا تغيُّر العاقبة ؛ بأنْ يُعلِمَهُم الله بأنَّهم يموتون على الإسلام ، وذلك حاصلٌ لبعض الأولياء .

---

(١) الآية : ٣٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

(٢) الآية : ٢٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : مريم رضي الله عنها .

وأمَّا الذي يجدونه في قلوبهم . . من الهيبة والتعظيم ، والإجلال للحقِّ سبحانه ، ومن خوفهم مما توعَّدهم به ربُّهم من الوقوف بين يديه للسؤال والحساب !! فإنَّه موجود فيها ، بل يزيد ويربو على كثير من الخوف الحاصِل لغيرهم ، بل لا يزول عنهم ذلك ، لأنَّه ثمرةُ معرفتهم به تعالى وبجلاله وعظمته ؛ وإن حصل لهم سكونٌ بإعلام الله لهم بعدم تغيُّر العاقبة ، ولا يضُّر في علمهم بأنَّهم أولياء احتمالُ التغيُّر ، كما لا يضرُّ في العلم بأنَّ الكافر حالَ كفره كافراً احتمالُ إسلامه ، لأنَّ العلم يتعلَّق بالمعلوم على ما هو به .

الولي والكرامة : واعلم أنَّه ليس للوليِّ مُسَاكنة : سكون إلى الكرامة التي تظهرُ عليه ؛ ولا له ملاحظة لها ، وربَّما يكون لهم في ظهور جنسها قوَّةُ يقين وزيادة بصيره ، لتحقُّقهم أنَّ ذلك فعل الله تعالى ، فيستدلُّون بها على صحَّة ما هم عليه من العقائد .

اعتقاد الكرامات : وبالجملة ـ وفي نسخة : وفي الجملة ـ فالقولُ بجواز ظهورها بل وقوعها . . ـ وفي نسخة : إظهارها ـ على الأولياء واجبٌ ، وعليه جمهورُ أهلِ المعرفة ، ولكثرة ما تواتر بأجناسها الأخبار والحكايات . . صار العلم بكونها : بوجودها وظهورها على الأولياء في الجملة علماً قويّاً انتفى عنه الشكوك ، ومن توسَّط هذه الطائفة ؛ ولم يخرج عنها ، وتواترت عليه حكاياتُهم وأخبارهم . . لم يبقَ له شبهة في ذلك على الجملة .

دلائل الكرامات : ومن دلائل هذه الجملة : إظهارِ الكرامات .

نصُّ القرآن : ١ـ نصُّ القرآن ؛ في قصَّة آصف صاحبِ سليمان عليه السلام حيث قال لسليمان (أنا آتيك به . بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليك طرفُك) ؛ وقد أتىٰ به مثل ما قال . . ولم يكن نبياً !! .

أثر عمر : و٢ـ الأثرُ في ذلك عن أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه صحيحٌ أنَّه قال على المنبر بالمدينة لسارَية ؛ وكان بالشَّام ؛ أو بمصر[1] يقاتل

---

(١) بل بنهاوند كما مرَّ ص٣٤ (اختيار الصوفية) .
وسارية هو الصحابي سارية بن زنيم الدؤلي الكناني ، من مشاهير القواد الفاتحين ، وكان شاعراً توفي سنة ثلاثين .
=

العدوَّ ، وأراد العدوُّ أن يكيده ويسبقَهُ إلى الجبل . . (يا ساريةُ . . الجبل) اصعده . كشف الله له حالَ سارية مع العدوِّ ؛ فقال له ذلك في حال خطبته يومَ الجمعة ، فسمعُه ساريةُ والناس فتحصَّنوا بالجبل .

و٣ـ صحيحُ تبليغ صوت عمر إلى سارية في ذلك الوقت بإخبار ساريةَ عن نفسه بذلك حتَّى تحرَّزْ من مكامن العدوِّ من الجبل في تلك الساعة !

فلِعُمرَ في ذلك كرامتان ١ـ ما كشف له عن ساريةَ وأصحابِه وحالِ العدوِّ ، و٢ـ بلوغ صوته إلى سارية في بلاد بعيدة .

والأخبار والآثار والحكايات في ظهور الكرامات مشهورة . وسيأتي شيء منها .

استيضاح : فإن قيل : كيف يجوز إظهار هذه الكرامات الزائدة في المعاني على معجزات الرسل؟! وهل يجوز تفضيل الأولياء على الأنبياء عليهم السلام أوْ لا ؟!

تبعيَّة الكرامات : قيل في الجواب عن الأول : هذه الكراماتُ لاحقةٌ بمعجزات نبيِّنا ﷺ ، لأنَّ كلَّ منَ ليس بصادق بالإسلام لا تظهر عليه الكرامةُ ، فكلُّ نبيٍّ ظهرت كرامته على واحد من أمَّته ؛ فهي معدودة من جملة معجزاته ، إذ لو لم يكن ذلك الرَّسول صادقاً . . لم تظهر له مِن تابعه الكرامةُ ، فظهورها على الوليِّ دليلُ صدقِ النَّبِيِّ وصحَّة معجزته ، فإنَّه تابعٌ له في الحقِّ الذي أتى به ، فإكرام الله للوليِّ يدلُّ على أنَّه متَّبعٌ للرسول بما أتي به عنه ، فكرامات الأولياء ترجعُ إلى ما عضَدَ اللهُ به الأنبياء من المعجزات الدالَّة على صدقهم .

رتبة الأولياء : والجواب عن الثاني ما ذكره بقوله : فأمَّا رتبة الأولياء ! فلا تبلغُ رتبة الأنبياء عليهم السلام ، للإجماع المنعقد على ذلك ! وهذا أبو يزيد البسطاميُّ

= وهذا الأثر العمري ذكره أبو نعيم : في « دلائل النبوة » : ٥٢٥ ، والبيهقي في « الدلائل » ، واللالكائي في « شرح السنة » ، والديرعاقولي في « الفوائد » ، وابن الأعرابي في « كرامات الأولياء » ، والطبري في « تاريخ الأمم والملوك » : ٤/١٧٨ ، والخطيب ، وصحَّحه ابن تيمية في « النبوات » ص١٠٧ .

سئل عن هذه المسألة ؛ فقال : مثل ما حصل للأنبياء عليهم الصلاة والسلام كمثل زِقٍّ فيه عَسَل ترشَّح منه قطرةٌ ، فتلك القطرةُ مثل ما لجميع الأولياء ، وما في الظرف مثلُ ما لنبيِّنا مثلاً ﷺ ؛ من المعجزات والكرامات .

* فصل *

أنواعها : ثم هذه الكرامات . . قد تكون ١ـ إجابة دعوة ، وقد تكون ٢ـ إظهار طعام في أوان فاقة : حاجة من غير سببٍ ظاهر في تحصيل الطعام ، أو ٣ـ حصول تحصيل ماء في زمان عطش ، أو ٤ـ تسهيل قطع مسافة في مدَّة قريبة ، أو ٥ـ تسهيل تخليص من عدوٍّ ، أو ٦ـ سماع خطاب من هاتف . . أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة : الخارقة للعادة .

امتناعها : واعلم أنَّ كثيراً من المقدروات يعلم اليوم قطعاً أنَّه لا يجوز أن يظَهر كرامةً للأولياء، وبضرورةٍ؛ أو شبهِ ضرورة يعلَمُ ذلك ؛ أي : ويُعلم ذلك بالضرورة؛ أو شبهها من البراهين ، فمنها : من تلك المقدروات حصولُ إنسان . . لا من أبوين ، وقلبُ جمادٍ بهيمةً ؛ أو حيواناً آخر . . وأمثال هذا كثيرة .

وبحث بعضُهم في هذا ما يوافق ما مرَّ ص٩٦٢ عن ابن فُوْرَك ؛ فقال : خرق العادةُ جائز مطلقاً في كلِّ زمن ، ولا يختصُّ ببعض المعتادات ، لكن هل يكفي في مثل هذا النوع الآحاد ، أو لا بدَّ من تواتره !؟ فإنَّ مثلَه لو وقع لنقل إلينا متواتراً ، حتى لو نَقَله الآحادُ . . دَلَّ على كذب الناقل ، أو على خَبَله[1] ، لأن العادة تكذِّبُه ، وقد قال الزركشي : (ما قاله القشيري ضعيفٌ ، والجمهور على خلافه) !! وقد أنكروه عليه حتَّى ولدُه أبو نصر[2] في كتابه « المرشد » ،

---

(١) فساد عقله .

(٢) هو عبد الرحيم أحد أولاده العبادلة الستة . وكتابه لا يحضرني عنه شيء .

وإمامُ الحرمين في « الإرشاد »[1] ، والنووي في « شرح مسلم »[2] ؛ فقال : إنَّه غَلَط مِن قائله ، وإنكارٌ للحسِّ ، بل الصواب جريانُها بقلب الأعيان ونحوه .

* فصل *

معنى الولي : **فإن قيل : فما معنى الولي ؟** ووزنه : **فعيلٌ .**

قيل : يحتمل أمرين أحدُهما أن يكون فعيلاً ؛ مبالغة من الفاعل ، كالعليم والقدير ؛ بمعنى العالم أو القادر وغيره . الأَوْلى : وغيرهما ـ. **فيكون معناه : مَن توالت طاعاتُه من غير تخلُّل معصية .**

وهذا قريبٌ من قول السَّعد التفتازانيِّ[3] : (الوليُّ هو العارفُ بالله وصفاته ؛ حسب ما يمكن ، المواظبُ على الطاعات ، المتجنِّبُ عن المعاصي ، المُعرِض عن الانهماك في اللذَّات والشهوات) .

ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول ؛ كقتيل بمعنى مقتول ، وجريح بمعنىٰ مجروح .

وهو الذي يتولَّى الحقُّ سبحانه حفظَه وحراسته على الإدامة والتوالي ، فلا يخلُق له الخُذْلان الذي هو قدرةُ العصيان ، وإنّما يُديمُ عليه توفيقَه ؛ الذي هو قدرة الطاعة ، قال الله تعالى ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[4] فلا يكِلُه إلى نفسِه لحظةً . وتقدَّم ذلك في (باب الولاية) ص ٧٣٧ .

---

(١) هو كتاب « الإرشاد إلىٰ قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد » ، مؤلفه أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجُوَيني المعروف بـ « إمام الحرمين » . المتوفىٰ سنة : ٤٧٨ .
والكتاب مطبوع بمطبعة السعادة بمصر ١٩٥٠ في مجلد .
انظر تفصيل هذا المبحث فيه ص٣١٦ ـ ٣٢١ .

(٢) هو « المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج » مطبوع متداول مشهور .

(٣) في شرح العقائد النسفية . . عند قول النسفي (وكرامات الأولياء حقٌّ) .

(٤) الآية : ١٩٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

* فصل *

عصمة الولي : فإن قيل : فهل يكون الوليُّ معصوماً من الذنوب؟!

قيل : أمَّا كونه معصوماً منها وجوباً ؛ كما يُقال في حقِّ الأنبياء . . حتَّى لا يقع في كبيرة إجماعاً ؛ ولا في صغيرة على الأصحِّ !! فلا . وما قيل في حق الأنبياء مما يخالف ظاهُره ذلك ؛ كقوله تعالى ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [1]!؟ مؤوَّل ، فأوَّل عصى : يخالف . وغوى : بتغير حاله . عما كان عليه .

وأمَّا أن ؛ أي : أنَّه يكون محفوظاً حتَّى لا يصرُّ على الذنوب . . إن حصلت منه هَنَاتٌ : خَصَلات شَرٍّ ، أو آفات ، أو زَلاَّت !؟ فلا يمتنع ذلك في وصفهم بالولاية ـ الأَوْلى : وَصْفُه ـ .

فالوليُّ يُحفَظ مما يجوز وقوعُه ، فإن وقع في ذنب . . تاب منه سريعاً ، ومُحيَ أثرهُ عنه ، والنَّبيُّ يمتنع أن يقع له ما يجوز وقوعُه ، فحفظ الولي مما ذُكر جائزٌ ، وإن وقع منه وتاب منه ؟! . . كان ذلك من جملة الحفظ له أيضاً ، ولا يخرجه ذلك عن كونه وليًّا للهِ .

زلل العارف : ولقد قيل للجنيد رحمه الله : العارف بالله هل يزني يا أبا القاسم ؟! فأطرق رأسه مليًّا : طويلاً ، ثم رفع رأسه ؛ وقال ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [2]. أشار إلى أنَّ وقوع الذنب من الوليِّ لا ينافي ولايتَه ؛ بأن يحفظه الله بالتوبة منها سريعاً .

* * *

---

(١) الآية : ١٢١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : طه .

(٢) الآية : ٣٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

* فصل *

خوف الوليِّ : فإن قيل : فهل يسقطُ الخوف عن الأولياء ؟

قيل : أمَّا الغالبُ على الأولياء الأكابرِ . . فكان هو الخوف . كما مرَّ بيانُه ، حتَّى تمنَّىٰ عمرُ رضي الله عنه مع بكائه الزائد أنْ لم تكن أمُّه ولدَتْهُ . وذلك ؛ أي : سقوط الخوف الذي قلناه فيما تقدَّم على جهة النُّدرة ؛ بأن يعلمَه اللهُ بأنَّه يموت مسلماً ؛ فيسقط عنه خوفُ موته كافراً غيرُ ممتنع ، وهذا السريُّ السَّقَطي ؛ يقول : لو أنَّ واحداً دخل بستاناً فيه أشجار كثيرة ؛ وعلى كلِّ شجرة طيرٌ يقول له ؛ على سبيل خرق العادة . . بلسان فصيح (السلامُ عليك ؛ يا وليَّ الله . .) فلو لم يخف من ذلك أنَّهُ مكرٌ ؛ لكان ممكوراً به . وزالت معرفتُه بالله ، لأنَّه تعالى قال ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾[1] فكلُّ عالمٍ به لا بدَّ أن يخشاه ؛ لمعرفته بجلاله وعظمته وكمالِ قدرته . وأمثال هذا من حكاياتهم الدالَّة على عدم سقوطِ الخوف عنهم كثيرة .

* فصل *

رؤيتُه تعالى : فإن قيل : فهل تجوز رؤيةُ الله تعالى بالأبصار اليومَ أي في الدنيا على جهة الكرامة؟! .

فالجواب عنه : أنَّ الأقوى فيه أنَّه ـ: ما ذكر من الرؤية ـ لا يجوز ، لحصول الإجماع عليه . ولقد سمعتُ الأستاذ أبا بكر ابن فُوْرَك رحمه الله يحكي عن أبي الحسن الأشعريِّ رضي الله عنه أنَّه قال : ذَكَر في ذلك قولين في

---

(١) الآية : ٢٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : فاطر .

كتاب « الرؤية الكبير »[1] .

١ـ الجواز : **أحدهما** : الجواز ، إذ لو لم تجز رؤيته في الدنيا . . لم تجز في الآخرة ؛ لاستحالتها ! واللازمُ باطل ، فقد صحَّت الأخبار برؤيته ، بل سأل موسى عليه السلام ربَّه رؤيته في الدنيا !! ولا يسأل النبيُّ إلاَّ فيما يجوز ، لكن أخبره الله بأنَّ وقوعها ممتنعٌ في الدنيا ؛ لضعف الخَلْق عنها ، ولهذا مثَّله بالجبل ؛ فقل ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ ـ الذي هو أقوىٰ منك ـ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ ﴾ . . الآية[2] .

وقوعها : وقد رآه نبيُّنا ﷺ في الدُّنيا ليلة المعراج لقوَّته .

وأمَّا في الاخرة! فيراه المؤمنون لما يَخلُق لهم من قوَّة الإدراك الذي يدرك به ما ليس في جهة .

٢ـ المنع : **والثاني** : عدم الجواز ، للإجماع الذي ذكره المؤلِّفُ .

والحقُّ الأوَّل ، والإجماع إنَّما هو على عدم وقوعِ الرؤية ؛ لا عدم جوازها ، مع أنَّه محمولٌ على غير نبيِّنا ﷺ ، لما تقرَّر .

فالمعتمد أنَّها واقعةٌ للنَّبيِّ ﷺ في الدنيا والآخرة ، ولغيره من المؤمنين جائزةٌ . . عقلاً وشرعاً في الدنيا . . لا واقعة ، وواقعة في الآخرة .

* فصل *

تغير الولي : فإن قيل : فهل يجوزُ أن يكون الوليُّ وليّاً في الحال ؛ ثم تتغيَّر عاقبتُه ؛ بأن يخرج عن ولايته ؟! .

---

(١) الأشعري هو الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (أحد إمامَيْ أهل السنة في العقائد) إليه ينتمي الأشاعرة ، له ما ينيف علىٰ خمسين تصنيفاً ؛ منها : « جواز رؤية الله تعالىٰ بالأبصار » والثاني « كتاب العمد في رؤية الباري » . وكلاهما غير مطبوع فلا أدري أيهما مراد ابن فورك « الرؤية الكبير » ! .

(٢) الآية : ١٤٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

١ـ المنع : قيل : مَن جعل مِن شرط الولاية حسنَ الموافاة للهِ تعالى ؛ بأن يعلم الوليُّ توالي الطاعاتِ والقُربُات عليه إلى الممات . . لا يُجوِّز ذلك .

ومَن قال (إنَّه في الحال مؤمن على الحقيقة ؛ وإن جاز أن تتغيَّر حالُه بعدُ) ! ! لا يبعد أن يكون وليّاً في الحال صدِّيقاً ، ثمَّ يتغيَّر ! ! وهذا هو الذي نختاره .

إيضاح : ولا يورِث احتمال التغيُّر في العاقبة شكًّا في كونه وليًّا ؛ أو مؤمناً في الحال ، وإلاَّ لالتبس الأمر علينا ، فلا يشترطُ في صدق ذلك دوامُه إلى الممات ، ومع ذلك يجوزُ أن يكون من جملة كرامات الولي أن يعلمَ بإعلام الله له أنَّه مأمونُ العاقبة ، وأنَّه لا تتغيَّرُ عاقبته ، فتلتحق هذه المسألة بما ذكرنا من أنَّ الوليَّ يجوز أن يعلم بأنَّه وليٌّ لله تعالى .

* فصل *

أمن المكر : فإن قيل : فهل يزايلُ الوليَّ : يزول عنه خوفُ المكر : مكرِ اللهِ به ! ؟

قيل : إذا كان العبد مصطَلَماً : مستغرِقاً . . عن شاهده : مشهوده . . مختَطَفا عن إحساسه لا شعور له بحاله ونفسه ؛ فهو مستهلك عنه : عن إحساسه فيما استولى عليه من الأحوال التي طرقته ! ! فأينَ هو من الخوف الذي هو من صفة حاضرٍ ؛ كما قال : والخوف من صفَات الحاضرين بهم . . : منهم ، أو الأولياء ، أوالخلق .

* فصل *

ترتيب أحواله : فإن قيل : فما الغالبُ على الوليِّ في أوان صحوه ؟ !

قيل : الغالب عليه ١ـ صدقُه في أداء حقوقه سبحانه ؛ ثمَّ ٢ـ رِفقُه وشفقَته على الخلق في جميع أحواله ، ثم ٣ـ انبساطُ رحمته لكافَّة الخلق ، ثمَّ ٤ـ دوامُ تحمُّله عنهم أذاهم بجميل الخُلُق ، و٥ـ دوام ابتدائه لطلب الإحسان

من الله تعالى إليهم ؛ من غير التماسٍ لشيء منهم ، و٦ـ دوام تعليق الهمَّة بنجاة الخَلْق من المشقَّات والآفات ، و٧ـ ترك الانتقام منهم على قبائحهم ، و٨ـ التوقِّي عن محنٍ استشعار حقِّه عليهم ، مع قصر اليد والبعد عن أموالهم ، و٩ـ ترك الطَّمَع بكلِّ وجه فيهم ، و١٠ـ قبض اللسان عن بسطه بالسوء فيهم ، و١١ـ التصاون : صون نفسه عن شهود مساويهم ، و١٢ـ لا يكون خصماً لأحد في الدنيا ؛ لهوانها عليه ، فلا يخاصم عليها أحداً ، ولا في الآخرة لرحمته للخلق ـ وشفقته عليهم ؛ فلا يطالبُهم فيها بحقٍّ له عليهم ، وجميع هذه المذكورات من علامات الولاية ، لدلالتها على الانكفاف عن النقائض .

أجلُّ الكرامات : واعلم أنَّ من أجلِّ الكرامات التي تكون للأولياء دوامُ التوفيق للطاعات ، والعصمةُ عن ـ وفي نسخة : من ـ المعاصي والمخالفات .

كرامة مريم : ومما شهد من القرآن على إظهار الكرامات على الأولياء قولُه تعالى في صفة مريمَ بنتِ عمران عليها السلام . . ولم تكن نبيَّاً ولا رسولا ـ وفي نسخة : نبيَّة ولا رسولة ـ أنَّ زكريا عليه السلام ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا . . ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ ، وكان يقول ﴿ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ ﴾ !! فتقول مريم ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

وقوله سبحانه لمريم ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ـ وكانت يابسة ؛ والباء زائدة ـ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ : يسقط عليها فتستغني عن أن تجنَيه بيدها ، وكان في غير أوان الرُّطَب .

أصحاب الكهف : وكذلك قصَّة أصحاب الكهف والأعاجيب التي ظهرت عليهم من كلام الكلب معهم ـ وفي نسخة : لهم ـ وغير ذلك ، فقد جاء في قصَّتهم أنَّهم مرُّوا بكلب فنبح عليهم فطردوه ؛ فقال لهم (لا تطردوني ؛ أنا أحبُّ أحِبَّاءِ الله ، فناموا حتَّى أحرسَكُم)! وأنَّهم ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ نياماً ، وأنَّهم يُقلَّبون ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم ﴾ معهم ﴿ بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾، وكان ينقلب إذا انقلبوا ، وهو مثلُهم في النوم واليقظة و﴿ ٱلشَّمْسَ تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم ـ معهم ـ بَٰسِطٌ

﴿ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾[1] . . وكلُّها خوارقُ للعادة .

ذو القرنين : ومِن ذلك قصَّة ذي القرنين وتمكينُه سبحانه له في الأرض بكثرة المال . . ما لم يكن لغيره فيها كما هو مذكورٌ في (سورة الكهف) .

الخضر : ومن ذلك ما أظهر على يدي الخَضِر من إقامة الجدار الذي كان مائلاً بيده ، وغيره من الأعاجيب ؛ كخرقه السفينة ، وقتله الغلام !

ومِن ما كان يعرفه ممَّا خفي على موسى عليه السلام كلُّ ذلك أمور ناقضة . . خارقة للعادة اختُصَّ بها الخضر عليه السلام ؛ ولم يكن نبياً !! وإنَّما كان ولياً ، والذي جَزَم به ابن الصلاح وأقرَّه عليه النَّوويُّ أنَّه نبيٌّ ورجَّحه الجمهورُ[2] .

جريج الراهب : وممَّا رُوي من الأخبار في هذا الباب شاهداً على إظهار الكرامات على الأولياء حديثُ جُرَيْجٍ الراهب وهو ما أخبرنا به أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفراييني ؛ قال : حدَّثنا أبو عوانة : يعقوبُ بن إبراهيم بن إسحاق ؛ قال : حدَّثنا عمَّارُ ابن رجاءٍ ؛ قال : حدَّثنا وهبُ بن جرير ؛ قال : حدَّثنا أبي ؛ قال : سمعتُ محمد بن سيرين يحكي عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ . . . . (ح) قال أبو عوانة :

المتكلِّمون بالمهد : وحدَّثني أيضاً الصنعانيُّ ، وأبو أميَّة ؛ قالا : حدَّثنا الحسن بن محمد المروزيُّ ؛ قال : حدَّثنا جريرُ بن حازم ؛ عن محمد بن سيرين ؛ عن أبي هريرة ؛ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي ٱلمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ : عِيْسَىٰ ابنُ مَرْيَمَ ، وَصَبِيٌّ فِي زَمَانِ جُرَيْجٍ ، وَصَبِيٌّ آخَرُ . .

١ـ **عيسى ابن مريم** : فَأَمَّا عِيْسَىٰ فَقَدْ عَرَفْتُمُوهُ ـ أي : كلامَه ، وهو مذكورٌ في (سورة مريم) عليها السلام ـ .

٢ـ **شاهد جريج** : وَأَمَّا جُرَيْجٌ !! فَكَانَ رَجُلاً عَابِداً في بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ ، وَكَانَ له أُمٌّ موجودة ، فَكَانَ يَوْمَاً يُصَلِّيْ ، إِذْ ٱشْتَاقَتْ إِلَيْهِ أُمُّهُ فجاءته ؛ فَقَالَتْ له : يَا جُرَيْجُ ! فَقَالَ : يَا رَبِّ ؛ ٱلصَّلاَةُ خَيْرٌ أَمْ آتِيْهَا ؟ ـ أي أجيبها ؛ وفي نسخة : أم إجابتها ـ ثُمَّ صَلَّىٰ : استمَّر في صلاته ، فَدَعَتْهُ ثانياً ؛ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ صَلَّىٰ

---

(١) الآية : ١٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الكهف .

(٢) تقدم ص ٩٢٠ .

وَدَعَتْهُ ثالثاً ؛ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ صَلَّىٰ . فٱشْتَدَّ : شقَّ ذلك عَلَىٰ أُمِّه ؛ فَقَالَتْ (اَللَّهُمَّ ؛ لاَ تُمِتْهُ حَتَّىٰ تُرِيَهُ وُجُوهَ ٱلْمُوْمِسَاتِ) : الزانيات . وَكَانَتْ ٱمرأةٌ زَانِيةٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيْلَ هناك ؛ فَقَالَتْ لَهُمْ (أَنَا أَفْتِنُ جُرَيْجاً حَتَّىٰ يَزْنِي) فَأَتَتْهُ فَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ منه ، وَكَانَ هناك رَاعٍ يَأْوِي بِٱللَّيْلِ إِلَى أَصْلِ صَوْمَعَتِهِ صومعة جريح . فَلَمَّا أَعْيَاهَا جُرَيجٌ . . رَاوَدَت ٱلرَّاعِيَ عَلَىٰ نَفْسِهَا فَأَتَاهَا ، فَوَلَدَتْ منه ، ثُمَّ إِنَّهَا قَالَتْ (وَلَدِي هٰذا مِنْ جُرَيْج ! فَأَتَاهُ بَنُو إِسْرَائِيْلَ ؛ وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ وَشَتَمُوهُ ، ثُمَّ صَلَّىٰ وَدَعَا ، ثُمَّ نَخَسَ ٱلْغُلاَمَ بيده ؛ وقال له : يا غلام مَن أبوك ؟!

قال محمد بنُ سيرين : قال أبو هريرة : كأنِّي أنظر إلى النَّبِيِّ ﷺ حين قال بيده يحكي قولَ جريج (يا غلام من أبوك ؟) .

فَقَالَ : فُلانٌ ٱلرَّاعِي . فَنَدِمُوا عَلَىٰ مَا كَانَ : ما صَدَر مِنْهُمْ في حقِّه ، وَٱعْتَذَرُوا إِلَيْهِ ، وأقبلوا عليه يقبِّلُونه ، ويتمسَّحُون به ، وَقَالُوا له : نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ ـ أَوْ قَالَ : مِنْ فِضَّةٍ ـ فَأَبَىٰ عَلَيْهِمْ ، وَبنَاهَا كَمَا كَانَتْ ـ لفظ مسلم : قال : (لا ؛ أعيدوها من طين كما كانت) ففعلوا .

٣ـ رافض التمني : وَأَمَّا ٱلصَّبِيُّ ٱلآخَرُ !! فَإِنَّ ٱمْرَأَةً كَانَ مَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا تُرْضِعُهُ . . إِذْ مَرَّ بِهَا شَابٌّ جَمِيْلُ ٱلوَجْهِ ذُو شَارَةٍ : هيئة حسنة ؛ فَقَالَتْ (اَللَّهُمَّ ؛ ٱجْعَلْ ٱبْنِي مِثْلَ هٰذَا) . فَقَالَ ٱلصَّبِيُّ (اَللَّهُمَّ ؛ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ .) .

قال محمَّد : قال أبو هريرة : كأنِّي أنظر إلى النَّبِيِّ ﷺ حين كان يحكي الغلام : كلامه وهو يرضع !!

ثُمَّ مَرَّتْ بِهَا أَيْضاً ٱمْرَأَةٌ . . ذَكَرُوا أَنَّهَا سَرَقَتْ وَزَنَتْ وَعُوْقِبَتْ ، فَقَالَتْ (اَللَّهُمَّ ؛ لاَ تَجْعَلْ ٱبْنِي مِثْلَ هٰذِهِ) . فَقَالَ (اللَّهُمَّ ؛ ٱجْعَلْنِي مِثْلَهَا) . فَقَالَتْ لَهُ أُمَّهُ فِي ذَلِكَ : ما سببه !!؟ فَقَالَ : إِنَّ ٱلشَّابَّ جَبَّارٌ مِنْ ٱلجَبَابرَةِ ، وَإِنَّ هٰذِهِ المرأة قِيْلَ (إِنَّهَا زَنَتْ)؛ وَلَمْ تَزْنِ ، وَقِيْلَ (إِنَّهَا سَرَقَتْ . .) وَلَمْ تَسْرِقْ ؛ وَهِيَ تَقُولُ (حَسْبِيَ ٱللهُ !!) . هذا الخبر صحيحٌ رُوي في « الصحيح »[١] .

---

(١) البخاري: ٣٤٣٦، ومسلم: ٨ـ ٢٥٥٠، وأحمد: ٢/ ٣٠٧؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تكميل : فهؤلاء الثلاثة تكلَّموا في المهد ، وكلامُهم خرقٌ للعادة ، فكلامُ الأوَّل كرامةٌ لمريم وبراءةٌ لها ممَّا نُسب إليها ، وكلامُ الثاني كرامةٌ لجريج وبراءة له ممَّا نُسِبَ إليه ، وكلام الثالث آية لوالدته وبراءةٌ للمظلومة .

وزيد على الثلاثة سبعةٌ :

شاهد يوسف : **أحدهم** شاهد يوسف عليه السلام ؛ حيث قال : انظروا ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ . . ﴾[1] رواه الطبرانيُّ .

ابن الماشطة : **الثاني** ابن ماشطة فرعون حيث قال لأمِّه . . لَمَّا اطَّلع فرعون على إيمانها ؛ وأراد إلقاءها في النار : (اِصبري فإنَّا على الحقِّ) . رواه الطبراني .

ورويَ أنَّ المتكلِّمَ بنتُ الماشطة ، وأنَّه كان للماشطة ابنتان فذبح الكبرىٰ على صدرها ؛ وقال لها : (إن لم تكفري بالله ذبحتُ الصغرى !) وكانت رضيَّة ، فأبت . فأتى بها ، فلما أُضجعت على صدرها وأراد ذبحَها . . جَزِعَت الأمُّ ، فقالت ابنتها : (يا أُمَّاهُ لا تجزعي ، فإن الله قد بنىٰ لكِ بيتاً في الجنة فاصبري) فذبحت ، فلم تلبثْ الأمُّ أن ماتت . . فأسكنها الله الجنَّة .

صاحب الأخدود : **الثالث** صاحب الأُخدود ، فقد كان مَلِكٌ من ملوكِ حِمْيَر بنجران[2] قبل مولد النَّبيِّ ﷺ خدَّ أُخدوداً وملأه ناراً ، ثمَّ عرض مَن أسلم رجلاً . . رجلاً ، فمن رجع عن الإسلام تركه ، ومَن أبىٰ ألقاه في النار فأحرقه ، وكان فيهم امرأةٌ ؛ ولها ثلاثة أولاد ؛ أحدهم رضيع ، فقال لها الملك : ارجعي عن دينك .

---

(١) الآية : ٢٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : يوسف عليه الصلاة والسلام .
وعند الحاكم ٢/ ٥٩٥ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لَمْ يَتَكَلَّمْ في ٱلمَهْدِ إلاَّ عِيْسىٰ ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، وَٱبْنُ مَاشِطَةِ فِرْعَونِ » .

(٢) علىٰ وزن (سَلْمَان) : بلد باليمن ، وحِمْيَر غربي صنعاء .
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا عند النبي ﷺ فجاءه رجل . . . قال : يا رسول الله ؛ اِلعن حميراً . فقال ﷺ : « رَحِمَ ٱللهُ حِمْيَراً . . أَفْواهَمُ سَلامٌ ، وَأَيْدِيهِمْ طَعامٌ ، وَهُمْ أَهْلُ أَمْنٍ وَإِيْمَانٍ » الترمذي : ٣٩٣٩ ، وأحمد : ٢/ ٢٧٨ . قال الترمذي : غريب .

فأبت فألقىٰ أحدهم في النار ، ثمَّ قال لها مثلَ ذلك فأبت ! فألقى الآخر فيها ، ثمَّ قال لها مثل ذلك فأبت ، فأخذوا الصبيَّ منها ليلقوه فيها ، فهَمَّت بالرجوع ، فقال لها الصبيُّ : (يا أماه لا ترجعي عن الإسلام ؛ فإنَّك على الحقِّ، ولا بأس عليك) فألقى الصبيّ في النار ، ثُمَّ أُلقيت أمّه فيها على أثره . رواه مسلم[1] .

يحيى بن زكريا : **الرابع** : يحيى عليه السلام . رواه الثعالبي .

إبراهيم الخليل : **الخامس** : إبراهيم الخليل عليه السلام . ذكره البغوي .

نبينا ﷺ : **السادس** : نبيُّنا ﷺ تكلَّم في أوائل ما ولد . رواه الدارقطني .

مبارك اليمامة : **السابع** : مبارك اليمامة ، وكان في زمن النَّبيِّ ﷺ . رواه البيهقي .

فقوله في الخبر الأول (لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي ٱلمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ)!! أي : في بني إِسْرَائِيْلَ . . أو أنَّه قال ذلكَ قبل أن يعلمَ الزيادة على الثلاثة .

ومن ذلك حديث الغار ، وهو مذكور مشهورٌ في الصِّحاح .

مجابو الدعوة: أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفراييني ؛ قال : حدَّثنا أبو عوانة يعقوب بن إبراهيم بن إسحاق ؛ قال : حدَّثنا محمد بن عون ، وزيدُ بن عبد الصمد الدمشقي ، وعبد الكريم بن الهيثم الديرعاقولي ، وأبو الخصيب ابن المستنير المصِّيصي ؛ قالوا : حدَّثنا أبو اليمان ؛ قال : أخبرنا شعيبٌ ؛ عن الزهري ؛ عن سالم ؛ عن أبيه ؛ قال:

قال النَّبيُّ ﷺ : « اِنْطَلَقَ ثَلاَثُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَآوَاهُمُ ٱلمَبِيْتُ إِلَىٰ غَارٍ فَدَخَلُوهُ ، فَٱنْحَدَرَتْ عليهم صَخْرَةٌ مِنَ ٱلجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ ٱلغَارَ ، فَقَالُوا : إِنَّه ؛ وَٱللهِ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هٰذِهِ ٱلصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُو ٱللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ ؛ فإن لذلك أثراً ظاهراً في النجاة .

١ـ مكرم أبويه : فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : إِنَّهُ كَانَ لِيْ أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيْرانِ وَكُنْتُ لاَ أَغْبُقُ أسقي قَبْلَهُمَا أَهْلاً . . وَلاَ وَمَالاً ، فَنَأىٰ بي طَلَبُ ٱلشَّجَرِ يَوْماً فَلَمْ أَرُحْ عَلَيْهِمَا : فلم أصل إليهما . . حَتَّىٰ نَامَا ، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا : مشروبهما فَجِئْتُهُما بِهِ ؛ فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ فَتَحَرَّجْتُ : تجنَّبْتُ الإثم من أَنْ أُوْقِظَهُمَا ، وَكَرِهْتُ أَنْ

---

(١) في « صحيحه » : ٧٣ ـ ٣٠٠٥ ؛ عن صهيب في حديث الصبي الذي أرادوا تعليمه السحر . . . وقد دلَّهم كيف يتمكن الملك من قتله .

أَغْبُقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلاَ مَالاً ؛ فَقُمْتُ وَٱلْقَدَحُ عَلَىٰ يَدِيْ أَنْتَظِرُ ٱسْتِيْقَاظَهُمَا حَتَّىٰ بَرَقَ ٱلْفَجْرُ فَٱسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا !

اَللَّهُمَّ ؛ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِكَ . . فَٱفْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيْهِ من هذه الصخرة . فَٱنْفَرَجَتْ ٱنْفِرَاجاً لاَ يَسْتَطِيْعُونَ ٱلْخُرُوجَ مِنْهُ » .

٢ـ المستعفُّ القادر : فقال رسول الله ﷺ : « وَقَالَ ٱلآخَرُ : اَللَّهُمَّ ؛ كَانَتْ لِيْ بِنْتُ عَمٍّ ، وَكَانَتْ أَحَبَّ ٱلنَّاسِ إِلَيَّ فَرَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَٱمْتَنَعَتْ ، حَتَّىٰ أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مجدبة مِنَ ٱلسِّنِيْنَ ! فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِيْنَ وَمِئَةَ دِيْنَارٍ عَلَىٰ أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا ! فَفَعَلَتْ ، حَتَّىٰ إِذَا قَدِرْتُ عَلَيْهَا ؛ قَالَتْ لي : لاَ يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ ٱلْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ ؛ وهو عقد النكاح . فَتَحَرَّجْتُ مِنَ ٱلْوُقُوعِ عَلَيْهَا فَٱنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ ٱلنَّاسِ إِلَيَّ ، وَتَرَكْتُ ٱلذَّهَبَ ٱلَّذِي أَعْطَيْتُهَا إِيَّاه !

اَللَّهُمَّ ؛ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِكَ . . فَٱفْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيْهِ . فَٱنْفَرَجَتْ ٱلصَّخْرَةُ، إِلاَّ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيْعُونَ ٱلْخُرُوجَ مِنْهَا » .

٣ـ موفِّي الأجور : قال رسول الله ﷺ : « ثُمَّ قَالَ ٱلثَّالِثُ : اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي ٱسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أُجُورَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ . تَرَكَ ٱلَّذِي لَهُ وسَخِطَهُ وَذَهَبَ ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حتَّى كثرت منه الأموال ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِيْنٍ ؛ فقَالَ لي : يَا عَبْدَ ٱللهِ ؛ أَدِّ إِلَيَّ أُجْرَتِي ، فَقُلْتُ لَهُ : كُلُّ مَا تَرَىٰ مِنْ أُجْرَتِكَ . . مِنَ ٱلإِبِلِ وَٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ وَٱلرَّقِيْقِ . فَقَالَ لِي : يَا عَبْدَ ٱللهِ ؛ لاَ تَسْتَهْزِىءْ بِي ! . فَقُلْتُ له : إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِىءُ بك فَأَخَذَ ذَلِكَ كُلَّهُ فَٱسْتَاقَهُ . . وَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئاً . اَللَّهُمَّ ؛ فَإِنْ ـ وفي نسخة : إِنْ ـ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِكَ . . فَٱفْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيْهِ . فَعَلِم اللهُ صدقَهم في ذلك ؛ فَٱنْفَرَجَتِ ٱلصَّخْرَةُ عنهم فَخَرَجُوا مِنَ ٱلْغَارِ يَمْشُونَ » .

وهذا حديثٌ صحيح متَّفق عليه[1] . كما مرَّت الإشارة إليه في كلامه .

إيضاح : والكرامة في ذلك استجابةُ دعائهم وإزالة الصخرة عنهم . . بقدرة الله ؛ خرقاً للعادة ، والظاهر أنَّ أقواهم الثاني ، فإنَّه ترك شهوتَه مع تيسُّرها وكمال محبَّته لابنة عمه ، وبذله لها ما بَذَله لها من المال الجزيل .

---

(١) البخاري : ٣٤٦٥ ، ومسلم : ١٠٠ ـ ٢٧٤٣ ؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما .

بقرة تتكلَّم : ومِن ذلك الحديث الذي قال النَّبيُّ ﷺ فيه « إنَّ ٱلبَقَرَةَ كلَّمَتْهُم » .

أخبرنا أبو نعيم الإسفراييني : قال : أخبرنا أبو عوانة ؛ قال : حدَّثنا يونس بن عبد الأعلىٰ ؛ قال : أخبرنا ابن وهب ؛ قال : أخبرني يونس بن يزيد ؛ عن ابن شهاب ؛ قال : حدَّثني سعيد بن المسيب ؛ عن أبي هريرة ؛ عن النَّبيِّ ﷺ ؛ قال : « بَيْنَا ـ وفي نسخة : بَيْنَما ـ رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا شَيئاً ٱلْتَفَتَتْ ـ وفي نسخة : فٱلتفَتَتْ ـ ٱلبَقَرَةُ ؛ وَقَالَتْ : إنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهٰذَا ؛ إنَّمَا خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ ! فَقَالَ ٱلنَّاسُ لَمَّا سمعوا كلامَها : سُبْحَانَ ٱللهِ تعجُّباً ! فَقَالَ ٱلنَّبيُّ ﷺ : « آمَنْتُ بِهٰذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ »[1] : بأنَّه حقٌّ ، وأنَّ الله قادرٌ عليه ، وأنَّه يفعل ما يشاء .

توضيح : ووجهُ دخولِ ذلك في كرامات الأولياء نصحُ البقرة لصاحبها حتَّى لا يحمِّلَها ما لا تطيقه .

أويس القرني : ومِن ذلك حديث أويس القَرَني وما شهد له به عُمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه من حاله وقصَّته ، ثمَّ التقاؤه ـ أي : أويس ـ مع هَرِم بن حيَّان ، وتسليمُ أحدهما على صاحبه من غير معرفة تقدَّمت بينهما . وكلُّ ذلك أحوال ناقضة خارقة للعادة . و تركنا شرح حديث أويس !! لشهرته .

عمر وأويس : وحاصلُه أن عمر رضي الله عنه اجتمع به في عرفات وعرَّفه بصفة النَّبيِّ ﷺ التي وصفها ، وسأله أن يَثْبُتَ له حتَّى يرجعَ ، فقال له : لا تراني ولا أراك بعد اليوم . وكان يرعى الإبل في صورة العبيد . . فبقي عمر ينادي عليه في كلِّ موسم ؛ فلا يجد مَن يدلُّه عليه ، لخفاء أمره وقلَّة شهرته ، حتَّى دَلَّ عليه رجلٌ قرني من أهله ، ثم قال له : وما تسألُ عن ذلك يا أمير المؤمنين ؛ والله ، ما فينا أحمقُ منه ولا أجنُّ ولا أدنى !! فبكى عمر ، وقال : ما سألتُ عنه . . إلاَّ أنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَدْخُلُ فِي شَفَاعَتِهِ ٱلجَنَّةَ مِثْلُ رَبِيْعَةَ وَمُضَرٍ »[2] .

---

(١) أخرجه البخاري : ٣٤٧١ ، ومسلم : ١٣ ـ ٢٣٨٨ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنها . وأخرجه الحميدي : ١٠٥٤ ؛ وفيه زيادة في تكلُّم ذئب مع الراعي وقد استلب منه شاة . . .

(٢) أخرجه الحاكم : ٣/ ٤٠٥ بلفظ « . . . أكثر من ربيعة . . . » ؛ عن الحسن ، وأخرج في : ٤٠٨ « . . أَكْثَرُ مِنْ بَنِي تَمِيْمٍ » .

هرم وأويس : قال هرم بن حِيَّان : فلما سمعت ذلك من عمر . . قدمت الكوفة ؛ فلم يكن لي همٌّ إلاَّ أن أطلب وأسأل عنه !! حتَّى سقطتُ عليه جالساً على شاطىء الفرات نصفَ النهار يتوضَّأَ ويغسل ثوبه ، فعرفته بالنعت الذي نُعِت به . فإذا رجل لحيمٌ شديدُ السُّمْرة ، محلوق الرأس كثُّ اللحية ، متغيِّرٌ جداً كريهُ الوجه مهيب المنظر ! فسلَّمتُ عيه فردَّ عليَّ ؛ فقلت : حيَّاك الله من رجل . فمددتُ يدي لأصافِحَه . . فأبىٰ أن يصافحَنِي ! فقلت : رحمك الله يا أُويس ؛ وغفر لك كيف أنت ؟! قال : وأنت حيَّاك الله يا هَرِمُ بنَ حِيَّان ؛ كيف أنت يا أخي ؛ ومَن دلَّك عليَّ ؟؟. قلتُ : الله . قال : لا إله إلا الله ، سبحان الله ! ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ ، فعجبتُ حين عرفني ولا رأيتُه قبلَ ذلك ولا رآني !! فقلت له : مِن أين عرفتَ اسمي واسمَ أبي . . وما رأيتُك قبل اليوم ؟! قال : نبَّأني به العليم الخبير ، وعرفتْ روحي روحَك حين كلَّمتْ نفسي نفسَك ، إنَّ الأرواح لها أَنْفُسٌ كأنفس الأجساد ، وإن المؤمنين ليعرف بعضهم بعضاً ، ويتحابُّون بروح الله ؛ وإن لم يلتقوا[1] .

وفاة أويس : ومن كراماته ما رُوي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال : مات أويس بسجستان فوُجد معه أكفان ـ ورويَ : فإذا قبرٌ محفور ؛ وماءٌ مسكوب ؛ وكفنٌ وحَنوط ـ فغسَّلناه وكفنَّاه وصلَّيْنا عليه ودفناه ! فقال بعضنا لبعض : لو رجعنا فعلَّمنا قَبرَه بشيء لنستغفر له !! فرجعنا ؛ فإذا لا قبر ولا أثر ؛ عملاً مما كان يحبُّه في حياته . . من إخفاء عمله .

كرامات السلف : ولقد ظهر على السلف من الصحابة والتابعين ، ثمَّ على مَن بعدهم من الكرامات ما بلغ حدَّ الاستفاضة ، وقد صُنِّف في ذلك كتبٌ كثيرة ، وسنشير إلى طرف منها على وجه الإيجاز . . إن شاء الله تعالى .

ابن عمر والسَّبُع : فمن ذلك أنَّ ابن عمر رضي الله عنهما كان في بعض الأسفار . . فلقي جماعةً وقفوا على الطريق من خوف السبع ، فطرد هو السَّبُعَ من طريقهم ،

---

(١) القصة مفصَّلة أخرجها الحاكم في « مستدركه » : ٣/ ٤٠٤ ـ ٤٠٨ فراجعها وفيه إسهاب في وصية هرم .

ثُمَّ قال : إنَّما يسلَّط على ابن آدم ما يخافُه ! ولو أنَّه لم يخف غيرَ الله . . لَمَا سُلِّطَ عليه شيءٌ ، وهذا خبرٌ معروفٌ .

ابن الأدهم والسَّبُع : وقد جرى مثلُ هذا لإبراهيم بن أدهم لَمَّا كان في قافلة وتعرَّض السبع لها تقدَّم إليه ؛ وقال : يا أبا الحارث ؛ إن كنتَ أُمرت فينا بشيء . . وإلاَّ ! فتنحَّ عن طريقنا . فهمهَمَ وتنحَّىٰ عن الطريق ، فتعجَّبوا من ذلك[1] !

دعاء الحفظ : فقال لهم إبراهيم : ما على أحدكم أن يقول إذا أصبح وأمسى : (اَللَّهُمَّ ؛ ٱحْرُسْنَا بِعَيْنِكَ ٱلَّتِي لاَ تَنَامُ ، وَٱحْفَظْنَا بِرُكْنِكَ ٱلَّذِي لاَ يُرَامُ ، وَٱرْحَمْنَا بِقُدْرَتِكَ عَلَيْنَا ؛ فَلاَ نَهْلِكُ . . وَأَنْتَ ٱلرَّجَاءُ) .

الدعاء المجاب : ورُوِي أنَّ رسول الله ﷺ بعث العلاء ابن الحضرميّ في غزاة ؛ فحال بينهم وبين الموضع المطلوب قطعةٌ من البحر ، فدعا الله تعالى باسمه الأعظم ومشوا على الماء . وروي أن ما دعا به العلاء :

(يا علي يا عظيم ، يا عليم يا حكيم ؛ إنا عبيدك نقاتِلُ في سبيلك ، فاجعل لنا إليهم سبيلا) . ثم ضرب فَرَسه فخاض البحر .

توضيح : ولا ينافي هذا قوله (ومشوا على الماء) لاحتمال أنَّ الماشيَ على الماء غيرُه فقط ، أو كلُّهم . . والخائض الفرس وحده[2] .

السراج الحاضر : وروي أنَّ عتَّاب بن بشير وأُسَيْد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة . . فأضاء لهما رأسُ عصا أحدِهما كالسِّراج . ورويَ : فظهر عند طَرَف سوطِ أحدهما كالقنديل من النور يستضيئآن به ، فقال صاحبه : لو حدَّثنا الناس بهذا لكَذَّبونا[3] !! .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مجابو الدعوة » ، والخلاَّل في « كرامات الأولياء » : ٦٠ ؛ عن خلف بن تميم . وستأتي مرة أخرىٰ ص ١٠٠٩ .

(٢) المتبادر إلىٰ الذهن أنَّهم مشوا علىٰ الماء كالماشي علىٰ اليابسة ، فهم ماشون حقيقة خائضون صورة ، ويدلُّ لذلك ما ورد في بعض الروايات (فوالله ما ابتلت خفاف نعالنا) والله تعالىٰ أعلم .

(٣) أخرجه البخاري : ٣٨٠٥ ، وعبد الرزاق في (« الجامع » لمعمر بن راشد : ٢٠٥٤١) ، وأحمد : ٣/ ١٣٧ .

تسبيح قصعة : ورُوي أنَّه كان بين يدي سلمان وأبي الدرداء قصعة ، فسبَّحت حتى سمعا التسبيح منها !! .

ذو طمرين : ورُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ ؛ قال : « كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِيْ طِمْرَيْنِ :ـ ثوبين خَلِقَيْن ـ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ : لا يبالىٰ به . . لَوْ أَقْسَمَ عَلَى ٱللهِ لأَبَرَّهُ »[1] .

ولم يفرِّق ﷺ بين شيء وشيء فيما يُقسَم به على الله !! : سواءٌ الاسم الأعظمُ أمْ غيره ! . وهذه الأخبار لشهرتها أضربنا : أعرضنا عن ذكر أسانيدها .

وحُكي عن سهل بن عبد الله ؛ أنه قال : مَن زهد في الدنيا أربعين يوماً صادقاً من قلبه ؛ مخلصاً في ذلك . . ظهرت له الكرامات ، ومن لم تظهر له بعدها الكرامات ؛ فإنَّه عَدِم الصدق في زهده . فقيل لسهل : كيف تظهرُ له الكرامة ؟ فقال : يأخذ ما يشاء . . كما يشاء . . من حيث يشاء . يعني : يلطُف اللهُ به ، ويسهِّل له سائر تصرُّفاته على وجه الاستقامة .

ويدلُّ له خبر : « ﴿ ومَا تَقَرَّبَ إليَّ ٱلْمُتَقَرِّبُونَ ﴾ » غداً ، مع أنه لا يلزم من الصدق ظهورُ الكرامة[2] .

تكلُّم السحاب : أخبرنا عليُّ بن أحمدَ بن عبدان ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن عبيد الصّفَّار ؛ قال حدَّثنا أبو مسلم ؛ قال : حدَّثنا عَمْرو بن مرزوق ؛ قال : حدَّثنا عبد العزيز ابن أبي سلمة الماجِشُون ؛ قال : حدَّثنا وهب بن كيسان ؛ عن ابن عمير ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ عن النَّبيِّ ﷺ ؛ قال : « بَيْنَا رَجُلٌ ذَكَرَ كَلِمَةً . . إذْ سَمِعَ رَعْداً فِي سَحَابٍ ، فَسَمِعَ

= وعتَّاب هذا من الأنصار المتقدم إسلامهم ـ أسلم قبل سعد بن معاذ ، وهو بدري وشهد أحداً وما بعدها . وأما أُسَيد فهو أنصاري من الأوس ، شهد بيعة العقبة ، وهو بدري ، وشهد أحداً وما بعدها . . حتى توفي بالمدينة سنة عشرين ، ودفن بالبقيع .

(1) أخرجه ا الترمذي : ٣٨٥٤ ؛ وقال : حسن صحيح وزاد : « مِنْهُمُ ٱلْبَرَاءُ بنُ مَالِكٍ » ، وأخرجه الحاكم : ٣/٢٩١ ؛ وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي . والبيهقي في « دلائل النبوة » : ٦/٣٦٨ ، وأبو نعيم في « الحلية » : ١/٧ . وللحديث روايات كثيرة وألفاظ مختلفة بغير ذكر البراء . انظر تحقيقنا لـ « كرامات الأولياء » للخلال .

(2) وقد تقدم ـ ص٥٦٥؛ وفيه شرح معناه؛ص٩٦٥ ـ قول الجنيد (مشىٰ رجال باليقين علىٰ الماء ، ومات عطشاً أفضل منهم يقيناً) .

صَوْتاً فِي السَّحَابِ هو صوت المَلَك الموكَّل به . . أَنْ ٱسْقِ ـ أي : يقول للسحاب : اِسْقِ ـ حَدِيْقَةَ فُلاَنٍ ! فَجَاءَ ذَلِكَ ٱلسَّحَابُ إِلَىٰ سَرْحَةٍ ـ هي واحدة السَّرْح ؛ وهو : الشجر العظام . . يعني : حديقة فلان ـ فأفرغ ماءه فيها ، فأتَّبع السامعُ السَّحَابِ ، فإذا رجلٌ قائم في حديقة ، فقال له : ما اسمك ؟! قال : فلان ابن فلان (باسمه) . قال : فما تصنع بحديقتك هذه إذا صرمتَها : قطعت ثمرتها ؟! قال : ولِمَ تسألُ عن ذلك ؟! قال : إنِّي سمعت صوتاً في السماء : أن اسق حديقة فلان !! قال : أما إذْ قلت : سألتَ عن ذلك . . فإنِّي أجعلها أثلاثاً ، فأَجعلُ لنفسي ولأهلي ثلثاً ، وأردُّ عليها ؛ على مصالِحها ثلثاً ، وأجعل للمساكين وابنِ السبيل ثلثاً »[١] .

توضيح : في ذلك دَلالة على انتفاع هذا السامع بكونه خُرقت له العادةُ حتَّى سمع كلام المَلَك ، وجاء إلى صاحب الحديقة ؛ وسأله عما يصنع فيها ليزداد حرصُه في الطاعات ، ويهونَ عليه إخراج ماله في الخيرات ، لأنَّ الله يعوِّضه بذلك في ماله الخيراتِ والبركاتِ .

مضيف السباع : سمعتُ أبا حاتم السِّجستانيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا نصر السرَّاج ؛ يقول :

دخلنا (تُسْتَر) فَرَأينا في قصرِ سهل بن عبد الله بيتاً كان الناس يسمُّونه (بيت السبع)، فسألنا الناس عن ذلك ؟ فقالوا : كان السباعُ تجيْءُ إلى سهل ؛ فكان يدخلهم في هذا البيت ؛ ويضيِّفُهم ويطعمهم اللحم، ثمَّ يخلِّيهم إلى حال سبيلهم

شبَّه السِّبَاع بمن يعقل ، فأتى بها بضميره .

توثيق : قال أبو نصر : ورأيت أهل (تُستَر) كلَّهم متَّفقين على هذا لا ينكرونه ، وهم الجمع الكثير ! وسيأتي عن سهل أنَّه كان قد أصابته زمانة في آخر عمره ، فإذا حضرته صلاة الفرض انتشرت أعضاؤه، فإذا فرغ من فرضه . . عاد إلى زِمانته!!

وهذا من جملة الكرامة والحفظ له ، ليأتيَ بالفرض على أكمل وجوهه .

المضيف والمكاشفة : سمعت محمد بن أحمد بن محمد التميمي ؛ يقول : سمعتُ عبد الله ابن علي الصوفي ؛ يقول : سمعت حمزة بن عبد الله العلويَّ ؛ يقول : دخلتُ على

---

(١) أخرجه مسلم : ٤٥ ـ ٢٩٨٤ ، وأحمد : ٢/٢٩٦ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أبي الخير التِّيْناتي[١] . . وكنتُ اعتقدت : قصدت في نفسي أن أُسلِّم عليه . . وأخرج من عنده ؛ ولا آكل عنده طعاماً ، فلما خرجتُ من عنده ومشيت قَدْراً بعيداً من موضعه . . فإذا به خلفي ؛ وقد حمل طبقاً عليه طعام ؛ فقال **مكاشفاً** لي بما قصدته : يا فتى ؛ كُلْ هذا الطعام فقد خرجتَ الساعة من اعتقادك .

وأبو الخير التيناتي مشهورٌ بالكرامات !!

اشتغلتم واشتغلنا : وحُكيَ عن إبراهيم الرقِّي ؛ أنَّه قال : قصدتُه ؛ ـ أي : أبا الخير ـ مسلِّماً عليه فصلَّى صلاة المغرب ؛ فلم يقرأ الفاتحة مستوياً ! لكن لا يضرُّ في الصلاة كأنْ لَحَنَ لَحْناً ما لا يغيِّر المعنى ، أو كان به عُجمة منعته من التعلُّم !! فقلت في نفسي : ضاعت سَفْرَتي لمن لا يُحسِن قراءة الفاتحة !! فلما سلَّمتُ عليه . . خرجتُ للطهارة فقصدني السَّبُع ! فعدت إليه ؛ وقلت له : إن الأسد قصدني ! فخرج وصاح على الأسد ؛ وقال (أَلَمْ أقلْ لك لا تتعرَّض لِضيفاني) !! فتنحَّىٰ عن الطريق فتطَّهرتُ ، فلما رجعتُ إلى أبي الخير . . قال لي مكاشفاً : اشتغلتُم بتقويم الظواهر . . فخفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم القلب . . فخافنَا الأسد .

الفصُّ الضائع : وقيل : كان لجعفر الخَلَدي فصٌّ ، فوقع منه يوماً في الدجلة . . وكان عنده دعاء مجرَّب للضالَّة . . إذا دَعىٰ به تردُّ ! فدعا به . . فوجد الفصَّ في وسط أوراق كان يتصفَّحُها !

إيضاح : الكرامة فيه وجودُ الفَصِّ الذي سقط منه في البحر بين أوراق كان يتصفَّحُها ، ولم يعرف من أتىٰ به .

دعاء الضالَّة : سمعت أبا حاتم السجستانيَّ ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : إنَّ ذلك الدعاء الذي دعا به جعفر هو : (اللهم ؛ يا جامع الناس ليومٍ لا ريبَ فيه . . اجمع عليَّ ضالَّتي) .

---

(١) نسبة إلىٰ « تِينات : قرية علىٰ أميال من المصيصة . . منها أبو الخير التيناتي المعروف بـ (الأقطع) ، سكن جبل لبنان ، وكان أصله من المغرب ، وكانت له آيات وكرامات ، وكان ينسج الخوص بإحدىٰ يديه لا يدري كيف ينسجه !! (اللباب : ٢/ ٢٣٤) .
وهو المتقدمة ترجمته برقم ٥٨ ص ٢١٠ . فتنبه .

قال أبو نصر السرَّاج : أراني أبو الطيب العَكِّيُّ جزءاً ذكر فيه مَن ذكر هذا الدعاء على ضالَّة وجدها !! وكان الجزء أوراقاً كثيرة .

مقصود الكرامات : سألت أحمد الطابرانيَّ السرخسيَّ؛ فقلت له : هل ظهر لك شيءٌ من الكرامات ؟ فقال لي : في وقت إرادتي وابتداء أمري . . ربَّما كنتُ أطلب حجراً استنجي به فلم أجده ، فتناولت شيئاً من الهواء ؛ فكان جوهراً ، فاستنجيت به وطرحتُه .

الكرامة فيه لكَونه أخذَه من الهواء ، واستنجىٰ به مع أنَّه صقيل ؛ لا يُزيل الأذىٰ . . وقد أزاله !! ثم قال منفِّراً عن الالتفات إلى الكرامات : وأيُّ خطرٍ : قَدْر للكرامات : لظهورها !! إنَّما المقصود منه ـ : من ظهورها ـ زيادةُ اليقين في التوحيد لله ، فمن لا يشهد غيرَه أي : غير الله تعالى موجوداً في الكون ، وإنَّما يشهد وجوده تعالى . . فسواءٌ أبصر فعلاً معتاداً ؛ أو ناقضاً : خارقاً للعادة .

فيه أنَّ الكرامة لا يغترُّ بها !

ولو أخَّر « غيره » عن « موجوداً في الكون » : كان أوضح ، ـ وفي نسخ بدل موجوداً : موجداً ـ .

فقير عبَّادان : سمعت محمد بن أحمد الصوفيَّ ؛ يقول : سمعت عبد الله بن علي ؛ يقول : سمعت أبا الحسن البصريَّ ؛ يقول : كان بـ(عبَّادانَ) رجلٌ أسودُ فقير يأوي إلى الخرابات ، فحملتُ معي شيئاً إليه ؛ شفقةً عليه ، وطلبته ! فلما وقع عينه عليَّ . . كاشفني بما أتيته به ؛ حيثُ تبسَّم ، وأشار بيده إلى الأرض ليريَنِي ما تفضَّل اللهُ به عليه ، وأنَّه مستغنٍ به عما أَتيتُ به . . فرأيت الأرض كلَّها ذهباً يَلمعُ ثم أسرني بقبول ما أتيته به مع استغنائه عنه ؛ حيث قال لي : هاتِ ما معك . فناولتُه له وهالني : أفزعني أمرُه فهربتُ منه فزعاً .

العفو في العلم : سمعت منصوراً المغربيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أحمد بن عطاءِ الرُّوذَباري ؛ يقول : كان لي استقصاء ومبالغةٌ في أمر الطهارة . . فضاق صدري ليلةً لكثرة ما صببتُ من الماء ؛ ولم يسكن قلبي !! فقلت : يا ربِّ عفوَك !!

فسمعت هاتفاً يقول : العفو في العلم[1] : اتباعه ! فزال عني ذلك الضيقُ .

الكرامـة فيه أنَّ الله استجـاب دعاءَه وأزال عنـه ما كـان منه من الوسوسـة في الطهارة .

هاجر الوسوسة : سمعت منصوراً المغربيَّ أيضاً ؛ يقول : فرأيته ـ أي : الرُّوذباريَّ ـ يوماً قعد على الأرض في الصحراء ؛ وكان عليها آثار الغنم ؛ من بعر ونحوه . . بلا سَجَّادة ، فقلت له : أيُّها الشيخ ؛ هذه آثار الغنم . . وأنت قاعد عليها !! فقال : قد اختلف الفقهاء فيه : في حكمها . . من طهارة وعفو[2] . وفيه إشارة إلى أنَّه قد زال عنه ما كان فيه من الوسوسة .

عظة حمار : سمعت أبا حاتم السجستاني رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : سمعت الحسين بن أحمد الرازيَّ ؛ يقول : سمعت أبا سليمان الخوَّاصَ ؛ يقول : كنت راكباً حماراً يوماً ؛ وكان الذباب يَؤذيه فيطأطيء الحمار رأسه ، فكنت أضرب رأسه بخشبة في يدي ، فرفع الحمار رأسه ؛ وقال لي : اضرب ، فإنَّك على رأسك هو ذا تضربُ !!: فإنَّك تجازىٰ بما تعمل . قال الحسين : فقلت لأبي سليمان : لك وقع هذا !؟ فقال : نعم ، كما تسمعني .

الكرامة فيه تكليمُ الحمار له ، وفيه تأديبٌ وتنبيهٌ له[3] .

يُقسِمُ على ربِّه : وذكر عن ابن عطاء أنَّه قال : سمعت أبا الحسين النوريَّ ؛ يقول : كان في نفسي شيء من هذه الكرامات !! فأخذت قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين ، ثم قلت (وعزَّتِك ، لئن لم تخرجْ لي سَمَكَة فيها ثلاثة أرطال من اللحم . . لأُغَرِّقَنَّ نفسي في البحر . قال : فأخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال .

---

(١) فمن أجرىٰ حركاته وسكناته علىٰ طريق المتابعة . . كفي شرَّ الوسواس (عروسي : ٤/ ٦٧) .

(٢) فالطهارة علىٰ طريق مالك رضي الله عنه ، والعفو علىٰ قول غير مالك من الأئمة (عروسي : ٤/ ٦٧) .

(٣) وفيه لطف من الحق ؛ حيث لا يتركه ونفسه ، بل ينبهه دائماً إلىٰ طريق سداده (عروسي : ٤/ ٦٨) .

جزاء شرعي : استجاب الله له ذلك ؛ رحمةً له ، لما علم من صحَّة عزمه على ذلك ، فسلَّمه من الغرق ؛ إكراماً له . وفي الخبر : « مِنْ عِبَادِ ٱللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ ٱللهِ لأَبَرَّهُ »[1] . فبلغ ذلك الجنيد ؛ فقال : حكمهُ ـ أي : النوريُّ : ـ جزاؤه أن تخرج له أفعىٰ تلدغُه . لتألِّيه على الله وإدلاله عليه .

العامل لله : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا الفتح يوسف ابن عمر الزاهد القوَّاسَ ببغداد ؛ يقول : حدَّثنا محمد بن عطيَّة ؛ قال : حدَّثنا عبد الكبير ابن أحمد ؛ قال : سمعت أبا بكر الصَّائغ ؛ قال : سمعت أبا جعفر الحدَّاد (أستاذ الجنيد) ؛ قال : كنتُ بمكَّة ، فطال شعري . . ولم يكن معي قطعة من حديد آخذ بها شعري ! ! فتقدَّمتُ إلى مزيِّن توسَّمتُ : تفرَّستُ فيه الخير ، فقلت له : تأخذ شعري لله تعالى ؟ ! فقال : نعم ؛ وكرامة . وكان بين يديه رجل من أبناء الدُّنيا فصرفه . . لَمَّا سمع « لله »، مع أنَّه كان يرجو منه فائدة دنيوية ! ! وأجلسني بين يديه وحلق شعري ، ثم دفع إليَّ قِرطاساً فيه دراهم ؛ وقال (استعن بها على بعض حوائجك) . فأخذتُها منه واعتقدت : عزمت أن أدفع إليه أوَّل شيء يُفتَح عليَّ به . قال : فدخلت المسجد ؛ فاستقبلني بعض أصحابي ؛ وقال لي : جاء بعض إخوانك بصُرَّة من البصرة من بعض إخوانك . . فيها ثلاث مئة دينار تصرفُها في بعض أمورك ، فأخذتُ الصرَّةَ وجئت بها إلى المزيِّن ؛ وقلت له : هذه ثلاث مئة دينار تصرفُها في بعض أمورك . فقال لي : ألا تستحيي يا شيخ ؛ تقول : احلق شعري لله تعالى ، ثم آخذ عليه شيئاً ! ! انصرف عني عافاك الله .

فيه دلالة على همَّته الشريفة وإعراضه عن الدنيا .

الكيميائي الصوفي : سمعتُ أبا حاتم السجستاني ؛ يقول : سمعت أبا نصر السَّراج ؛ يقول : سمعت ابن سالم ؛ يقول : لمَّا مات إسحاق بن أحمدَ . . دخل عليه سهل بن عبد الله صومعته ؛ فوجد فيها سَفَطاً ـ كالقُفَّة . قالهُ في « القاموس » ـ فيه قارورتان في واحدة منهما شيء أحمر ، وفي الأخرى شيءٌ أبيض ، ووجد مع ذلك شوسقة ـ يعني : قطعة ـ ذهب ، وشوسقة فضة . قال : فرمى

---

(١) تقدم ص ٩٨٣ مثله مخرَّجاً .

بالشَّوْسَقَتين في الدجلة ، وخلط ما في القارورتين بالتراب ؛ ستراً على إسحاق ، لعلمه بأنَّه كان يحبُّ سَتْرَ ذلك ، وكان على إسحاق دَيْن ! !

تذييل : قال ابن سالم : قلت لسهل : إيش كان في القارورتين ؟ قال : شيئآن : أحدهما ؛ وهو الأحمر . . لو طرح منه وزنُ درهم على مثاقيل من النحاس . . صار ذهبا ، والآخر ؛ وهو الأبيض . . لو طرح منه مثقالٌ على مثاقيل من رصاص . . صار فضَّةً . فقلت له : وإيش عليه لو أظهر هذا ثمَّ قضى منه دينه !؟ فقال لي : اِيْ دوست ـ بالعجمية ـ: يا صاحبي ؛ خاف على إيمانه .

فيه دلالة على أن إسحاق كان يعلَمُ أصول الكيمياء التي تقلب النحاسَ ذهباً ؛ أو فضة . فسَتَرَ سهلٌ هاتين القارورتين كما سترهما إسحاق .

وفي قوله (خاف على إيمانه) تنبيهٌ على أنَّ إسحاق لم يعمل بهما شيئاً ، والمعنى أنه خاف إن جرَّب ذلك . . سكنت نفسُه إليه دون ربِّه ، فينقص إيمانه ودرجته .

تارك الكرامة : وحكي عن أبي عليٍّ النوريّ : أنَّه خرج ليلة إلى شط الدِّجلة بقصد مجاوزتها ، فوجدها وقد التزق له الشطَّان : التقيا بحيث لو مدَّ رجله كان على الشطِّ الآخر . فانصرف ؛ وقال تأدباً واعترافاً بتوالي نعم الله عليه في كلِّ خارق : وعزَّتكَ ؛ لا أجوزها إلاَّ في زورق كسائر الناس .

صاحب النخشبي : سمعت أبا حاتم السجستانيّ ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : أملىٰ علينا الوجيهي حكايةً عن محمد بن يوسف البنَّاء ؛ قال : كان أبو تراب النخشبيُّ صاحبَ كرامات ! فسافرت معه سنة ؛ وكان معه أربعون نفساً ، ثم أصابتنا مرَّةً فاقةٌ : حاجة ، فَعدَل أبو تراب عن الطريق وجاءَ بِعذْقِ موز ! فتناولنا منه ، وفينا شابٌّ فلم يأكل منه شيئاً . فقال له أبو تراب : كُلْ . فقَالَ : الحال الذي اعتقدته صار عقيدتي ترك المعلومات من الخلق ؛ فلا ألتفتُ إليها . . وصِرتَ أنت معلومي ، لو أكلتُ أنا من ذلك . . فلا أصحبُك بعدَ هذا . فقال له أبو تراب : كن مع ما وقع لك واعتقدتَه : اِبقَ عليه . . ولا تأكل .

علم منه أنَّه معه قوَّة وزيادة يقين .

خدع الحق : ومِن قبيل قولِ الشاب (فلا أصحبك بعد هذا) . . ما جرى للخوَّاص مع الخَضِر لَمَّا لقيَه في سفره ؛ وطلب منه الخضرُ الصُّحبةَ . . فامتنع ؛ خوفاً من أن تسكن نفسُه إليه ؛ فيفسد عليه توكُّله على ربِّه[1] ، وقد قال أبو تراب لذلك الشابِّ : ما يقول أصحابُك من الكرامات التي يكرم الله بها أولياءَه ؟ فقال له : ما أعرفُ أحداً ينكِرُها . قال له أبو تراب : مَن أنكرها . . فهو كافر ، ولكن بلغني أنَّ أصحابك يزعمون أنَّها خِدَع من الحقِّ !! وليس الأمر كما ذكروه، وإنَّما تكون خدعاً لمن اقترحها . . وسكن بقلبه إليها ، وأما مَن أُعطِيَها . . ولم تسكن إليها نفسه ؛ فتلك مرتبةُ الربَّانيِّين .

جواهر الوادي : وحكىٰ أبو نصر السرَّاج عن أبي يزيد البَسطاميِّ ؛ قال : دخل عليَّ أبو عليٍّ السنديُّ ؛ وكان أستاذَه وبيده جراب فصبَّه ؛ فإذا هي الأشياء التي فيه جواهرُ ، فقلت له : مِن أين لك هذا ؟! فقال لي : وافيت واديا ههنا ؛ فإذا هو يضيءُ بما فيه كالسراج ؛ بأن جعل الله له حصىٰ الوادي جواهرَ ، فحملتُ هذا ! فقلت له : كيف كان وقتُك الذي وردتَ الوادي فيه ؟ فقال : وقت فترة عن الحال التي كنتُ فيها مع الله مِنْ شغلي به . . واستغراقي فيه ؛ بحيث أنِّي لم أشعر بنفسي ؛ فضلاً عن الوادي وغيره ؛ من كرامة وغيرها ، فلما حصل له تلك الفترة ، وزال عنه استغراقه ورجع إلى إحساسه . . أدرك ما في الوادي ، واستحسنه وحمل منه في جرابه ، فلما أفرغه في بيت أبي يزيد وسأله (من أين هو) . . أخبره بما ذكر .

حقيقة الكرامة : وقيل لأبي يزيد : فلانٌ يمشي في ليلة إلى مكَّة! هذه كرامة طيِّ الأرض. فقال منفِّراً عن الالتفات إليها : وأيُّ عجب في ذلك!! الشيطانُ يمشي في ساعة من المشرق إلى المغرب ، وليس هو في كرامة ، بل في لعنة الله !!

وقيل له أيضاً : فلانٌ يمشي على الماء ويطير في الهواء !! فقال : وأيُّ عجبٍ في ذلك ؟! الطير يطير في الهواء ! والسمك يمرُّ على وجه الماء ؟! مع أنَّهما دون بني آدم ؛ فضلاً عن الأولياء منهم ، قال تعالى ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ

---

(١) تقدمت ص ٥٢٨ .

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1] ، وقال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[2] .

كمال المعرفة : وفيما ذكر دلالة على كمال أبي يزيد في المعرفة . . حيث لم يلتفت إلى الكرامات ؛ ولم يسكن إليها ، إذ الكرامةُ الحقيقية هي الاستقامة على سلوك الطريق المستقيم .

أكبر الكرامات : **وقال سهل بن عبد الله : أكبر الكرامات : أفضلُها أن تبدِّلَ أنت خُلُقاً مذموماً من أخلاقك بخُلُقٍ محمود** ، إذ أفضل الكرامات الاستقامة على الصراط المستقيم ، ولا تحصل للعبد حتَّى تتغيَّر أخلاقُه المذمومةُ بالمحمودةِ . . من الزهد ، والصبر ، والصدق ، والتوكُّل ، ونحوها .

خشخاشة الصبيان : **سمعت محمد بن أحمد بن محمد التميمي ؛ يقول : سمعت عبد الله بن علي الصوفي ؛ يقول : سمعت ابن سالم ؛ يقول : سمعتُ أبي ؛ يقول : كان رجلٌ يقال له « عبد الرحمان بن أحمد » يصحب سهل بن عبد الله ، فقال له يوماً : ربَّما أتوضَّأُ للصلاة فيسيلُ الماء بين يديَّ قضبان : أغصانِ ذهبٍ وفضَّة ! فقال له سهلٌ** مؤدِّباً له ومنفِّراً له عن الالتفات إلى الكرامات ؛ لئلا يسكُن إليها . . على عادة الشيخ مع تلميذه في مثل ذلك : **أما علمتَ أنَّ الصبيانَ إذا بكوا يعطَوْن خُشْخاشة ليشتغلوا بها فيسكتو' ؟!** .

تأديب لطيف : **سمعت أبا حاتم السجستاني ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : أخبرني جعفر بن محمد ؛ قال : حدَّثني الجنيدُ ؛ قال : دخلت على السريِّ السَّقَطي يوماً ؛ فقال : لي عصفورٌ كان يجيءُ إليَّ كلَّ يوم ؛ وينزل على يدي ، ولا ينفر منِّي !! وأفتُّ له الخبز فيأكل من يدي ، فنزل وقتاً من الأوقات . . فلم يسقط على يدي ! فتذكَّرتُ في نفسي : إيش السبب في ذلك ؟! فذكرت أني أكلتُ ملحاً بأبزار** ؛ من شُمَّار وكَمُّونٍ ونحوِهما ، **فقلت في نفسي : لا آكل شيئاً من ذلك بعدها** : بعد هذه المرَّة ، **وأنا تائب إلى الله منه ! فسقط على يدي وأكل على عادته معي** .

---

(١) الآية : ٧٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .
(٢) الآية : ١٣ ؛ من السورة ذكر فيها : الجاثية .

في ذلك تأديبٌ لطيف حيث أدرك السريُّ ما نبَّهه به مولاه على بعض نقصه فيما عزم على الوفاء به ؛ من أنَّه لا يأكل طعاماً بشهوة، ثم خطر له في وقت خلط الملح ببعض الأبازير وغفل عن كونه دخل تحت عزمه لقلَّتِه .

يمدد الخشب : وحكىٰ أبو عمرو الأنماطيُّ قال : كنتُ مع أستاذي في البادية يوماً فأَخَذَنا : أدركَنَا المطر ، فدخلنا مسجداً نَستكنُّ فيه ، وكان السقفُ يَكِفُ : يقطر ؛ يقال (وكَفَ البيت . . وَكَفا . . و وكيفا . . وتوكافا : قطر ، وأوكف لغة فيه)؛ قاله الجوهريُّ .

فصعدنا السطح ومعنا خشبة نريد إصلاح السقف بها ؛ فقصر الخشب عن الجدار ، فقال لي أستاذي وقد جعل طرف الخشبة على الجدار من جهته : مُدَّها من جهتك . فمددتُها فأمتدَّت ، فركب الحائطَ من هنا ومن هنا .

هذه كرامةٌ لأستاذه . . حيث طُوِّلت له اليابسات بحسن النيات ، حيث قصد إصلاح شيءٍ من المسجد ؛ لَمَّا وجده قد وقع سقفه وخشبه .

الشريعة والحقيقة : سمعت محمد بن عبد الله الصوفي ؛ يقول : سمعت محمد بن أحمد النجار ؛ يقول : سمعت الرقيَّ ؛ يقول : سمعت أبا بكر الدقَّاق ؛ يقول : كنت مارّاً في تيه بني إسرائيل فخطر ببالي أنَّ علم الحقيقة ؛ وهو : ما يهبه الله لعبده في قلبه مباينٌ لعلم الشريعة!! فهتف بي هاتف من تحت الشجرة: كلُّ حقيقة لا تتبعها الشريعةُ . . فهي كفرٌ، أو بدعة، لأنَّه ﷺ رتَّب الحقيقة على الحقِّ في خبر حارثة، فإنَّه قال له : « كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟» . فقال : أصبحتُ مؤمناً حقَّاً . فقال له: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيْقةً»[1] فرتَّبها على الحقِّ ، والحقُّ ما شهدت به الشريعة .

النسَّاج والسارق : وقال بعضهم : كنت عند خير النسَّاج فجاءَه رجل ؛ وقال له : أيّها الشيخ ؛ رأيتُك يومَ أمسٍ وقد بعتَ الغزل بدرهمين ؛ وصررتَهما في طرف إزارك ، فجئت خلفك فحللتُهُما من طرف إزارك . . وقد صارت يدي منقبضة على الدرهمين في كفِّي . . لا أقدر على فتحها لأشتري بهما شيئاً . قال : فضحك خيرٌ فرحاً بصنع مولاه معه ؛ وحفظِه له فيما يتعاطاه ، وأومأ بيده شفقةً

(١) تقدم تخريجه ص ٥٦٥ .

ورحمةً عليَّ إلى يدي ودعا لي ، ففتحتُها .

ثم قال لي : امضِ واشترِ بهما لعيالك شيئاً ، ولا تَعُدْ لمثله . سمح له بهما ونهاه عن العود إلى المنكر !

إيضاح وعبرة : وفيما ذكر دَلالة على حفظ الله تعالى لأوليائه ما يحتاجون إليه ، فهذا الرجل كان فقيراً ؛ ورأىٰ خيراً النسَّاجَ باع غزلاً بدرهمين ، وصرَّهما في طرف إزاره واكتفى في حفظهما بذلك ؛ اعتماداً على الله فيه . ولم يقوَ حرصُه عليهما ، فترك القبض بكفِّه على الصرَّة المانع من حلِّها ، فلما حلَّها الفقير وأخذ الدرهمين في كفِّه . . أيبسَ الله كفَّه عليهما ، فصارت كفُّه حرزاً لخيرٍ . . حفظتْ له ماله ، فلما أحسَّ من نفسه ذلك . . علم أنَّه من فعل الله ، فأتى إلى خيرٍ وأعلَمه بذلك ؛ كما تقرَّر .

مجلس صوفي : وحُكي عن أحمد بن محمد السُلَمي ؛ قال : دخلتُ على ذي النون المصريِّ يوماً ؛ فرأيت بين يديهِ طشتاً من ذهب وحولَه النَّدُّ : ما خُلط من مسك وكافور . . والعنبر يُسجَر : يوقد في النار . ـ وفي نسخة : يتبخَّرُ به ـ : بمجموع الأمرين . فقال لي : أنت ممَّن يدخل على الملوك في حال بسطهم ! ! ثم أعطاني درهما فأنفقت منه إلى بلخ .

يسافر بدرهم : فيه دلالة على إكرام الله لذي النون بما جعله حواليه مما يتبخَّر به مما ذكر ، وبما أجراه على يده من خرق العادة في الإنفاق من الدرهم الذي ناوله للداخل عليه إلى بلخ ؛ بأن بارك الله فيما اشتراه . . فصار ينفق منه إلى أن وصل إلى بلخ .

كرامة الخراز : وحُكي عن أبي سعيد الخرَّاز ؛ قال : كنتُ في بعض أسفاري وكان يظهر لي كلَّ ثلاثةِ أيام شيءٌ من الطعام ، فكنتُ آكله وأستقلُّ : أكتفي به ! فمضى عليَّ ثلاثةُ أيَّام وقتاً : في وقت من الأوقات لم يظهر لي فيها شيءٌ آكله ! فضعفتُ وجلست من الجوع ، فهتف بي هاتف ؛ قال لي : أيُّما أحبُّ إليك . . سببٌ ؛ أو قوَّة ؟! فقلت : القوَّة أحبُّ إليَّ . فقمتُ من وقتي ، ومشيتُ اثني عشر لم أذق فيها شيئاً ، ولم أَضعُف !

تعقيب : في ذلك كرامة . . من جهة أنَّه كان يظهر له في كلٍّ ثلاثة أيام رزقٌ من حيث لا يحتسب ، ومن جهة أنه سمع تخيير الهاتف له فيما ذُكر ، ومن جهةٍ أنَّه بقي اثني عشر يوماً لم يأكل ؛ ولم يضعُف بترك الأكل .

التجاء صادق : وعنْ المرتعش ؛ قال : سمعتُ الخوَّاص ؛ يقول : تهتُ في البادية أيّاماً فجاءني شخصٌ وسلَّم عليَّ ؛ وقال لي : تهتَ !! فقلت : نعم . فقال لي : ألا أدلُّك على الطريق !؟ ومشى بين يديَّ خَطَواتٍ ، ثم غاب عن عينيَّ ؛ وإذا أنا على الطريق الجادَّة : المسلوكة ! **فبعد ذلك ما تهتُ ، ولا أصابني في سفري جوعٌ ولا عطش .**

دلالة تائه : في ذلك دَلالة على كمال التجاء الخوَّاص له به في افتقاره إليه في حال تيههٍ ، وخوفه من فوات مطلوبه ، فلما علم الله ذلك منه يسَّر له هاتفاً من ملك . . أو وليٍّ ! فسكن خوفُه بقوله(تهت !) ثمَّ دلَّه على الجادَّة بخطوات يسيرة ؛ فيها طيُّ الأرض له ولمن تبعَه ، فلما صار في الجادَّة . . أعطاه الله بركة الافتقار إليه ، وعرَّفه توالي نِعمه عليه . . حتَّى لم يَتِهْ في سفره ، ولا احتاج إلى مطعم ؛ ولا إلى مخلوق ببركة الالتجاء إليه وصدقه فيه .

المستبشر بالموت : سمعتُ محمد بن عبد الله الصوفيَّ ؛ يقول : سمعتُ عمر بن يحيى الأردبيليَّ ؛ يقول : سمعت الرقيَّ ؛ يقول : سمعت ابن الجلاَّء ؛ يقول : لمَّا مات أبي ضحك على المغتسل ؛ لما رآه عند نزع روحه مما استبشر به وسُرَّ به ، فبقيتْ صورة ضحكه وتبسُّمه في وجهه ، كما قال تعالى ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ فمن رآه ظنَّه حيًّا !!. **فلم يَجْسُر** : يُقدِم عليه[1] **أحدٌ يغسِّلهُ ، وقالوا (إنَّه حيٌّ) ، حتَّى جاء واحد من أترابه** : أقاربه[2] ، ـ وفي نسخة : أقرانه ـ **وغسَّله** رضي الله عنه .

جوع التستري : سمعت محمد بن أحمد بن محمد التميمي ؛ يقول : سمعت عبدالله بن علي ؛ يقول : سمعت طلحة القصايري ؛ يقول : سمعت المنيحي (صاحب سهل بن عبد الله)

---

(١) لو فسَّرها بـ (يجرأ) لكان أولىٰ . وذلك إجلالاً وهيبة منـه ؛ كما في العروسي (٤/ ١٧١) .

(٢) الأولىٰ في تفسير الأتراب بـ (الأقران) أو (الأكفاء) . لأن المراد مستوي العمر .

يقول : **كان سهلُ يصبرُ عن الطعام سبعين يوماً ، وكان إذا أكل ضَعُف** ! لبعده بترك الطعام تلك المدة عن الاستئناس به ، **وإذا جاع قوي** ، لرجوعه إلى حالته التي تعوَّدَها وأعانه الله عليها .

صيامان لرمضان : وكان أبو عبيد البسري إذا كان أوَّلُ شهر رمضان يدخل بيتاً ، ويقول لامرأته (طيِّني عليَّ الباب وألقي إليَّ كلَّ ليلة من الكَوَّةَ ؛ وهي الطاقة **رغيفاً)** ، **فإذا كان يومُ العيد فُتِح الباب ودخلت امرأته البيت ؛ فإذا بثلاثين رغيفاً في زاوية البيت !! فلا أَكَل ؛ ولا شرب ؛ ولا نام** ! لكمال شُغله بربِّه وستره لأعماله حتَّى عن امرأته . **ولا فاتته ركعة من الصلاة** ! ولعلَّه كان له عذرٌ في ترك الجمعة والجماعة ، ويحتمل أنَّه ما تركها وكانت امرأتُه تظنُّ أنَّه لم يفارق البيت !!

والحكمة في أنَّه أمر امرأته أن تأتيَه كلَّ يوم برغيف أن يسكُن قلبُها ؛ ولا تتكدَّر بتركه الأكل . . من حيث إنَّه يضعفه ، وفي ترك الأرغفة إلى آخر الشهر مع إمكان أن يتصدَّق بها إظهارُ هذه الكرامة ؛ وهو كونه يصبر عن الطعام شهراً ، ليكون حُجَّة عن منكرها .

نداآت وليٍّ : وقال أبو الحارث الأولاسيُّ[1] : **مكثتُ ثلاثين سنة ما** ـ وفي نسخة : لا ـ **يَسمَعُ** : **ينطق لساني إلاَّ من سرِّي**[2] : إلاَّ ما تحقَّقْتُهُ في سِرِّي ، لكمال مراقبته له به في أعماله ، **ثمَّ تغيَّرتْ الحال** بي ؛ بأن استقامت أحوالي في هذه الثلاثين سنةً وبعدتُ عن الشهوات، **فمكثتُ ثلاثين سنة** أخرى **لا يسمع سِرِّي إلاَّ من رَبِّي** . فصار شغلُه بربِّه، فالثلاثون الأُولى كانت في عِمارة الباطن بالأخلاق الحميدة . .

---

(١) نسبة لـ (أوْلاس) بلدة على ساحل بحر الشام ، منها أبو الحارث الأَوْلاسي ، له كرامات وعجائب (اللباب : ١/ ٩٤) .
قلت : هي من نواحي طَرَسوس شمالي البحر المتوسط (من أراضي تركيا الآن) وبها حصن يعرف بـ (حصن الزهاد) .

(٢) أي من أحكام الشريعة المطهَّرة . وقوله (لا يسمع سري . . .) أي إلاَّ من واردات الحقِّ وإشارات الصدق ، فكان ممن عني بقوله ﷺ « اِسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ ٱلْمُفْتُونَ » (عروسي : ٤/ ١٧١ ـ ١٧٢) .

مِن توكُّله وتفويضه ونحوِهما ، والثلاثون الثانية كانت في الفناء في التوحيد .

العافية المشروطة : حدَّثنا محمد بن عبد الله الصوفي ؛ قال : حدَّثنا أبو الحسين (غلام شعوانة) ؛ قال : سمعت عليَّ بن سالم ؛ يقول : كان سهل بن عبد الله أصابتهُ زِمانةٌ في آخرِ عمره ، فكان إذا حضرَ وقتُ الصلاة انتشرت يداه ورجلاه ، فإذا فرغ من الفرض عاد إلى حالةِ الزِّمانة . هذا من جملة الكرامة والحفظ له . . أن يَشفى من مرضه إذا حضر وقت الصلاة ؛ ليأتي بالفرض على أكمل وجوهه ، وإن كان الإتيان به مع العجز مساوياً في الفضيلة للإتيان به مع السلامة عند كثير من العلماء .

كرامات في البحر : وحُكي عن أبي عمران الواسطي ؛ قال : انكسرت السفينة بنا وبقيتُ أنا وامرأتي على لوح واحد ؛ وقد ولدت في تلك الحالة صبية ! فصاحت بي ؛ وقالت لي : يقتلني العطش !! فقلت لها : هوذا ربُّنا يرى ـ وفي نسخة : ترين ـ حالنا !! عرَّفها بقلَّة حيلته ، وانصرف رجاؤه إلى ربِّه .

قال : فرفعت رأسي ، فإذا رجل في الهواء جالس . . وفي يده سلسلة من ذهب وفيها كوزٌ من ياقوت أحمر . . وهذا من أواني الجنة ، وكذا ما وصف من الشراب الآتي ؛ وقال : هاكَ ؛ خذ هذا الكوز واشربا .

تارك هواه : قال : فأخذتُ الكوز وشربنا منه . ـ وفي نسخة : منها ؛ أنَّث الكوز باعتبار أنه آنية ـ ؛ وإذا هو : ما فيهِ أطيبُ من المسك ، وأبردُ من الثلج ، وأحلى من العسل . فقلت له : مَن أنت ؛ رحمك الله ؟ !! فقال : عبدٌ لمولاك . فقلت له : بم وصلتَ إلى هذا المقام ؟ فقال : تركتُ هوايَ لمرضاته تعالى فأجلسني في الهواء . ثم غاب عني . . ولم أره .

وفي هذا موعظةٌ لأبي عمران ، وهو أنَّك لو تركتَ الهوى لرُفعت في الهواء .

ينتظر الإذن : أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفيُّ ؛ قال : حدَّثنا بكران بن أحمد الجيلي ؛ قال : سمعتُ يوسف بن الحسين ؛ يقول : سمعت ذا النون المصريَّ ؛ يقول :

رأيتُ شابّاً عند الكعبة يُكثر الركوع والسجود . . وغيرُه مشتغلٌ بالطواف ! فدنوت منه ؛ وقلت له : إنَّك تُكثر الصلاة !! فقال : الآن أنتظرُ الإذن من ربِّي في الانصراف . . على ما جرت به عادته معه ؛ من أنَّه إذا دخل في عبادةٍ لازَمَها إلى أن يحضرَه واجبٌ ؛ أو يأتيَه إذنٌ من ربِّه بالانصراف .

قال ذو النون : فرأيت رقعة سقطت عليه مكتوبٌ فيها ﴿ من العزيز الغفور إلى عبدي الصادق ؛ انصرف مغفوراً لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر منه ﴾ .

ضيف البقيع : وقال بعضُهم : كنتُ بمدينة الرسول ﷺ في مسجده مع جماعة نتجارىٰ الآيات : نتحاكىٰ كرامات الأولياء . . ورجلٌ ضرير بالقُرْب منا يسمع كلامنا ، فتقدَّم إلينا ؛ وقال : أنستُ أنا بكلامِكُم ؛ اِعلموا أنَّه كان لي صِبْيَة وعيالٌ ، وكنت أخرج إلى البقيع أحتطبُ حطباً لأبيعه وأُنفقَ عليهم من ثمنه ، فخرجت يوماً فرأيت شابَّاً عليه قميصُ كتَّانٍ ونعلُه معلَّقٌ في أصبعه ، فتوهَّمتُ أنَّه تائهٌ عن الطريق ، فقصدتُه أسلب ثوبه ، فقلت له : انزع ما عليك . فقال لي : مُرَّ في حفظ الله . فقلت الثانية والثالثة مثلَ ذلك ، وربَّما لم يكن عليه سوى ذلك الثوب ، فلو نزعته انكشفت عورته !! فقال لي : لا بدَّ أن تأخذَ ما عليَّ !؟ فقلت له : لابدَّ أن آخذ . فأشار مِن بعيدٍ إلى عينيَّ فسقطتا . فقلت له : بالله عليك مَن أنت !؟ ! فقال : أنا إبراهيم الخوَّاصُ . ولم يوفَّق لَمَّا سأله بالله ذلك . . أن يسألَه بالله أن يدعوَ له ليردَّ الله عليه بصرَه !!

توضيح : وفيما ذُكر إظهارُ الكرامة ، وتحذيرُ العبد من أن يطلب ما تشتهيه نفسُه من كلِّ أحد من الناس ، ولا يخالف أحداً منهم مخالفةً تؤدِّيه إلى ضرر ! فرُبَّما جازاه الله بفعله من حيث لا يشعر ، وربَّما كان بسبب مَن خالفه .

قَسَم سارق : وقال ذو النون المصريُّ : كنتُ وقتاً في السفينة فسُرِقت قطيفة . . يقال (إنها قلادة فيها جواهر) ، والمراد أنَّه سُرق منها جوهرةٌ ـ وفي نسخة : جوهرة ـ فاتهموا بها رجلاً شابَّاً ، وكان عليه أمارات الخير !! فقلت : دعوهُ حتَّى أرفُق به . وإذا الشابُّ نائم في عباءة ، فأخرج رأسه من العباءة ؛ فقال له ذو النون في ذلك المعنى : اتهامِهم له ! فقال متعجِّباً : إليَّ تقول ذلك !! أقسَمتُ عليك يا ربِّ ؛ أن لا تدع : تترك واحداً من الحيتان إلاَّ جاء بجوهرة . قال فرأينا وجه الماء ـ أي عليه ـ حيتاناً في أفواههم ـ الأَوْلىٰ : في أفواهها ؛ كما في نسخة ـ الجواهرُ : في أفواه كلٍّ منها جوهرةً ، ومدَّ يده وأخذ جوهرةً من فم حوت وألقاها إليهم . ثم ألقى نفسه في البحر ، ومرَّ على الماء إلى الساحل وغابَ عنّا .

راهبا المسلمين والنصارى : وحُكي عن إبراهيمَ الخوَّاصِ ؛ قال : دخلتُ البادية مرَّة

فرأيت نصرانياً على وسطه زُنَّارٌ ، فسألني الصحبة فأجبته ، فمشينا سبعة أيَّام ، فقال لي : يا راهبَ الحنفية : المسلمين ؛ هات ما عندكَ من الانبساط : ممَّا تقدر عليه ؛ فقد جعنا ! فقلتُ : إلهي ؛ لا تفضحني مع هذا الكافر . فرأيت طبقاً عليه خبزٌ وشِواء ورُطَباً وكوزَ ماء ، فأكلنا وشربنا ، ومشينا سبعةَ أيَّام ، ثمَّ بادرت ؛ وقلت : يا راهب النصارى ؛ هاتِ ما عندك ، فقد انتهت النوبةُ إليك . فاتَّكأ على عصاه ودعا ، وإذا بطبقين عليهما كأضعاف ما كان على طبقي ! قال : فتحيَّرتُ ؛ لا تحيُّر شكٍّ في ديني ، بل تحيُّراً في حالِ هذا الكافر ، وبأيِّ وجه أجرىٰ اللهُ على يديه هٰذين الطبقين ، وهل هو زيادةُ مكرٍ في حقِّه ، أو أمرٌ آخر تجدَّد له . وتغيَّرتُ لذلك ، وأبيتُ أن آكل ممَّا فيهما ، فألحَّ عليَّ في الأكل ، فلم أُجبه له ، فقال لي : كُلْ ، فإنِّي أبشِّرُك ببشارتين : إحداهُما أنِّي أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وحلَّ الزُّنَّارَ من وسطه ، والبشارة الأُخرى أنِّي سألت الله بك ، فإني قد قلتُ : اللَّهُمَّ ؛ إن كان لهذا العبد خَطَرٌ : قَدَر عندك فافتح عليَّ بهذا الذي رأيتَه ، ففُتح عليَّ به . قال : فأكلنا ومشينا وحججَ ـ وفي نسخة : وحججنا ـ وأقمنا بمكَّةَ سنة ، ثم إنَّه مات فيها ؛ ودفن بالبَطْحاء .

إيضاح : في ذلك دَلالة على أنَّ هذا الكافرَ كانت تنخرق له العادةُ في أسباب الدنيا التي لا تزنُ عند الله جناح بعوضة ، وقد منعها أنبياءَه وأولياءه وأسبغها على غيرهم ممَّن أراد ، ولمَّا كان اللهُ تعالى يجري على هذا الكافرِ بعضَ هذه الألطاف الدُّنيويَّةِ . . اغترَّ به ، فلما لقيه الخوَّاص وسأله الصحبة وسافرا سبعة أيَّام ؛ قال له امتحاناً وتعجيزاً : يا راهب الحنيفية ؛ قد جعنا فهاتِ ما عندك ! فدعا الخوَّاصُ ، فأجابه ، فتحقَّق الكافرُ منه أنَّ ذلك كرامةٌ له ، فحبَّبه اللهُ بالإسلام ؛ فأسلم .

رمانة العابدين : وقال محمد بن المبارك الصوريُّ : كنتُ مع أبي إسحاق إبراهيمَ بنِ أدهم في طريق بيت المقدس ، فنزلنا وقتَ القيلولة تحتَ شجرة رُمَّانٍ ، فصلَّيْنا ركعات ، فسمعت صوتاً من أصل الرُّمَان ؛ يقول : يا أبا إسحاق ؛ أكرمنا . بأن تأكل منَّا شيئاً ، فطأطأ إبراهيم رأسه أي : نعم . فقال كلٌّ منهما ذلك

(ثلاث مرَّاتٍ) . و« قال » في الثاني بمعنى : فَعَل . ثم قال المصوِّتُ لابن المبارك : يا محمد ؛ كنْ لي شفيعاً إليه ؛ أي : إلى إبراهيم ليتناول منَّا شيئاً .
فقال محمد : يا أبا إسحاق ؛ لقد سمعتَ ما قالتْهُ هذه الشجرة !! فقام أبو إسحاق وأخذ منها رُمَّانتَيْن ، فأكل واحدة وناولني الأخرى فأكلتُها ؛ وهي حامضة . وكانت شجرةً قصيرة ، فلما زرنا بيت المقدس ثم رجعنا . . مررنا بها ، وإذا هي شجرةٌ عالية ورُمَّانُها حلوٌ ؛ وهي تثمر في كلِّ عام مرَّتين وسمَّوْها « رمَّانة العابدين »، ويأوي إلى ظلِّها العابدون من كلِّ وجه .

كلُّ ذلك ببركة ما رغبتْ فيه من أكل إبراهيم منها ، وقد نُقل أنَّ شجرَ الجنَّة إذا مرَّ بها الأولياء يناديهم (هل لنا فيكَ من دولة يا ولي الله !!) .
والكرامة في ذلك كلامُ الشجرة وسؤالُها وتشفُّعها .

راكب السباع : سمعتُ محمد بن عبد الله الصوفي ؛ يقول : سمعت محمد بن الفرحان ؛ يقول : سمعتُ الجنيد ؛ يقول : سمعتُ أبا جعفر الخصَّافَ ؛ يقول : حدَّثني جابر الرحبيُّ ؛ قال : أكثرَ أهل الرُّحبة عليّ الإنكارَ في بابِ الكرامات !! : أكثروا عليَّ في إنكارها . فركبت السَّبُع يوماً ودخلت الرُّحبة[1] ؛ وقلت : أين الذين يكذِّبونَ أولياءَ الله ؟ !! قال : فكَفُّوا بعد ذلك عنِّي .

إظهار الكرامة : وللوليِّ أن يُظهر الكرامةَ لمنكِرها ، ليكونَ حجَّة عليه وتكذيباً له ؛ كما يظهرها لمن يقتدي به ليقوىٰ حسنُ ظَنِّه في الاتباع له .

إلزام القدري : ومِن ذلك ما حُكي أنَّ قَدَريًا قال : إنَّه يفعل بنفسه ما يشاء . فقال له ربيعٌ الشاميُّ : قم . فقام . ثم قال له : اِجلس . وسأل الله فيه أن لا يُقْدِرَه على الجلوس ؛ فأجابه . . فلم يقدر على الجلوس فاعترف بعجزه وكَذِبه في معتقده .

فوق الخضر : سمعتُ منصوراً المغربيّ ؛ يقول : رأى بعضُهم الخَضِرَ عليه السلام ؛

---

(١) الرُّحبة ـ بالضمِّ ـ أعلام علىٰ مواضع متعدِّدة منها ١ـ محلَّة قرب القادسية علىٰ مرحلة من الكوفة علىٰ يسار المتوجِّه إلىٰ مكَّة وهي المرادة عند الإطلاق ، لكنها خربت . و٢ـ ناحية من وادي القرىٰ بين المدينة والشام . و٣ـ قرية من أعمال الأردن قرب صرخد .
أما الرَّحبة ـ بالفتح ـ فهي الموضع المتسع بين أفنية البيوت كالساحات العامة ونحوها . وهذه القصة في رَحبة الكوفة . فتنبه . (اُنظر قاموس الأمكنة والبقاع لـ علي بهجت : ١١٨ ـ ١١٩)

فقال له: هل رأيتَ فوقكَ أحداً؟ فقال: نعم. كان عبد الرزاق بن همام[1] يروي الأحاديث النبويّة بالمدينة المشرَّفة . . والناس حوله يستمعون ، فرأيت شابّاً بالبعد منهم. . رأسُه على ركبتيه، فقلت له: يا هذا؛ عبد الرزاق يروي أحاديث رسول الله ﷺ فلِمَ لا تسمعُ منه !؟ فقال لي: إنَّه يروي عن صِيْت، وأنا لست بغائب عن الله تعالى! . فقلتُ له: إن كنتَ كما تقولُ: فمن أنا؟ فرفع رأسه؛ وقال (أنت أخي أبو العبَّاس الخضر). فعلمت أنَّ لله عباداً لم أعرفهم !! .

توضيح : يؤخذ من ذلك أنَّ الخَضِرَ وليٌّ ، وأنَّه حيٌّ ، وأنَّ الوليَّ إنَّما يَعرِفُ مَن في درجته ؛ أو دونَه ، لا من فوقَه . وقد أخبر بحياته جمعٌ كثير من الصالحين ؛ منهم إبراهيم الخوَّاصُ ، وإبراهيم بن أدهم . لكن الذي رجَّحه **الجمهور أنَّه** نبيٌّ ؛ كما مرَّ ص٩٢٠ ، ٩٧٥ .

المتطهر الطائر : وقيل : كان لإبراهيمَ بنِ أدهم صاحبٌ يقال له يحيى بن سعيد يتعبَّدُ في غرفة ليس إليها سُلَّمٌ ؛ ولا دَرَج . . عطفُه على ما قبله عطفُ تفسير . فكان إذا أراد أن يتطهَّر يجيءُ إلى باب الغرفة ؛ ويقول (لا حولَ ولا قوَّة إلاَّ بالله) ويمرُّ في الهواء كأنَّه طيرٌ ، ثم يتطَهَّر ، فإذا فرغ من طُهْره يقول (لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله) ويعود إلى غرفته .

الكرامة في ذلك طيرانه في الهواء .

المؤدَّب الغائب : أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفيُّ ؛ قال : سمعتُ عمر بن محمد بنِ أحمدَ الشيرازي بالبصرة ؛ قال : سمعتُ أبا محمد جعفر الحذاء بـ(شيراز) ؛ قال :

كنتُ أتأدَّبُ بأبي عمر الإصطخري . . فكان إذا خطر لي خاطرٌ . . أخرجُ إلى (إصطخر) لأجتمع به فيها ، فربَّما أجابني عما أحتاجُ إليه ؛ من غير أن أسأله !! وربَّما سألتُه فأجابني ! ثم شُغلت عن الذهاب إلى إصطخر ، فكان إذا خطر على سِرِّي مسألةٌ أجابني من (إصطخر) فيخاطبني بما يَرِدُ عليَّ .

في ذلك دِلالة على صحَّة الخواطر التي يُنشئُها الله في قلوب أوليائه ؛ جواباً عما سألوا عنه وعَلَّقوا همَّهم به .

---

(١) هو الإمام الجليل أبو بكر عبد الرزاق بن هَمَّام الصنعاني من حفّاظ الحديث من تصانيفه «الجامع» وهو خزانة علم ؛ كما قال الذهبي ، و«المصنف» في ١١ مجلداً(ط) توفي سنة ٢١١هـ.

كرامة للميت : وحكى بعضهم : ـ وفي نسخة : وحُكي عن بعضهم أنَّه ـ قال : مات فقير في بيت مظلم ، فلما أردنا غسله تكلَّفنا طلبَ سراج يضيءُ علينا ، فلم يتيسَّر . . فوقع من كُوَّةٍ من البيت ضوءٌ فأضاء البيت ، فغسَّلْناه ، فلما فرغنا من تجهيزه . . ذهب الضوء كأنَّه لم يكن .

الكرامةُ فيه ظهورُ النور عليه ليستكملوا به تنظيفَه وحُسْنَ تجهيزه .

القلبُ الهاوي : وعن آدم بن إياس ؛ قال : كنا بـ(عسقلان) وشابٌّ يغشانا ويجالسُنا ويتحدَّث معنا ، فإذا فرغنا من التحديث ؛ قام إلى الصلاة يصلِّي ! قال : فودَّعني يوماً ؛ وقال : أريد الإسكندرية ! فخرجتُ معه وناولتُه دُرَيْهماتٍ ؛ فأبىٰ أن يأخذها ، فألححتُ عليه ! فألقىٰ كَفًّا من الرمل في رِكوته واستقى بها من ماء البحر ؛ وقال لي : كُلْهُ . فنظرت إليه فإذا هو سويق بسكَّر كثير ، فقال : مَن كان حالُه معه ـ وفي نسخة : مع الله ـ مثلَ هذا يحتاج إلى دراهمك !!؟ ثم أنشأ يقول :

بِحَقِّ ٱلْهَوىٰ يَا أَهْلَ وُدِّي تَفَهَّمُوا ... لِسَانُ وُجُودٍ بِٱلْوُجُودِ غَرِيْبُ
حَرَامٌ عَلَىٰ قَلْبٍ تَعَرَّضَ لِلْهَوَىٰ ... يَكُونُ لِغَيْرِ ٱلحَقِّ فِيْهِ نَصِيْبُ غيره
لَيْسَ فِيْ ٱلقَلْبِ وَٱلفُؤَادِ جَمِيْعَاً ... مَوْضِعٌ فَارِغٌ يَرَاهُ ٱلحَبِيْبُ
هُوَ سُؤْلِي وَمُنْيَتِي وَسُرُورِي ... وَبِهِ مَا حَيِيْتُ عَيْشِي يَطِيْبُ
وَإِذَا مَا ٱلسَّقَامُ : المرض حَلَّ بِقَلْبِي ... لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ لِسُقْمِي طَبِيْبُ

الكرامةُ فيه قلبُ الأعيان له ، وجعل في رِكوته ما هو السبب لذلك ، مع أن الله قادرٌ على أن يخلُق ذلك بلا سبب ! ليعرف الرائي له أنَّ الأسباب لا تنافي التوكُّل ؛ ولا الكراماتِ .

كرامة في أَتُّون : وحُكي عن إبراهيم الآجُرِّيِّ ؛ قال : جاءني يهوديٌّ يتقاضىٰ عليَّ في دين : يطالبني بدين كان له عليَّ . . وأنا قاعد عند الأَتُّون : التنُّور ، أُوقِدُ تحت الآجرِّ : أطبخه . فقال لي اليهوديُّ : يا إبراهيمُ ؛ أرني آية : كرامة أُسْلِمُ عليها . فقلت له تفعل : تسلم إذا أريتُك آية !! فقال لي : نعم . فقلت له : انزع ثوبَك فنزعه فلففتُه ولففتُ على ثوبه ثوبي وطرحتُه : الثوب المذكور في النار ، ثمَّ دخلتُ الأَتُّونَ وأخرجتُ الثوب من وسط النار ، وخرجت من الباب الآخر ، وإذا

ثيابي بحالها لم يصبها شيءٌ وثيابُه في وسطها ـ وفي نسخة : وثوبُه في وسطه . وفي أخرى : وثيابه في وسطه ـ صارت حراقة ! فأسلم اليهوديُّ لِما رأىٰ من ذلك ! !

تطوىٰ الأرض : وقيل : كان حبيبٌ العَجَميُّ يُرىٰ بالبصرة يوم التروية ويومَ عرفة بعرفاتٍ . هي كرامة طيِّ الأرضَ .

يحفظ بالعلم : سمعت محمد بن عبد الله الصوفي ؛ يقول : سمعت أحمد بن محمد بن عبد الله الفرغاني ؛ يقول : تزوَّجَ عبَّاس بن المهتدي امرأةً ، فلما كانت ليلةُ الدخول وقع ـ وفي نسخة : وقعت ـ عليه ندامةٌ ، فلما أراد الدنوَّ منها زُجِر عنها ، فامتنع من وطئها . . وخرج من عندها ! فبعد ثلاثة أيام . . ظَهَر لها زوج .

إيضاح : قال الأستاذ الإمام القشيريُّ رحمه الله : هذا هو الكرامةُ على الحقيقة ، حيث حفظ عليه العلم ! فإنَّ اللهَ تعالى حفظه عن أن يطأَ آمرأة لا سبيل له إلى وطئها ؛ لكونها في عصمة غيرِه ، وإن لم يكن له علمٌ بذلك .

يصحبه الحفظ : وهذا يشبهُ ما جرى للمحاسبيِّ في كونه إذا مَدَّ يده إلى طعام فيه شبهةٌ . . ضَرَب على يدهِ عِرْقٌ .

طاعة جبل : وقيل : كان الفضيل بن عياض على جبل من جبال منى ، فقال : لو أنَّ وليّاً من أولياء الله تعالى أمر هذا الجبل أن يميد : يتحرَّك لَمَادَ : لتحرَّكَ . قال : فتَحرَّك الجبل ، فقال له الفضيل : اسكن ؛ لم أردك بهذا القول ! فسكن الجبل .

في ذلك إشارةٌ إلى كمال ولاية الفضيل ، فإنَّه إنَّما أورد صنيعته على وجه الحكاية ؛ لا على وجه الأمر .

والكرامة فيه تحرُّك الجبل وسكونُه بقول الفضيل له (اسكن) .

وقد كان النَّبيُّ ﷺ على جبل حراء فتحرَّكَ به وبمن مَعَه ؛ فقال : « اُسْكُنْ حِرَاءُ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيْقٌ وَشَهِيْدٌ »[1] .

---

(١) ورد الحديث بروايات كثيرة ومواضع متعددة منها :

١ـ أخرجه مسلم : ٥٠ ـ ٢٤١٧ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه . . أن رسول الله ﷺ كان علىٰ حراءَ . . هو وأبو بكر وعمر وعلي ـ وفي رواية بدله : سعد بن أبي وقاص ـ وعثمان =

ينجو بالطيران : وقال : عبد الواحد بن زيد لأبي عاصم البصري : كيف صنعت حين طلبَك الحجاجُ بنُ يوسف الذي ابتلاه الله بطلب أهل الخير المخالفين له !؟ وقد قَتَل منهم خلقاً كثيراً ، وآخِرُ مَن قتله سعيد بنُ جبير . .

قال له : كنتُ في غرفتي ، فدَقُّوا عليَّ الباب ؛ ففتحتُ لهم فدخلوا عندي ، فدفعت بي: بنفسي دفعة في الهواء . . فإذا أنا على جبل أبي قبيس بمكَّة .

هذه كرامة الطيران في الهواء .

مخدوم الدنيا : فقال له عبد الواحد : مِن أين كنتَ تأكلُ؟ قال : كانت تصعد إليَّ عجوز كلَّ وقتِ إفطاري بالرغيفين اللَّذَيْن كنت آكلُهما بالبصرة ! فقال عبد الواحد : تلك الدنيا أمرها الله تعالى أن تخدم أبا عاصم !! الكرامةُ فيه . . مع ما مرَّ . . وصولُ الرغيفين له كلَّ ليلة عند إفطاره من حيث لا يحتسب .

عطاء معوَّض : وقيل : كان عامرُ بن عبد قيسٍ يأخذ عَطَاءه من بيت المال كلَّ شهر ، ولا يستقبله أحد من الفقراء إلاَّ أعطاه شيئاً من عطائه الذي أخذه ، فكان إذا أتىٰ منزله : أهل منزله . . رُمِيَ إليه بالدراهم فتكون بمقدار ما أخذه لم ينقص شيئاً .

هذا كرامة نزول البركة في المال الحلال الذي مع الصالحين ؛ حيث لم ينقص شيئاً بالتصدُّق منه(١) .

= وطلحة والزبير ؛ فتحركت الصخرة ! فقال رسول الله ﷺ « اِهْدَأْ ؛ فَمَا عَلَيْكَ إلاَّ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيْقٌ ؛ أَوْ شهِيْدٌ » . وبلفظ « أُثْبُتْ حِرَاء . . . » البزار : ١٢٦٣ ، وفيه ذكر المبشرين بالجنة . (وانظر تخريجه عنده باستيفاء) .

٢ ـ وأخرج البخاري : ٣٦٨٦ ؛ عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ صَعِد أُحُداً . . وأبو بكر وعمر وعثمان ؛ فرجف بهم فضربه برجله ؛ وقال «أُثْبُتْ أُحُد فَإِنَّما عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيْقٌ وشَهِيْدَان» .

٣ ـ وأخرج الترمذي : ٣٧٠٣ من قصة استشهاد عثمان وحصاره في داره فنشدهم الله عز وجل : هل تعلمون أنَّ رسول الله ﷺ كان علىٰ ثبير بمكة وأبو بكر وعمر وعثمان فتحرك الجبل وتساقطت الحجارة فقال: « أُسْكُنْ ثَبِيْرُ ؛ فَإِنَّما عليك نَبِيٌّ ، وصِدِّيْقٌ ، وشهِيْدَانِ » .

وأخرجه النسائي : ٣٦١١ ، والدارقطني : ٤/ ١٩٦ ، والبيهقي : ٦/ ١٦٨ .

(١) حكىٰ لي سيدي الوالد رحمه الله عن بعض أجداده أنه كان ذا غلال وفيرة من الحنطة والشعير ، وكان يخرج حقَّ الله منها من البيدر قبل أن يحصِّلها في منزله . غير أنَّه كان مبتلىً=

صحبة درهم : سمعت أبا عبد الله الشيرازي ؛ يقول : سمعت أبا أحمد الكبير ، يقول : سمعت أبا عبد الله ابن خفيف؛ يقول: سمعت أبا عمرو الزجاجي؛ يقول: دخلتُ على الجنيد . . وكنت أريدُ أنْ أخرج إلى الحجِّ فأعطاني درهماً صحيحاً كان عنده فشدَدْتُه على مِئْزَري ودعا لي ، فلم أدخل منزلاً إلاَّ وجدت فيه رفقاً ـ: رفقة ؛ كما في نسخة ـ أرتفق بهم فيما أحتاجه من مأكل وغيره . . فلم أحتجْ إلى الدرهم ، فلمَّا حججتُ ورجعت إلى بغداد . . دخلتُ على الجنيد لأسلِّم عليه . . فمدَّ يده إلي ؛ وقال لي مكاشفةً بأن الدرهم معي ولم احتجْ إليه : هات الدرهم الذي أعطيتُكَه !! فناولته الدرهم . فقال لي : كيف كان الأمرُ ؟! ما الذي جرى لك؟ . فقلت له : كان الحتم: الأمر نافذاً: ماضياً بحُسْنِ هِمَّتك وبركة دعائك .

آمِرُ السرير : وحُكي عن أبي جعفر الأعور ؛ قال : كنتُ عند ذي النون المصريِّ ، فتذاكَرْنا حديث طاعةِ الأشياء للأولياء ، فقال ذو النون . . لكونه رأى ثَمَّ رجلاً مُنكِراً للكرامات : مِن الطاعة أن أقولَ لهذا السرير يدورُ في أربع زوايا البيت ثم يرجع إلى مكانهِ . . فيفعل ذلك بقُدْرة الله تعالىٰ .

قال : فدار السريرُ بنفسه ، أو بتدوير وليٍّ ؛ أو جِنِّيٍّ لم يره أحدٌ من الحاضرين . . في أربعِ زوايا البيت وعاد إلى مكانه ! وكان هناك شابٌ ، فأخذ يبكي ـ وفي نسخة : شابٌ قاعد فبكىٰ ـ حتَّى مات في الوقت . لأنَّ قلبه لم يحمل ذلك .

رزق الخربة : وقيل : إنَّ واصلاً الأحدبَ قرأ ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ . . فأثَّرت في قلبه أثراً عظيماً ؛ فقال : رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض !! والله لا طلبتُه أبداً ، فدخل خَرِبة ومكث فيها يومين فلم يظهر له شيء : رزق ؛ واشتدَّ عليه الحالُ ! فلما كان اليوم الثالث إذا بِدَوْخَلَّةٍ من رُطَب ؛ وهي : ما ينسَجُ من الخُوْص ليجعل فيه الرُّطَب ؛ وكان له أخ أحسنُ منه نيَّة . . فصار

= بزوجة شحيحة ، فكانت تسأل الخادم عما حصل من الغلَّة عند البيدر ، ثم تعود فتكيلها مرة ثانية فإذا به يحصل المقدار الذي ذكر الخادم . فإذا كان ألفاً مثلاً أخرج منها مئة ، ثم إذا كالتها ثانية في المنزل تجدها ألفاً كما كانت ـ وقد أخرج منها مئة ـ فيسكن قلبها . وقد كانت تعيِّره بكثرة كَرَمه حتىٰ تعدُّ ذلك عيباً فتقول « أبو العطا » !! ومن ذلك الجدِّ رحمه الله عُرفنا بهذه الشهرة وكنا من قبلها نُعرَف بـ نسبنا «البكري» . نسأل الله تعالىٰ أن يوفقنا لما يحب ويرضىٰ !! .

معه ، فإذا : فلصيرورته معه قد صار ما معه دَوْخَلَّتَيْن ؛ فلم يَزَلْ تلك حالتهما حتَّى فرَّق بينهما الموت[1] .

توضيح : في دخول واصلٍ الخربةَ لينتظر الفرج من الله دَلالة علىٰ توكُّله من غير تعاطي كسب ، وأكملُ منه ذلك مع تعاطي الكسب ، فقد سئل النَّبِيُّ ﷺ عن ناقة : هل نعقلها ونتوكَّل ، أو نتركُها فنتوكَّل ؟! فأمره بأن يعقلها ويتوكَّل[2] .

تكميل : ففيه إشارة إلى أنَّ هذا أكملُ ، وأن الكسب لا ينافي التوكُّل ، ولَمَّا عَلِم اللهُ صدق نيَّةِ واصلٍ وانقطاعَه إليه . . لطف به وسَخَّر له مَن يعينه على غرضه ؛ وهو أخوه ، وجاء له بالرُّطَب . . كما جاء به لمريم عليها السلام[3] .

تعقيب : وفيما فعله دَلالة على أنَّه لَمَّا سمع الآية أثَّرت في قلبه ، وإلاَّ ! فلا فرق بين السماء والأرض في تيسير الرزق ، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما : ما أعرف في السماء رِزقاً إلاَّ المطر !!

رفاهية ثعبان : وقال بعضهم : أشرفت على إبراهيمَ بِن أدهم ، وهو في بستان يحفظه . . وقد أخذه النوم ، وإذا حيَّة في فيها ـ وفي نسخة : فمها ـ طاقة نرجس تروِّحه بها .

شرف الأولياء : فيه دِلالة أنَّ الولي تخدمه الحيوانات حتَّى المؤذيات !! ليعرف الناظر شرفَ الأولياء عند الله تعالى ، ويجِدَّ في طريق سلوكهم ويتخلَّق بأخلاقهم .

يستكتم كرامته : وقيل : كان جماعة مع أيُّوب السختياني في السفر فأعياهم طلب الماء ، فقال لهم أيُّوب ؛ وهو ممَّن رَوىٰ عنه الإمام مالكٌ : أتسترون عليَّ ما يظهر على يدي من الكرامة ما عشتُ !! فقالوا : نعم . فدوَّر دائرة فنبع فيها الماءُ ، قال : فشربنا منه ، فلما دخلنا البصرة ومات أيُّوب أَخبر به حمَّادُ بن زيد ، فقال عبد الواحد بن زيد : شهدت معه ذلك اليوم .

---

(١) أخرجها الخلال في « كرامات الأولياء » : ٣٢ ؛ عن سفيان الثوري . والآية : ٢٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها الذاريات . أما صاحبها فهو : واصل بن حيَّان الأحدب الأسدي ، من صالحي أهل الكوفة . مات سنة تسع وعشرين ومئة .

(٢) تقدم تخريجه ص ٥٢٠ .

(٣) أخرجها الخلال في « الكرامات » : ٤٩ من وجه آخر .

في ذلك دلالة على أنَّ الأولياء يسترون ما بينهم وبينَ الله من الكرامات ، ويؤكِّدون في سَتْرها ، ولا يظهرونها إلاَّ لحاجة .

رطب الشوكة : وقال بكر بن عبد الرحمان : **كنَّا مع ذي النون المصريِّ في البادية ؛ فنزلنا تحت شجرة من أمِّ غَيْلانَ التي هي ذات شوك عظيم ، فقلنا ما أطيب هذا** الموضع . . لو كان فيه رُطَب !! فتبسَّم ذو النون ؛ وقال : **تشتهون الرُّطَب** وحَرَّك الشجرة ؛ وقال : **أقسمتُ عليكِ بالذي ٱبتدأكِ وخلقكِ شجرة إلاَّ نثرتِ علينا رُطَباً جنيًا ، ثم حرَّكها فنثرت علينا رطباً جنيّاً مع أنَّها ليست بنخلة** ، وهذا محلُّ الكرامة ، بل في ذلك كرامتان !!

فأكلنا وشبعنا ، ثم نمنا فانتبهنا ؛ وحرَّكنا الشجرة فنثرت علينا شوكاً من شوكها المتَّصفة به .

امتحان ولي : **وحُكي عن أبي القاسم بن مروان النهاوندي ؛ قال** : **كنت أنا وأبو بكر الوَّراق مع أبي سعيد الخرَّاز نمشي على ساحل البحر نحو صيداء** : اسم بلد ، فرأى أبو سعيد **شخصاً من بعيد ؛ فقال لنا** : **اِجلسوا لا يخلو** هذا الشخص أن **يكون وليّاً من أولياء الله ! قال** : **فما لبثنا أن جاء شابٌّ حَسَن الوجه** . . وهو **ذلك الشخص** ، **ومعه ركوة** : قِرْبة **ومعه مِحبرة** : دواة ، **وعليه مُرَقَّعة** ، **فالتفت إليه أبو سعيد مُنكِراً عليه لحمله المِحْبَرة مع الرّكوة** !! كأنه وجد في نفسه من حمل المِحْبَرَة ما يجده المريدون . . من أنَّ بعض الفقهاء لم ينالوا من الحقائق ما نالوه هم !! فامتحنه . **فقال له** : **يا فتى ؛ كيف الطريق إلى الله تعالى ؟ فقال** : **يا أبا سعيد ؛ أعرف إلى الله طريقين** :

١ـ **طريقاً خاصّاً** بالخاصَّة ؛ وهم قوم فَرَغوا من صلاح أنفسهم ؛ فصار شغلُهم بالله ؛ لا بغيره ، قد أعرضوا عن حظوظ أنفسهم الدنيوية والأخروية .

٢ـ **طريقاً عامَّاً** للعامَّة : عامَّة الصالحين والمريدين الذي هم مع الأسفار ، وتعلُّم الأخلاق وإصلاح القلوب ، وتحقيق التوكُّل والإخلاص والرضا والتسليم .

فأمَّا الطريق العامُّ . . **فالذي أنت عليه** ، **وأما الطريقُ الخاصُّ فَهلُمَّ** : تعال إليَّ **أعرِّفَكَهُ !ثمَّ مشى على الماء حتَّى غاب عن أعيننا ، فبقي أبو سعيد حيرانَ مما**

رأى من حاله . وهذه سنَّةُ الله مع أوليائه أن يؤدِّبَهم بمن دونَهم سِنّاً وغيره .

ومشيُه على الماء كرامةٌ ، وأتمُّ منه المشيُ على الهواء ، لما رُوي أنَّ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام مشى على الماء ؛ فقال النَّبيُّ ﷺ : « لَوْ ٱزْدَادَ يَقِيْناً لَمَشَىٰ عَلَىٰ ٱلهَوَاءِ[1] .

قيل : أشار به إلى حالته ليلةَ المعراج ، لمَّا قال له جبريلُ عليه السلام ﴿ وَمَا مِنَّآ ـ : أيها الأنبياء ـ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾[2] .

آمر الأسطوانة : **وقال الجنيد : جئتُ مسجد الشُّونيْزِية ؛ فرأيت فيه جماعة من الفقراء يتكلَّمون في الآيات : الكرامات ،فقال فقير منهم : أعرفُ رجلاً : نفسَه ، لو قال لهذه الأُسطوانة (كوني ذهباً نصفك وفضة نصفك) . . كانت كما قال لها . قال الجنيد : فنظرتُ فإذا الأُسطوانة نصفُها ذهب ونصفُها فضَّة ، ثم** أعادها الله إلى ما كانت عليه .

كاره الشهرة : **وقيل حجَّ سفيانُ الثوريُّ مع شيبانَ الرَّاعي ، فعرض لهما سَبُع ، فقال سفيان لشيبان : أما ترى هذا السبع ! فقال : لا تخف منه . فأخذ شيبان أُذُنه** ـ وفي نسخة : بأُذنه ـ **فعركها فبصبص . ومعناه حرَّك ذنبه ؛ فقال له سفيان : ما هٰذه الشهرة ؟ فقال : لولا مخافة الشهرة وكراهتي لها . . لما وضعت زادي** إلاَّ على ظهره حتى آتي مكَّة[3] .

شهرة الكرامة : فيه دلالة علىٰ أنَّ الكرامِاتِ إنَّما يظهرها الأولياء لأقرانهم ومَن قاربهم ؛ ليقوىٰ يقينُهم وترتفع همَّتُهم ، ولا شهرة في ذلك !! إنَّما الشهرةُ أن

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٠٦ .

(٢) الآية : ١٦٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الصافات .

(٣) أخرجها الخلال في « كرامات الأولياء » : ٨١ . وشيبان هو محمد بن عبد الله المشهور بـ (شيبان الراعي) ، وهذه القصة ذكرها النبهاني في « جامع كرامات الأولياء » : ١/ ١٦٧ معزياً إلىٰ اليافي والسخاوي مع كرامات أخرىٰ عن المُناوي .
وفي « الإحياء » : ١/ ٢١ أن الشافعيَّ كان يجلس بين يديه كالصبي ؛ ويقول (إن هذا وفِّق لما أغفلناه) . مات بمصر ودفن بالقرافة . وقيل : بأرض الشام .
لكن انظر ما سيأتي ص ١٠٦٢ .

يظهر العبد الكراماتِ لمن لا يقتدي به؛ ولا ينتفع بها، بل قد يتضرَّر بإنكارها .

تارك الشبهة : وحُكي أنَّ السريَّ لما ترك التجارة وانقطع إلى الله . . كانت أختُه تنفق عليه مِن ثمن غزلها ، فأبطأتْ عليه يوماً ، فقال لها السريُّ : لِمَ أبطأتِ ؟ فقالت : لأنَّ غزلي لم يُشْتَرَ ، وذكروا أنَّه مخلَّط ، فامتنع السريُّ من أكل طعامها ؛ لتخيُّله من ذلك أنَّ فيه غِشاً ثم إنَّ أخته تألَّمت بذلك ودخلت عليه يوماً فرأت عنده عجوزاً تكنس بيته ، وتحمل إليه كلَّ يوم رغيفين ؛ فازداد تألُّمها فحزنت ـ وفي نسخة : فخرجت ـ أخته وشكت إلى أحمدَ ابنِ حنبل ، فقال أحمدَ ابن حنبل للسريِّ فيه : تكلَّم معه بسببه !! فقال له : لما امتنعتُ من أكل طعامها . . قيَّض الله لي الدنيا : جاءني بها على يد من شاء من أوليائه لينفق عليَّ منها وتخدمني هي . وأظهر الله ذلك لأخته في صورة امرأة ليسكُنَ قلبها وتطلع عليه ؛ وتعلم أنَّه تعالى لم يضيِّع أخاها .

دعوة سريعة : أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفيَّ ؛ قال : حدَّثنا علي بن هارون ؛ قال : حدَّثنا عليُّ ابن أبي محمد التميمي ؛ قال : حدَّثنا جعفر بن القاسم الخوَّاص ؛ قال : حدَّثنا أحمد ابن محمد الطُّوسيُّ ؛ قال : حدَّثنا محمد بن منصور الطُّوسيُّ ؛ قال : كنتُ عند أبي محفوظ معروفٍ الكرخيِّ ، فدعا لي وخرجتُ من عنده فرجعت إليه من الغد ؛ وفي وجهه أثر ، فقال له إنسانٌ : يا أبا محفوظ ؛ كنَّا عندك بالأمس . . ولم يكن بوجهك هذا الأثر . . فما هذا !؟ : ما سببُه . فقال له : سلْ عمَّا يعنيك دون ما لا يعنيك . فقال له الرجل ـ أي : الإنسان ـ: بمعبودك سألتُك أن تقولَ لي ما سبب هذا !! فقال له لأجل قَسَمَه له عليه بالله : صلَّيْتُ البارحة هٰهنا ؛ واشتهيت أنْ أطوفَ بالبيت ، فمضيتُ إلى مكَّة فطفت ، ثمَّ مِلتُ إلى زمزم لأشربَ من مائها ؛ فزلقتُ علىٰ الباب ، فأصاب وجهي ما تراه[1] .

تكميل : الكرامة فيه طيُّ الأرض له ؛ أو طيرانُه في الهواء .

وفي ذلك إشارة إلى ما مرَّ مِن أنَّهم يكرهون إظهار الكرامات إلاَّ لمن ينتفعُ

---

(١) أخرجها الخلال في « كرامات الأولياء » : ٤٧ ، والخطيب في « تاريخ بغداد » : ١٣/ ٢٠٢ ، والذهبي في « السير » .

بها ؛ أو ينكرها . وكان سببَ إظهارها الجرحُ ، وإلاَّ ! فالكرخيُّ من أعظم الناس بركاتٍ ، حتَّى إنَّ قبرَهُ تِرياقٌ مجرَّبٌ . . مَن أخذ منه شيئاً عُوفيَ[١] .

الطير المسخَّر : وقيل : كان عتبةُ الغلام يقعد ؛ فيقول: يا وَرَشان : طير . . إن كنتَ أطوعَ لله عزَّ وجلَّ مني ؛ فتعال واقعد على كَفِّي ! ذكر ذلك ستراً لحاله ، فيجيءُ الوَرَشان ويقعد على كفِّه !! .

فيه دلالة على أنَّ الله تعالى يسخِّر لأوليائه الطير ؛ كما سخَّره لسليمان عليه السلام .

شهوة سريعة : وحُكي عن أبي عليٍّ الرازيِّ ؛ أنَّه قال : مررتُ يوماً على الفرات فعرضَتْ لنفسي : عند حاجتي للأكل شهوةُ السمك الطريِّ ، فإذا الماء قد قذف في الحال سمكة نحوي : جهتي ، وإذا رجل يعدو ؛ ويقول لي : أَشويها لك !!؟ فقلت: نعم . فشواها فقعدتُ وأكلتُها .

في ذلك دَلالة على إكرام الله لأوليائه ولطفه بهم .

آمر السَّبُع : وقيل : كان عند إبراهيم بن أدهم في رفقة فعَرَض لهم السَّبُع ؛ فقالوا لإبراهيم : يا أبا إسحاق ؛ قد عرض لنا السَّبعُ ! فجاء إبراهيم إليه ؛ وقال له : يا أسد ؛ إن كنتَ أُمرت فينا بشيءٍ فأمضِ له ، وإلاَّ ! فارجع عنا ، فرجع الأسد عنهم ؛ ومضوا[٢] .

هذا من جنس ما جرى لسفيان الثوريِّ مع شيبان ص ١٠٠٧ .

بين حالَيْن : وقال حامدٌ الأسودُ : كنتُ مع إبراهيم الخوَّاص في البريَّة فبتنا في ليلة عند ـ وفي نسخة : تحت ـ شجرة ، إذ جاء السَّبعُ فصعدتُ الشجرةَ ؛ خوفاً منه ، وبقيت إلى الصباح لا يأخذني النوم ، ونام إبراهيم الخَّواص والسَّبُعُ يشمُّـه من رأسه إلى قدمه ، لكمال يقينه وعدم خوفه من غير ربِّه ، ثمَّ مضى السَّبُع ، فلما كانت الليلة الثانية . . بتنا في مسجد بقرية ، فوقعت بقَّة على وجهه فضَرَبته : قرصته فأنَّ أنَّةً : ضجَّ من قرصتها ضجَّة كضجَّة المريض ، فقلت له : هذا

---

(١) انظر ما قدمناه ص٨٦ .

(٢) انظر ما تقدم ص٩٨٢ .

عجب ؛ البارحة لم تجزع من الأسد والليلة تضجُّ من البقِّ ؟ !! فقال لي : أمَّا البارحةَ فتلك حالة كنتُ فيها بالله تعالى . . كامل الشُّغل به غيرَ ملتفت إلى غيره بالكلية ، وأما الليلة ! فهذه حالة أنا فيها مشتغلٌ بنفسي ؛ لفقدي تلك الحالة ، فرجعت إلى نفسي وأحسستُ بأدنى ألم .

الدقيق الأجود : وحُكي عن عطاءٍ الأزرقِ أنَّه دَفَعت إليه امرأتُه درهمين من ثمن غزلها ليشتريَ لهم بهما شيئاً من الدَّقيق ، فخرج من بيته فلقيَ جارية تبكي ، فقال لها : ما بالك تبكين ؟! فقالت : دفع إليَّ مولايَ درهمين أشتري لهم بهما شيئاً فسقطا مني ، فأخافُ أن يضربَني !! فدفع عطاءٌ الدرهمين إليها ومَرَّ ، وقعد في حانوت صديق له ممَّن يشقُّ الخشب الساجَ ، وذكر له الحال ؛ وما يخاف من سوءِ خُلُق امرأته بسبب ذلك ! فقال له صاحبه : صديقُه : خذ من هذه النِّشارة في هذا الجراب ، لعلكم تنتفعون بها في سَجْر التنُّور : حَمْيِه إذ ليس يساعدني الإمكانُ في شيء آخرَ !! فحمل عطاءٌ النِّشارة في الجراب ، وفتح باب داره ورَمىٰ بالجراب ورَدَّ الباب ودخل المسجد واستمرَّ فيه إلى ما بعدالعَتَمة : العشاء ، ليكون النومُ أخذَهم ، ولا تستطيل عليه المرأةُ بكلام أو غيره ، فلما فتح الباب . . وجدهم يخبزون الخبز ! فقال لهم : مِن أين لكم هذا الخبز ؟ فقالوا له : من الدقيق الذي كان في الجراب ، لا تشترِ لنا دقيقاً من غير هذا الدقيق ، فقال : أفعلُ إن شاء الله تعالى[1] .

الكرامة في ذلك قلبُ الأعيان للوليِّ ، كما مر نظيرهُ في قلب الأُسطوانة ذهباً وفضة ، والله تعالى هو الخالقُ لكلِّ شيء من الجواهر والأعراض .

ثمن الأسنان : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت أبا جعفر ابن بركات ؛ يقول : كنتُ أجالس الفقراء وشأننا أنَّ ما فتح الله به لبعضنا كان لكلِّنا ، ففتح عليَّ بدينار فأردت أن أدفعه إليهم لينفقوا علينا ، ثم قلتُ في نفسي (لعلي أحتاجُ إليه !) فهاج : ثار بي وجعُ

---

(١) أخرج الخلال في « كرامات الأولياء » ص٩٢ . بتحقيقنا مثلها عن أبي مسلم الخولاني ، وأخرجه ابن عساكر من طريق أخرىٰ ، وذكرها النووي في « بستان العارفين » .

الضرس ، فقلعت سِنًّا فوَجَعتَ الأخرى حتَّى قلعتُها !! فهتف بي هاتفٌ : إن لم تدفع إليهم الدينار لا يبقىٰ في فيك ـ وفي نسخة : فمك ـ سِنٌّ واحدة .

الكرامة الأتمُّ : قال الأستاذ القشيريُّ : وهذا تنبيهُ الله له بواسطة الهاتف على ما هو سببٌ للسلامة . . في باب الكرامة أتمُّ عليه ؛ من إن كان يفتح عليه دنانير كثيرة تنقض العادة : تخرقها .

وفيه إشارة إلى تأكُّد طلب السلامة من الآثام ، بل السلامةُ منها آكدُ من فعِل الطاعـة ، ولهذا قال الإمام القشيريُّ : كرامةُ الحفظ من الزلل أحسن من كثير من العمل .

تخيُّر الشراب : وحكىٰ أبو سليمان الدارانيُّ ؛ قال : خرجَ عامر بن عبد قيس إلى الشام ومعه ركوة : قربة . . إذا شاء صبَّ منها ماءً ليتوضَّأ للصلاة ، وإن شاءَ صبَّ منها لَبَنا يشربُه !! كلُّ ذلك بفضل الله ورحمته ، وهذا كماء زمزم بعضُهم يشربُه ماء ، وبعضهم يشربه سَوِيْقاً بسكر !!

شربة سفيان : حُكي أنَّ بعضهم ، قال : كنت أدخل في زمن الحرِّ إلى زمزم وأستريحُ في زاوية ، فلما ذهب كثيرٌ من الليل . . دخل رجلٌ ملفوف بعباءة فرفع الدَّلوَ وشرب ، فقُمتُ لأشرب خلفه ؛ فإذا هو سويقٌ بسكَّرٍ من ماء زمزم ، فتعجَّبتُ منه وراقبتُهُ ليلةً أخرى ؛ فرأيته دخل في ذلك الوقت ، ورمى الدلو في البئر ، ورفعه وشرب وتَرَكه ، فذُقْتُه فوجِدته كذلك ، فلحقتُه فسألته : بالذي أعطاك هذه المنزلة ؛ من أنت ؟ فقال : تسترُه ! فقلت : نعم . فقال : سفيانُ ابن سعيد الثوري .

بشارة طائر : وروى عثمان ابن أبي العاتكة ؛ قال : كنَّا في غزاةٍ في أرض الروم ، فبعث الوالي : أميرُ الجيش سريَّةً إلى موضع ؛ وجعل الميعاد في يوم كذا ، قال : فجاء الميعادُ ولم تَقْدُم السريَّةُ !! فبينا أبو مسلم الخولاني يصلِّي إلى رمحه الذي رَكَزه بالأرض . . إذْ جاء طائر : مَلَك من الملائكة إلى رأس السِّنَان ؛ وقال : إنَّ السريَّةَ قد سَلِمَت وغَنِمَت ، وسَيَرِدُون عليكم يومَ كذا في وقت كذا ! فقال أبو مسلم للطير : مَن أنتَ رحمك الله !؟ فقال : أنا مُذهِبُ الحزن عن قلوب المؤمنين . فجاء أبو مسلم إلى الوالي وأخبره بذلك ، فلما

كان اليومُ الذي قال الطير (إن السرية تأتي فيه) . . أتت السريَّة فيه على الوجه الذي قال . . مِن أنَّها سَلِمَت وغنمتْ .

كرامات الخولاني : وكان أبو مسلم صاحب كرامات . . حَرَقه بالنَّار العَنَسيُّ ؛ كما فُعِلَ بإبراهيم الخليل ، فلم تضرَّهُ ، فلما لم تضُرَّه . . نفاه من أرضه ؛ لئلا يُفسد عليه مَن اتَّبعه من أهل الضلال ، فوصل إلى المدينة بعد موت النَّبيِّ ﷺ واستخلافِ أبي بكر رضي الله عنه ، فربط دابَّته ؛ ودخل يصلِّي في مسجد النَّبيِّ ﷺ ، فبَصُر به عمر رضي الله عنه فسَلَّم عليه ؛ وقال له : مَن الرَّجُل ؟ فقال : مِن أهل اليمن . فقال: ما فعل الذي أحرقه الكذَّاب ؟ ! قال : ذلك عبد الله بن ثُوَب . قال له عمر : أنشدُكَ اللهَ . . أأنتَ هو ؟! قال : اللهم نعم . وهذا من فراسة عمر ، فاعتنَقَهُ وقبَّله بين عينيه ، وأتىٰ به إلى أبي بكر وأجلسَه بينهما ؛ وقال: الحمد لله الذي لم يمتْنَا حتَّى رأينا في أمَّة محمَّد ﷺ مَن فُعِل به كما فُعل بإبرهيمَ خليلِ الرحمان[1] .

وسافر مع أصحابه في غزاة حالَ بينه وبين الكفار البحرُ ، فضرب فرسَه وخاض البحر هو والعسكر على وجه الماء ! فهذه كرامة أخرى .

تشييع بحري : وعن بعضِهم قال : كُنَّا في مركب : سفينة . . فمات رجلٌ كان معنا عليلٌ ، فأخذنا في جَهازه وكنا في وسط البحر ، وأردنا أن نلقِيَه في البحر ، فصار البحر جافَّاً ونزلت السفينة على الأرض ، فخرجنا منها وحفرنا له قبراً ودفناه ، فلما فرغنا من دفنه وركبنا السفينة . . استوى الماء كما كان ، وارتفع المركب عليه ، وسِرنا إلى مقصدنا .

المستعرض لله : وقيل : إنَّ الناس أصابتهُم مجاعةٌ بالبصرة ، فاشترىٰ حبيبٌ العجميُّ طعاماً بالنسيئة وفرَّقه على المساكين لوجه الله تعالى ، وأخذ ـ وفي نسخة : وخاط ـ كيسه وجعله تحت رأسه ، فلما جاؤا يتقاضونه ديونَهم . . أخذه :

---

(١) كان حكيم الأمة ، عابد ، زاهد من فقهاء التابعين ، ريحانة الشام ، قدم المدينة ثم هاجر إلىٰ الشام فتوفي بها ، ودفن بداريا من أعمال دمشق سنة : اثنتين وستين . والخَوْلاني : نسبة لقرية قرب دمشق قد خربت . وينسب إلىٰ (خَوْلان) قبيلته باليمن . (انظر ص ٢٦٥)

الكيس ؛ وإذا هو مملوءٌ دراهم !! فتح الله عليه بها من حيث لا يحتسبُ ، بصحَّةِ قصده وحُسْن معاملته مع الله ومع خَلْقه. فقضى منها ديونَهم التي لهم عليه ؛ إكراما له .

دعوة مضطر : وقيل : أراد إبراهيم بن أدهم أن يركب السفينة مع أربابها ، فأبوا إلاَّ أن يعطِيَهم ديناراً ، فصلَّى على الشطِّ ركعتين ؛ وقال : اللهم ؛ إنَّهم قد سألوني ما ليس عندي ! فصار الرمل بين يديه دنانير وأعطاهم منها ما طلبوه . وهذا من إجابة الدعاء عند الاضطرار .

تلاوة كفيف : أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفيُّ ؛ قال : حدَّثنا عبد العزيز بن الفضل ؛ قال : حدَّثنا محمد بن أحمدَ المروزيُّ ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن سليمان ؛ قال : قال أبو حمزة نصرُ بن الفَرَج (خادمُ أبي معاوية الأسود)؛ قال : كان أبو معاوية قد ذهب بصره ، فإذا أراد أن يقرأ القرآن نَشر المصحفَ بين يديه . . فيردُّ الله عليه بصرَه ؛ إكراماً له ، فإنَّ القراءة في المصحف زيادةَ أجر على القراءة بالغائب ، لاستعمال أكثرِ الأعضاء فيها[1] ، ولأنَّها أقوىٰ تدبُّراً . فإذا أطبق المصحفَ ذهب بصره وصار على حاله[2] .

بعد الصلاة : وقال أحمد بن الهيثم المتطبِّب : قال لي بشرٌ الحافي : قل لمعروفٍ الكرخيِّ (إذا صلَّيْتُ أنا جئتُك) . قال : فأدَّيتُ الرسالة كما قال ، وانتظرتُه فصلَّينا الظهر . . ولم يجىءْ ، ثمَّ صلينا العصر . . ولم يجىء ! ثمَّ صلينا المغرب ثم العشاء . . ولم يجىء ! فقلت في نفسي متعجِّباً منه : سبحان الله مثلُ بشرٍ يقول (إنه يفعل شيئاً ثمَّ لا يفعلـه)!! لا يجوز له أن لا يفعلـه وقد قال ما قال !؟ فانتظرتُه ؛ وأنا فوقَ سطح على مسجدٍ على مَشْرَعة هي : مورَدة الشَّاربة ، فجاء بشرٌ بعد هَدْي : طائفة من الليل ، وعلى رأسه سَجَّادة فتقدَّم إلى دجلةَ ومشىٰ على وجه الماء ، وعبر الشطَّ وتحدَّثنا معه ، ثم جاء وقتُ السحر

---

(١) ولقوله ﷺ : « النَّظَرُ فِي كِتَابِ ٱللهِ عَزَّ وجَلَّ عبَادَةٌ » . كما أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » ٧١١٦ ؛ عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجها أبو نعيم في « الحلية » : ٨/ ٢٧١ ، والخلاّل في « كرامات الأولياء » : ٣٧ ، وفيه « نصير » بدل « نصر » ! فليحرر ، وذكرها الذهبي في « السير » : ٩/ ٧٩ .

وعبَر على وجه الماء ، فرميتُ بنفسي من السطح إليه ، وقبَّلتُ يديه ورجليه ؛ وقلت له : أُدع الله لي ؛ لأني أسأتُ بك الظنَّ ، فدعا لي ؛ وقال : أستره ما رأيتَه منِّي عليَّ . قال : فلم أتكلَّم بهذا حتى ماتَ رضي الله عنه !!

توضيح : الكرامة فيه مشيُه على الماء . وقوله (إذا صلَّيتُ أتيتُك !!) كان بنيَّة صلاة العشاء مع ما عادتُهُ يصلِّيه بعدَها ، وظنَّ الرسولُ أنَّه أراد بعد صلاة واجبة من الصلوات المذكورة ، فلما تخلَّف عن ذلك . . أساءَ به الظنَّ .

الوليُّ المتأسِّف : سمعتُ أبا عبد الله الشيرازيَّ ؛ قال : حدَّثنا أبو الفرج الورثاني ؛ قال : سمعتُ عليَّ بن يعقوب بدمشق ؛ قال : سمعتُ أبا بكر محمد بن أحمد ؛ يقول : سمعت قاسماً الجرعي ؛ يقول : رأيتُ رجلاً في الطواف لا يزيدُ على قوله (إلهي ؛ قضيتَ حوائجَ الكلِّ ولم تقضِ حاجتي) فيه تدلُّل وقلَّةُ أدب ، فقد جاء في الخبر ؛ « لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ (دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِيْ)!! »[1] فقلت له : مالك لا تزيد على هذا الدعاء ؟! فقال : أُحدِّثُك بما جرى لي . . اِعلم أنَّا كُنَّا سبعة أنفس من بلدان شتَّىٰ ، فخرجنا إلى الجهاد ؛ فأسرنا الرومُ ومضوا بنا لنُقتل ، فرأيت سبعةَ أبوابٍ فُتحت من السماء ، وعلى كلِّ بابٍ جارية حسناءُ من الحور العِيْن ، فقُدِّم واحدٌ منا للقتل ، فضُربت عنقه فرأيتُ جاريةً منهُنَّ هبطت إلى الأرض وبيدها منديلٌ ؛ فقبضت روحه !! وهكذا فيمن بعده . . حتَّى ضُربت أعناقُ سِتَّة مِنَّا ، فاستوهَبَني بعض رجالِهم : الروم . . فقالت الجاريةُ : أيُّ شيء يعني : شيءٌ عظيم فاتَكَ يا محرومُ بتخلُّفك عن أصحابِك ؟! وأُغلقت الأبواب !! فأنا يا أخي متأسِّفٌ متحَسِّرٌ على ما فاتني .

تعقيب : قال قاسم الجرعي : أراه : أظنُّه أفضلهم . . وإن تحسَّر على ما فاتَه ، لأنَّه رأىٰ بعدَهم ما لم يروه ، وعَمِل على الشوق بعدَهم ما لم يعملوه بالقلب والجوارح ، لأنَّ تحسُّرَه علىٰ ما ذكر حَمَله على الجدِّ في العمل ودوام السؤال والتضرُّع وقوَّة اليقين .

والكرامةُ في ذلك رؤيةُ هذا الرجل الأبواب والحورَ العِين التي عليها .

---

(١) تقدم تخريجه ص ٧٥١ .

تحذير ولي : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا النجم أحمد بن الحسين بخورستان؛ يقول : سمعت أبا بكر الكتاني ؛ يقول : كنت في طريق مكَّة في وسط السنة ، فإذا أنا بهِمْيان : كيس ملآن يلتمع دنانيرَ فَهَمَمَتُ أن أحمله لأفرِّقَه بمكَّة على الفقراء ، فهتف بي هاتف إن أخذتَه . . سلبناكَ فقرك الذي أنت فيه !!

تكميل : والكرامةُ في ذلك تحذيرُ العبد من الدخول في الدنيا ليفعل بها الخير ، وإرشادُه إلى أنَّ بقاءه مع فقره أفضلُ له عند ربِّه من ذلك ، وكان في علم الله تعالى أنَّه إذا أخذ الكيس رَكنتَ نفسُه إليه ، ونسيَ فقره إلى ربِّه ، والفقرُ عند التمكُّن في الأحوال أعزُّ من المال ، لأنَّه أصلحُ له في حاله مع مولاه ، كما قيل :

إِذَا ٱفْتَقَرُوا عَضُّوا عَلَىٰ ٱلفَقْرِ ضِنَّةً وَإِنْ أَيْسَرُوا عَادُوا سَرِيْعَاً إِلَى ٱلفَقْرِ

مريد مدلل : حدَّثنا محمد بن محمد بن عبد الله الصوفيُّ ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن يوسف الخيَّاط ؛ قال : سمعت أبا عليٍّ الرُّوْذَباريَّ ؛ يقول : سمعت أبا العبَّاس الشرقي ؛ يقول : كنا مع أبي تراب النخشبيِّ في طريق مكَّة ، فعدل عن الطريق إلى ناحية !! فقال له بعض أصحابه : فتىً منهم (أنا عطشان) . فضرب برجله الأرض ، فإذا عينٌ من ماءٍ زُلال : عذب . فقال له الفتىٰ : أُحِبُّ أن أشربَه في قَدَح ، فضرب بيده إلى الأرض فناوله قدحاً من زجاج أبيض ، كأحسن ما رأيتُ !! فشرب منه وسقانا ، وما زال القَدَح معنا إلى مكَّة .

فقال لي أبو تراب يوماً : ما يقول أصحابُك في هذه الأمور التي يكرم الله تعالى بها عباده ؟! وكانوا ينكرونَها . . ولا أعلمُ ! فقلت له : ما رأيتُ أحداً إلاَّ وهو يؤمن بها . فقال لي : مَن لم يؤمن بها . . فقد كَفَر لنسبة القُدْرة الأزليَّة إلى العجز عنها ؛ إنَّما سألتُك من طريق الأحوال : طريق معرفتِك لأحوالهم . فقلت له : ما أعرفُ لهم قولاً فيه !! : في إنكارها فقال : بلى ، قد زعم أصحابُك أنَّها ليست كرامةً ، وإنَّما هي خِدَعٌ مِن الحقِّ يوقِف معها مَن أراد فُتُوره عن الطريق . وليس الأمر كذلك ؛ وإنَّما الخِدَع يكون في حال السكون إليها ، فأما من لم يقترح ذلك : لم يسألها . . ولم يساكنها قلبُه فتلك مرتبة الربَّانيين ، بمعنى أنَّ الربَّ إذا أوصل عبدَه إلى هذه الحالة . . فأيُّ شيء طلبَه منه . . فَعلَه له .

عيادة ولي : حدَّثنا محمد بن عبد الله الصوفيُّ ؛ قال : أخبرنا أبو الفرج الورثاني ؛ قال :

سمعتُ محمد بن الحسين الخلدي بطَرَسوس؛ قال: سمعتُ أبا عبد الله ابن الجلاء؛ يقول: كنَّا في غرفةِ سَرِيٍّ السَّقَطيِّ ببغداد، فلما ذهب من الليل شيءٌ لبس قميصاً نظيفاً وسَرَاويْل، ولبس رداءً ونعلاً؛ وقام ليخرج! فقلت له: إلى أين تذهب في هذا الوقت؟! فقال: أعودُ فتحاً الموصلي. فلما مشىٰ في طرقات بغداد أخذه العَسَسُ: جمع عاسٍّ؛ وهو الذي يطوف ليلاً للخيانة، وحبسوه ظُلْماً، فلما كان من الغد أُمِر بضربه مع المحبوسين، فلما رفع الجلاَّد يده ليضربَه وقفت يدُه: يبست، فلم يقدر على أن يحرِّكَها!! فقيل للجلاَّد: اِضرب. فقال: بحذائي: بجانبي شيخ واقف يقول: لا تضربْهُ ويشفع فيه؟!. فتقف يدي لا تتحرَّكُ. فنظروا مَن الرَّجُل الشافعُ فيه!! فإذا هو فتحٌ الموصلي؛ فلم يضربوه.

انتفع السَّرِيُّ ببركة فتح، وبنيَّة عيادته وزيارته؛ وإن لم يصل إليه، فالعبدُ إذا صدقت نيَّتُه في الزيارة لصالح.. انتفع به في الدنيا والآخرة، ولعلَّ المخبرَ بذلك هو السريُّ!.

دعوة مجابة: أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَميُّ رحمه الله؛ قال: حدَّثنا الحارث الخطَّابي؛ قال: حدَّثنا محمد بن الفضل؛ قال: حدَّثنا عليُّ بن مسلم؛ قال: حدَّثنا سعيد بن يحيىٰ البصري؛ قال: كان أناسٌ من قريش يجلسون إلى عبد الواحد بن زيد، فأتوه يوماً؛ وقالوا له: إنَّا نخافُ من الضيقة والحاجة، فرفع رأسه إلى السماء؛ وقال: اللَّهُمَّ؛ إني أسألُك باسمك المرتفع الذي تُكرِمُ به مَن شئت من أوليائك، وتلهمه الصفيَّ من أحبابك.. أن تأتِيَنا برزقٍ من لدنك: عندك الساعةَ.. تقطع به علائق الشيطان من قلوبنا؛ وقلوب أصحابنا هؤلاء.. بأن لا تجعل له علينا؛ ولا عليهم سبيلاً بالوسوسة في تأخير الرزق، وأراد بالاسم الذي دعا به الاسم الأعظمَ، فأنت الحنَّان.. الذي يُقبل على مَن أعرض عنه، المنَّانُ الذي يبدأ بالنَّوَال قبلَ السؤال، القديم الإحسان، اللَّهُمَّ إِئتنا به الساعةَ الساعة. قال: فسمعتُ والله قعقعةً للسقف ـ وفي نسخة: فسمعت قعقعة؛ والله للسقف ـ ثمَّ تناثرت علينا دنانير ودراهم.

فقال عبد الواحد بن زيد: استغنوا بالله عن غيره. فأخذوا ذلك؛ ولم يأخذ عبد الواحد بن زيد منه شيئاً!! لأنَّه قصد الدعاء لهم خاصَّة.

الدعاء النقي : الكرامة في ذلك كونُ الدنانير والدراهم سقطت عليهم من السقف الذي كانوا تحته ؛ إجابةً لدعاء عبد الواحد .

وفي ذلك تنبيهٌ إلى أنَّ دعاء العبد لغيره حالَ ضرورته أقربُ للإجابة لبعده عن هوى نفسه .

إجابة مميزة : سمعت أبا عبد الله الشيرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا عبدالله محمد بن علي الجوزيَّ بـ(جُنْدَيْسابور) لعله اسم مكان[1] ! قال : سمعت الكتاني ؛ يقول : رأيتُ بعض الصوفية وكان غريباً . . ما كنتُ أثبته : أعرفه ، ـ وفي نسخة : رأيته ـ قد تقدَّم إلى الكعبة ؛ وقال (يارب ؛ ما أدري ما يقول هؤلاء !) . . يعني الطائفين . فقيل له : أُنظر ما في هذه الرقعة . فنظرت ما فيها ! قال : فطارت الرقعة في الهواء وغابت بعد أن نظرتُ ما فيها !! فعرفتُ أنَّ حاجتي قُضيت .

والكرامة في ذلك تيسير مَن أعلمه بذلك حالاً ، وطيرانُ الرقعة مع غيبتها .

الولي الصغير : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت عبد الواحد بن بكر الورثاني ؛ يقول : سمعت محمد بن علي بن الحسين المقري بـ(طرسوس) ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله ابن الجلاَّء ؛ يقول : اشتهتْ والدتي على والدي يوماً من الأيَّام سَمَكاً ، فمضى والدي إلى السوق . . وأنا معه ، فاشترى لها سمكاً ، ووقف ينتظر منَ يحمله له بأجرة . . فرأى صبيّاً وقف بحذائه : بجانبه مع صبيٍّ آخر وهو أنا . فقال : يا عمِّ ؛ تريد مَن يحملُه لك !؟ فقال : نعم ، فحمله ومشى معنا ، فسمعنا الأذان في الطريق ، فقال له الصبيُّ : يا عمّ ؛ قد أذَّن المؤذِّنُ وأحتاجُ أن أتطَهَّر وأُصلِّي ، فإن رضيتَ بذلك فذاك ، وإلاَّ فاحمل السمك . ووضع الصبيُّ السَّمَك ومرَّ ، ولم يلتفت ما يحصل له من الأَجرة !! فتطهَّر وصلَّى . فقال أبي : فنحن أولى أن نتوكَّل على الله في السمك ـ وفي نسخة : بالسمك ـ . فدخلنا المسجد وصلَّينا ، وجاء الصبيُّ وصلَّىٰ ، فلما خرجنا من المسجد . . فإذا

---

(١) ويقال لها (جُنْدَيْشاهبور) مدينة بخوزستان (مراصد الاطلاع : ١/ ٣٥١) .
وفي هامشه : (جندا سابور) مثنىٰ مضاف . . يجري مجرىٰ المثل . نقله البكري عن أبي حاتم .

بالسمك موضوعٌ مكانه لم تصبه آفةٌ ؛ ولم يأخذه أحدٌ . فحمله الصبيُّ ، ومضى معنا إلى دارنا ، فذكر والدي ذلك لوالدتي ، فقالت له : قل له حتَّى يقيمَ عندنا ويأكلَ معنا ؛ مجازاةً له . فقلنا له ذلك ، فقال : إنِّي صائم . فقلنا ـ وفي نسخة : فقال ـ : فتعودُ إلينا بالعشيِّ . . بعد أن تحمل مرَّة ثانية ؛ وتفرُغ من شُغْلك وقتَ الفطر ، لتأكُلَ معنا من السمك بعد تجهيزه !؟ فقال : أنا إذا حملتُ مرَّةً في اليوم ؛ لا أحمل ثانياً !! ولكني سأدخل المسجد وأمكث فيه إلى المساء ، ثم أدخُل عليكم . فمضىٰ إلى المسجد ، فلما أمسينا . . دخل الصبيُّ علينا وأكلنا معه ، فلما فرغنا من الأكل . . دَلَلْناه على موضع الطهارة ، ورأينا فيه ؛ أخذاً من كلامه أنَّه يؤثر الخلوة ، فتركناه في بيت خالٍ ، فلما كان في بعض الليل . . وكان لقريبٍ لنا ابنة زَمِنةٌ ؛ فجاءَت إلينا ليلاً على خلافِ عادتها تمشي !! فسألناها عن حالها : سببِ قدرتها على المشي ؟ فقالت : قلتُ يا ربِّ ؛ بحرمةِ ضيفنا أسأَلُك أن تعافِيَني . فقمتُ : فعافاني الله في الحال ببركته مع الاضطرار . قال : فمضينا لنطلب الصبيَّ ؛ فإذا الأبوابُ مغلقة كما كانت ، ولم نجد الصبيَّ ! لطيرانه في الهواء ؛ أو لاختفائه عنا !! فقال أبي : فمنهم : الأولياء صغيرٌ ومنهم كبير !!

في ذلك كرامات لا تخفى ، ودلالة على أنَّ هذا الصبي كان وليّاً ، وأنه كان يأكل من كسبه ، وأنَّه إذا حمل مرَّة لا يحمل ثانية ، وأنَّه لَمَّا زهد في أجرته وهان عليه تركها لأجل الصلاة . . لَمَّا أذَّن المؤذِّن أثَّر صدقُه في أصحاب السمك حتى تركوه ؛ وصلَّوْا معه . . والسمك مكانه لم يصبه شيء !! .

تصديق وتوفيق : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : حدَّثنا أبو الحارث الخطَّابي ؛ قال : حدَّثنا محمد بن الفضل ؛ قال : حدَّثنا علي بن مسلم ؛ قال : حدَّثنا سعيد بن يحيى البِصريُّ ؛ قال : أتيت عبد الواحد بن زيد . . وهو جالس في ظلٍّ ؛ فقلت له : لو سألت الله تعالىٰ أن يوسِّع عليك الرزق . . لرجوت أن يفعل لك ذلك ! في هذا الذي قاله دخولٌ فيما لا يعنيه ، لكنَّ حُسْنَ خُلُق عبد الواحد حَمَله على أن لا يؤاخذه ؟ فقال له : ربِّي أعلمُ بمصالح عباده . ثمَّ أخذ حصىً من الأرض ؛ ثمَّ قال (اللَّهُمَّ ؛ إن شئتَ أن تجعلها ذهباً فعلت !) فإذا هي والله في يده ذهبٌ .

فألقاها إليَّ ليعرِّفَني أنَّ الله على كلِّ شيء قديرٌ ، وقال لي : أنفقها أنتَ ، فلا خيرَ في الدنيا إلاَّ أن تكون للآخرة : للعون عليها .

عرَّفه بذلك أنَّ الغنيَّ حقيقةً مَن استغنى بالله ؛ لا بالمال ، لأنَّ مَن استغنى به تعالى . . فعل له ما يحبُّه . فلهذا صار الحصى في يده ذَهَباً ؛ تصديقاً للمقال بالحال ، وسلَّمه إلى سائله لينفقه ؛ لفقره وحاجته إليه .

الميت الحيُّ : سمعت محمد بن عبد الله الصوفيَّ ؛ يقول : سمعت الحسين بن أحمد الفارسيَّ ؛ يقول : سمعت الرقيَّ ؛ يقول : سمعت أحمد بن منصور ؛ يقول :

قال لي أستاذي أبو يعقوب السُّوسيُّ : غسَّلت مريداً من مريديَّ . . فأمسكَ إبهامي ؛ وهو على المغتسل ! فقُلتُ له : يا بني ؛ خلِّ يدي ؛ أنا أدري : أعلمُ أنَّكَ لستَ بمَيْتٍ بمعنى أن روحَك لم تَفنَ ، بل هي باقية كسائر الأرواح !! لا بمعنى أنها لم تفارق جسمك ، وإلاَّ ! لم يجز له تغسيلُه ودفنه . وإنَّما هي إزالتُها من جسمك نُقْلَةٌ من دار إلى دار . فخلَّىٰ يدي .

تكميل : الكرامة فيه إمساك الميتِ المغسِّل له وإرسالُها بعد كلامه ، وما ذكرته من أنَّ الأرواح لا تفنى . . هو مذهب أهل الحقِّ ، باقية في منازلها في الخير والشر في البرزخ ؛ إلى أن يعيدَها إلى الأجسام يوم القيامة ، والميت يحييٰ في قبره للسؤال ويسمع خفق نعال المنصرفين عن قبره ، فإن كان من السُّعداء . . فُسِح له في قبره سبعون ذراعاً ، وإن كانِ من الأشقياء . . ضيق عليه كالزجِّ في القنا ، ثم يصير تراباً وروحُه باقية كما قلنا .

كرامة ميت : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا بكر أحمد بن محمد الطَّرَسوسي ؛ يقول : سمعتُ إبراهيم بن شيبان ؛ يقول : صحبني شابٌّ حسن الإرادة ، فمات فاشتغل قلبي به جدّاً وتولَّيْت غسله ، فلما أردتُ غسلَ يديه بدأت بشماله من الدَّهشة التي حصلت لي بموته ، فأخذها مني وناولني يمينَه !! فقلت له : صدقت يا بُنيَّ ؛ أنا غَلِطتُ . الكرامة في ذلك ظاهرة ، وفيه حفظ للغاسل والمغسول .

حياة المحبِّ : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا النجم المقري البرذعي بـ(شيراز) ؛ يقول : سمعت الرقي ؛ يقول : سمعت أحمد بن منصور ؛ يقول : سمعت أبا يعقوب السوسي يقول : جاءني مريد بمكَّة ؛ فقال لي : يا أُستاذ ؛ أنا غداً أموت وقت

الظهر ، فخذ هذا الدينار واحفر لي بنصفه ؛ وكَفِّنّي بنصفه الآخر ، ثمَّ لمَّا كان الغدُ . . جاء وطاف بالبيت ؛ ثمَّ تباعد عنه ومات ! فغسَّلتُه وكَفَّنته ووضعته في اللَّحد ، ففتح عينيه !! فقلت له : أحياةٌ بعد موت ؟! فقال لي : أنا حيٌّ ، وكلُّ محبٍّ للهِ حيٌّ ، إذ المحبُّ له تعالىٰ هو مَن جاهد نفسه في قربه ، وهان عليه بذلُها لنيل حبِّه ، فأشبه المجاهد المقتول في سبيله ! وهو حيٌّ ، لقوله تعالىٰ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1] !!

وفيما ذكر كرامات ظاهرة .

قوَّة الذاكر : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن الحسن البغدادي ؛ يقول : سمعت أبا علي ابن وصيف المؤدّب ؛ يقول : تكلَّم سهل بن عبد الله يوماً في الذِّكر ؛ فقال : إنَّ الذاكر لله على الحقيقة لَوْ هَمَّ أَن يُحيي الموتى لفعل ، ومسح يده على عليل بين يديه فبرىءَ وقام .

الكرامة فيه إبراء الأسقام والآلام ، وأن الوليَّ لو أراد إحياء الموتى . . لكان ، وقد صحَّ إحياؤهم في قصَّة الذي مات حماره في الجهاد ، وأحياه الله له بدعائه الله . قال الراوي : وقد رأيتُه يباع في السوق بعد ذلك .

حماية مصلٍّ : سمعتُ أبا عبد الله الشيرازيَّ ؛ يقول : أخبرني عليُّ بن إبراهيم بن أحمد ؛ قال : حدَّثنا عثمان بن أحمد ؛ قال : حدَّثنا الحسين بن عمر ؛ قال : سمعت بشر بن الحارث ؛ يقول : كان عَمْرو بن عُتْبة يصلِّي والغمامَ فوق رأسه يُظِلُّه ، والسباع حوله تحرِّك أذنابها .

الكرامة فيه تظليلُ الغمام له ، وحراسة السِّباع له ، وتحريكُها أذنابها له ؛ أُنْساً به . . فضلاً عن أن تؤذِيَه ! وكونه لا يخافها .

الشاهد المجاب : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله ابن مفلح ؛ يقول : سمعت المغازليَّ ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : كانت معي أربعةُ دراهم فدخلت على السريِّ السَّقَطي ؛ وقلت له : هذه أربعة دراهم . . حملتُها إليك ؛ فقال لي : أبشر يا غلام بأنك تفلح ، فلقد كنت أحتاجُ : محتاجاً إلى أربعة دراهم ؛

---

(١) **الآية** : ١٦٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

فقلت : اللَّهُمَّ ؛ ابعثها لي على يدِ مَن يفلح عندك .

فيه دلالة على كرامة الوليِّ في استجابة دعائه في الحال ، وشهادته للجنيد بأنَّه يفلحُ . . وقد أفلح .

شهوة شواء : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : حدَّثني إبراهيم بن أحمد الطبريُّ ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن يوسف ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن إبراهيم بن يحيى ؛ قال : حدَّثني أبي ؛ قال : حدَّثني أبو إبراهيم اليماني ؛ قال : خرجنا نسير على ساحل البحر مع إبراهيم بن أدهم فانتهينا إلى غَيْضةٍ : أشجار من قصب فيها حطب يابس كثير ، وبالقُرب منه حِصن ، فقلنا لإبراهيم بن أدهم : لو أقمنا الليلةَ ههنا وأوقدنا من هذا الحطب ! ! فقال لنا : افعلوا . فطلبنا النار من الحصن وأوقدناها بالحطب ، وكان معنا الخبز ، فأخرجناه نأكل ؛ فقال واحد منا : ما أحسنَ هذا الجمر الذي حصل من الحطب الموقود لو كان لنا لحم نشويه عليه ؛ فقال إبراهيم بن أدهم : إن الله تعالىٰ لقادر على أن يطعمَكُمُوه . قال : فبينا نحن كذلك . . إذا بأسد يطرد إِيَّلاً : الذَّكر من الأوعال ؛ قاله الجوهريُّ . فلما قرب منا وقع فاندقت عنقه ؛ ولم يصل إلى حركة المذبوح ـ وفي نسخة : ومدَّ عنقه ـ فقام إبراهيم بن أدهم ؛ وقال : اِذبحوه فقد أطعمكم الله تعالىٰ فذبحناه وشوينا من لحمه . . والأسد واقفٌ ينظر إلينا !

الكرامةُ في ذلك أنَّهم لمَّا تمنَّوا من الله أن يأتيَهم بلحم يشوونه ويأكلونه . . أتاهم الله تعالىٰ به على الوجه المذكور .

ماء لا يتزود : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا القاسم عبدالله بن علي الشجريَّ ؛ يقول : سمعتُ حامداً الأسود ؛ يقول : كنت مع إبراهيم الخوَّاص في البادية سبعة أيَّام على حالة واحدة . . لم نطعَم فيها شيئاً ، فلما كان اليوم السابع ضعفت فجلست ، فالتفت إليَّ ؛ وقال لي : مالك ؟ فقلت : ضعفتُ . فقال لي : أيُّما أغلبُ عليك ـ وفي نسخة : أحبُّ إليك ـ الماء ؛ أوالطعام ! ! فقلت : الماء . فقال لي : الماء وَراءك ، فالتفتُّ فإذا عينُ ماءٍ كاللبن الحليب ؛ فشربت وتطهَّرتُ منه . . وإبراهيم ينظر إليَّ . . ولم يقربْهُ ؟ ! فلما أردتُ القيام . . هَمَمت أن أحمل منه شيئاً ! فقال لي : أمسك يدك عنه ، فإنَّه ليس مما يُتَزوَّد منه .

توضيح : الكرامةُ خروج الماء ببركة الخوَّاص ، لكنه تستَّر ؛ فإنَّه لم يدعُ ولم يضرب برجله الأرض ، وإنَّما دعا في نفسه ، ثم قال لحامدٍ : الماءُ وارءك .

إشارة : وفي آخِر كلامه إشارةٌ إلى أن هذا الماءَ ليس من ماء الدنيا .

مكاشفة وتأديب : سمعت أبا عبد الله بن عبد الله ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله الدبَّاس البغداديَّ ؛ يقول : سمعتُ فاطمة (أخت أبي عليٍّ الروذباريِّ)؛ تقول : سمعت زيتونة (خادمةَ أبي الحسين النوري) ؛ وكانت تخدمُه وخدمَتْ أبا حمزة والجنيد ؛ قالت : كان : وجد يومٌ بارد ، فقلت للنُّوري : أحملُ إليك شيئاً ! . فقال : نعم . فقلتُ له : إيش تريد أن أحمل لك ؟ فقال لي : مرادي خبزٌ ولبن . ـ لو قال (خبزاً ولبناً) . . كان أولى ـ فحملتُ له ذلك وكان بين يديه فحم يقلِّبُها بيده وقد اشتغلت يده بسواد الفحم ! فأخذ يأكل الخبز . . واللبنُ يسيل على يده وعليها سوادُ الفحم !! فقلت في نفسي : ما أقذرَ أولياءَك يا ربّ ؛ ما فيهم أحد نظيف !! قالت : فخرجتُ من عنده فتعلَّقت بي امرأةٌ ، وقالت لي : سرقتِ لي رزمة ثياب ! وجمعتْ عليَّ جماعة وجرُّوني إلى الشرطي ، فأُخبر النُّوريُّ بذلك فخرج ؛ وقال للشرطي : لا تتعرَّضوا لها ؛ فإنَّها وليَّةٌ من أولياء الله تعالى . فقال له الشرطيُّ : كيف أصنع ؛ والمرأة تدَّعي عليها ؟! قال : فجاءت جاريةٌ ومعها الرِّزمَةُ المطلوبة . فاستردَّ النوريُّ المرأة ؛ وقال لها : تقولين بعد هذا (ما أقذرَ أولياءَك !؟) قالت : فقلتُ (قد تبتُ إلى الله تعالىٰ) .

في ذلك كرامةٌ لها وله : أمَّا لها ! فتعجيل أدبها في الدنيا على ما قالت ، وأمّا له !! فمكاشفته لما قالت .

يسقيه الخضر : سمعتُ محمد بن عبد الله الشيرازيَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن فارس الفارسي ؛ يقول : سمعت أبا الحسن خيرَاً النَّسَّاج ؛ يقول : سمعت الخوَّاص ؛ يقول : عطشْتُ في بعض أسفاري وسقطتُ من العطش ؛ فإذا أنا بماء رُشَّ على وجهي ! ففتحت عيني . . فإذا أنا برجل حسن الوجه راكبٌ[1] دابَّة شهباء ، فسقاني

(١) في الأصل ركباً . وهو الأولىٰ لو لم يوطئ الشارح له بالابتداء (أنا) فيكون الأولىٰ الرفع كما أثبتناه . وانظر ص ٨١٨ .

الماء ؛ وقال لي : كن رديفي . فكنت ردِيْفَهُ ، وكنتُ بالحجاز فما لبثت إلاَّ يسيراً، فقال لي الرَّجُل: ما ترىٰ؟ فقلت: أرىٰ المدينةَ، فقال: انزل وادخلها ، وأقرىء رَسولَ الله ﷺ منّي السلام ؛ وقل له: أخوك الخضِرُ يقرئك السلام .

في ذلك كراماتٌ . . منها تخليصُ الخوّاص من شِدَّة عطشه ببركة الخضر ، وإردافُه وإكرامه له ، وطيُّ الأرض .

وفيه إشارة[1] إلى أنَّ الخَضِر نبيٌّ ، وهو ما جزم به ابن الصلاح ، وأقرَّه عليه النوويُّ ، ورجَّحه الجمهور . وقيل : إنَّه وليٌّ .

يستشهد الخضرَ : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن الحسن البغداديَّ ؛ يقول : قال أبو الحديد : سمعت المظفَّر الجصَّاص ؛ يقول : كنتُ أنا ونصرٌ الخرَّاطُ ليلةً في موضع . . فتذاكرنا شيئاً من العلم ، فقال الخرَّاط: إنَّ الذاكر للَّه تعالى فائدتُه في أوَّل ذِكره أن يعلم أنَّ الله تعالىٰ ذَكَره ، فبذكر الله له ذَكره هو . قال: فخالفتُه في ذلك ، فقال : لو كان الخضر عليه السلام ههنا لشهد لي بصحَّته !! . قال : فإذا نحن بشيخ يجيءُ بين السماء والأرض طائراً في الهواء ، حتَّى بلغ إلينا وسلَّم علينا ؛ وقال: صدق الخرَّاطُ . . الذاكرُ لله تعالىٰ بفضل ذِكرِ الله له ذَكَرَهُ هو . فعلمنا بذلك أنّه الخضر .

وبذلك عُلِم أنَّ الخرَّاط أعلمُ ممَّن خالفه ، وبما قاله مع قوله تعالى ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ يُعلَم أنَّه تعالىٰ يذكر الذاكر قبل ذِكره وبعدَه ؛ يذكره قبلَه بإقداره له عليه ، وبعدَه بإيصال فضله ورحمته إليه .

الوليُّ المستور : سمعت الأستاذ أبا علي الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : جاء رجل إلى سهل بن عبد الله ؛ وقال : إنَّ الناس يقولون (إنَّك تمشي على الماء ؟) فقال ستراً لحاله : سلْ مؤذِّن المحلَّة فإنَّه رجل صالح لا يكذب ، فسألتُه . فقال لي المؤذِّن : لا أدري هذا ! ولكنه كان في بعض هذه الأيام نزل الحوض ليتطهَّر فزلق فوقع في الماء ، فلو لم أكن أنا هناك لبقي فيه . .

تبيين : قال الأستاذ أبو عليٍّ : إنَّ سهلاً كان بتلك الحال الذي وصف به ؛ من أنَّه

---

(١) الإشارة عند قوله (أخوك الخضر) .

يمشي على الماء ، ولكن الله تعالى يريد أن يستر أولياءه فأجرى ما وقع من حديث المؤذِّن والحوض ؛ ستراً لحال سهل ، وسهلٌ كان صاحبَ الكرامات .

المستور المشهور : وفي قريب من هذا المعنى : من ستر الولي حالَه ما حُكي عن أبي عثمان المغربيِّ وقد رأيتُه بخط أبي الحسين الجرجاني رضي الله عنه ؛ قال : أردتُ مرَّةً أن أمضي وأُعَدِّي إلى مصر لحاجة لي . . فخطر لي أن أركب السفينة ، ثم خطر ببالي أنِّي أُعرف هناك ! ! فخفت الشهرة فتركت الركوب ، فمرَّ المركبُ فبدا لي أن أمضيَ إليها ، فمشيت على الماء ولحقتُ بالمركب ؛ ودخلت السفينة والناس ينظرون [إليَّ][م] ، ولم يقل أحدٌ منهم (إنَّ هذا ناقض : خارق للعادة ، أو غير ناقض لها ! !) فعرفتُ أنَّ الوليَّ مستور ؛ وإن كان مشهوراً . وذلك من فضل الله وكرمه .

الواعظ المستور : ومما شاهدنا من أحوال الأستاذ أبي عليٍّ الدقَّاق رحمه الله معاينةً : أنَّه كانت به عِلَّة حَرَق البول ، وكان يقوم في ساعة غيرَ مرَّةٍ ، حتَّى كان يجدِّد الوضوء غيرَ مرَّة لركعتي فرض ، وكان يحمل معه قارورةً في طريق المجلس مجلس التكلُّم والوعظ . وربَّما كان يحتاج إليها في الطريق مرَّاتٍ ؛ ذاهباً وجائياً ، وكان إذا قعد على رأس الكرسيِّ يتكلَّم لا يحتاج إلى الطهارة ؛ ولو امتدَّ به الملجس زَماناً طويلاً ، وكنا نعاين ذلك منه سنين ، ولم يقع لنا في حياته أنَّ هذا شيءٌ ناقضٌ للعادة ! ! وإنَّما وقع لي هذا وفُتح عليَّ علمُه بعد وفاته .

زِمانة عابد : وفي قريب من هذا : ما يُحكىٰ عن سهل بن عبد الله أنَّه كان قد أصابته زِمانةٌ في آخر عمره ، فكان تردُ عليه القوَّة في أوقات الفرض فيصلِّي قائماً .

سماع مقعد : ومن المشهور أن عبد الله الوزَّان كان مقعداً وكان في السماع إذا ظهر به وجدٌ يقوم ويستمع ! ! في كلٍّ من هذه الحكايات الثلاث كرامةٌ وعونٌ لصاحبها على مطلوبه ، ودَلالة على صدقه في طاعة الله .

الداعي المجاب : سمعت محمد بن عبد الله الصوفيَّ ؛ يقول : حدَّثنا إبراهيم بن محمد المالكي ؛ قال : حدَّثنا يوسف بن أحمد البغدادي ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن أبي الحواري ؛ قال :

حججتُ أنا وأبو سليمان . . فبينا نحن نسير إذ سقطت السَّطيحة : القِربةُ

منِّي ! فقلت لأبي سليمان : فقدت السَّطيحةَ ؛ وبقينا بلا ماء ! وكان إذ ذاك بردٌ شديد ! فقال أبو سليمان (يا رادَّ الضالَّة . . ويا هادي من الضَّلالة ؛ أُرددْ علينا الضالَّة) . فإذا واحدُ ينادي مَن ذهبت له سطيحةٌ ؟ قال : فقلت : أنا . فأخذتها منه . هذه كرامة إجابة دعاء أبي سليمان .

الزاهد المحبوب : فبينا نحن نسير . . وقد تدرَّعنا بالفِراء من شدَّة البرد ؛ فإذا نحن بإنسان عليه طِمْران : ثوبان خَلِقان وهو يترشَّحُ عرقاً !! هذه كرامة له ؛ حيث لا يبالي بحرٍّ ولا برد ، لكمال شُغْله بربِّه . فقال له أبو سليمان : تعال حتَّى ندفع إليك شيئاً مما علينا من الثياب . فقال : يا أبا سليمان ؛ أتشير إلى الزهد . . وأنت تجد البردَ !! أنا أسيحُ في هذه البريَّة منذ ثلاثين سنة ما انتفضت ولا ارتعدت من البرد ، بل يُلبسني الله في البرد فَيْحا : ريحاً من محبَّتِه ، ويُلبسني في الصيف مذاقَ بردِ محبَّته . ومَرَّ إلى حال سبيله .

تعقيب : والحَرُّ والبرد عارضان على الأجسام ؛ إذا أراد الله أن يخلقَهما . . خَلَقَهما ، وإذا أراد أن يَصْرفَهما صَرَفهما ، وقد يتعوَّد جسم إنسان بلبس قميص واحد ؛ فيستوي حالُه في الحرِّ والبرد ، والله لطيفٌ بما يشاء فيما يشاء .

بيطاريُّ السَّبُع : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر محمد بن علي البكري ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله الكتاني بمكَّة ؛ يقول : سمعت الخوَّاص ؛ يقول : كنتُ في البادية مرَّة فَسِرْت في وسط النهار ؛ فوصِلت إلى شجرة . . وبالقرب منها ماءٌ فنزلت ، فإذا أنا بسبع عظيم قد أقبل عليَّ فاستسلمت : انقدت له ! فلما قرب مني إذا هو يَعرج ، فحمحم : صوَّت لطلب ما ينفعه ؛ يقال (حمحم الفرس) . . إذا صوَّت لطلب عَلَفه ، وبركَ بين يديَّ ووضع يده في حِجْري كأنَّه يشتكي ما به !! فنظرت . . فإذا يده منتفخة فيها قيحٌ ودم ، فأخذت خشبة وشققت الموضع الذي فيه القيح وأخرجته منه ، وشددت على يده خرقة ، فوجد بذلك راحة ، فمضى . . فإذا أنا به بعد ساعة ومعه شِبلان : ولدان له كأنَّه أتى بهما إليه ليرجوَ لهما البركة منه ! قال: فبصبصا : حرَّكا ذنبهما لي وحملا إليَّ رغيفاً ـ وفي نسخة : رغيفين ـ ؛ مجازاةً لما فعلتُ مع أبيهما .

عبرة الخوَّاص : وفي ذلك دَلالة على أنَّ الحيوانات العُجْم تعرف المصالح

والمفاسد ، ومَن يكرمُها ومَن يؤذيها ، إلاَّ أنَّها غير مكلَّفة ، وهذا الرغيفُ يمكن أنَّه سقط من بعض الناس ، أو أنَّه أتىٰ به وليٌّ ، أو أن الله أنشأه !! كلُّ ذلك عبرةٌ للخوَّاصِ ، وآية لربِّه في أفعاله .

إسعاف الخضر : وسمعته أيضاً ؛ يقول : حدَّثنا أحمد بن عليٍّ السائح ؛ قال : حدَّثنا محمَّد ابن عبد الله بن مطرِّف ؛ قال : حدَّثنا محمَّد بن الحسن العسقلاني ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن أبي الحواري ؛ قال : اشتكىٰ : مرض محمَّد بن السمَّاك ، فأخذنا ماءه يعنون بوله ؛ وانطلقنا به إلى طبيب نصراني ، فبينما نحن نسير بين الحيرة والكوفة . . استقبلنا رجل حَسَن الوجه طيِّب الرائحة نقيُّ الثوب ـ هو الخضر ؛ كما سيأتي ـ فقال لنا : إلى أين تمرون !؟ فقلنا : نريدُ فلاناً الطبيبَ نريه ماءَ ابن السمَّاك . فقال لنا : سبحان الله ! تستعينون على شفاء وليِّ الله بعدوِّ الله !! اضربوا به الأرض وارجعوا إلى ابن السمَّاك ، وقولوا له (ضعْ يدك على موضع الوجع ؛ وقل ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾[1]) ثم غاب عنَّا فلم نره !! فرجعنا إلى ابن السمَّاك فأخبرناه بذلك ، فوضع يده على موضع الوجع ؛ وقال ما قاله الرجل له . . فعوفي في الوقت ! وقال : كان ذلك الخضر عليه السلام .

مداواة أمته ﷺ : في ذلك دِلالة على أنَّ العبد ينبغي له أن يتداوىٰ أوَّلاً بما ذَكَر الله ؛ أو نبيُّه في الشفاء ، كما قال الله تعالىٰ ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾[2] ، ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] . وقال النَّبيُّ ﷺ : « شِفَاءُ أُمَّتِي فِي ثَلَاثٍ : ١ـ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ ٱللهِ ، أَوْ ٢ـ لَعْقَةٌ مِنْ عَسَلٍ ، أَوْ ٣ـ شَرْطَةٌ مِنْ حَجَّامٍ »[4] .

---

(١) الآية : ١٠٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

(٢) الآية : ٦٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل . وانظر ماكتبناه في (ترجمة المؤلف) ص١٩ .

(٣) الآية : ٨٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

(٤) الذي في البخاري : ٥٦٨٠ ؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما : « اَلشِّفَاءُ فِي ثَلاثَةٍ ؛ ١ـ شُرْبَةِ عَسَلٍ ، و٢ـ شَرْطَةِ مِحْجَمٍ ، و٣ـ كَيَّةِ نَارٍ . وَأَنْهىٰ أُمَّتِي عن ٱلنَّارِ » . وأخرجه ابن ماجه : ٣٤٩١ ، وأحمد : ١/ ٢٤٦ ، والطبراني في « الكبير » : ١٢٢٤١ .
لكن من شواهد ما أورده المؤلف ما أخرجه الحاكم في « مستدركه » : ٤/ ٢٠٠ ؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « اَلشِّفَاءُ شِفَاءآنِ : قِراءَةُ ٱلْقُرآنِ وَشُرْبَةُ ٱلعَسَلِ » وفي =

تكميل : وفيه أيضاً أنَّه تعالىٰ لم يرضَ لحبيبه أن يتداوىٰ بعدوِّه[1] ، والكرامةُ فيه ظهورُ الخضر لمن رآه ، وأنَّه حيٌّ ، واستجابة دعاء ابن السمَّاك في الحال .

أتمُّ الكرامتين : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت عبد الرحمان بن محمد الصوفي ؛ يقول : سمعت (عمي البَسطامي)؛ يقول : كنَّا قعوداً في مجلس أبي يزيد البَسطامي عنده . . فقال أبو يزيد مكاشفةً : قوموا بنا نستقبل وليًّا من أولياء الله تعالىٰ ! فقمنا معه ، فما بلغنا الدرب . . فإذا إبراهيم بن شبية الهرويُّ ! فقال له أبو يزيد : وقع في خاطري أن أستقبلك وأشفع لك إلى ربِّك يعني أستغفر لك !! فيه إظهار أنَّه كاشفه ، وأنَّه أهلٌ لأن ينال الله فيه ويشفع له . فقال له إبراهيم بن شبية : وما الذي حصل له بذلك ؛ ولو شفعتَ في جميع الخلق لم يكن بكثير : عظيم !؟ . . إنَّما هم قطعة طين ! فتحيَّر أبو يزيد من جوابه .

وكرامةُ إبراهيم في استصغار ذلك الذي أظهره له أبو يزيد بالنسبة إليه أتمُّ من كرامة أبي يزيد فيما حصل له من الفِراسة ، وفيما صدق له من الحال في باب الشفاعة والاستغفار ، ولا يخفى أنَّ الشفاعة في جميع الخلق خاصَّةٌ بنبينا محمَّد ﷺ . وعلى هذا فكرامةُ أبي يزيد أتمُّ .

القُنْبَرة العمياء : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت يوسف بن الحسين ؛ يقول: سمعت ذا النون المصري ؛ يقول : وقد سأله سالمٌ المغربيُّ عن أصل توبته ؛ فقال: خرجتُ من مصرَ إلى بعض القرىٰ ، فنمت في الطريق ، فانتبهت وفتحت عيني ؛ فإذا أنا بقُنبَرة عمياءَ سقطت من شجرة على الأرض ، فانشقَّت الأرض ؛ فخرج منها سُكُرُّجتان : إحداهما من ذهب ، والأخرى من فضة ! وفي إحداهما سِمسم ، وفي الأخرى ماءُ وردٍ !؟ فأكلتْ من هذه وشربت من هذه !! رزقها الله ذلك مع أنَّها لا تستطيع حيلةً في الرزق !!

= رواية : « عَلَيْكُمْ بِٱلشِّفَاءين : ٱلْعَسَلِ ، وَٱلْقُرْآنِ » وقال : صحيح على شرطهما . وأقرَّه الذهبي .

(1) وذلك من غيرة الله علىٰ عبده المؤمن ، وكذا تنزيهه أن يحتاج في تداويه إلىٰ محرَّم ، ولذا قال ﷺ « إِنَّ ٱللهَ تعالىٰ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ » . أخرجه الحاكم : ٤/ ٤١٠ ؛ وقال : اتفقا عليه ؛ عن عبد الله ، والطبراني في « الكبير » : ٧٤٩ ؛ عن أم سلمة .

فقلت : حسبي : كفاني ذلك ، قد تبتُ . ولزمت الباب إلى أن قبلني ربِّي .

أطلعه ربُّه على هذه الخوارق ؛ تقويةً ليقينه وتوكُّله ، وكمالاً لشغله بربِّه ، وإعراضاً عما سواه .

طهارة مقعد : وقيل : أصاب عبدَ الواحد بن زيد فالجٌ ، فدخل وقتُ الصلاة واحتاج إلى الوضوء ؛ فقال : مَن ههنا !! فلم يجبه أحد ، فخاف فوتَ الوقت ؛ فقال : يا ربِّ ؛ أحللني مِن وثاقي حتَّى أقضيَ طهارتي ، ثمَّ شأنك وأمرك ؟! ـ وفي نسخة : بأمرك؟ !ـ قال : فصحَّ من فالجه حتَّى أكمل طهارته ، ثم عاد إلى فراشه وصار كما كان ! الكرامة فيه ظاهرة .

يعاهد حماره : وقال أبو أيوب الحمَّال : كان أبو عبد الله الدَّيْلميُّ . . إذا نزل منزلاً في سفر عَمَد إلى حماره ؛ وقال في أُذنه (كنتُ أريد أن أشدَّك ، فالآن لا أشدُّك ؛ وأرسلك في هذه الصحراء لتأكل الكلأ ، فإذا أردنا الرحيل ؛ فتعالَ) . فإذا كان وقت الرحيل يأتيه الحمار ؛ كما قال له في أذنه .

فيه كراماتٌ له ظاهرة ، ودلالات على صدق همَّته ؛ وتعلُّق قلبه بمولاه في إصلاح دابَّته ، ورفع الشُّغل عن قلبه بتكليف مؤنته .

ثوب الجَهاز : وقيل : زوَّج أبو عبد الله الديلميُّ ابنته . . واحتاج إلى ما يجهِّزُها به ؛ وكان له من نسيجه كلّ وقت من أوقاته المعتادة له ثوبٌ يخرج به كل وقت من تلك الأوقات ؛ فيشتري منه بدينار ! فخرج له من نسيجه عند إرادة تجهيز ابنته ثوبٌ ، فقال له البيَّاع : السمسار لمريدي الشراء ـ وفي نسخة : البائع ـ إنَّه يساوي أكثرَ من دينار ! فلم يزل ـ الأوْلى : يزالوا ـ يزيدون في ثمنه حتَّى بلغ مئة دينار . بارك الله في ثمنه عوناً له على مراده الديني . . فجهَّزَها بها .

يمغط ثوبه : وقال النَّضرُ بن شُميَل : ابتعتُ إزاراً لأتَّزر به فوجدتُه قصيراً !! فسألتُ ربِّي أن يمغط لي ذراعاً ، ففعل : سألته أن يمدَّ لي ذراعاً فمدَّه لي ، والمغط مأخوذٌ من (مَغْطِ القوس) ؛ وهو مدُّه .

قال : النَّضْر بن شُمَيْل : ولو استزدته في المدِّ على ذراع . . لزادني .

هذا من زيادة البركة في الأَجْرام ، وما قبله من زيادتها في الأثمان ، وذلك

كلُّه من خوارق العادات . . يكرم الله به أولياءه عند الحاجات .

دعوات ولي : وقيل : كان عامر بن عبد القيس سأل ١ـ أن يهوِّنَ اللهُ عليه طَهوره : ما يتطهَّر به من الماء في الشتاء ! فأجابه الله فكان يؤتىٰ به وله بُخَار من سخونته بغير تسخين بنار ، و٢ـ سأل ربَّه أن ينزع شهوة النساء من قلبه فأجابه ، فكان بعد ذلك لا يبالي بهِنَّ : لا يميل إليهنَّ . و٣ـ سأله أن يمنع الشيطان : وسوستَه من قلبه . . وهو في صلاته ! فلم يجبه إليه . .

أجابه إلى الأوَّلين ؛ عوناً له على طاعته ، ومنعه الثالث ! لأنَّه أخبر أنَّ الشيطان يوسوس في صدور الناس ، غير أنَّه حفظ عباده من وسوسته . . بأن لا يقبلوها ؛ فقال ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾[1] : سلطان القبول .

دعوتا الخضر : وقال بشر بن الحارث : دخلتُ الدَّار ؛ فإذا أنا برجل . . فقلتُ (من أنت حتَّى دخلتَ داري بغير إذني ؟!) فقال : أنا أخوك الخضر . فقلت له : أُدع الله لي . فقال لي : هوَّنَ الله عليك طاعتَه . فقلت له : زدني . فقال : وستَرَها عليك . خشية من الرياء في إظهارها .

تحفظه الملائكة : وقال إبراهيم الخوَّاص : دخلت خَرِبة في بعض الأسفار في طريق مَكَّة بالليل ؛ فإذا فيها سَبُع عظيم ؛ فخفتُ منه ، فهتف بي هاتف : أُثبت ولا تخفْ ، فإنَّ حولَك سبعين ألفَ ملك يحفظونك .

فيه دَلالة علىٰ أنَّ الله تعالى يحفظ أولياءه بصرف الشرِّ عنهم ، وبملائكة يحرسونهم .

النوريُّ واللصُّ : أخبرنا محمد بن الحسين ؛ قال : أخبرنا أبو الفرج الورثاني ؛ قال : سمعت أبا الحسن علي بن محمد الصيرفي ؛ يقول : سمعت جعفر الدبيلي ؛ يقول : دخل النُّوريُّ الماء ليَطّهر وترك ثيابه خارجَ الماء ، فجاء لِصٌّ فأخذ ثيابه ، ثمَّ إنَّه بعد أن مشىٰ بها جاء ؛ ومعه الثياب ووضعها مكانها . . وقد جفَّت يدُه : يبست وتفطَّن بسبب يبسها الذي هو سببٌ لمجيئه بالثياب . فقال النوري مكاشفاً له بما أصابه : يا ربّ ؛ قد ردَّ علينا اللِّصُّ الثياب ، فرُدَّ عليه يدَه . فعوفِي بردِّها .

---

(١) الآية : ٤٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحجر .

الشجرة الواعظة : وقال الشبلي : اعتقدت وقتاً : عزمت في وقت على أن لا آكل إلاَّ من الحلال ، فكنت أدور في البراري ، فرأيت شجرة تين فمددت يدي إليها لآكل منها لظنّي أنّها لا مالكَ لها . فنادتني الشجرة (احفظ عليك عَقْدك عزمك . . لا تأكل مني ، فإنِّي ليهودي !) وهو لا يحبُّك ، لعداوة الدِّيْن بينك وبينه ، فلا يجب إكرامك بالأكل من ماله ، وفي ذلك زيادةُ ورع ، فإنَّه لو أكل ولم يعلم الحال . . لم يأثم .

صبر ساعة : وقال أبو عبد الله ابن خفيف : دخلتُ بغداد قاصداً إلى مكَّة لأجل الحجِّ ؛ وفي نفسي نخوة الصوفية : كُبْرهم وعظمتهم على غيرهم ، وقدرتهم على وصال الصوم . ولهذا لم آكل الخبز أربعين يوماً ، ولم أدخل على الجنيد : لم أزره !! وخرجت ولم أشرب الماء إلىٰ أن وصلت إلى زُبالة موضع ، وكنت في هذه المدَّة على طهارتي . فرأيت في طريقي ظبياً على رأس البئر ؛ وهو يشرب من مائها . . وكنت عطشان ! فلما دنوت من - وفي نسخة : إلى - البئر ولَّىٰ الظَّبْيُ نافراً ، وإذا الماء صار في أسفله . - الأَوْلى : أسفِلها - : البئر ، فمشيت في الطريق ؛ وقلت : يا سيِّدي ؛ مالي عندك محلُّ هذا الظَّبِي ؟ : منزلته . . في أن أشرب الماء من أعلى البئر كما شرب هو ؟! وفي هذا إدلال والتفات إلى رؤية ومقام . فسمعتُ مِن خلفي يقول ﴿ جرَّبْنَاك بذلك فما صبرتَ ؛ بل طلبت !! اِرجع إلى ما طلبتَه وخذ الماء ﴾ ، فرجعت فإذا البئرُ ملأىٰ ماءً ، فملأتُ رِكوتي وكنت أشرب منه وأتطهَّر منه إلىٰ أن وصلت إلى المدينة الشريفة ؛ ولم ينفَد الماء : لم يفرغ . ولَمَّا استقيت من البئر وملأت ركوتي منها . . ووقع في سِرِّي الظَّبي شَرب بلا ركوة ولا حبل ؛ وأنت إنَّما تشرب بهما . . سمعت هاتفاً يقول : إنَّ الظَّبيَ جاءَ بلا رِكوة ولا حبل ؛ وأنت جئت مع الحبل والركوة !! فلمَّا رجعتُ من الحجِّ . . دخلت الجامع ببغداد ومضيتُ إلى الجنيد ، فلما وقع بصر الجنيد عليَّ ؛ قال مكاشفاً لي بما جرىٰ لي مع الظَّبْيِ : لو صبرت ولم تطلب ما فَعله الله مع الظَّبيْ لَنَبع الماء من تحت رجلِكَ - وفي نسخة : رجليك - لو صبرت صَبْرَ سَاعَةٍ صَبْرَ سَاعَةٍ نبع الماء من تحت رجلك ، هو تأكيد لما قبله . - وفي نسخة : صبرَ ساعة - بلا تكرار !!

و« لو » يحتمل أن تكون شرطيّة كما تقدَّم ، وأن تكون للتمنِّي ؛ فلا تحتاج إلى جواب .

إحياء ميت : سمعت حمزة بن يوسف السَّهْميَّ الجرجاني ؛ يقول : سمعت أبا أحمد ابن‌عدي الحافظ ؛ يقول : سمعتُ أحمد بن حمزة بمصر ؛ يقول : حدَّثني عبد الوهاب . . وكان من الصالحين ؛ قال : قال محمد بن سعيد البصري : بينا أنا أمشي في بعض طرق البصرة . . إذ رأيتُ أعرابياً يسوق جملاً فوقه رحلٌ وقَتَب ، فالتفتُّ . . فإذا الجمل وقع ميتاً ووقع الرحل والقتب اللذان فوقَه ، فمشيت ، ثمَّ التفتُّ فإذا الأعرابيُّ يقول : يا مسبِّب كلِّ سبب ويا مولى - وفي نسخة : ويا مأمول - مَن طلب ؛ رُدَّ عليَّ ما ذهب ، من جمل يحمل الرَّحْل والقَتَب ، وإذا الجمل قائمٌ والرَّحلُ والقتب فوقَه . هذه كرامة إحياء الموتى .

خصام حِدَأتين : وقيل : إنَّ شبلاً المروزيَّ اشتهىٰ يوماً لحماً ، فأخذه بنصف درهم ، فاستلبته منه حِدَأةٌ - بوزن عِنَبة - فدخل شبلٌ مسجداً يصلِّي فيه ، فلما رجع إلى منزله قَدَّمت امرأته إليه لحماً ، فقال لها : من أين هذا اللحم ؟! فقالت له : تنازعت حِدَأتان فسقط هذا منهما في دارنا ، ووصفته له فعرف أنَّه لحمه ، وأنَّ الحِدأة لمَّا أخذته رأتْه حدأةٌ أخرى فنازعتها ، فسقط اللحم منهما ؛ إذ لو لم يعرف أنَّه لحمه . . لوجب تعريفُه لكونه لُقطة . فقال : الحمد لله الذي لم ينسَ شبلاً[(١)] ؛ وإن كان شبلٌ كثيراً ينساه .

الكرامةُ فيه من حيثُ أنَّ الله حَفِظ عليه قُوته وقوتَ عياله عند الحاجة إليه .

مستعير من الله : أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفيُّ ؛ قال : حدَّثنا عبد الواحد بن بكر الورثاني ؛ قال : سمعتُ محمد بن داود ؛ يقول : سمعت أبا بكر بن معمر ؛ يقول : سمعت ابن أبي عبيد البسري يحدِّثُ عن أبيه : أنَّه غزا سنة من السنين ، فخرج في السريَّة ، فمات المُهْر الذي كان تحته . . وهو في السَّرِيَّة ؛ فقال : يا ربِّ ؛ أَعِرْناه إلى (بسرى) يعني : قريته ، فإذا المُهْر قد قام ، فلما غزا ورجع إلى

---

(١) بأن لم يتركه محتاجاً ، وإن كان شبل ينساه : يغفُل عنه بعروض ما يجوز في حقِّه (عروسي) .

(بسرى) ؛ قال لابنه : يا بني ؛ خذ السرج عن المهر . فقلت له : إنه قد عَرِق ؛ فإن أخذتُ السرج عنه . . داخَلَه الريح !! فقال له : يا بُنَيَّ ؛ إنَّه عاريةٌ . قال : فلما أخذتُ السرج عنه وقع المهر مَيْتاً .

الكرامة فيه إحياءُ الميت بالدعاء الصادق عند الضرورة .

نباش مغفور له : وقيل : كان بعضُهم نبَّاشاً للقبور ، فتوفِّيت امرأة فصلَّىٰ الناس عليها ، وصلَّىٰ عليها هذا النبَّاش ليعرف القبر ؛ فيأخذ كفن صاحبه !! فلما جَنَّ عليه الليل : أظلم . . نبش قبرَها ليأخذ كَفَنها . فقالت له تعجُّباً : سبحان الله ؛ رجلٌ مغفورٌ له يأخذُ كَفن مغفورةٍ !!: مغفور لها . قال : هبي أنَّكِ مغفورٌ لكِ ؛ فأنا مغفورٌ لي . . من أين ؟! فقالت لي : إنَّ الله غفر لي ولجميع مَن صلَّى عليَّ ، وأنتَ قد صلَّيتَ عليَّ . فتركتُها وردَدْتُ التراب عليها . ثمَّ تاب الرَّجُل وحَسُنَت توبته .

هذه كرامةُ سماعِ الميت في قبره ، وهي كرامةٌ للنبَّاش ؛ وهي سببُ توبته وسلامته ممَّا قصده .

ردّ أسنانه : سمعتُ حمزةَ بن يوسف ؛ يقول : سمعتُ أبا الحسن إسماعيلَ بن عَمْرو بن كامل بمصر ؛ يقول : سمعتُ أبا محمد نعدان بن موسى الحيري بالحيرة ؛ يقول :

رأيت ذا النون المصريَّ ؛ وقد تقاتل اثنان أحدهما جنديٌّ من أولياء السلطان . . والآخر من الرعية ، فعدا الذي من الرعيَّةِ عليه فكسر ثَنِيَّتَه ، فتعلَّق الجنديُّ بالرجل الذي من الرعية ؛ وقال : بيني وبينَك الأميرُ ، فجازوا بذي النون ، فقال لهم الناس : اِصعدوا إلى الشيخ ذي النون ! فصعدوا إليه فعرَّفوه ما جرى ، فأخذ السنَّ ؛ ثمَّ بلَّها بريقه ورَدَّها إلى فم الرجل في الموضع الذي كانت فيه ؛ وحرَّك شفتيه بالدعاء بثباتها . فتعلَّقت وثبتت بإذن الله ، فبقي الرجل يفتِّش فاهُ ؛ فلم يجدْ هو ولا مَن حَضَره الأسنان إلاَّ سواءً !!

صرف الله السوء عنهما جميعاً ببركة الشيخ وحسن دعائه وكمال همَّته .

بدون منَّة : أخبرنا أبو الحسين محمدُ بن الحسين القطَّان ببغداد ؛ قال : حدَّثنا أبو عليٍّ إسماعيلُ بن محمد بن إسماعيل الصفَّار ؛ قال : حدَّثنا الحسن بن عرفة بن يزيد ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن إدريس الأَوْدي ؛ عن إسماعيل ابن أبي خالد ؛ عن أبي سَبْرة النَّخَعي ؛

قال : أقبل رجل من اليمن ؛ فلما كان في بعض الطريق نَفَق : مات حماره ، فقـام وتوضَّأَ وصلَّىٰ ركعتين ؛ ثم قال (اللهم ؛ إنِّي قد جئتُ مجاهداً في سبيلـك ابتغاءَ مرضاتك ، وأشهد أنَّك تُحيي الموتىٰ وتبعثُ مَن في القبور ، لا تجعل لأحد عليَّ مِنَّةً اليومَ ، أطلب منك أن تبعث حماري ! . فقام الحمارُ وهو ينفض أُذُنيه .

إيضاح : في ذلك كرامةُ إحياء الموتىٰ ، ودَلالة على أنَّ الله يبعث مَن في القبور لسؤال منكر ونكير ، وأمَّا يوم الحشر ! فالميت ينشأ نشأةً أخرى بعد ما تتفرَّقُ أجزاؤه ، وتصير تراباً ودُوداً وغيرهما ، كما قال تعالى لإبراهيمَ عليه السلام ﴿ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾[1] .

اشتهاء طعام : سمعتُ حمزة بن يوسف ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر النابلسيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الهمدانيَّ ؛ يقول : بقيتُ في برِّيَّة الحجاز أيَّاماً . . لم آكل شيئاً ، فاشتهيت باقلاَّ حارًّا وخبزاً من (باب الطاق): موضع بالعراق ، فقلت في نفسي : أنا في البرِّيَّة ، وبيني وبين العراق مسافةٌ بعيدة ! ! فلم أُتمَّ خاطري إلاَّ وأعرابيٌّ من بعيد ينادي (يا باقلاَّ حارَّ وخبز) فتقدَّمتُ إليه ، فقلت (عندك باقلاَّ حارٌّ وخبز) ! ! فقال : نعم ، وبسط مئزراً كان عليه ، وأخرج باقلاًّ حارًّا وخبزاً ؛ وقال لي : كُلْ . فأكلتُ ، ثم قال لي : كل . فأكلتُ ، ثم قال : كُلْ . فأكلتُ ، فلما قال لي في الرابعة : كُلْ . . قلتُ : بحقِّ الذي بعثَك إليَّ إلاَّ ما قلتَ لي مَن أنت ؟! فقال (أنا الخضر) . وغاب عنِّي ؛ فلم أره .

في ذلك كرامتان : رؤيته للخضر ، وإتيانُه بما يحتاجه ؛ خارقاً للعادة ، لأنَّه كان بموضع خالٍ عن ذلك .

يشارك بقوته : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا العبَّاس ابن الخشَّاب البغدادي ؛ يقول : سمعتُ محمَّد بن عبد الله الفرغاني ؛ يقول : سمعت أبا جعفر الحدَّاد ؛ يقول : جئت الثعلبيَّةَ ؛ وهي خراب . . ولي سبعة أيَّام لم آكل شيئاً ! ! فدخلت القبَّة ، وجاء قومٌ خراسانِيُّون أصابهم جُهد : مشقَّة من الجوع ،

---

(١) الآية : ٢٦٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

فطرحوا أنفسهم على باب القبَّة ، فجاء أعرابيٌّ على راحلته ؛ وكان وليّاً لله ، وصبَّ تمراً بين أيديهم فاشتغلوا بأكل منه ؛ ولم يقولوا لي شيئاً ، ولم يرني الأعرابيُّ ! فلما كان بعد ساعة سار فيها أميالاً . . فإذا بالأعرابيِّ جاء إليهم ؛ وقال لهم : هل معكم غيركم؟ فقالوا : نعم معنا هذا الرجل داخل القبَّة !! فدخل إليَّ الأعرابيُّ ؛ وقال : إيش أنت ؛ لِمَ لَمْ تتكلَّم حين جئت إلى هنا ؟! فقد مضيتُ من هنا ، فعارضني إنسان ، فقال لي : قد خلَّفت إنساناً لم تطعمه !؟ ولم يمكنِّي أن أمضيَ . . ولم أطعمك !! فتطوَّلتَ عليَّ الطريق وأتعبتني ، لأنِّي رجعتُ عن أميال سرتُها ، وصبَّ بين يديَّ تمراً كثيراً ومضى ، فدعوتهم فأكلوا وأكلتُ معهم .

في ذلك من الكرامة لأبي جعفر رجوعُ الأعرابيِّ إليه بعد أميال ، وإيثارُه مع الحاجة ، فإنَّه لَمَّا جعل التمر بين يديه . . دعا القوم فأكلوا معه ؛ ولم يأكل وحدَه كما فعلوا به .

تكليم جمل : سمعت حمزة بن يوسف ؛ يقول : سمعتُ أبا طاهر الرَّقِّيَّ ؛ يقول : سمعتُ أحمد بن عطاء ؛ يقول : كلَّمني جملٌ في طريق مكَّة ، فرأيت جِمالاً . . والمحاملُ عليها وقد مَدَّت أعناقَها للسير في الليل ، فقلت تعجُّباً : (سبحان مَنْ يحمل عنها ما هي فيه !) فالتفتَ إليَّ جمل منها ؛ وقال ـ وفي نسخة : فقال ـ : قل (جلَّ الله) . فقلت : جلَّ اللهُ ! الكرامةُ فيه كلام الحيوانات العُجْم .

وتقدَّم ص ٩٨٠ ، وص ٩٨٧ ، وص ١٠١١ مثلُها .

تسويد امرأة : سمعتُ محمد بن عبد الله الصوفيَّ ؛ يقول : سمعت الحسن بن أحمد الفارسيَّ ؛ يقول : سمعت الرقيَّ ؛ يقول : سمعت أبا بكر بن معمر ؛ يقول : سمعت أبا زرعة الجنبي ؛ يقول : مكرتْ بي امرأةٌ ؛ فقالت لي : ألا تدخل الدارَ فتعودُ مريضاً فيها !! فدخلت ، فأغلقتْ الباب عليَّ . . ولم أر أحداً فيها !! فعلمت ما فعلتْ ، فقلت (اَللَّهُمَّ سوِّدها)! فاسودَّتْ فتحيَّرتْ في أمرها ، وفتحتُ الباب فخرجتُ ؛ وقلت (اَللَّهُمَّ ردَّها إلى حالها) فردَّها إلى ما كانت عليه[١] .

---

(١) وفيه من شفقة الأولياء ما لا يخفىٰ ـ إذ الشفقة أحد أركان الولاية ـ لأن دعاءه كان لدفع =

هذا يشبهُ ما جرى لامرأة العزيز مع يوسف عليه السلام ، فعصمه منها برؤية البرهان من ربِّه ، والبرهانُ هنا سوادُ المرأة .

وفي ذلك كرامةٌ له بإجابة دعائه في الحال .

استدعاء سريع : سمعت حمزة بن يوسف ؛ يقول : سمعتُ أبا محمد الغطريفي ؛ يقول : سمعتُ السرَّاج ؛ يقول : سمعت أبا سليمان الرُّوميَّ ؛ يقول : سمعت خليلاً الصيَّاد ؛ يقول : غابِ ابني محمَّدٌ ، فوَجِدْنا عليه وَجْداً شديداً ؛ فأتيت معروفاً الكرخيَّ ؛ فقلت له : ياأبا محفوظ ؛ غاب ابني وأمُّه واجِدةٌ معي عليه وجداً شديداً !! فقال لي : ما تشاء ؟ : تريد مني ؟ فقلت له : ادعُ الله لنا أن يردَّه علينا ! فقال (اللَّهُمَّ ؛ إنَّ السماء سماؤُك ؛ والأرض أرضك ، وما بينهما لك ! اِئت بمحمَّدٍ) قال خليل الصيَّادُ : فأتيت باب الشام . . فإذا هو واقف عنده ! فقلت له : يا محمد ؛ أين كنتَ !؟ فقال لي[1] : يا أبتِ ؛ كنتُ الساعةَ بالأنبار . . فأحضرني الله إلى هنا في الحال ! .

تذييل : قال الأستاذ أبو القاسم القشيريُّ رضي الله عنه : واعلم أن الحكاياتِ في هذا الباب تربو : تزيدُ على الحصر . والزيادةُ على ما ذكرناه تُخرِجنا عن المقصود من الإيجاز ، وفيما ذكرناه مَقنَعُ : رضاً يُقتنَع به في هذا الباب .

وقد حصل فيه من الكرامات ما يفيد العلم بوقوعها ؛ فضلاً عن جوازها ، ولا ينكر وقوعَها إلاَّ أهلُ الأهواء ، ولَمَّا إنكار جوازِها !! فمن باب الضلال والعَمىٰ .

* * *

* *

*

= الشرِّ ؛ لا للانتقام ، أو إهانة الخلق ، وإنما أراد منع المعصية ، وفسح مجال التوبة كما مرَّ ص ١٠٢٩ عن أبي الحسين (النوري واللص) .

(١) فيه كرامتان . . إجابة الدعاء ، وطيُّ الأرض (عروسي) .

٥١ ـ باب رؤيا القوم في النوم

إثباتها : يكفي في إثباتها ما نُصَّ عليه في قصة يوسف عليه السلام بقوله ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾(١) . .

رتبتها : والرؤيا الحسنة ممدوحةٌ . **قال الله تعالى ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾(٢) . قيل : هي الرؤيا الحسنة يراها المرءُ ، أو تُرى له .**

بشرىٰ الدارين : أخبرنا أبو الحسن الأهوازيُّ ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصريُّ ؛ قال : حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم المنقري ؛ قال : حدَّثنا منصور بن أبي مُزَاحم ؛ قال : حدَّثنا أبو بكر بن عيَّاش ؛ عن عاصم ؛ عن أبي صالح ؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه ؛ قال : **سألتُ النَّبيَّ ﷺ عن هذه الآية ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ ؛ قال ﷺ لي : « مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ ! هِيَ ٱلرُّؤْيَا ٱلحَسَنَةُ . . يَرَاهَا ٱلْمَرْءُ أَوْ تُرَىٰ لَهُ »(٣) .**

الرؤيا والحلم : أخبرنا السيِّد أبو الحسن محمدُ بن الحسين العلويُّ ؛ قال : أخبرنا أبو عليٍّ الحسنُ بن محمد بن زيد ؛ قال : حدَّثنا عليُّ بن الحسين ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن الوليد ؛ عن سفيان ؛ عن يحيى بن سعيد ؛ عن أبي سَلَمة ؛ عن أبي قتادة ؛ قال : **قال رسول الله ﷺ : « ٱلرُّؤْيَا مِنَ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، وَٱلْحُلُمُ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ، فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يَكْرَهُهَا . . فَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ، وَلْيَتَعَوَّذْ فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ »(٤) .**

---

(١) الآية : ٣٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : يوسف عليه الصلاة والسلام .

(٢) الآية : ٦٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : يونس عليه الصلاة والسلام .

(٣) أخرجه أحمد : ٦/٤٧ ، والترمذي : ٢٢٧٤ ، ٣١٠٥ ؛ وحسَّنه ، والطبراني في « الكبير » : ١٧٧٣٦ ومواضع ، والحاكم : ٢/٣٤٠ ، و٤/٣٩١ ؛ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .
وعند البخاري : ٦٩٩٠ ؛ عن أبي هريرة ، ومسلم : ٢٠٨ ـ ٤٧٩ ؛ عن ابن عباس : « لَمْ يَبْقَ مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ إلاَّ ٱلمُبَشِّرَاتُ . . . الرُّؤْيَا ٱلصَّالِحَةُ يَرَاها ٱلْمُسْلِمُ أَوْ تُرَىٰ لَهُ » .

(٤) متفق عليه بألفاظ متقاربة . . البخاري : ٣٢٩٢ ، ومسلم : ٤ ـ ٢٢٦١ ؛ عن أبي قتادة .

رؤيا النَّبيِّ ﷺ : أخبرنا أبو بكر محمَّد بن أحمد بن عبدوس المزكِّي ؛ قال : أخبرنا أبو أحمد حمزةُ بن العبَّاس البزَّار ؛ قال : حدَّثنا عيَّاش بن محمد بن حاتم ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن موسى ؛ قال : حدَّثنا إسرائيل ؛ عن أبي إسحاق ؛ عن أبي الأحوص ؛ وأبي عبيدة ؛ عن عبد الله بن مسعود ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَآنِي فِي ٱلْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حقّاً ، فَإِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي »(١) : لا يقدر أن يتمثل بي فيها ؛ إكراماً له وتشريفاً له ﷺ .

بيان معناه : ومعنىٰ هذا الخبر أنَّ تلك الرؤيا رؤيا صدقٍ ، وتأويلها حقٌّ ، وأن الرؤيا نوعٌ من أنواع الكرامات .

علامتها : وعلامةَ صحَّة رؤياه ﷺ أنَّ من رآه لا يسمع منه ما يخالف ما جاءت به الشريعة ؛ بأن يكون له تأويل صحيحٌ عند علماء هذا الفن .

حقيقة الرؤيا : وحقيقةُ الرؤيا الحسنةِ أن يخلق الله في قلب النائم ، أو في حواسِّه الأشياء كما يخلقها في اليقظان ، فربَّما يقع ذلك في اليقظة كما رآه ، وربَّما جعل ما رآه عَلَماً على أمور أُخَر يخلقها في ثاني الحال ؛ أو كان خلقها فتقع تلك كما جعل الله الغيم علامةً للمطر .

ترجيح : وهذا أولىٰ من قوله (وتحقيق الرؤيا أنَّها خواطر تردُ على القلب وأحوالٌ تتصوَّر في الوَهَم بخلق الله) ، ! ! وإن حملت الرؤيا في كلامه على المرئيَّات ! ! ففيه نظرٌ أيضاً ، فإنَّ الخواطرَ إنَّما ترجع إلى الأقوال ؛ من أمر ونهي ، وإخبار واستخبار . . على حسب ما يَرِدُ على قلب العبد وهو يقظان . وأمَّا المرئيَّاتُ في النوم ! ! فهي صورٌ وأشكال ، وسواء كانت خواطرَ ؛ أم لا . . فهي إنَّما تكون إذا لم يستغرق النوم جميع الاستشعار ، فيتوهَّمُ الإنسان عند اليقظة من نومه أنَّه : ما يَرِدُ على القلب ممَّا ذَكر كان رؤيةً في الحقيقة : واقعاً في اليقظة . وإنَّما كان ذلك تصوُّراً وأوهاماً للخلق تقرَّرت في قلوبهم ، وحين زال عنهم الإحساس الظاهر بنومهم . . تجردَّت تلك الأوهام عن المعلومات بالحسِّ والضرورة ؛ فقويت تلك الحالةُ عند صاحبها ، فإذا استيقظ . . ضعُفَت تلك

---

(١) متفق عليه . . البخاري : ١١٠ بلفظه ، ومسلم : ١٠ ـ ٢٢٦٦ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الأحوال التي تصورَّهـا بالإضافـة إلى حال إحساسه بالمشاهدات وحصولِ العلوم الضرورية .

مثال النائم : ومثاله : النائم الرائي كالذي يكون في ضوء السراج عند اشتداد الظُّلمة ، فإذا طلعت الشمس عليه غلبت : الشمس : ضوؤُها ضوءَ السراج فيتقاصر نور ـ وفي نسخة : ضوء ـ السراج بالإضافة إلى ضياء الشمس ، فمثال حال النوم كمن هو في ضوء السراج ، ومثال المتيقِّظ كمن تعالى عليه النهار ، فإنَّ المستيقظ من نومه . . يتذكَّر ما كان متصوَّراً له في حال نومه .

تفصيل وتكميل : ثمَّ إنَّ تلك الخواطرَ والأحاديث : الأحوال التي تردُ على قلبه في حال نومه . . مرَّة ١ـ تكون من قِبَل الشيطان ؛ فتسمَّى « أحلاماً » ، ومرَّة ٢ـ عن هواجس النفس ؛ فترجع إلى ما يتحدَّث به الرائي في نفسه . . فتسمَّى « هاجساً » . ومرَّة ٣ـ تكون بخواطر الملك فتسمَّى « رؤيا » . ومرَّة ٤ـ تكون تعريفاً من الله تعالى بخلق تلك الأحوال في قلبه ابتداءً فتسمَّى « رؤيا » أيضاً . وفي الخبر : « **أَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيْثاً** »(١) .

حقيقة المرئي : والذي يراه النائم ليس حقيقةَ المرئيِّ ؛ وإنَّما هو صورٌ وأشكال ، وذلك لأنَّه ﷺ قد يراه جماعةٌ في وقت واحد . . يراه بعضهم شابَّاً ، وبعضهُم شيخاً ، وبعضُهم كهلاً ، ويراه واحد بالمغرب ؛ وآخر بالمشرق !! ومحالٌ أن تكون ذاتُه الواحدةُ في أمكنة وأحوال مختلفة في وقت واحد !!

أقسام النوم : ١/٢ مذمومان : واعلم أنَّ النوم على أقسام بعضُها يأتي ، وبعضُها الآخر ١ـ نوم غفلة عما خُلق العبد له ، و٢ـ نوم عادة ؛ وهو ما قصد به التلذُّذ والتنعُّم ، وذلك : كلٌّ منهما غيرُ محمود ، بل معلول مذموم ، لأنَّه أخو الموت ، وفي بعض الأخبار المرويَّة : « **اَلنَّوْمُ أَخُو ٱلْمَوْتِ** »(٢) . وقال الله

---

(١) لم أجده فيما بين يدي الآن .

(٢) عزاه السيوطي في « الجامع » : ٩٣٢٥ إلىٰ البيهقي في « الشعب » بزيادة : « . . . وَلاَ يَمُوتُ أَهْلُ ٱلْجَنَّةِ » ؛ عن جابر رضي الله عنه . ثم رمز لضعفه .

تعالىٰ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم ﴾ : ما كسبتم ﴿ بِٱلنَّهَارِ ﴾[1] ، وقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾[2] .

وقيل : لو كانَ في النوم خيرٌ لكان في الجنة نوم !!

أصل البلاء : وقيل : لَمَّا ألقىٰ الله تعالىٰ على آدم النومَ . . أخرج منه حواء ، وكلُّ بلاء اتصل به : بآدم . . إنَّما حصل حين حصلت حوَّاءُ[3] التي أخرجها الله من آدم في حال نومه .

النوم عن الحبيب : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : لَمَّا قال إبراهيمُ عليه السلام لإسماعيلَ عليه السلام ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ ؛ فقال له إسماعيل : يا أبت ؛ هذا جزاءُ من نام عن حبيبه حتى رأى هذه الرؤيا !! لو لم تنم . . لما أُمرت بذبح الولد .

تكذيب المدعي : وقيل : أوحىٰ الله تعالى إلى داود عليه السلام : ﴿ يَا دَاوُدُ ؛ كَذَبَ مَنْ ٱدَّعَىٰ مَحَبَّتِي فَإِذَا جَنَّهُ ٱللَّيْلُ : أظلم نَامَ عَنِّي ﴾ .

والنوم ضدُّ العلم ، بواسطة أنَّه ضِدُّ اليقظة التي لا يحصل العلمُ إلاَّ فيها .

فضيحة النعاس : ولهذا قال الشبليُّ : نعسةٌ في ألف سنة فضيحةٌ على مَن لم يغلبه النوم ، لأنَّه فيها حُرِم بركة لذَّة المناجاة . وقال الشبلي : اِطَّلع الحقُّ على الخلق ؛ فقال : مَن نام غَفِل ، ومَن غَفِل حُجِب . فكان الشبليُّ يكتحل بالملح بعدَه حتَّى كان لا يأخذه النوم . وفي معنَاه أنشدوا :

عَجَباً لِلْمُحِـبِّ كَيْـفَ يَنَـامُ !! كُـلُّ نَـوْم عَلَـىٰ ٱلْمُحِـبِّ حَـرَامُ !

ضرورات المريد : وقيل : المريد أكلُه فاقةٌ ، ونومُهُ غلبةٌ ، وكلامُه ضرورةٌ . أي : ينبغي له أن يكون كذلك .

---

(١) الآية : ٦٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

(٢) الآية : ٤٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الزمر .

(٣) لعلّ مما يصلح شاهداً له ما أخرجه ابن عدي ؛ عن ابن عمر : « لَوْلا ٱلنِّساءُ لَعُبِدَ ٱللهُ حَقّاً حَقّاً » . وما أخرجه الديلمي : ٥١١٨ ؛ عن أنس « لَوْلا ٱلنِّسَاءُ لَعُبِدَ ٱللهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ » . وقد رمز السيوطي في « جامعه » : ٧٥١٩ ؛ ٧٥٢٠ ؛ لكليهما بالضعف .

النائم بالحضرة : وقيل : لما نام آدم عليه السلام بالحضرة الإلهية قيل له : هذه حوَّاء خُلقتْ لتسكن إليها . قال الإمام القشيريُّ : هذا جزاءُ مَن نام بالحضرة . إذ لا يليق بمن كَمُلت محبَّتُه بمحبوبه أن يشتغل بغيره .

الحاضر والغائب : وقيل : إن كنت حاضراً ؛ فلا تنم ، فإنَّ النوم في الحضرة سوءُ أدب ، وإن كنت غائباً . فأنت أهلُ الحسرة والمصيبة ، والمصابُ لا يأخذه نومٌ .

٣ـ نوم الصدقة : وأما أهلُ المجاهدات!! فنومهم صَدَقة من الله تعالى عليهم ؛ لتستريح أبدانُهم وينشطوا لعمل الطاعة .

٤ـ نوم الضرورة : وإنَّ الله تعالى يباهي : يفاخر بالعبد إذا نام في سجوده ملائكته ؛ يقول : ﴿ انظُروا إلىٰ عبدي . . نام وروحهُ عندي ، وجسده بين يديَّ ﴾!

قال الأستاذ القشيريُّ : أي روحه في محلِّ النجوىٰ ، وبدنُه على بساط العبادة . وهذا النوم نوم ضرورة ، وهو محمود ، لأنَّه معين على العبادة .

نوم المتطِّهر : وقيل : كل مَن نام على الطهارة يؤذَن لروحه أن تطوف بالعرش وتسجد لله تعالىٰ ، قال الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾[1] : راحةً لأبدانكم .

٥ـ نوم العافية : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : شكا رجل إلى بعض المشايخ من كثرة النوم الذي يغلبهُ!! فقال : اذهب فاشكر الله تعالى على العافية ، فكم مِن مريض في شهوةِ غمضةٍ من النوم الذي تشكو أنت منه!! فالنومُ لك نعمة من الله تعالىٰ ، لأنَّه بنيَّة العبادة والمجاهدة .

نوم العاصي : وقيل : لا شيء أشدُّ على إبليس من نوم العاصي ؛ فإنَّه يقول : متى ينتبهُ ويقوم حتَّى يعصيَ الله !! فنومُه رحمةٌ له ، لأنَّه لا يعصي في نومه ، لأنَّه غيرُ مكلَّف فيه . وقيل : أحسنُ أحوال العاصي أن ينام ، فإنَّه إن لم يكن الوقت له ؛ بأن لم يعمل فيه خيراً . . لم يكن عليه ؛ لأنَّه لم يعمل فيه شرَّاً .

محبُّ النوم : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ رحمه الله ؛ يقول : تعوَّدَ شاهٌ الكرمانيُّ السهر فغلبه النوم مرَّة ، فرأىٰ الحقَّ تعالى في النوم ، فكان يتكلَّف النوم بعد ذلك ،

---

(١) الآية : ٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النبأ .

فقيل له في ذلك !!: ما سببُه ؟ فقال :

رأيْــتُ سُــرُورَ قَلْبِــي فِــي مَنَــامِــي فَــأَحْبَبْــتُ ٱلتَّنَعُّــسَ وَٱلْمَنَــامَــا

إيضاح : فكان يحبُّ النوم لهذا الغرض الذي يزيده يقيناً واشتغالاً بربه ، وفي ذلك دَلالة على جواز رؤية الله تعالى في النوم !

أقسام النوم : فالنومُ . . ـ كما قال ـ أقسامٌ : ١ـ نوم غفلة . و٢ـ نوم عادة ، وهما مذمومان ؛ لعدم الحاجة إليها . و٣ـ نومُ ضرورة ؛ وهو ممدوح للحاجة إليه ، كما في القدر الذي يتناوله من الطعام لإقامة البُنْيَة . و٤ـ نوم استعانة على فعل الأفضل ؛ كأن ينام أوَّل الليل ليقوم آخره مع تمكُّنه من قيامه أوَّله ، وهو أيضاً ممدوح . ولهذا كان نومُ العالم عبادةً . و٥ـ نومٌ يجد فيه النائم ما يَقْوِّيه على سلوكه ، ويجمع هَمَّهُ لنيلِ مطلوبه ؛ وهو أيضاً ممدوح ، لما عرفتَ ؛ لكنَّه . . وإن كان ممدوحاً . . فالظاهر أنَّ اليقظة أفضلُ منه ، لأنَّ فيها نيلَ مطلوبه بالمجاهدة ، والنوم إنَّما فيه ما يحمله ويقويِّه على مطلوبه .

اعتبار الحال : وقيل : كان رجل شيخٌ له تلميذان ، فاختلفا فيما بينهما !! فقال أحدُهما : النوم خيرٌ ، لأنَّ الإنسان لا يعصي الله تعالى في تلك الحالة لما مرَّ . وقال الآخر : اليقظةُ خيرٌ ، لأنَّه يعرف الله في تلك الحالة ، فتحاكما إلى ذلك الشيخ !! فقال : أما أنت الذي قلتَ بتفضيل النوم ؛ فالموتُ خيرٌ لك من الحياة ، وأمَّا أنتَ الذي قلتَ بتفضيل اليقظة ؛ فالحياةُ خير لك من الموت ، فلا خلاف !

وإنَّما ذلك محمولٌ على حالين . . بعد الإتيان بالواجب والرواتب ، فمن خاف خَللاً في العمل . . فالنومُ خير له ، وإلاَّ . . فاليقظةُ خيرٌ له ، ولهذا لمَّا ضعف عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه وخشي على نفسه من ضَعْفِ العمل . . تمنَّىٰ الموت ، فتمنِّي الموتِ لخوف الخلل في العمل أولى من الحياة مع ضعف العمل .

مولى ومولى : وقيل : اشترىٰ رجلٌ تاجر مملوكةً ؛ وكانت صالحة . . فلمَّا دخل الليل ؛ قال لها : افرشي لي الفراش لأنام . فقالت المملوكة له : يا مولاي ؛ ألك مولىٰ ؟! فقال لها : نعم . فقالت له : هل ينام مولاك ؟ فقال لها : لا . فقالت له : ألا تستحي أن تنام ومولاك لا ينام !! في ذلك مع ـ ما مرَّ ـ تحريضٌ

علىٰ أن النوم لا يكون من العبد إلاَّ علىٰ وجه الغَلَبة .

تهديد جهنم : وقيل : قالت بُنيَّة لسعيد بن جُبَير : لم لا تنام ؟! فقال : إنَّ جهنَّم لاَ تدعُني : خوفي منها لا يتركني أن أنام !! .

خوف البيات : وقيل : قالت بنتٌ لمالك بن دينار : لم لا تنام ؟! فقال لها : إن أباك يخاف على نفسه البيات . يعني : الموت في نومه غافلاً عما خُلِق له .

موت أسطوانة : وقيل : لَمَّا مات الرَّبيع بن خَيْثم ؛ قالت بنيَّةٌ لأبيها : الأسطوانة : السارية التي كانت في دار جارنا . . إلى أين ذهبت ؟ فقال لها : إنَّه لم يكن أُسطوانة ! وإنَّما كان جارُنا الرجل الصالح يقوم مِن أول الليل إلى آخره . فتوهَّمت البُنيَّةُ أنَّه كان ساريةً ، لأنَّها كانت لا تصعد السطح إلاَّ بالليل ؛ فخفيَ عليها الأمر .

معاني النوم : وقال بعضهم : في النوم معانٍ ليست في اليقظة ؛

١ـ **رؤيا السابقين** : منها أنَّه : العبد يرىٰ فيه المصطفى ﷺ ، والصحابةَ والسَّلَف الماضين رضي الله عنهم في النوم ، ولا يراهم في اليقظة !!

٢ـ **رؤيا الحق تعالىٰ** : وكذلك يرى الحقَّ تعالىٰ في النوم ولا يراه في اليقظة . . على ما مرَّ !! وهذه مَزِيَّةٌ عظيمة ، لكن مزايا اليقظة أعظمُ لما مرَّ .

ولأنَّ الأدلَّة العقلية والنقلية أبلغُ وأنفع في الدين والدنيا من الرؤيا المحتاجة إلى التعبير الذي قد يُخطيء .

طلبُ محبٍّ : وقيل : رأىٰ أبو بكر الآجرِّيُّ الحقَّ تعالى في المنام ؛ فقال له : الحقُّ ﴿ سل حاجتك ﴾ . فقال : اللَّهُمَّ اغفر لعصاة أمَّة محمَّد ﷺ .

اختار ذلك تحبُّباً لحبيبه ﷺ ، لأنَّ ما يُحِبُّه المحبوبُ محبوبٌ ، وأمَّتُه مَن اقتدىٰ به ؛ وهو ﷺ يحبُّهم ويحرِّض على نجاتهم ، والحقُّ يحبُّه ويحبُّ مَن يحبُّه . فقال له الحقُّ : ﴿ أنا أولى بهذا منك !﴾ لأنَّهم أُمَّة حبيبي . ﴿ سل حاجتك التي تخصُّك ﴾ .

المتزيِّنُ زوراً : وقال الكتاني : رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في المنام ؛ فقال لي : « مَنْ تَزَيَّنَ

لِلنَّاسِ بِشَيْءٍ يَعْلَمُ ٱللهُ مِنْهُ خِلاَفَهُ . . شانَهُ ٱللهُ » : عاتبه وقبَّحه .

دواء القلوب : وقال الكتاني أيضاً : رأيت النَّبيَّ ﷺ في المنام ، فقلت له : أُدعُ الله لي أن لا يميت قلبي . فقال لي : « قُلْ كُلَّ يَوْمِ أَرْبَعِيْنَ مَرَّةً يا حَيُّ يا قَيُّومُ ؛ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ » . هذا ينفع قائله في الدنيا والآخرة .

خاتم الإنجيل : ورأىٰ الحسن بن عليٍّ رضيَ الله عنه عيسىٰ ابن مريم في المنام ؛ فقال له : إنِّي أريد أن أتَّخذ لي خاتَماً . . فما الذي أكتبُ عليه ؟! فقال لي : « أُكْتُبْ عَلَيْهِ (لاَ إِلَهَ إِلاَّ ٱللهُ ٱلمَلِكُ ٱلحَقُّ ٱلمُبِيْنُ) . . فَإِنَّهُ آخِرُ ٱلإِنْجِيْلِ » : خاتمته . وهذا كالذي قبله في النفع .

ويشهد لكلٍّ منهما خبرُ : « أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَٱلنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي (لاَ إِلَهَ إِلاَّ ٱللهُ) »[(١)] .

وفي كلٍّ منهما دَلالةٌ على وقوعِ رؤية النَّبيِّ ﷺ في النوم .

الطريق لله : ورُوي عن أبي يزيد البَسطامي ؛ أنَّه قال : رأيتُ ربِّي عزَّ وجلَّ في المنام ؛ فقلت له : كيف الطريقُ إليك ؟ فقال لي : ﴿ أُتْرُكْ نَفْسَكَ وَتَعَالَ ﴾ : أُترك العمل لحظِّها ، واعمل لي خاصَّة ، فإنَّك حينئذ تصلُ إليَّ .

يطلبني ويطلبون مني : وقيل : رأى أحمد بن خَضْرَوَيْه ربَّه في المنام ؛ فقال لي : ﴿ يَا أَحْمَدُ ؛ كُلُّ ٱلنَّاسِ يَطْلُبُونَ مِنِّي إِفْضَالِي إِلاَّ أَبَا يَزِيْد فَإِنَّهُ يَطْلُبُنِي ﴾ !! وفرقٌ بين مَن يكفيه العطاء ، ومَن لا يرضيه إلاَّ كشفُ الغِطاء .

وقال يحيى بن سعيد القطَّانُ : رأيتُ ربِّي في المنام ؛ فقلتُ له : يا ربّ كم أدعوك ؛ ولا تستجيب لي !! لم يقل ذلك استبطاءً للإجابة حتى يقالَ (إنَّه ارتكب ما نُهي عنه ؛ في خبر : « يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ ؛ فَيَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَحَبْ لِيْ »[(٢)])! وإنَّما سأله عن سبب ذلك ؟! فقال تعالى ﴿ يَا يَحْيَىٰ ؛ أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَكَ ﴾ ، مع أنَّ الذي أُريده لك خيرٌ من الذي

---

(١) مرويٌّ بألفاظ مختلفة ، ولفظ المؤلف عند مالك في «الموطأ»: ١/ ٢١٤، وأحمد: ٢/ ٢١٠، والترمذي : ٣٥٩٧ بزيادة « خَيْرُ ٱلدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ . . . » .

(٢) تقدم تخريجه ص ٧٥١ ، ١٠١٤ .

تريدُه لنفسك ، إذ المقصود من إجابة الدعاء المنفعةُ التي اختارها لنفسه ، ولا ريب أنَّ ما اختاره له ربُّه أَوْلى في حقِّه ممَّا اختاره لنفسه !! فالإجابةُ تختلف بحسب ما يحبُّه الله ويرضاه للداعي ، وقد يكون دعاؤُه أنفعَ له عند الله من حصولِ مطلوبه ، كما أُريد من قصَّة يحيى !

وفي كلٍّ من هذه الحكاية . . واللَّتين قبلَها دَلالةٌ على وقوع رؤية الله تعالى في النوم .

موعظة علوية : **وقال بشر بن الحارث : رأيتُ أمير المؤمنين عليّاً رضي الله عنه في المنام ؛ فقلتُ له : يا أمير المؤمنين ؛ عظني . فقال : ما أحسنَ عطفَ الأغنياءِ على الفقراء** بالزكاة وغيرها . . **طلباً لثواب الله تعالى !!**

وأحسن من ذلك تِيْهُ الفقراء : **تكبُّرهم على الأغنياء** ؛ **ثقةً باللهِ** تعالى وبقربه وبعطاياه ، فلا يذلُّون لهم لأجلِ مالِهم ، ولا يخضعون لهم طمعاً في نوالهم .

وإنَّما كان هذا أحسنَ من ذلك !! لأنَّ ذاك إعراض مع السَّعة عن بعض ما يملكه ، وهذا إعراضٌ مع العدم عمَّا هو محتاجٌ إليه ؛ ثقة بالله أن يأتيَه به عندَ دعاء الضرورة إليه .

فقلت له لَمَّا أعجبني هذا الكلام : **يا أمير المؤمنين ؛ زِدْني في** الموعظة . فدَلَّني على تصغير الدنيا في عينه وتحقيرها في قلبه ، فأخبرني بأنَّ أَصلي من التراب ، وأنَّ الله أحياني وكلَّفني بما يترتَّب عليه الحسابُ ، وسيميتُني ويَرُدُّني إلى ما كنتُ عليه ، ثم يُحيْني مرَّة أخرى للوقوف والحساب وغيرهما ، وقد ضَمَّن ذلك شعراً ؛ **فقال**[1] :

قَـدْ كُنْـتَ مَيْتَـاً فَصِـرْتَ حَيَّـا ... وَعَـنْ قَـرِيْـبٍ تَصِيْـرُ مَيْتَـا
عِـــزٌّ بِـــدَارِ ٱلفَنَـــاءِ بَيْـــتٌ ... فَٱبْنِ أنت بِدَارِ ٱلبَقَاءِ بَيْتا؟!

أي : إذا لم يمكنك في هذه الدار الإقامةُ ببيت ، لكون الله كَتَب عليها الفناء فٱبن لك بيتاً بدارٍ كتب الله لها البقاء .

الثوري وابن المبارك : **وقيل : رئي سفيانُ الثوريُّ في المنام ، فقيل له : ما فعل الله**

---

(١) انظر ما كتبناه ص ٧٧٢ فيما ينسب من الشعر لسيدنا علي كرم الله وجهه .

بك ؟! فقال : رحمني . فقيل له : ما حالُ عبدِ الله بن المبارك ؟ فقال : هو ممَّن يَلِجُ علىٰ ربِّه كلَّ يوم مرَّتين .

في ذلك دَلالة على أنَّ أرواح السعداء ترى الله تعالى في البرزخ ، وتتنعَّم بقربه فيما أَعَدَّ لها من النعيم ، ويكمل لها ذلك يوم القيامة إذا حُشرت بأجسادها ، وقد جاء : « إِنَّ أَرْوَاحَ ٱلشُّهَدَاءِ فِي حَواصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَعْلَقُ في ثِمَارِ ٱلجَنَّةِ »[1] .

الأمر هناك : سمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : رأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكيُّ أبا سهل الزجَّاجيَّ في المنام ؛ وكان الزجَّاجيُّ يقول بوعيد الأبد : بأنَّ كلَّ مَنْ توعَّدَه الله على معصية وفعلَها . . لا يغفرها له ، لأنَّ توعُّدَه من باب الخبر . . وخبرُه صدق !! فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال الزجَّاجيُّ : الأمُر هٰهنا في الآخرة أسهلُ ممَّا كنَّا نظنُّه في الدنيا ، فوجد أنَّ الحقَّ خلافُ ما كان يقول به ، وهو كذلك !! لأنَّ الله تعالى قال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾[2] .

معاملة كريم : ورئي الحسن بن عصام الشيبانيُّ ؛ فقيل له : ما فعل الله بك ؟! فقال : وإيش يكون من الكريم ! : لا يكون منه إلاَّ الكرم !! : فأكرمني .

ورُئي بعضُهم في المنام ؛ فسُئل عن حاله ؛ فقال بياناً لحاله :

حَاسَبُونَا فَدَقَّقُوا   ثُمَّ مَنُّوا فَأَعْتَقُوا .

بقيت النعمة : ورُئي حبيبٌ العَجَميُّ في المنام ؛ فقيل له : يا ـ أو : أنت ـ حبيب

---

(1) أخرجه الترمذي : ١٦٤١ ؛ وقال : حسن صحيح بلفظ « أجواف » بدل « حواصل » ، وبلفظ « إن نسمة » أو قريب منها أخرجه مالك : ١٦٤ ، وأحمد : ٦/٣٨٦ ، والحميدي : ٨٧٣ ، وعبد بن حميد : ٣٧٦ ، والنسائي : ٢٠٧٢ ، وابن ماجه : ٤٢٧١ ؛ عن كعب بن مالك رضي الله عنه .
وانظر تفاصيل هذا البحث في « سرّ الروح » للبقاعي ص١٥٧ فما بعد بتحقيقنا (ط) بدمشق .

(2) الآية : ٤٨ و١١٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

العجميُّ !؟ فقال : هيهات ! ذهبت العُجمة وبقيتُ في النِّعمة .

في كلِّ هذه المرائي دلالة على رحمة الله ولطفه بالمرئيِّ ، وعلى قوَّة رجاءِ الرائي وحسن ظنِّه بربِّه .

مغفرة باقتداء : وقيل : دخل الحسنُ البَصريُّ مسجداً ليصلِّي فيه المغرب مع جماعة . . فوجد إمامَهم حبيباً العجميَّ . . ولم يسمع قراءته ، ولكن نُقل إليه أنَّه يلحن فيها !! فلم يصلِّ خلفَه ، لأنَّه خاف أن يلحن لحناً يضرُّ بالصلاة ، وليس كذلك ؛ وإنَّما كان يلحن لحناً يسيراً . . لعُجمة كانت في لسانه !! فرأى في المنام في تلك الليلة قائلاً يقول له : لِمَ لَمْ تصلِّ خلفَه !! لو صلَّيتَ خلفه . . لغُفر لك ما تقدَّم من ذنبك . لأنَّ صلاتَه كانت صحيحةً ؛ وكان فيها من الحضور والخشوع والتذلُّل بين يدي الله تعالى ما تزيد فضيلتُه على ذلك اللَّحن اليسير الذي لا يضرُّ !! وهو ؛ وإن فاتته فضيلةٌ لفظية . . امتاز على غيره بفضيلة قلبيَّة ، هي أفضلُ عند الله .

فقيل للبِصريِّ مع كمال فضله وورعه وحرصه على الفضائل : لو صلَّيت خلفَه لنالتك فضيلةٌ أخرى اختصَّ بها على غيره من الأئمة ! .

مغفرة بكلمة : ورُئي مالكُ بن أنس في المنام ؛ فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي بكلمة كان يقولُها عثمانُ بن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة : (سبحان الحيِّ الذي لا يموت) . في ذلك دَلالة على أنَّ مالكاً رضي الله عنه لقي من ربِّه بقوله ذلك كلَّ خير ؛ فغُفر له كلُّ زلل .

قدومٌ مرضيٌّ : ورئي الليلةَ التي مات فيها الحسن البصريُّ كأنَّ أبواب السماء مفتَّحةٌ ، وكأنَّ منادياً ينادي : ألا إنَّ الحسن البِصريَّ قَدِم على الله . . وهو عنه راضٍ .

فيه دَلالة على فضيلته ، وهي معلومة من حاله في الدنيا .

سمعت أبا بكر (ابن أبي أشكيب)؛ يقول : رأيت الأستاذ أبا سهل الصُّعْلُوكيَّ في النوم على حالة حسنة ؛ فقلت له : يا أستاذ ؛ بِمَ وجدت هذا الحال الحسن ؟! فقال : بحسن ظنِّي بربِّي . . بحسن ظنيِّ بربِّي . (مرَّتين) .

فيه دَلالة على فضيلته ؛ وهي معلومةٌ من حاله في الدنيا أيضاً .

رؤية الجاحظ : وقيل : رُئي الجاحظ في المنام ؛ فقيل له : ما فعل الله بك ؟! فقال :

فَلاَ تَكْتُبْ بِكَفِّكَ ـ وفي نسخة : بخطِّك ـ غَيْرَ شَيْءٍ
يسُرُّكَ فِي ٱلقِيَامَةِ أَنْ تَرَاهُ

لأنَّ العبد يُسأَل عن جميع أعماله ، ومنها الكتابة .

مهلكو إبليس : وقيل : رأى الجنيدُ إبليسَ الخبيث في منامه عُرياناً ؛ على عادته من تظاهره بكشف عورته عند أهل الشرِّ ، ليحسِّن لهم ذلك وليتعوَّدوا به ! .

فقال له : ألا تستحيي من الناس ؟! فقال : هؤلاء ناس!! : ليسوا بناس يُستحيىٰ منهم !! إنَّما الناس الذين يستحيىٰ منهم أقوامٌ في مسجد الشونيزية أضنوا جَسَدي وأحرقوا كبدي ! .

قال الجنيد رحمه الله تعالى: فلما انتبهتُ وأصبحت . . غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة استقبلوا القبلة ؛ ثم وضعوا رؤوسهم على ركبهم يتفكَّرون في خلق السماوات والأرض ؛ ويذكرون الله . فلما رأوني قالوا لي مكاشفة بما رأيتُه في النوم : لا يغرَّنَّكَ حديثُ الخبيث ، لأنَّ كلَّ ما يقوله شرٌّ لا خيرَ فيه .

عتاب الأشراف : ورئي أبو القاسم النصراباذي بمكَّة بعد موته في النوم ؛ فقيل له : ما فعل الله بك؟! فقال: عُوتبتُ عِتاب الأشراف : عتاباً يسيراً. ثم نوديت : ﴿يا أبا القاسم ـ نُودي بكنيته زيادة في فضيلته !!ـ: أَبَعْدَ الاتصال انفصالٌ ؟!﴾ : أيليق بكَ بعد أن أوصلناك أن تلتفت لِغيرنا ؟! فقلت : لا يا ذا الجلال ! فما وضعتُ في اللحد حتى لحقت بالأحد : صرتُ عند الله في منزلة رفيعة من التقريب والإكرام ، وهذا من تتمَّة جواب (ما فعل الله بك ؟) .

حوائج ذي النون : ورئي ذو النون المصريُّ في المنام ؛ فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : كنت أسأله ثلاث حوائج في الدنيا ؛ فأعطاني البعض في الدنيا : واحدة ـ وفي نسخة : فأعطاني منها اثنتين . وليست بصحيحة ! لما سيأتي ـ وأرجو أن يُعطيَني الباقي . .

كنت أسأله أن يعطيَني من الكرامات العشرة التي على يد رضوان (خازن الجنة) واحدة ، ويعطيني : ويتولَّى ذلك بنفسه ، و٢ـ أن يعذِّبَني ـ وفي نسخة : يعذِّبُني ـ عن الواحدة التي ـ وفي نسخة : عن الواحدة الذي ـ بيد مالك (خازن

النار) بعشرة ، ويتولّى هو العشرة بنفسه .

غرضه بذلك أنَّ النعيم ؛ وإن قلَّت أفرادُه ، والعذابُ وإن كَثُرت أفراده . . إذا تولاَّهما الله بنفسه كَمُل سروره في النعيم ، ولم يجد كمالَ الألم في العذاب ، لأنَّ كلَّ ما يكون من المحبوب محبوبٌ .

و٣ـ أن يرزقني أن أذكره بلسان الأبدية ؛ بأن لا يحجبني عنه نعيمُه ولا عذابه ، وهذا هو الذي أعطيه في الدنيا .

مطالبة الشبلي : وقيل : رُئيَ الشِّبليُّ في المنام بعد موته ؛ فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : لم يطالبني بالبراهين على الدَّعَاوي التي كنتُ أتكلَّم بها . . إلاَّ على شيءٍ واحد ؛ وهو أنِّي قلت يوماً : لا خسارةَ أعظمُ من خُسران الجنة ودخول النار . فقال لي : ﴿ وَأَيُّ خَسَارَةٍ أَعْظَمُ مِنْ خُسْرانِ لِقَائي ؟! ﴾ لأنَّ النعيم ؛ وإن شَرُف . . والعذاب ؛ وإن عَظُم صغيران بالنظر إلى رؤية الله والحجبِ عنه ، إذ أشرف النعيم الذي هو في الجنة رؤية الله ، وأشدُّ العذاب الذي هو في النار الحجبُ عن الله .

نافعات الجنيد : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ رحمه الله ؛ يقول : رأى الجريريُّ الجنيدَ في المنام ؛ فقال له : كيف حالك ؛ يا أبا القاسم ؟! فقال : طاحت تلك الإشارات : سقطت بمعنى خَفَّت بالنسبة للتسبيحات ، وبادت تلك العبارات : هلكت بمعنى ما ذُكر . وما نَفَعنا إلاَّ تسبيحاتٌ من الذِّكر ونحوه . . كنا نقولها بالغَدَوات ! فيه دَلالة على أنَّ أكثر العبادات منفعةً عند الله تعالى الذِّكرُ ، كما قال تعالى ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1] .

تذلُّل الواجد : وقال النِّباجي : تشهَّيْتُ يوماً شيئاً ، فرأيت في المنام كأنَّ قائلاً ؛ يقول : أيجمل : أيحسن بالحُرِّ المريد أن يتذلَّل : يذلَّ نفسه للعبيد وهو يجد من مولاه ما يريد !

فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن كثرت شهواته ذَلَّ في طلبها للعبيد لتحصيلها .

ضيف النبي : وقال ابن الجلاَّء : دخلتُ المدينة المشرَّفة وبي فاقةٌ ، فتقدَّمت إلى

---

(١) الآية : ٤٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها العنكبوت .

القبر وقلتُ (أنا ضيفك؛ يا نبيَّ الله) فغفوت غفوة : نمت نومة فرأيت النَّبيَّ ﷺ في نومي قد أعطاني رغيفاً ، فأكلت نصفه وانتبهتُ وبيدي النِّصفُ الآخر!!

في ذلك دَلالة على صدقه في حاجته ، وعلى أنَّ الله أكرمه بهذه الكرامة لشرف نبيّنا ﷺ واستضافته .

شهادة نبوية : وقال بعضُهم : رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في المنام يقول « زُورُوا ٱبْنَ عَوْنٍ ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ » . فيه كرامة لابن عون بقول النَّبِيِّ ﷺ : (زوروه) وشهادته له منه بأنَّه يحبُّ الله ورسوله .

من الحوراء : وقيل : رأى عتبةُ الغلامُ امرأة حوراء من الحور العين وهو شِدَّة بياض العين في شدَّة سوادها في المنام على صورة حسنة ؛ فقالت له : يا عتبة ؛ أنا لك عاشقة ، فانظر أن لا تعمل من الأعمال شيئاً يُحال به بيني وبينك !! فقال لها عتبةُ ليُطَمْئِنَ قلبَها : طلَّقتُ الدنيا ثلاثاً لا رجعة لى عليها . . حتَّى ألقاكِ .

فيه دلالة على فضيلة عتبةَ بكمال زهده في الدنيا ؛ واشتغاله بالآخرة .

المشتاق للحور : سمعت منصوراً المغربيَّ ؛ يقول : رأيتُ شيخاً في بلاد الشام كبيرَ الشأن ، وكان الغالبَ عليه الانقباضُ ، فقيل لي : إنْ أردت أن ينبسط هذا الشيخ معك . . فسلِّم عليه ، وقل له (رزقك الله الحورَ العين) فإنَّه يرضى عنك بهذا الدعاء . فسألت عن سببه ؟ فقيل : إنَّه رأى شيئاً من الحور العين في منامه ؛ فبقي في قلبه شيءٌ من ذلك . فكان لا يزال مهموماً بأمر الآخرة حتَّى يُذَكر له الحور العِيْن . . فينبسط ؛ ويستبشر بلقائِهنَّ ، فمضيْتُ إليه وسلَّمتُ عليه ؛ وقلت له : رزقك الله الحور العين ، فانبسط الشيخ معي .

في هذا وما قبله دليلٌ على وقوع رؤيا الحور العِين في النوم .

تأنيب متألٍ : وقيل : رأى أيوب السّختيانيُّ جنازةَ عاصٍ ؛ فدخل دهليزاً واختفى فيه ؛ لئلا يحتاج إلى الصلاة عليها ! رأى أنَّ هذا المَيْت ممن ينبغي لأهل الدين أن لا يصلُّوا عليه ؛ زجراً لأمثاله عن المعصية . فرأى بعضُهم الميِّت في المنام ؛ فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ؛ وقال لي : قل لأيوب السِّختياني ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ : من الرزق والمطر إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ : لبَخِلتم خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ : خوف نفادها بالانفاق ، فتفتقرون .

إيضاح : فيه تنبيه على سَعة رحمه الله ، وجواز مغفرته للكبائر من الذنوب غيرِ الشرك ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ .

بشرى ابن دينار : وقيل : رئي الليلةَ التي مات فيها مالك بن دينار كأنَّ أبواب السماء فُتحت . . وقائل يقول : ألا إنَّ مالك بن دينار أصبحَ من سُكَّان الجنة . فيه بشرى له بأنه من أهل الجنة .

بشرى الطائي : وقال بعضُهم : رأيت الليلةَ التي مات فيها داودُ الطائيُّ نوراً . . وملائكة صعوداً وملائكةً نُزُولاً ؛ فقلت : أيُّ ليلة هذه !؟ فقالوا . . ليلةَ مات فيها داود الطائيُّ ، وقد زُخرفت الجنة لقدوم روحه على أهلها .

فيه ما ذكر قبله .

تكميل : قال الأُستاذ الإمام القشيري رحمه الله : رأيتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله في المنام ؛ فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال لي : ليس للمغفرة هٰهنا كبيرُ خطر : قَدْرٍ عند الله ، بل يغفر ويكرم ويلطُف ، أقلُّ مَن حَضَر هٰهنا خطراً : قَدْراًفلان ! وعنىٰ إنساناً . ومع ذلك أُعطيَ كذا وكذا .

ووقع لي في المنام أنَّ ذلك الإنسان الذي عناه قتل نفساً بغير حقٍّ !

في ذلك دَلالة أيضاً على سعة رحمة الله ، وأنَّه بعد العفو يعطي الجزيلَ من فضله .

بشرى كُرْز : وقيل : لَمَّا مات كُرْزُ بنُ وَبَرة . . رُئي في المنام كأنَّ أهل القبور خرجوا من قبورهم وعليهم ثياب جُدَد بيضٌ ، فقيل لهم : ما هذا ؟! قيل : إنَّ أهل القبور كسُوا ثياباً جُدَداً ـ وفي نسخة : لبسوا لباساً جديداً ـ لقدوم كُرزِ بن وَبَرة عليهم

فيه كرامة له .

المازح الجادُّ : ورُئي يوسف بن الحسين في المنام ؛ فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي . فقيل له : بماذا !؟ فقال : لأنِّي ما خلطت جِدّاً بهزل قطُّ .

فيه إشارة إلى كمال ورعه ، وأن أكثر أحواله جِدٌّ ، وإن مزح . . فبوجهِ حقٍّ ، كما قال النَّبيُّ ﷺ : « إِنِّي لأَمْزَحُ وَلاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقّاً »[1] .

---

(١) تقدم تخريجه ص ٣١١ .

عقوبة ذنب : ورُئي أبو عبد الله الزَّرادُ في المنام ؛ فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفني ، وغفر لي كلَّ ذنب أقررتُ به في الدنيا ، إلاَّ ذنباً واحداً . . استحييت أن أُقِرَّ به ، فوقفني في العَرَق حتَّى سقط لحم وجهي ، ثم غفر لي !! فقيل له : وما ذاك : ما سببه ؟ فقال : نظرتُ يوماً إلى شخصٍ جميل بشهوة ، فاستحيتُ أن أذكرَهُ .

فيه أنَّ الاستحياء من ذكر الذنب يوم القيامة لا يفيد ، لأنَّ ذاك اليوم ليس يومَ عملٍ ، وإنما هو يومُ جزاء .

مسائل التعليم : سمعت أبا سعيد الشحَّام ؛ يقول : رأيتُ الشيخ الإمام أبا الطيب سهلاً الصُّعلوكيَّ في المنام ؛ فقلت له : أيُّها الشيخُ . فقال لي : دَعْ الشيخ : اسمه . فقلت له : وأين تلك الأحوال التي شاهدتُها فيك ؟ فقال لي : لم تغن عنا شيئاً . فقلت له : ما فعل اللهُ بك !؟ قال : غفر لي بمسائل كانت تسألني عنها العُجَّز فأجبتُهم عنها . فيه دلالة على سعة رحمة الله ، وعلى فضيلة المفتي للعوام المحتاجين إلى معرفة الأحكام .

تارك العهد : سمعت أبا بكر الرشيدي الفقيه ؛ يقول : رأيتُ محمَّداً الطوسيَّ المعلِّم في المنام ؛ فقال لي : قل لأبي سعيد الصفَّار المؤدِّب . .

وَكُنَّا متعاهدين عَلَى أَنْ لاَ نَحُولَ عَنْ ٱلْهَوَىٰ : الحب

فَقَدْ داخلةٌ على (حُلْتُمْ) ـ وَحَيَاةِ ٱلْحُبِّ ـ قَسَم معترضٌ بينهما الشرح حُلْتُمْ عن ٱلْهَوَىٰ وَمَا حُلْنا عنه .

وفي نسخة بعد هذا :

تَشَاغَلْتُمُ عَنَّا بِصُحْبَةِ غَيْرِنَا وَأَظْهَرْتُمُ ٱلْهُجْرَانَ مَا هَكَذا كُنَّا
لَعَلَّ ٱلَّذِي يَقْضِي ٱلأُمُورَ بِعِلْمِهِ سَيَجْمَعُنَا بَعْدَ ٱلْمَمَاتِ كَمَا كُنَّا

قال : فانتبهت ، وقلتُ ذلك لأبي سعيد الصفَّار ؛ فقال لي : كنتُ أزورُ قبره كلَّ يوم جُمُعة ؛ فلم أزره هذه الجمعةَ .

منام مع النبي ﷺ : وحُكيَ عن بعضهم أنَّه قال : رأيتُ في المنام رسول الله ﷺ

وحولَه جماعةٌ من الفقراء ، فبينا هو ـ وفي نسخة : فبينما هم ـ كذلك . . إذ نزل عليهم من السماء مَلَكان وبيد أحدهما طِسْتٌ ، وبيد الآخر إبريق ، فوضع الطِّست بين يدي رسول الله ﷺ فغسل فيه يدَه الكريمة من الإبريق ، ثمَّ أمر المَلَكين بمثل ذلك مع الجماعة ؛ أو أمر بمثل ما فعله هو حتى غَسَلوا أيديهم ، ثمَّ وضع الطست بين يديَّ ؛ فقال أحدهما للآخر : لا تصبَّ على يده ؛ فإنَّه ليس منهم . فقلتُ : يا رسول الله ؛ أليس قد رُوي عنك أنَّك قلت « اَلْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »[1] !! . فقال : بلىٰ . فقلت : أنا أحبُّك وأحبُّ هؤلاء الفقراء . فقال ﷺ : « صُبَّ عَلَىٰ يَدِهِ ، فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » حكماً .

فيه دلالـة على أنَّ صحبة العبد للأخيار تنفعه ؛ وإن لم يكن معهم في المنزلة .

العافية . . العافية : وحُكي عن بعضهم ـ وهو عمرُ الحمَّال ؛ كما يأتي ـ أنَّه كان يقول أبداً : دائماً (العافية . . العافية)! فقيل له : ما معنى هذا الدعاء ؟ فقال : كنت حمَّالاً في ابتداءِ أمري ، وكنت حملتُ يوماً صدراً : شيئاً ثقيلاً من الدَّقيق فوضعته لأستريح ، فكنت أقولُ : يا رب ؛ لو أعطيتني كلَّ يوم رغيفين من غير تعب . . لكنت أكتفي بهما ؛ ولم أعذِّب نفسي بهذا العمل . فإذا رجلان يختصمان ، فتقدَّمتُ أُصلِح بينهما ، فضرب أحدُهما رأسي بشيءٍ أراد أن يضرب به خصمه فدَميَ وجهي ، فجاء صاحب الرَّبع : المحلَّة . . وكان من أصحاب السُّلطان فأخذهما . فلما رآني ملوَّثاً بالدم . . أخذني أيضاً ، وظنَّ أنِّي ممَّن تشاجر معهما ، فأدخلني معهما السجن تأديباً ، فبقيت في السجن مدَّة طويلة . . أُوتىٰ كلَّ يوم برغيفين ، فرأيت ليلة في المنام قائلاً يقول لي : إنَّك سألته الرغيفين كلَّ يوم من غير نَصب : تعب . . ولم تسأل العافية !! فأعطاك ما سألت دونَ غيره !! فانتبهتُ وقلت (العافية . . العافية) فرأيت باب السجن يقرَعُ ؛ وقيل ـ: وقائل يقولُ لأهل السِّجن ـ أين عُمَر الحمال !؟ خلُّو سبيله . فأطلقوني وخَلَّوا سبيلي .

---

(١) تقدم تخريجه ص ٩٠٨ . . متفق عليه .

اختيار العبد : في ذلك دلالة على أنَّه ينبغي للعبد أن لا يختار لنفسه شيئاً ؛ كما فعل الحمَّال ، حيث كَرِه فيه من الحمل ، واختار غيرَه ، بل يرضى بكلِّ ما يُجريه الله عليه . وإن سأل !! فليسأل العافية في الدين والدنيا والآخرة .

العزم الأكيد : وحكي عن الكتَّاني ؛ أنَّه قال : كان عندنا رجلٌ من أصحابنا هاجت عينه : ثار وجعها ، فقيل له : ألا تعالجها؟! فقال : عزمت على أن لا أعالجها حتَّى تبرأَ بنفسها ، لعلمه بأن المداويَ والمبرىء هو الله تعالىٰ[1] .

قال : فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول : لو كان هذا العزم على أهل النار كلِّهم لأخرجناهم من النار به لصحَّته وقوَّته .

كلام موفَّق : وحُكي عن الجنيد أنَّه قال : رأيتُ في المنام كأنِّي أتكلَّم على الناس : أعظهُم ، فوقف عليَّ مَلَك في صورة آدمي ؛ وقال لي : أقربُ : أفضل ما تقرَّب به المتقرِّبون إلى الله تعالىٰ ماذا ؟! فقلت له : عملٌ خفيٌّ بميزان وَفيٍّ : بوقوعه على وجهه شرعاً قد اشتُهِر أنَّ عمل السرِّ يزيد على عمل العلانية بسبعين ضعفاً ؛ لكونه بين العبد وربِّه .

قال الجنيد : فولّى الملك عني ؛ وهو يقول : كلامُ موفَّقٍ ؛ والله .

في ذلك دَلالة على فضيلة الجنيد في العلم والعمل .

الورع والطمع : ومثله ما رُوي أنَّ الحسن البصري لمَّا دخل مكَّة رأى شاباً من أولاد الحسن بن علي قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فأراد أن يمتحنَه ؛ فقال : يا فتى ؛ ما ملاك الدين؟ فقال : الورع . فقال : وما آفته؟ فقال : الطمع . فقال : مثلك مَن يصلح أن يعظَ الناس . [انظر ص] .

معين الشيطان : وقال رجل للعلاء بن زياد : رأيت في المنام كأنَّك من أهل الجنة !! فقال لي : لعلَّ الشيطان أراد مني أمرا أعصي الله به ، فعُصمتُ منه ؛ فأشخص :

---

(١) التداوي غير واجب شرعاً بماشرتُه علىٰ سبيل الإلزام ، بخلاف الطعام ؛ إذ لو تركه المرء حتىٰ مات يأثم . . لا لو ترك التداوي ، وقوله ﷺ : « تَدَاوَوْا يَا عِبَادَ ٱللهِ ، فَإِنَّ الله مَا أَنْزَلَ دَاءً إلاَّ وَأَنْزَلَ لَهُ دواءً » !! للتوجيه الإرشادي .

أرسل إليَّ رجلا ؛ وهو أنت . . **يعينه على مقصوده من إضلالي** !! .

في ذلك دليل على حفظ العلاء من تلبيس إبليس ، وعدم انخداعه بالثناء عليه ، وهكذا ينبغي لكلِّ متَّقٍ أن لا ينخدع بذلك ، وإنَّه إذا جَرت على يده خوارقُ للعادات لا يعدُّها كراماتٍ إلا بعد النظر فيها ، وفيما يثمر من زيادة اليقين . . والحمل على الأعمال الصالحات .

ثمرة الحزن : **وقيل** : **رئي عطاءٌ السُّلَمي في المنام** . . **فقيل له** : **لقد كنتَ طويل الحزن** : على التقصير في حق الله تعالى !! **فما فعل الله بك**؟ ! **فقال** : **أما والله لقد أعقبني ذلك راحةً طويلة وفرحاً دائماً** . **فقيل له** : **ففي أيِّ الدرجات أنت** ؟ **فقال** ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ . . ﴾[1] .

أعلى الدرجات : **وقيل** : **رئي الأوزاعي في المنام** ؛ فقيل له : ما فعل الله بك؟ ! **فقال** : **ما رأيت هٰهنا درجةً أرفعَ من درجة العلماء** ، **ثمَّ درجة المحزونين** على التقصير في حقِّ الله ! وإنَّما يعلم ذلك مَن كَمُلت معرفتُه بعظمة الله وجلاله ، فكلُّ عمل عَمِله بعد ذلك ؛ وإن أتقنه وأحكمه . . يراه قليلاً حقيراً بالنسبة إلى جلال الله وعظمته .

عظة منامية : **وقال النِّباجي** : **قيل لي في المنام** : **مَن وَثق بالله في رزقه** . . **زيْد في حسن خلقه** ؛ لقلَّة حرصه على الدنيا ، وحسن معاملته في تصرُّفه حينئذ ، **وسمحت نفسُه في نفقته** ؛ لسهولة البذل عليه حينئذ ، **وقلَّت وساوسه في صلاته** ؛ لحُسْن توكُّله واعتماده على ربِّه حينئذ .

مغفرة بالنية : **وقيل** : **رُئيت زبيدةُ** (زوجة هارون الرشيد) **في النوم** ؛ **فقيل لها** : **ما فعل الله تعالى بكِ** ؟ **فقالت** : **غَفر لي** ! **فقيل لها** : **بكثرة نفقتك في طريق مكَّة** ؟! **فقالت** : **لا** ، **إنَّ أجرها** : الأموال التي أنفقتُها . . **عاد إلى أربابها** ، إذ الأموال السلطانية . . الغالبُ عليها أنَّها لم تؤخذ بوجه شرعيٍّ ، وأنَّها باقية على ملكِ أربابها . **ولكن غفر لي بنيَّتي** . يعني بقصدها للناس الخير وتيسيرها المياه والمنازل للحاجِّ والمسافرين .

---

(١) الآية : ٦٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

مطلب
في التصرُّف بأموال المجهولين

وفي ذلك إشارة إلى أنَّ الأموال إذا أُخذت من غير وجهها . . وتاب آخذها ؛ ولم يعرف أربابها ليردَّها إليهم . . تصرَف في جهات البرِّ ، ويكون أجرُها لأربابها ، وللصارف أجرُ طاعته ونيَّتِه ، وذلك بعد توبته وصدق نيَّته في أنَّه ما قَدِر على ردِّها إلى أربابها .

جواز صراط : ورئي سفيان الثوري في المنام ؛ فقيل له : ما فعل الله بك ؟! فقال : وضعت أوَّل قدميَّ على الصراط ، والثاني في الجنَّة .

هذا من التسهيل في جواز الصراط .

أحوال المجتازين : فإنَّ مِن الخلق ١ـ مَن يمرُّ عليه كالريح ، ومنهم ٢ـ مَن يمرُّ كالبرق كسفيان ، و٣ـ منهم مَن يمرُّ كالطير ، و٤ـ منهم من يمرُّ كشَديد الرجال ، و٥ـ منهم مَن يمشي ، و٦ـ منهم من يتعثَّر ! والعياذُ بالله !! .

دمعة خشية : وقال أحمد ابن أبي الحواريِّ : رأيت في النوم جارية من الحور العين . . **ما رأيتَ أحسن منها ؛ يتلألأ وجهها نوراً !! فقلت** لها : **ما أنورَ وجهَكِ !؟ فقالت** لي : **تذكُر الليلة التي بكيت فيها . فقلت : نعم . فقالت : حُمِلَتْ إليَّ دمعتُك** : قطرة من دمعك . . **فمسحتُ بها وجهي ؛ فصار وجهي هكذا** .

في ذلك دَلالة على فضيلة البكاء من خشية الله ، وأنَّ أجرَها عند الله عظيم .

قراءة بلا بكاء : وقيل : رأى يزيد الرقاشيُّ النَّبيَّ ﷺ في المنام ؛ فقرأ عليه شيئاً من القرآن . **فقال** : « **هٰذِهِ ٱلقِرَاءَةُ ؛ فأيْنَ ٱلبُكَاءُ** من خشية الله »!؟ .

فيه دلالة على أنَّ القراءة إذا صَحِبَها البكاء والخشوع . . كانت أفضلَ .

امتحان الجنيد : وقال الجنيد : رأيت في المنام كأنَّ مَلَكين نزلا من السماء ؛ فقال أحدهما لي : ما الصدق ؟ فقلت له : الوفاء بالعهد . فقال الآخر : صدق ، ثم صَعِدا إلى السماء .

مجـي الصدق : الصدق يكون غالباً في الأقوال ؛ فهو الإخبار بالشيء على ما هو عليه ، وقد يكون في صدق النية ؛ فهو قوَّة العزم حتَّى يقع الفعل المعزوم عليه ، وقد يكون في صدق الوفاء فيما عُوهد عليه من الأقوال والأفعال والنِّيَّات ؛ فهو الوفاء بما عُوهد عليه ، كما مدح الله قوماً بوفائهم العهد ؛ فقال ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ . . . ﴾[1] . وكلام الجنيد من هذا الأخير .

مدح الاعتدال : ورئي بشر الحافي في المنام ؛ فقيل له : ما فعل الله بك؟ فقال : غفر لي . وقال لي قبل أن غفر لي على وجه العتاب اللطيف : أما استحيتَ يا بشرُ منِّي ؛ حيثُ كنت تخافني كلَّ ذلك الخوف !؟ الذي يخشىٰ منه أن يكون قنوطاً؟ ! : فكان الأكملُ لك أن تخافني خوفاً معتدلاً برجائي ، فبشرٌ نظر إلى ذنوبه ؛ لا إلى أعماله الصالحة ، فنظر إلى بطش ربِّه ، وأخذه ، ولم ينظر إلى سعة رحمته وفضله ، فلو نظر كمالَ النظر . . اعتدل خوفه ورجاؤه .

إشارات القوم : وقيل : رئي أبو سليمان الداراني في المنام ؛ فقيل له : ما فعل الله بك ؟! فقال : غفر لي ، وما كان شيءٌ أضرَّ عليَّ في السؤال من إشارات القوم ؛ حيث فهمتُ منها غيرَ مرادهم ، أو حيث أوهمتُ غيري تخلُّقي بها وبأحكامها . . ولم أكن تمكَّنْتُ فيها !!

ضعيف اليقين : وقال عليُّ بن الموفَّق : كنتُ أفكِّر يوماً ؛ تغيَّرتْ فيه الأحوال والأسباب ؛ كتضييق الرزق وقلَّة المطر والسَّيْل . . في سبب عيالي والفقر الذي نزل بهم ، فرأيت في المنام رقعة فيها مكتوب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . . يا ابن الموفَّق ؛ أتخشىٰ الفقر . . وأنا ربُّك !؟ ﴾ عاتبه بذلك ! لكونه لم يعتمد عليه . فلما كان وقت الغَلَس أتاني رجلٌ بكيس فيه خمسةُ آلاف دينار ؛ وقال لي : خذها إليك ؛ يا ضعيف اليقين .

حيث لم تعتمد على الخالق ، وأرسل الله إليه هذا المال الكثير ليقوِّي به يقينه ، ويزيل عنه خوفَ الفقر بالكليَّة .

الكلام الحقُّ : وقال أبو القاسم الجنيدُ : رأيت في المنام كأنِّي واقف بين يدي الله

---

(١) الآية : ٢٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

تعالى ؛ فقال لي : ﴿ يا أبا القاسم ؛ مِن أين لك هذا الكلام الذي تقولـه ﴾؟!
فقلت له : لا أقول إلاَّ حقًّا . فقال لي ﴿ صَدَقْتَ ﴾

في ذلك تشريفٌ له ، ودَلالة على أنَّ جميعَ كلامه كان حقّاً .

هيئآت الأعمال : وقال أبو بكرٍ الكتَّانيُّ : رأيتُ في المنام شابّاً لم أرَ أحسنَ منه !
فقلت له : مَنْ أنتَ ؟ فقال : أنا التقوى هي اسمٌ جامع للأعمال الصالحة المقارنة للخوف والرجاء . فقلت له : وأين تسكن ؟ قال : أسكن في كلِّ قلبٍ حزين على التقصير في القيام بما ينبغي لربِّ العباد . لدلالة التقوىٰ على كمال الخشيةِ من الله ، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾[1] .

ثمَّ التفتُّ . . فإذا امرأة سوداءُ كأوحشِ ما يكون من النساء !! فقلت لها : مَنْ أنت؟ ! فقالت : أنا الضَّحِك . فقلت لها : وأين تسكنين ؟ فقالت : أسكن في قلب كلِّ فرح : مسرور مَرِح : شديد الفرح ، لدلالتهما على كمال الغفلة وتمكُّن القسوة ، قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾[2] . والمراد الفرحُ بالدنيا ، أمَّا الفرح بنعم الله ؛ وبما يَرِدُ منه من اللطف والبرِّ !! فمحمود ، قال تعالى ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[3] . قال : فانتبهتُ واعتقدت : عزمت على أن لا أضحكَ إلاَّ غَلبةً .

فيما ذكر دَلالة على أنَّ ما يُرىٰ ليس ذاتَ المرئيِّ ، وإنَّما هو صورةٌ ومثال ؛ كما مرَّ .

تارك الطريق : وحُكي عن أبي عبد الله ابن خفيف ؛ قال : رأيت رسولَ الله ﷺ في النوم كأنَّه قال لي : مَن عرف طريقاً إلى الله تعالىٰ مِن طرق عبادته يسلكُه . . ثم رجع : أعرض عنه عذَّبهُ الله عذاباً لم يعذِّبه أحداً من العالمين .

فيه دلالة على أن عذاب العالم على المعصية أشدُّ من عذاب الجاهل عليها .

يأس ورحمة : وقيل رُئي الشِّبليُّ في المنام ؛ فقيل له : ما فعل الله بك ؟! فقال :

---

(١) الآية : ١٢٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .
(٢) الآية : ٧٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : القصص .
(٣) الآية : ١٧٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

ناقشني حتَّى أيستُ من نفسي ، ففي الخبر : « مَنْ نُوقِشَ ٱلحِسَابَ عُذِّبَ »[١] .
فلما رأى إياسي تغمَّدني : غمرني برحمته وفضله ، قال تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾[٢] .

مقدار التقوى : وقال أبو عثمان المغربيُّ : رأيتُ في النوم كأنَّ قائلاً ؛ يقول : يا أبا عثمان ؛ اتَّق الله في الفقر ؛ ولو كانت التقوىٰ بقَدْر سِمْسمَة .

والمرادُ الفقر من المال ؛ أو إلى الله تعالى . . دون غيره : اتَّق الله في حال فقرك وضرورتك ؛ من تناول ما فيه شبهةٌ ، أو : اتَّق الله في أن لا تعتمد على غيره من الأسباب ؛ لئلا تكون كذَّاباً مدَّعيا لما ليس فيك .

وصية فَرَط : وقيل : كان لأبي سعيد الخراز ابنٌ مات قبلَه ؛ فرآه في المنام . . فقال له : يا بُنيَّ ؛ أوصني . فقال له : يا أبت ؛ لا تعامل الله على الجبن : قلَّة الشجاعة من الفتور والكسل في الطاعات . فقال له : يا بُنيَّ ؛ زدني في الموعظة . فقال له : لا تخالف الله تعالى فيما يطالِبُك به من الطاعات . فقال له : زدني . فقال : لا تجعل بينك وبين الله قميصاً : لا تقف مع شيء يحجبك عن طاعته ، فإنَّ : « حُبَّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ »[٣] فمتى أحببت شيئاً من الدنيا منعك حبُّه عن القيام بالمأمورات ، وأوقعك في بعض المحرَّمات ، وفوَّت عليك أعلىٰ الدرجات .
قال : فما لبستُ القميص ثلاثين سنةً ؛ لئلا يشغله ويُحجبه عن الطاعات .

دعاء وتنبيه : وقيل : كان بعضُهم يقول في دعائه (اللَّهُمَّ ؛ اَلشيءُ الذي لا يضرُّك وينفعنا . . لا تمنعه عنا) . في هذا إيهامُ أن ثَمَّ شيئاً يضرُّه تعالى ، وشيئاً ينفعُه . . وليس مراداً !!

فرأى في المنام كأنَّه قيل له : وأنت فالشيءُ الذي يضرُّك ؛ ولا ينفعُك . . فدعه : اتركه . نُبِّه في نومه بذلك على ما ينتفع به ؛ وهو امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه .

---

(١) متفق عليه . . البخاري : ٦٥٣٦ ، ومسلم : ٧٩ ـ ٢٨٧٦ ؛ عن عائشة بزيادة (يوم القيامة) ولفظ المؤلف عند أحمد : ٦/ ١٢٧ . والعجب من السيوطي حيث حكم عليه بالحسن في « الجامع الصغير » : ٩٠٦٨ ؛ بعد أن عزاه إلىٰ المتفق عليه عن عائشة !!
(٢) الآية : ٢١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النور .
(٣) تقدم تخريجه ص ٨٩٠ ، ٨٩٨ .

استقرار المقضيِّ : وحُكي عن أبي الفضل الأصبهانيِّ ؛ أنَّه قال : رأيت رسولَ الله ﷺ في المنام ؛ فقلت له : يا رسول الله ؛ سل الله أن لا يسلبني الإيمان . . بأن يختمَ لي بخير . فقال لي : « ذَلِكَ شَيْءٌ قَدْ فَرَغَ اللهُ مِنْهُ »[1] : قضاه وقدَّره في الأزل، فاعمل بما أمرك الله به ، واجتنب ما نهاك عنه من الخوف والرجاء .

مخوف إبليس : وحُكي عن أبي سعيد الخرَّاز أنَّه قال : رأيت إبليس في المنام ؛ فأخذتُ عصايَ لأضرَبه ليهربَ مني ، فقيل لي : إنَّه لا يفزع : يخاف من هذا ، إنَّما يفزع هذا من نور يكون في القلب !! مرادُه بالنور كمالُ معرفة الله تعالى ، وجمال مناجاته : فإن كَمُل نورُ قلبك . . خاف منك وهرب .

ففيه تحريضٌ له على كمال الشُّغْل بالله ، والإعراض عما سواه .

الهدايا المخمَّرة : وقال بعضهم : كنتُ أدعو لرابعةَ العدويَّةِ بعد موتها ، فرأيتُها في المنام ؛ تقول لي : هداياك تأتينا على أطباقٍ من نور . . مخمَّرة : مغطاة بمناديلَ من نور .

فيه تعريف للداعي ؛ بأن دعاءك لنا بإخلاصٍ يأتينا بركتُه على أحسن وجه .

مداواة كفيف : ويُروىٰ عن سِماكِ بن حرب أنَّه ؛ قال : كُفَّ بصري ؛ فرأيت في المنام كأنَّ قائلاً يقول لي ﴿ اِيتِ الفرات فاغتمس ـ وفي نسخة : فاغتسل ـ فيه ، وافتح عينيك ﴾ . قال : ففعلتُ فأبصرتُ .

هذا من جملة المداواة للأبصار ؛ إذا منعها من الرؤية بعض الغشاء اللطيف ، لأنَّ الماء الصافيَ إذا نزل الإنسانُ فيه ، وفتح عينيه تصرَّف منها من البخار ما كان يتوالى منه على محلِّ الإبصار والإدراك .

رتبة عبد : وقيل : رئيَ بشرٌ الحافي في المنام ؛ فقيل له : ما فعل الله بك ؟! فقال : لمَّا رأيتُ ربِّي عزَّ وجلَّ ؛ قال لي : ﴿ مَرْحَباً يَا بِشْرُ ؛ لَقَدْ تَوَفَّيْتُكَ يَوْمَ تَوَفَّيْتُكَ . . وَمَا عَلَىٰ ٱلأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ ﴾ .

فيه مدحٌ له وبيانُ مرتبته عند ربِّه ، ومزيَّته على العباد في زمنه . وفائدة ذلك أنَّ الرائي يزدادُ به عملاً في الطاعات .

---

(١) شواهده كثيرة .

٥٢ ـ باب الوصية للمريدين

قال الأستاذ الإمام القشيريُّ رضي الله عنه : لَمَّا أثبتنا طرفاً من سِيَر القوم ؛ وضمنا إلى ذلك أبواباً من المقامات والأحوال . . أردنا أن تختم هذه « الرسالة » بوصية للمريدين ، بل و لغيرهم . . نرجو من الله سبحانه حسن توفيقهم لاستعمالها ، وأن لا يحرمنا القيامَ بها ؛ ولا بمضمونها ، وأن لا يجعلها حجَّة علينا ؛

أول قدم : فأوَّل قَدَم للمريد في هذه الطريقة : طريقة الصوفية ينبغي له أن يكون بانياً أمره على الصِّدْق مع الله تعالى ، ليصحَّ له البناءُ على أصل صحيح ، فإنَّ الشيوخ قالوا : إنَّما حُرموا الوصول لتضييعهم الأُصول .

كذلك : هكذا سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله يقول .

تصحيح الاعتقاد : إذا تقرَّر ذلك . . فتجبُ البداية بتصحيح اعتقادٍ بينه وبين الله تعالى صافٍ عن الظُّنون والشُّبَه ؛ خالٍ من الضلالة والبدع ، صادرٍ عن البراهين والحجج ، وذلك لخبر : « إِنَّما ٱلأعْمَالُ بِٱلنِّيَّاتِ » ، وصحَّة الاعتقاد بموافقة ما عُرِف بالأدلَّة الصحيحة . ويقبُح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب من مذاهبِ مَن ليس من هذه الطريقة من الطرائق التي لا تجرُّ نفعاً .

وليس انتساب الصوفيِّ إلى مذهب من مذاهب المختلفين سوى : غيرِ طريقة الصوفية . . إلاَّ نتيجةَ جهلِهِم ـ الأنسب : جهله ـ بمذاهب أهل هذه الطريقة ، فإنَّ هؤلاء الصوفية حُجَجُهم في مسائلهم أظهرُ من حُجج كلِّ أحدٍ ، وقواعدُ مذهبهم أقوى من قواعدِ كلِّ مذهب .

أقسام الناس : والناس قسمان . . لأنَّهم إمَّا ١ـ أصحابُ النقل والأثر ، وإما ٢ـ أرباب العقل والفكر .

رتبة الصوفية : وشيوخ الطائفة هذه ارتقوا بعمارة بواطنهم بالأخلاق الحميدة

وبُعْدِهم عن الأخلاق الذميمة ، ومراقبتهم لربِّهم في أعمالهمعن هذه الجملة : جملةِ القسمَيْن . . فالذي هو للناس غيبٌ عن أعينهم . . فهو لهم ظهور[1] ، والذي هو للخلق من المعارف مقصودٌ . . فلهم : فهو لهم من الحقِّ سبحانه موجودٌ بلطف الله وفضله وكرمه ، فهم أهل الوصال . . والناسُ أهل الاستدلال ، وهم كما قال القائل :

لَيْلِي بِوَجْهِكَ مُشْرِقٌ وَظَلاَمُهُ فِي ٱلنَّاسِ سَارِ
وَٱلنَّاسُ فِي سُدَفِ ٱلظَّلاَ م جمع : سَدفة ؛ وهي : الظُّلمة
وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ ٱلنَّهَارِ .

ولم يكن عصر من الأعصار في مدَّة الإسلام الأوليَّة شيخٌ من شيوخ هذه الطائفة ممَّن له علوم التوحيد وإمامة القوم . . إلا وأئمةُ ذلك الوقت من العلماء استسلموا : انقادوا لذلك الشيخ ، وتواضعوا له وتبرَّكوا به ، ولولا مزيةٌ وخصوصية لهم ؛ يعني : للمشايخ عند أئمة ذلك الوقت . . وإلاَّ ! كان الأمر بالعكس . يعني : كانوا مستسلمين لأئمة ذلك الوقت . .

امتحان الراعي : هذا أحمد ابن حنبل كان عند الشافعي ؛ فجاء شيبان الراعي رضي الله عنهم ؛ فقال أحمد للشافعيِّ : أريد يا أبا عبد الله ؛ أن أُنبِّه هذا على نقصانِ علمه ليشتغل بتحصيل بعض العلوم التي يلزمه تحصيلُها . فقال له : لا تفعل ؛ لأنَّ الله لا يُخلي مثلَه عن ذلك . فلم يقنع منه بذلك . . فقال لشيبان : ما تقولُ فيمن نسِيَ صلاةً مِن خمس صلوات في اليومِ والليلة ؛ ولا يدري أيَّ صلاة نسيها !! ما الواجب عليه ، يا شيبان ؟ . فقال له شيبان : يا أحمد ؛ هذا قلبُ غَفَل عن مولاه ، فالواجب أن يؤدَّب حتَّى لا يغفل عن مولاه بعد !؟ قال : فغشي على أحمد من كلام شيبان حيث أثَّر فيه ! فلما أفاق . . قال له الشافعيُّ : ألم أقلْ لك لا تحرِّك هذا !! وشيبان الراعي كان أميَّاً منهم ؛ وقد أجرى الله على

---

(١) المعنىٰ أن ما غاب عن أعين غيرهم من أحكام الحقِّ تعالىٰ فهو لهم ظاهر ، وذلك بواسطة إشراق أنوار بصائرهم صارت الأحكام عندهم بعد تحققهم دليلاً وبرهاناً . . كشفاً وعياناً (عروسي : ٤/ ٢٠٥ بتصرف) .

لسانه الحقَّ حتَّى انتفع به العلماء[1] .

فإذا كان حال الأميِّ منهم هكذا . . فما الظنُّ بأئمَّتِهم ؟!! ولا ريبَ أنَّ مَن دام شغلُه بالله ؛ وبمراعاته أحكامه ، وباستشعار نظرِ الحقِّ إليه في سائر تصرُّفاته من حركته وسكونه .. كان أفضلَ من غيره ، وإن تساويا في العلم بالأصول والفروع .

الفقيه المشوِّش : وقد حُكي أنَّ فقيهاً من أكابر الفقهاء كانت حلقتُه بجنب حلقة أبي بكر الشبليِّ بجامع المنصور ؛ وكان يقال لذلك الفقيه « أبو عمران » ، وكان يتعطَّل عليهم : على أبي عمران وأصحابه حلقتَهم لكلام الشبلي برفع صوته !! فسأل أصحابُ أبي عمران يوماً الشبليَّ عن مسألة في الحيض وقصدوا بذٰلكَ إخجاله ! ويحتمل أنَّهم قصدوا أن يعلموا ما عنده في ذٰلكَ ، فذكر مقالات الناس في تلك المسألة والخلافَ فيها ، فقام أبو عمران وقبَّل رأس الشبليِّ ؛ لما عرف من فضيلته ، وقال له : يا أبا بكر ؛ قد ٱستفدتُ منك في هٰذه المسألة عشر مقالات . . لم أسمعها من غيرك !! وكان عندي من جملة ما قلتَ أنت فيها ثلاثةُ أقاويل ، فكان جملة ما قاله فيها ثلاث عشرة مقالة .

تسليم فقيه : وقيل : ٱجتاز أبو العبَّاس بن سريج الفقيهُ بمجلس الجنيد ؛ فسمع كلامه . . فقيل له : ما تقول في هٰذا الكلام الذي يقوله الجنيد !؟ فقال : ما أدري ما يقول ! ولكن أرىٰ لهٰذا الكلام صولةً : وثبةً ليست بصولة مُبْطِل .

حاصله : أنَّه سمعه يتكلَّم في الأحوال والمقامات ؛ فلم يفهمه . . ولم يشتغل به ، ومع ذٰلكَ غلب علىٰ ظنِّه صحَّتُه وصدقُهُ ؛ فلم يعترضه . وفيه دلالةٌ علىٰ فضيلته وإنصافه ، لتسليمه الحقَّ لأهله بحسب ما غلب علىٰ ظنِّه .

---

(١) لقاء شيبان بالشافعيِّ ، لا يثبت عند علماء الاصطلاح !! قاله السيوطي في « الدرر المنتثرة » .

فائدة: قال أبو العباس ابن تيمية : ما اشتهر من أنَّ الشافعيَّ وأحمد اجتمعا بشيبان الراعي وسألاه . . باطل باتفاق أهل المعرفة ، لأنهما لم يدركا شيبان !! وكذلك ما ذكر من أنه اجتمع بأبي يوسف عند الرشيد ، لأنه لم يجتمع بالرشيد إلا بعد موت أبي يوسف .

وقد ورد عند الخلَّال في « كرامات الأولياء » بتحقيقنا . وانظر ما تقدم ص١٠٠٦ .

حال التوحيد : وقيل لعبد الله بن سعيد بن كُلاَّب ـ وكان عالماً بعلم الكلام ـ : أنت تتكلَّم علىٰ كلام كلِّ أحد ، وهٰهنا رجلٌ يقال له الجنيد ، فانظر هل تعترضُ عليه ؛ أم لا ؟! فحضر حلقته ، فسأل الجنيدَ عن التوحيد ؛ فأجابه عن سؤاله ، فتحيَّر عبد الله[1] ؛ وقال له : أعدْ عليَّ ما قلتَ . فأعاده ، ولكن لا بتلك العبارة ! فقال له عبد الله : هٰذا شيء آخر لم أحفظه ! تعيده عليَّ مرة أخرىٰ !؟ فأعاده بعبارة أخرىٰ ، فقال له عبد الله : ليس يمكنني حفظُ ما تقول ! أَمْلِهِ علينا . فقال : إن كنت أجزتَه : سلكتَه ومشيتَ فيه . . فأنا أمليه عليك .

فقام عبد الله ؛ وقال بفضله ، وٱعترف بعلوِّ شأنه ؛ كما هو شأن العلماء الفضلاء أنَّهم يرجعون إلىٰ الحقِّ ، ويقرُّون بفضل مَن ٱمتاز عليهم .

وتقدَّم ص ٢٧٢ ، ٨٤٤ أنَّ علم التوحيد مباينٌ لوجوده وحاله ، فالذي كان يعلمُه عبدُ الله علمُ التوحيد ، والذي لم يفهمه وتكلَّم عليه الجنيد حالُ التوحيد . وكمالُه أن يشتغلَ بربِّه ، حتّىٰ يغيبَ عن قلبه مَن سواه .

فإذا كان أصولُ هٰذه الطائفة أصحَّ الأصول ، ومشايخُهم أكبرَ الناس ، وعلماؤهم أعلمَ الناس ، فالمريدُ الذي له إيمان بهم . . إن كان مِن أهل السلوك والتدرُّج إلىٰ مقاصدهم ؛ فهو يساهمهم فيما خصُّوا به من مكاشفات الغيب ، وهم أولىٰ الناس به ، لأنَّهم قد نالوا منازلهم وعرفوا درجاتِه ، فلا يحتاج المريدُ إلىٰ التطفُّل علىٰ مَنْ هو خارجٌ عن هٰذه الطائفة ، وإن كان مريداً طريقة الاتباع ، وليس بمستقلٍّ بحاله ، ويريد أن يعرِّج في أوطان التقليد إلىٰ أن يصل إلىٰ مقام التحقيق . . فليقلِّد سَلَفه في ذٰلكَ ، وليجرِ علىٰ طريقة هٰذه الطائفة ـ وفي نسخة : الطبقة ـ فهم أولىٰ به أيضاً كما قال . . فإنَّهم أولىٰ به مِن غيرهم .

تهمة العلم : ولقد سمعت الشيخ أبا عبد الرَّحمان السُّلَمي ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت الشِّبليَّ ؛ يقول : ما ظنُّك بعلمٍ . . عِلْمُ العلماء الذين لم يبلغوا درجة أهلِه : سماعهم له . . فيه تهمة ، لأنَّهم لم يفهموا مقاصد أهله ، فيقعوا فيما لا ينبغي فيتهِّمُهم غيرُهم .

---

(١) في (ح) زيادة « أبو » وهو غلط !!.

أشرف العلوم : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعتُ محمد ابن أبي علي المخرميَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله الفرغاني ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : **لو علمتُ أنَّ للهِ علماً تحت أديم السماء : وجهها . . أشرف من هٰذا العلم الذي نتكلَّم فيه مع أصحابنا وإخواننا الصوفية . . لسعيتُ إليه ، ولقصدتُّه لأنال فضيلته وبركته** .

تحصيل العلم : وإذا أحكم : أتقن المريد بينه وبين الله عقده : ٱعتقاداً صحيحاً ؛ فيجبُ أن يحصِّل لنفسه مِن علم الشريعة ؛

إمَّا : ١ـ بالتحقيق : بالأخذ من العلماء بالبحث والنظر في الأدلَّة .

وإمَّا ٢ـ بالسؤال عن ـ بمعنىٰ : من ـ الأئمَّة ما يؤدِّي به فرضه .

وإن ٱختلف عليه في جواب السؤال فتاوىٰ الفقهاء ؟! يأخذ منها بالأحوط ؛ كأن قال له واحد في طعام يأكله (حلال) ، وقال له الآخر (مكروه) . . فيأخذ بقول الثاني ، ويقصد بالأخذ بالأحوط **الخروجَ من الخلاف** .

تقليد المفضول : وهل يجوز تقليد المفضول ؟! فقيل : نعم . ورجَّحه ٱبنُ الحاجب . وقيل : لا . والمختارُ عند التاج السبكيِّ جوازُه لمن ٱعتقده أفضلَ من غيره ؛ أو مساوياً . بخلاف مَن ٱعتقده مفضولاً ، ولا يتتبَّعُ الرُّخَص في المذاهب ؛ بأن يأخذ من كلٍّ منها ما هو الأسهلُ فيما يقع من المسائل ، كما لا يأخذ الصوفيُّ إلاَّ بالأحوط كما مرَّ .

ترخُّص الصوفية : فإنَّ الرُّخَص في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغالِ ، وهؤلاء الطائفة الصوفية ليس لهم شغلٌ سوىٰ القيام بحقِّه سبحانه ! ولهٰذا قيل : إذا ٱنحطَّ الفقير عن درجة الحقيقة إلىٰ رخصة الشريعة . . فقد فَسَخ عقده مع الله تعالىٰ ، ونقض عهده فيما بينه وبين الله .

فالمحمود ملازمتُه من الأفضل ما يجد من نفسه القدرة علىٰ الدوام عليه ، وإن كان فيه بعض مشقَّة ، إذ أعمال الطاعات لا بدَّ فيها من مخالفة الهوىٰ ، ولكنَّه لا يكلّف نفسَه منها ما يثقل عليه جدَّاً ؛ خوفاً من نفور نفسه منها ، ومِن مخالفة خبر : « تَكَلَّفُوا مِنَ ٱلعَمَلِ مَا تُطِيْقُونَ ، فإِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا »[1] :

---

(١) وفي بعض الروايات عن عائشة « اكلفوا » . ذكرها ابن حجر في « فتح الباري » ١/ ١٠٢ . =

لا يقطع عنكم الجزاء حتَّىٰ تتركوا الأعمال ، فمتىٰ كانت همَّةُ المريد متعلِّقَةً بتحصيل الأفضل . . فهو عامل في ذٰلكَ علىٰ حسب طاقته ، فهو مستقيم لم يسقط عن درجته .

تأدُّب المريد : ثُمَّ يجب علىٰ المريدِ أن يتأدَّب في أعماله بشيخ يتَّخذه أستاذاً له ، فإن لم يكن له أستاذ ؟! لا يفلح أبداً ، لعدم معرفته الأحكام .

هٰذا أبو يزيد يقول: مَن لم يكن له أستاذٌ يأتمُّ به . . فإمامه الشيطان ؛ يوسوسُ له بما يهواه.

مثال المريد : وسمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنَّها تورِقُ . . ولكن لا تثمر ، كذلك المريد . . إذا لم يكن له أستاذٌ يأخذ منه طريقةً نَفَساً فنفساً ؛ فهو عابد مطيعٌ هواه لا يجد له نفاذاً يخرج منه .

سلوك المريد : ثُمَّ إذا أراد المريد السلوك . . فبعد هٰذه الجملة يجبُ أن يتوب إلىٰ الله من كلِّ زَلَّة ، فيدعُ : يترك جميع الزلاّت : سرَّها وجهرها ، صغيرها وكبيرها ، ويجتهد في إرضاء الخصوم أوَّلاً ، ومَن لم يُرضِ خصومه لا يفتح له من هٰذه الطريقة بشيءٍ يعتدُّ به ، لعدم تخلُّصه من حقوقِهم ؛ فيجبُ ردُّها لهم ؛ إن كانوا وإلاَّ ! فلورثتهم . وعلىٰ هٰذا النحو جَرَوا . .

قطع العوائق : ثُمَّ بعد هٰذا يعمل المريد في حذف العلائق والشواغل الدنيوية غير الضرورية ، فإنَّ بناء هٰذا الطريق : طريق الصوفية علىٰ فراغ القلب من العلائق ؛ وهي : ما يتعلَّق القلب به .

وعطفُ الشواغل عليها !! عطفُ تفسير .

شرط الصحبة : وكان الشبليُّ ؛ يقول : للحُصْري في ٱبتداء أمره : إن خطر ببالك : بقلبك من الجمعة إلىٰ الجمعة الثانية التي تأتينا ـ وفي نسخة : تأتيني . وفي أخرىٰ : تأتي ـ غيرُ الله أي : إذا سكن قلبُك إلىٰ غير الله . . فحرام عليك أن تحضُرَني : فلا تصحبني .

= ولفظ المتفق عليه .. البخاري : ١١٥١ ، ومسلم : ٢١٥ ـ ٧٨٢ ؛ عن عائشة بلفظ « . . . عَلَيْكُمْ مِنَ ٱلأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ ، فَإِنَّ ٱللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا . . » .

وفائدة قوله (من الجمعة إلىٰ الجمعة) تعليمُه ودوامُ ودِّه لما خطر له من ذٰلكَ ، فإنَّه إذا دام الودُّ . . قويَ القلبُ بما دام عليه .

طريق تركها : وإذا أراد المريد الخروج عن العلائق . .

حبُّ المال : **فأوَّلُها** : **الخروج عن حبِّ المال** : فضولِه ، **فإنَّ ذٰلكَ هو الذي يميل به عنِ الحقِّ ، ولم يوجد مريدٌ دخل في هٰذا الأمر** : **التصوف ؛ ومعه علاقة من الدنيا . . إلاَّ جرَّتْه تلك العلاقة عن قريب إلىٰ ما منه خَرَج .**

حبُّ الجاه : **فإذا خرج عن حبِّ المال ؛ فالواجب عليه الخروجُ من حبِّ الجاه أيضاً** : فضوله . **فإنَّ ملاحظة حبِّ الجاه مقطعةٌ عظيمة ، وما لم يستوِ عند المريد قبولُ الخلق وردُّهم له . . لا يجيءُ منه شيءٌ يعتدُّ به . بل أضرُّ الأشياء له ملاحظةُ الناس إيَّاه بعين الإثبات له والتبرُّك به ؛ لإفلاس غيره من الناس عن هٰذا الحديث** : **عن الملازمة والتبرُّك ، وهو بعدُ لم يصحِّح الإرادة . . فكيف يصحُّ أن يُتَبرَّك به !! فخروجُهم من حبِّ المال واجبٌ عليهم ؛ كخروجهم من حبِّ الجاه ، لأنَّ ذٰلكَ سمٌّ قاتل لهم .**

حب الرياسة : وإذا تخلَّص من هذين . . بقي عليه تخلُّصه من حبِّ الرِّياسة في كونه زهد في الدنيا ، فيكون قد زهد في أمر دنيوي وٱستعوض عنه ما هو أفضلُ منه في دينه ، فإن الزهَّاد جاهُهم أكملُ من جاهِ أبناء الدنيا ، والسلاطين فإنَّهم يذلُّون للزهَّاد ، ويقبِّلون أيديهم ويتبرَّكون بهم ، فمتىٰ شَرِبت النفس من هٰذا الغذاء جرعةً . . خُشِي عليها التَّلَفُ منها ، فإنَّ فيها من اللَّذة ما يدعو إلىٰ الزيادة ؛ لطيبها .

تصحيح العزم : **فإذا خرج عن حبِّ ماله وجاهه ورياستِه ؛ فيجب عليه أن يصحِّح عقده بينه وبين الله تعالىٰ ؛ وهو أن لا يخالف شيخه في كلِّ ما يشير عليه به ، فإن الخلاف للمريد في ٱبتداء أمره عظيمُ الضرر ، لأنَّ ٱبتداءَ حاله دليلٌ علىٰ جميع أحوال عمره .**

شرطه : ومن شرطه أن لا يكون له بقلبه ٱعتراضٌ علىٰ شيخه ، فإنَّه جعله سبباً بينه وبين ربِّه ، ووسيلةً له في نيل مرغوبه منه ، فليعزم علىٰ أن لا يتحرَّك ؛ ولا

يسكُن ، ولا يتصرَّف في شيءٍ حتَّىٰ يأذنَ له شيخه فيه ؛ وإن علم أنَّ ما يفعله مباح ، لأنَّ شيخه قد يرىٰ أنَّ تركه له أعونُ له علىٰ مقصوده .

ثمرة العبادة : **فإذا** ـ وفي نسخة : وإذا ـ **خطر ببال المريد أن له في الدنيا والآخرة قَدراً ؛ أو قيمة ، أو علىٰ بسيط الأرض أحدٌ دونه . . لم يصحَّ له في الإرادة قَدَم** ، لغيبوبة العاقبة عنه ، ولأنَّه يجبُ عليه أن يجتهد في الطاعات ليعرفَ ربَّه ؛ لا ليحصِّل لنفسه قَدْراً وجاهاً ، وفرقٌ بين مَن يريد الله وبين من يريد جاه نفسه ؛ إمَّا في عاجله ، وإما في آجله ! !

حفظ السرّ : **ثمَّ بعد أن صحَّح عَقْده بينه وبين الله يجب عليه حفظُ سِرِّه حتَّىٰ عن زِرِّه** القريب من فمه حين يضعُه في طَوْقه . . **إلا عن شيخه ، ولو كَتَم نَفَساً من أنفاسه عن شيخه ؛ فقد خانه في حقِّ صحبته** ، لأنَّ الشيخ قد ترك شُغْله مع مولاه في خاصَّته ؛ وعاهد الله أن يفرِّغ قلبه في صلاح هٰذا المريد ، فحقُّه أن لا يكتم عنه شيئاً ليفعل به ما يراه صلاحاً له ؛ من جوع وسهر . . أو غيرهما .

الإقرار للشيخ : **ولو وقعت له مخالفةٌ فيما أشار إليه به شيخُه ! ! فيجب عليه أن يُقرَّ له بما يقعُ له بين يديه في الوقت ، ثُمَّ يستسلمُ** : ينقاد **لما يحكم به عليه شيخه ؛ عقوبةً له** : يجبُ عليه أن يعترف له ليعاقبه **علىٰ مخالفته وجنايته ، إما بسفر يكلِّفُه له ، أو أمرِ ما يراه صلاحاً في حقِّه** ووظيفته معه ؛ كالعليل مع الطبيب . . لا يخرج عما يأمرُه به ؛ من الأدوية والأغذية والحِمْيَة .

مسامحة الشيوخ : **ولا يصحُّ** : لا ينبغي ولا يليق **للشيوخ التجاوزُ عن زلاَّت المريدين**[1] ، **لأنَّ ذٰلكَ تضييعٌ لحقوق الله** المطلوبة منه ومن المريدين ، ولأنَّ ذٰلكَ خروجٌ عمَّا ٱلتزموه لهم من القيام بحقوقهم ؛ والنظر فيما يصلحهم في سلوكهم ، فحقُّهم أن لا يتجاوزوا عن زلاَّتهم ؛ لا سيما في أوَّل أمورهم .

شرط التلقين : **وما لم يتجرَّد المريد عن** فُضول **كلِّ علاقة دنيوية . . لا يجوز لشيخه أن يلقِّنَه شيئاً من الأذكار** ، بل يجبُ عليه أن يقدِّم علىٰ ذٰلكَ **التجربةَ** : تجربته وٱمتحانه بالأعمال والأوراد الشاقَّة ، والصبر علىٰ الجوع ونحوه .

---

(١) انظر ما تقدم ص ٩٢٢ .

شرط التسليك : فإذا شهد قلبه للمريد بصحَّة العزم علىٰ ما ٱلتزمه . . فحينئذ يشترطُ عليه أن يرضىٰ بما يستقبله فْي هٰذه الطْريقة من فنون : أنواع تصاريف القضاء ، فيأخذ عليه العهد ؛ بأن لا ينصرف عن هٰذه الطريقة بما يستقبله من الضرر ، والذُّلِّ والفقر ، والأسقام والآلام ، وأن لا يجنحَ بقلبه إلىٰ السهولة ، و أن لا يترخَّص عند هجوم الفاقات وحصول الضرورات ، و أن لا يؤثِر الدَّعَة : السكون والوقوف ، وأن لا يستشعر الكسل والفتور ، وفرَّق بين الفترة والوقفة ؛ فإن وقفة المريد شرٌّ من فترته ، وقد بيَّنه بقوله :

الفترة والوقفة : والفرق بين الفترة والوقفة : أنَّ الفترة رجوعٌ وإعراض عن الإرادة والسلوك ، وخروجٌ منها ، وتركٌ لما هو فيه . والوقفة : سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل واستلذاذها ، وإذا استلذَّها لم ينتقل عنها لمحبَّته لها ، بخلاف الفترة . . فإنَّ صاحبها يرجىٰ له الرجوع إلىٰ ما كان عليه .

تعميم : وكلُّ مريد وقف في ابتداء إرادته . . لا يجيء منه شيءٌ يعتدُّ به ، لأنَّهُ يعتقد كمال نفسه واستحسان حاله ، فيبعد منه الانتقال إلىٰ ما هو أعلىٰ .

تلقين الذكر : فإذا جرَّبه شيخُه ؛ فيجب عليه أن يلقِّنه ذكراً من الأذكار . . علىٰ ما يراه له شيخُه مصلحةً في حقِّه . فيأمره أن يذكر ذلك الاسم الذي لقَّنه له بلسانه مدَّة بنيَّة امتثال أمر الله له بالذكر ، كما قال تعالىٰ ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[1] .

توجيه السالك : ثُمَّ بعد تلقينه الذكر يأمره أن يسوِّي قلبه مع لسانه ؛ فيقول له : أُثبت علىٰ استدامة هٰذا الذكر كأنَّك حاضر مع ربِّك أبداً بقلبك يسمع ذكرك ، ولا يجري علىٰ لسانك غيرُ هٰذا الاسم ما أمكنك . . دون ما لا يمكنك ؛ كوقت الصلاة وقضاء الحاجة .

الأدب بالمعاش : ثُمَّ بعد ذٰلكَ يأمره أن يكون أبداً في الظاهر علىٰ الطهارة ، وأن لا يكون نومه إلاَّ غَلَبَةً ، وأن يقلِّل من غذائه بالتدريج شيئاً بعد شيءٍ بأن يُنقِصَه كلَّ يوم لقمة لقمة ، بل ينقصه لقمةً ويستمرُّ عليها أيَّاماً ، ثُمَّ أخرىٰ ويستمرُّ عليها أيَّاماً؛ وهكذا حتَّىٰ يقوىٰ علىٰ ذٰلكَ الذي أمره به ؛ ويُخفَّ نومَه وينشط للعبادة .

---

(١) الآية : ١٥٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

وحدُّ ذٰلكَ ما أشار إليه خبرُ : «ثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»[1]

الترفق بالأمر : ولا يأمُره أن يتركَ عادته في الغذاء بمرَّةٍ : بالكلِّيَة ، يعني : دفعة واحدة ، فإنَّ ذٰلكَ يغيِّرُ مزاجه وأحواله ، وربَّما كان سببَ مرضه ؛ لا سيما مع دوام ذكره ، ولأنَّ في الخبر : « المُنْبَتّ ـ : الرجلِ المنقطع به في الطريق الذي حَمَّل دابَّته ما لا تطيقه فماتت ، فهو ـ لاَ أَرْضاً قَطَعَ ؛ وَلاَ ظَهْرَاً أَبْقَىٰ »[2] . أي : لا وصل إلىٰ مقصوده ، ولا دامت حياةُ دابَّته لينتفع بها .

الخلوة والعزلة : ثُمَّ بعد أمرِه بما ذُكِر يأمُرُه بإيثار الخلوة، والعزلة عن الناس، ويجعل المريد ٱجتهاده في هٰذه الحالة : حالة الخلوة والعزلة لا محالةَ في نفي الخواطر الدنيَّة : الخسيسة والهواجس : خواطر النفس الشاغلة عن حضور القلب .

الخلوة والوسواس : وٱعلم أنَّ هٰذه الحالة ؛ وهي إيثار الخلوة والعزلة . . قلَّما يخلو المريد في أوان : وقت خلوته في ٱبتداء إرادته من الوساوس في الاعتقاد ، لا سيما إذا كان في المريد كياسة قلب : صفاء به يقبل تلك الوساوس !! وقلَّ مريد لا تستقبله هٰذه الحالة ؛ وهي ٱبتلاؤه بالوساوس في ٱبتداء إرادته ، لأنَّ الشيطان يعلم أنَّه إذا شكَّكه في شيء من ذٰلكَ . . صار من حزبه ؛ فيوقعه في الخسران ، ألاَّ أنَّ حزب الشيطان هم الخاسرون ! .

وهٰذه الوساوس : الابتلاء بها من الامتحانات التي تستقبل المريدين في خَلَواتهم ، فالواجب علىٰ شيخه أنَّه إنْ رأىٰ منه كَياسة أن يحيله علىٰ تعلُّم الحجج العقلية ، فإنَّ بالعلم يتخلَّص لا محالة المتعرِّفُ مما يعتريه : ما يغشاه من الوساوس ، وإن تفرَّس شيخه فيه القوَّة والثبات في الطريقة : طريقة التصوف أَمَره بالصبر علىٰ المشاقِّ ؛ وٱستدامة الذكر حتَّىٰ يسطعَ : يرتفع في قلبه أنوار القبول ، ويطلع في سرِّه شموسُ الوصول ، وينشرح صدره بما يخلقه الله له مما يكمل به معرفَتُه ، ويقوىٰ به يقينُه ، ويضعف به خواطرُ الشيطان ،

---

(١) تقدم تخريجه ص ٨١ .

(٢) جزء من حديث طرفه : « إِنَّ هَذَا ٱلدِّيْنَ مَتِيْنٌ ، فَأَوْغِلْ فِيْهِ بِرِفْقٍ ، فَإِنَّ ٱلمُنْبَتَّ . . . » أخرجه البزار : ٧٤ ؛ عن جابر رضي الله عنه .

وعن قريبٍ . . إذا ٱمتثل به شيخه يكون ذٰلكَ السطوع والانشراح ، ولكن لا يكون هٰذا العلاج ؛ وهو الأمر بما ذُكِر إلاَّ لأفراد المريدين . فأمَّا الغالبُ منهم فالواجبُ أن تكون معالجتُهم بالردِّ إلىٰ النظر : الدليل ؛ وتأمُّلِ الآياتِ بشرط تحصيل شيء من علم الأصول علىٰ قدر الحاجة الداعية للمريد .

بلايا الوساوس : وٱعلم أنَّه يكون للمريدين علىٰ الخصوص بلايا من هٰذا الباب : باب الوساوس ، وذٰلكَ أنَّهم إذا خَلَوا في مواضعِ ذكرهم ؛ أو كانوا في مجالس السماع ؛ أو غير ذٰلكَ . . فيهجُس في نفوسهم ويخطر ببالهم أشياء منكرةٌ ؛ مع أنَّهم يتحقَّقون أنَّ الله تعالىٰ منزَّه عن ذٰلكَ ، وليس يعتريهم شبهةٌ في أنَّ ذٰلكَ باطل ، ولكن يدوم عليهم ذٰلكَ المنكر ، فيشتدُّ تأذِّيهم به ، حتَّىٰ يبلغَ ذٰلكَ حدّاً يكون أصعبَ شتمٍ وأقبحَ قولٍ وأشنعَ خاطر ؛ بحيث لا يمكن للمريد إجراء ذٰلكَ إلىٰ اللسان ، ولا إبداؤه : إظهاره لأحد ، وهٰذا أشدُّ شيءٍ يقعُ لهم .

ترك الهواجس : فالواجب عند هٰذا تركُ مبالاتهم بتلك الخواطر ، وٱستدامةُ الذكر والابتهال والالتجاء إلىٰ الله عزَّ وجلَّ بٱستدفاع ذٰلكَ عنهم ، وتلك الخواطر ليست من وساوس الشيطان ، وإنَّما هي من هواجس النفس : خواطرها ، فإذا قابلها العبدُ بترك المبالاة بها ينقطع ذٰلكَ عنه .

وقد جاء بعض الصحابة إلىٰ النَّبيِّ ﷺ : وقالوا : يقع في أنفسنا أمورٌ . . يودُّ أحدنا أن يخرَّ من السماء فتخطفه الطير . . ولا يقع له ذٰلكَ !! فقال : « أَوَجَدْتُمُوْهُ ؟» قالوا : نعم . قال : « ذٰلِكَ صَرِيْحُ الإِيْمَانِ »[1] ، يعني : ردُّهم لذٰلكَ وتألُّمهم وتمنِّيهم الموتَ ممَّا وقع لهم ، لا نفسُ الوسوسة ، وفي بعض طرق الحديث : « فيقول : مَنْ خَلَقَ كَذَا ؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا ؟ حتَّىٰ يَقُولَ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ ؟! فإذا كان ذٰلكَ فليستعذ بالله ولْيَنْتَهِ »[2] .

وحاصله : أنَّه إذا ضاق علىٰ المريد شيءٌ من ذٰلكَ . . ٱلتجأ إلىٰ الله فيه ، وٱستعاذ به ، وأعرض عن الفكرة فيه ، فإنَّ الله يُزيله عن قلبه ويقوِّي يقينَه .

---

(١) أخرجه مسلم : ٢٠٩ ـ ١٣٢ ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) تقدم تخريجه ص ٣٧٣ ؛ متفق عليه . . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ملازمة الإرادة : ومن أدب المريد ؛ بل من فرائض حاله أن يلازم موضعَ إرادته وسلوكه ؛ وهو الخلوةُ ، ليشتغل فيها بكمال المناجاة .

سفر المريد : وأن لا يسافر قبل أن تقبلَهُ الطريق : طريق الصوفية ، وقبل الوصول بالقلب إلىٰ الربِّ سبحانه ، فإنَّ السفر للمريد في غير وقته سمٌّ قاتل ، ولا يصلُ أحدٌ منهم إلىٰ ما كان يرجىٰ له بملازمة خلوته عند شيخه . . إذا سافر في غير وقته ، لأنَّه إن سافر بغير إذنه . . فظاهر ، أو بإذنه !! فذٰلكَ دليلٌ علىٰ أنَّه عنده لم يصلح لهٰذا الشأن . . وقد ٱمتحنه ؛ فلم يره أهلاً لما رغب فيه ، فأعرض عنه وتَرَكه . نعم إن تمكَّن في حاله . . وصار يأنس بربِّه في خلوته وجَلوته . . كان سفرُه زيادةً في تحقيق أحواله بكلِّ حال ، لما في بُعده عن الأوطان حينئذ من التوكُّل والرِّضا بما يُجريه الله عليه .

الإرادة للمريد : فإذا أراد الله تعالىٰ بمريد خيراً أثبته وقوّاه في أوَّل إرادته . وإذا أراد الله بمريد شرّاً ـ وفي نسخة : سوءاً ـ ردَّه إلىٰ ما خرج عنه من حرفته ؛ أو حالته ، لأنَّهُ لم يقبله . وإذا أراد الله بمريد محنةً وٱبتلاه ؟! شرَّده : طرده في مطارح غربته . هٰذا الذي ذكرناه من منع المريد من السفر محلُّه إذا كان المريدُ يصلح للوصول إلىٰ الأحوال الشريفة والأعمال السنيَّة .

المريدون الخدام : فأمَّا إذا كان شابّاً طريقته الخدمة في الظاهر بالنفس للفقراء وزيارة الصالحين والاقتداء بأعمالهم ؛ وهو أدونُهم في هٰذه الطريقة رتبةً !! فهو وأمثاله يكتفون بالترسُّم برسم أهل هٰذه الطريقة في الظاهر ، فينقطعون في الأسفار ، وغاية نصيبهم من هٰذه الطريقة حجَّاتٌ يحصِّلونها ، وزياداتٌ لموضع يرتحلون إليها ، ولقاء شيوخ بظاهر سلام فيشهدون الظواهر ، ويكتفون بما في هٰذا الباب من السير ، فهؤلاء الواجب لهم دوام السفر حتَّىٰ لا تؤدِّيْهِم الدَّعة : السكون والإقامة إلىٰ ٱرتكاب محظور ، فإنَّ الشابَّ إذا وجد الراحة والدَّعةَ . . كان في معرض الفتنة ـ وفي نسخة : الفترة ـ: معرضاً لها بميل نفسه إلىٰ التزوُّج وشغل قلبه بالأهل والولد والشهوات الدنيوية ، فالسفر لهؤلاء أَوْلىٰ لهم ، لأنَّهم يباشرون في كلِّ وقت من أحوال المشايخ علىٰ ٱختلاف آدابهم وعلومهم ومعاملاتهم لربِّهم ما ينتفعون به .

توسط المريد : وإذا توسَّط المريدُ جَمْعَ الفقراء والأصحابِ في بدايته ؛ فهو مضرٌّ له جدًّاً لمنافاته ما مرَّ ؛ من أنَّه مأمورٌ بملازمة الخلوة ؛ إن كانت ، وٱشتغاله بكمال المناجاة !! فكما أنَّه لا يسافر لا يخالط الناس . . فإن ٱمتحن واحدٌ بذٰلكَ ؛ بأن دعت إلىٰ خلطته بهم ضرورةٌ . . فليكن سبيله ٱحترامَ الشيوخ وتنزيلَهم منزلتهم في الحرمة والأدب . وسبيله الخدمةَ للأصحاب والأقران ، وتركَ الخلاف عليهم مع دوام الحذر منهم ، والخوف من فوات المطلوب ، وسبيله القيام بما فيه راحةُ فقير ؛ بأن يوافقه في أغراضه الجائزة . وسبيله الجهد في أن لا يستوحش منه قلبُ شيخ ؛ لما يرىٰ من سوء أفعاله .

صحبة الفقراء : ويجب أن يكون في صحبته مع الفقراء أبداً خصمَهم علىٰ نفسه ، ولا يكونَ خصمَ نفْسه عليهم ، فيقبل عذرهم ؛ ولا يقبل عذر نفسه ، لما يعرف من سوء أدبه . وأن يرىٰ لكلِّ واحد عليه حقّاً واجباً ليزيدَ في إكرامه ، ولا يرىٰ لنفسه حقّاً واجباً ، بل ولا مندوباً علىٰ أحد ؛ لئلا يطلب المكافأة عليه .

مخالفة الغير : ويجب أن لا يخالف المريد أحداً . . حيث لم تجب المخالفة ؛ وإن علم أنَّ الحقَّ معه ؟ يسكت ؛ لئلا يخجل من يحن معه ، ويظهر الوفاق لكلِّ أحد فيما تجوز الموافقة فيه ، وكلُّ مريد يكون فيه ضَحِك ولجاج : غضب ومماراة : مجادلة ؛ فإنَّه لا يجيءُ منه شيء يعتدُّ به في هٰذا الشأن .

جمع الفقراء : وإذا كان المريد في جمع من الفقراء ؛ إمَّا في سفر . . أو حضر !! فينبغي له أن لا يخالفهم في الظاهر ؛ لا في أكل ولا شرب ولا صوم ، ولا سكون ولا حركة ، بل يخالفُهم في الباطن ؛ كما قال بسرِّه وقلبِه ، فيحفظ قلبَه مع الله تعالىٰ ؛ خوفاً من ظهور ما يؤدِّي إلىٰ المقاطعة والمنافرة ، وإذا أشاروا عليه بالأكل مثلاً . . يأكل لقمة ؛ أو لقمتين ، ولا يعطي النفس شهوتها ؛ لئلا ينحلَّ عزمه فيما قصده من منفعته في الجوع .

عبادة المريد : وليس من آداب المريد كثرةُ الأوراد من الصلوات ونحوها في الظاهر ، وإنَّما أدبُه بكثرة شغله بذكره بلسانه وقلبه ، وملازمته للاسم الذي لَقَّنه له شيخُه ، فإنَّ القوم إنَّما هم في مكابدة إخلاء خواطرهم ومعالجة أخلاقهم ، ونفي الغفلة عن قلوبهم ، لا في تكثير أعمال البرِّ ؛ ككثرة صلاة الضحىٰ وصلاة الغفلة ،

والذي لا بدَّ لهم منه إقامة الفرائض والسنن الراتبة ، فأمَّا الزيادة من الصلوات النافلة المطلقة ونحوها!! فٱستدامة الذكر بالقلب مع اللسان أتمُّ لهم منها .

رأس ماله : ورأس مال المريد الاحتمالُ عن ـ بمعنىٰ : من ـ كلِّ أحد لما يصدر منه بطِيبة النفس ، وتلقِّي ما يستقبله بالرضا والصبر علىٰ الضرِّ والفقر ، وترك السؤال والمعارضة للناس في القليل والكثير فيما هو حظٌّ له ، ومَن لم يصبر علىٰ ذٰلكَ . . فليدخل معهم السوق ويكتسب الشهوات ككسبهم ، فإنَّ من ٱشتهىٰ ما يشتهيه الناس . . فالواجب عليه أن يحصِّل شهوته من حيث يحصِّلها الناس من كدِّ اليمين وعَرَق الجبين ، وإذا فعل ذٰلكَ . . خرج عن مقصوده بالكليَّة ، وأعرض عن طريقته بالجملة والعياذُ بالله .

ميزان الخلوة : وإذا ٱلتزم المريدُ ٱستدامة الذكر الذي لقَّنه شيخُه ، وآثر الخلوة ، فإن وجد في خلوته ما لم يجده قلبُه بدونها . . إمَّا في النوم ، وإمَّا في اليقظة ، أو بين اليقظة والنوم ، ومن خطابٍ يسمعـه ، أو معنىً يشاهده . . ممَّا يكون نقضاً : خرقاً للعادة ؟؟ فينبغي له أن لا يشتغل بذٰلكَ الذي وَجَدَ في خلوته البتَّة ، ولا يسكن إليه ، ولا ينبغي له أن ينتظر حصولَ أمثال ذٰلكَ ، فإنَّ هٰذه الأحوال كلَّها شواغلُ عن الحقِّ سبحانه ، وحجبٌ له عمَّا يرجوه من فضل الله في الاستقبال . ولا بدَّ له في هٰذه الأحوال من وصف ذٰلكَ : وصفها لشيخه ، فلا يكتم عنه شيئاً حتَّىٰ يصير قلبُه فارغاً من ذٰلكَ . . يتحمَّلُه شيخُه له عنه ، فإن كتم عنه شيئاً ربَّما ضرَّه ! .

سرُّ المريد : ويجبُ علىٰ شيخه أن يحفظ عليه سرَّه ويكتَم عن غيره أمرَه ؛ لئلا يبلغَه فيغترَّ به ، أو يعلم أن شيخه ٱستحسنه ؛ ولم يناصحه فيه . . فيفسد ظنُّه فيه ، بأنَّه لم يبالغ في نصحه وإرشاده ، ويصغِّر له ذٰلكَ في عينه : يزهِّده فيه ، ويأمره بالإعراض عنه ؛ لئلا يخشىٰ عليه الوقوف معه فيختلَّ عليه سلوكه ، فإنَّ ذٰلكَ كلَّه : تلك الأحوال التي يجدُها المريدُ كلَّها ٱختبارات له ، والمساكنة إليها مكر ! فليحذر المريدُ عن ذٰلكَ : عن سكونه إليها ، وعن ملاحظتها ، وليجعل همَّته فوقَ ذٰلكَ .

مضرَّة المريد : وٱعلم أنَّ أضرَّ الأشياء بالمريد ٱستئناسُه بما يُلقىٰ إليه في سرِّه من تقريبات الحقِّ سبحانه له ، ومننه عليه ؛ بأنِّي خصصتك بهٰذا ، وأفردتك عن

أشكالك : أمثالك ، فإنَّه : المريد **لو قال بترك هٰذا** الذي وجدناه بأنَّه تركه وأعرض عنه . . **فعن قريب يستخطف عن ذٰلكَ** ، ويفتح عليه بما هو أجلُّ منه وأدلُّ علىٰ الاستقامة لربِّه . . **بما يبدو له من مكاشفات الحقيقة** .

توجيه المريد : وبالجملة فعليه الصبر والإعراض عن أوائل الأمور حتَّىٰ يقوىٰ ويتمكَّن ، فإذا ظهر له ما هو أشرف من ذٰلكَ . . لم يلتفت إليه ، وتصير خوارق العادات عنده بعون ربِّه ، كأنَّها ممَّا تجري به العادات . . لا يقف معها ، ولا يلتفت إليها .

الهجرة للتأدُّب : **وشرح هذه الجملة المذكورة بإثباته في الكتب متعذِّر** ، لأنَّ مواجيد القلوب لا تنحصر بالعبارة ، وإنَّما يشار إليها إشارة ، وكلُّ ما يكون في الكتب لا بدَّ أن تحصره العبارة ليفهم .

الهجرة للتأدب : **ومن أحكام المريد أنَّه إذا لم يجد مَن يتأدَّب به في موضعه أن يهاجر إلىٰ مَن هو منصوب في وقته لإرشاد المريدين** ، إذ لا بدَّ للمبتدىءِ من شيخٍ يقتدي به فيلزمه السعي إليه .

ترك الإذن : **ثُمَّ** : بعد أن يهاجر إليه **يقيم عليه ، ولا يبرح عن سُدَّته** : باب دارهِ إلىٰ **وقت الإذن** له في ذٰلكَ ، فإن خرج بغير إذنه ؟ فقد نقض عزمه ، وأفسد علىٰ نفسه ما أراده من السلوك إلىٰ أرفع الدرجات ، وخرج عن هٰذه الرُّتبة ، وٱلتحق بالعوامِّ[1] الذين ليس لهم في الطريق سوىٰ زيارة أماكن ولقاءِ مشايخ ، وٱستماع كلام وحصول بركة . . من أفواههم ، وهؤلاء مع نفوسهم وأغراضهم ، وشأنهم زيارة المشايخ وقصد الأماكن الشريفة !! كما يأتي في كلامه .

ترتيب الواجب : **وٱعلم أنَّ تقديمَ معرفةِ ربِّ البيت علىٰ زيارة البيت واجبٌ** ، لأنَّ تعظيم البيت إنَّما هو لتعظيم ربِّه ، كما نبَّه عليه بقوله : **فلولا معرفة ربّ البيت . . ما وجبت زيارة البيت** .

الخارجون بلا إذن : **وأمَّا الشُّبَّان الذين يخرجون إلىٰ الحجِّ ، ثُمَّ زيارة البيت من هؤلاء القوم** ـ يعني : الفقراء حيث يخرجون ـ **من غير إشارة الشيوخ !! فهي** :

---

(١) تقدمت الإشارة إليهم ص ١٠٧١ (المريدون الخدام) .

سفرتهم إنَّما هي **بدلالات نشاط النفس** ـ وفي نسخة : النفوس ـ **فهم متوسِّمُون** ـ وفي نسخة : مترسِّمون ـ **بهٰذه الطريقة** : طريقة الصوفية : مظهرون علىٰ أنفسهم علامتها . **وليس سفرُهم مبنيّاً علىٰ أصل مرضيٍّ** .

هجر النفوس : **والذي يدلُّ علىٰ ذٰلكَ أنَّه لا يزداد سفُرهم** بهٰذا الوجه . . **إلاَّ وتزداد تفرقةُ قلوبهم !** لكونه بغير إذن الشيوخ ، **ولو أنَّهم ٱرتحلوا من عند أنفسهم** : خرجوا عن حظوظها **ولو بخطوة** واحدة . . **لكان أحظىٰ** : أعلىٰ منزلة **لهم من ألف سفرة** إلىٰ ما ذُكر علىٰ الوجه المذكور .

شرط الزيارة : **ومن شرط المريد إذا زار شيخاً** ؛ أو مسجداً ، أو معظَّماً . . **أن يدخل عليه بالحرمة والأدب ، وينظر إليه بالحشمة** ليُنيلَه الله بركته . **فإنْ أهَّله الشيخُ لشيء من الخدمة** ؛ أو العبادة التي رآها مصلحةً في حقِّه . . **عدَّ ذٰلكَ من جزيل النعمة** في حقِّه ، فليغتنمه ، فإنَّه أتاه علىٰ وجه الفتح من الله .



* فصل *

عصمة الشيوخ : ولا ينبغي للمريد أن يعتقد في المشايخ العصمة ؛ وإن كانوا محفوظين !! لأنَّ ذٰلكَ يخالف الواقع ، ولأنَّهُ يؤدِّي إلىٰ نُفرتِه منهم ؛ وعدم ٱنتفاعه بهم . . إذا صدر منهم ذنب .

العصمة والحفظ : والفرق بين العصمة والحفظ : أنَّ العصمة تمنع من جواز وقوع الذنب، والحفظ لا يمنع منه ؛ لكن الله يحفظ من يشاء ، ويترك من يشاء ، لأنَّ الأولياء لا يقدح زللهُم في قواعد الدين ، بخلاف الأنبياء ، فإنَّ المعجزة دلَّت علىٰ عصمتهم فيما يخبرون به عن الله تعالىٰ ، وفيما يفعلونه بياناً للتكاليف .

تحسين الظن : فعُلم أنَّه ليس للمريد أن يعتقد العصمة في المشايخ . . بل الواجبُ عليه أن يَذَرهم : يتركهم وأحوالهم ، **فيحسِّن بهم الظنَّ** فيما يراه حقّاً ، ويمسك عمَّا رآه خطأً ، فإن أراد أن يزيله من صدره ؛ فليسألهم عنه ، ويورده علىٰ وجه السؤال ؛ لا علىٰ وجه الاعتراض ، لئلاَّ يمنعوه الجواب ، وكذا إذا أراد أجابوه بجواب لم يشفِهِ ، فلا يورد السؤال علىٰ وجه الاعتراض ، بل يقول لهم (ما فهمتُ) ، فإنَّهم يكرِّرونه له إن شاء الله بعبارة أقربَ من ذٰلكَ .

ٱلتزام الحدود : ويراعي مع الله تعالىٰ حدَّه : يقف عنده فيما يتوجَّه عليه من الأمر والنهي ، والعلمُ بأحكام الله تعالىٰ كافيهِ في التفرقة بين ما هو محمودٌ . . وما هو معلول : مذموم .

* * *

* *

*

* فصل *

المريد والدنيا : وكلُّ مريد بقي في قلبه لشيء من عُروض الدنيا مقدارٌ وخَطَر . فٱسم الإرادة له مجازٌ ، لوجود النقص فيه بذٰلكَ . وإذا بقي في قلبه ٱختيارٌ فيما يخرج عنه مِن معلومه الدنيويّ . . فيريد أن يخصَّ به نوعاً من أنواع البرِّ : جهة من جهاتها ، أو شخصاً دون شخص ، فهو متكلِّفٌ في حاله ، وبالخطر الحاصل بذٰلكَ يُخشىٰ عليه أن يعود سريعاً إلىٰ الدنيا ؛ فلا يخصُّ بذٰلكَ عمارة مسجد ؛ ولا رباط ؛ ولا فقيراً من أهله . . أو غيرهم!! لأنَّ قصد المريد في حذف العلائق المُشغلة لقلبه الخروجُ منها ليتفرَّغ لما هو بصدده من خلوص قلبه لربِّه ، وكمال شُغله به عن غيره ، لا السَّعيُ في أعمال البرِّ ، فإذا خرج من الدنيا وأعرض عنها . . فليُعرض عنها إعراضاً كليّاً ؛ حتَّىٰ لا يبقىٰ لنفسه بها تعلُّق ولا اختيار ، فإنَّ ذٰلكَ أفرغُ لقلبه ، وأعونُ له علىٰ غرضه ، فمقصوده من ذٰلكَ زوالُ المُشغلات ؛ لا تحصيل المبرَّات .

قباحة المريد : وقبيح بالمريد أن يخرج هو من معلومه : من رأس ماله وقُنْيَتِهِ[1] ، ثُمَّ يكون أسيرَ حرفة دنيويَّة غير ضرورية ؛ لأنَّ ذٰلكَ يَشغل قلبَه ويمنعه أَرَبه[2] .

منافسة المريد : وينبغي أن يستويَ عنده وجود ذٰلكَ المعلوم وعدمُه ؛ حتَّىٰ لا ينافر لأجله فقيراً ؛ ولا يضايق به أحداً ؛ ولو مجوسيّاً[3] ! ويكون الأَوْلىٰ به تعوُّد الصبر حتَّىٰ يكونَ فقرُهُ وصبرُه رأسَ ماله ، فيكون حالُه كما قيل :

إذا ٱفْتَقَرُوا عَضُّوا عَلَىٰ ٱلفَقْرِ ضِنَّةً   وَإِنْ أَيْسَرُوا عَادُوا سِرَاعَاً إلىٰ ٱلفَقْرِ

---

(١) القنية : ما يقتنيه لحوائجه الضرورية أو الكمالية .
قال العروسي ٢/ ٢١٩ : أي مما كان القلب متعلقاً به .

(٢) حاجته .

(٣) وذلك لأجل أن تنتفي عنه الحظوظ ، لا من أجل احترام المجوسيِّ (عروسي : ٢/ ٢٢٠) .

* فصل *

شاهد السعادة : وقبول قلوب المشايخ للمريد أصدقُ شاهد لسعادته وفلاحه ، لأنَّ شيخه لا يزنُه بهواه ، لأنَّه فارغ منه ، وإنَّما يزِنُه بميزان الشريعة .

ومَن ردَّه قلبُ شيخ من الشيوخ . . ولم يقبله فلا محالة أنَّه يرىٰ غِبَّ : عاقبة ذٰلكَ ؛ ولو بعد حين ! لأنَّ ردَّ قلبه إنَّما هو من ردِّ الشريعة له ، فحقُّه أنَّه إذا ردَّه أن يتذلَّل لربِّه ويستغيث ويُديم البكاء علىٰ نفسه ، لينقله ربُّه عمَّا هو عليه من الفساد ، ويسلُك به طريقَ التوفيق والسداد .

رقم الشقاوة : ومن خُذل بتركِ حرمةِ الشيوخ ؛ فقد أظهر رَقْم : علامة شقاوته ، وذٰلكَ لا يخطىء كما هو معلوم ، ومَن دخلَ علىٰ شيخٍ ليختبِرَه فهو جاهل ، فإنَّ الشيوخ لا يُختبَرون ، ولا يُطلب منهم الكلام علىٰ الهواجس والمكاشفات ، وإنَّما يُراد منهم معرفةُ الأمراض والأدواء والمكاشفات من أحوال المريدين ؛ لا من أحوال المشايخ العارفين .



* فصل *

أصعب الآفات : ومن أصعب الآفات في هٰذه الطريقة صحبةُ الأحداث : الشباب .

العبد المهان : ومَن ٱبتلاه الله بشيء من ذٰلكَ : مما ذكر من صحبتهم التي يخشىٰ منها الفتنة . . فبإجماع الشيوخ ذٰلكَ الذي ٱبتُلي بما ذُكر عبدٌ أهانه الله تعالىٰ وخذَلَه ، بل عن نفسه شَغَله ، ولو بألف ألف كرامة أهَّله ! ،

وَهَب : ٱحسب وٱفرض أنَّه بلغ رتبة الشُّهَداء : الذين يشاهدون الصانع في مشاهدتهم صنعتَه كرؤيتهم الشباب ، لما في الخبر الذي فيه تلويحٌ بذٰلكَ ، كخبر : « ولاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِٱلنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ » . أليس شُغل ذٰلك القلب بمخلوق مستحسناً له !!

تهوين المعصية : وأصعب من ذٰلكَ تهوينُ ذٰلكَ علىٰ القلب حتَّىٰ يعدَّ ذٰلكَ يسيراً مع أنَّه عظيم ؛ وقد قال الله تعالىٰ ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾[1] . وهٰذا الواسطيُّ رحمه الله ؛ يقول : إذا أراد الله هَوَان عبد ألقاه إلىٰ هؤلاء الأنتان والجِيَف . . يعني الشباب .

وصية الأبدال : سمعت أبا عبد الله الصوفيَّ ؛ يقول : سمعتُ محمد بن أحمد النجار ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله الحصري ؛ يقول : سمعتُ فتحاً المَوْصليَّ ؛ يقول :

صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يُعَدُّون من الأبدال كلُّهم أوصوني عند فراقي إيَّاهم ؛ وقالوا لي : اِتَّقِ معاشرةَ الأحداث ومخالطتَهم . لأنَّها تدعو إلىٰ سُمُوم اللحظات إلىٰ الوجوه المستحسنات ، وخواطر الشيطان الداعية إلىٰ المحرمات .

معرفة الأبدال : والأبدال قومٌ صالحون لا تخلو الدنيا منهم ؛ إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه آخر ، وعددهم سبعةٌ ؛ علىٰ خلاف فيهم ! .

ممتحن نفسه : قال الإمام القشيريُّ : ومَن ٱرتقىٰ في هٰذا الباب : بابِ صحبة

---

(١) الآية : ١٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النور .

الأحداث عن حالة الفسق ؛ بأن صَحِبَهم لا للفسق ، بل لتعليمهم العبادات والآداب ، ولامتحان نفسه . . هل ٱرتفعت عن هٰذا العالم الشهواني ؛ فيكون ذٰلكَ شاهداً له بموت شهواته ؛ أوْ لا ؟! فيكون ذٰلكَ شاهداً عليه .

بلاء الأرواح : **وأشار مَن ٱرتقىٰ عن ذٰلكَ إلى أنَّ ذلك** : ما ذكر من صحبة الأحداث **من بلاء الأرواح** ، **وإلى أنَّه لا يضرُّ** المريد ، **وإلىٰ ما قالوه** ـ الأنسب : ما قاله ـ **مِن وساوس القائلين بالشاهد** للصانع بمشاهدته لصنعته الجميلة ، **ومن إيرادِ حكاياتٍ عن بعض الشيوخ لما** ـ وفي نسخة : بما ـ **كان الأَوْلىٰ بهم إسبال السَّتْر علىٰ هَنَاتهم** : قبائحهم ، **وآفاتهم الصادرة منهم** ، **فذٰلكَ** منه **نظير الشِّرك وقرين الكفر** ، فإنَّه يؤدِّي إلىٰ ٱستحلال ما عُلم تحريمه بالإجماع ، وإلىٰ جعل ما ليس بطاعةٍ طاعةً .

فقوله (من ٱرتقىٰ) مبتدأٌ ، خبره (فذٰلكَ) إلىٰ آخره .

باب الخذلان : **فليحذر المريد من مجالسة الأحداث ومخالطتهم** ، **فإنَّ اليسير منه** : مما ذُكر من مجالستهم ومخالطتهم **فتحُ باب الخذلان**؛ وهو : خلق قدرةِ المعصية . **وبدءُ حال الهجران** ، **ونعوذ بالله من قضاءِ السوء** : من قضاء الله به .



* فصل *

آفة الحسد : **ومِن آفات المريد ما يتداخل النفس : ما يدخل فيها من خفيِّ الحسد وجليِّه للإخوان ، ومن التأثُّر بما يفرد الله تعالىٰ به أشكاله : أمثاله من هٰذه الطريقة** : طريقة الصوفية ، **وحرمانه** : والتأثُّر بحرمان الله **إيَّاه ذٰلكَ** الذي أفرد به أشكاله ، **وليعلم المريد أنَّ الأمورَ قِسَم** ؛ جمع قِسْم . . : حظٌّ ونصيب قد قَسَمها الله في الأزل ، فإيَّاك أن ترميَ أحداً رفع الله درجته فتتمنَّىٰ زوالها عنه ؛ فتقعَ في الحسد الذي هلك به إبليس ، لَمَّا رأىٰ ما فتح الله به علىٰ آدم عليه الصلاة والسلام .

تعريفُه : وحقيقته تمنِّي العبد زوالَ النعمة الحاصلة لغيره ، وكراهةُ حصول النِّعمة الممكنة له ، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وقد تُسمَّىٰ المنافسة في الخير « حسداً » ، كما في خبر : « لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي ٱثْنَتَيْنِ . . ١ـ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمَاً فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ ، و٢ـ رَجُلٌ آتَاهُ مَالاً فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ وَيَصْرِفُهُ فِي وُجُوهِ ٱلْخَيْرِ »[1] . وهٰذا في الحقيقة غبطٌ ؛ لا حسد ، لأنَّه لا يتمنَّىٰ زوال ذٰلكَ ، وإنَّما يتمنَّىٰ أن يكونَ له مثلُه .

دواءه : **وإنَّما يتخلَّصُ العبد عن هٰذا** : الوقوع في الحسد **باكتفائه بوجود الحقِّ** تعالىٰ ، **وقدمه عن مقتضىٰ جوده ونعمه عليه ، فكلُّ مَن رأيت أيُّها المريد أنَّه قد قدَّم الحقُّ سبحانه رتبَتَه عنده عليك** . . **فٱحمل أنت غاشيته** ؛ يعني : كن له خادماً كما يكون حاملُ غاشية المركوب خادماً له ، لتنال بذٰلكَ ما ناله ، وإيَّاك أن تحسُدَه ؛ فيرجعَ ضررُ حسدك عليك !! **فإنَّ الظرفاء من القاصدين للوصول إلىٰ الله علىٰ ذٰلكَ** : علىٰ القول بأنَّ المريد ينبغي له أن يكون خادماً لمن ذكر . . **ٱستمرَّت سنَّتُهم** : طريقتهم .

* * *

---

(١) تقدم تخريجه ص ٥٠٢ .

* فصل *

إيثار المريد : **وٱعلم أنَّ من حقِّ المرِيد إذا ٱتَّفق وقوعُه في جمع** من الناس وشيخُهم واحدٌ **إيثارَ الكلِّ بالكلِّ** : إيثار المريد كلاًّ منهم علىٰ نفسه . . بكلِّ ما معه ؛ وإن كان محتاجاً إليه . **فيقدِّم** المريد **الجائعُ الشبعانَ علىٰ نفسه** ليتعوَّد الأخلاق الحميدة ؛ ويرتفع في الدرجات الجليلة ، **ويتلمذ لكلِّ مَن أظهر عليه التشيُّخ** : **أنَّه** شيخٌ له ؛ **وإن كان هو أعلمَ منه** . . فليتواضع له ، ويتفهَّم منه ما يشير به إليه ، ويكون معه في صورة التلميذ له ، **فإنَّه** في مقام أن يتعلَّم ويتخلَّق ، فلا يناسبُه الترفُّع علىٰ أحد ؛ حفظاً لحاله ، وتمكُّناً من مقامه .

شرطه : **ولا يصل إلىٰ ذٰلكَ إلاَّ بتبرِّيه عن حوله وقوَّته** ، **وتوصُّلُه إلىٰ ذٰلكَ** إنَّما يكون **بطَوْل الحقِّ** تعالىٰ : بفضله ، **ومِنَّته** : نعمته .



* فصل *

سماع المريد : وأمَّا آداب المريد في السماع الخالي عن المحرَّمات !!

فالمريد لا نسلِّم له الحركةَ في السماع : لا يُمكَّن منها بالاختيار منه البتَّةَ ، لما فيها من الرياء والعجب .

فإن ورد عليه واردُ حركةٍ . . قوي عليه ؛ فقام ولم يكن فيه فضل قوَّة يدفع ذٰلكَ الوارد . . فبمقدار الغَلَبة : غلبة الوارد عليه يُعذَر ، فإذا زالت الغلبة عنه !! يجب عليه القعود والسكون لزوال عذره ، فإن ٱستدام الحركة مستحلياً للوجد من غير غلبةٍ وضرورة . . لم يصحَّ سماعه لعدم سكونه ؛ بغير غلبة . . فإن تعوَّد ذٰلكَ وٱستمرَّ عليه ؟! بقيَ متخلِّفاً : متأخِّراً عن أصحابه . . لا يكاشِف بشيء من الحقائق ؛ فغاية أحواله حينئذ أن يطيب قلبُه ، ويتزايد طربه برؤية نفسه وغيره .

الحركة والإشارة : وفي الجملة إنَّ الحركة تأخذ قوَّة من كلِّ متحرِّك ؛ وتنقص شيئاً من حاله ؛ مريداً كان ، أو شيخاً . . إلاَّ أن تكون حركتُه بإشارة ناشئة من الوقت ؛ بأن يكون في المجلس من الصادقين مَن غلب عليه حاله ، وٱقتضىٰ الوقتُ القيام ؛ إجلاله وعوناً له علىٰ حاله ، أو غلبة تأخذه عن التمييز ؛ بأن يغلب عليه حالُه بحيث لا يميِّز ، فإن كان الذي وَرَد عليه الوارد مريداً . . وقد أشار عليه الشيخ بالحركة ؛ فتحرك علىٰ إشارته : لأجلها ؟ فلا بأس بذٰلكَ . . فإذا كان الشيخ ممَّن له حكم علىٰ أمثاله : بأن يكون ممَّن له ٱطلاعٌ علىٰ باطنه .

مساعدة الفقراء : وأمَّا إذا أشار إليه الفقراء بالمساعدة لهم في الحركة . . فليساعدهم في القيام ، وفي أداء ما لا يجدُ منه بدّاً مما يراعىٰ عن ـ بمعنىٰ « في » ـ الاستيحاش لقلوبهم ، لأنَّ أحوالهم تتزايد برؤية بعضهم بعضاً ، وكلُّ ذٰلكَ بشرط السلامة مما يخالف الشريعة . . من رياء وعُجْب ونحوهما .

ثُمَّ إنَّ صدقه في حاله . . يمنع قلوب الفقراء من سؤالهم له عند المساعدة معهم ؛ يعني : لا يحوجهم إلىٰ ذٰلكَ ، بل يساعدهم بغير سؤال منهم .

طرح الخرقة : وأمَّا طرح الخرقة من المريد . . إذا طاب عيشه ووجده في السماع !! فحقٌّ المريد أن لا يرجع في شيء خَرَجَ منه البتة ، لخبر : « الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْعَائِدِ في قَيْئِهِ » . ولأنَّ ذٰلكَ أمارة غلبته وصدق قيامه وحركته . اللهمَّ ؛ إلاَّ أنْ يشير عليه شيخٌ بالرجوع فيه ! فيأخذه ليوافقه ظاهراً ؛ حفظاً لقلبه ، لكنَّه إنَّما يأخذه علىٰ نيَّة العارية بقلبه ! ثُمَّ بعد أن يأخذه يخرج عنه بعده ؛ من غير أن يستوحش قلبُ ذٰلكَ الشيخ حيث وافقه ظاهراً .

موافقة القوم : وإذا وقع بين قوم . . عادتُهم في السماع طرحُ الخرقة للقوَّال أو غيره ؛ اختياراً إذا طاب عيشهم ووَجْدُهم ، وعُلم منهم أنَّهم يرجعون فيها عادة !! فإن لم يكن فيهم شيخ . . يجب عادة حشمتُه وحرمته : مراعاتهما . . وكانْ طريق هٰذا المريد أن لا يعود في الخرقة !! فالأحسن له أن يساعدهم في الطرح ، ثُمَّ يُؤثِر به القوَّال ، لكونه كان سبباً لما حصل من الوجد الصحيح ، ولا يرجع فيه علىٰ عادته . . إذا رجعوا هم فيها : في خرقهم .

اِتخاذ الأسباب : وإن لم يطرح معهم . . فإنَّه يجوز له عدمُ الطرح . . إذا علم من عادة القوم أنَّهم يعودون فيما طرحوا ، فإنَّ القبيح إنَّما هو سنَّتُهم : طريقتهم وعادتهم في العود إلىٰ الخِرَق ؛ لا مخالفته لهم ، علىٰ أنَّ الأولىٰ له الطرح معهم علىٰ الموافقة لهم ، ثُمَّ ترك الرجوع فيه .

اِحراج القوَّال : ولا يسلم للمريد البتَّةَ التقاضي : الطلب علىٰ ـ بمعنى « من » ـ القوَّال : لا ينبغي له أن يطلب منه تكرار ما أنشده ، لأنَّ صدق حاله يحمل القوَّال علىٰ التكرار ، ويحمل غيرَه علىٰ الاقتضاء : الطلب من القوَّال ، مع أنَّ اقتضاءه منه مضرٌّ له ، يفرق عليه ما حصل من أوائل الوجد ، ويُخشىٰ عليه دخولُ آفة الرياء عند عدم الغلبة ، فصبره إلىٰ أن يظهر عليه ما يوجب للقوَّال التكرار أَوْلىٰ به !! وربَّما حرَّك حَاله وصبره من في المجلس ممَّن يصحُّ له الاقتضاء ؛ علىٰ أنْ يقتضي التكرار ؛ ويحصل له مقصوده مع السلامة .

إعانة المريد : ومن تبرَّك بمريد غلب عليه حاله ووجده !! فقد جار : مال عليه ، لأنَّه ربَّما يضرُّه ويُفسِد عليه حالَه ؛ لقلَّة قوته علىٰ دفع الرياء والعجب . فالواجب علىٰ المريد ترك تربية الجاه غير الضروري عند مَن قال بتركه وإثباته : ومَن قال بإثباته ؛ لئلاَّ يدخله الرياء والعجب .

* فصل *

في تقلب منازل المريدين

حلُّ السفر : وإنْ ٱبتلي مريدٌ بجاهٍ غير ضروري ، أو معلوم كذٰلكَ ، أو صحبة حَدَثٍ : شابٍّ ـ أو ميل إلىٰ ٱمرأة ، أو ٱستنامة : سكون إلىٰ معلوم دنيوي . هٰذا يغني عنه ما مرَّ آنفاً ؛ وليس هناك شيخ يدلُّه علىٰ حيلة يتخلَّص بها من ذٰلكَ ! ! فعند ذٰلكَ حلَّ له السفر والتحوُّل عن ذٰلكَ الموضع ، فذٰلكَ أولىٰ به من الإقامة ليشوِّش ـ يعني : لئلاَّ يشوِّش ـ علىٰ نفسه تلك الحالة ـ وفي نسخة : الحالات ـ أمَّا الجاه والمعلوم الضروريَّان ! فلا هروب منهما ، لأنَّهما يدفعان الأذىٰ ويقوِّيان علىٰ الطاعة .

ولا شيءَ أضرُّ بقلوب المريدين من حصول الجاه غير الضروري لهم قبل خمود بشريَّتهم ، لأنَّهُ يورث قساوة القلب .

العلم والمنازل : ومن آداب المريد أن لا يسبق علمه في هٰذه الطريقة : طريقة الصوفية منازلته : منزلته . . من مقام وحال ؛ بأن لا يتكلَّم في المقامات العالية بمحض العلم حتَّىٰ يبلغها ؛ أو ينالها . وإلاَّ لتوهَّمت نفسه أن منازلته حصلت ، وليس كذٰلكَ ! ! وإنَّما حصل علمُه بها ، وإلىٰ ذٰلكَ أشار بقوله :

التعلم والتحقق : فإنَّه إذا تعلَّم سِيَرَ هٰذه الطائفة : الصوفية ، وتكلَّف الوقوف علىٰ معرفة مسائلهم وأحوالهم قبل تحقُّقه : ٱتصافه بها : بالمنازلة والمعاملة مع الله بعد وصوله إلىٰ هٰذه المعاني : المنازلات .

تجهيل العارف : ولهٰذا قال المشايخ : إذا حدَّث العارف عن المعارف والعلوم . . فجهِّلُوه فإنَّ الإخبار إنَّما هو عن المنازل ؛ دون المعارف والعلوم . ومَن غلب علمه منازلته ! ! فهو صاحب علم لا صاحب سلوك وإرادة ، إذ لا يلزم من تصوُّر الشيء حصولُه ، ولا عكسه .

* * *

* فصل *
في تصدُّر المريدين

تصدُّر المريدين : ومن آداب المريدين أن لا يتعرَّضوا للتصدُّر للتعليم وجذب القاصدين إلىٰ الله تعالىٰ لضعفهم ، فيخشىٰ عليهم الهلاك ؛ لجهلهم بطريق الرياضة ، ولأنَّهم في مقام مَن يتعلَّم ؛ لا مَن يُعلِّم .

المريد والخلق : ومن آداب المريد أن يكون لهم : للخلق تلميذاً ومريداً ؛ لا شيخاً ومراداً. فإنَّ المريد إذا صار مراداً للخلق لينتفعوا به . . قبل خمود بَشَرِيَّته وسقوط آفته عنه ؛ فهو محجوب عن الحقيقة ، لا ينفع أحداً إشارته ، و لا تعليمُه ، لعدم أهليته لما دخل فيه .

المريد وشيخه : ومِن آدابه أن لا يتبع من المشايخ إلاَّ مَن يقع له في قلبه حرمتُه وهيبته ، ويعلم أنَّه يؤدِّبه ويهديه ؛ وأنَّه أعلمُ منه بالطريق .

* * *

* فصل *
في خواطر الفقراء

ٱمتثال الخاطر : وإذا خدم المريدُ الفقراءَ . . فخواطرُ الفقراء رسلُهم إليه ، فلا ينبغي أن يخالف المريد ما حكم به باطنه عليه . . من الخلوص في الخدمة ؛ وبذل الوسع والطاقة فيها ، لأنَّهُ تعالىٰ إنَّما يُجري عليهم ما يوافقهم ، فأيُّ شيء وقع في قلب المريد فحقُّه أن يخدمهم به ، فإنَّه مرادهم ، وهو مراد الله منه ، فإنَّه تعالىٰ يخلق لهم ما أحبُّوه وٱختاروه .

* * *

* فصل *
في خدمة الفقراء

المريد والخدمة : ومن شأن المريد إذا كانت طريقتُه خدمةَ الفقراء الصبرُ علىٰ جُفَاء القوم معه ، وأن يستحقر نفسه عن الخدمة ، وأنَّه لا يصلُح لها ؛ وإن كان كاملاً فيها ، ويُعلم أنَّ ما هو فيه من بركة خدمته لهم ، وإذا لم يكن صبوراً . . لم ينل سيادة الخادمين ، كما قيل (سَيِّدُ القَوْمِ خَادِمُهُم)[1] .

البذل والتقصير : وأن يعتقد أنَّه يبذل روحه في خدمتهم ؛ ثُمَّ لا يحمدون له أثراً ، فيعتذر إليهم مِن تقصيره فيها ، ويُقرُّ بالجناية : ويُقرُّ لهم علىٰ نفسه بالجناية عليهم ؛ تطييباً لقلوبهم ، وإن علم أنَّه بريءُ الساحة منها .

أذىٰ المخدومين : وإذا زادوه في الجفاء !! فيجب أن يزيدَهم في الخدمة والبرِّ .

مثل المريد : سمعت الأستاذ الإمام أبا بكر ابن فُوْرَك رحمه الله ؛ يقول : إنَّ في المَثَل (إذا لم تصْبر علىٰ ضرب المطرقة ؛ فلماذا كنت ـ وفي نسخة : تكون ـ سَنَدانا !!)

وفي معناه أنشدوا :

رُبَّمَا جِئْتُ لأُسْلِفَهُ العُذْ ... رَ لِبَعْضِ ٱلذُّنُوْبِ قَبْلَ ٱلتَّجَنِّي

أي : الجناية ، فإنَّه إذا رأىٰ نفسه أنَّها لا تصلُح للخدمة ، ثُمَّ وقع منه تقصير . . كان ٱعتذاره سابقاً لجنايته وتقصيره .

* * *

* *

*

(١) انظر ما تقدم ص ٦٥٥ .

* فصل *
في أسس التصرف

حفظ الشريعة : وبناء هٰذا الأمر : التصوف ومِلاَكه ؛ وهو : ما يقوم به علىٰ حفظ آداب الشريعة وصون اليد عن المدِّ ؛ أي مدِّها إلىٰ الحرام والشبهة ، وحفظ الحواسِّ عن المحظورات : المحرمات ، وعدّ الأنفاس مع الله سبحانه لينكفَّ عن الغفلات ؛ بأن يعبد الله كأنَّه يراه ، وهو مقام الإحسان . وأن لا يستحلَّ مثلاً سِمسمةً فيها شبهةٌ في أوان الضرورات ؛ فكيف عند الاختيار ووقت الراحات !!

دوام المجاهدة : ومِن شأن المريد دوامُ المجاهدة في ترك الشهوات ، فإنَّ مَن وافق شهوتَه عَدِم صفوتَه ؛ أي خالصه لاشتغاله بغير ربِّه .

أقبح الخصال : وأقبحُ الخصال بالمريد رجوعُه إلىٰ شهوةٍ تركها لله تعالىٰ . كلُّ ذٰلك مأخوذ من خبر :

« مَا تَقَرَّبَ ٱلْمُتَقَرِّبُوْنَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَاٱفْتَرَضْتُ عَلَيْهِم » .

* * *

* *

*

* فصل *
في عهود المريدين

حفظ العهد : ومن شأن المريد حفظُ عهوده مع الله تعالىٰ ، قال تعالىٰ ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾[1] ، فإنَّ نقض العهد في طريق الإرادة لأهل الباطن كالردَّة عن الدين لأهل الظاهر ؛ من حيث إنَّ كلاًّ منهما يحتمل علىٰ مَن ٱتصف به ما سبق له من أحواله ومقاماته ، قال تعالىٰ ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2] .

ٱبتداع عهد : ولا ينبغي للمريد أن يعاهد الله تعالىٰ علىٰ شيء بٱختياره . . ما أمكنه فعلُه بغير معاهدة ، فإنَّ في لوازم الشرع ما يستوفي منه كلَّ وسع : كلَّ ما في الوسع بغير معاهدة . قال الله تعالىٰ في صفة قوم ﴿ٱبْتَدَعُوهَا : الرهبانية ؛ وهي رفضُ النِّساء وٱتخاذ الصوامع مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ : ما أمرناهم بها إِلَّا : لكن فعلوها ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ ثمَّ قال ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[3] إذ تَرَكها كثيرٌ منهم ؛ وكفروا بدين عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ، ودخلوا في دين ملكهم !!

* * *

* *

*

---

(١) الآية : ٩١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .

(٢) الآية : ٧٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

(٣) الآية : ٢٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحديد .

* فصل *
في أمل المريد

وِمن شأن المريد قِصَرُ الأمل ، فإنَّ الفقير ٱبنُ وقته ؛ لا ٱلتفات له إلىٰ ماضٍ ، ولا إلىٰ مستقبل . . فإذا كان له تدبيرٌ في المستقبل وتطلُّع لغير ما هو فيه من الوقت الحاضر ، وأَمَل : رجاء فيما يستأنفه !! لا يجيءُ منه شيء يعتدُّ به ، فقِصَرُ الأمل ينفع المطيع والعاصي ؛

أمَّا المطيع !! فلخوفه أن يقطع عليه الموت ما يؤمِّلُه من الخيرات ؛ فيجدُّ في الطلب ويُعرض عن كلِّ سبب .

وأمَّا العاصي !! فلأنَّه إذا ٱستشعر هجوم الموت تخلَّص ممَّا هو فيه من الآثام ، وندم علىٰ ما كان فيه من الإجرام .

* * *

* فصل *
في كسب المريد

وِمن شأن المريد أن لا يكون له ـ وفي نسخة : معه ـ معلوم دنيوي فاضلٌ عن كفايته ؛ وإن قلَّ ، لا سيِّما إذا كان بين الفقراء الذين تجرَّدوا لله ، فإنَّ ظُلمة المعلوم تطفىءُ نور الوقت ـ وفي نسخة : القلب ـ لما في ذٰلكَ من الاعتماد علىٰ غير الله اللازمِ له فواتُ التوكُّل والتفويض .

* * *

* فصل *
في صحبة النسوان

ومن شأن المريد بل من طريقة سالكي هذا المذهب : مذهب الصوفية ؛ وإن لم يكن مريداً ! ترك قبول رفق النسوان : إكرامهن له ، فكيف التعرُّض لاستجلاب ذلك منهُنَّ !! لأن الإكرام سبب عظيم في المحبَّة ؛ والشرع ملتفت إلىٰ المباعدة بين الرجال والنساء ، ولأن رفقهنَّ لا يخلو عن شبهة غالباً لاحتمال أنَّه من مال أزواجهنَّ ؛ أو مَن في حِجرهنَّ ؛ أو نحوه !

وعلىٰ هذا الحكم درج شيوخهم : الصوفية وبذلك نفذت وصاياهم .

ومن استصغر هذا الحكم فعن قريب يلقىٰ ما يفتضح به عند الله وعند خلقه .



* فصل *
في صحبة المريد

المريد وأهل الدنيا : ومن شأن **المريد التباعدُ عن أبناء الدنيا ، فإنَّ صحبتَهم سُمٌّ مجرَّب ، لأنَّهم ينتفعون به وهو ينتقضُ بهم** ! ولأنَّه يسمع منهم ضدَّ مقصوده.

قال الله تعالىٰ ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ **وإنَّ** : ولأنَّ **الزهَّاد يخرجون المال عن** ـ وفي نسخة : من ـ **الكيس** ؛ **تقرُّباً إلىٰ الله تعالىٰ** ، **وأهلُ الصفا يُخرجون الخلق والمعارف من القلب** ؛ **تحقُّقاً** بالله عزَّ وجلَّ . . بحيث لا يبقىٰ فيه غيرُه ، ولأنَّه يُخشىٰ عليه مِن صحبته لهم أن يرجع عمَّا عَزَم عليه من الخير ، ويملك حبُّ الدنيا قلبَه بالكليَّة ، فيحصل فيه كلُّ شرٍّ ، و« لو كانت الدنيا تَزِنُ عند الله جناح بعوضة ما سقىٰ كافراً منها شربة ماء »[1] ، فبُعده منها ومن أهلها أسلمُ له في دينه ؛ ما دام ضعيفاً ، فإذا تمكَّن الزهد من قلبه ؛ وقويت رغبتُه في الخير ؛ وكَمُلت معرفته . . لا يبالي بصحبتهم ، فإنَّ زهده ومعرفته يحفظانه من جانب الميل إلىٰ ما هم فيه ، بل ربَّما يُعرض بهما عن جمال الآخرة وشهواتِها ؛ فضلاً عن الدنيا وسائر لَذَّاتها .

* * *

* *

*

---

(1) يشير إلىٰ ما أخرجه الترمذي : ٢٣٢٠ ، وابن ماجه : ٤١١٠ ، وأبو نعيم : ٣/ ٢٥٣ ، والضياء في « المختارة » ؛ عن سهل بن سعد رضي الله عنه : « لَوْ كَانَتْ ٱلدُّنْيا تَعْدِلُ . . . » .

خاتمة
وصية المريد

فهٰذه وصيتنا للمريدين . نسأل الله الكريم لهم التوفيق ؛ وهو : خلقُ قدرة الطاعة. وأن لا يجعلها : الوصية وبالاً : وخمة علينا .

وقد نجز : أنقضىٰ إملاء هٰذه الرسالة في أوائل سنة ثمان وثلاثين وأربع مئة . ـ وفي نسخة : بعد هٰذا ـ.

نسأل الله أن لا يجعلها علينا حجَّة ووبالاً ، إنَّ الفضل منه مألوف ، وهو بالعفو موصوف .

قال سيِّدنا ومولانا شيخ مشايخ الإسلام مؤلِّف هٰذا الشرح ـ فسح الله تعالىٰ في قبره ـ: هٰذا آخر ما أردنا إيراده من « شرح رسالة » الإمام العارف بالله تعالىٰ القشيري بتاريخ : رابع عشر جمادىٰ الأولىٰ ؛ سنة ثلاث وتسعين وثمان مئة . جعله الله خالصاً لوجهه الكريم وغفر لنا ذنوبنا ، إنَّه هو الغفور الرحيم ، والصلاة والسلام علىٰ أكرم عباده : محمَّد وآله وصحبه . . كلَّما ذكره الذاكرون ، وغَفَل عن ذكره الغافلون ، وسلام علىٰ المرسلين .

والحمد لله ربِّ العالمين(*)

(*) تمَّ بحمد الله تعالىٰ وحسن توفيقه وجميل عنايته ضبطُ ورَقْم وعنونةُ هٰذا **الكتاب النفيس المبارك** مع شرحه الفائق الرائق في مجالسَ كثيرةٍ آخرها ضحىٰ يوم الأربعاء الواقع ١٨/ ٥/ ١٤١٩ الموافق لـ ١٢/ ٩/ ١٩٩٨ ، وكان جميعه تقريباً في معتَكَفي من جامع المهدي . سائلاً الله تعالىٰ القبول ؛ إكراماً لسيِّدنا ومولانا رسول الله ﷺ بعدد كلِّ معلوم وفتح كلِّ مفهوم .

وأسأل الله تعالىٰ أن ينفعني به ، وأن يجعل مثل ثوابه في صحائف مشايخنا وأساتذتنا ووالدينا وأهلينا وذرِّياتنا وأحبابنا ومحبِّينا ، إنَّه علىٰ ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . . نعم المولىٰ ونعم النصير . والحمد لله ربِّ العالمين .

عبد الجليل العطا البكري

الفهارس



فهرس الأحاديث النبوية[1]

---

(١) اقتصرت على فهارس الأحاديث النبوية والأشعار للحاجة ، وأعرضت عن غيرها للاستغناء .

* * *

* * *

فهارس الأشعار

* *

(١) اقتصرت بترتيب الياء الساكنة على أبجدية الحرف الذي قبلها .



فهـرس الموضـوعـات(١)

للجزء الثاني

٢٠ـ باب البر

٢١ـ باب المراقبة

---

(١) فصلت فهرس الموضوعات لكل جزء على حدة ، بينما ضممت فهارس الإحاديث والأشعار في اخر الكتاب لعدم ضرورة الفصل .

٢٢ـ باب الرضا

٢٣ـ باب العبودية

٢٤ـ باب الإِرادة

٢٥ـ باب الاستقامة

٢٦ـ باب الإخلاص

٢٧ـ باب الصدق

٢٨ـ باب الحياء

٢٩ ـ باب الحرية

٣٠ـ باب الذكر

٣١ ـ باب الفتوة

٣٢ ـ باب الفراسة

٣٣ ـ باب الخُلُق

٣٤ ـ باب الجود والسخاء

٣٥ ـ باب الغيرة

٣٦ ـ باب الولاية

٣٧ ـ باب الدعاء

٣٨ ـ باب الفقر

٣٩ ـ باب التصوف

٤٠ ـ باب الأدب

٤١ ـ باب أحكامهم في السفر

٤٢ ـ باب الصحبة

٤٣ ـ باب التوحيد

٤٤ ـ باب أحوالهم عند الخروج من الدنيا

٤٥ ـ باب المعرفة بالله

٤٦ ـ باب المحبة

٤٧ ـ باب الشوق

٤٨ ـ باب حفظ قلوب المشايخ وترك الخلاف عليهم

٤٩ ـ باب السماع

٥٠ ـ باب كرامات الأولياء

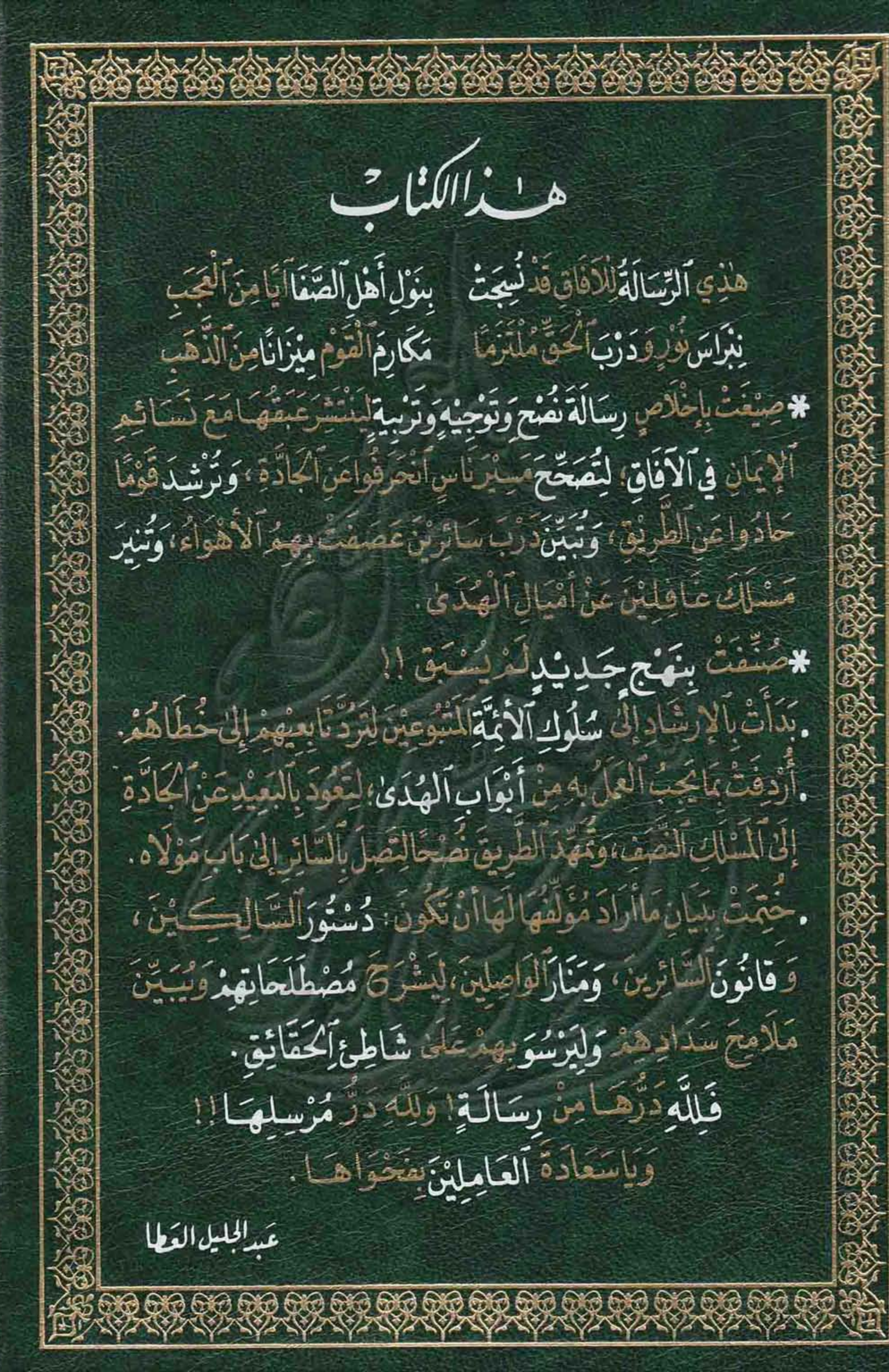
٥١ ـ باب رؤيا القوم في النوم

٥٢ ـ باب الوصية للمريدين

* * *

* * *





هذا الكتاب

هذي الرِّسالةُ للآفاقِ قد نُسِجتْ ... بِنَوْلِ أهلِ الصَّفا آيًا مِنَ العَجَبِ

نِبراسَ نورٍ ودربَ الحقِّ مُلتزِمًا ... مكارِمَ القومِ ميزانًا مِنَ الذَّهَبِ

* صِيغَتْ بإخلاصٍ رسالةَ نُصْحٍ وتوجيهٍ وتربيةٍ لِيَنتشرَ عبقُها مع نسائمِ الإيمانِ في الآفاقِ؛ لِتُصحِّحَ مسيرَ ناسٍ انحرفوا عن الجادَّةِ، وتُرشِدَ قومًا حادُوا عن الطَّريقِ، وتُبيِّنَ دربَ سائرين عصفَتْ بهمُ الأهواءُ، وتُنيرَ مسلكَ غافلين عن أميالِ الهُدى.

* صُنِّفَتْ بِنَهْجٍ جديدٍ لم يُسْبَقْ !!

. بدأَتْ بالإرشادِ إلى سُلوكِ الأئمَّةِ المتبوعين لتردَّ تابعيهم إلى خُطاهُم.

. أُردِفَتْ بما يجبُ العملُ به من أبوابِ الهُدى؛ لِتعودَ بالبعيدِ عن الجادَّةِ إلى المسلكِ النَّصَفِ، وتُمهِّدَ الطَّريقَ نُصحًا لِتَصِلَ بالسَّائرِ إلى بابِ مولاه.

. خُتِمَتْ ببيانِ ما أرادَ مؤلِّفُها لها أن تكونَ: دُستورَ السَّالكين، وقانونَ السَّائرين، ومنارَ الواصلين، لِيَشرحَ مُصطلحاتِهم ويُبيِّنَ ملامحَ سَدادِهم، ولِيَرْسُوَ بهم على شاطئِ الحقائقِ.

فَلِلَّهِ دَرُّها مِن رسالةٍ! ولِلَّهِ دَرُّ مُرسِلِها!!

ويا سعادةَ العاملين بِفَحْواها.

عبد الجليل العطا